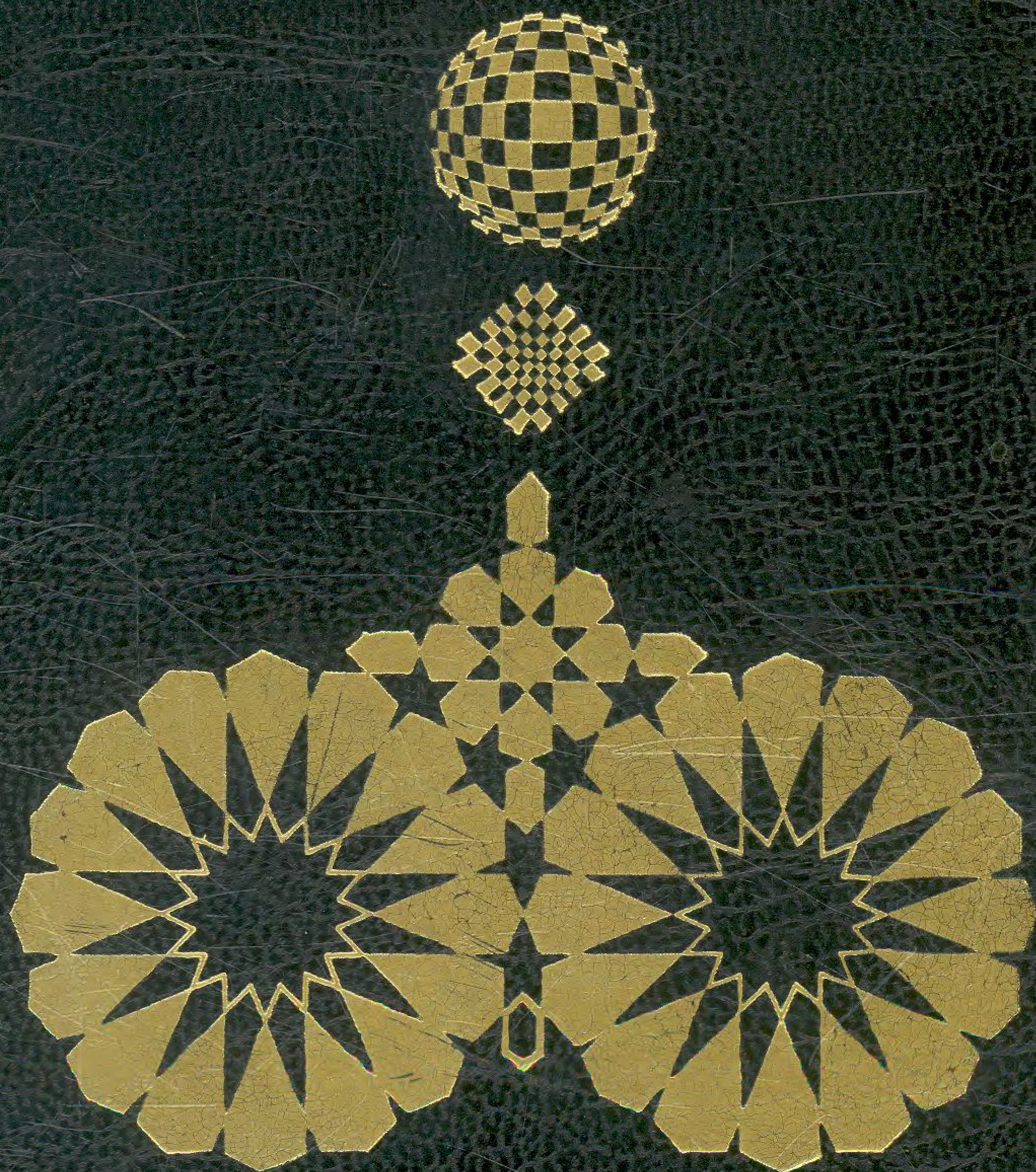
الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق



الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة الثانية ـ العدد الأول ـ تموز ١٩٧٥

المدير المسؤول: عدنان بغجاتي
رئيس التحرير: د. أحمد سليمان الأحمد

الادارة: اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ شارع مرشد الخاطر
هاتف ٤٤٦٧٠٠ ـ المراسلات باسم رئاسة التحرير ص ب ٣٢٣٠ دمشق

تنويــــه

- جميع المراسلات تكون باسم رئيس التحرير •

- تتوجه رئاسة التحرير الى الأدباء والمترجمين في الوطن العربي لتزويدها بمواد مترجمة من الأدب العالمي في مجـالات القصة والشعر والمسرحية والنقد والبحث الأدبي ، وتقديم أو تلخيص الكتب ذات الشهرة والفائدة الفنية والفكريــة • ويُرجى من الأساتذة الذين يرسلون المواد المترجمة أن يرفقوها بالأصل ، من أية لغة كانت ، أو الاشارة الى مرجعها اذا كان مشهوراً • وتعتذر الادارة عن اعادة هذه المواد سواء نشرت أو لم تنشر •



كلمة المجلة

● مؤتمر الأدباء العرب العاشر ومهرجان الشعر العربي الثاني عشر الذي انعقد في الجزائر الشقيقة كان فيضاً من تسلسل العطاء العربي الشامل ، في هذه المرحلة الدقيقة ، الخطيرة ، المبشّرة على تجهمها حيناً وآخر ، التي تجتازها الأمة العربية في أقطارها ، ويعانيها الأدباء والمثقفون العرب ، مع جماهير الشعب ، فينفعلون بها ، ويحاولون أن يكونوا ذوي أثر فعالٍ لصالح الأدب والمجتمع •

● وما أريد ، في كلمتي هذه ، أن أشير إلى جدوى هذا المؤتمر ــ المهرجان ، وإلى الفكر الواعي المسؤول الذي أشار ، ورسَمَ ، وأهاب ، وأراد أن يكون أصحابه المثال ، وإلى هذا الفنّ الذي كانَ فناً وحياةً ومجتمعاً . دون أن يفقد شيئاً من هذه الخصائص ــ المزايا ، بل ازدادَ غِنىً لأنّ هذه الأقانيمَ ازدادَتْ اقتراناً ؛ وإلى هذه اللقاءات ، التي هي ــ أولاً وأخيراً ــ نَبْضٌ نلمسه وندرك أنّ وراءَه عالماً مِنَ الصحّة والحركة في سبيل هَدف ، وهدف عظيم •

● ما أردته في هذه الكلمة هو تحيــة المؤتمر ـ المهرجان الذي خلعت عليه الجزائر البيضاء صفاءَ حبِّها ، وروعةَ إمكاناتها ، وكان اتحاد الكتاب الجزائريين وجهها الأغرَّ ، ولسانها المبين ٠

وما أردته هو الاعتزاز بالمكانة التي تحظى بها « الآداب الأجنبية » في المغرب العربي الكبير ، الأمر الذي حَملَنا على عقد اتفاقية مع الجهات المختصة لارسال المجلة بكميات متزايدة إلى الجزائر الشقيقة ، لأن لها إســهاماً في معركة التعريب المقدّسة ، ولأنها تعطي الدليلَ على لغة متطورة هي لغة الحداثة والمعاصرة ، علاوة على أنها لغة التراث والأصالة ٠

الرسائل التي أصبحت تصلني بازدياد من مغربنا العربي الكبير ، والترجمات التي غَدَتْ تتوالى ، نوع من الاستجابة لما دعونا اليه في عدد أسبق لتغدو هذه المجلة مجلّة الوحدة الأدبية العربية الثقافية في اختصاصها ٠

وثقتنا كبيرة بالمثقف العربي ، بالقارىء العربي ، كي تتابع هــذه المجلة سيرتها ، متفوقةً عــلى نفسها ، مؤدية رسالتها كما نخطط لها ، من أجْلِ تفاعل ثقافي ، لا بُدَّ لنا منه ربحٌ عظيم ٠

رئيس التحرير

كاتبات أمريكيات

تقديم . د منير صلاحي الأصبحي

ترجمة : رباب هاشم • د . منير صلاحي الأصبحي

مقــدمة

ليس لمجرد أن عام ١٩٧٥ هو عام المرأة ـ وان كان هذا سبباً كافياً بحد ذاته ـ وانما أيضاً لأن الأدب القصصي والروائي قد يكون في جوهره أدباً نسائياً • هذا على الأقل ما اعتقده هـ٠ل٠ منكن H. L. Mencken (١٨٨٠ ـ ١٩٥٦) ـ أحد كبار النقاد الأمريكيين في هذا القرن • فهو يقول في مقالته « الرواية » (١٩٢٢) أن النساء هن جمهور الرواية الرئيسي ، وهذه حقيقة يعرفها كل العاملين بالكتب، ولكنهن أيضاً ـ وهذا مالا يلاحظه الكثيرون حسبما يضيف منكن ـ قد شققن طريقهن الى طليعة صف منتجي هذا النوع من الأدب ، وهو النوع الوحيد ـ باستثناء الشعر الوجداني ـ الذي أحرزن فيه في رأيه تقدماً يذكر • وهو يتوقع أن يتزايد نجاح المرأة في الأدب الروائي •

ويعزي منكن هذا النجاح لأسباب قد لاتوافقه غالبية النساء على بعضها وغالبية الرجال على بعضها الآخر • فهو يقول أن النساء لديهن استعداد طبيعي أفضل للعرض الواقعي • فاهتمامهن في رأيه ينصب على أمور ذات « جوهر موضوعي : السقوف والوجبات والأجرة والملابس وولادة وتربية الأطفال • » ويضيف أن المرأة أقل خيالاً ورومانتيكية من الرجل وأنها ترى الحياة بشكل أكثر حدة ومطالبها أكثر اعتدالاً فليس لديها أحلام بالنقود تشتت فهمها للحياة وتفكيرها •

واذا كان من المحتمل أن تقابل تعليلات منكن أو بعضها بشيء من المعارضة ،

فانه قد يكون من الصعب التصدي لفكرته الأساسية ، وهي أن الرواية فن نسائي ٠ قد يعترض البعض قائلين أن الأغلبية الساحقة من عمالقة هذا النوع من الأدب مؤلفة من الأدباء الذكور ٠ ولا بد أن هؤلاء سيستشهدون بأسماء مثل دوستويفسكي وجويس وفوكنر وبروست وآخرون ٠ لكن مثل هـذا الاعتراض هو نتيجة رؤية سطحية للتاريخ والواقع ٠ ان علينا أن ناخذ بعين الاعتبار حقيقة أن المرأة في الغرب لم تستطع قبل القرن التاسع عشر أن تخترق بشكلجدي الطوق المفروض على كل ما أنتجته دور النشر منذ انتشار الطباعة ، ذلك الطوق الذي كان يمنع المرأة من المساهمة العملية في الانتاج الأدبي والفكري ٠ ولئن بدا عدد النساء العاملات في حقـل الأدب القصصي والروائي ضئيلاً بعض الشيء بالمقارنة المجردة مـع عدد الرجال ، فان هذا العدد نفسه يبدو ضخماً اذا ما أخذنا القيود التي فرضت على المرأة عبر القرون الطويلة بعين الاعتبار واذا لاحظنا أن آثار هذه القيود لا يمكن أن تختفي خلال فترة زمنية قصيرة ٠ ونحن نجد أيضاً أن الفارق العددي يتضاءل باستمرار مع مرور الزمن وربما يكون قد انعدم الآن ، بعد أن تساقط الكثير من الحواجز والقيود ٠

ويمكننا من جهة أخرى أن نلاحظ أن بدء انطلاق المرأة الأدبي توافقت تقريباً مع بدء ازدهار الفن القصصي الروائي في أوروبا ٠ لذا فاننا نجد أن انكلترا مثلاً أنجبت عدداً من الروائيات اللواتي تسلقن الى قمة الابداع في هذا الفن مثل جين أوستن والأخوات برونتي ٠

ولا يمكن لهذه المجموعة القصصية أن تطمح لأن تكون كافية لتمثيل الأدب النسائي القصصي الأمريكي ٠ ان كل ما نسعى اليه في هـذه المجموعة هو انجاز بداية نأمل أن نتبعها بترجمة أعمال أخرى تضاف الى هذه المجموعة في المستقبل ٠

ولقد قصدنا أن تعكس هذه القصص الى حد ما تطور الفن القصصي ـ الروائي النسوي في أمريكا ٠ فبالرغم من أن قصة ايديث وارتون ، « حمى روماوية » ، نشرت بعد القصص الثلاث التي تليها في هذه المجموعة ، فان المؤلفة تنتمي الى جيل أسبق من زميلاتها وبدأت حياتها الفكرية قبلهن ٠ بل انه من الممكن اعتبار ولا كيثر في مطلع حياتها الأدبية تلميذة لها ٠

وقد يلاحظ القارىء أن هذه المجموعة لا تحتوي أية قصص من القرن التاسع عشر ، والسبب في هذا هو أنه بالرغم من ظهور بعض الكاتبات في الولايات المتحدة في ذلك القرن ، مثل سارا أورن جويت Sarah Orne Jewett (١٨٤٩ ـ ١٩٠٩) التي برزت في ميدان القصة القصيرة ، فقد كان على المرأة الأمريكية أن تنتظر حتى قرننا الحاضر قبل أن تثبت وجوداً محسوساً في الحقل الروائي ـ القصصي ٠

ولا شك أن ايديث وارتون (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) هي أولى الكاتبات الأمريكيات اللواتي حققن نجاحاً باهراً في هذا النوع من الأدب ٠ وهي قد نشرت أولى مجموعاتها القصصية في عام ١٨٩٩ وأول رواية لها في ١٩٠٢ ٠ واعتبرها بعض النقاد تلميذة للكاتب الأمريكي الكبير هنري جيمس ، الذي لا شك أنها تأثرت به تأثراً كبيراً ، ولكن معظم النقاد ومؤرخي الأدب يشهدون بأنها رغم هذا التأثر استطاعت أن تحقق استقلالها الأدبي وأن تطور أسلوبها الخاص المميز ٠ والشبه بينها وبين جيمس قد يكون في العناية الفائقة التي يوليها كل منهما لمادته ، فالأسلوب في قصصهما يأخذ أهمية كبرى ٠ وسيلحظ القارىء هذه العناية في القصة التي اخترناها هنا ، حيث تكتسب التفاصيل الصغيرة التي توردها الكاتبة في أوائل القصة معاني واضحة لدى اكتمال الحبكة ، ولا بد أن قراءة ثانية للقصة ستتيح للقارىء الاستمتاع بالابداع الكامن في هذه التفاصيل وفي التلاحم العضوي الذي يتضح تماماً عند النهاية ٠

وبينما تناولت ايديث وارتون في قصصها المجتمع الارستقراطي النيويوركي ، فان ولا كيثر (١٨٧٣ ـ ١٩٤٧) قامت بتصوير مجتمع مختلف تماماً هو مجتمع الغرب ، ولكنها لم تصور هذا المجتمع بالصورة الرومانتيكية التقليدية ، بل ركزت على الجدب الفكري والروحي فيه وعلى انشغاله بالمادة واعتبارها مقياساً للنجاح ٠ والموضوع الذي اختارته في قصصها ورواياتها هـو موضوع مألوف : الصراع بين الفنان والجمهـور ، بين القلب وما يعتبره الناس نجاحاً ، بين الروح والمـادة ٠ ونجد جميع هذه العناصر متوفرة في القصة التي اخترناها هنا ـ « جنازة النحات » ـ التي كانت ضمن أول مجموعة قصصية نشرتها الكاتبة ٠ وقد كتبت ولا كيثر عدداً من الروايات كانت أولها « أيها الرواد ! » O Pioneers (١٩١٣) وأهمها « الموت يأتي في طلب الأسقف » Death Comes for the Archbishop (١٩٢٧) ، التي

تعتبر من الروائع الأدبية الأمريكية • وبينما ارتبط اسـم ايديث وارتون باسم هنري جيمس فان غوستاف فلوبير هو الأديب الذي تأثرت ولا كيثر بـه والذي يعتبر أستاذها •

وولدت ايلين غلاسغو (١٨٧٤ـ١٩٤٥) في نفس الولاية التي ولدتفيها ولاكيثر ـ ولاية فرجينيا ـ وعاصرتها • لكن اهتمامها لم يكن ينصب كما هي الحال بالنسبة لزميلتها على مجتمع ناشيء ، بل على مجتمع في طريق الزوال • لقد أولت اهتمامها للمجتمع الأرستقراطي الزراعي الآفل في الجنوب • ونجد هـذا واضحاً تماماً في قصة « جوردانزإند ، » حيث تمثل عائلة جوردان هـذه الطبقة مثلما تمثلها عائلة كومپسون في رواية « الصخب والعنف » لوليم فوكنر • وقد كتبت غلاسغو تسع عشرة رواية ومجموعة واحدة من القصص القصيرة التي تضمنت القصة المترجمة هنا •

أما كاثرين آن پورتر ـ التي ولدت عـام ١٩٠٠ في ولاية تكساس ـ فقد حققت شهرة مختلفة عما يحققه غيرها من الأدباء ، فبالرغم من أنها لم تحقق نجاحاً شعبياً كبيراً فان أعمالها مألوفة لدى معظم القراء الأمريكيين وتأثيرها واسـع على الكتاب الناشئين • وهي تمتاز بالقدرة على تحليل شخصياتها بعمق رغـم اتباعها أسلوباً شديد الموضوعية • وقد كتبت خمس روايات وثلاث مجموعات قصصية ، نشرت أولها عام ١٩٣٠ •

وتميل فلانري أوكونر (١٩٢٥ ـ ١٩٦٤) الى اختيـار موضوعات غريبة وسوقية كما اعترفت هي نفسها بذلك • ولكن قصة « الزنجي الاصطناعي » التي اخترناها لهذه المجموعة توضح أسلوبها الساخر والبعيد عن العاطفية • ورغم ذلك فان بامكاننا أن نشهد تعاطفها الموضوعي مع شخصياتها وقدرتها على الخروج من هذه الموضوعات بتجارب انسانية أساسية •

واذا كان القارىء يتوقع أن يجد في هـذه القصص دراسـة لعواطف المرأة وشخصيتها وطبيعتها ، فان بعض هذه القصص ستكون عند ظنه • لكنه قد يفاجأ حين يجد أن قصة « الزنجي الاصطناعي » لا تكاد تحوي أية شخصية نسوية ، فهي منصبة على شخصيتين رئيسيتين فقط ـ شخصية الجد وحفيده ـ وكذلك فانـه

سيلحظ أنه بالرغم من أهمية شخصية الأم في « جنازة النحات » فانها ليست شخصية رئيسية وأن الأحـداث تدور في عالم الرجال • وهكذا فبالرغم مـن أن الكاتبات الأمريكيات يوجهن اهتمامهن في بعض الحالات لدراسة شخصيات نسوية أو لدراسة مراحل معينة من حياة المرأة ، كما هي الحال في قصة « التخلي عن الجدة وذرول » بشكل خاص ، فان أفق هذه الكاتبات يمتد ليشمل التجربة الانسانية بأكملها •

وبدلاً من الاستطراد في التعليق على قصص هـذه المجموعة ، سنتركها الآن للقارىء ليخوض تجربته الخاصة معها ويطلق عليها حكمه الشخصي(*) •

(*) بعض المعلومات المدرجة في هذه المقدمة مستقاة من الكتابين التاليين :

Robert E. Spiller et al., eds., **Literary History of the United States** (New York : MacMillan, 1963).

Sculley Bradley, Richmond Croom Beatty, and E. Hudson Long, eds., **The American Tradition in Literature** (New York : Grosset & Dunlap, 1967).

ايـديث
وارتــن

حمى روماوية *

من الطاولة التي كانتا تجلسان إليها ، تحركت سيدتان أمريكيتـان في سن الكهولة الناضجة التي أحسنت رعايتها عبر الشرفة العالية في المطعم الروماوي ، واستندتا على حاجزها ونظرت احداهما الى الاخرى اولا ثم الى الاسفل الى أمجـاد الساحة والپالاتين(١) الممتدة ، ووجهاهما يعكسان نفس التعبير عن الرضى غير المحدد والكريم في نفس الوقت ٠

أثناء وقوفهما هناك جاء صدى لصوت بناتي مرح من الدرج الذي يقود الى الملعب في الاسفل ٠ « اذن تعالي معي »، صاح الصوت ، لا يخاطبهما وانما يخاطب رفيقة غـير مرئية ، « ولنترك الصغيرتان لحياكتهما » ؛ وكـرر صوت له نفس الحيويـة الضحك :« آه ، كوني عادلة يا بابس ، انهما لاتحيكان فعلا ــ » « حسناً ، انني أقصـد تشبيهاً ، » قال الصوت الاول ٠ « على كـل حـال ، اننا لم نترك لوالدتينا المسكينتين الكثير من الاشياء الاخرى التي تستطيعان القيام بهـا ٠٠ » وعند هذه النقطة ابتلع انعطاف الدرج بقية الحوار ٠

نظرت كل من السيدتين الى الاخرى مرة ثانية ، هذه المرة بمسحة من الحرج

(*) "Roman Fever" by Edith Wharton نشرت هذه القصة اول مرة في «مجلة الحرية» Liberty Magazine عام ١٩٣٤ ٠ وكلمة « روماوية » في العنوان هي نسبة الى مدينة روما ٠

(١) الساحة Forum هي من الاماكن الأثرية الشهيرة في روما والبالاتين Palatine هي احدى هضاب روما السبع ٠

الباسم ، وهزت الاصغر جسما والاكثر شحوبا بينهما رأسها واعتراها شي من الاحمرار •

« باربرا ! » تمتمت ، مرسلة تأنيبا غير مسموع وراء الصوت الساخر على الدرج •

ضحكت السيدة الاخرى ـ التي كانت أكثر سمنة وذات لون اكثر تميزاً وانف صغير ينم على التصميم ويدعمه حاجبان سوداوان مليئان بالحيوية ـ ضحكة تنم عن مزاج حسن • « هذه فكرة ابنتينا عنا ! »

أجابت رفيقتها باشارة مستنكرة • « ليس عنا شخصيا • يجب ان نتذكر ذلك • هذه فقط الفكرة الجماعية الحديثة عن الامهات • وكما ترين ـ » بشيء من الشعور بالاثم اخرجت من حقيبة يدها السوداء الانيقة قطعة من الحرير القرمزي غرست فيها سنارتا حياكة دقيقتان • « لا يدري المرء ابدا ، » قالت متمتمة • « لقد أعطانا النظام الجديد بالتأكيد قدراً جيداً من الوقت لنقتله ؛ واحيانا اسأم مجرد التطلع ـ حتى الى هذا • » كانت اشارتها هذه المرة موجهة الى المنظر المذهل عند قدميها •

ضحكت السيدة السمراء من جديد ، وعادتا كلتاهما الى المنظر ، تتأملانه في صمت ، بنوع من الصفاء المنتشر الذي ربما كان مستعارا من التألق الربيعي في السموات الروماوية • كانت ساعة الغداء قد مضت منذ فترة طويلة ، وانفردت الاثنتان في زاويتهما من الشرفة الشاسعة • في الطرف الآخر قامت مجموعات قليلة بقيت لتلقي نظرة مطولة على المدينة الممتدة بجمع الادلة السياحية وبالبحث في الجيوب عن بقشيش • تفرقت آخر هذه المجموعات وبقيت السيدتان وحيدتين في العلو الذي غسله الهواء •

« انني لا أرى سببا يمنعنا من البقاء هنا ، » قالت السيدة سليد ، السيدة ذات اللون المميز والحاجبان الحيويان • كان هناك كرسيان شبكيان مهجوران على القرب ، فقامت بدفعهما الى حافة الحاجز ، ووضعت نفسها على أحدهما ، ونظرتها مثبتة على البالاتين • « ففي الواقع ، لا يزال هذا أجمل مشهد في العالم • »

« وسيكون دائما ، بالنسبة لي ، » قالت صديقتها السيدة آنسلي موافقة ، بتشديد طفيف جداً على كلمة « لي » بحيث أن السيدة سليد رغم أنها لاحظته

تساءلت مـا اذا كان مجـرد صدفة ، مثل الخطوط الاعتباطية تحت الكلمات التي يضعها كاتب رسالة من الطراز القديم ٠

« كانت غريس آنسلي دائما من الطراز القديم ،» فكرت ؛ وأضافت بصوت عـال ، وبابتسامة استرجاعيـة : « انـه مشـهد ألفته كلتانا لعـدد كبـير من السنوات ٠ حين التقينا هنا أول مرة كنا أصغر من بناتنا الآن ٠ هل تذكرين ؟ »

« آه ، نعم ، أذكر ، » تمتمت السيدة آنسلي بنفس التشديد الذي لا يمكن تحديده ٠ ـ « هاهو رئيس الخدم يتساءل هناك ، » قالت تكمل كلامهـا ٠ مـن الواضح انها اقل ثقة بكثير بنفسها وبحقوقها في العالم من رفيقتها ٠

« سأشفيه من التساؤل ؛ قالت السيدة سليد وهي تمد يدها الى حقيبة مظهرها مترف باحتشام مثل حقيبة السيدة آنسلي ٠ منادية رئيس الخدم بصوت غنائي ، شرحت له انها وصديقتها من عشاق روما القـدامى ، وانهما تودان امضـاء فترة العصر ترقبان المشهد ـ هذا ، اذا لم يكن في ذلك من عرقلة للخدمة ؟ حنى رئيس الخدم رأسه لدى تناول بقشيشها وأكـد لها انه يرحب بالسيدتين أبلغ الترحيب ، وان هذا الترحيب سيكون أشد اذا ما تواضعتا وبقيتا لتناول العشاء ٠ فالليلة ليلة قمر مكتمل ، كما لا بد انهما تذكران ٠٠٠٠

تجمع حاجبا السيدة سليد الاسودان ، كما لو أن الاشارة الى القمر لم تكن في مكانها بل وغير محبذة ٠ لكنهـا ازاحت عبوسها بابتسامة لـدى تقهقر رئيس الخدم ٠ « لكن ، لم لا ؟ هناك أشياء أسوء من ذلك قد نقوم بها ٠ لامجال هناك ، حسبما أعتقد ، بمعرفة موعد عودة الفتاتين ٠ بـل هل تعرفين العودة من أين ؟ أنا نفسي لا أعرف ! » ٠

تخضبت بشرة السيدة آنسلي بشكـل طفيف للمرة الثانية ٠ « أعتقـد أن هاذين الطيارين الايطاليـين الـذين التقينا بهما في السفارة قـد قاما بدعوتهمـا للطيران الى تاركوينيا لتناول الشـاي ٠ أظن أنهم سيرغبون في الانتظار والعودة طائرين في ضوء القمر ٠ »

« ضوء القمر ! ضوء القمر ـ يا له من دور لا يزال يقوم به ٠ هل تعتقدين انهما عاطفيتان بنفس القدر الذي كنا به ؟ »

« لقد توصلت الى نتيجة هي أنني لا أعرف بتاتا ما هما ،» قالت السيدة آنسلي · « وربما لم نكن نعرف واحدتنا عن الاخرى اكثر من ذلك بكثير ·»
« لا ، ربما لم نكن نعرف · »

نظرت صديقتها اليها نظرة خجولة · « لم يكن ليخطر لي أبدا انك كنت عاطفية يا أليدا · »

« اذن ، ربما لم أكن · » أغمضت السيدة سليد جفنيها وهي تستعيد الماضي؛ ولبضع دقائق فكرت السيدتان ـ اللتان كانتا صديقتين حميمتين منذ طفولتهما ـ ملياً في ندرة ما تعرفانه عن بعضهما · لقد كان لدى كل واحدة منهما بالطبع نعت جاهز لا لصاقه باسم الاخرى ؛ فالسيدة دلفين سليد ، مثلا ، ستقول لنفسها ، أو لأي شخص يسألها ، أن السيدة هوراس آنسلي كانت قبل خمسة وعشرين عاماً حلوة جدا ـ لا ، لن تصدقي هذا ، أليس كذلك ؟ · · رغم انها بالطبع لا تزال فاتنة ، متميزة · · · حسنا في صباها كانت شديدة الحلاوة ؛ أجمل بكثير من ابنتها باربرا ، رغم أن بابس ـ على الاقل حسب المقاييس الجديدة ـ هي أكثر تأثيرا ـ أرقى ، كما يقولون · من المضحك أن تكون كذلك ، وأبواها عتيقان بهذا الشكل · نعم ؛ لقد كان هوراس آنسلي ـ أوه ، نسخة مماثلة لزوجته · نموذجان متحفيان من نيويورك القديمة · حسنا المظهر ، لا انتقاد عليهما ، مثاليان · لقد عاشت السيدة سليد والسيدة آنسلي قبالة بعضهما ـ فعلياً وكذلك معنوياً لسنوات عدة · حين كان يتم تجديد ستائر غرفة الاستقبال في المنزل رقم ٢٠ بالشارع الثالث والسبعين ، فان المنزل رقم ٢٣ في الطرف المقابل كان دائماً على علم بذلك واطلاع على التبديلات والمشتريات والرحلات وأعياد الذكرى والأمراض ـ التاريخ الوديع لزوجين محترمين · لم يغب الكثير منه عن السيدة سليد · لكنها غدت تسأمه في الوقت الذي قام زوجها فيه بانقلابه الكبير في وولستريت(٢) ، وحين اشتريا منزلا في شارع پارك أفنيو الاعلى أخذت تفكر : « انني أفضل السكنى قبالة حانة غير مرخصة من باب التغيير ؛ على الاقل قد يتاح للمرء أن يشاهد الشرطة تهاجمها ·»

(٢) شارع في قسم مدينة نيويورك الذي تقوم فيه المؤسسات المالية ، ويطلق الاسم ايضاً على العالم المالي الأمريكي ·

فكرة رؤية الشرطة تهاجم منزل غريس كانت مسلية بحيث أنها (قبل أن تنتقل) عرضتها في وليمة غداء نسائية • نجحت تماما ، وتنوقلت كالعادة ــ وقد تساءلت عما اذا كانت عبرت الشارع ، ووصلت للسيدة آنسلي • تمنت ألا تكون وصلت ، ولكنها لم تهتم كثيرا • كانت تلــك هي الايام التي فيها حسم على المظهر المحترم ، ولم يكن يضير اولئك الــذين هم أبعد من المتناول أن يكونوا هدفاً للقليل مــن الضحك •

بعد بضع سنوات ، وبفاصل لا يزيد عن بضعة شهور ، فقدت كلتا السيدتين زوجيهمــا • تــم تبادل مناسب للباقات والتعزيات ، وتجديد وجيز للالفة في ظل حدادهما ؛ والآن ، بعد فاصل آخر ، تلاقتا في روما ، في نفس الفندق ، كل منهما تابعة متواضعة لابنة بارزة • جذبهما التماثل في وضعهما ، الواحدة للاخرى ، من جديد ، مثيرا بعض النكات المعتدلــة ، والاعتراف المتبادل بأنه اذا كانت مجاراة البنات شيئاً متعباً في الايام الغابرة فانه الآن ــ أحيانا ــ من الممل عدم مجاراتهن •

لا شك ــ أخذت السيدة سليد تفكر ــ انها كانت تشعر بفراغها اكثر مما يمكن لغريس المسكينة أن تشعر به أبداً • ان التحول من كونها زوجة دلفين سليد الى كونها ارملته هو سقوط كبير • لقد اعتبرت دائما نفسها (بنوع من الاعتزاز الزيجي) مساوية له في المواهب الاجتماعية ، مساهمة بحصتها الكاملة في جعلهما زوجين غير عاديين مثلما كانا : لكن ليس من علاج للاختلاف بعد موته • كزوجة لمحامي الشركات الشهير ــ الذي كانت دائما بــين يديه قضية عالمية أو قضيتان ــ كان كل يوم يجلب واجباته المثيرة وغير المتوقعة : الاستقبال المرتجل لزملاء بارزين من الخارج ، الاندفاع المستعجل من أجل أعمال قانونية الى لنــدن أو باريس أو روما ، حيث كان الاستقبال يُرَدُّ بشكل بديع جداً ، التسلية في أن تستمع اثر ابتعادها : « ماذا ، تلك السيدة ذات الملابس والعيون الجميلة هي السيدة سليد ــ زوجة سليد ؟ حقاً ؟ عادة تكون زوجات المشاهير بعيدات عن الاناقة • »

نعم ؛ كونها أرملة سليد كان أمراً مسئما بعد تلك الأشياء • في مجاراتهــا لزوج مثل زوجهــا كل طاقاتهــا كانت مجندة ؛ الآن ليس لديها من تجاريه سوى ابنتهــا ، فالابن الذي بدا انه ورث مواهب أبيه مات فجأة في صباه • لقد كافحت

للتغلب على ذلك الأسى لأن زوجها كان هناك ، يتلقى المساعدة ويقوم بالمساعدة ؛ بعد موت الاب ، أصبح التفكير بالابن لا يحتمل · لم يبق شيء سوى أن تكون أما لابنتها ؛ وجيني العزيزة ابنة مثالية لا تحتاج الى عناية أمومية مفرطة · « لو كانت بابس آنسلي ابنتي لا أظن انني أكون هادئة الى هذا الحد ، » كانت السيدة سليد تفكر أحيانا بشيء من الحسد ؛ لكن جيني ـ التي كانت أصغر من صديقتها اللامعة ـ كانت تلك الصدفة النادرة ، فتاة بالغة الجمال استطاعت بطريقة ما أن تجعل الشباب والجمال يبدوان باعثا على الطمأنينة مثل غيابهما · كان الأمر بأكمله محيراً ـ وبالنسبة للسيدة سليد مملا بعض الشيء · تمنت لو أن جيني تقع في الحب ـ بل في حب الشخص غير المناسب ؛ بحيث تحتاج لان تكون موضع مراقبة وان تُداور وان تُنقذ · وبدلا عن ذلك ، كانت جيني هي التي تراقب امها وتحميها من تيارات الهواء وتتأكد من أنها تناولت دواءها المقوي ··

لم تكن السيدة آنسلي في فصاحة صديقتها ، وكانت صورتها العقلية للسيدة سليد أكثر ضمورا ومرسومة بلمسات أشد ضعفا · « ان أليدا سليد لامعة جدا ، ولكنها ليست لامعة الى الدرجة التي تظنها · » هذه العبارة تلخص تلك الصورة تلخيصا وافيا ؛ رغم انها كانت لتضيف ، لتنوير الغرباء ، ان السيدة سليدكانت في شبابها فتاة ساحرة ؛ اكثر سحرا بكثير من ابنتها التي هي جميلة ـ بالطبع ـ وذكية نوعاً ما ، ولكن ليس لديها شيء من ـ « حيوية » أمها ، كما وصفها أحدهم ذات مرة·كانت السيدة آنسلي عادة تتناول كلمات دارجة مثل هذه ، وتستعملهما بين قوسين ، كتهورات لم يسمع بها · كلا ؛ ليست جيني مثل أمها · أحيانا كانت السيدة آنسلي تعتقد أن أديلا سليد تشعر بخيبة الامل ؛ بالاجمال كانت حياتها حياة محزنة · مليئة بالفشل والاخطاء ؛ كانت السيدة آنسلي دائما تشعر بالرثاء نحوها ···

هكذا نظرت هاتان السيدتان لبعضهما ، كل منهما من الطرف الخاطىء من منظارها المقرب الصغير ·

لفترة طويلة استمرتا في الجلوس جنباً الى جنب دون أن تتحدثا · يبدو وكأنه ـ بالنسبة لكليهما ـ كانت هناك راحة في حضرة « المنتوموري » (نصب الموت)

الشاسـع الذي واجههما · جلست السيدة سليد في سكون تام ، عيناها ثابتتان على المنحدر الذهبي لقصر القياصرة ، وبعد فترة توقفت السيدة آنسلي عن التنقيب في حقيبتها ، وغرقت هي أيضـاً في التأمل · مثل الكثير من الأصدقـاء الحميمين ، لم تتح للسيدتين من قبل الفرصة قط لأن تكونا صامتتين معاً ، وشعرت السيدة آنسلي بشيء من الحرج لما بدا ، بعد هذه السنوات الطويلة ، مرحلة جديدة في مودتهما ، ومرحلة لم تكن تدري بعد كيف تتعامل معها ·

فجأة امتلأ الهواء بقعقعة الأجراس العميقة تلك التي تغطي روما بين الحين والآخر بسقف من الفضة · نظرت السيدة سليد الى ساعة معصمها · « صارت الساعة الخامسة بهذه السرعة » قالت ، كما لو دهشت لذلك ·

اقترحت السيدة آنسلي بلهجة تساؤلية : « هناك اجتمـاع للعب البريـدج في السفارة · » لفترة طويلة لم تجب السيدة سليد · بدت ضائعة في تأملاتها ، واعتقدت السيدة آنسلي أن العبارة فاتتها · لكن بعد برهة قالت ، مثل شخص يتكلم وهـو في حلم : « هل قلت بريدج ؟ كلا ، الا اذا أردت ذلك ··· لكن لا أعتقد أنني سأذهب · »

« آه ، كلا ، » سارعت السيدة آنسلي تؤكد لها · « لا رغبة لدي في ذلك على الاطلاق · المكان هنا جميل جداً ؛ غاصٌ بالذكريات القديمة ، كما تقولين ، » أراحت نفسها في كرسيها ، وبشبه اختلاس تناولت حياكتها · أخذت السيدة سليد ملاحظة جانبية عن هذا العمل ، لكن يديها اللتين تلقتا عناية جميلـة بقيتـا دون حراك على ركبتيهـا ·

« كنت الآن أفكر ، » قالت ببطء ، «بالأشياء المختلفة التي تمثلها روما بالنسبة لكل جيل من المسافرين · بالنسبة لجداتنا : حمى روماوية ؛ لأمهاتنا : أخطار عاطفية ــ كيف كنا تحت الحراسة ! ــ لبناتنا : لا أخطار تزيد على مـا يـوجـد في منتصف الشارع الرئيسي في الوطن · انهما لاتدريان ذلك ــ ولكن أشياء كثيرة تفوتهما ! »

كان النور الذهبي الطويل قد بدأ يشحب ، ورفعت السيـدة آنسلي حياكتهـا أقرب قليلاً الى عينيها · « نعم ؛ كم كنا تحت الحراسة ! »

« لقد اعتدت أن أفكر ، » تابعت السيدة سليد ، « أن وظيفة أمهاتنا كـانت

أصعب كثيراً من جداتنا • فحين كانت الحمى الروماوية تختال في الشوارع لابد أن جمع الفتيات في ساعة الخطر كان أمراً سهلاً نسبياً ؛ لكن حين كنا أنت وأنا شابتين ، ونملك ذلك القدر من الجمال ، مع بهار من عدم الطاعة مضافاً إليه ، وليس من خطر أكبر من الاصابة بالزكام في الساعة الرطبة بعد الغروب ، كانت أمهاتنا يبذلن جهداً كبيراً لمنعنا من الخروج ــ أليس كذلك ؟ »

التفتت ثانية نحو السيدة آنسلي ، ولكن الأخيرة كانت قد وصلت الى نقطة حساسة في حياكتها • « واحدة ، اثنتان ، ثلاثة ــ نمرر اثنتين ؛ نعم ، لابد أنهن فعلن ، » وافقت ، دون أن ترفع بصرها •

استقرت عينا السيدة سليد عليها بانتباه متعمق • « بامكانها أن تحيك ــ في مكان كهذا ! كم ينسجم هذا مع طبيعتها ••• »

انحنت السيدة سليد الى الوراء ، تفكر بكآبة ، عيناها تنتقلان من الآثار التي تواجهها الى التجويف الكبير الأخضر للساحة ، والبريق الخافت لواجهات الكنائس وراءه وضخامة الكولوزيوم (المدرج الكبير) القصية • فجأة ، خطر لها : « من الحسن جداً القول أن بناتنا تخلصن من العاطفة وضوء القمر • ولكن اذا لم تكن بابس آنسلي تخطط للايقاع بذلك الطيار الشاب ــ المركيز بينهما ــ فانني لا أدرك شيئاً اذن • وليست لدى جيني أية فرصة الى جانبها • انني أدرك ذلك أيضاً • هل يا ترى ذلك هو السبب في أن غريس آنسلي تحب أن تذهب الاثنتان الى كل مكان معاً ؟ ابنتي جيني المسكينة تستعمل وسيلة للظهور ــ ! » ضحكت السيدة سليد ضحكة تكاد لا تسمع ، ولدى صدور ذلك الصوت تركت السيدة آنسلي حياكتها •

« نعم ــ ؟ »

« انني ــ آه ، لا شيء • كنت فقط أفكر كيف أن ابنتك بابس تحمل كل شيء أمامها • ذلك الفتى كامبوليري هو واحد من أفضل الشبان الصالحين للزواج في روما • لا تظهري بريئة هكذا ، يا عزيزتي ــ أنت تعلمين أنه كذلك • وكنت ••• أتساءل كيف تدبر شخصان مثاليان مثلك ومثل هوراس انتاج شيء له كل هذه الديناميكية • » ضحكت السيدة سليد من جديد ، بمسحة من القسوة •

جمدت يدا السيدة آنسلي على صنارتيها . اتجهت نظرتها مباشرة الى حطام العاطفة والروعة العظيم المتراكم تحت قدميها . لكن وجهها الصغير لم يحمل أي تعبير . بعد برهة طويلة قالت : « أعتقد أنك تبالغين في تقدير مواهب بابس ، يا عزيزتي . »

غدت لهجة السيدة سليد أخف وطأة . « كلا ؛ لا أبالغ . انني أقدرها حق قدرها . وربما أحسدك . أوه ، ابنتي مثالية ؛ لو كنت مريضة مزمنة فانني-حسناً، اعتقد أنني أفضل أن أكون في رعاية جيني . لابد أن هناك أوقاتاً ... لكن هاك ! لقد كنت دائماً أريد ابنة لامعة ... ولم أفهم تماماً أبداً لم حصلت على ملاك بدلاً من ذلك . »

أعطت السيدة آنسلي صدى لضحكتها في دمدمة خافتة . « ان بابس ملاك أيضاً . »

« بالطبع ـ بالطبع ! لكن لها جناحان قزحيان . واذن ، انهما تتجولان قرب البحر مع شابيهما ؛ ونحن ها هنا ... وهذا كله يرجع الماضي بشكل فيه حدة زائدة قليلاً . »

كانت السيدة آنسلي قد استأنفت حكايتها . ربما كاد المرء أن يتخيل (اذا كانت معرفته بها أقل ، حسبما خطر للسيدة سليد) أنه بالنسبة لها أيضاً برزت ذكريات أكثر مما يجب من الظلال المتطاولة لهذه الآثار المهيبة . لكن كلا ؛ كانت ببساطة منهمكة في عملها . ماذا كان لديها ليقلقها ؟ انها تعرف أنه من المؤكد تقريباً أن تعود بابس وهي مخطوبة لكامپوليري المناسب جداً . « وستبيع بيتها في نيويورك ، وتستقر على قرب منهما في روما ، ولا تعترض طريقهما أبداً ... ان لديها الكثير من اللباقة . لكن ستكون عندها طباخة ممتازة ، وسيزورها فقط الناس المناسبون للعب البريدج وتناول الكوكتيل ... وشيخوخة آمنة بشكل تام بين أحفادها . »

انتزعت السيدة سليد نفسها من هذا الجنوح التنبؤي منكمشة باشمئزاز من نفسها . لم يكن هناك من يستحق منها أن تفكر به تفكيراً طيباً أكثر من غريس آنسلي . ألن تشفي نفسها أبداً من الشعور بالحسد نحوها . ربما كانت قد بدأت ذلك منذ زمن أطول مما ينبغي .

نهضت وانحنت فوق الحافة ، تملأ عينيها المُزْعَجَتَيْن بسحر تلك الساعة المسكّن • لكن بدلاً من أن يسكنها ، بدا المشهد وكأنه يزيد من ضيقها وتوترها • انتقلت نظرتها الى الكولوزيوم • كان جانبه الذهبي قد غرق في الظل البنفسجي ، وانحنت السماء فوقه صافية صفاء البلور ، دون ضوء أو لون • كانت اللحظة هي اللحظة التي يقف العصر والمساء في توازن في منتصف السماء •

استدارت السيدة سليد ووضعت يدها على ذراع صديقتها • كانت الحركة مفاجئة تماماً بحيث أن السيدة آنسلي رفعت بصرها مجفلة •

« لقد غربت الشمس • أنت لست خائفة ، يا عزيزتي ؟ »

« خائفة — ؟ »

« من الحمى الروماوية أو ذات الرئة ؟ أذكر كم كنت مريضة ذلك الشتاء • في صباك كانت حنجرتك شديدة الحساسية ، أليس كذلك ؟ »

« أوه ، انني على ما يرام في هذا المكان العلوي • في الأسفل ، في الساحة ، يصير الطقس بارداً بشكل مميت ، بشكل مفاجيء ••• لكن ليس هنا • »

« آه ، طبعاً أنت تعرفين لأنه كان عليك أن تحترسي كثيراً • » التفتت السيدة سليد الى الحافة ثانية • فكرت : « علي أن أقوم بجهد إضافي جديد كي لا أكرهها • » بصوت عال قالت : « كلما نظرت الى الساحة من هذا المكان العلوي ، تذكرت تلك الحكاية عن عمتك الكبيرة ، أليس كذلك ؟ عمة كبيرة خبيثة بشكل مرعب ؟ »

« أوه ، نعم ؛ العمة هارييت ، التي يقال أنها أرسلت أختها الصغرى الى الساحة بعد الغروب لقطف زهرة من الأزهار التي تفتح في الليل لتضعها في ألبومها • كل عماتنا الكبيرات وجداتناكن يحفظن ألبومات من الأزهار الجافة • »

أحنت السيدة سليد رأسها موافقة • « لكنها في الواقع أرسلتها لأنهما كانتا تعشقان نفس الرجل — »

« كان هذا هو المعروف بين الأسرة • قالوا أن العمة هارييت اعترفت بذلك بعد

مضي سنين · على كل حال ، أصيبت الأخت بالحمى وماتت · كانت أمي تخوفنا بهذه القصة حين كنا أطفالاً · »

« وأنت خوفتني بها ، في ذلك الشتاء الذي كنا فيه أنت وأنا هنا في صبانا · الشتاء الذي تمت فيه خطبتي لدلفين · »

صدرت عن السيدة آنسلي ضحكة خافتة · « أوه ، حقاً ؟ هل أخفتك حقاً ؟ لا أعتقد أن بالامكان اخافتك بسهولة · »

« لا يحدث ذلك كثيراً ؛ لكنني خفت حينذاك · لقد خفت بسهولة لأنني كنت سعيدة جداً · انني اتساءل ما اذا كنت تدركين ماذا يعني ذلك ؟ »

« انني ـ نعم ··· » تلعثمت السيدة آنسلي ·

« حسناً ، انني أعتقد أن ذلك هو السبب أن حكاية عمتك الشريرة أحدثت في ذلك التأثير · وقد خطر لي : لم يبق هناك حمى روماوية ، ولكن الساحة باردة بشكل مميت بعد الغروب ـ خاصة بعد يوم حار · والكولوزيوم أكثر برودة ورطوبة حتى · »

« الكولوزيوم ـ ؟ »

« نعم · لم يكن الدخول اليه سهلاً ، بعد أن تقفل البوابات في المساء · لم يكن سهلاً بتاتاً · ومع ذلك ، ففي تلك الأيام كان يمكن تدبر ذلك ؛ كان يحدث ذلك ، كثيراً · كان العشاق الذين لا يستطيعون اللقاء في مكان آخر يلتقون هناك · كنت تعلمين ذلك ؟ »

« انني ـ أظن · لا أذكر · »

« لاتذكرين ؟ ألا تذكرين قيامك بزيارة احدى هذه الآثار ذات مساء ، تماماً بعد حلول الظلام ، والاصابة بزكام سيء ؟ المفروض أنك ذهبت لرؤية بزوغ القمر · لقد ردد الناس دائماً أن تلك المغامرة هي التي سببت مرضك · »

حلت لحظة من الصمت ؛ ثم أجابت السيدة آنسلي : « هل قالوا ذلك ؟ لقد حدث كل هذا منذ زمن بعيد جداً · »

« نعم · وتحسنت صحتك من جديد ــ لذا لم يكن للأمر أهميــة · لكنني أظن أنه أدهش أصدقاءك ــ أعني السبب المعلن لمرضك ــ لأن الجميع كانوا يعرفون أنك كنت رصينة جداً بسبب حنجرتك ، وأن أمك وجهت لك عناية كبيرة ··· لقد خرجت من البيت للتفرج في وقت متأخر ، ألم تفعلي ذلك في تلك الليلة ؟ »

« ربما فعلت · ليست أكثر البنات رصانة رصينات دائماً · مــا الذي جعلك تفكرين بالأمر الآن ؟ »

لم يبد أن السيدة سليد كان لديها جواب جاهز · لكنها بعد لحظــة انفجرت : « لانني ببساطة لا أستطيع تحمله أكثر من ذلك ــ ! »

رفعت السيدة آنسلي رأسها بسرعة · كانت عيناها واسعتين وشديدتي الشحوب · « ما الذي لاتستطيعين تحمله ؟ »

« ماذا ــ أنت غير مدركة أنني كنت دائماً أعرف لم ذهبتِ · »

« أوه لقد ذهبتُ ــ »

« نعم · انك تعتقدين أنني أبلغك ، أليس كذلك ؟ فاذن ، لقد ذهبت للقاء الرجل الذي كنت أنا مخطوبة له ــ وانني أستطيع أن أعيد كل كلمة من كلمات الرسالة التي دفعتك أن تذهبي هناك · »

أثناء حديث السيدة سليد ، وقفت السيدة آنسلي مترنحة على قدميها · انزلقت حقيبتها وحياكتها وقفازها وسقطت في كومة مذعورة على الأرض · نظرت الى السيدة سليد كما لو كانت تنظر الى شبح ·

« لا ، لا ــ لاتفعلي ، » قالت متلعثمة ·

« لم لا ؟ اسمعي ، ان كنت لاتصدقينني · حبيبتي الوحيدة ، لايمكن أن تستمر الأمور بهذا الشكل · لابد أن أراك وحدك · تعالي الى الكولوزيوم فوراً بعد حلــول الظلام غداً · سيكون هناك شخص يدخلك · لست بحاجة للخشية من ذلك الشخص ــ لكن ربما قد نسيتِ ما جاء في الرسالة ؟ »

تلقت السيدة آنسلي التحدي بتمالك غير متوقع · استندت مرتكزة على الكرسي ونظرت الى صديقتها وأجابت : « لا ، انني أحفظها عن ظهر قلب أنا أيضاً · »

« والتوقيع ؟ ـ لك وحدك ، د · س · ـ ألم يكن كذلك ؟ انني مصيبة، أليس كذلك ؛ تلك كانت الرسالة التي جعلتك تخرجين بعد الظلام في ذلك المساء ؟ »

كانت السيدة آنسلي لا تزال تنظر إليها · بدا للسيدة سليد أن صراعاً بطيئاً يدور خلف القناع المتماسك الطوعي على وجهها الصغير الهادىء · « لم يكن ليخطر لي أنها ستتمالك نفسها الى هذا الحد ، » دار ذلك في ذهن السيدة سليد ، بشيء من الغضب · لكن في تلك اللحظة تكلمت السيدة آنسلي · « لا أعرف كيف علمتِ · لقد أحرقت تلك الرسالة في الحال · »

« نعم ، هذا ما يتوقع منك ، بالطبع ـ انت رصينة جداً ! » أصبح الهزءمكشوفاً الآن · « وطالما أنك أحرقت الرسالة فانك تتساءلين كيف بحق الله أعرف ما الذي احتوته · الأمر كذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ »

انتظرت السيدة سليد ، لكن السيدة آنسلي لم تتكلم ·

« حسناً ، يا عزيزتي ،انني اعرف ما احتوته تلك الرسالة لأنني أنا كتبتها ! »

« أنت كتبتها ؟ »

« نعم · »

وقفت السيدتان لحظة تحدق الواحدة منهما في الأخرى تحت آخر شعاع ذهبي· ثم سقطت السيدة آنسلي من جديد على كرسيها · « آه ، » تمتمت ، وغطت وجهها بيديها ·

انتظرت السيدة سليد بعصبية كلمة أو حركة أخرى · لكن لم تصدر أية كلمة أو حركة ، وبعد فترة طويلة انفجرت : « انني أرعبك · »

سقطت يدا السيدة آنسلي على ركبتها · كان الوجه الذي كشفتا عنه مبللاً بالدموع · « لم أكن أفكر بك · كنت أفكر ـ لقد كانت الرسالة الوحيدة التي استلمتها منه قط ! »

« وأنا كتبتها · نعم ؛ أنا كتبتها ! لكنني كنت الفتاة المخطوبة له · هل حدث أن تذكرتِ ذلك ؟ »

انحنى رأس السيدة آنسلي من جديد · « انني لا أحــاول تبرير نفسي ··· لقد تذكرت ··· »

« ومع ذلك ذهبتِ ؟ »

« مع ذلك ذهبت · »

وقفت السيدة سليد تنظر نحو الاسفل الى الشخص المنحني الضئيل الى جانبها · كانت شعلة غضبها قد ذوت ، وتساءلت لم خطر لها أنه سيكون هناك أي شعور بالرضى ناجم عن تسبيب جرح عديم المعنى بهذا الشكل لصديقتها · ولكن اضطرت أن تبرر موقفهــا ·

« انك تقدرين الأمر ؛ لقد اكتشفتُ ــ وكرهتك ، كرهتك · عرفت أنك مغرمة بدلفين ــ وشعرت بالخوف ؛ بالخوف منك ، من أساليبك الهادئة ، عــذوبتــك ··· من ··· اذن ، أردت ابعادك من الطريق ، ذلك كل شيء · فقط لبضعة أسابيع ؛ فقط الى أن أتأكد منه · وهكذا في سورة عمياء من الغضب كتبت تلك الرسالة ··· لاأدري لم أخبرك بذلك الآن · »

« أعتقد ، » قالت السيدة آنسلي ببطء ، « لأنك استمررت دائماً في كرهي · »

« ربما · أو لأنني أردت أن أزيح الشيء بكليتــه عن تفكيري · » تــوقفت · « يسرني أنك تخلصت من الرسالة · بالطبع لم أفكر أبداً أنك قد تموتين · »

خلدت السيدة آنسلي الى الصمت ؛ وشعرت السيدة سليــد بشعــور غريب من العزلة ، وهي تنحني فوقها ، شعور بكونها انفصمت عن تيار العلاقات الانســانيــة الدافىء · « أنت تفكرين أنني وحش ! »

« لا أدري ··· انها الرسالة الوحيدة التي استلمتهــا ، وأنت تقولين أنــه لم يكتبها ؟ »

« آه ، كم أنك لا تزالين تهتمين بأمره ! »

« لقد اهتممت بتلك الذكرى ، » قالت السيدة آنسلي ٠

استمرت السيدة سليد تنظر إليها ٠ بدت أن الصدمة قد أضعفتها جسدياً ــ كما لو أن الريح ستبعثرها ، حين تنهض ، مثل نفخة من الغبـار ٠ فجـأة اضطرمت غيرة السيدة سليد من جديد لرؤية ذلك ٠ طوال هذه السنين عاشت هذه المرأة على تلك الرسالة ٠ يالمدى الحب الذي لابد أنها شعرت به تجاهــه ، كي تجـد ذخراً في مجرد ذكرى رمادها ٠ رسالة الرجل الذي كانت صديقتها مخطوبة له ٠ أليست هي الوحش؟

« لقد حاولت جهدك أن تأخذيه مني ، أليس كذلك ؟ لكنك فشلت ؛ واحتفظت أنا به ٠ ذلك كل ما في الأمر ٠ »

« نعم ٠ ذلك كل شيء ٠ »

« أتمنى الآن لو انني لم أخبرك ٠ لم تكن لدي أية فكرة أنك ستشعرين نحـو القضية بهذا الشكل ؛ ظننت أنها ستكون تسلية لك ٠ لقد حدث كل شيء منـذ أمـد بعيد ، كما تقولين ؛ وعليك أن تكوني عادلة نحوي بان تتذكري أنه لم يكن لدي أي سبب لأعتقد أنك ستحملين الأمر بجدية ٠ كيف كان بامكاني ، في حين أنك تزوجت هوراس آنسلي بعد ذلك بشهرين ؟ حالما أمكنك مغادرة السرير أسرعت أمك بـك الى فلورنسا وزوجتك ٠ لقد دهش الناس بعض الشيء ــ تسـاءلوا عن تلـك العجلـة بالزواج ؛ لكنني ظننت أنني أفهم ٠ ظننت أن دافعك كـان الغيظ ــ كي تستطيعي القول أنك سبقتني أنا ودلفين ٠ للبنات أسباب سخيفة بهذا الشكل للقيام بـأكثـر الأشياء جدية ٠ وزواجك بهذه السرعة أقنعني أنك لم تحفلي حقاً قط ٠ »

« نعم ، أعتقد أنه يعطي مثل هذا الانطباع ، » وافقت السيدة آنسلي ٠

خلت السماء الصافية فوقهما من ذهبها ٠ انتشر الغسق فيها ، معتماً الهضـاب السبع بشكل مفاجىء ٠ هنا وهناك بدأت الأضواء تبرق بين الأشجار تحت أقدامهما ٠ كانت الخطوات تروح وتجيء على الشرفة المهجورة ــ خـدم ينظرون من الباب عنـد أعلى الدرج ، ثم يظهرون من جديد يحملون صواني وفوطاً وزجاجات نبيذ ٠ حُركت بعض الطاولات ، وعُدّل وضع الكراسي ٠ ومض خيط واهن من الأضواء الكهربائية ٠

أزيحت بعض المزهريات ذات الزهور الذاوية ، وأعيدت وقد ملئت من جديد · فجأة ظهرت سيدة ممتلئة ترتدي معطفاً أغبر ، تسأل بايطالية مكسرة اذا كان أحـد قـد رأى ربطة المطاط التي كانت تحزم دليلها السياحي · تحسست بعصاها تحت الطاولة التي تناولت غداءها عليها والخدم يساعدونها ·

كانت الزاوية التي جلست السيدة سليد والسيدة آنسلي فيها لاتزال مظللة ، مهجورة · لم تتكلم أية منهما لفترة طويلة · أخيراً بدأت السيدة سليد من جديـد : « اعتقد أنني فعلت هذا كنوع من النكتة ــ »

« نكتة ؟ »

« حسناً ، الفتيات شرسات أحياناً ، كما تعلمين · خاصة الفتيات العاشقـات · وأذكر كيف ضحكت بيني وبين نفسي على فكرة أنك تنتظرين هناك في الظلام،متحاشية الأنظار ، مصغية الى كل صوت ، تحاولين الدخول ــ · بالطبع انزعجت حين سمعت أنك مرضت الى ذلك الحد فيما بعد · »

لم تكن السيدة آنسلي قد تحركت لوقت طويل · لكنها الآن التفتت ببطء نحو صاحبتها · « لكنني لم أنتظر · كان قد دبر كل شيء · لقد كان هناك · وأدخلناعلى الفور ، » قالت ·

نهضت السيدة سليد فجأة من وضعها المنحني · « دلفين هناك ؟ أدخلوكما ؟ ــ آه ، انك الآن تكذبين ! » انفجرت بعنف ·

أصبح صوت السيدة آنسلي أكثر وضوحاً ، وممتلئاً بالدهشة · « لكنه بالطبع كان هناك · طبعاً أتى ــ »

« أتى ؟ كيف عرف أنه سيجدك هناك ؟ لابد أنك تهذين ! »

ترددت السيدة آنسلي ، كما لو كانت تفكر · « لكنني أجبت على الرسالـة · أخبرته أنني سأكون هناك · وهكذا أتى · »

قذفت السيدة سليد كفيها على وجهها · « أوه ، يا الهي ــ أجبتِ ! لم يخطر لي قط · قيامك بالاجابة ··· »

« من الغريب أنك لم تفكري بذلك قط ، اذا كنت كتبت الرسالة · »

« نعم · كنت قد أعماني الغضب · »

نهضت السيدة آنسلي ، ولفت نفسها بمنديلها الفرائي · « المكان بارد هنا · الأفضل أن نذهب ··· انني آسفة لك ، » قالت ، وهي تحكم الفرو حول حنجرتها ·

سببت هذه الكلمات غير المتوقعة غصة في نفس السيدة سليد · « نعم ؛ الأفضل أن نذهب·» لملمت حقيبتها ورداءها · « لا أدري لم تشعرين بالأسف نحوي ، » قالت متمتمة ·

وقفت السيدة آنسلي تنظر بعيداً عنها الى كتلة الكلوزيوم السرية المعتمة · « حسناً ـ لأنني لم أضطر للانتظار تلك الليلة · »

ضحكت السيدة سليد ضحكة غير هادئة · « نعم ؛ لقد هُزمتُ في ذلك · لكن لايحق لي أن أحسدك على ذلك ، على ما أظن · بعد مضي كل هذه السنوات · فرغم كل ذلك ، حصلت أنا على كل شيء ؛ حصلت عليه لمدة خمس وعشرين سنة · ولم تحصلي أنت على شيء سوى تلك الرسالة التي لم يقم بكتابتها ·

صمتت السيدة آنسلي من جديد · في النهاية استدارت نحو باب الشرفة · خطت خطوة والتفتت من جديد ، مواجهة رفيقتها ·

« لقد حصلت على باربرا ، » قالت ، وبدأت تسير أمام السيدة سليد نحو الدرج ·

ولا كيثر

جنازة النحات *

وقفت مجموعة من أهالي البلدة على رصيف محطة مدينة صغيرة من مدن كانساس تنتظر قدوم القطار الليلي ، الذي تأخر عن موعده عشرين دقيقة حتى الآن . كان الثلج قد هطل سميكاً فوق كل شيء ؛ وفي نور النجوم الباهت ، قامت سلسلة من الأجراف المرتفعة على عرض السهول البيضاء الشاسعة جنوبي البلدة بتشكيل انحناءات لطيفة دخانية اللون في وجه السماء الصافية . وقف الرجال المجتمعون على الرصيف على قدم واحدة في البداية ، ثم على القدم الأخرى ، ملقين بأيديهم في عمق جيوب بناطيلهم ، ومعاطفهم الخارجية مفتوحة وأكتافهم محدودبة من البرد ؛ ومن وقت لآخر ألقوا نظرة تجاه الجنوب الشرقي حيث كان الخط الحديدي ينحني حذاء النهر . كانوا يتحدثون بنبرات منخفضة ويتحركون بصبر نافذ هنا وهناك ، تاركين انطباعاً بأنهم لايدرون ما الذي يُتوقع منهم . كان هناك شخص واحد فقط بين المجموعة يبدو وكأنه يعرف تماماً سبب وجوده هناك ، وكان يقف بعيداً عنهم بشكل يلفت النظر ، يتمشى الى الطرف البعيد من الرصيف ، ويعود الى باب المحطة ، ثم يسير من جديد بموازاة الخط الحديدي ، ذقنه غائصة في ياقة معطفه العالية وكتفاه العريضتان تتدليان الى الأمام وخطواته ثقيلة عنيدة . بعد فترة قصيرة ، اقترب منه رجل طويل

(*) "The Sculptor's Funeral" by Willa Cather . نشرت هذه القصة لاول مرة في عدد كانون الثاني ١٩٠٥ من مجلة **McClure's Magazine** ثم ظهرت في مجموعتين مختلفتين من قصص المؤلفة في ١٩٠٥ و ١٩٢٠ .

هزيل أشيب يرتدي ملابس عسكرية قديمة باهتة ، وكان قد انفلت من المجموعة واقترب بشيء من الاحترام ، يميل برقبته الى الأمام بحيث شكل ظهره معها زاوية كزاوية موسى مفتوحة ثلاثة أرباع الفتحة ·

« أتصور أنه سيتأخر تأخراً كبيراً هذه الليلة أيضاً ياجيم ، » قال بصوت حاد عالي الطبقة · « أفترض أن الثلج هو السبب · »

« لا أدري ، » أجاب الرجل الآخر ، بمسحة من الانزعاج ، وصدر كلامه من داخل شلال يبعثعلى الدهشة من الشعر الأحمر الذي هو لحيته والذي نما نمواًمتوحشاً وكثيفاً في جميع الاتجاهات ·

نقل الرجل الهزيل عود الأسنان الذي كان يمضغه الى جانب فمه الآخر · «ليس من المرجح أن يأتي أي شخص من الشرق مع الجثة ، على ما أعتقد ، » تابع كلامه متأملاً ·

« لا أدري ، » أجاب الآخر باقتضاب أشد من السابق ·

« من المؤسف أنه لم ينتم الى أي جمعية أو ناد · انني شخصياً أحب الجنازات المنظمة · انها تبدو أكثر ملاءمة للأشخاص ذوي الشهرة ، » تابع الرجل الهزيل ، وفي صوته الحاد تسليم متملق ، بينما وضع عود الأسنان بعناية في جيب صداره · كان هو الرجل الذي يحمل العلم دائماً في جنازات « جيش الجمهورية الكبير »(١) في البلدة ·

استدار الرجل الضخم دون أن يجيب ، ومشى على الرصيف · عاد الرجلالهزيل للانضمام الى المجموعة المضطربة · « ان جون معبأ كالقرادة ، كالصدفة ، » قال معلقاً برثاء ·

في تلك اللحظة ، سُمع صوت صفارة بعيدة ، وتحركت الأقدام على الرصيف · ظهر عدد من الفتيان الطوال النحيفين ، من جميع الأعمار ، بشكل فجائي وموحل كما تظهر أسماك الجنكليس التي يوقظها قصف الرعد ؛ أتى بعضهم من صالة الانتظار ، حيث كانوا يتدفأون بواسطة المدفأة الحمراء ، أو ينامون نصف نومة على المقاعد

(١) منظمة أسسها في الولايات المتحدة مجموعة من الرجال الذين اشتركوا في الحرب الأهلية مع القوى الشمالية ، وكان تاسيسها في عام ١٨٦٦ ·

القضبانية ؛ ونهض آخرون من عربات المتاع أو خرجوا من عربات القطار السريع · وهبط اثنان منهم من مقعد القيادة في عربة لدفن الموتى أوقفت بحيث كانت مؤخرتها عند الجدار الخشبي · رفعوا أكتافهم المائلة ورؤوسهم ، وسبب وميض الحيوية الموقتة بريقاً في أعينهم الخابية لدى سماع تلك الصرخة المتموجة الباردة ، النداء الموجه للرجال في جميع أنحاء العالم · لقد دفعتهم الى الحركة مثل صوت بوق ؛ تماماً كما كانت تدفع الرجل العائد الى بلدته هذه الليلة ، في صباه ·

اندفع قطار الليل السريع ، أحمر كالصاروخ ، خارجاً من الأراضي المستنقعية الشرقية والتف على ضفة النهر تحت الصفوف الطويلة من أشجار الحور المرتجفة التي وقفت خفيرة للمروج ، والبخار الهارب معلق في كتل رمادية في وجه السماء الشاحبة، ماحياً طريق المجرة · في لحظة اندفع الوهج الأحمر الصادر عن الأضواء الأمامية على السكة المغطاة بالثلج أمام المحطة ولمع على القضبان السوداء المبللة · سار الرجل الضخم ذو اللحية الحمراء الشعثة بخفة على الرصيف باتجاه القطار القادم ، كاشفاً رأسه أثناء سيره · ترددت مجموعة الرجال التي وقفت خلفه ، ونظر الواحد منهم الى الآخر بتساؤل ، ثم حذوا حذوه مرتبكين · توقف القطار ، واندفع الجمهور الى عربة القطار تماماً حين انفتح بابها ، ومد الرجل المرتدي اللباس العسكري رأسه الىالأمام بفضول · ظهر الرجل المسؤول عن العربة عند الباب ، يصاحبه شاب يرتدي معطفاً فضفاضاً وقبعة سفر ·

سأل الشاب : « هل أصدقاء السيد ميريك هنا ؟ »

تأرجحت المجموعة الواقفة على الرصيف بقلق · بوقار أجاب فيليب فلبس ، صاحب المصرف : « لقد أتينا لتولي أمر الجثمان · ان والد السيد ميريك ضعيف جداً وليس بامكانه التواجد هنا · »

« أحضروا الوكيل هنا ، » دمدم المسؤول عن العربة ، « واطلبوا من العامل أن يمد يد المساعدة · »

أ'خرج الكفن من صندوقه الخشن ووضع على الرصيف المغطى بالثلج · تراجع أهل البلدة بشكل كاف ليفسحوا مكاناً له ، ثم شكلوا نصف دائرة متراصة حوله ، ينظرون بفضول الى ورقة الغار الموضوعة على الغطاء الأسود · لم يفه أي شخص

بكلمة • وقف الرجل المسؤول عن المتاع بجانب عربته ينتظر استلام الحقائب • لهث المحرك متثاقلا ، واندفع الوقاد داخلا وخارجاً بين العجلات حاملا شعلتـه الصفراء وعلبة الزيت الطويلة ، يغلق صناديق الوشائع • نظر الشاب القـادم من بـوسطن ـ احد تلاميذ النحات المتوفي رافق الجثمان ـ حوله بيأس • التفت الى صاحب المصرف، الشخص الوحيد بين المجموعة السوداء القلقة المحدودبة الأكتاف الذي بدا ذا شخصية متميزة الى حد يكفي لأن يقوم المرء بمخاطبته •

« ألا يوجد أي من أشقاء السيد ميريك هنا ؟ » سأل مستريباً •

للمرة الأولى تقدم الرجل ذو اللحية الحمراء وانضم للآخرين • « لا ، انهم لم يأتوا بعد ؛ العائلة مبعثرة • سيؤخذ الجثمان الى البيت مباشرة • » انحنى وقبض على احد مماسك الكفن •

« اصعد الطريق الهضبية الطويلة يا تومبسن ، فانها ستكون اسهل للأحصنة ، » صاح صاحب العربة بينما قام الحانوتي بفتح باب عربة الدفن وتهيأ للصعود الى مقعد السـائق •

التفت ليرد ، المحامي ذو اللحية الحمراء ، الى الغريب مرة ثانية : « لم نـدر ما اذا كان سيأتي أي شخص معه أم لا ، » أخذ يشرح • « ان المسافة طويلة ،فالأفضل أن تصعد الى العربة • » وأشار الى عربة محطمـة الجـوانب وحيدة ، ولكن الشـاب أجاب بتصلب : « شكراً ، ولكن أظن أنني سأذهب مع عربة الدفن • اذا لم يكن لديك اعتراض ، » قال ملتفتاً الى الحانوتي ، « سأركب معك • »

تسلقا بجهد فوق العجلات ومضيا في ضوء النجوم على الهضبة البيضاء الممتـدة باتجاه البلدة • كانت المصابيح تشع في القرية الهادئة من أسفل السقوف المنخفضـة التي أثقل الثلج كاهلها ؛ ووراءها ، على كل جانب ، امتدت السهول حتى الخـواء ، مسالمة ، شاسعة كالسماء الناعمة نفسها ، ويطويها هدوء أبيض ملموس •

عندما تراجعت عربة الدفن نحو ممشى خشبي أمام منزل عار عركه الـدهـر ، كانت نفس المجموعة المركبة التي يصعب وصفهـا والتي وقفت على رصيف المحطـة متجمعة حول البوابة • كان الفناء الأمامي مستنقعاً ثلجياً ، وشكل لوحان خشبيان

ملتويان امتدا من الممشى الى الباب ما يماثل جسراً متداعيا • كانت البوابـة ترتكز على مفصل واحد وتم فتحها فتحة تامة بصعوبة •

لاحظ ستيفنس ، الشاب الغريب ، أن شيئاً أسـود قـد ربط بمقبض البـاب الأمامي •

أُجيب الصوت الخشن الذي أحدثه التابوت بينما كان يسحب من عربة الدفن بصرخة من المنزل ؛ انفتح الباب الأمامي واندفعت امرأة طويلة بدينة عارية الرأس خارجة في الثلج ورمت نفسها على النعش وهي تصرخ : « ابني ، ابني !وبهذهالطريقة عدت الى البيت إليّ ! »

بينما التفت ستيفنس مبتعداً وأغمض عينيه وهو يرتجف من الاشمئزاز الذي لا يمكن التفوه به ، اندفعت امرأة أخرى ، طويلة أيضاً ولكنها مستوية القامة بارزة العظام ، ملابسها سوداء جميعها ، وخرجت من البيت وأمسكت بكتفي السيدة ميريك وهي تصيح بحدة : « تعالي ، تعالي يا أمي ، يجب ألا تستمري بهذا الشكل ! »تبدلت لهجتها الى لهجة وقار خنوع حين استدارت نحو صاحب المصرف : « الصالون جـاهـز يا سيد فِلبس • »

حمل الرجال النعش وساروا فوق اللوحين الضيقين ، بينما جرى الحـانـوتي أمامهم يحمل سنادات الكفن • حملوه الى حجرة واسعة غير مدفأة صدرت عنها رائحـة الرطوبة وعدم الاستعمال وسائل تلميع الأثاث الخشبي ، ووضعوه تحت مصباح معلق تزينه مواشير زجاجية رنانه وأمام احدى « مجموعات روجرز »(٢) تمثل جون آلدن وبرسكيلا وتزينها باقة من الأوراق النباتية • حدق هنري ستيفنس فيما حوله بيقين يشعره بالرغبة في التقيؤ بأن هناك خطأ ما ، وبأنه بطريقة من الطرق وصل الى هدف خاطيء • نظر الى السجادة ذات اللون العشبي ومفارش الأثاث السميكـة الطويلـة

(٢) جون روجرز (١٨٢٩ ــ ١٩٠٤) نحات أمريكي أصبح مشهوراً بسبب مجموعاته النحتية التي لها طابع عاطفي ووصفي عادة والتي شاعت شيوعاً هائلا في تزيين غرف الصالونات وخاصة في المناطق الريفية • وجون آلدن هو أحد المستوطنين الاوائل في امريكا واستخدمه الشاعرالأمريكي لونغفلو كشخصية في احدى قصائده يحاول آلدن فيها كسب ود برسكيلا •

الزغب وبين القطع الخشبية والمعدنية والمزاهر المرسومة باليد بحثاً عن علامة مميزة ــ عن شيء من الممكن التفكير بأنه كان يوماً يخص هارفي ميريك · لم يشعر بالرغبة في السماح لأي من هؤلاء الناس بالاقتراب من الكفن الى أن تعرف على صديقه في اللوحة الشمعية لصبي صغير يرتدي تنورة اسكتلندية وشعره ذو لفائف معلقة فوق البيانو ·

« أزح الغطاء ياسيد تومبسون ؛ دعني أرى وجه ابني ، » قالت المرأة المسنـة وهي تعول بين نوبات بكائها · هذه المرة نظر ستيفنس بخوف ، تقريبـاً يتـوسل في وجهها الأحمر المنتفخ تحت كتل الشعر الأسود اللامع · تورد وجهه ، وخفض عينيه ، ثم ، وبعدم تصديق تقريباً ، نظر ثانية · كان هناك نوع من القوة في وجهها ــ بل ونوع من الوسامةالوحشية ؛ ولكن كانت تشوبه ندوب وأخاديد من العنف ، وقد لونته وصلّبته عواطف أكثر شراسة بحيث أنه لم يبد أن الحزن قد مسه أبداً بيد حانية · كان الأنف الطويل متضخماً ومتكوراً عند نهايته ، وأحاطت بـه خطوط عميقـة من جانبيه ؛ وكاد حاجباها السميكان الأسودان يلتقيان عبر جبينها ، وكانت أسنـانهـا كبيرة ، مربعة ، متباعدة ــ أسنان بامكانها أن تمزق · كانت تملأ الغرفة ؛ انمحى الرجال ، بدوا وكأنه ألقي بهم كقطع الأغصان في ماء هـادر ، وحتى ستيفنس شعر بأنه ينجرف نحو الدوامة ·

أما الابنة ــ المرأة الطويلة المهزولة التي ارتدت ملابس الحداد ، والتيوضعت مشط حداد في شعرها أطال وجهها الطويل بشكل يدعو الى الاستغراب ــ فقد جلست بتصلب على الكنبة ، ويداها ــ اللتان تلفتان الانتباه لضخامة مفاصلهما ــ مطويتان في حجرها ، وفمها وعيناها منخفضة ، تنتظر بوقـار فتح النعش · قرب الباب وقفت امرأة نصف زنجية ، من الواضح أنها خادمة في البيت ، وقفة مستكينة ووجهها النحيل حزين ورقيق بشكل يستدر الشفقة · كانت تبكي بصمت ، وطرف وزرتها القطنيـة مرفوع الى عينيها ، يكتم بين الحين والآخر نشيجـاً طويلاً مرتعشـاً · خطا ستيفنس نحوها ووقف الى جانبها ·

سمع وقع أقدام ضعيف على الدرج ، ودخل بشيء من عدم الثقة رجل مسن ، طويل وضعيف ، تفوح منه رائحة دخان الغليون ، وله شعر رمادي مشعث غير مسرّح، ولحية قذرة ملطخة قرب الفم بالتبغ·مشى ببطء نحو النعش ووقف يفتل منديلاً قطنياً

أزرق بين يديه ، ويبدو متألماً ومحرجاً بسبب عويل زوجته الصاخب بحيث لم يكن واعياً لأي شيء آخر ٠

« هاكِ ، هاكِ ، آني ، يا عزيزتي ، لاتتصرفي بهذا الشكل ، » ارتعش بمسكنة، ماداً يداً مرتجفة ربت بها بطريقة خرقاء على كوعها ٠التفتت وارتمت على كتفه بقدر من العنف جعله يترنح قليلاً ٠ لم يلق حتى نظرة سريعة باتجاه النعش ، بل تابع النظر اليها وعيناه تحملان تعبيراً بليداً خائفاً متوسلا كتعبير الكلب حين ينظر الى السوط ٠ احمرت وجنتاه الغائصتان ببطء واشتعلتا بشعور بائس بالعار ٠ حين هرعت زوجته خارجة من الغرفة ، مشت ابنتها خلفها مضمومة الشفتين ٠ تسللت الخادمة نحو النعش وانحنت فوقه للحظة ، ثم خرجت الى المطبخ تاركة ستيفنس والمحامي والأب وحدهم ٠ وقف الرجل المسن ينظر الى وجه ابنه الميت ٠ بدا رأس النحات الرائع أكثر نبلاً في سكونه القاسي مما كان في الحياة ٠ كان الشعر الفاحم قد زحف هابطاً على الجبهة العريضة ، وبدا الوجه طويلاً بشكل غريب ، ولم يكن فيه ذلك السكون الذي نتوقعه في وجوه الموتى ٠ كان الحاجبان مقطبان الى حد أن خطين عميقين تشكلا فوق الأنف المعقوف ، وبرزت الذقن الى الأمام بتحدٍ ٠ كان الأمر كما لو أن جهد الحياة كان حاداً ومراً لدرجة أن الموت لم يستطع في الحال التخفيف من التوتر وأن يلطف تعبير الوجه في سلام كامل ــ كما لو أنه لا يزال يحرس شيئاً ثميناً ، من الممكن حتى تلك اللحظة أن يُنتزع منه ٠

كانت شفتا الرجل الهرم تعملان تحت لحيته الملطخة ٠التفت الى المحامي باحترام مستكين : « سيعود فلبس والآخرون للبقاء مع هارف ، أليس كذلك ؟ » سأل ٠ « شكراً لك ياجيم ، شكراً لك ٠ » أزاح الشعر بحنان عن جبهة ابنه ٠ « لقد كان ابناً طيباً ياجيم ؛ دائماً ابناً طيباً ٠ كان رقيقاً كطفل وأكثرهم حنواً ــ لكن لم يفهمه أحد منا على الاطلاق ٠ » انحدرت الدموع ببطء على لحيته وسقطت على معطف النحات٠

« مارتن ، يامارتن ! آه ، يامارتن ! تعال هنا ، » قالت زوجته معولة من أعلى الدرج ٠ أجفل العجوز بهيبة : « نعم يا آني ، انني قادم ٠ » التفت مبتعداً وتردد ووقف لحظة في تردد بائس ؛ ثم مد يده وربت بنعومة على شعر الرجل الميت ، وتعثر خارجاً من الغرفة ٠

« يا للعجوز المسكين ، لم أكن أعتقد أنه بقي لديه أية دموع ٠ يبدو أنه من

المفروض أن تكون عيناه قد جفتا منذ أمد طويل · في مثل عمره لا يستطيع أي شيء أن يترك أثراً عميقاً ، » قال المحامي ·

شيء ما في لهجته جعل ستيفنس يرفع بصره · بينما كانت الأم في الغرفة ، لم يكد الشاب يرى أي شخص آخر ؛ لكن الآن ، منذ اللحظة التي رمق بها وجه جون ليرد المتورد للمرة الأولى وعينيه المحمرّتين ، أدرك أنه قد وجد ما لم يجده من قبل وما سبب له الأسى ألا يجده ـ وهو الاحساس ، الفهم ، الذي لابد أن يوجد في شخص ما ، حتى هنا ·

كان الرجل أحمر مثل لحيته ، منتفخ الملامح التي فقدت وضوحها من الانغماس في الشراب ، وذا عينين زرقاوين ملتهبتين · كان وجهه مجهداً ـ اجهاد رجل يكبح نفسه بصعوبة ـ وكان باستمرار ينتف لحيته بشيء من الغضب الوحشي · أخذ ستيفنس ـ الذي جلس قرب النافذة ـ يراقبه وهو ينوص المصباح الباهر بحركة غاضبة ، ثم يقف ويداه مشبوكتان وراءه ، محدقاً في وجه الأستاذ · لم يستطع منع نفسه من التساؤل عن الصلة بين وعاء البورسلان ومثل هذه الكتلة الهبابية من معجون الخزف ·

ترامى من المطبخ صوت جلبة ؛ وحين فُتح باب غرفة الطعام ، اتضح مغزاه · كانت الأم تعنف الخادمة لأنها نست تحضير التوابل لسلطة الدجاج التي كانت تُعدّ للمعزين · لم يكن ستيفنس قد سمع أبداً أي شيء شبيه بذلك ولو شبهاً ضئيلاً ؛ كان تعنيفاً متوجعاً عاطفياً درامياً فريداً بليغاً في قسوته المفرطة ، عنيفاً وغير مكبوح مثلما كان أساها قبل عشرين دقيقة · برعشة من القرف دخل المحامي غرفة الطعام وأغلق الباب الذي يصل بالمطبخ ·

قال حين عاد : « بروكسي المسكينة تنال نصيبها الآن · لقد جاءت عائلة ميريك بها من دار الفقراء قبل سنوات ؛ ولولا أن اخلاصها للعائلة يكبحها لأمكنها كما أظن أن تقص قصصاً تخثر الدم في عروقك · انها المرأة النخاسية التي كانت تقف هنا قبل برهة ، ومئزرها على عينيها · ان المرأة العجوز دوامة من العنف ؛ ليس هناك من شخص شبيه بها أبداً · لقد حولت حياة هارفي الى جحيم حين كان يعيش في بلدته ؛

لقد انتابه الشعور بالعار المرضي من جراء ذلك • ليس بامكاني معرفة كيف استطاع المحافظة على عذوبة طبعه • »

« لقد كان رائعا ، » قال ستيفنس ببطء ، « رائعاً ؛ ولكن حتى هذه الليلة لم أكن أدري الى أي حد كانت هذه الروعة • »

« ذلك هو الشيء الذي سيظل عجيباً أبداً ، على كل حال ؛ أنّ بامكان ذلك الطبع أن يخرج من كومة روث مثل هذه ، » صاح المحامي ، بحركة شاملة بدا أنها تشير الى أكثر بكثير من الجدران الأربعة التي كانا يقفان بينها •

« أعتقد أنني سأحاول استنشاق بعض الهواء النقي • هذه الغرفة مغلقة الى درجة أنني قد بدأت أشعر بشيء من الدوار ، » تمتم ستيفنس ، وهو يحاول جاهداً فتح احدى النوافذ • لكن الاطار كان محكم الاغلاق وأبى أن ينفتح ، لذلك جلس بكآبة وبدأ يشد ياقته • اقترب المحامي وأطلق الاطار بضربة واحدة من قبضته الحمراء ورفع النافذة بضع بوصات • شكره ستيفنس ، ولكن الغثيان الذي كان خلال نصف الساعة الماضي يصعد تدريجياً الى حلقه ترك لديه رغبة وحيدة ــ شعوراً يائساً بأن عليه أن يغادر هذا المكان مصطحباً ما تبقى من هارفي ميريك • آه ، انه يفهم الآن فهماً كافياً المرارة الهادئة في الابتسامة التي طالما رآها على شفتي أستاذه !

مرة عند عودة ميريك من زيارة لبلدته ، أحضر معه نقشاً بارزاً فريداً في انفعاليته وايحائه يمثل امرأة عجوزاً نحيلة ذاوية ، جالسة تخيط شيئاً موضوعاً على ركبتها ، بينما جلس الى جانبها غلام ممتلىء الشفتين مليء بالحيوية ، بنطاله مثبت بحمالة واحدة ، يشد رداءها بصبر نافذ ليلفت انتباهها الى فراشة اصطادها • سأل ستيفنس ــ الذي أثر فيه أثراً بالغاً التصميم الدقيق للوجه النحيل المتعب ما اذا كان وجه أمه • وهو يذكر التورد المعتم الذي التهب في وجه النحات •

كان المحامي يجلس على كرسي هزاز بجانب النعش ، رأسه ملقى الى الوراء وعيناه مغمضتان • نظر اليه ستيفنس بحرارة، وقد أثار عجبه شكل الذقن ، ومتسائلاً لماذا يخفي رجل من الرجال جزءاً مميزاً بهذا الشكل وراء صدمة اللحية المشوّهة • فجأة ، وكأنه أحس بنظرة النحات الشاب الحادة ، فتح جون ليرد عينيه •

« هل كان دائماً منطوياً الى حد كبير ؟ » سأل بشكل مفاجيء · « لقد كان خجولاً جداً في صباه · »

« نعم لقد كان منطوياً طالما اخترتَ هذا التعبير ، » أجاب ستيفنس · « رغم أنه كان يشغف ببعض الناس الى حد كبير ، كان دائماً يترك الانطباع بانه منعزل · لم يكن يستسيغ العواطف العنيفة ؛ كان من النوع المتأمل ، والى حد ما لم يثق بنفسه ـ إلاّ فيما يتعلق بعمله بالطبع · كان لديه ثقة كافية في ذلك المجال · كان لـديـه عدم ثقة كاملة بالرجال وأكثر حتى بالنساء ، لكن بشكل ما دون أن يعتقد بـوجـود السوء فيهم · كان مصراً بالتأكيد على أن يعتقد خير اعتقاد ، ولكن كان يبدو خائفـاً أن يتحرى · »

« الكلب الذي عاني من الحرق يخشى النار ، » قال المحامي بعبوس ، وأغمض عينيـه ·

استرسل ستيفنس في أفكاره ، معيداً تركيب الصبا البائس بأكمله · لقد كانت كل هذه البشاعة الفجة القارصة نصيب الرجل الذي قدر لعقله معرض لاينضب من الانطباعات الجميلة ـ حساس الى حد أن مجرد خيال ورقة صفصاف ترتعش منعكسـاً على حائط مشمس كان يُحضر ويثبت الى الأبد · بالتأكيد اذا استحوذ أي رجل على كلمة السحر في أطراف أنامله ، فذلك الرجل هو ميريك · كان يكشف أقـدس أسرار أي شيء يلمسه ؛ يحرره من السحر ويعيد اليه جمالـه الأصلي · لقـد ترك سجـلاً جميلاً للتجربة على أي شيء تفاعل معه ـ نوع من التوقيع الاثيري ؛ رائحة ،صوت ، لون كان خاصاً به ·

فهم ستيفنس الآن المأساة الحقيقية في حياة استاذه ؛ لم تكن الحب ولا الخمر كما خمن الكثيرون ؛ ولكن ضربة هوت في زمن أسبق ، وجرحت جرحاً أعمق ممـا كان بامكان أي شيء آخر أن يفعله ـ شعور بالعار لايخصه ، ولكن مع ذلـك يخصـه جـداً وبشكل لا مهرب منه ، يخبئه في صدره منذ مطلع صباه · وفي الخارج ـ حربالحدود؛ توق صبي ، ألقي به الى الشاطيء في صحراء من الجدّة والبشاعة والوساخة ، لكـل ما هو طاهر وقديم ونبيل في التقاليد ·

في الساعة الحادية عشرة ، أعلنت المرأة الطويلة النحيلة المرتدية السواد أن المعزين قد وصلوا وطلبت منهما « التفضل الى غرفة الطعام • » حين نهض ستيفنس، قال له المحامي بجفاء : « اذهب انت ــ ستكون تجربة جيدة لك • أما أنا فليست لدي القوة لرؤية ذلك الحشد الليلة ؛ لقد تحملتهم مدى عشرين سنة • »

حين أغلق ستيفنس الباب وراءه نظر خلفه الى المحامي ، جالساً الى جانب الكفن في الضوء الخافت ، وذقنه مستندة الى يده •

دخلت غرفة الطعام نفس المجموعة الضبابية التي وقفت قبل ذلك أمام باب عربة القطار السريع • في ضوء مصباح الكاز تفرقوا وغدوا أفراداً • اتخذ القسيس ــ رجل شاحب ضعيف المظهر ذو شعر أبيض بينما كان الشعر الذي ينمو على ذقنه أشقر ــ مجلسه الى جانب طاولة جانبية صغيرة ووضع كتابه المقدس عليها • جلس رجل « جيش الجمهورية الكبير » خلف المدفأة وأمال كرسيه الى الوراء بحيث استند بشكل مريح الى الحائط ، ونقب جيب صداره بحثاً عن عود أسنانه • وجلس المصرفيان ــ فلبس وألدر ــ منعزلين في زاوية خلف طاولة الطعام ، حيث كان بامكانهما متابعة بحثهما لقانون ربا جديد ولتأثيره على قروض الأموال المنقولة • سرعان ما انضم اليهما صاحب المكتب العقاري ، رجل مسن ذو وجه باسم منافق • وجلس تاجر الفحم والخشب وشاحن الماشية على طرفين متقابلين من موقد الفحم وقدماهما على صينية القصدير • أخرج ستيفنس كتاباً من جيبه وأخذ يقرأ • تناول الحديث الدائر حوله مواضيع مختلفة ذات أهمية محلية بينما أخذ البيت يخلد الى السكون • حين أصبح من الواضح أن أفراد العائلة خلدوا الى النوم ، حرك رجل « الجيش الكبير » كتفيه واذ حاول أن يفلت احدى رجليه الطويلتين عن الاخرى اشتبك كعباه بأطراف الكرسي •

« أعتقد أنه ستكون هناك وصية يافلبس ؟ » سأل بصوته الحاد الضعيف •

ضحك المصرفي بشكل يبعث النفور وأخذ يقلم أظافره بموسى ذات مقبض لؤلؤي •

« لا يكاد يكون من حاجة الى وصية ، أليس كذلك ؟ » سأل بدوره •

غير رجل « الجيش الكبير » وضعه من جديد ، رافعاً ركبتيه الى مكان أكثر قرباً

من ذقنه · « لكن الرجل المسن يقول أن هارف قد حقق نجاحاً لا بـأس به مؤخراً ، » قال مزقزقاً ·

تكلم المصرفي الآخر · « أظن أنه يعني بذلك أن هارف لم يطلب منه أن يرهن أية مزارع جديدة مؤخراً ، من أجل أن يتابع تعليمه · »

« لا يبدو أن عقلي يستطيع الرجوع الى زمن لم يكن هارف يتلقى فيه تعليمه ، » قال رجل « الجيش الكبير » هازئاً ·

صدرت قهقهة عامة · أخرج القسيس منديله وتمخط بصوت رنـان · أغلق المصرفي فلبس موساه بطرقة · « من المؤسف أن أبناء الرجل المسن لم يكونوا أفضـل مما هم ، » علق بسلطة متأملة · « انهم لم يتكاتفوا معاً أبداً · لقد صرف على هارف مالاً كافياً لتزويد عشر مزارع لتربية الماشية · وكان كأنه يصب هذا المال في ساند كريك (جدول الرمل) · لو بقي هارف في البلدة وساعد في العناية بـالقليل الذي كان لديه ، وأصبح شريكاً في مزرعة أبيه السفلى ، لربما غدوا جميعاً في حالة جيدة · ولكن اضطر العجوز لأن يعهد بكل شيء للمستـأجرين وكـان يتعرض للغش يمنـة ويساراً · »

« لم يكن بامكان هارف تولي أمر الماشية قط ، » تدخل تاجر الماشيـة · « لم يكن لديه الذكاء الكافي · هل تذكرون حين اشترى بغال ساندرز على أنهما في الثامنة من العمر، في حين كان كل شخص في البلدة يعرف أن حما ساندرز قد أعطاهما لزوجته كهدية زفاف قبل ثمانية عشر عاماً ، وأنها كانت بغالاً مُسنّة في ذلك الحين ؟ »

ضحك الجمع بتأدب ، وفرك رجل « الجيش الكبير » ركبتيه في فورة من السرور الطفولي ·

« لم يكن هارف يساوي الكثير في أي مجال عملي ، وبالتأكيـد لم يكن شغفـاً بالعمل ، » بدأ تاجر الفحم والخشب · « أذكر آخر مرة زار فيها البلـدة ؛ في يـوم مغادرته ، حين خرج العجوز الى المعلف ليساعد أجيره في اعداد عربة لأخـذ هارف الى القطار وكان كال موتس يصلح السياج ، خرج هارف ووقف على الدرج يغني بصوته الذي كان يشبه صوت السيدات : كال موتس ، كال موتس ! أرجو أن تـأتي وتربط حقيبتي · »

« هكذا كان هارف بالفعل ، » قال رجل « الجيش الكبير » موافقاً . « لا أزال أستطيع سماعه وهو يصيح ، عندما كان فتى كبير الحجم يرتدي البنطال الطويل وكانت أمه تجلده بالسوط في المعلف لتركه الأبقار تدخل حقل الذرة عندما كان يسوقها عائداً بها الى البيت من المرعى . لقد قتل احدى أبقاري بتلك الطريقة ذات مرة ـ بقرة أصيلة وأحسن حلوب كانت لدي ، واضطر العجوز لتقديم بديل لها . أما هارف فقد كان يراقب غروب الشمس عبر الأراضي المستنقعية حين جنحت البقرة . »

« لقد ارتكب الأب خطيئته الأساسية حين أرسل الفتى للدراسة في الشرق ، » قال فلبس مربتاً على لحيته الصغيرة المشذبة ومتكلماً بلهجة مدروسة حكيمة . « لقد امتلأ عقله بالهراء هناك . ما كان هارف ـ من بين كل الناس ـ بحاجة اليه هو دورة في كلية تجارة في كانساس من كليات الدرجة الأولى . »

أخذت الحروف تسبح أمام عيني ستيفنس . هل من الممكن أن يكون هؤلاء الرجال لايفهمون ، أن ورقة الغار على النعش لم تعن شيئاً بالنسبة لهم ؟ كان اسم بلدتهم نفسه سيبقى الى الأبد مدفوناً في دليل دائرة البريد لولا أنه يذكر بين الحين والحين في العالم فيما يتعلق بهارفي ميريك . تذكر ما قاله أستاذه له يوم موته ، بعد أن أغلق احتقان كلتا الرئتين أي احتمال للشفاء ، وطلب النحات من تلميذه ارسال جسده الى بلدته . « انها ليست مكاناً لطيفاً ليستلقي فيه المرء بينما يتحرك العالم وينجز ويتحسن ، » كان قد قال وعلى فمه ابتسامة واهنة ، « ولكن يبدو وكأنه يجب علينا العودة الى المكان الذي قدمنا منه ، في النهاية . سيأتي أهل البلدة ليلقوا نظرة عليّ ؛ وبعد أن يقولوا ما لديهم ، لن يكون هناك ما أخشاه خشية كبيرة من قضاء الله ! »

استلم تاجر الماشية التعليق . « ليس من عادة فرد من عائلة ميريك أن يموت صغيراً في الأربعين ؛ فهم عادة يعمرون بقدر جيد . قد يكون ساعد القدر بتناول الويسكي . »

« أهل أمه لم يعمروا طويلاً ، ولم يكن هارفي ذا بنية قوية قط ، » قال القسيس باستكانة . كان يود لو أنه يقول أكثر من ذلك . لقد كان هو أستاذ الصبي في مدرسة

الأحد(٣) وكان شغوفاً به ؛ لكنه شعر أنه لم يكن في مركز يؤهله لأن يتكلم · فابناؤه هو لم يفلحوا ، ولم تمض سنة بعد منذ قام أحدهم بآخر رحلة له الى البلدة في عربة القطار السريع ، بعد أن أطلق الرصاص عليه في دار للقمار في « الهضاب السود · »

« ومع ذلك ، فلا جدال في أن هارف كثيراً ما تطلع الى النبيذ لدى احمراره ، وتلونه بألوان أخرى ، وبالتأكيد جعله ذلك أحمقاً غير عادي ، » قال رجل الماشية واعظاً ·

في تلك اللحظة تماماً أحدث الباب الذي يقود الى الصالون اهتزازاً ذا ضجة وأجفل الجميع بشكل تلقائي ، ثم بدا عليهم الارتياح حين خرج جيم ليرد وحده · طأطأ رجل « الجيش الكبير » رأسه حين رأى الوميض في عينيه الزرقاوين المحمرتين · كانوا كلهم يخشون جيم ؛ كان سكيراً ، ولكن في مقدوره أن يدير القانون ليناسب متطلبات موكله بشكل لا يستطيعه أي شخص آخر في غرب كانساس بأكملها ، وقد حاول ذلك الكثيرون · أغلق المحامي الباب وراءه واستند اليه بظهره وشبك ذراعيه ورأسه يميل بعض الشيء الى أحد الجانبين · حين يتخذ هذه الوقفة في قاعة المحكمة ، فان الآذان كلها تصغي ، لأن هذا الوضع كان ينبيء أن سخرية مدمرة ستتبع ·

« لقد جلست في صحبتكم أيها السادة من قبل ، » بدأ حديثه بلهجة جافة مستوية ، « حين جلستم قرب نعوش فتية ولدوا ونشؤوا في هذه البلدة ؛ واذا كنت أذكر بشكل صحيح فأنتم لم تكونوا قانعين كثيراً في أي من الحالات حين قمتم بتفحصهم · ما الأمر ، على كل حال ؟ ما السبب أن الشبان اللامعين نادرون ندرة أصحاب الملايين في ساندسيتي (مدينة الرمل) ؟ من المحتمل تقريباً أن يبدو للغريب أن هناك شيئاً خاطئاً ما في بلدتكم التقدمية · لماذا أدمن روبن سير ــ ألمع محام شاب خرج من بينكم ــ على الشراب بعد عودته لبلدته من الجامعة نزيهاً كالنرد ، وقام بتزوير شيك وأطلق الرصاص على نفسه ؟ لم مات ابن بيل ميريت مرتعشاً في حانة في أوماها ؟ لم أطلق الرصاص على ابن السيد توماس ، هذا ، في دار للقمار ؟ لم أحرق آدامز الشاب طاحونه لخداع شركات التأمين وانتهى في زنزانة ؟ »

(٣) تقوم الكنيسة باعطاء دروس دينية (واحيانا دنيوية) يوم الاحد ويطلق على سلسلة الدروس هذه اسم مدرسة الأحد ·

توقف المحامي وفك ذراعيه عن بعضهما ، واضعاً قبضة من قبضتيه على الطاولة• « سأخبركم السبب • لأنكم لم تملأوا آذانهم بغير النقود والاحتيال منذ كانوا يرتدون البناطيل القصيرة ؛ لأنكم أسهبتم في انتقادهم مثلما أخذتم تنتقدون هنا الليلة ، واضعين صديقينا فلبس وإلدر كمثلين لهما ، مثلما اتخذ اجدادنا جورج واشنطن وجون آدامز • لكن الفتية كانوا صغاراً ، ولم تكن لديهم الخبرة في العمل الذي عهدتم به اليهم ، وكيف كان باستطاعتهم مجاراة فنانين مثل فلبس وإلدر ؟ لقد أردتموهم أن يكونوا محتالين ناجحين ؛ ولكنهم كانوا محتالين فاشلين ـ هذا هو كل الفرق •كان هناك فتى واحد فقط نشأ في هذا الخط الفاصل بين الوحشية والحضارة لم ينته نهاية مؤسفة ، ولقد كرهتم هارفي ميريك لنجاحه اكثر مما كرهتم جميع الفتية الآخرين الذين وقعوا تحت العجلات •

« يا الهي ، يا الهي ، كم كرهتموه ! ان فلبس ، هنا ، مولع بالقول بأنه يستطيع شراءنا وبيعنا جميعاً في أي وقت يشعر فيه بالرغبة في ذلك ؛ لكنه كان يعرف أن هارف لم يكن ليعطي درهماً زائفاً مقابل مصرفه ومزارع ماشيته كلها اذا ما جمعت معاً ؛ وان عدم التقدير ، بهذا الشكل ، له تأثير كبير على فلبس •

نِمرود العجوز يعتقد أن هارف أفرط في الشراب ؛ وهذا يصدر عن أمثال نِمرود وأمثالي **أنا** !

« الأخ إلدر يقول أن هارف تصرف بحرية مسرفة بنقود العجوز ـ ربما لم يكن ابناً باراً • لكننا جميعاً نستطيع أن نذكر حتى اللهجة التي أقسم الأخ إلدر بها أن والده نفسه كان كاذباً في محكمة الناحية ؛ وكلنا نعلم أن العجوز خرج من الشراكة مع ابنه عارياً كخروف اجتز صوفه • لكن ربما أنني أتعرض لمسائل شخصية،والأفضل أن أمضي رأساً الى ما أود قوله • »

توقف المحامي لحظة ، ورفع كتفيه العريضين وتابع كلامه : « لقد ذهبنا ـ هارفي ميريك وأنا ـ الى الجامعة معاً ، في الشرق • كنا مخلصين في نوايانا تماماً ، وأردناكم جميعاً أن تفخروا بنا يوماً ما • لقد عزمنا أن نكون رجلين عظيمين • حتى أنا ـ وانني لم أفقد روح الدعابة التي لدي أيها السادة ـ عزمت أن أكون رجلاً

عظيماً . ثم عدت هنا للتمرن ، ووجدت أنه لم تكن لديكم أدنى رغبة في أن أكون رجلاً عظيماً . لقد أردتموني أن أصبح محامياً بارعاً ـ آه ، نعم ! محاربنا المتقاعد هنا أرادني أن أحصل له على زيادة في الراتب التقاعدي ، لأنه يعاني سوء الهضم ؛ وأراد فلبس أن تمسح أراضي الناحية مسحاً جديداً بحيث توضع مزرعة الأرملة ويلسن الصغيرة الخصبة داخل حدوده الجنوبية ؛ وأراد إلدر أن يقرض النقود بفائدة خمسة بالمئة في الشهر وأن تجبى هذه القروض ؛ وستارك هنا أراد اغراء النساء العجائز في ولاية فرمونت بأن يستثمرن مخصصاتهن في أملاك مرهونة لاتساوي الورق الذي تكتب عليه ، آه ، لقد كانت حاجتكم الي حاجة كبيرة بما فيه الكفاية ،وستبقون في حاجة الي !

« اذن فقد عدت هنا وأصبحت المخاتل اللعين الذي أردتموني أن أكونه . انكم تتظاهرون انكم تحملون شيئاً من الاحترام نحوي ؛ لكنكم تقفون وتلقون بالوحل على هارفي ميريك ، الذي لم تستطيعوا توسيخ روحه أو ربط يديه . آه ، انكم فئة من المسيحيين المميّزين ! لقد مرت أوقات كانت رؤية اسم هارفي في احدى الصحف الشرقية تجعلني أطأطيء رأسي مثل كلب عوقب بالجلد ؛ وكذلك أوقات كنت أحب فيها التفكير به طليقاً هناك في العالم ، بعيداً عن مرتع الخنازير هذا بأكمله ، يتسلق الطريق الصاعد النظيف الكبير الذي اختاره لنفسه .

« ونحن ؟ الآن بعد ما عاركنا وكذبنا وتصببنا عرقاً وسرقنا،وشعرنا بالكراهية كما يعرف ، وحدهم ، المكافحون الخائبون في بلدة غربية صغيرة مرة ميتة كيف يكرهون ، ما الذي جنيناه من ذلك ؟ لم يكن هارفي ميريك ليبادل غروب شمس واحد فوق أراضيكم المستنقعية بكل ما تملكونه مجتمعاً ، وأنتم تعرفون هذا . انه ليس في متناولي أن أعرف السبب الصادر عن حكمة الله الخفية في أن يبرز عبقري من مكان الكراهية والمياه المرة هذا ؛ لكنني أريد لهذا الرجل القادم من بوسطن أن يعرف بأن التخريف الذي سمعه هنا الليلة هو الاجلال الوحيد الذي يمكن لأي رجل عظيم حقاً أن يحصل عليه من حفنة من المفترسين المرضى المنحرفين المعسرين كرجال المال في ساندسيتي الحاضرين هنا ـ وليشمل الله هذه البلدة برحمته ! »

مد المحامي يده الى ستيفنس أثناء مروره به ، وأمسك بمعطفه في الممر ، وغادر

المنزل قبل أن يتاح المجال لرجل « الجيش الكبير » أن يرفع رأسه المحني ويدير عنقه الطويل حوله نحو زملائه ٠

في اليوم التالي كان جيم ليرد سكرانا ، غير قادر على حضور طقوس الجنازة ٠ ذهب ستيفنس مرتين الى مكتبه ، ولكنه اضطر للتوجه الى الشرق دون أن يراه ٠ كان لديه شعور أنه سيسمع منه ثانية ، وترك عنوانه على طاولة ليرد ؛ لكن اذا كان ليرد قد وجده ، فانه لم يعط أي اشعار بذلك ٠ ولا بد أن الشيء الذي كان هارفي ميريك يحبه فيه قد دفن تحت التراب مع نعش هارفي ميريك ، لأنه لم يجهر بالحديث ثانية ٠ وقد أصيب جيم بالزكام الذي أودى بحياته بسبب قطعه جبال كولورادو للدفاع عن واحد من أبناء فلبس كان قد تعرض للمتاعب هناك بسبب قطعه أشجاراً تملكها الحكومة ٠

ايلين
غلاسغو

جوردان إند .. *

عند تفرع الطريق انتصبت الشجرة الميتة التي جثمت الصقور عليها ، ومن خلال أغصانها شاهدت آخر وميض للغروب • على كلا الجانبين ، ارتمت غابات تشرين في مجموعات متكسرة في وجه السماء • حين توقفت' بدت وكأنها تقترب مني وتحيطني بأشكال مبهمة براقة • خيل لي أنني أمضيت ساعات في الطريق ؛ ولكن الزنجي" العتيق الذي أوصل لي الخبر ، قال لي أن أتبع طريق «أولد ستيج » الى أن أصل الى « شجرة الصقور » عند التفرع • « من تلك النقطة تصبح قريباً جداً من بيت السيد جوردان ، » أكد العجوز لي ، مضيفاً برجفة ، « وتقول الآنسة(١) الشابة أن عليك المجيء بأسرع ما يمكنك • كنت شاباً حينذاك (كان ذلك قبل أكثر من ثلاثين عاماً) وكنت قبل فترة قصيرة قد بدأت ممارسة الطب في احدى مقاطعات فرجينيا الأكثر انعزالاً •

توقفت فرسي ، وانحنيت الى الأمام أتطلع عبر كل من الطريقين المتعرجين ، من نقطة بدء تفرعهما تحت أغصان نصف عارية ، واحدق في السديم الخريفي على البعد•

(*) من مجموعة The Shadowy Third and Other Stories by Ellen Glasgow التي نشرت عام ١٩٢٣ ، ويلاحظ هنا أن عنوان القصة هو اسم مكان ، ولكنه في ذات الوقت يعني « نهاية جوردان » ولابد أن القارىء سيلحظ قيمة هذا الازدواج في المعنى لدى قراءته للقصة •

(١) احدى صفات اللغة التي يستعملها أمثال هذا العجوز هي اطلاق كلمة « آنسة » على أية سيدة شابة •

بعد قليل سيتلاشى اللون الأحمر من السماء • وستجدني الليلة الباردة وأنا لا أزال أتردد بين هذين الطريقين المحيرين اللذين امتدا على ما يبدو الى عزلة هائلة • بينما أخذت أنتظر متردداً ، اهتزت الأغصان فوقي وسقطت ريشة صقر مستقرة على الرداء الذي كان يغطي ركبتي • في محاولة للتغلب على الكآبة ، ضحكت ضحكة عاليةوخاطبت فرسي بلهجة مرحة :

« سنختار أكثر الطريقين وحشة ، وسوف نرى أين يقودنا • »

لدهشتي ، جاءني من الاشجار التي كانت خلفي جواب على كلماتي • « اذا كنت ذاهباً الى دكان ايشام ، فابق على طريق (أولد ستيج) • »

استدرت بسرعة ، ورأيت رجلاً عجوزاً جداً قلص الهرم شكلـه ، واحـدودب ظهره ، وكان يجر حملا من حطب الصنوبر ، ويخرج به من الغابة • رغم أنه انحنى بحيث لم يكد رأسه يعلو عن دولاب عربتي ، فقد بدا ذا حيوية غير معتادة لرجـل في مثل سنه وضعفه • كان يلبس معطفاً خشناً لونه بني كلون بعض الأخشاب،واستطعت أن أرى تحته وزرته وبنطاله الأزرق • لمعت عيناه الـذكيتـان بمكر تحت كتلـة من الشعر الشائب ، وبرزت ذقنه المشعثة الى الأمام بحيث كادت أن ترتطم بانحناء أنفه الهابط • أذكر كيف فكرت أن سنه قارب المئة عام حتماً ؛ فقد تغضن جلده ولاحت عليه آثـار تقلبات الطقس الى حد أنني على البعد ظننت خطأ أنه من الزنوج •

انحنيت بأدب وقلت مجيباً : « شكراً ، ولكنني أقصد (جوردانز إند) • »

قال بصوت منخفض يشبه صوت الدجاج : « اذن عليك اتباع الطريق الرديئة • ذاك هو منعطف (جوردان) • » وأشار الى الطريق الغائرة الموحلة في الجهة اليمنى • « وإذا لم يكن لديك اعتراض على صحبة قصيرة ، فسأكون شاكراً ان أركبتني معك • انني ذاهب هناك أيضاً وعلي أن أجر قطع الحطب هذه مسافة طويلة • »

بينما كنت أسحب ردائي وأوسع مكاناً له ، أخذت بمراقبته وهو يكدس حطب الصنوبر الراتنجي في العربة ، ثم يندفع برشاقة الى مكانه بجانبي •

« اسمي بيتركن ، » قال معرفاً نفسه • « انهم يدعونني الأب بيتركن مثلما

يفعل أحفادي ٠ » اعتقدت أنه كان شخصاً مهذاراً ولن يكره اعطائي المعلومات التي أردتهـا ٠

« ليس هناك كثيرون يسلكون هذه الطريق ، » قلت مبتدئاً حديثي ونحن ننطلق من الفسحة المكشوفة الى نفق الأشجار العميق ٠ طوقنا الشفق على الفـور ، رغم أن الاشعاع الفسقي لم يزل يلوح جلياً في السماء بين الفينة والأخرى ٠ كـان الهـواء قارساً بسبب لذعة الخريف وبسبب أبخرة الأوراق العفنة وهبوب دخان الحطب ونكهة التفاح المهروس الناضج ٠

« لا أستطيع تذكر أي شخص غريب قام بزيارة (جوردانزإند) حتى ولو كان طبيباً ٠ ألست الطبيب الجديد ؟ »

« نعم أنا الطبيب ٠ » نظرت الى الشبح الذي بدا شبيهاً بقزم من أقزام الجان في معطفه البني الحطبي ٠ « هل لا زال المكان بعيداً ؟ »

« كلا يا سيدي ، سنكون تقريباً هناك حالما نخرج من غابة (وتن) ٠ »

« اذا لم تكن الطريق مطروقة كثيراً ، فكيف صدف أنك ذاهب" هناك ؟ »

دون أن يلفت رأسه ، هز العجوز وجهه الذي بدا من زاوية جانبية كالهلال ٠ « أوه ، انني أعيش هناك ٠ ابني توني يعمل بعض الشيء في المزرعة محاصصة ، وأنا أساعد أيضاً وقت الحصاد أو حين تذرية الذرة ٠ وبين الفينة والأخرى أقوم بالمساعدة في تحضير شراب التفاح ٠ كان السيد الكبير يدير المكان بهذا الشكل قبل أن يصـاب بالخبل ، والآن بما أن الشاب مريض ، ليس هناك من يعنى بالمزرعـة سوى الآنسـة جوديث ٠ ليس لتلك السيدات الهرمات أي اعتبار ٠ انهن ثلاث ولكنهن جميعاً مشوشات الفكر ويبدو منظرهن وكأن الصقور قامت بنقرهن ٠ أظن أن هـذا نتيجة مكوثهن منغلقات مع أناس مجانين في ذلك البيت القديم المتداعي هناك ٠ لم يصلـح السطـح منذ زمن بعيد ومعظم ألواحه قد تعفنت ، وهناك كما يقول توني بعض الأحيان التي يصعب عليك فيها أن تسمع شيئاً بسبب الضجيج الذي تحدثه العصافير والجرذان فوق رأسك ٠ »

« ما الذي ألمّ بهم ــ أعني عائلة جوردان ؟ »

« مجرد أنهم تدهوروا كما أعتقد يا سيدي · »

« ألم يبق أي رجل في العائلة ؟ »

لفترة دقيقة لم يعط الأب بيتركن أية اجابة · ثم غير مكان حزمة أحطاب الصنوبر ، واستجاب للسؤال بحذر · « الشاب آلان ، فهو لا يزال يعيش في ذلك المكان القديم ، ولكنني سمعت أنه أصيب وسيرحل مثل جميع الآخرين · انها محنة قاسية للآنسة جوديث ، يالها من شابة مسكينة،ولها صبي في التاسعة هو صورة مطابقة تماماً لأبيه · آه ، انني أذكر الزمن البعيد حين كان السيد تيموثي جوردان أكثر الناس اعتزازاً في جميع هذه الأرجاء ؛ ولكن بدأت الأمور بعد الحرب تتدهور بالنسبة له بعض الشيء واضطر الى خلع قرونه · »

« هل لا زال على قيد الحياة ؟ »

هز العجوز رأسه · « ربما كان وربما لم يكن · لا أحد يعرف سوى آل جوردان · وهم لايخبرون من يسألهم · »

« أعتقد أن الآنسة جوديث هي التي أرسلت في طلبي · »

« أغلب الاحتمال أنها هي يا سيدي · لقد كانت واحدة من آل ياردلي الذين يعيشون هناك في (ياردليز فيلد) ؛ وحين بدأ السيد آلان يبدي اهتماماً نحوها ، كانت تلك أول مرة منذ زمن بعيد جداً يتودد فيها رجل من عائلة جوردان لفتاة من خارج العائلة · ذلك هو السبب في أن الدم فسد بالطريقة التي حدثت ، كما أعتقد · هناك قول سائد في هذه الأنحاء وهو أن الجوردان لا يمتزج مع الجوردان · »(٢) ·

« هل مضى وقت طويل على زواجهما ؟ »

« عشر سنوات أو نحو ذلك يا سيدي · انني أتذكر كما لو كان البارحة اليوم الذي أحضرها آلان الشاب الى المنزل كعروس له ، ولم يكن هناك من شخص يستقبلها سوى تلك العجائز الخرفات الثلاث · لقد حضرا في عربة ابني توني القديمة ، ولكنها

(٢) يعلق راوي القصة هنا على طريقة لفظ العجوز لاسم العائلة قائلا ان الأسماء قلما لفظت حسبما تكتب في فرجينيا · (ينطق العجوز اسم Jordan كما لو كان Jurdin) وقد اضطررنا الى حذف هذا التعليق القصير بسبب طبيعته اللغوية التي تستعصي على الترجمة ·

كانت جديدة براقة في ذلك الحين • كنت ذاهباً الى البيت في مهمة ووقفت تماماً عند بركة الجليد هناك حين مرا • لم تزر هذه الأرجاء كثيراً ولم يرها أي منا من قبل• حين رفعت بصرها الى الشاب آلان كان وجهها متورداً بأكمله وعيناها تبرقان كالقمر • ثم انفتح الباب الأمامي واندفعت تلك العجائز ــ سوداً كالغربان ــ خارجات الى الشرفة • ما كان أبداً من شخص أكثر جمالاً من الآنسة جوديث حين قدمت هنا ؛ ولكنها سرعان ما بدأت بعد ذلك في الذبول ، رغم أنها لم تفقد أعصابها وتستسلم للكآبة مثل بقية النساء في جوردانز إند • لقد تزوجا زواجاً مفاجئاً ، ويقول الناس أنها لم تعرف أي شيء عن العائلة ، وأن آلان الشاب لم يعرف أكثر منها بكثير• لقد أخفت العجائز السر عنها ، معتقدات الى حد ما أن عدم المعرفة يبعد الأذى ، وعلى كل لم يسمحن للأمر بالتسرب الا بعد ولادة الطفل • لم ينجبا أي طفل آخر ، وتقول العمة جرزلي العجوز أنه ولد وغشاء يغطي وجهه(٣) ، فاذن قد تسير الأمور على ما يرام بالنسبة له في المستقبل • »

« ولكن من هن العجائز ؟ هل أزواجهن على قيد الحياة ؟ »

حين أجاب الأب بيتركن على السؤال خفض صوته الى همس أجش • «مخبولون• كلهم صاروا مخبولين ، » قال مجيباً •

شعرت بالقشعريرة،اذ بدا أن موجة من البرد قد انبثقت من الغابات التشرينية• بينما أخذنا نتابع طريقنا ، تذكرت حكايات كئيبة عن غابات مسحورة فيها وجوه شريرة وأصوات هامسة • هاجمت روائح أرض الغابة والأوراق المتعفنة ذهني مثل تعويذة سحرية • على كلا الجانبين كانت الغابة ساكنة كالموت • لم تهتز أية ورقة ولم يتحرك أي طائر ولم تصدر حركة عن أي مخلوق بري بين الشجيرات • أوراق القطّيم اللامعة وثماره القرمزية وحدها بدت على قيد الحياة بين أغصان الأشجار المتشابكة العارية • بدأت أتوق الى فسحة خريفية مكشوفة والى الضياء الأحمر الذي يأتي بعد التوهج الغسقي •

« لقد سمعت ثرثرة غريبة ، » أجاب العجوز اجابة عصبية ، « ولكن ليس

(٣) الاعتقاد السائد في أمريكا هو أن ولادة طفل بهذا الشكل هي بشارة خير •

بامكان أحد أن يجزم • يقول الناس أن والد الشاب آلان محبوس في مكان تحت الحراسة ، وأن جده مات هناك بعد تمضية ثلاثين عاماً • لقد جن أعمامه أيضاً ، وبدأ الخرف يظهر بين النساء • كان الرجال هم وحدهم الذين يصابون حتى الآن • أذكر مرة السيد بيتر جوردان يحاول حرق المكان في سكون الليل • ها هي نهاية الغابة ، يا سيدي • أرجو أن تدعني أنزل هنا ، فسأصل الى بيتي عبر الحقل القديم ، وشكراً لك • »

أخيراً انتهت الغابة نهاية مفاجئة عند حافة حقل مهجور انتشرت فيه بكثافة أشجار الصنوبر والوزّال القصيرة • كان الاشعاع في السماء قد تضاءل الآن وغدا اخضراراً مصفراً ضئيلاً • طغى على الطبيعة شفق كئيب•في ضوء هذا الشفق نظرات الى الأغنام القليلة التي تلاصقت ببعضها على مرج مهترىء ، ورأيت المنزل المتداعي تحت اللبلاب الغض الذي نما عليه • بينما أخذت أزداد قرباً انتابني شعور أن القفر المحيط بالبيت كان يجثم هناك وكأنه تأثير خبيث •

بالرغم من أن جوردانزإند بدت مهجورة لدى اقترابي الأول هذا،فقد استنتجت أن المكان حظي فيما مضى بالجمال والامتياز حتماً • كانت أبعاد المقدمة الجورجية تترك في النفس تأثيراً بالغاً ، وكان هناك جمال في تصميم المدخل القديم الطراز وفي الدرجات المصنوعة من أحجار مستديرة والتي زينتها الآن نماذج من الطحلب الزمردي اللون • لكن المكان بأكمله كان بحاجة ماسة للاصلاح • حين نظرت الى الاعلى لدى توقفي ، شاهدت أن الأفريز كان يتساقط ، وأن مصاريع النوافذ تدلت من مفصلات لم تعد ثابتة ، وأن قصاصات مختلفة من أكياس الخيش أو القماش الزيتي حشيت في النوافذ حيث كانت بعض الألواح الزجاجية ناقصة • عندما وطئت أرض الشرفة ، شعرت بالألواح العفنة تهبط تحت قدميّ •

بعد قرع الباب قرعاً راعداً دون فائدة ، هبطت الدرجات ، ومشيت على الممر المطروق الذي دار حول جناح المنزل الغربي • حين تجاوزت شجرة بقس قديمة عند الزاوية ، رأيت امرأة وصبياً في حوالي التاسعة يخرجان من كوخ صغير ، استنتجت أنه مخصص لتدخين اللحوم ، ويبدآن بتجميع الأخشاب من اكوام من الحطب • كانت المرأة تحمل في ذراعها سلة مصنوعة من خشب الصفصاف ، وبينما انحنت لملئها ،

أخذت تتحدث الى الطفل بصوت موسيقي خافت • ثم لـدى سمـاع صوت صدر عني وضعت السلة جانباً ونهضت واقفة لتواجهني في نور السماء الشاحب • كان رأسهـا يميل الى الخلف ، وفوق ثوبها القطني القاتم ، التف على جسمها شال رمادي ممزق • كان ذلك قبل ثلاثين عاماً ؛ لم أعد شاباً ، وقد زرت بلداناً كثيرة منـذ ذلك الحين ، ونظرت الى نساء كثيرات ؛ لكن وجهها بذلك الضوء الخافت الذي انعكس عليه هو آخر وجه سوف أنساه في حياتي • الجمال ؟ ان تلك المرأة ستكـون جميلة حتى حين تصبح هيكلاً عظيماً ، كانت تلك هي الفكرة التي ومضت في ذهني •

كانت طويلة جداً ، ونحيلة الى حد أن لحمها بدا مشعاً اشعاعاً خفيفاً ، كما لو أن نوراً داخليا اخترق المادة الشفافة • لم يكن الجمال جمال الأرض بل جمال الروح المنتصرة • انني أعتقد أن الكمال هو أكثر الأشياء ندرة ، من بين الأمور التي نحققها في عالمنا ، عالم الرضى ـ المتنازل باستمرار ـ بـالأشكـال الأدنى ؛ لكن المرأة التي وقفت هناك في ذلك المكان الخرب بدت لي وكأنها قدمت لتوها من أسطورة أو حكاية رمزية • كان محيط وجهها ايطالياً في بيضويته المتكاملة ؛ وشعرهـا مسرح بشكـل أجنحة من الغسق فوق جبهتها الصافية ؛ وكـانت العينـان اللتـان نظرتـا إلي من التجاويف تحت حاجبيها المظللة تظليلاً خفيفاً بنفسجيتين سوداوين ،مثل زهر البنفسج القـاتم •

« لقد قطعت الأمل من قدومك ، » بدأت تقول بصوت منخفض ، كما لو أنها تخشى أن يسمعها أحد • « أنت الطبيب ؟ »

« نعم،أنا الطبيب•لقد اتخذت الطريق الخاطئة وضعت•أنت مسز جوردان؟»

حنت رأسهـا • « مسز الآن جوردان • هناك ثلاث مسز جوردان أخريـات بالاضافة لي • جدة زوجي وزوجتا اثنين من أعمامه » •

« وزوجك هو الشخص المريض ؟ »

« زوجي ، نعم • لقد كتبت رسالة منذ بضعة أيام الى الدكتور كارستيرز • » (قبل ثلاثين عاماً كان كارستيرز ـ من مدينة بالتيمور ـ أهم طبيب أمراض عقلية في البلاد •) « انه سوف يحضر صباح الغد ؛ ولكن زوجـي غـدا مضطرباً ليلة

البارحة بشكل جعلني أستدعيك اليوم • » جعلني صوتها الغني الذي تشع منه المشاعر المكبوتة أفكر بالواجهات الزجاجية المزينة وبموسيقى الأرغن الخافتة •

سألت : « قبل أن ندخل ، هل لك أن تخبريني بكل ما تستطيعين تذكره ؟ »

بدلا من الاجابة على طلبي ، استدارت ووضعت يدها على كتف الصبي • قالت : « خذ الاخشاب الى العمة أغاثا يا بنجامين،وأخبرها أن الطبيب قد وصل •»

بينما التقط الطفل السلة وجرى صاعداً الدرجات الغائرة الى الباب،راقبته بقلق مكتوم الأنفاس • لم ترفع بصرها الى وجهي الا بعد أن اختفى في الممر • ثم تمتمت دون أن تجيب على سؤالي : « لقد كنا ذات مرة سعداء هنا • » كانت تحاول كما لاحظت أن تجعل قلبها فولاذياً يقاوم اليأس الذي تهدده •

ألقيت نظرة شاملة على الأفق القاتم ، ثم عدت ببصري الى كومة الاخشاب المهترئة حيث كنا نقف • كان الاخضرار المصفر قد ذوى في السماء ، والنور الوحيد جاء من البيت الذي اشتعلت فيه بضعة مصابيح متفرقة • استطعت من خلال الباب المفتوح أن أرى الممر ، عاريا كما لو كان المنزل خاويا ، والدرج اللولبي الذي صعد الى الطابق الأعلى • كان المكان القديم جميلا ذات يوم ، ولكنه الآن يبعث على الاشمئزاز في تفسخه المدقع ، مثل دم كان شاباً في الأيام الغابرة وغدا خرفاً •

« هل بامكانك أن تحصلي على ما يقيم أودك من الأرض ؟ » ــ سألت ، لأنني لم أستطع التفكير بأية كلمات أخرى تظهر قدراً أدنى من الشفقة •

« القليل في البداية ، » أجابت ببطء • « لقد عملنا بجد ، بدأب يفوق دأب أي زنجي يعمل في الحقول ، لكي نحافظ على الأشياء كما هي ، ولكننا كنا سعداء • ثم أتى هذا المرض قبل ثلاث سنوات ، وبعد ذلك أخذ كل شيء يسير ضدنا • كان في البداية مجرد فترات من التأمل الطويل ، نوع من الكآبة ، وحاولنا أن نتخلص منها بالتظاهر بأنها لم تكن حقيقية ، أننا كنا نتخيلها • فقط مؤخراً ، حين غدت أسوأ بكثير ، اعترفنا بالحقيقة ، وواجهنا الواقع •• »

لم تكن هذه الهمهمة العاطفية ، التي كان لها تقريباً وقع انشاد صادر من

العزلة ، موجهة لي ، بل الى قوة مجردة لا سبيل الى تهدئتها . وبينما كانت تفوه بها ماثل هدوءها سكينة الموتى . لم ترفع يدها لتمسك شالهـا ، الذي كان ينزلق دون أن تلاحظ ذلك من على كتفيها ، ولم تغادر وجهي عيناها الشبيهتان الى حـد كبير بزهرتين قاتمتين في نعومتهما .

« اذا أخبرتني كل شيء ، فقد أستطيع مساعدتكما ، » قلت .

« ولكنك تعرف قصتنا ، » أجابت . « لابد أنك سمعتها . »

« اذن فهي صحيحة ؟ وراثة ، تزاوج من نفس العائلة ، جنون ؟ »

لم تجفل من فظاظة كلامي . « ان جـد زوجي في مصح ، لا يزال حيـاً بعد مضي ما يقارب ثلاثين عاماً . وأبوه ـ أبو زوجـي أعني ـ مات هناك قبل بضع سنوات . واثنان من أعمامه هناك . لا أدري متى بـدأ الأمـر ولا الى أي زمن في الماضي يعود . اننا لم نتحدث عنه أبداً . حاولنا دائماً أن ننساه ـ وحتى الآن لا أستطيع أن أعبر عن الامر بكلمات ـ لقد ماتت والدة زوجي مكسورة القلب،ولكن الجدة والمرأتين لا زلن على قيد الحياة . ستراهن حين تدخل المنزل . انهن هرمات الآن ، ولا يشعرن بأي شيء . »

« وكانت هناك حالات أخرى ؟ »

« لا أدري . أليست أربع حالات كافية ؟ »

« هل تعلمين اذا كان المرض قد اتخذ دائماً نفس الصيغة ؟ » كنت أحاول أن أقتضب قدر الامكان .

أجفلت ، ورأيت أن هدوءهـا غير الطبيعي قد اهتز أخيراً . « نفسها ، على ما أعتقد . في البداية تظهر الكآبة ، الانقباض ـ كما تدعوه الجدة ـ ثم ... » قذفت ذراعيها في اشارة يائسة ، ومرة أخرى تذكرت احدى الشخصيات الاسطورية المأساويـة .

« أعرف ، أعرف » كنت شابا ، وبالرغـم من كبريائي ، أرتعش صوتي . « هل خطرت أية حالة من الشفاء الجزئي ، الذي يتجدد على فترات ؟ »

« في حالة جده ، نعم • لكن ليس في أية من الحالات الاخرى • بالنسبة لهم كان الأمر ميؤوساً منه منذ البداية • »

« وكارستيرز قادم ؟ »

« في الصباح • كان عليّ أن أنتظر ، ولكن الليلة الماضية •• » تكسر صوتها ، وسحبت الشال الممزق تلف نفسها به وهي ترتجف • « الليلة الماضية حدث شيء • حدث شيء ، » أعادت ولم تستطع الاستمرار • ثم استجمعت قوتها بجهد جعلها ترتعش مثل ورقة حشيش في الريح واستمرت بقدر أكبر من الهدوء ، « انه اليوم أفضل • لقد نام للمرة الاولى ، وتمكنت أن أتركه • هناك اثنان من عمال الحقول في الغرفة • » تغيرت لهجتها فجأة ، وساورها شيء من الحيوية • خلع تصميم غامض ما مسحة من اللون على خدها الشاحب • أضافت : « يجب أن أعرف ما اذا كانت هذه حالة ميؤوساً منها مثل الحالات الاخرى • »

مشيت خطوة نحو المنزل • « ان لرأي كارستيرز قيمة تفوق رأي أي رجل على قيد الحياة ، » أجبتها •

« ولكن هل سيخبرني بالحقيقة ؟ »

هززت رأسي • «انه سيخبرك بما يعتقده • ليس من انسان لا يخطيء حكمه» •

مبتعدة عني ، تحركت بخطوات حيوية نحو المنزل • حين تبعتها الى الممر أصدرت العتبة صريراً تحت وطء قدمي ، وأصابني شيء من التوجس ، أو ، اذا شئتم ، من الرعب الخرافي من الارض فوقي • آه ، لقد تخلصت من هذا النوع من المشاعر قبل مضي عدد كبير من السنوات ؛ رغم أنني في النهاية اعتزلت الطب ، واتجهت الى الأدب كمتنفس أكثر أمناً لمخيلة مكبوتة •

ولكن الرعب كان موجوداً في تلك اللحظة ، ولم تخفف منه اللمحة التي لمحتها عند أسفل الدرج اللولبي ، لغرفة ضئيلة الاثاث ، حيث تجمعت ثلاث نساء نحيفات يرتدين أثواباً سوداء ، ساكنات مثل الهات القدر ، أمام نار حطبية • كن يشتغلن بشيء ما بأيديهن ، يقمن بالحياكة أو بضفر القش •

عند رأس الدرج توقفت المرأة والتفتت الي • سقط عليها النور من مصباح

الكاز المعلق على الجدار ، ومن جديد استوقفتني روعة جمالهـا الأجنبية ، ولكن أكثر من ذلك نظرة الاخلاص ، الوفاء المشبوب بالعاطفة الذي أضاء وجهها ٠

« انه قوي جداً ، » قالت هامسة ٠ « قبل أن يحل به هذا المصاب لم يمرض يوما واحداً في حياته قط ٠ كان أملنا أن ينقذنا العمل الشاق وعدم وجود الوقت للتفكير والتأمل ؛ ولكن ذلك جلب لنا الشيء الذي خشيناه بسرعة أكبر ٠ »

كان هناك سؤال في عينيهـا ، واجبت أنا بنفس اللهجة الخافتة ٠ « صحته العامة حسبما تقولين جيدة ؟» ما الذي كان بامكاني أن أسأله غير هذا في حين أنني فهمت كل شيء ؟

سرت رعدة في قوامها ، « كنا نظن أن هـذه نعمة ، ولكن الآن ٠٠ » توقفت ثم أضافت بصوت لا حياة فيه ، « اننا نبقي اثنين من عمال الحقول في الغرفة ليلا ونهاراً ، خشية أن ينسى واحد مراقبة النار أو يغلبه النوم ٠ »

صدر صوت من الغرفة عند نهايـة الممر ودون أن تنهي جملتهـا ، تحركت بخفة نحو الباب الموصد ٠ كـان التوجس أو الرعب أو أيما شئتم تسميته قويـاً بالنسبة لي الى حد أن سيطر علي حافـز يدفعني للاستدارة والتقهقر هابطاً عـلى الدرج اللولبي ٠ نعم ، انني أعرف لم يصبح بعض الرجال جبناء في المعركة ٠

« لقد عدتُ ، يا آلان ، » قالت بصوت عصر أوتار قلبي ٠

كانت الانارة خافتة في الغرفة ، ولبرهة بعد دخولي لم أستطع رؤية أي شيء بوضوح سوى وهج النار الحطبية التي كان أمامهـا زنجيان يجلسان عـلى مقعدين خشبيين واطئين ٠ كان وجهاهما لطيفين ، هذان الرجلان ؛ كان هناك تواضع بدائي في تقاسيمهما ، ربما من تأثير أرض الحقول القاتمة ٠

نظرت حولـي في اللحظة التالية ورأيت شاباً يجلس بعيداً عن النار ، جاثماً على كرسي مغطى بقماش «الكريتون» ، عالي المسند ، عميق الجناحين ٠ لدى دخولنا رفع الزنجيان بصرهما بدهشة ؛ ولكن الرجل الجالس في الكرسي المجنح لم يرفـع رأسه ولا التفت بعينيه نحونا ٠ جلس هناك ، ضائعاً في قفار المجانين التي لا سبيل الى سبرها ، بعيداً عنا وعن ضجيج أصواتنا كما لو كان يسكن في عالم غير مرئي٠

كان رأسه محنياً الى الامام ، وعيناه تحدقان بثبات في صورة ما لم نستطع رؤيتها ، وأصابعه تتحرك بلا استقرار تضفر وتفك طرف شال ذي نقشة مربعة • بالرغم من ذهوله ، كان لا يزال يملك وقار الكمال الجسدي المجرد • لابد أن طوله حين يقف منصباً لم يكن يقل عن ستة أقدام وثلاث بوصات ، وكان شعره في لون القمح الناضج ؛ وعيناه ـ بالرغم من تحديقهما الثابت ـ زرقاوان مثل السماء بعدالمطر• وكانت هذه البداية فقط ، كما لاحظت • فبمثل هذه البنية وهذا القوام الجسدي قد يعيش حتى التسعين •

« آلان ! » تنفست زوجته ثانية في مهمتها المتوسلة •

اذا كان قد سمع صوتها ، فانه لم يبد أي دليل على ذلك • فقط حين مشت عبر الغرفة وانحنت فوق كرسيه ، مد يده لها ، في اشارة تدل على الضيق ، ودفعها بعيداً ، كما لوكانت حجاباً من الدخان وقف بينه وبين الشيء الذي كان ينظر اليه• ثم سقطت يده من جديد الى مكانها القديم،وعاد هو الى ضفره الآلي لطرف الشال•

رفعت المرأة عينيها نحو عيني • « قام والده بفعل ذلك لمدة عشرين عاماً ،» قالت في همس لا يزيد على أنه عذاب •

عندما انتهيت من معاينتي المختصرة ، غادرنا الغرفة مثلما دخلنا ، وهبطنا الدرج معاً • كانت العجائز الثلاث لا يزلن يجلسن قرب النار الحطبية • لا أعتقد أنهن تحركن منذ صعدنا الى الطابق العلوي؛لكن ، حين وصلنا الى الممر في الأسفل، نهضت احداهن ـ أصغرهن ، كما أتصور ـ من كرسيها ، وخرجت لتلحق بنا • كانت تحيك شيئاً ناعما وصغيراً ـ طاقية طفل رضيع ، كما تبينت حين اقتربت ـ من الصوف القرنفلي • تدحرجت الكرة من حضنها حين نهضت ، وتبعتها ، مثل وردة من القطن ، على الأرض العارية • حين شدتها الخصلة ، التفتت وتوقفت لتلتقط الكرة ، وأعادت لفها بأصابع حانية • يا الهي ، طاقية طفل في ذلك المنزل !

« هل هو نفس الشيء ؟ » سألت •

« صه ! » أجابت المرأة الشابة برفق • والتفتت الي وقالت : « لا نستطيع

التحدث هنا ، » وفتحتُ الباب وخرجتُ الى الشرفة · لم تتكلم الا بعد أن وصلنا المرج ، ومشينا في صمت الى حيث وقفت عربتي تحت شجرة خرنوب قديمة ·
ثم قالت فقط : « أنت تعرف الآن ؟ »

« نعم ، أعرف ، » أجبت ، متحاشيا النظر الى وجهها أثناء اعطائي توجيهاتي باقتضاب قدر ما يمكن · « سأعطيه مسكّناً » قلت· « غداً ، اذا لم يحضر كارستيرز، أرسلي في طلبي ثانية · أما اذا أتى ، فسأتحدث معه ثم أراك فيما بعد · »

« شكراً ، » اجابت بلطف ؛ وأخذت الزجاجة من يدي والتفتت مبتعدة عائدة بسرعة الى المنزل ·

راقبتها أطول فترة ممكنة ؛ ثم امتطيت عربتي ، وأدرت وجه فرسي باتجاه الغابة ، وسرت في ضوء القمر ، ماراً ب « شجرة الصقور » وعلى طريق «أولدستيج» الى بيتي · آخر فكرة في رأسي تلك الليلة قبل أن أنام كانت : « يجب أن أرى كارستيرز غداً · »

ولكن مع ذلك رأيت كارستيرز لدقيقة واحدة فقط بينما كان يستقل القطار· الحياة في بدايتها وفي نهايتها ملأت صباحي ؛ وحين وصلت أخيراً الى المحطة الصغيرة، كان كارستيرز قد قام بزيارته ، وينتظر على الرصيف القطار السريع القادم · في البداية أبدى ميلا لتوجيه الأسئلة لي حول مسألة اطلاق النار ، ولكن حالما استطعت أن أوضح مهمتي ، تغضن وجهه ·

« اذن كنت هناك ؟ » قال·« لم يخبروني · حالة مثيرة للاهتمام ، لولا وجود المرأة المسكينة· لا علاج لها ، حسبما أخشى ، اذا أخذت بالاعتبار الأسباب الوراثية· ان العرق قد تدهور الى حد كبير ، على ما اعتقد · يا الهي ! يا للعزلة ! لقد نصحتها أن ترسله بعيداً · هناك ثلاثة آخرون ، كما ذكروا لي ، في ستوانتن »·

أقبل القطار ؛ وقفز يركبه وابعده الزحام بينما كنت أتابعه ببصري· بالرغم من شهرة كارستيرز العظيمة ، لم أزدد علماً أو معرفة ·

لم أسمع أي خبر من جوردانز اند طيلة ذلك اليوم ؛ ثم في الصباح الباكر من اليوم التالي ، أحضر لي نفس الزنجي العاجز رسالة ·

« الآنسة الشابة طلبت مني أن أسالك أن تأتي معي بأسرع ما يمكنك » ٠
« سأتوجه الى هناك أيها العم ، وسآخذك معي ٠ »

كانت عربتي وفرسي تقفان عند الباب ٠ كل ما احتجت أن أقوم بـه كان أن أرتدي معطفي ، وآخذ قبعتي ، وأترك كلمة لأي مريض محتمل أنني سأعودقبل الظهـيرة ٠ كنت أعرف الطريق الآن ، وأخبرت نفسي وأنا أنطلق أنني سأجعـل رحلتي سريعة بقدر ما يمكن ٠ طيلة ليلتين طاردتني ذكرى ذلك الرجل الجالسعلى الكرسي ، يضفر ويفك طرف الشال المصنوع من قماش ذو نقشة مربعة ٠ ولقد قام والده بفعل ذلك ، كما أخبرتني المرأة ، طيلة عشرين سنة !

كان صباحـاً خريفيا بني اللون ، بارداً ، ساكناً ، سمـاؤه ملبدة ، ويخلق وهماً غريباً يجعل المسافات قريبة ٠ هبت ريح قوية طوال الليلة السابقة ، ولكنها سكنت فجأة عند الفجر ٠ والآن لم يكن هناك أي تموج في الأشجار فوق الحقول ٠ حين خرجنا من الغابـة ، كانت خيوط الدخـان الأزرق الرفيعة ساكنة مثل بيت العنكبوت ٠ بدا المرج المحيط بالمنزل أصغر مما كان قد بدا لي في الغسق،كما لو أن الحقول العارية زحفت الى مكان أقرب منذ زيارتي الاخيرة تحت الأشجار ، حيث كانت الاغنام القليلة ترعى ، ركدت أوراق الشجر التي جرفتهـا الريح وجمعتها في أكوام على طول الممشى الوعر وعلى حواف المنزل ٠

حين قرعت الباب فتحته احدى العجائز ممسكة بشريط من القماش الأسود أو من « الكريب » (٤) الصدىء ٠

« تستطيع الصعود فوراً الى الطابـق العلـوي ، » قالت مقوقئة ، ودون أن أنتظر أي تفسير ، دخلت الممر وصعدت الدرج بسرعة ٠

كان باب الغرفة مغلقاً ، ففتحته دون أن أحدث صوتاً وخطوت فوق العتبة ٠ كان أول مـا شعرت بـه لدى دخولي هو احساسي بالبرد ٠ ثم شاهدت أن النوافذ كانت مفتوحة على مصاريعها ، وأن الغرفة بدت غاصة بالناس ، رغـم أنه ــ كما لاحظت بعد وهلة قصيرة ــ لم يكن هناك أحـد سوى زوجة آلان جوردان وابنهـا

(٤) قماش يستعمل في صنع ملابس الحداد ٠

الصغير والعمتين العجوزين وزنجية هرمة شمطاء • على السرير كان هناك شيء ما تحت ملاءة صفراء من الكتان الفاخر (ما يسميه الزنوج « ملاءة دفـن » ، عـلى ما أعتقد) ، خلّفها جيل كان أكثر وفرة •

حين اقتربت ، بعد دقيقة ، وقلبت احدى زوايا الغطاء ، شاهدت أن مريضي الذي رأيته مساء يوم فائت قد مات • لم يشوه ملامحه أي تغضن سببه الألم ، لم يختلط بشعره الذهبي القمحي أي خيط من الشيب • لابـد أنه بـدا بهذا الشكل — كما فكرت — حـين أحبته أول مـرة • لـم يغادر الحياة هرما وضعيفا ومثيرا للاشمئزاز ، وانما غادرها وتوهم عاطفتهما الرومانتيكية لا يزال يغلفه •

حـين دخلت ، تراجعت العجوزان ، اللتان كانتا منهمكتين قـرب السرير ، لافساح مكان لي ، ولكن الساحرة الزنجية لـم تتوقف عن أغنيتها الغريبة ، التي كانت تعويذة من التعاويذ تهمهم بها • من على البساط أمام المدفأة الخاوية ، حدق الصبي — الذي كان له شعر أبيه وعينا أمه — بـي بصمت ، بكآبة ، كما لو كنت متطفلا ؛ وبقرب النافذة ، وقفت الزوجة الشابة ساكنة ، وعيناها ترقبان النهـار التشريني الرمادي ، بينما أخذت أنظر اليها طار طائر «كاردينال» من بين أغصان شجرة أرز ، وتبعته بنظرها •

« لقد أرسلت في طلبي ؟ » قلت لها •

لم تلتفت • كانت أبعد مما يصل اليه صوتي ، أو أي صوت ، كما أتخيل ؛ ولكن احدى النساء العجائز أجابت على سؤالي •

« هكذا كان حين وجدناه هـذا الصباح ، » قالت • « لقد أمضى ليلة سيئة ، وسهرت جوديث والعاملان معه حتى طلوع الصباح • ثم بدا وكأنه أخلـد للنوم ، وأرسلت جوديث العاملين ليتناولا الافطار • »

بينما كانت تتكلم وقع نظري على الزجاجة التي تركتها هناك • قبل ليلتين كانت ملأى ، والآن كانت فارغـة ، بدون غطـاء ، عـلى الرف • لم يقوموا حتى بالتخلص منها • انه مما ينسجم مع القصور الذي خيم على المكان أن تبقى الزجاجة موضوعة هناك في انتظار زيارتي •

للحظة أفقدتني الصدمة القدرة على الكلام ؛ حين عثرت على صوتي أخيرا ، سألت: « متى حدث ذلك ؟ »

تابعت المرأة التي تكلمت من قبل روايتها • « لا أحد يدري• اننا لم نلمسه• لم يقترب منه أحد سوى جوديث • » تلاشت كلماتها في دمدمـة غير مفهومـة • اذا كانت لديها أية قدرة على التفكير ، فان خمسين عاماً في جوردانز إند قد أفقدتهـا هذه القدرة تماماً كما أتصور •

التفت الى المـرأة عند النافذة • في وجـــه السماء الرمادية وأغصان الأرز السوداء المتقاطعة،كان وجهها ، بكماله الوقور ، محاطاً بجو الأساطير الحالم • من المحتمل أن أنتيغوني بدت هكذا في يوم التضحية بها ، كما خطر لي • لم أر قط أي مخلوق بدا منزوياً ومنعزلا عن جميع الروابط البشرية الى هذا الحد • كان الأمر كما لو أنه عزلة روحية فصلت بينها وبين أبناء جنسها •

« لا أستطيع القيام بأي شيء ، » قلت •

لأول مرة نظرت الي ، ولم يكن من الممكن سبر غور عينيها « لا ، لا تستطيع القيام بأي شيء ، » أجابت • « لقد مات واستراح • »

كانت الزنجية لا تزال تدندن ، والعجوزان تروحان وتقدمان بقنوط • كان من المستحيل ، أثناء وجودهما ، حسبما شعرت أن أعبر بالكلام عما أردت قوله •

« هل لك أن تنزلي معي ؟ » سألت • « خارج هذا المنزل ؟ »

التفتت بهدوء وخاطبت الصبي • « اخرج والعب أيها الغالي • هذا ما كان يود منك أن تفعله » •

ثم ، دون أن تلقي أية نظرة على السرير أو العجائز الملتفات حوله ، تبعتني فوق العتبة وعلى الدرج والى المـرج المهجـور في الخارج • لـم يكن بامكان النهار الرمادي أن يمسها ، كما رأيت حينئذ • إما أنها كانت بعيدة جداً عنه أو جزءاً منه لا يتجزأ ، بحيث لم ينفذ حزنه اليها • لم يزدد وجهها الشاحب صفرة حين سقط النور عليه ، ولم تزدد عيناها المأساويتان عمقاً ، ولم يرتعش جسمها الناحل تحت الشال الرقيق في الهواء البارد • لاحظت فجأة أنها لم تشعر بأي شيء •

ملتفة بذلك الصمت كما لـو كان عباءة ، مشت عبر أكوام الشجر الى حيث كانت فرسي تنتظر • كانت خطواتها بطيئة جداً ، لا عجلة فيها بشكل أنني أذكـر

كيف فكرت حينذاك بأنها كانت تتحرك مثل شخص لديه الأبد كلـه أمامه · آه ، ان المرء يكوّن انطباعات غريبة ، كما تعلمون ، في لحظات كهذه ·

في وسط المرج ، حيث كانت الاشجار قد تعرت أثناء الليل،والأوراق مكدسة في أكوام طويلة مثل قبور مزدوجة ، وقفت ونظرت في وجهي · كان الهـواء ساكناً كما لو أن المكان بأكمله وقع في غيبوبة أو سبات · لم يتحرك أي غصن ، لم تصدر أية ورقة حفيفاً علـى الارض ، لـم يزقزق أي عصفور في اللبلاب ، حتى الغنمات القليلة وقفت ساكنة ، وكأنها تحت تأثير السحر · في الأمكنة الأبعد ، خلف محيط أشجار البردي ، حيث لم تهب أية ريح ، رأيت عزلة الارض المسطحة · لم يتحرك شيء على وجه البسيطة ، ولكن في الأعلى،تحت السحب الرصاصية،كان صقر يحلق·

بللت شفتي قبل أن أتكلم · « الله يعلـم أنني أود مساعدتك ! » كان سؤال بشع يقرع في مؤخرة ذهني · كيف حدث الأمـر ؟ أيمكن أنها قتلته ؟ هل سيطرت هذه المخلوقة الناعمة على أعصابها ، واستجمعت ارادتها للقيام بالفعل الذي لايمكن ذكره ؟ ذلك بعيد عن التصديق · ذلك بعيد عن التصور · ومع ذلك ··

« لقد انتهى أسوأ مافي الأمر ، » قالت بهدوء ، بذلك العذاب الذي لا دموع فيه والذي هو أقسى بكثير من أي انفجار من الحزن · « مهما حدث ، فلن أستطيع أبداً تحمل الأسوأ من جديد · مرة عند البداية أراد أن يموت · كان خوفه الأكبر أنه قد يعمر أطول مما يجب ، الى أن يفوت أوان انقاذه لنفسه · لقد جعلته ينتظر حينذاك · لقد أوقفته باعطائه وعداً » ·

فكـرت : اذن فقد قتلته · تابعت كلامهـا بثبات ، بعد دقيقة ، وساورني الشك من جديد ·

« الحمد لله،كان الأمر أسهل عليه مما خشي أن يكون ، » قالت متمتمة ·

كلا ، كانت المسألة أبعد من التصور · لابد أنه رشى أحد الزنجيين · ولكن من وقف وراقب دون أن يعترضه أحد؟ من كان في الغرفة ؟ ولكن أياً كان الأمر ! « سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك ، » قلت ·

لم ترتعش نظرتها الثابتة · « ليس هناك الكثير مما يمكن للمرء القيام به

الآن ، » أجابت ، وكأنها لم تفهم ما عنيت · فجأة ، دون التحذير الذي ينجم عن النحيب ، صدرت عنها صرخة يأس · كما لو أنها انشقت من صدرها · « كان هو حياتي ، » صرخت « وعلي أن أمضي الآن ! »

كان الصوت مملوءاً بالألم بحيث بدا وكأنه يسير كهبة من الريـح فوق شجر البردي · انتظرت الى أن انفتح الخـواء واحتواه · ثم سألت بقدر مـا استطعت من الهـدوء :

« ما الذي ستفعلينه الآن ؟ »

استجمعت نفسها برعشة من الألم·« انني مرتبطة هنا ، طالما بقيت العجائز على قيد الحياة · علي أن أتحمل حتى النهاية · حين يمتن ، سأذهب بعيداً وأجـد عملا ما·سأرسل ابني الى المدرسة·سيعنني به الدكتور كارستيرز ، وهو سيساعدني حين يحين الوقت · طالما هو بحاجة الي ، لن يكون هناك أي فكاك · »

بينما كنت أستمع اليها ، عرفت أن السؤال الذي كان على شفتي لن يصدر أبداً · سأبقى دائماً على جهل بالحقيقة · أخشى ما خشيته ، وأنا واقف هناك وحدي معها ، أن تكشف صدفة ما السر قبل أن يتاح لي الهرب · تحولت عيناي عن وجهها وتجولت فوق الأوراق الميتة عند أقدامنا · كلا ، ليس لدي شيء أسأله ·

« هل أجيء مرة أخرى ؟ » كان ذلك كل شيء ·

هزت رأسها سلباً · « الا اذا أرسلت في طلبك · اذا احتجت اليك ، سأرسل في طلبك ، » أجابت ؛ ولكن في سري عرفت أنها لن ترسل في طلبي أبدا ·

مددت يدي ، ولكنها لم تأخذها ؛ وشعرت أنها قصدت أن أفهـم من رفضها أنها أبعد من أية تعزية وأي تعبير عن الصداقة · كانت أقرب الى السماء القاتمة والحقول المهجورة منها الى أفراد جنسها ·

حين التفتت مبتعدة ، انزلق الشال من على كتفيها ساقطاً على الأوراق الميتة التي كانت تسير فوقها ، ولكنها لم تتوقف لالتقاطه ، ولم أقم أنا بحركة لأتبعها · لفترة طويلة بعد دخولها المنزل وقفت هناك ، محدقاً في الرداء الذي أسقطته · ثم صعدت عربتي ، وسرت عبر الحقل الى الغابة ·

كاترين آن بورتر

التخلي عن الجدة ودرول *

سحبت يدها بحذق من بين أصابع الدكتور هاري السمينة المتأنية ورفعت الغطاء الى ذقنها • على هذا الطفل أن يرتدي بنطالاً قصيراً • يجوب البلاد مطبباً وعلى أنفه نظارة • « امش من هنا الآن • خذ كتبك المدرسية واذهب • ليس بي من علة • »

وضع الدكتور هاري كفاً(١) دافئاً كالوسادة على جبينها حيث أخذ الوريد الأخضر المتفرع يرقص وجعل جفناها ينتفضان • « حسناً ، حسناً ، كوني فتاة مطيعة ، وسأجعلك تنهضين في أقصر وقت • »

« هذه ليست طريقة للتكلم مع امرأة تقارب الثمانين لمجرد أنها متوعكة • عليك أن تحترم من يكبرك سناً ، أيها الفتى • »

« حسناً يا آنستي ، اعذريني • » ربت الدكتور هاري على خدها • « ولكن علي أن أحذرك ، أليس كذلك ؟ انك معجزة ، ولكن يجب أن تكوني حذرة والا ستشعرين بالأسف • »

(*) "The Jilting of Granny Weatherall" by Katherine Anne Porter من مجموعة **Flowering Judas and Other Stories** التي نشرت عام ١٩٣٠ وهي أولى أعمال الكاتبة • وقد نشرت القصة قبل ذلك بعام في مجلة **Transition** • وكلمة Jilting في العنوان ــ والتي ترجمت هنا بكلمة « التخلي » ــ تستعمل لوصف هجر الفتاة أو نبذها لحبيب سابق •

(١) الكلمة المستعملة في الأصل هي كلمة "Paw" وتعني كف الحيوان •

« لا تقل لي ما الذي سوف أحسّه • انني أقف على قدمي الآنَ ، من الناحية المعنوية • انها كورنيليا • لقد اضطررت أن آوي الى السرير للتخلص منها • »

شعرت أن عظامها متفككة وأنها تسبح في داخل جلدها ، وسبح الدكتور هاري كالبالون حول رأس السرير • سبح وسحب صدارته الى الأسفل وأرجح نظارته على خيط • « حسناً ، ابق حيث أنت ، فمن المؤكد أن ذلك لن يؤذيك • »

« امض في سبيلك وطبب مرضاك ، » قالت الجـدة وِ ذَرول • « اترك امرأة صحيحة وشأنها • سأستدعيك حين أحتاجك •••• أين كنت قبل أربعين عامـاً حين تغلبت على ورم الولادة وذات الرئة المزدوجة ؟ لم تكن قد ولدت بعد • لاتدع كورنيليا تضللك ، » قالت صائحة ، لأن الدكتور هاري بدا وكأنه يطفو مرتفعاً الى السقف والى الخارج • « انني أنا التي أدفع فواتيري ، وأنا لا أرمي نقودي على الترهات ! »

أرادت أن تلوح بيدها مودعة ، ولكن كان في ذلك عناء أكبر مما يجب • انطبقت عيناها تلقائياً ، وكان الأمر مثل ستار معتم أنزل حول سريرها • ارتفعت الوسـادة وسبحت تحتها ، تبعث على الارتياح كأرجوحـة في ريح خفيفـة • أصغت الى حفيف أوراق الشجر خارج نافذتها • كلا ، ان شخصاً ما يحرك صفحات جـريـدة : كـلا ، كورنيليا والدكتور هاري يتهامسان • فجأة استيقظت استيقاظاً كاملاً ، شاعرة أنهما يهمسان في أذنها •

« أبداً لم تكن مثل ذلك ، **أبداً** لم تكن كذلك ! » « لكن ، ما الذي يمكننا أن نتوقعه ؟ » « نعم ، في الثمانين ••• »

وماذا في ذلك ؟ اذ لاتزال لها أذنان • ان من شيمة كورنيليا أن تتهامس قرب الأبواب • كانت دائماً تحفظ الأمور سراً بمثل هذه الطريقة العلنية • هي دائماً لبقة ولطيفة • ان لدى كورنيليا احساساً كبيراً بالواجب ؛ ذلك كان عيبها • طيبة وتحس بالواجب : « تحس بالواجب وطيبة الى حد أنني» ـ قالت الجدة ـ«أود لو أضربها•» تخيلت نفسها تضرب كورنيليا ، وتجعل من ذلك عملاً جيداً •

« ماذا قلتِ يا أمي ؟ »

شعرت الجدة بوجهها ينعقد باحكام •

« أود أن أعلم ، أليس بأمكان المرء أن يفكر ؟ »

« ظننت أنك قد تريدين شيئاً • »

« أريد • أريد أشياء كثيرة • أول شيء : ابتعدي من هنا ولا تهمسي• »

استلقت وغلبها النعاس ، متمنية وهي نائمة أن يبقى الأطفال في الخارج ويدعوها تستريح لحظة • لقد كان اليوم يوماً طويلاً • ليس أنها تعبت • فمن دواعي السرور دائماً أن تختطف لحظة بين الحين والآخر • هناك دائماً الكثير من الأشياء التي يجب القيام بها ، فلأفكر : غداً •

ان الغد بعيد وليس من شيء يستدعي ازعاج نفسها به • فالأشياء تُنجز بشكل ما حين يحين الوقت ؛ الحمد لله أن هناك دائماً هامشاً صغيراً يبقى للسلام والطمأنينة : اذ أن بامكان المرء أن ينشر خطة الحياة وأن يكفكف الأطراف بشكل منتظم • من الحسن أن يكون كل شيء نظيفاً ومطوياً ومرفوعاً ، وفراشي الشعر وزجاجات العقاقير المنشطة تقوم منتصبة على الملاءات البيضاء المطرزة : يبدأ النهار دون جلبة ورفوف حجرة المؤن ممتلئة بصفوف من كؤوس الحلوى الهلامية « الجِلي » وأباريق بنية اللون ومرطبانات بيضاء من الصيني الحجري ذات صحون زرقاء دوّارة طبعت عليها كلمات : قهوة ، شاي ، سكر ، زنجبيل ، قرفة ، فلفل حلو : والساعة البرونزية وقد مسحوا عنها الغبار مسحاً جيداً • ياللغبار الذي يمكن أن تجمعه في أربع وعشرين ساعة ! الصندوق في السقيفة بكل ما فيه من رسائل مربوطة ، حسناً ، عليها أن تستعرض ذلك غداً • كل تلك الرسائل ـ رسائل جورج ورسائل جون ورسائلها المتبادلة ـ كونها متروكة هناك لكي يجدها الأطفال جعلها تشعر بالانزعاج• نعم ، سيكون ذلك شغل الغد • لا فائدة من السماح لهم بمعرفة كم كانت سخيفةذات مرة •

بينما أخذت تنقب هنا وهناك عثرت على الموت في عقلها وكان ملمسه دبقاً وغريباً • لقد أمضت من الوقت تستعد للموت ما لم يترك من حاجة لطرحه منجديد• فليتول أمر نفسه الآن • حين بلغت الستين شعرت أنها هرمت جداً ، انتهت ،ومضت تقوم بزيارات وداعية لترى أولادها وأحفادها ، وسر" يكمن في عقلها : هذا آخر عهدكم بأمكم يا أولاد ! ثم كتبت وصيتها وأصيبت بحمى طويلة • لقد كان كل ذلك

مجرد نزوة مثل الكثير من الأشياء ، ولكنه أيضاً كان ضربة حظ ، فقد تغلبت علىفكرة الموت وانتهت منها لفترة طويلة · لايمكن لها أن تقلق الآن · انهـا تأمل أن يكـون عقلها أرجح الآن · لقد عاش والدها ليبلغ سن الثانية بعد المئة وفي آخر عيد ميـلاد له شرب كأساً من خمس « التودي » الحار المركز · وأخبر الصحفيين أن تلك عـادتـه اليومية ، وأنه مدين بحياته الطويلة لها · لقد أثار فضيحة ليست بـالصغيرة وسره ذلك سروراً كبيراً · فكرت في أن تقوم بتعذيب كورنيليا بعض الشيء ·

« كورنيليا ! كورنيليا ! » لا وقع أقدام ،ولكن يد مباغتة على خدها·«ليباركك الله ، أين كنت ؟ »

« هنا يا أمي · »

« اذن كورنيليا ، أريد كأساً من (التودي) الحار · »

« هل تشعرين بالبرد يا حبيبتي ؟ »

« انني أشعر بالقشعريرة · الاستلقاء في السرير يوقف الدورة الدموية · لابد أنني قلت ذلك لك ألف مرة · »

انها تستطيع تماماً أن تتخيل كورنيليا وهي تخبر زوجها أن والدتهـا تتصرف بشكل طفولي بعض الشيء وأن عليهما أن يجاريانها · كان أكثر الأشياء ازعـاجـاً لها أن كورنيليا ظنتها طرشاء وخرساء وعمياء ·أُلقيت نظراتصغيرة سريعةواشارات ضئيلة حولها وفوق رأسها تقول : « لا تغضبها ، دعها تفعل ما تشاء ، انهافيالثمانين من العمر ، » وهي جالسة هناك كما لو أنها تعيش في قفص من الزجاج الرقيـق · أحياناً كانت الجدة تكاد أن تصمم أن تحزم حوائجها وتعود الى بيتها حيث ليس بامكان أي شخص أن يذكرها كل دقيقة أنها هرمة · انتظري ، انتظري ياكورنيليا ، الى أن يهمس أطفالك أنت وراء ظهرك !

في صباها كانت ترتب منزلها بشكل أفضل وكانت تنجز أشياء أكثر · انها لم تهرم بعد الى حد يمنع ليديا من أن تقطع ثمانين ميلاً بسيارتها لتطلب النصيحة حين ينحرف أحد أطفالها عن الطريق ، ولا زال جيمي يأتي ليبحث الأمور معها : « انت يا أمي ذات عقل تجاري جيد ، وأود أن أعرف رأيك في هذا ؟··· » هرمة · ان كورنيليا لا تستطيع تغيير ترتيب الأثاث دون سؤال · أشياء صغيرة ، أشياء صغيرة!

لقد كانوا شديدي العذوبة حين كانوا صغاراً · تمنت الجدة لو أن الأيام الغابرة تعود من جديد ويعود الأولاد صغاراً وتضطر للقيام بكل شيء مرة أخرى · لقدكان عناء شاقاً ، ولكن ليس أشق مما تستطيع تحمله · حين فكرت بكل الطعام الذي طبختة ، وكل الملابس التي قصتها وخاطتها ، وكل الجنائن التي زرعتها — آه ، ان ذلك واضح في الأولاد · هاهم هناك ، قد صُنعوا منها ، ولا مهرب لهم من هذه الحقيقة · أحياناً كانت تود أن ترى جون ثانية وأن تشير اليهم وتقول : اذن ، لم تكن نتيجة عملي سيئة ، أليس كذلك ؛ ولكن على ذلك الأمر أن ينتظر · انه من أمور الغد · اعتادت أن تفكر به كرجل ، لكن الآن كل الأولاد أكبر سناً من أبيهم، وسيكون طفلا الى جانبها الآن لو تم لها أن تراه · بدا ذلك غريب ، وكان ثمة من خطأ في الفكرة · أوه ، لا احتمال هناك بأن يتمكن من التعرف عليها · لقد قامت مرة بتسييج مئة « أكرة » ، وحفرت حفر الأعمدة بنفسها ، وثبتت الأسلاك دون أن يساعدها أحد سوى صبي زنجي · ان ذلك يغير المرأة · التنقل فوق الطرق الريفية في الشتاء عند ولادة النساء لاطفالهن كان شيئاً آخر : السهر في الليالي مع الجياد المريضة والزنوج المرضى والاطفال المرضى وتقريباً عدم فقدان أي منها أو منهم قط·جون ، انني تقريبا لم أفقد أياً منهم ! سيلحظ جون ذلك في لحظةواحدة، فذلك شيء بامكانه أن يفهمه ، ولن تحتاج لشرح أي شيء !

جعلها ذلك تشعر بالرغبة في أن ترفع أكمامها وأن تصحح وضع المكان بأكمله وترتبه · لا بأس اذا كانت كورنيليا مصممة على أن تكون في كل مكان في نفس اللحظة ، فهناك أشياء كثيرة جداً تركت ولم يقم بها أحد في هذا المكان ستبدأ غداً وتقوم بها · من الجيد أن يكون لدى المرء القوة الكافية لكل شيء ، حتى ولو ذاب كل شيء تقوم به وانزلق بين يديك ، بحيث حين تنتهي تكاد أن تنسى ماهو الشيء الذي كنت تعمل لأجله · ماهو الشيء الذي شرعت في القيام به ؟ سألت نفسها بانكباب ، ولكنها لم تستطع أن تتذكر· تشكل ضباب فوق الوادي ، رأته يسير عبر الجدول ملتهماً الأشجار ومتسلقاً الرابية مثل جيش من الأشباح· سيصل سريعا الى حافة البستان القريبة ، وعندئذ سيحين وقت الدخول الى البيت واشعال المصابيح· ادخلوا أيها الأطفال ، لا تبقوا خارجاً حيث هواء الليل ·

اشعال المصابيح كان جميلا • تجمع الاطفال والتصقوا بها وأخذوا يتنفسون كمجول صغيرة تنتظر عند قضبان البوابة وقت الشفق• تابعت أعينهم عود الكبريت وراقبت الشعلة ترتفع وتستقر على شكل قوس أزرق ، ثم ابتعدوا عنها • لقد أشعل المصباح ، لم يعد هناك موجب لأن يخافوا ويتعلقوا بأمهم • لم يعد من موجب أبداً ، أبداً ، أبداً • يا الهي ، لحياتي كلها أشكرك • بدونك يا الهي ، لم أكن لأستطيع القيام بما قمت به • السلام عليك يامريم ، أيتها المليئة بالحسن •

أريدكم أن تلتقطوا كل الفاكهة هذا العام وأن تنتبهوا ألا يترك شيء للضياع • هناك دائماً من يستطيع استعمالها • لا تتركوا الأشياء الجيدة تتعفن بسبب عدم الاستعمال • انكم تضيعون الحياة حين تضيعون الغذاء الجيد • لاتدعوا الأشياء تضيع • اضاعة الاشياء أمر مر • لا يجب أن أغرق في التفكير الآن وأنا تعبة وأخلد الى النوم نومة قصيرة قبل تناول العشاء ••

ارتفعت الوسادة حول كتفيها وضغطت على قلبها وأخذت تنعصر منه الذكرى: آه ، ليقم شخص بالضغط على الوسادة : ستخنقها اذا حاولت الامساك بها• ياللنسيم العليل الذي يهب وياللنهار الاخضر الذي لا انذارات فيه • ولكنه بالرغم من ذلك لم يأت • ماذا تفعل امرأة حين ترتدي الخمار الأبيض وتعد قالب «الكاتو» الابيض من أجل رجل ولا يأتي ذلك الرجل ؟ حاولت أن تتذكر • لا ، أقسم أنه لم يسيء الي" الا في ذلك • لم يسيء الي الا في ذلك •• وماذا لو فعل ؟ كان هناك اليوم ، اليوم ، ولكن ارتفعت دوامة من الدخان وغطته ، زحفت الى الأعلى وفوق الحقل المشرق حيث زرع كل شيء بعناية في صفوف منتظمة • كان ذلك الجحيم ، انها تعرف الجحيم حين تراه • طوال ستين سنة كانت تصلي كيلا تتذكره وكيلا تضيع روحها في هوة الجحيم العميقة ، والآن اختلط الامران وأصبحا شيئاً واحدا وكانت ذكراه غمامة دخانية من الجحيم تتحرك وتتسلل الى عقلها في الوقت التي تخلصت فيه لتوها من الدكتور هاري وكانت تحاول أن تستريح دقيقة • كبرياء مجروحة ياايلين ، قال صوت حاد في أعلى عقلها • لا تدعي كبرياءك المجروحة تسيطر عليك• يتعرض الكثير من الفتيات للنبذ • لقد نبذت (٢)، أليس كذلك ؟ اذن كوني كفوءاً

(٢) الكلمة المستعملة هنا هي كلمة "Jilted" وهذه صيغة اخرى من نفس الكلمة المستعملة في العنوان •

للوضع • ارتعش جفناها وتركا أشرطة من النور الرمادي ـ الأزرق تشبه مناديل الورق تتدلى فوق عينيها • عليها أن تنهض وتنزل الستار والا فانها لن تنام قط • كانت في السرير ثانية ولم يكن الستار مرخيا•كيف أمكن أن يحدث ذلك ؟ الأفضل أن تستدير ، أن تختبىء من النور ، النوم في النور يسبب الكوابيس • « أمـي ، كيف تشعرين الآن؟ » ورطوبة قارصة على جبينها • لكنني لا أحب أن يغسل وجهي بالماء البارد !

هابسي ؟ جورج ؟ ليديا ؟ جيمي ؟ لا ، كورنيليا ، وكانت ملامحها منتفخة ومملوءة بالبرك الصغيرة • « سيأتون ياحبيبتي ، سيكونون جميعاً هنا في الحال • » اذهبي واغسلي وجهك ياطفلتي ، ان منظرك مضحك •

بدل أن تطيع ، انحنت كورنيليا ووضعت رأسها عـلى الوسادة • كان يبدو أنها تتكلم ولكن لم يكن هناك أي صوت • « أوه ، هل أنت مربوطة اللسان ؟ عيد ميلاد من هذا ؟ هل ستقيمين حفلة ؟ »

تحـرك فـم كورنيليا بالحـاح وبأشكـال غريبة • « لا تفعلي ذلك ، أنت تضايقينني يا ابنتي • »

« آه ، لا يا أمي ، آه ، لا • • • »

هراء • أمر الأولاد عجيب • انهـم يناقشون كل كلمـة من كلماتك • « لا ماذا ياكورنيليا ؟ »

« هاهو الدكتور هاري • »

« لن أرى ذلك الصبي من جديد • لقد غادر قبل خمس دقائق فقط • »

« كان ذلك في الصباح يا أمي • الوقت الآن هو الليل • هاهي الممرضة • »

« هذا هو الدكتور هاري ياسيدة وذرول • لم أرك أبداً تبدين شابة وسعيدة بهذا الشكل ! » •

« آه ، انني لن أعود شابة من جديـد ـ ولكنني سأكون سعيدة اذا تركوني أستلقي بسلام وأحصل على بعض الراحة • »

ظنت أنها تكلمت بصوت عال ، ولكن لم يجب أحد•ثقل دافىء على جبينها،

اسوارة دافئة على معصمها ، ونسيم يستمر في الهمس ، يحاول أن يخبرها شيئاً ما• تحرك لأوراق الشجر في يد الله الأبدية • نفخ عليها فرقصت وخشخشت • « أماه لا تعيري الأمر التفاتاً ، سنقوم باعطائك حقنة جلديـة صغيرة • » « انتبهي الـي يا ابنتي ، كيف يصل النمل الى هذا السرير ؟ لقد رأيت نمل سكر بالأمس • » هل استدعيت هابسي أيضاً ؟

ان هابسي هي الشخص الذي تريده حقاً • كان عليها أن تعود فتقطع طريقا طويلة عبر غرف كثيرة جداً لتجد هابسي واقفة تحمل طفلا عـلى ذراعهـا • بدت لنفسها أنهـا هـي هابسي أيضاً ، والطفل عـلى ذراع هابسي كان هابسي ونفسه ونفسها ، الجميع في نفس الوقت ، ولم تكن من مفاجأة في اللقاء • ثم ذابت هابسي من الداخل وغدت شفافة كالشاش الرمادي وغدا الطفل خيالا من الشاش، واقتربت هابسي وقالت : « ظننت أنك لن تأت أبداً ، » ونظرت اليها نظرة شديدة التفحص وقالت : « انك لـم تتغيري أبدا ! » انحنتا لتقبلا بعضهما حـين شرعت كورنيليا تهمس من مسافة بعيدة • « أوه ، هل هناك شيء تودين اخباري به ؟ هل من شيء يمكنني أن أحضره لك ؟ » •

نعم ، لقد غيرت رأيها بعد ستين عاماً وانها تود أن ترى جورج • أريدك أن تعثري على جورج • اعثري عليه وتأكدي من أن تخبريه أنني نسيته • أريده أن يعرف أنني رغم كل شيء حصلت على زوج وعلى أطفال وبيت كأية امرأة أخرى • وكان أيضاً بيتاً حسنا وزوجـاً خيراً أحببته وأطفالا جيدين منه • حتى أكثر ممـا أملت به • أخبريه أنه أعيد الي كل ما أخذه مني وأكثر • آه ، لا ، آه ، ياالهي ، لا ، كان هناك شيء آخر بالاضافة الى البيت والرجل والاطفال • آه ، بالتأكيد لم يكونوا كل شيء ؟ ماذا كان ذلك الشيء ؟ شيء لم يعد ••• ازدحم تنفسها تحت أضلاعها ونمى فغدا شكله مخيفا مرعبا ذا أطراف حادة ؛ وأخذ يحفر في رأسها ، وكان العذاب أكثر من أن يصدق : نعم ياجون ، احضر الطبيب الآن ، لا كلام أكثر لقد حان وقتي •

حين يولد هـذا يجب أن يكون الأخـير • كان يجب أن يولد أولا ، لأنه كان الطفل الذي أرادته حقاً • كل شيء ياتي فيحينه • لا يُترك شيء ، لا يؤجل شيء•

انها قوية ، في مدة ثلاثة أيام ستكون في صحة مثلما كانت في خير أحوالها • أفضل• تحتاج المرأة الى حليب داخلها لتحصل على صحتها التامة •

« أمـي ، هل تسمعينني ؟ »
« كنت أخبرك ــ »
« أمي ، الأب كونولي هنا • »
« لقد ذهبت الى التناول المقدس في الاسبوع الماضي • أخبريـه أنني لست آثمة الى هـذا الحد • »
« ان الأب يود التحدث معك فقط • »

بامكانه أن يتكلم قدر ما يرضيه • ان من شيمته أن يطل ويستعلم عن روحها كما لو كانت روحها طفل تبرز أسنانه ، ثم يبقى لتناول فنجان شاي ويلعب بالورق ويثرثر • دائمـاً لديه قصة مضحكة من نوع ما ، عادة عن رجـل ايرلندي يرتكب أخطاء ويعترف بها ، والمغزى يكمـن في شيء سخيف يتفوه به في الاعتراف مظهـراً صراعاتـه بـين التقوى الطبيعية والخطيئة الاولى • كانت الجـدة تشعر بالارتياح بالنسبة لروحها • كورنيليا ، أين لباقتك ؛ أعط الأب كونولي كرسياً • ان لديهـا اتفاقها السري مع بضعة قديسين مفضلين أفسحوا لها طريقاً مستقيمة تؤدي الى الله• كل شيء ممهور بالتواقيع ومختوم بشكل مضمون مثل الأربعين «أكرة» الجدد • الى الأبد •• ورثة وأشخاص ذوي مخصصات الى الأبد • منذ اليوم الذي لم يقطع فيه قالب « كاتو » الزفاف ، بل ألقي في القمامة • سقط القعر بأكملـه من العالـم ، وهناك كانت عمياء وتتعرق ولا شيء تحت قدميهـا والجدران تتساقط • أمسكت يده بها تحت ثدييها ، انها لم تسقط ، كانت هناك الارض التي لمعت حديثاً وبساط أخضر فوقهـا ، تمامـاً مثل السابق • أخذ يصب اللعنات مثل ببغاء بحار وقال : « سأقتله من أجلك » • لا تلق يداً عليه ، من أجل خاطري اترك شيئاً لله • « الآن يا ايلـين ، عليك أن تصدقي ما سوف أخبرك به •• »

وهكذا لـم يبق شيء ، لا شيء يستوجب القلق بعد ذلك ، ما عدا أحياناً في الليل يصرخ أحد الأطفال في حلم مزعج ، ويخرج كل منهما مسرعاً يرتجفان ويبحثان عن الكبريت ويناديان : « انتظر لحظة ، هانحن هنا ! » جون ، احضر الطبيب الآن،

لقد حان وقت هابسي • ولكن هاهي هابسي تقف الى جانب السرير مرتدية قبعة بيضاء • «كورنيليا ، قولي لهابسي أن تخلع قبعتها•لا أستطيع رؤيتها بوضوح »•

فُتحت عيناها فتحة كاملة وظهرت الغرفة مثل صورة رأتها في مكان ما في الماضي • ألوان قاتمة وظلال ترتفع نحو السقف في زوايا طويلة • ومضى دولاب الزينة الطويل وليس عليه شيء سوى صورة جون ، مكبرة من صورة صغيرة ، وعينا جون فيها شديدتي السواد في حين يجب أن تكونا زرقاوين • انك لم تره أبداً،اذن كيف تعرف شكله ؟ لكن الرجل أصر أن النسخة تتسم بالكمال ، وهي غنية ووسيمة جداً • كصورة ، نعم ، ولكنها ليست زوجي • كان على الطاولة بجانب السرير غطاء كتاني وشمعة وصليب • كان النور أزرق من أغطية مصابيح كورنيليا الحريرية • ليس نوراً بالمعنى الصحيح على الاطلاق ، مجرد بهرجة • ان عليك أن تعيش أربعين عاماً مع مصابيح الكاز لكي تقدر الكهرباء الصافية حق قدرها • شعرت أنها قوية جداً ورأت الدكتور هاري وهالة وردية حوله •

« انك لتبدو كقديس يادكتور هاري ، وأقسم أن هذا أقرب ما ستتوصل اليه من القداسة • »

« انها تقول شيئاً • »

« لقد سمعتك ياكورنيليا • ما هذا الذي يجري هنا ؟ »

« الأب كونولي يقول ـــ »

ترنح صوت كورنيليا واصطدم مثل عربة في طريق وعرة • سارت حول الزوايا وأقفلت عائدة من جديد ولم تصل أي مكان • وقفت الجدة في العربة بخفة شديدة ومدت يدها نحو الألجمة ، لكن رجلا جلس الى جانبها واستطاعت أن تعرفه من يديه وكان يقود العربة • لم تنظر الى وجهه ، فقد عرفت دون أن تنظر ، ولكنها بدلا من ذلك نظرت الى الطريق حيث مالت الاشجار وانحنت لبعضها البعض وكانت آلاف الأطيار تغني قداساً • شعرت برغبة في أن تغني هي أيضاً ، لكنها وضعت يدها في صدر ثوبها وأخرجت مسبحة ، وتمتم الأب كونولي باللاتينية بصوت شديد الوقار ودغدغ قدميها • ياالهي،هلا توقفت عن هذا الهراء ؟ انني امرأة متزوجة• ماذا اذا هرب حقاً وتركني أواجه القسيس وحدي ؟ لقد وجدت آخر أفضل بكثير •

لم أكن لأستبدل زوجي بأي شخص سوى القديس مايكل نفسه ، وبامكانك اخباره ذلك مع شكرأ مضافة الى الصفقة ٠

لمع النور على أجفانها المطبقة ، وهزها زئير عميق ٠ كورنيليا ، هل هذا برق ؟ انني أسمع الرعد ٠ ستكون هناك عاصفة ٠ أغلقي النوافذ ٠ نادي للأطفال ليدخلوا ٠٠ « أماه ، ها نحن هنا ، جميعنا ٠ » « أهذه أنت ياهابسي ؟ » « أوه ، كلا ، أنا ليديا ٠ لقد اتينا بأسرع ما يمكن ٠ » طافت وجوههم فوقها ، وسبحت مبتعدة ٠ سقطت المسبحة من يدها وأعادتها ليديا ٠ حاول جيمي المساعدة ، وتعثرت أيديهما ببعضهما ، وأطبقت الجدة اصبعين على ابهام جيمي ٠ حبات المسبحة لا تصلح ، يجب أن يكون شيء حي ٠ تعجبت جداً أن أفكارها تدور وتدور ٠ اذن ، ياربي الحبيب ، هذا موتي ولم أكن حتى أفكر به ٠ لقد أتى أولادي ليروني أموت ٠ لكن لا أستطيع ، لم يحن الوقت ٠ آه ، كنت دائماً أكره المفاجآت ٠ لقد أردت أن أهدي كورنيليا الطقم الارجواني ــ كورنيليا ، خذي أنت الطقم الارجواني ، ولكن لتلبسه هابسي كلما ارادت ، وأنت يادكتور هاري ، اخرس ٠ لم يرسل أحد في طلبك ٠ آه ياربي الحبيب ، انتظر دقيقة ٠ لقد نويت أن أفعل شيئاً بالنسبة للأربعين « اكرة » ، ليس جيمي بحاجة لها وستحتاجها ليديا فيما بعد ، مع ذلك الزوج التافه ، الذي تزوجته ٠ لقد أردت أن أنهي قماش المذبح وأن أرسل ست زجاجات نبيذ للأخت بورجيا من أجل سوء الهضم الذي تعانيه ٠ أريد أن أرسل ست زجاجات نبيذ للاخت بورجيا يا أب كونولي ، لا تدعني أنسى ٠

قام صوت كورنيليا بدورات صغيرة ومال الى الجانب وتحطم ٠ « آه ، أمي ، آه ، أمي ، آه ، أمي ٠٠٠ »

« لست ذاهبة ياكورنيليا ٠ لقد فوجئت ٠ لا أستطيع الذهاب ٠ »

سترين هابسي من جديد ٠ ماذا بشأنها ؟ « ظننتك لن تأت أبداً ٠ » قامت الجدة برحلة طويلة خارجاً ، تبحث عن هابسي ٠ ماذا اذا لم أجدها ؟ ماذا عند ذاك ؟ غرق قلبها الى الأسفل والأسفل ، لم يكن هناك قاع للموت ، لم تستطع الوصول الى نهايته ٠ تحول الضوء الأزرق المنبعث من غطاء مصباح كورنيليا الى نقطة ضئيلة في مركز دماغها واضطرب وغمز كالعين وترجرج بهدوء وخبا ٠ استلقت الجدة

متكورة داخل نفسها ، مندهشة ومراقبة ، تحدق في نقطة الضوء التيكانت ذاتها ؛ كان جسدها الآن مجرد كتلة أكثر سواداً من الظل في عتمة غـير متناهية ، وهـذه العتمة تلتف حول الضوء وتبتلعه · يا الهي ، أعط اشارة ·

للمرة الثانية لـم تكـن هناك اشارة · مـرة ثانية لا عريس والقسيس في المنزل·(٣) لم تستطع تذكر أي حزن آخر لان هذا الأسى مسحها جميعاً · آه ، كلا، ليس هناك شيء أقسى من هذا ـ لن أغفر ذلك أبـداً · مددت نفسها بنفس عميق وأطفأت النور ·

(٣) قارن هذه الجملة مع قصة المسيح عن العريس (في ماتيو ، ٢٥ : ١ ـ ١٣) ·

فلانري أوكونر

الزنجي الاصطناعي *

استيقظ السيد « هد » ليجد أن الغرفة مليئة بضوء القمر • جلس في فراشه وحدق بألواح الأرض ـ لون الفضة ـ ثم بغطاء وسادته ، الذي ربما كان من القماش المقصب ، وبعد ثانية ، رأى نصف القمر على بعد خمسة أقدام في مرآة حلاقته ، واقفاً وكأنه ينتظر الاستئذان منه ليدخل • تحرك قدماً وألقى نوراً مهيباً على كل شيء • بدا الكرسي المستقيم المستند الى الحائط متصلباً ومتنبهاً كأنه ينتظر الأوامر ، واتخذ بنطال السيد هد ، المعلق على ظهره ، طابعاً يكاد يكون نبيلا ، كقطعة الملابس التي قذف بها رجل عظيم الى خادمه لتوه ؛ لكن الوجه في القمر كان وجهاً وقوراً • حدق عبر الغرفة ومن النافذة حيث سبح فوق حظيرة الحصان وبدا أنه يتأمل نفسه وعليه تعبير شاب يرى كبره في السن أمامه •

كان بامكان السيد هد أن يقول له أن الكبر في السن نعمة مختارة وأنه مع مرور السنين فقط يصل المرء الى ذلك الادراك الهادىء للحياة الذي يجعل منه دليلا مناسباً للشباب • تلك على الأقل كانت خبرته الشخصية •

جلس في فراشه وأمسك بالأعمدة الحديدية عند نهاية سريره ورفع نفسه الى أن استطاع رؤية وجه الساعة المنبهة التي جلست على دلو مقلوب بجانب الكرسي •

---

* "The Artificial Nigger" by Flannery O'Conner

من مجموعة للمؤلفة نشرت في عام ١٩٥٥ •

كانت الساعة الثانية صباحاً · لم يكن المنبه في الساعة يعمل لكنه لم يكن يعتمد على أية وسيلة آلية لتوقظه · لم تثلم ستون عاماً استجاباته ؛ كانت ردوده الجسمية ، كردوده الأخلاقية ، تتخذ دليلا من ارادته وشخصيته القوية ، ويمكن رؤية هاتين بوضوح في تقاسيمه · كان له وجـه طويل كالأنبوب ذو فك طويل مستدير منفتح وأنف طويــل مضغوط · كانت عينـاه نشطتين ولكن هادئتين ، وفي ضـوء القمر الاعجازي اتخذتا مظهر التماسك والحكمة القديمة كما لو كانتا عيني أحد مرشدي الانسان العظام · كان من الممكن أن يكون فرجيل وقد دعي في منتصف الليل للذهاب الى دانتي ، أو أفضل من ذلك ، رافائيل ، وقد أيقظه تدفق مـن نور الله ليطير الى جانب توبياس ·(١) النقطة الوحيدة المظلمة في الغرفة كانت سرير نلسن القشي ، تحت ظل النافذة ·

كان نلسن متكوراً على أحد جانبيه،ركبتاه تحت ذقنه وكعباه تحت مؤخرته· كانت بذلته وقبعته الجديدتان في الصندوقين اللذين أرسلتا فيهما وكان هذان على الأرض عند رأس السرير القشي بحيث يستطيعوضع يديه عليهما حالما يستيقظ · بدا وعاء الحساء_الذي كان خارج الظل واتخذ لوناً أبيض كالثلج في ضوء القمر ـ يقف حارساً فوق رأسه كأنه ملاك شخصي صغير · عاد السيد هـد الى الاستلقاء ، وهو يشعر بثقة تامة أن بامكانه القيام بالمهمة الاخلاقية الخاصة بالنهار التالي · كان ينوي النهوض قبل نلسن والبدء بتهيئة الفطور قبل استيقاظه · كان الصبي يتضايق دائماً حين ينهض السيد هد قبله · سيتوجب عليهما مغادرة المنزلفيالرابعة كي يصلا موقف القطار في الخامسة والنصف · كان المفروض أن يتوقف القطار من أجلهما في الخامسة وخمس وأربعين وعليهما أن يكونا هناك في الوقت المحـدد لأن القطار سيقف فقط لاركابهما ·

ستكون هذه أول رحلات الصبي الى المدينة رغم أنه ادعى أنها ستكون الثانية لانه ولد هناك · حاول السيد هد أن يبين له أنه حين ولد لم يكن لديه الذكاء كي

---

(١) فرجيل هو الشاعر الروماني المعروف ومؤلف **الانيادة** ، في **الكوميديا الالهية** يقوم بارشاد دانتي في أرجـاء الجحيم والمطهر · وكذلك يقوم المـلاك رافائيل بتعليم توبياس ومرافقته وذلك في صراعه وانتصاره علىالشيطان اسموديوس وذلك في «سفرتوبياس» أحدالأسفارالملحقةبالتوراة·

يحدد مكان وجوده لكن هذا لم يحدث أي تأثير على الطفل عـلى الاطلاق واستمر في الاصرار على أن هذه ستكون رحلته الثانية · وهي ستكون رحلة السيد هد الثالثة·
قال نلسن : « سأكون قد ذهبت هناك مرتين وأنا لم أتجاوز العاشرة · »
خالفه السيد هد ·

« اذا لم تكن قـد ذهبت هناك خـلال خمسة عشر عامـا ، كيف تعرف أنك ستستطيع معرفة طريقك ؟ » سأل نلسن · « كيف تعرف أنها لم تتغير قليلا ؟ » ·

« هل رأيتني قط » ، سأل السيد هد ، « وقد ضللت طريقي ؟ »

بالتأكيد لم يره نلسن مضلا طريقه لكنه كان طفل لا يشعر بالقناعة الا بعد أن يجيب جوابا وقحاً لذا فقد أجاب ، « ليس هنا من مكان يضل المرء فيه · »

« سوف يأتي يوم، » تنبأ السيد هد ، «ستجد أنك لست ذكياً مثلما تعتقد ·»
كان قد أمضى بضعة شهور يفكر في الرحلة لكن تصوره لهـا كان في معظمه تصوراً أخلاقيا · انها ستكون درساً للصبي لن ينساه أبـداً · سيكتشف منهـا أنه لا سبب لديه للاعتزاز لمجرد أنه ولد في مدينة · سيكتشف أن المدينة ليست مكانا عظيماً · أراده السيد هد أن يرى كل شيء يمكن رؤيته في مدينة وذلك كي يقتنع بالبقاء في بيته بقية حياته · غلبه النوم وهو يفكر كيف أن الصبي سيكتشف أخيراً أنه ليس ذكياً بالقدر الذي يعتقده ·

استيقظ في الثالثة والنصف على رائحة لحم خنزير يقلى وقفز مـن سريره · كان سرير القش فارغاً وصندوقي الملابس مفتوحين · ارتدى بنطاله وهـرع الى الغرفة الاخرى · كان الصبي يجهز رغيفا من الذرة وقد انتهى من قلي اللحم·كان جالسا في العتمة النصفية الى الطاولة ، يشرب قهوة باردة مـن علبة · كان مرتدياً بذلته الجديدة وقبعته الرمادية الجديدة مسحوبـة الى الأسفل فوق عينيه · كانت كبيرة الحجم بالنسبة له لكنهما طلباها أكبر قياساً لانهما توقعا أن يكبر رأسه · لم يقل أي شيء لكن شكله بأكمله أوحى بالرضاء لانه نهض قبل السيد هد ·

مضى السيد هـد الى الموقد وحمل اللحم في المقلاة الى الطاولة · « لا عجلة هناك » ، قـال · « ستصل هناك بسرعة كافية ولا ضمانة أنك ستسر حـين تصل

أيضاً ، » وجلس قبالة الصبي الذي تأرجحت قبعته الى الخلف ببطء كاشفة عنوجه عديمالتعبير بشكل شرس ، شكله يشبه كثيراً وجه الرجل المسن ، كانا جداً وحفيداً لكن الشبه بينهما كان كافياً ليبدو كأخوين وأخوين ليسا متباعدين كثيراً في السن ·· لان المستر هد يحمل تعبيراً شاباً في وضح النهار ، بينما النظرة على وجه الصبي كانت عتيقة ، كما لو أنه يعرف منذ الآن كل شيء وسيسعده لو ينساه ·

ذات مرة كان للسيد هد زوجة وابنة وحين ماتت الزوجة ، هربت الابنة ثم عادت بعد فترة مع نلسن · ثم ذات صباح ، دون أن تنهض من سريرها ، ماتت وتركت للسيد هد الرعاية التامة للطفل الذيكان عمره سنة واحدة · وقد ارتكب خطيئة أخبار نلسن أنه ولد في أتلانتا · لو أنه لم يخبره ذلك ، لما كان بامكان نلسن أن يصر أن هذه ستكون رحلته الثانية ·

« قد لا يعجبك أبداً ، » تابع السيد هد · « ستكون مليئة بالزنوج · »

ارتسم على وجه الصبي تعبير وكأنه يستطيع مواجهة زنجي ·

« حسناً ، » قال السيد هد · « انك لم تر أي زنجي قط · »

« لم تنهض مبكراً جداً ، » قال نلسن ·

« انك لم تر أي زنجي قط ، » أعاد السيد هد القول · « لم يوجد أي زنجي في هذه الناحية منذ طردنا ذلك الزنجي قبل اثني عشر عاما وحدث ذلك قبل أن تولد » نظر الى الصبي وكأنه يتحداه أن يقول أنه رأى أي زنجي ·

« كيف تعرف أنني لم أر زنجياً قط في حين أنني عشت هناك من قبل ؟ » سأل نلسن · « ربما رأيت الكثير من الزنوج · »

« لو أنك رأيت واحداً فانك لم تدرك ماهو ، » قال السيد هد ، متضايقاً تماما · « ان طفلا في شهره السادس لا يميز بين زنجي أو أي شيء آخر · »

« أتصور أنني سأميز الزنجي حين أراه ، » قال الصبي ونهض وعدل وضع قبعته الرمادية الصقيلة ذات التغضن الحاد وخرج الى المرحاض ·

وصلا الى المحطة قبل فترة من موعد وصول القطار ووقفا على بعد قدمين من أول خطين من مجموعة الخطوط الحديدية · حمل السيد هد كيساً من الورق يحوي

بعض البسكويت وعلبة من السردين لغدائهما. كانت شمس خشنة المظهر برتقالية اللون تتسلق من خلف سلسلة الجبال الشرقية وتجعل السماء حمراء باهتة خلفهما، لكن في مواجهتهما كانت لا تزال رمادية ووقفا قبالة القمر الرمادي الشفاف، الذي يكاد ألا يكون أكثر وضوحاً من بصمة ابهام وليس فيه أي نور قط . لم يكن هناك سوى علبة تحويل قصديرية صغيرة وبرميل وقود أسود كعلامتين تميزان المكان كموقف؛ كان الخط الحديدي مزدوجاً ولكن الخطوط لم تتحد من جديد قبل أن تختفي وراء المنحنيات على كلي جانبي الفسحة . بدت القطارات المارة وكأنها تبرز من نفق من الأشجار، وتصيبها لمدة ثانية السماء الباردة ، فتختفي مذعورة في الغابة من جديد. اضطر السيد هد لاجراء ترتيبات خاصة مع وكيل التذاكر لكي يقف هذا القطار وقد خشي في سره ألا يقف ، وكان يدري أن نلسن في تلك الحالة سيقول ، « لم أصدق أن أي قطار سيتوقف من أجلك . » بدت الخطوط تحت قمر الصباح العديم الفائدة بيضاء وهشة. حدق كل من العجوز والصبي أمامه وكأنهما ينتظران شبحاً.

ثم فجأة ، قبل أن يستطيع السيد هد أن يحزم أمره ويقرر العودة ، صدر ثغاء عميق وظهر القطار ، ينزلق ببطء شديد يكاد يكون صامتاً حول منحنى الاشجار على بعد حوالي مئتي ذراع على السكة ، وضوء أمامي أصفر واحد يبرق. كان السيد هد لا يزال غير متأكد أنه سيقف وشعر أنه سيظهره بمظهر شخص أكثر حمقاً اذا مر ببطء. لكنه هو ونلسن كانا على استعداد لتجاهل القطار اذا تجاوزهما.

اندفع المحرك ماراً بهما ، يملأ أنفيهما برائحة المعدن الساخن ثم توقفت العربة الثانية حيث وقفا بالضبط . كان مفتش تذاكر ذو وجه كوجه قلب قديم يملؤه الغرور من طراز البُلدُغ يقف على الدرجة وكأنه يتوقعهما ، رغم أنه لم يبد عليه أنه كان مهتماً على الاطلاق ما اذا ركبا أولا . « الى اليمين ، » قال .

لم يستغرق ركوبهما سوى جزء من الثانية وبينما دخلا العربة الهادئة كان القطار قد استأنف سرعته . كان معظم الركاب لا زالوا نائمين ، وبعضهم تتدلى رؤوسهم من جوانب المقاعد ، والبعض تمدد على مقعدين والبعض الآخر تمدد وقدماه في الممر . رأى السيد هد مقعدين فارغين ودفع نلسن نحوهما . « ادخل هناك عند النافذة ، » قال بصوته الطبيعي الذي كان مرتفعاً جداً في هذا الوقت

من الصباح • « لن يمانع أحد اذا جلست هناك لأنه لا أحـد يجلس عليه • اجلس عندك هناك • »

« لقد سمعتك ، » تمتـم الصبي • « لا ضرورة لصياحك ، » وجلس وأدار رأسه نحو الزجاج • رأى هناك وجهـاً شاحباً كالأشباح ينظر اليه عابساً من تحت حافة قبعة شاحبة كالاشباح • ورأى جده ـ الذي كان ينظر أيضاً ـ شبحاً مختلفاً، شاحبا ولكنه يبتسم ، من تحت قبعة سوداء •

جلس السيد هد واتخذ وضعاً مريحاً وأخرج تذكرته وبدأ بقراءة كل شيء طبع عليها بصوت عال • بدأ الناس يتحركون • استيقظ عدة أشخاص وأخـذوا يحدقون فيه • « انزع قبعتك » ، قال لنلسن ونزع هو قبعته ووضعها على ركبته• كان له كمية ضئيلة من الشعر الأبيض الذي تحول لونه الى لون التبغ مـع مـرور السنوات والذي ارتكـز مستوياً عـلى مؤخرة رأسه • كانت مقدمـة رأسه صلعاء ومتغضنة • نزع نلسن قبعته ووضعها على ركبته وانتظرا مفتش التذاكر أن يأتي ويسأل عن تذكرتيهما •

كان الرجل الذي قبالتهما ممدداً على مقعدين ، وقدماه مسنودتان على النافذة ورأسه بارز في الممشى • كان يرتدي بذلة زرقاء فاتحة وقميص أصفر مفكوك عند الرقبة • كان قد فتح عيناه لتوه واستعد السيد هد لتقديم نفسه حين جاء المفتش من الخلف وقال هادراً ، « تذاكر » •

حين ذهب المفتش ، قام السيد هـد باعطاء نلسن النصف المتبقي من تذكرته قائلا ، « الآن ضع هذا في جيبك ولا تضيعه والا تحتم عليك البقاء في المدينة • »

« قد أفعل ذلك ، » قال نلسن كما لو كان هذا اقتراحاً معقولا •

تجاهله السيد هد • « أول مرة يركب فيها هذا الصبي في القطار ، » قـال مفسراً للرجل المواجه لهما ، الذي كان الآن جالساً عـلى حافة مقعده وكلتا قدميه على الأرض •

وضع نلسن قبعته من جديد بعنف على رأسه والتفت بغضب نحو النافذة •

« انه لم ير أي شيء من قبل ، » تابع السيد هد • « جاهل مثلما كان يوم ولد ، لكنني أنوي له أن يحصل على كفايته بضربة واحدة • »

انحنى الصبي الى الأمـــام عبر جـــده ونحو الرجل الغريب · « لقد ولدت في المدينة ، » قال · « لقد ولدت هناك · هـــذه رحلتي الثانية · » قال هـــذا بصوت واثق عال لكن لم يبد على الرجل الجالس في مواجهتها أنه فهم · كانت هناك دوائر قرمزية عميقة تحت عينيه ·

مد السيد هد نفسه عبر الممشى وربت على ذراعه · « ما يجب فعله بالنسبة لصبي ، » قال بلهجة حكيمة ، « هـــو أن تريه كل مـــا يمكن رؤيته · لا تخفي عنه أي شيء » ·

« نعم ، » قال الرجل ، حدق بصره بقدميه المنتفختين ورفع اليسرى حوالي عشر بوصات عن الارض · بعد دقيقة أنزلها ورفع الاخرى · في كل أنحاء العربة بـــدأ الناس ينهضون ويتحركون هنا وهناك ويتثاءبون ويتمطون · كان بالامكان سماع أصوات منفردة هنا وهناك ثم هدير عام · فجأة تغير تعبير السيد هد الرصين · انغلق فمـــه تقريباً وبان نور ـــ شرس وحـــذر في نفس الوقت ـــ في عينيه · كان بصره ممتـــداً طـــوال العربة · دون أن يلتفت ، أمسك بذراع نلسن وجذبـــه الى الأمام · « انظر ، » قال ·

كان رجل ضخم بلون القهوة قادماً ببطء الى الامـــام · كان يرتدي طقمـــاً خفيفاً وربطة عنق صفراء حريرية فيها حجر من الياقوت · استراحت احدى يديه على معدته التي برزت بأبهـــة تحت معطفه المزرر ، وفي اليد الثانية أمسك مقبض عكاز سوداء كان يرفعها وينزلها بحركة ابتعادية متعمدة مع كـــل خطوة يخطوها · كان يتقدم ببطء شديد ، وعيناه العسليتان الكبيرتان تنظران فوق رؤوس الركاب · كان له شارب أبيض صغير وشعر مجعـــد أبيض · كانت وراءه شابتان ، كلتاهمـــا بلون القهوة ، احداهما ترتدي ثوباً أصفر والاخـــرى ثوباً أخضر · وكان تقدمهما بسرعة تقدمه وكانتا تتحدثان بصوتين حلقيين منخفضين بينما تتبعانه ·

أخذت قبضة السيد هد تزدادا ضغطاً باصرار على ذراع نلسن · أثناء مرور المجموعة بهما ، انعكس في عين السيد هد النور الصادر عن خاتم من الياقوت الأزرق في اليد البنية التي أمسكت العكاز · تابعت المجموعة سيرها بقية الممشى ثم خرجت من العربة · ارتخت قبضة السيد هد على ذراع نلسن · « ماذا كان ذلك ؟ » سأل ·

« رجل ، » قال الصبي ونظر اليه نظرة ساخطة كما لو كان قد سئم الاهانات الموجهة الى ذكائه ٠

« أي نوع من الرجال ؟ » ثابر السيد هد بعناد ، بصوت عديم الانفعال ٠

«رجل بدين،» قال نلسن ، وقد بدأ يشعر بأنه من الأفضل له أن يكون حذراً٠

« أنت لا تدري أي نوع ؟ » قال السيد هد بلهجة قاطعة ٠

« رجل مسن ، » قال الصبي وقد انتابه هاجس مفاجيء ينذر أنه لن يستمتع بنهاره ٠

« كان ذلك زنجياً ، » قال السيد هد واستند الى الخلف ٠

قفز الصبي واقفاً على المقعد ينظر الى الخلف باتجاه نهاية العربة لكن الزنجي كان قد مضى ٠

« لقد ظننت أنك ستميز زنجياً باعتبارك رأيت الكثير منهم حين كنت في المدينة في زيارتك الاولى ، » تابع السيد هد ٠ « ذلك كان أول زنجي له ، » قال للرجل عبر الممر ٠

انزلق الصبي جالساً على مقعده ٠ « لقد قلت أنهم سود ، » قال بصوت غاضب ٠ « لم تقل قط أنهم سمر ٠ كيف تتوقع مني أن أعرف أي شيء حين لا تخبرني بالواقع ؟ » ٠

« انك مجرد جاهل وهذا كل ما في الأمر ، » قال السيد هد ونهض وانتقل الى المقعد الفارغ بجانب الرجل عبر الممر ٠

التفت نلسن الى الخلف من جديد وتطلع الى حيث اختفى الزنجي ٠ شعر أن الزنجي قد مشى قصداً عبر الممر من أجل أن يظهره بمظهر الأحمق وكرهه كراهية جديدة فجة شرسة ؛ وأيضاً ، فهم الآن لِمَ لمْ يكن جده يحبهم ٠ نظر نحو النافذة فبدا الوجه المنعكس هناك يوحي أنه قد لا يكون كفؤاً لمتطلبات ذلك اليوم ٠ تساءل ما اذا سيكون حتى قادراً على التعرف على المدينة حين يصل اليها ٠

بعد أن حكى عدة حكايا ، لاحظ السيد هد أن الرجل الذي يخاطبه كان نائماً فنهض واقترح على نلسن أن يتمشيا في أنحاء القطار ويتفرجا على أجزائه ٠

أراد الصبي بشكل خاص أن يرى المرحاض لـذا ذهبا أولا الى دورة مياه الرجـال وتفحصا التمديدات • أشار السيد هد الى جهاز تبريد الماء وكأنه هو الذي اخترعه وأطلع نلسن عـلى الحوض الصغير ذي الصنبور الواحـد حيث يفرشي المسافرون أسنانهم • مرا عبر عدة عربات ووصلا الى عربة الطعام •

كانت هذه أكثر عربات القطار أناقة • كانت مطلية بلون أصفر غني مثل صفار البيض وعلى أرضهـا سجادة بلون النبيذ • كانت هناك نوافذ عريضة فوق الطاولات ومقاطع كبيرة من المنظر المتدحرج تنعكس مصغرة عـلى جوانب أباريق القهوة والكؤوس • كان ثلاثة زنوج شديدي السواد يرتدون طقوماً ومآزر بيضاء يهرعون جيئة وذهاباً في الممشى ، يأرجحون صوان وينحنون ويميلون على المسافرين الذين يتناولون فطورهم • هرع أحدهم الى السيد هد ونلسن وقال ، وهو يرفـع اصبعين ، «مكان لاثنان !» لكن هد أجاب بصوت عال : «لقد أكلنا قبل أن نغادر!»•

كان الخادم يضع نظارة بنية كبيرة زادت من حجم بياض عينيه • « قفا جانباً اذن من فضلكما ، » قال وقـام بحركة متعالية بذراعه كما لـو كـان يكش بعض الذباب جانباً •

لم يتحرك أي من السيد هد ونسلن ولا جزءاً من البوصة • « انظر ، » قال السيد هد •

كانت زاوية عربة الطعام القريبة منهمـا والتي تحتوي طاولتين قد فصلت عن بقية العربة بستار بلون الزعفران • كانت احدى الطاولتين مجهزة ولكن فارغة أما الاخرى فقد جلس اليها الزنجي الضخم في مواجهتهما وظهره الى الستار • كان يتحدث بصوت خافت الى المرأتين بينما أخذ يدهن قطعة من الكعك بالزبدة • كان ذا وجه ثقيل حزين وتدلت رقبته على ياقته البيضاء من كلي الجانبين • «يعزلونهم،» قال السيد هد مفسراً • ثم قال ، « فلنذهب الى المطبخ ، » ومشيا عبر عربة الطعام ولكن الخادم الزنجي هرع خلفهما •

« لا يسمح للركاب بدخول المطبخ ! » قال بصوت متعال •« لا يسمح للركاب بدخول المطبخ ! »

توقف السيد هــد حيث كان والتفت • « وهناك سبب وجيه لذلك ، » صاح في صدر الزنجي ، « لأن الصراصير ستدفع الركاب الى الهرب ! »

ضحك جميع الركاب وخرج السيد هد ونلسن وهما يبتسمان • كان السيد هد معروفاً بين معارفه بسرعة بديهته وشعر نلسن باعتزاز مفاجيء حاد به • أدرك أن العجوز سيكون سنده الوحيد في المكان الغريب الذي كانا يقتربان منه • سيكون وحيداً تماماً في العالم اذا ما ضاع عن جده • هز احساس جارف مرعب كيانه وشعر بالرغبة في امساك معطف السيد هد والتعلق به كطفل •

بينما كانا في طريق عودتهما الى مقعديهما تمكنا أن يلحظا عبر النوافذ التي مرت بهما أن بيوتاً صغيرة وأكواخا بدأت تنتشر في الريف وأن طريقاً عامة كانت تسير بمحاذاة القطار•كانت السيارات تجري عليها ، صغيرة وسريعة جداً • شعر نلسن أن الهواء يحتوي على نفس أقــل مما كان يحتويه قبل ثلاثــين دقيقة • كان الرجل المواجه لهما عبر الممشى قد غادر مكانه ولم يكن من شخص قريب ليتحدث السيد هد اليه لذا فانه تطلع من النافذة ، عبر خياله ، وأخــذ يقرأ بصوت عال أسماء الأبنية التي يمران بهــا • « شركة ديكسي(٢) الكيميائية ! » قال معلناً • « طحــين الصبية الجنوبية ! أبواب ديكسي ! منتجات الحسناء الجنوبية القطنية ! زبدة فستق باتي ! قطر الأم كين الجنوبي ! »

« اصمت ! » قال نلسن بصوت كالفحيح •

في كل أنحاء العربة بدأ الناس ينهضون وينزلون أمتعتهم مــن الرفوف فوق رؤوسهم • أخذت النساء يرتدين معاطفهن وقبعاتهن • أطل المفتش برأسه وزمجر، « أول موقف ، ايموري ، » (٣) واندفع نلسن من وضعه الجالس ، وهو يرتجف • دفعه السيد هد من كتفه نحو الأسفل •

« ابق في مقعدك ، » قال بنبرة وقورة • « أول موقف هو عند حافة المدينة•

(٢) ديكسي Dixie هي كلمة تطلق على مجموعة الولايات المتحدة الامريكية الجنوبية •

(٣) في الأصل ، لا تصدر الكلمات منفصلة وواضحة من فم المفتش بل متداخلة بشكل قد ينقل الى العربية هكذا : « أوموقفمري » •

ثاني موقف هو محطة القطار الرئيسية · » لقد توصل الى هـذه المعرفة في رحلته الاولى حين نزل في الموقف الأول واضطر لان يدفع خمسة عشر سنتاً لأحد الأشخاص ليأخذه الى قلب المدينة · عاد نلسن الى الجلوس ، وهو شديد الشحوب · لأول مرة في حياته ، أدرك أنه لا غنى له عن جده ·

توقف القطار وأنزل بضعة ركـاب ومضى في طريقه وكأنه لـم يتوقف عـن الحركة قط · في الخارج ، خلف صفوف من المنازل المتداعية البنية ، قام صف من الأبنية الزرقاء ، وخلفها سماء وردية رمادية شاحبة تضمحل الى لا شيء · دخـل القطار فناء المحطة · رأى نلسن وهو يتطلع الى الأسفل خطوطاً وخطوطاً من السكك الفضية تتكاثر وتتقاطع · ثم قبل أن يستطيع البدء في عدهـا ، حدق فيه الوجـه الذي كان في النافذة ، رمادياً ولكن واضحاً ، فنظر هـو الى الطرف الآخر · كان القطار قد دخل المحطة · قفز هو والسيد هد كلاهما ناهضين وركضا نحو الباب · لم يلحظ أيهما أنهما تركا الكيس الورقي وفيه غداءهما فوق المقعد ·

مشيا بتصلب عبر المحطة الصغيرة وخرجـا من باب ثقيل الى هديـر حركـة المرور · كانت حشود من الناس تهرع الى أعمالها · لـم يدر نلسن أين ينظر · استند السيد هد على جانب البناء ونظر أمامه ·

أخيراً قال نلسن ، « حسناً ، كيف ترى كل ما تمكن رؤيته ؟ »

لم يجب السيد هد · ثم كما لو أن منظر المارة أوحـى له بالجواب ، قال ، « بأن تمشي ، » وبدأ يسير في الشارع · تبعه نلسن ، وهو يركـز وضع قبعته· كانت مناظر وأصوات كثيرة تتدفق عليه بحيث أنه لـم يكد يدرك في البداية ماذا كان يرى · عند الزاوية الثانية ، التفت السيد هـد ونظر خلفه الى المحطة التي غادراها ، وكانت بناء ذا لون رمادي مصفر تعلوه قبة من الاسمنت · فكر أنه اذا استطاع ابقاء القبة دائمـاً في مرمى بصره ، فانه سيتمكن من العودة في الظهـيرة لركوب القطار من جديد ·

بينما تابعا سيرهما ، بدأ نلسن يميز التفاصيل ويلاحظ واجهات المخازن ، مملوءة بكل نوع من المعدات ــ خرداوات ، بضائع جافة ، غذاء للدجاج ، كحول·

مرا بمحل لفت السيد هد انتباهه اليه بشكل خاص حيث يدخل المرء ويجلس على كرسي وقدماه على سنادتين ويقوم زنجي بمسح حذائه · سارا ببطء وتوقفا عند المداخل كي يستطيع رؤية ما يجري في كل مكان لكنهما لم يدخلا أياً من هذه الأمكنة · كان السيد هد مصمماً ألا يدخل أي محل في المدينة لانه في زيارته الاولى لها ، ضاع في محل كبير ولم يجد طريقه الى الخارج الا بعد أن أهين من قبل كثير من الاشخاص ·

وصلا في منتصف القسم التالي من الشارع الى محل أمامه آلة وزن ووقف كل منهما بدوره عليها وأدخل قطعة سنت واستلم بطاقة · قالت بطاقة السيد هد ، « أنت تزن ١٢٠ رطلا · أنت مستقيم وشجاع وجميع أصدقائك يشعرون نحوك بالاعجاب · » وضع البطاقة في جيبه وقد أدهشه أن تسجل الآلة شخصيته بشكل صحيح ووزنه بشكل خاطيء ، اذ كان قد وزن نفسه على ميزان حنطة قبل وقت ليس طويلا وكان وزنه ١١٠ · وقالت بطاقة نلسن ، « أنت تزن ٩٨ رطلا · ينتظرك مستقبل عظيم ولكن احذر النساء السود · » لم يكن نلسن يعرف أية نساء وكان وزنه ٦٨ رطلا فقط لكن السيد هد أشار الى أن الآلة قد تكون طبعت الرقم بالمقلوب ، وهي تعني ٦ ، بدلا من ٩ ·

تابعا السير وعند نهاية خمسة أقسام من الشارع اختفت قبة المحطة من مرمى نظرهما والتفت السيد هد الى اليسار · كان بامكان نلسن الوقوف أمام واجهة كل محل لمدة ساعة لولا أن واجهة أكثر اثارة للاهتمام كانت تليها · فجأة قال ، « لقد ولدت هنا ! » استدار السيد هد ونظر اليه برعب · كان هناك اشراق متعرق في وجهه · « هذا هو المكان الذي أتيت منه ! » قال ·

شعر السيد هد بالرعب · وجد أن اللحظة قد حانت للقيام بعمل حاسم · «دعني أريك شيئاً لم تره بعد ، » قال وأخذه الى زاوية كان فيها فوهة للمجاري · « اجلس القرفصاء ، » قال ، « وأدخل رأسك الى الداخل ، » وأمسك بمؤخرة معطف الصبي أثناء جلوسه ووضع رأسه في المجاري · أخرج رأسه بسرعة ، وهو يسمع رغرغة في الأعماق تحت الرصيف · ثم قام السيد هد بشرح شبكة المجاري ، كيف أنها تجري تحت المدينة بأكملها ، وكيف أنها تحتوي النفاية وأنها مليئة بالجرذان وكيف يمكن

للمرء أن يتسلل اليها وتبتلعه أنفاق حالكة الظلمة غير متناهية • في أية لحظة يمكن لأي انسان في المدينة أن تبتلعه المجاري ولا يسمع عنه ثانية أبداً • قام بوصفها بشكل جيد لدرجة أن نلسن ارتجف لبضعة ثوان • ربط بين ممرات المجاري ومدخل الجحيم وأدرك للمرة الأولى كيف يقوم العالم في أجزائه السفلية • ابتعد عن طرف الرصيف•

ثم قال ، « نعم ، ولكن يمكنك البقاء بعيداً عن الحفر ، » واتخذ وجهه ذلك المنظر العنيد الذي كان يملأ جده بالسخط والضيق • « هذا هو المكان الذي أتيت منه ! » قال •

شعر السيد هد بالخيبة لكنه تمتم فقط ، « لسوف تشبع ، » وتابعا سيرهما • عند نهاية قسمين آخرين التفت الى اليسار وهو يشعر أنه يدور حول القبة ؛ وكان على صواب إذ خلال نصف ساعة مرا بمحطة القطار من جديد • في البداية لم يلحظ نلسن أنهما كانا يشاهدان نفس المحلات مرتين ولكن حين مرا بالمحل الذي تضع فيه قدميك على سنادتين بينما يمسح الزنجي حذاءك ، أدرك أنهما يسيران في دائرة •

« لقد كنا هنا من قبل ! » صاح • « لا أعتقد أنك تعرف أين أنت ! »

« لقد غاب الاتجاه عن ذهني لدقيقة فقط ، » قال السيد هد وانعطف الى شارع مختلف • كان لا يزال ينوي ألا يترك القبة تبتعد عنه كثيراً وبعد اجتياز قسمين في الاتجاه الجديد التفت الى اليسار • كان هذا الشارع يحتوي على منازل خشبية مؤلفة من طابقين وثلاثة طوابق • وكان بامكان أي شخص يسير على الرصيف أن يرى داخل الغرف ورأى السيد هد ، وهو ينظر في احدى النوافذ ، امرأة مستلقية على سرير حديدي ، تنظر الى الخارج ، وتغطيها ملاءة • هزه تعبيرها المدرك • قدم صبي شرس المنظر على دراجة منطلقاً من لامكان واضطر أن يقفز الى الجانب كي يتجنب أن تصدمه الدراجة • « لايعني شيئاً بالنسبة لهم أن يقوموا بصدمك واسقاطك • » قال • « من الأفضل أن تبقى قريباً مني • »

تابعا السير بعض الوقت في شوارع مثل هذا قبل أن يتذكر أن ينعطف من جديد• كانت جميع البيوت التي أخذوا يمرون بها الآن غير مطلية وبدا الخشب فيها عفناً ؛ وكان الشارع الفاصل بينها أضيق • رأى نلسن رجلاً ملوناً • ثم آخر ثم آخر • « ان الزنوج يسكنون هذه البيوت ، » قال معلقاً •

« اذن هلم ولنذهب الى مكان آخر ، » قال السيد هد · « لم نأت لنشاهد الزنوج ، » وانعطفا الى شارع آخر لكنهما استمرا في رؤية الزنوج في كل مكان· بدأت بشرة نلسن تخزه وأخذا يخطوان بسرعة أكبر لكي يغادرا الحي بأسرع ما يمكن · كان هناك رجال ملونون في قمصانهم التحتانية يقفون عند الأبواب ونساء ملونات يجلسن على كراسي هزازه على الشرفات المتداعية · كان الأطفال الملونون يلعبون في الشوارع وكانوا يتوقفون عما يقومون به لينظروا إليهما · قبل وقت طويل بدآ يمران بصفوف من المحلات فيها زبائن ملونون لكنهما لم يتوقفا عند مداخل هذه المحلات · عيون سوداء في وجوه سوداء كانت تراقبهما من كل جانب · « نعم ، » قال السيد هد ، « هذا هو المكان الذي ولدت فيه ــ هنا تماماً بين كل هؤلاء الزنوج · »

قطب نلسن · « أعتقد أنك جعلتنا نضل طريقنا ، » قال ·

استدار السيد هد حوله بحده يبحث عن القبة · لم يستطع رؤيتها في أي مكان ، « كلا انني لم أجعلنا نضيع ، » قال · « أنت فقط قد تعبت من السير· »

« انني لم أتعب ، لكنني جائع ، » قال نلسن · « أعطني قطعة بسكويت · »
اكتشفا حينئذ أنهما أضاعا غداءهما ·

« كنت أنت الذي تحمل الكيس ، » قال نلسن · « وكنت أنا أبقيته في حوزتي · »

« اذا أردت أن توجه هذه الرحلة ، سأتابع السير بمفردي وأتركك هنا في هذا المكان ، » قال السيد هد وسره أن يرى الصبي يشحب · لكنه أدرك أنهما قد ضلا الطريق وأنهما يبتعدان في كل دقيقة عن المحطة · كان هو نفسه جائعاً وبدأ يشعر بالعطش ومنذ أن وجدا نفسيهما في الحي الزنجي أخذا كلاهما يتعرقان · كان نلسن يرتدي حذاءه ولم يكن معتاداً عليه ·كانت الأرصفة الاسمنتية شديدة الصلابة· كانا كلاهما يرغبان في العثور على مكان يجلسان فيه لكن كان هذا مستحيلاً وتابعا المسير ، والصبي يهمهم بين أنفاسه · « أولاً أضعت الكيس ثم ضللت الطريق ، » والسيد هد يزمجر بين الفينة والأخرى ، « كل من يود الانتماء الى هذا الفردوس الزنجي يستطيع ذلك ! »

كانت الشمس حينذاك قد ارتفعت في السماء • وصلت الى أنوفهم روائح وجبات غداء تطبخ • وقف الزنوج جميعاً عند أبواب بيوتهم يراقبونهما وهما يمران • « لم لا تسأل أحد هؤلاء الزنوج عن الطريق ؟ » قال نلسن • « أنت الذي جعلتنا نضل •»

« هذا هو المكان الذي ولدت فيه ، » قال السيد هد • « بـامكـانك أن تسـأل أحدهم بنفسك ان أردت • »

كان نلسن خائفاً من الرجال الملونين ولم يرد أن يضحك الأطفال الملونون عليه• رأى أمامه امرأة ملونة ضخمة تنحني عند مدخل يقع على الرصيف • كان شعـرهـا يقف منتصباً من رأسها مسافة أربع بوصات في كل الاتجاهات وكانت تستند عـلى قدمين بنيين حافيين تحولا الى لون قرنفلي عند الأطراف • كانت ترتدي ثوبـاً أزهر اللون يظهر شكلها بوضوح تام • حين وصلا على مقربة منها،، رفعت بكسـل احـدى يديها الى رأسها واختفت أصابعها داخل شعرها •

توقف نلسن • شعر بعيني المرأة الحالكتين تسحبان أنفاسه • « كيف يمكننـا العودة الى المدينة ؟ » قال بصوت بدا مختلفاً عن صوته •

بعد دقيقة قالت ، « انت في المدينة الآن ، » بنبرة غنية منخفضة جعلت نلسن يشعر وكأن رذاذاً رطباً قد صب عليه •

« كيف يمكننا العودة الى القطار ؟ » قال بنفس الصوت الذي يشبه صـوت قصبـة •

« تستطيع أن تستقل حافلة ، » قالت •

فهم أنها كانت تسخر منه ولكنه شعر بعجز كـامل حتى عن التقطيب • وقف يجرع كل تفاصيلها • انتقلت عيناه من ركبتيها الضخمتين الى جبينها ثم اتبعتا ممراً مثلثاً من العرق الملتمع على رقبتها هبوطاً عبر صدرها الهائل وفوق ذراعها العـاري ثم عادتا الى حيث اختبأت أصابعها في شعرها • فجأة أرادها أن تمد يديها الى الأسفل وترفعه وتشده اليها ثم أراد أن يشعر بأنفاسها على وجهه • أراد أن يتعمق ويتعمق في النظر في عينيها بينما تشده هي اليها بقوة أكبر وأكبر • لم يكن قد خامره مثـل هذا الشعور من قبل قط • شعر كأنه يدور في نفق حالك السواد •

« يمكنك المضي الى تقاطع الشارع التالي هناك وتستقل حافلة تـأخـذك الى محطة القطار ، ياقطعة السكر ، » قالت ٠

كان نلسن سيتداعى على قدميها لولا أن السيد هد شده بعيداً بخشونة ٠ « انت تتصرف كما لو لم يكن لديك أي تفكير ! » زمجر العجوز ٠

أسرعا السير في الشارع ولم يلتفت نلسن ببصره نحو المرأة ٠ شد قبعته بحـدة الى الأمام فوق وجهه الذي أخذ يلتهب من الشعور بالعار ٠ عاد اليه الشبح الساخط الذي رآه في نافذة القطار وكل المشاعر المنذرة بالشؤم التي انتابته في الطريق وتذكر أن بطاقته من آلة الوزن قد قالت أن يحذر من النساء الداكنات وأن بطاقة جده قالت أنه مستقيم وشجاع ٠ أمسك بيد الرجل العجوز ، دليلاً على الاعتماد عليه الذي قلما أظهره ٠

اتجها في سيرهما في الشارع نحو سكة الحافلة حيث كان ترولي طـويـل أصفر قادماً يجعجع ٠ لم يكن السيد هد قد ركب حافلة من قبل لذا ترك هذه تمر بهمـا ٠ كان نلسن صامتاً ٠ بين الحين والآخر ارتجف فمه قليلاً ــ لكن جده ــ الذي انشغـل تفكيره بمشكلاته الخاصة ــ لم يعره التفاتاً ٠ وقفا عند الزاوية ولم ينظر أي منهمـا الى الزنوج الذين كانوا يمرون ، ذاهبين الى أشغالهم تماماً كما لو كانوا من البيض ، باستثناء أن الكثيرين منهم توقفوا وحدقوا النظر بالسيد هد ونلسن ٠ خطر للسيـد هد أنه بما أن الحافلة تسير على سكة ، فان بامكانهما ببساطة أن يتبعوا السكة ٠ دفع نلسن دفعة خفيفة وشرح له أنهما سيتبعان السكة حتى محطة القطار مشياً ، ومضيا في طريقهما ٠

سرعان ما بدأوا يرون أناساً بيض من جديد مما أشعرهما بـارتيـاح كبير ، وجلس نلسن على الرصيف مستنداً الى جدار احد المباني ٠ « علي أن أرتاح قليلا ، » قال ٠ « لقد أضعت الكيس والطريق ٠ يمكنك اذن أن تنتظرني لأريح نفسي ٠ »

« هاهي السكة أمامنا ، » قال السيد هد ٠ « كل ما علينا فعله هو أن نبقيها تحت بصرنا وكان بامكانك أن تتذكر الكيس بقدر ما كان ذلك بامكاني ٠ انهذه هي بلدتك الأم القديمة ٠ هذه هي رحلتك الثانية ٠ ينبغي أن تعرف كيف تتصرف ، »

وجلس القرفصاء وتابع الحديث بنفس الاسلوب ، لكن الصبي الذي أخذ يريح قدميه الملتهبتين بخلع حذائه لم يجب ·

« وتقف هناك تبتسم كالشمبانزي بينما تدلك امرأة زنجية على الطريق · يا الهي العظيم ! » قال السيد هد ·

« لم أقل قط سوى أنني ولدت هنا ، » قال الصبي بصوت مضطرب · « لم أقل أن المدينة ستعجبني أو لن تعجبني قط · لم أقل قط أنني أود المجيء · قلت فقط أنني ولدت هنا ولم يكن لي أية حيلة في ذلك قط · أريد الذهاب الى البيت· انني في الأصل لم أرغب في القدوم · كانت الفكرة فكرتك العظيمة · كيف تعرف أنك لا تسير مع السكة في الاتجاه الخاطىء ؟ »

كانت هذه المسألة الأخيرة قد خطرت للسيد هد أيضاً · « كل هؤلاء الناس بيض ، » قال ·

« اننا لم نمر هنا من قبل ، » قال نلسن · كانت هذه المنطقة حياً من الأبنية الآجرية يمكن أن تكون مسكونة ويمكن ألا تكون · كانت بضع سيارات فارغة مصفوفة الى جانب الرصيف وكان هناك أحد المارة بين الحين والحين · صعدت حرارة الرصيف مخترقة طقم نلسن الرقيق · بدأ جفناه يثقلان ، وبعد بضع دقائق مال رأسه الى الأمام· ارتعش كتفاه مرة أو مرتين ثم سقط على جنبه واستلقى متمدداً في نوبة منهكة من السبات ·

راقبه السيد هد بصمت · كان هو نفسه متعباً جداً لكن لم يكن بامكانهما أن يناما كليهما في نفس الوقت ولم يكن بامكانه هو على أية حال أن ينام لأنه لا يدري أين هو · سيستيقظ نلسن خلال عدة دقائق وقد أنعشه النوم وجعله شديد الزهو ، وسيأخذ في الشكوى من أنه أضاع الكيس والطريق · ستلقى مشقة كبرى مؤسفة لو لم أكن هنا ، فكر السيد هد ؛ ثم خطرت له فكرة أخرى · نظر الى الجسم الممدد عدة دقائق ؛ وسرعان ما نهض · برر ما كان سيفعله على أساس أنه من الضروري أحيانا تعليم الطفل درساً لا ينساه،خاصة حين يقوم الطفل دائماً بتثبيت موقفه بوقاحة جديدة ما · مشى دون احداث صوت الى الزاوية على بعد عشرين

قدماً وجلس على صندوق قمامة مغطى في الزقاق بحيث يمكنه النظر الى الخارج ومراقبة نلسن حين يستيقظ وحده ·

كان نوم الصبي في نوبات ، وكان نصف واع لأصوات غير واضحة وأشكال سوداء تتحرك خارجة من جزء مظلم ما في داخله الى النور · كان التعبير على وجهه يتبدل أثناء نومه وقد سحب ركبتيه الى الأعلى ووضعهما تحت ذقنه · ألقت الشمس نوراً باهتاً جافاً في الشارع الضيق ؛ واتخذ كل شيء مظهره الحقيقي تماماً · بعد فترة قرر السيد هد وهو قابع كالقرد على غطاء صندوق القمامة أنه اذا لم يستيقظ نلسن سريعاً فسيحدث ضجة عالية بقرع الصندوق بقدمه · نظر الى ساعته واكتشف أن الساعة كانت الثانية · سيغادر قطارهما في السادسة واحتمال عدم اللحاق به كان بالنسبة له أسوأ من أن يفكر به · رفس الصندوق بقدمه ودوت جلبة جوفاء في الزقاق ·

قفز نلسن واقفاً على قدميه وأطلق صيحة · نظر الى حيث كان من المفروض أن يكون جده وحدق النظر · بدا أنه التف حول نفسه عدة مرات ثم مطلقاً قدميه ومميلا رأسه الى الوراء اندفع في الشارع وكأنه مهر مجنون جامح · قفز السيد هد من على الصندوق وأخذ يجري لكن الطفل كان تقريباً قد اختفى عن بصره · رأى شريطاً من اللون الرمادي يختفي بشكل مائل عند تقاطع الشوارع التالي · ركض بأسرع ما أمكنه ، ونظر في كلي الاتجاهين عند كل تقاطع ، ولكنه لم يبصره من جديد · ثم حينما كان يمر بالتقاطع الثالث وقد توتر تماماً ، رأى على مسافة غير بعيدة مشهداً جعله يتوقف توقفاً كاملا · جثم خلف علبة قمامة ليراقب وليستجمع نفسه ·

كان نلسن جالساً وساقاه ممدودتان كلتاهما والى جانبه استلقت امرأة هرمة تصرخ · كانت بعض المشتريات مبعثرة على الرصيف وقد تجمع حشد من النسوة ليرقبوا العدالة تأخذ مجراها وسمع السيد هد بوضوح المرأة المسنة على الرصيف تصيح ، « لقد كسرت كاحلي وسيدفع أبوك تعويضاً عن ذلك ! كل قرش ! شرطة ! شرطة ! » قامت عدة نساء بشد كتف نلسن لكن الصبي بدا دائخاً بحيث لم يتمكن من النهوض ·

شيء ما أجبر السيد هد أن يترك مكانه خلف علبة القمامــة وأن يمضي الى الأمام ، ولكن بخطوات زاحفة • لــم يكن أي شرطي قد دنا منه في حياته قط •• أخذت النسوة يدرن حول نلسن كما لو أنهن قد يندفعن كلهن فجأة ويمزقنه ارباً، وتابعت المرأة الهرمة صراخها بأن كاحلها قد كسر ونداءها للشرطة • اقترب السيد هد ببطء شديد وكأنه يخطو خطوة الى الوراء بعد كل خطوة الى الأمام ، ولكن حين صار على بعد عشرة أقدام ، رآه نلسن وقفــز ناهضاً • أمسكه الطفل حــول ردفيه وتمسك به وهو يلهث •

التفتت النسوة الى السيد هــد ، ونهضت المــرأة المصابة جالسة وصاحت ، « أنت أيها السيد ! ستدفع كل قرش من فاتورة طبيبي التي سببها ابنك • انــه حدث جانح ! أين الشرطة ؟ فليأخذ شخص ما اسم هذا الرجل وعنوانه ! »

كان السيد هد يحــاول فصل أصابع نلسن عن مؤخــرة ساقيه • كان رأس الرجل العجوز قد انخفض في ياقته مثل السلحفاة،والخوف والحذر يغشيان عينيه•

« لقد كسر ابنك كاحلي ! » صاحت المرأة المسنة • « يا شرطة ! »

أحس السيد هــد باقتراب شرطي مــن الخلف • حدق بثبات الى الأمام حيث تكتلت النسوة في سخطهن مثل جدار صلب يمنعه من الهرب • « ليس هذا ابني ، » قال • « انني لم أره من قبل قط • »

شعر بأصابع نلسن تسقط من على جسمه •

تراجعت النسوة الى الوراء ، يحدقن فيه برعب ، وكأنهن شعرن بالاشمئزاز من رجل يستطيع انكار صورته وشبهه بحيث لم يستطعن تحمل لمسه • مشى السيد هد الى الأمام ، عبر فراغ أفسحنه بصمت ، وترك نلسن خلفه • لــم يــر أي شيء أمامه سوى نفق أجوف كان ذات مرة الشارع •

ظل الصبي واقفــاً في مكانه ، وعنقه مائــل الى الأمــام ويداه متدليتان الى الجانبين • كانت قبعته مضغوطة على رأسه بحيث لــم تعد هناك تغضنات بهــا • نهضت المرأة المصابة وهزت قبضتها في وجهه ونظرت اليه الأخريات نظراتمشفقة، لكن لم يبد عليه أنه لاحظ أياً منهن • لم يكن هناك أي شرطي على مقربة •

بعد دقيقة بدأ يتحرك بشكل آلي ، دون أن يقوم بجهـد للحاق بجده ولكن فقط تبعه على بعد حوالي عشرين خطوة · تابعا سيرهما بهذا الشكل طوال خمسة أقسام من الشارع · كان كتفا السيد هد متدليان وعنقه يميل الى الأمام بزاوية جعلت رؤيته من الخلف غير ممكنة · كان خائفاً أن يلفت رأسه · أخيراً ألقى من فوق كتفه نظرة سريعة آملة · على بعد عشرين قدماً خلفه ، رأى عينين صغيرتـين تخترقان ظهره مثل أسنان مذراة ·

لم يكن الصبي ذا طبيعة سمحة ولكن كانت هذه أول مرة على الاطلاق يكون فيها لديه شيء ليغفره · لم يلحق السيد هد به الخزي من قبل قط · بعد قسمين آخرين ، التفت ونادى من فوق كتفه بصوت مرح مرحاً يائساً ، « لنذهب ونشتر كوكاكولا في أحد الأمكنة ! » ·

استدار نلسن بوقار لم يبده من قبل قط ووقف وظهره الى جده ·

بدأ السيد هد يشعر عمق انكاره · أصبح وجهـه بينما تابعا المسير كلـه تجاويف ونتوءات عارية · لم ير أي شيء مما كانا يمران بـه ولكنه أدرك أنهما قد ضيعا سكة الحافلة · لم يكن هناك مـن قبة في أي مكان في مرمى البصر وكان العصر يتقدم · كـان يعرف أنـه اذا أدركهما الظلام وهما في المدينة ، فانهمـا سيتعرضان للضرب والسرقة · كانت سرعة عدالة الله هي فقط ما توقعه لنفسه ، لكنه لم يستطع تحمل أن تقع آثامه على نلسن وأنه حتى في هذه اللحظة كان يقود الصبي الى هلاكه ·

تابعا السير قسماً بعد قسم عبر جـزء لا ينتهي من البيوت الآجرية الصغيرة الى أن كاد السيد هد أن يقع متعثراً بصنبور مـاء برز مرتفعاً حوالي ستة بوصات من حافة قطعة أرض معشبة · لم يكن قد شرب الماء منذ الصباح الباكر لكنه شعر أنه لا يستحقه الآن · ثـم فكر أن نلسن سيكون ظمآن وأنهما سيشربان كلاهمـا وسيجمع ذلك بينهما · قرفص ووضع فمه على طرف الصنبور وفتحه مدخلا تياراً بارداً من الماء الى حلقه · ثم هتف بصوت يائس عال ، « هلم واشرب شيئاً من الماء ! » ·

هذه المرة حدق الطفل فيه حوالي ستين ثانية · نهض السيد وتابع السير كما

لو أنه شرب سماً • اجتاز نلسن ـ رغم أنه لم يشرب أي ماء منذ شرب من كأس من الورق في القطار ـ الصنبور ، مزدرياً أن يشرب من حيث شرب جده • حين لاحظ السيد هد ذلك ، فقد كل الأمل • بدا وجهه في نور العصر الذابل تلفاً ومخذولا• تمكن من أن يشعر بكراهية الصبي الثابتة ، وهو يسير بخطى تجاري خطواته وراءه وعرف أنها (اذا حدثت معجزة أنقذتهما من أن يُقتلا في المدينة) ستستمر بهذا الشكل تماماً بقية حياته • أدرك أنه كان الآن يدخل في مكان غريب مظلم حيث ليس من شيء مثلما كان من قبل ، هرم طويل دون احترام ونهاية ستلقى الترحيب لمجرد أنها ستكون النهاية •

أما بالنسبة لنلسن ، فقد تجمد عقله حول خيانة جده كما لو كان يحاول المحافظة عليها كما هي لتقديمها يوم الحساب الأخير • سار دون أن ينظر الى أي من الجانبين ، ولكن فمه ارتجف بين الفينة والفينة ، وكان ذلك حين يشعر ، من مكان قصي ما في داخله ، بشكل أسود غامض يحاول الصعود الى الأعلى كما لو أنه سيذيب رؤياه المتجمدة بقبضة حارة واحدة •

انحدرت الشمس خلف صف من المنازل ودون أن يلاحظا تقريباً دخلا ضاحية أنيقة حيث قامت قصور بعيدة عن الطريق ذات جنائن فيها حمامات عصافير • كان كل شيء مهجوراً هنا • لمسافة طويلة لم يمرا ولا حتى بكلب • كانت البيوت البيضاء الكبيرة تشبه على البعد كتلا جليدية متحدة جزئيا • لم تكن هناك أرصفة، مجرد ممرات لدخول السيارات وكانت هذه تدور وتدور في دوائر عبثية لا تنتهي• لم يقم نلسن بأية حركة تهدف للاقتراب من السيد هد • شعر العجوز أنه اذا رأى فوهة مجاري فانه سيسقط في داخلها ويترك نفسه تنجرف بعيداً ؛ وقد تصور الصبي يقف على مقربة ، يراقب باهتمام طفيف فقط ، بينما يختفي هو •

دفعه نباح عال الى الانتباه ورفع بصره ليرى رجلا سميناً يقترب مع كلبي بُلدَغ • لوح كلي ذراعيه كشخص غرقت سفينته ودفعته الأمواج الى جزيرة مهجورة • « انني ضائع ! » صاح • « انني ضائع ولا أستطيع أن أجد الطريق وأنا وهذا الصبي مضطران للحاق بالقطار وليس بامكاني أن أجد المحطة • آه ياربي انني ضائع • آه ساعدني يارباه انني ضائع ! »

سأله الرجل ــ الذي كان أصلعاً ومرتديا بنطال غولف ــ أي قطـار يحـاول اللحاق به وبدأ السيد هد يخرج التذكرتين ، وهو يرتعد بعنف شديد الى حد أنه كاد ألا يقدر على الامساك بهما • كان نلسن قـد اقترب ووقف يراقب عـلى بعد خمسة عشر قدماً •

« حسناً ، » قال الرجل السمين ، وهو يعيد اليه التذكرتين ، « ليس لديك الوقت الكافي للرجوع الى المدينة واللحاق بهذا القطار ولكن بامكانك اللحاق به في موقف الضاحية • وهذا على مسافة ثلاثة أقسام من الشارع من هنا ،» وبدأ يشرح الطريق الى هناك •

حدق السيد هد كما لو كان يعود ببطء من بين الأموات وحين انتهى الرجـل ومضى والكلبان يقفزان بين قدميه ، التفت الى نلسن وقال وهو مقطوع النفس ، « سوف نصل الى البيت ! » •

كان الصبي يقف على بعد حوالي عشرة أقدام ، والدم غائر من وجهه تحت القبعة الرمادية • كانت عيناه باردتان برود الانتصار • لم يكن هناك من نور أو احساس أو اهتمام فيهما • فقط وقف هناك ، شكل صغير ، ينتظر • لم يكن البيت يعني له شيئا •

التفت السيد هد ببطء • شعر أنه يعرف الآن كيف يكون الزمن دون فصل والحرارة دون نور وكيف يكون الانسان دون خلاص • لم يهمه ألا يلحق بالقطار أبداً ولولا ذلك الشيء الذي استرعى انتباهه فجأة ، مثل صرخة صادرة عن الغسق المتجمع ، كان من المحتمل أن ينسى أن هناك محطة يجب الذهاب اليها •

لم يكن قد مشى أكثر من خمسمئة ذراع في الطريق حين رأى ، في متناوله ، شكلا من الجص لزنجي جالس مائلا على سياج أصفر منخفض من الآجر كان يحيط بفناء عريض • كان الزنجي في حجـم نلسن تقريباً وكان يميل الى الأمام بزاوية غـير ثابتة لأن المعجون الذي ألصقه بالحائط كان قد تشقق • كانت احدى عينيه بيضاء كلياً وقد أمسك قطعة من البطيخ البني اللون •

وقف السيد هد ينظر اليه بصمت حتى توقف نلسن على بعد قريب• ثم بينما وقفا كلاهما هناك ، قال السيد هد ، « زنجي اصطناعي ! » •

كان من المستحيل معرفة مـا اذا قُصد أن يكون الزنجي الاصطناعي صغيراً أو مسناً ؛ بدا أنه أكثر بؤساً من أن يكون أياً من الشيئين ٠ كان المفروض فيه أن يبدو سعيداً لأن فمه امتد عند زاويتيه لكن العين المكسورة والزاوية التي مال فيها أعطيتاه مظهراً جامحاً من البؤس بدلا عن ذلك ٠

« زنجي اصطناعي ! » ردد نلسن في نفس لهجة السيد هد تماماً ٠

وقف كلاهما هناك وعنقاهمـا ممتدتان الى الأمـام بنفس الزاوية تقريبـاً وأكتافهما محدودبة بنفس الشكل تماما تقريبا وأيديهما ترتعش بنفس الطريقة في جيوبهما ٠ بـدا السيد هـد مثل طفل عتيق ونلسن مثل عجوز مصغر ٠ وقفـا يحدقان بالزنجي الاصطناعي وكأن لغزاً عظيما طرح عليهما، نصب لانتصار شخص آخر جمع بينهما في هزيمتهما المشتركة ٠ شعرا بـه كلاهمـا يذيب خلافاتهما مثل عمل من أعمال الرحمة ٠ لم يكن السيد هد قد عرف من قبل قط كيف يشعر المرء لدى تلقي الرحمة لأنه كان قبل الآن أخيَر من أن يستحق أيـة رحمة ، لكنه شعر أنه يعرف الآن٠ نظر الى نلسن وأدرك أن عليه أن يقول شيئا ما للطفل ليظهر أنه لا زال حكيماً وفي نظرة الصبي المستجيبة شاهـد حاجة عطشى لمثل هـذا التأكيد ٠ بدت عينا نلسن تتوسلان اليه أن يشرح بشكل قاطع وواف سر الوجود ٠

فتح السيد هد شفتيه ليدلي بتصريح بليغ وسمع نفسه يقول ، « ليس لديهم هنا ما يكفي من الزنوج الحقيقيين ، لذا اضطروا للحصول على واحد اصطناعي ٠»

بعد ثانية ، هز الصبي رأسه وهو يرتعش رعشة غريبة عند فمـه ، وقال، « فلنذهب الى البيت قبل أن نضل الطريق من جديد ٠ »

دخل قطارهما موقف الضاحية تماماً حين وصلا المحطة وركباه معـاً ، وقبل عشر دقائق من موعد وصوله محطتهما ، توجها الى الباب ووقفا عـلى استعداد لأن يقفزا منه اذا لم يتوقف؛ لكنه توقف ، تماما حين بزغ القمر ـ الذي استعاد روعته التامة ـ من سحابة وغمر الفسحة بالنور ٠ حين نزلا، كان عشب القصعين يرتعش برفق في ظلال من الفضة ولمع الآجر تحت أقدامهما بنور أسود ناضر ٠ كانت قمـم

الأشجار ـ التي شكلت سياجاً حول المحطة مثل الجدران التي تحرس حديقة ـ أكثر ظلاماً من السماء التي تدلت منها سحب بيضاء عملاقة مضاءة مثل المصابيح ٠

وقف السيد هد ساكناً تماما وشعر بفعل الرحمة يلمسه من جديد لكنه هذه المرة عرف أنه ليست هناك أية كلمات في العالم تستطيع تسميته ٠ أدرك أن الفعل نبت من الألم ، الذي لا يحرم منه أي إنسان والذي يُعطى للأطفال بوسائل غريبة ، أدرك أن الفعل هو كل ما يمكن للمرء أن يحمله في موته ليعطيه لخالقه وفجأة شعر بالخجل يحرقه لأنه كان لديه مقدار منه شديد الضآلة ليأخذه معه ٠ وقف فزعاً ، يحاكم نفسه بالشمول الذي يحاكم الله مخلوقاته به بينما غطى فعل الرحمة كبرياءه وكأنه لهيب ثم التهمها ٠ لم يكن قد نظر الى نفسه كخاطىء كبير من قبل قط لكنه رأى الآن أن فسوقه الحقيقي كان قد أخفي عنه كيلا يسبب له اليأس ٠ أدرك أنه قد غفرت له آثامه منذ بداية الزمن ، حين حمل في قلبه هو خطيئة آدم ، وحتى الحاضر ، حين أنكر نلسن المسكين ٠ عرف أنه ليس من اثم أكثر بشاعة من أن يدعيه لنفسه ، وبما أن حب الله يتناسب مع غفرانه ، فانه شعر بأنه مستعد في تلك اللحظة لدخول الجنة ٠

أخذ نلسن ـ الذي هيأ تعبير وجهه تحت ظل حافة قبعته ـ يراقبه بمزيج من الانهاك والريبة ، ولكن بينما انطلق القطار مبتعداً عنهما واختفى كثعبان خائف في الغابة ، حتى وجهه هو أضاء وتمتم ، « انني سعيد أنني ذهبت مرة ، ولكنني لن أعود ثانية أبداً ! »

قصة من نيوزيلندة

امرأة في مشهد البحر

كاترين اوبراين

ترجمة : عزة حسين كبة

يقول البعض ان أجمل مافي العمر المتقدم هو الذكريات التي تستطيع بواسطتها أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى٠لا شك أنها تجربة حلوة ملأى بالمرارة٠

★ ★ ★

سيكون الموكب مهيباً ، لا شك في ذلك ؛ مثل مواكب الدفن في هذه المنطقة ، فقد كان « باتسي شاناس » المسن علامة مميزة في هذه المنطقة ٠ انهم يقولون الآن انه قارب أعوامه المئة ، لكن ذلك ليس صحيحاً ٠ فلن يبلغ رجل مئة عام في هذا المنحدر الساحلي القاسي ، بالرغم من أن المرأة قد تبلغ مثل هذا العمر ٠ امرأة مثلي ربما تبلغ مئة سنة ؛ شديدة الحذر ، شديدة الاقتصاد ؛ تمتص النسغ ببطء وحذر ٠ امرأة مثلي قد تمتلك ذلك التشبث العنيد الذي يشهد مئة شتاء هنا ٠ ومثل الشجرة في منحدر جبلي ، قوية ، نحيلة ، جاوزت التسعين عاما ٠

الواقع أن المناخ أو الموقع لم يكونا بالاسباب التي أغرت « أبي » لاختيار هذه الزاوية في الجنوب الشرقي من نيوزيلندة ٠ لابد انه قدم في الصيف ، فاختار بقعة وضع فيها زوجته وأطفاله ، والأثاث والفضة التي جلبها معه من سكوتلاندة ؛ وبنى فوقها كوخاً ريثما يجد الوقت الكافي لبناء بيتهم الكبير ، والذي هدمه فيما بعد حفيده ، قبل عشرين عاماً ٠ كان ذلك البناء قريباً من المرتفعات الساحلية الصخرية،

إذ بامكانك ، بخطوة واحدة من الباب الأمامي ، أن تصبح في المرتفعات الساحلية ، حيث الماء المتدفق ، والمرتفعات • بعد العواصف القوية كانت النوافذ تمتلىء بالملح •

ولدتُ في ذلك البيت الكبير • لستُ أصغر أفراد عائلتي ، لكنني الوحيدة الباقية على قيد الحياة الآن • والآن رحل باتسي شاناس ، الذي كان يقاربني في العمر •

ان الظروف الطبيعية في هذه البقعة لا تشجع الحياة الطويلة ، فالشباب يسرع الخطا نحو الهرم والشيخوخة ، أو يرحلون من هذا المكان • أما كبار السن ، فغالباً ما يعانون من الروماتزم ، ويرحلون رحلتهم الابدية في سن السبعين ، أو قبل ذلك • وفي ليالي الشتاء الطويلة ، المظلمة الباردة ، تهب الرياح من المنطقة الجليدية الجنوبية • أما الصيف ، فانه قصير ، وسرعان ما يرحل • يعتدل المناخ في شهري كانون الثاني ، وشباط ، ويشهد الغروب حينها عرساً من الالوان المختلفة المتداخلة، الا أن الشتاء يزحف مسرعاً ليعشش طويلا ، ولمدة تسعة شهور من السنة تبقى الرياح والعواصف تقارع المنطقة بلا توقف •

قد يتبادر اليك أن الانسان هنا يحقق أعمالا بطولية عظيمة ، وقد تفتش عن لمسة من الشعر في أعمالنا أو في كلامنا لكنك لن تعثر على أثر من كل ذلك • اننا نكرس أيامنا لأعمال صغيرة تافهة ؛ أما لغتنا فلن تجد فيها كلمة بالغة الخشونة أو الرقة • فبعد الانصات الى لغتنا ، وملاحظة حياتنا ، سوف تصنفنا في قائمة « عديمي العواطف » • وربما كنا من صنف تلك الحيوانات التي تلتصق بالصخور وتتشبث بالبحر ، أو شجيرات هزيلة نبتت على قمة المنحدر الصخري ، تنكر كل دفقة خضراء ، أبدا لا تتفتح لدفق الحياة والحب ، ولا تحتفظ بزهرة لتقتلها الرياح المحملة دوماً بالملح •

ومع ذلك ، ففي تلك الايام الماضية ، بدا لي أن ظهور شيء رائع أمر ممكن ومتوقع • فقبل سبعين عاماً ، كنت أتوقع شيئاً رائعاً يولد من عمل ومثابرة اخوتي، وباتس شاناسي • كان هناك ذلك الشعور بالقرب من العظمة • كنت أصحو من النوم ، في انبهار غريب ، أتسلل الى النافذة وأرقب السماء في منتصف الليل •• وأنا أرتجف من الانفعال • وعلى المنحدرات الصخرية ، كنت أقف في الغروب ،

وطيور البحر تطير من حولي ، والشمس تغرق رويداً رويداً في البحر • كنت أشعر برهبة غريبة ، وقدرة على لمس دورة الارض في الفضـــاء • قبل سبعين عاماً كنت قادرة على الشعور بالنشوة •• والرهبة •

الفجر يذبل سماءنا الشتائية ، وتصطدم الامواج بالمنحدرات الصخرية ، وبذكريات الجليد في القطب الجنوبي • لكن ذلك الشعور بالعظمة والروعة ، تلاشى وذوى ، فلقد انسحبنا من تلك الألفة الحميمة مع البحر •

كانت بيوت الآباء والأجداد تحتشد خلف أحزمة واقية من الأشجار التي كانت تميل ميلاناً شديداً نحو الجهة المعاكسة للبحر ، فقد كانت الرياح الآتية من البحر قد أحالت لون الاشجار داكناً ، وسلبتها حتى أغصانها • وتسير حياتنا متواضعة ، رتيبة ؛ نتحدث عن النبات ، والجو المناسب للرعي ، أو غير الملائم للعلف • وفي ليالي السبت كنا نلعب « البوكر »* في المدرسة •

كنا نفضل السير في طريق جانبي بعيداً عن الطريق الرئيسي ، وبعيداً عن طريق السياح • حتى السفن كانت تبتعد كثيراً عن ساحلنا المواجه لهبوب الرياح • عندما كنت في أول شبابي كانت السفن التي تتاجر بين مناطق « بلاف » و «دونيدن»، ذات أشكال مميزة وأسماء خاصة • أما الآن فلا نشاهد غير بواخر لا تعرف بأي اسم• ولم يبق أحد يستطيع أن يتذكر معي جمال السفن الشراعية • ولم يعد هناك أحد يذكر صباي وشبابي وحتى « باتس شاناسي » الذي سيدفن اليوم ، قد نسي منذ زمن بعيد صباي وصباه • الرجل ينسى ، والمرأة تكبر ، وتهرم ، وتسجن نفسها في المرتفعات لكنها تمد جذورها الى أسفل ، والى الداخل ، بينما تمر السنوات لكنها تبقي على ذكرياتها • انها تتذكر جمال عنقها الذي أوت الى دفئه اللآلىء ، وقوامها الذي كانت تكسوه بالحرير ، وشعرها المسترسل ، الذي كانت تضع فيه الازهار وتتذكر نظرات الرجال ، ونظرة رجل واحد على الأخص •

كانت والدتي تنعت « باتسي شاناسي » بنعوت مختلفة ، ومسحة من الغضب تلون عظام وجنتيها الاسكوتلندية العالية • كانت توصف بأنها امرأة جميلة ، لكنني

★ البوكر ــ نوع من لعب الورق •

كنت أشعر بالفخر والرضا لاحساسي بأنني كنت أشبه أبي ، بعينيه الزرقاوين الممتلئتين بالحنان ، وابتسامته المرحة · أمـا أمي فقد كانت تطبق شفتيها بحزم وكأن خيبة مريرة ترقد بين الشفتين ، أو ربما عدم رضا عن الحياة · ولا شك بأن وجود ابنة لها في عمر الزواج ، وامتلاكها مجموعة من الأكواب وأدوات الشاي التي تفخر بها ، وعدم وجود جار يستحق أن توجه اليه الدعوة لتناول الشاي ، كان أمراً مثيراً للأعصاب بالنسبة لها ·

كان باتسي شاناسي يتناول طعامه في المطبخ عندما كان يعمل لحساب أبي · كانت عائلته قد وصلت الى المنطقة متأخرة ، لذا فقد كان من نصيبها قطعة أرض شديدة الجدب ، قليلة التعرض للشمس لتكون مرعى جيدا · ومع ذلك ، فقد اقتلعوا الحشائش وانهمكوا في الزراعة واقامة سياج للأرض ، وحول الارض زرعوا حزاماً كثيفاً من الاشجار كما يفعل الآخرون في المنطقة · كان باتسي الابن الوحيد لأبويه · كان أبوه ايرلندياً ، متوتراً ، سريع التهيج ، ولم يكونا على وفاق معاً · أما أمه ، فقد كانت جميلة ، ذات شعر فاحم ·· وكانت تنتظر بشوق اليوم الذي ترى فيه باتسي متزوجاً · ولكن ، بعد خصام بينه وبين أبيـه ، ترك ياشي بيته ، وجاء ليعمل لدى أبي ·

« صباحاً سعيدا ، سيدة ماك بيرسون » ، بهذه الكلمات كان يحيي والدتي ، بصوته الدافيء المرح ، بينما كانت ابتسامته مكرسة لي · ولم تكن والدتي ترتاح اليـه · أما أبي ، فقد كان معجباً به ،وكان يقول عنه انـه شاب ممتاز يستحق التقدم · وأعتقد أن والدتي قد اتخذت قرارها حينذاك ان هذا « التقدم » لن يكون من خلال زواجه بابنة ماك بيرسون الجميلة الفتية · لذا ، فقد غطت نوافذ غرفتي بستائر حريرية ، وأرسلت الى أدنبرة طالبة بعض الكتب ، لتثقيفي ، ووعدتني بقضاء عطلة طويلة في دانيدن حيث كانت تعيش شقيقتي جانيت مع زوجها ·

كان باتسي ينتسب الى طبقة لم أكن لأتعرف عليها عندما كنا في سكوتلاندة · لكنني لـم أكن أهتم بالطبقات والتقاليد · فالبحر يقرع الصخور بشدة وعنف ، والطيور تحلق على ارتفاع قليل من البحر مثل غيمات من النجوم الداكنة ، تتهادى في انسجام بديع حـول جميع الخلجان · والنوارس ترتفع فـوق الرياح وتطير

عالياً ٠٠ عالياً ، حتى لتبدو مثل بقع بيضاء في السماء الصافية ٠ كل شيء واضح المعالم ، حتمي ، لا يمكن تفسيره ٠ القوي وحده بامكانه أن يكون متسلطاً ٠٠ المزايا الجسدية تحتل الاهمية الاولى ٠ ولقد أحببت باتسي لانه كان متفوقاً على جميع الشبان بالقوة ، والجمال الجسماني ٠ كان ينافس أخي الاكبر آندي عندما يتجمعون لاستعراض القوة ٠ كذلك كان بطل اللعب بالسيف ، والعاب أخرى ٠ عيناه كانتا تحاكيان البحر في زرقتهما الهادئة ٠

سوف يدفن هذا المساء ٠ ولقد اجتمع أفراد من عائلة ماك بيرسون ، الذين سيشرفون على موكب الدفن ، اجتمعوا الآن يناقشون سيرة حياته ، وظروف موته ، انهم يتحدثون عنه ، ها هنا كان يجلس ، مسنداً ظهره الى كرسيه وهو يمسك غليونه بيده مواجهاً المدفأة التي خبت فيها النار ٠ وقال أحد أحفاد أبي : « كل هذه السنوات قضاها وحيداً ٠ كان من المتوقع أن يتزوج » ٠

سبعون سنة ، عمر طويل مضى ، وأمسية قرب البحر ٠ لا زلتُ أذكر أزهار « الكوروميكو » التي كانت تحيط بنا من كل جانب ؛ وأصوات الطيور الحادة التي تملأ القلب بشعور مزدوج من النور والألم ٠

ــ « هل تتزوجينني يا جولي ماك بيرسون ؟ هل تتزوجينني الآن ، علىافتراض أنني سأطلب يدك للزواج ؟ »

ــ « ألا تطلب يدي للزواج ؟ »

ــ كلا لن أفعل ، لانني لو فعلت ذلك ، فان والدك سيسلط علي كلابه لتنهشني ، ومن سيُصلح لي سراويلي بعد ذلك ؟؟ »

وضحك٠٠ومن ضحكته ارتفع بيننا جدار سميك ، حجبعنه كل حبيولهفتي٠

ثم أردف ضاحكاً : « وما عساني أفعل بالزوجة ؟ علي أن أصحبها الى البيت واعلمها أن تكون لطيفة مع والدي العجوز ؟ كلا ٠ سوف أرحل من هنا واجمع ثروة قبل أن أتزوج ٠ سأذهب الى « بلاف » وأستقل باخرة من هناك ٠

ــ « وعندما تعود ثانية ؟ »

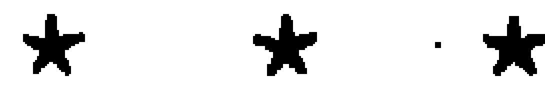
ـ « عندما أعود ثانية ، سوف أجد الآنسة جولي ماك بيرسون ، قد تزوجت من رجل ثري من دانيدن ، وهي تستقل مركبتها من بيتها الفخم الذي لا يقل روعة عن بيت والدها · »

وقلت بلهفة :

ـ « كلا لن أتزوج ، اذا رحلت فسأبقى في انتظارك حتى تعود ثانية · »

كانت عيناه تحاكيان البحر في زرقته وغموضه ، وقال :

ـ « لا تنتظري يا جولي ماك بيرسون · لا تنتظري » ·



ربما لن يتذكر أحد من المشاركين في موكب الدفن أن باتسي شاناسي كان قد رحل وهو شاب ممتلىء بالحياة والشباب ، وطاف العالم مدة عشرين عاماً · لقد اصبح كل ذلك ماضياً بعيداً ·· بعيداً · من يتذكر غيري أنا ؟؟

كان يرسل بعض الرسائل الى أمه من حين لآخر ، لكنه لم يكتب لي أبداً · كان حيناً في الصين ، هكذا أخبرتنا أمه التي تخشى أن يتزوج بفتاة من تلك البلاد البعيدة ، ويعود معها · ثم كان في ايرلندا ، كما كانت تردد الاخبار · وطيلةالليل كنت أكاد أسمع موجات البحر تردد أغاني ايرلندية عن فتيات بعيون زرقاء ـ رمادية وشعر داكن ·· مثله ·

لكنه ، عندما عاد ، عاد وحيداً · وكان أبناء وبنات اخوتي قد تزوجوا وأنجبوا ، أما أنا فقد قمت بدور العانس المشرفة على ادارة شؤون البيت ورعاية أبي العجوز · لكنني عندما سمعت بعودة باتسي ، تناولت المرآة ، والقيت نظرة طويلة · ووجدت وجهي لا زال يحمل معالم الشباب ولا يحدث عن سنة واحدة تعدت الأربعين ·

والتقينا . ومددت يدي للرجل الذي لم أتوقف لحظة واحدة عن حبه . كان يبدو وسيماً ، عريض الكتفين ، في منتصف عقده الرابع .

وقال بأدب : « صباحاً سعيداً لك يا سيدة ماك بيرسون . حقاً انك لم تكبري يوماً واحداً بعد كل هذه السنوات ! »

عندما يتلاشى آخر خيط من الامل ، فانه لا يسبب اي الم . أيقظتني تحيته تلك من أحلامي ، ووضعتني أمام الحقيقة ، وهي انني امرأة في منتصف العمر .

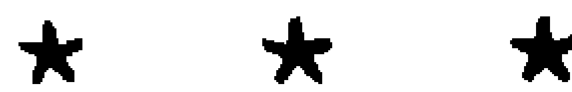
وسمعت صوتاً جافاً ، خالياً من الدفء ، صوتُ هَرِم يقول له :
— « لقد ماتت والدتي قبل خمسة عشر عاماً . أنا جولي يا باتسي . »
« جولي !! » كانت عيناه هادئتين صافيتين مثل سماء الصباح .
« آه .. جولي حقاً ؟؟ انك تشبهين والدتك تماماً ، رحمها الله . »

وفي مزرعته ، مع والديه المسنين ، استقر باتسي . رجل هادىء لا يتحدث عن أسفاره ورحلاته ، بعد أن ذهبت حيويته ، وتلاشى قلقه .

بعد حين ، توفي والداه ، ودفنهما ، وعاش وحيداً . وأصبح الجميع ينظرون اليه على انه أحـد أولئك الايرلنديين الذين لا يتزوجون أبـداً . الرجل العازب بطبيعته . كان يعيش على زراعة الحقل ، ويجلب السكر والشاي والملح والطحين ، وفي بعض الاحيان ، التبغ والشراب .

منذ أن قضى باتسي على البقية الباقية من شبابي ، تنقلت بنا الفصول فترة نصف قرن ؛ دون اختلاف يذكر . في نيسان تخرج الاغنام للرعي ، وفي مايس تزرع البطاطا جز الصوف يكون في شهر كانون الاول ، ويسمن الاوز لاعداده لعيد الميلاد.

ما أكثر ما يمضي الوقت بطيئـاً متثاقلا ؟! ومـع ذلك ، فان استعادة تلك السنوات يشبه النظر من خلال ماء صاف في حوض صغير . وهناك في قعر الحوض الشفاف ، يرقد قوس قزح صباي . بقايا أحجار مرجانية ، حفنة من الاصداف ، شريط من نباتات البحر .. وصورة شاب سوف يُدفن هذا المساء .



« عمة جولي ، اذا كنتِ راغبة في الذهاب الى موكب دفن باتسي شـاناس العجوز ، فهناك مكان لك في عربتي · فهل ترغبين في الذهاب ؟ »

كان هذا أحد أحفاد أخي ، أو ربما من أبناء أحفاده · انه يعيد السؤال بصوت مرتفع جداً · الجميع يرفعون أصواتهم عندما يتحدثون اليّ · لكنني لست صمّاء · فقط أسرح مع أفكاري بعيداً ·· في بعض الاحيان ·

ـ « قلت انني أستطيع أن أصحبك الى موكب الدفن ، عمة جولي ، فهـل ترغبين في الذهاب ؟ »

ـ « كلا يا أندروز ، شكراً لك » ·

ـ « أنا آنكس ، عمة جولي · »

انه شاب لطيف ، وهو يبتسم لي في صبر ·

ـ « آنكس ، طبعاً طبعاً · شكراً لك يا آنكس ، لكنني لن أذهب الى موكب الدفن ·

ستيبان تشيباتشوف

حكاية شاعرية

ترجمة : د. أحمد سليمان الأحمد

شاعر روسي كبير ، شب أدبه مع الثورة الاشتراكية ، واجتاز تجارب حياتية وفنية غنية جعلت منه واحداً من هؤلاء الذين يبقى ذكرهم ، ويتناشد الناس أشعارهم ، وتحبهم الأجيال الطالعة وإن بدا أنهم ابتعدوا عنها ، أو أن هناك حاجزاً من زمن او عقلية أو مفهوم يحول بينها وبينهم.

ولعل أفضل ما نعرّف به هذا الشاعر الكبير ، الذي يكاد يكون مع ذلك مجهولاً في أوساطنا ، هو أن ندعه يتحدث الينا ، والى الشعراء الشباب ، والى الشباب عموما .

ما كان الشعراء قلة ، وخاصة شعراء الرعيل الأول ، أولئك الذين جمعوا من تجاربهم خبرة هامة ، واتخذ كل منهم لنفسه مفهوماً شعرياً خاصاً . وكان من الطبيعي أن يقوم هؤلاء ــ ولا يخلو الامر من فائدة ــ بتخطيط طرقهم من جديد ، واكتساب الدروس، خلال تجاربهم ، من نجاحهم حيناً ، ومن فشلهم حيناً آخر .

وليست حياتي ما أعزم الآن على حكايته ، فان ثمة علاقة مباشرة بين شعري وبين طفولتي الكابية وسني خدمتي في الجيش الاحمر ، ومقابلاتي النادرة ، لبعض شخصيات العصر ، ودراساتي السياسية ، ومعذلك أستطيع القول أن الأهلية او التجربة الادبية أو الحياة نفسها، ليست جميعا علة الشاعرية الوحيدة او المنفذ اليها .

ولدت في قرية تشيبا تشي من اعمال «الأورال» عام ألف وثمانمئة وتسعة وتسعين. وكان أبواي فلاحين فقيرين . ومات والدي قبل أن أتجاوز الرابعة من عمري . وفي نفسي عن وفاته صورة غامضة أرى فيها جدتي وهي تهيب بي أن أقبض حفنة من التراب ألقيها فوق القبر الحديث . هذا كل شيء .

مات أبي إذن وأنا في الرابعة ، وبقيت أمي هكذا ، مفردة ، ومن حواليها جيش من الاطفال عليها أن تعنى بتربيتهم ، وكنت أصغر إخوتي، يكبرني بكرهم عشرة أعوام كاملة . وأصبحت حياتنا صعبة قاسية ، واضطرت أخواتي ان

يعملن خادمات • وكنت أذهب مع جدتي نستجدي في الشوارع ، وندق أبواب المنازل في طلب الاحسان •

ولم يطل عهد دراستي • شتاء واحد وبعض شتاء في إحدى المدارس الكنائسية • ثم لم ألبث ان تركت مقاعد الدرس ، في التاسعة من عمري ، لألتحق باحدى القرى النائية كعامل زراعي • واذكر أن صاحب العمل ، اردفني على دابته وانطلق بي ، وكان الربيع قد هل ، واليوم يوم احد ، ورفاقي من الصبية يحتشدون أمام الابواب يلعبون ، ولقد شق علي فراق أمي ورفاقي فطفقت أبكي•

وبقيت في تلك القرية سنتين ، أعمل فيهما بالمياومة ، حتى اذا بلغت الحادية عشرة صرت أنطلق مع صبية القرية الفقراء البائسين الى مقالع « الأميانت » لنعمل هناك • ووجدت نفسي في العام الأول ما بين صبية مثلي من « التتار » ، لم أكن افهم من احاديثهم شيئا ، فانا الروسي الوحيد بينهم ، وانا أيضا أصغرهم سنا • وكان العمل قاسيا مرهقا ، فنحن طوال النهار ننقل تراب « الأميانت » الى المسارد ، وكثيراً ما أجد نفسي أجهش بالبكاء لا من شظف حياتنا ، فقد تعودت على الشقاء • ولكن لأنني لم اكن أجد حولي من يفهم حديثي وافهم حديثه • حتى إذا سالت دموعي جاءني صبي من رفاقي يكفكفها مواسيا لي ، بكلمات لا افقه منها شيئا إنما أحس في نبراته روح العطف والصداقة •

وانقضى العام واستقبلنا عاما جديداً • فنقلنا الى مقطع للأشجار كنت اكدح فيه مع رفاقي طوال النهار • نعطى مهمات الكبار ، ونتقاضى أجور الصغار • ولم يحل هذا دون طردنا فيما بعد كالآخرين عندما اشتركنا في إضراب قام به عمال المقطع واستمر عدة أيام•

ودخلت ، مطلع عام الف وتسعمئة واربعة عشر ، في خدمة الاخوة « لاجوكين » الذين كانوا يديرون مخزنا في كاييشلوف وبدأت عملي لديهم أول الامر كمراسل ثم اصبحت كاتباً • وكان مخزنهم يحوي مختلف انواع البضاعة المتناقضة، فمن الأدوات الحديدية والنحاسية ، الى الخردوات المتنوعة والكتب • وكانت رؤيتي المستمرة للكتب تبعث في نفسي شهوة القراءة• وادركت ، إذ ذاك ، جهلي بشكل مؤلم سافر ، فكنت أذهب لأتلقى بعض الدروس عند أحد الطلاب لقاء طابع بريدي متواضع •

أما الشعر فقد بدأ حبي له أثناء وجودي في المدرسة الكنائسية • قرأت لنا المعلمة ذات يوم قصيدة « البورودينو » لليرمونتوف • وقد أعجبت القصيدة رفاقي إلا أنها لم تثر فيهم شيئا • أما بالنسبة لي فقد شعرت لها باضطراب غريب ، ثم لم ألبث ان حفظتها عن ظهر قلب ، وأصبحت أرددها كالمأخوذ • ومن الجائز أن تكون شرارة الشاعرية قد لامست قلبي وقتذاك ، إلا انني لم اكن اتصور وجود شعراء في عهدنا ، بل كان يخيل إلي ان الشعراء ليسوا سوى كائنات من العصر القديم ، بادوا جميعاً ولم يبق لنا منهم سوى الذكرى •

أما بداية نظمي فتعود إلى ما بين عامي ألف وتسعمئة وخمسة عشر وألف وتسعمئة وستة عشر • فقد جلست لأول مرة اكتب ما يشبه

الشعر ، وكان موضوعه يدور حول الحرب والجرحى والجنود ، ثم نظمت عام الف وتسعمئة وسبعة عشر قصائد كاملة عن القيصر والبورجوازية وكنت اقرأ كل ما انظم لرفاقي.

وفي أيار من هذا العام دعيت الى الجندية، وقضيت خدمتي العسكرية في « غلازوف » التي كانت تحت إشراف حكومة « فياتكا » . وكنت في مقري ، عندما اندلعت ثورة اكتوبر ،وكانت القطعة التي أنتمي اليها معروفة بميولها البلشفية ، ولذلك لم تلبث إدارة الحزب المحلية أن أوكلت اليها مختلف المهام . حتى إذا نظمت الحملة الانتخابية آنذاك كلفت أنا بتوزيع المناشير وإلصاقها في أنحاء البلدة .

ولم اقض في « غلازوف » خدمتي فحسب ، بل تعلمت فيها أيضاً أول درس من دروس السياسة ، وسمعت لأول مرة العبارات والجمل التي يستريح اليها عقل الجندي وقلبه . ثم ثم لم يلبث الجيش القيصري الهرم ، بعد ذلك ، إلا قليلا حتى حل وسرح افراده ، وهكذا عدت في ربيع عام الف وتسعمئة وثمانية عشر إلى قريتي .

ولكن الحوادث كما يعلم الجميع لم تنته بهذا الشكل البسيط . ففي منتصف صيف هذا العام نفسه احتل « كولتشاك » منطقتنا ، وسرعان ما أعلن البيض التعبئة ليحاربوا الحمر . ولم يكن ثمة شيء أبغض على نفسي من قتال إخوتي من اهل الوطن الواحد ، وقتلهم، ولذلك قررت ما بيني وبين نفسي ـ وكنت قد دعيت كغيري إلى الخدمة من جديد ، ان لا اطلق النار على أحد من مواطني .

فلجأت الى اتباع طرق التهرب من الخدمة واخذت ادخن « الماكهوركا » بكثرة ، قبل الفحص الطبي ، وهكذا اصبت من جراء ذلك بخفقان « مؤقت » في القلب ، وخرجت من لدى الطبيب وعلى أوراقي هذه الكلمات : « غير صالح للخدمة المسلحة » . إلا أن هذا لم يفدني شيئاً فلم تلبث وحدات الخدمات التي كنت قد أحلت إليها أن أرسلت هي الأخرى إلى الميدان في ربيع عام الف وتسعمئة وتسعة عشر وهناك شاهدت وحشية فرق « كوكتشاك » وأعمال الشراسة والفتك التي أصابوا بها جماعة العمال والفلاحين .. ذكرى ستظل ماثلة امام عيني ما حييت .

كانت وحدتي العسكرية تتجه نحو الجبهة لتاخذ مكانها إلى جانب الوحدات الأخرى . وأذكر أننا خيمنا في قرية يحيط بها رتل كبير من العجلات وعربات النقل . وكان المطبخ السيار في وسط معسكرنا ، يعدون لنا فيه مايشبه الحساء ، والرجال يتدافعون من حوله، وقد امسك كل واحد منهم قصعته يصب فيها من ذلك السائل الحار . ووقفت أنا قريباً من المطبخ أوزع على القوم قطعاً من خبز الشعير. الصورة ما تزال واضحة في مخيلتي . ففي ناحية ما كانت امرأة تبكي وتعول باستمرار ، وكانت أنظارنا تتحول باستمرار ايضاً إلى اكمة قريبة منا ، نخرتها الامطار ، فثمة رجل يبغون قتله رمياً بالرصاص ، وقد ذكر لنا الطباخ أنه مناضل من القرية أوقف صباح اليوم نفسه .

وكنا نرى بوضوح فصيلة الاعدام وطفلا

يعدو هنا وهناك • ثم مالبثنا أن شاهدنا الرجل الذي كانت البنادق مسددة إلى صدره يرفع قبعته فجاة ويصرخ في وجوه قتلته بكلمات لم نسمع نحن منها شيئاً •

وأطلقت النار•وتهاوى الجسد المشدود إلى عمود خشبي ، ثم جاء من يحمل القتيل الى القرية ، وسار الموكب والىجانبه المرأة والطفل الصغير الذي كان منطلقاً كالتائه يوزعنظراته الفزعة ذات اليمين وذات الشمال ، وبصرت بجنود « كولتشاك » يتاملون ذلك المشهد بوجوه وقلوب قاتمة ثم شاهدتهم يبتعدون عن مكان الجريمة بصمت ، وهم يتلفتون بين الحينوالحين إلى موضع المأساة •

أحسست بان كلمات من نار تقتتل في فمي وتحرقه ، وشعرت برغبة عميقة تدعوني إلى أن أصرخ بكلماتي تلك في وجوه الناسجميعاً• وما جاء المساء ، حتى كنت قد نظمت قصيدة أخفيتها في المخبأ الوحيد الساذج الذي أعددته لحفظ إنتاجي •• هذا المخبأ لم يكن سوى حقيبة ظهري •

وقد قدر لهذه القصيدة فيما بعد أن تبلغ غايتها إذ تمكنت حوالي منتصف نيسان عام ألف وتسعمئة وتسعة عشر ، من أن افر والتحق بالجيش الأحمر ، فطبعت القصيدة لتلقى من الطائرة على شكل مناشير فوق خنادق البيض •

بعد هربي إلى الجيش الأحمر ، التحقت بفرقة « تشاباييف » الاسطورية ، حيث التقيت « بفورمانوف » الذي قص فيما بعد مآثر تلك الفرقة • وكنا منطلقين في عربة نقل وهو يتكلم إلى جانبي دون انقطاع والكلمات تنبثق من فمه كالنار ، وأصغيت اليه يقول :

« إن مفوضنا طالب » !

لقد لفظ الكلمة الأخيرة بصوت قوي كله أبهة ، وكانما أراد أن يعني : « ألا تسمع ؟! إنه شاب مثقف ، وهو رغم ذلك معنا •• نحن العمال والفلاحين •• معنا ضد البورجوازيين » ولكنه ما لبث أن أتم حديثه متاسفاً : « أوه • إلا انه شخص منفوخ يخاف من لا شيء » •

وفي خريف عام الف وتسعمئة وتسعة عشر انتسبت الى الحزب ثم ، في أواخر تشرين الاول من العام نفسه ارسلت الى «أورنبورغ» لاتباع دورات الخيالة التي نظمت للضباط الحمر كما قيل وقتذاك ، ورأيت المدينة جاهمة فهي قد استنقذت حديثاً من أيدي البيض فبدت متنكرة للأضياف • وكان التيفوس وفصل البرد القارس يغزوانها معاً وهي تكافحهما وتكافح الجوع والبؤس •

ولقد قاسينا كثيراً من البرد ، فقاعات الدرس لم تكن تعرف شكلا للنار أو لونا ، وكذلكالمهاجع ، هذا اذا أضفنا افتقار النوافذ الى ألواح الزجاج ، واستيقاظنا المتكرر ليلاً لنقوم بالمناورات العنيفةفيتلك السنة الشديدة التي كانت على وشك الانصرام •

وفي « أورنبورغ » تعرفت الى ناديها وصرت ارتاده ، خافق القلب ، وقرات فيه كثيراً من الشعر ولكني لم الاحظ في كل ما قرات أية جدة لا في الطريقة ولا في الأسلوب • وفيتلك

المدينـة سمعت لأول مرة باسم ماياكوفسكي ولذلك قصـة تتلخص بان مدرب الدروس التعبوية عاد مرة من موسكو وأراد ان يطلعنا على انطباعاته هناك ، فاخذ يحدثنا : « لقد سمعت ماياكوفسكي في متحف العلوم والفنون» • قال هذا واندفع ينشد بعض ابيات من الشعر كانت عباراتها جيدة ، ثم هي الى هذا قليلة الشبه بكل ما قرأت وقرىء علي من أشعار حتى ذلك الحين • والواقع أن تلك المفاجاة صدمتني إذ لم تكن متوقعة بالنسبة لي •

وانتهت دورات التدريب في « أورنبورغ » فارسلوني الى موسكو لاتلقي خلال ثمانية أشهر دروساً في التربية فدخلت العاصمة في ايـار عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين ، وانا ازهو بلباسي العسكري الجديد •

وأكسبتني دراستي في موسكو ، على قصر مدتها ، صبغة سطحية من المعرفة ، وتمكنت من أن أضيف الى معلوماتي المتواضعة فكـرة ناقصة عن المادية الجدلية ، والاقتصاد السياسي• ومهما يكن من امر فقد كنت اتشرب بظمأ كل ما يقع تحت بصري ويتناهى الى سمعي في العاصمة •

ولم افوت فرصـة حضور أية مناظرة ، وشهدت كثيراً ماياكوفسكي وأصغيت اليه في نادي العلوم والفنون ، وسمعت « بلوك » وتعرفت شخصياً الى بعض الشعراء • إلا انني، كمبتدىء ، لم تكن لي نظرة صائبة في مضمار الشعر ، حتى ذوقي نفسه لم يكن صحيحاً • ولقد وجـدت اذ ذاك طريقي في تلك المتاهـة وعرة شائكة ، تقصر دونها استطاعتي وإمكانيات قواي المحدودة التي كانت تنمو أو هي في سبيل النماء •

واحسست في تلك الغمرة بميل شديد الى الشـعراء الشعبيين ، الذين أوجدهم وضمهم معمل الصلب ، ولكن هؤلاء مع ذلك ، لـم يستطيعوا ان يبرزوا في إنتاجهم مظاهر الحياة، بل كانت صورهم غامضة ، ولم أستطع أن أكشف لفئة جميلة تبارك العمل وتؤكد الحقيقة الشعبية إلا في شعر « كازين » و « بوليتايف »• وفيما عدا ذلك ، فقد كان انتاج هذه الفئة خيالياً بحتاً •

وعلى كل حال فقد كان معمل الصلب يفرض علي انفعالا قاتماً ويحثني نحو الشعر الصاخب المجرد ، وتركت نفسي تنقاد لتاثير البيانية ـ وهي طريقة شعرية من طرق ذلك العصر ـ حتى لقد كنت أعتبر الاستعارة البيانية غايـة بحد ذاتها لا واسطة للتعبير •

اما ماياكوفسكي فقد كان يبعث في نفسي اضطراباً غريباً • ولقد اشتريت كتاب الحرب والكون عنـدما كنت أرتـاد نادي الشـعراء البيانيين وقرأت الكتاب بنهم وأحسست أنه قد أثر بي فوق ما يستطيع أي كتاب آخر •

وأنهيت دراستي في التربية خـلال شتاء عام ألف وتسعمئة واثنين وعشرين ، وعينت ، في منطقة القرم ، مدرساً للسياسة ، وبقيت هناك حتى خريف الف وتسعمئة وخمسة وعشرين• وبدات عملي أول الأمـر في مدرسة المدفعيـة بمدينة سيباستبول ثـم في مدرسـة الخيالـة بمدينـة سمفربول وكنت اثنـاء عملي احس بجـوع الى الشعر رغـم توجيـه كل عنايتي

واهتمامي الى الخدمة • إلا أن ما نظمته إذ ذاك كان يظهر عليه بوضوح تفاعل تلك الطرق التي ذكرتها وتعرضت لها في موسكو • ولم تكن لي طريقة خاصة بل سرعان ما كنت اتأثر بالشعر الذي أقرأه ، أما ديوان « أوراق العشب » لوالت ويتمان فلم يكن يفارقني أبداً •

وعشقت إكليل النور الذي وشى به النصر العسكري مدينة سيباستبول • وبدأ هـذا الهوى يتدفق شيئاً فشيئاً أبياتاً من الشـعر بسـيطة واضحة ، ولكن الانفعالات الفنيـة المختلفة التي تعرضت لها ، وخاصة تقليدي الساذج لو يتمان ، حالت بيني وبين أن أدفع الى الامام بهذه المحاولات الواقعية •

وكانت تفاصيل الحياة الحقيقية تبدو لي زقاقية ، ولم أكن أنشد الفن بين المخلوقات التي تحيط بي بل لقد نشدته في أي مخلوق سماوي :

أيها الرجل •• أصغ
فالأرض للاصبع الصغيرة •
لقد انتزعت الشمس
لأصنع منها زورقاً لي ،
إنني أسمع ،
كلما كبرت وقويت ،
هذا العالم الساجد ينشد بين يدي :
أيها الرجل لك وحدك النصر •

وظهر ديواني الاول عـام ألف وتسعمئة وثلاثة وعشرين ، وكان كتيباً جعلت عنوانه هكذا « على أكمة العصور » وكان كله منظوماً تبعاً للطريقة البيانية • ثم نظمت في مطلع العام التالي ديواني الثاني « نشيدة للأبد » وكان رمزياً إلا أنه لم ينشر منه ، لحسن الحظ ، سوى مقطع وجيز جداً • وكان من الجائز ان أستمر خاضعاً للرمزية زمناً طويلا ، لولا ان صب كونستنتين ترينيف المـاء عـلى حماستي الغريبة تلك • وكان الشاعر يسكن قريباً من سمفر بول • وذات يوم ، ذهبت لزيارته ، أذكر أن الأمر جرى في صيف عـام ألف وتسعمئة وأربعة وعشرين • وعندما خلوت به في إحدى غرف بيته الريفي قرأت عليه قصيدتي «نشيدة للأبد » • فاصغى الي باهتمام ثم سألني بعد أن أنهيت القراءة : أليس عندك شيء آخر ؟! فانشدته قصيدة من شعري الرمزي حتى اذا انهيت الانشاد قال لي كالمشفق :

« أي بني ! ألا ترى معي أن من الافضل لك أن تنظم الشعر في دراجتي • فهذا يمنعك من أن تضيع في الغيوم » •

ولقد ساعدني ذلك اللقاء على أن أجـد الطريق القويمة • إلا أنني مع هذا استمررت طويلا في دفع ضريبة الرمزية ، وإن بدأ صوت الحياة يخنق فيّ شيئاً فشيئاً تلك الأوهام •

ثم نقلت في كانون الثاني من عام ١٩٢٦ أستاذاً للعلوم الاجتماعية في مدرسة المدفعيـة بموسكو ، وبذلك تحقق حلمي الذهبي إذ حطت بي عصـا التطواف في العاصـمة حيث نظـّمت شؤوني بشكل يوفر لي الوقت الكافي كي أحضر مختلف الاجتماعات الادبيـة • وهناك بـدأت قصائدي الأدبية تظهر ، وإن كنت لم أقو بعد على نقد إنتاجي • إما إلهامي الفني فكان سرعان ما يغور ، إذ يغرق في رمال الرمزية ، وفي العموميات الخرقاء أكثر الأحيان ، وكانت كتبي الشعرية الأولى التي ظهرت في موسكو تعكسها

بوضوح وسفور • وكنت في ذلك العهد اضمر ، كبقية رفاقي ، كراهيـة أو بالأحرى استهجانا للشعر الغنائي •

وانشئت « اللوكاف » عام ١٩٣٠ وهـي مؤسسة ادبيـة للجيش والبحرية الاحمرين ، ولقد أسهمت في تنظيمها ، وكنت من أوائل أعضائها ، ثم صدرت عن هذه المؤسسة مجلة دعيت أولا « اللوكاف » ثـم غير اسمها الى « زناميا » (العلم) فيما بعد ، ولقد ساعدت هذه المؤسسة في خلق جو من النشاط الفكري الواسع فيما قامت به من جولات وما نظمته من أمسيات أدبية • وفي هذا العهد ، بدأت أنظم الشعر الوصفي ، دون أن أعلم أيضا انه من الأفضل لي أن أسلك الطريقةالغنائية•

وفي خريف الف وتسعمئة وواحد وثلاثين قبلت في معهد الأسـاتذة ، القسـم الأدبي ، فابدلت عندئـذ بلباسي العسكري الذي كنت أرتديه منذ أعوام طويلة ، الثياب المدنية • وكان النقص الذي أعانيـه في الثقافة العامة يزعجني بشدة •• ولا بد لي من أن أذكر هنا أنني مدين كثيراً لدراساتي التي تلقيتها في المعهـد ، إذ اطلعت ثمـة على الادب الروسي الكلاسيكي وعلى الأدب الغربي الكلاسيكيايضا•

وفي ذلك الحين نظمت ديواني « هؤلاء •• من الجبهة » إلا أنه رغم طريقته الواقعية لم يكن ناجحاً إذ بدا فيه التكلف واضحا بشكل مستهجن وخاصة في الوزن ، فيما كان يعطي الشعر وضعا مشوشاً ، ويجعل قراءته صعبة•

ثم أخذتبعد ذلك أنظم القصائدالغنائية، طريقي الشعرية الحقيقية ، بشكل متزايد ، وهكذا أنهيت ملحمتي « إيلانين » وهيقصيدة طويلة استمر نظمها عامين كاملين • وحاولت فيها أن أحدد موضع الشاعر في الحيـــاة ، والعلاقات مابين الشعر والواقع • ولكنيكابدت هنا أيضا فشـلا جديداً ، فقد بدت القصيدة مائعة ، وكان موضوعها غامضـاً لم أسـتطع تحديده بشكل دقيق • إلا أن ما صرفته من جهد لم يذهب هدراً ، إذ تعلمت الصبر عـلى التاليف ، وبدأت تظهر في مؤلفاتي ، بعد ذلك، مقاطع جديدة وقصائد غنائية جديرة بالحياة : الشيء الذي دفعني نحو هذا الاتجاه الفني ، غير أنـه لم يتم لي ذلك بصورة خالية مـن الشوائب إلا بعد عامالفوتسعمئة وستة وثلاثين وبعد كثـير من الأبحاث الطويلة والصدمات القاسيةأكثر الأحيان • وهكذا وجدت طريقتي•

ومنذ ذلك الحين أخـذت أجهد في تنظيـم شعري • والتوفيق ما بين الشكل والفكرة • وأستطيع هنـا ان أضرب مثـلا : قصيدتي « السندرة » التي اعتبرها النقاد من قصائدي الناجحة • ففي أيـار من عام الف وتسعمئة وسبعة وثلاثين دخلت أحد المنازل الريفية ، وما كدت أجتاز عتبة الدار حتى بدت لي من إطار النافذة الأزرق سندرة زاهية الفروع •

شدهتني روعـة المنظر ، واثر في نفسي شبابالشجرة وأنوثتها وكانتالسندرة تنشرهما ملء الفضاء • وسرعان ما نظمت مقطعين من القصيدة لم أقض في نظمهما إلا لمحات خاطفة:

يلف العاصف السندرة بعنف
فتتملص منه دون أن تنقصف
لترمق بسكون وصمت
هذا الوحش الذي تخمد حدته فجاة •

وفي ليالي الشتاء السود .. السود
يحسب الزعزع الصقيعي انه سيقتلعها
فيهاجمها ، لاوية أذرعها العارية
وكله ثقة بالنصر .

أنهيت هذين المقطعين من القصيدة ، وأخذت افتش عن التكملة ، غير ان باب الالهام سد في وجهي . وكنت أشعر ، وهذا شيء طبيعي ، ان القصيدة ناقصة وكانت روح الشكل توحي إلي بضرورة وجود مقطع آخر . كنت أحس إحساساً قوياً بذلك ، غير انني لم اوفق الى كتابة شيء . وقضيت نهاراً كاملا أرسم في مخيلتي كل الصور التي يوحيها المشهد .

ولكن جهدي كان بلا فائدة ، إذ نظمت مقاطع مختلفة جاء بعضها وصفياً بحتاً وجاء بعضها الآخر أخلاقيا .. ولكن خيال الصورة المؤنثة التي أوحت الشجرة بها الي بقي قابعة في الظل . ورأيت أن من الضروري كي أبعث الحياة في هذه القصيدة أن ابني المقطع الاخير منها على نواة تلك الفكرة ، ليتمكن من ان يسبغ على الصورة الأنثى روحاً خاصة بها . ولقد احتجت الى عام كامل حتى استطعت ان امسك بتلابيب هذه الرباعية المتمردة :

ولكنهما يضيعان جهدهما سدى
وهما يحاولان تحطيم الجذع الضعيف
المنتصب بثبات وهدوء
فالسندرة تحب آخر
وهي له وفيه

ثم جاء اجتماع الكتاب في موسكو ، وعينت عضواً للجنة الحزب في هذا الاجتماع ، وبقيت كذلك منذ نهاية عام ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية . وتذكرني هذه الفترة بمجالس صاخبة بين الكتاب ، وكنت أعود منها الى البيت في الهزيع الاخير من الليل . ولقد نظمت أهم قصائدي في تلك الفترة من الوقت ، وكان عملي في الوطن يساعدني أن أرى أكثر وضوحاً وأن أكون أكثر دقة .

أما عن الخصب بالنسبة لانتاجي الفني فيمكنني تحديده بعام ألف وتسعمئة وثمانية وثلاثين ، إذ نظمت خلاله أكثر من عشرين قصيدة غنائية . وبدأ النقاد يهتمون بانتاجي ، وتدفقت رسائل القراء ، وأبدى بعض الكتاب البارزين آراءهم فيما أنشر . وقد جاءتني مرة رسالة من اليكسي تولوستوي كانت فرحتي بها أعظم من ان تحد . كتب الي يقول في خاتمة رسالته بعد أن أثنى على شعري :

« عش .. وفكر مستقلا .. فان هبة الشاعرية لا تعطى لكل الناس »

وهكذا تعرفت الى نشوة النجاح ، وكنت بالفعل قد تغلبت على المؤثرات التي طالما شلت تقدمي الفني ، وانتصرت كذلك على أخطائي وإنحرافاتي الخاصة . فعلمت أن على الشاعر ، كي يكشف لقارئه عن الروح الانسانية ، أن يكشف نفسه أولا ، وادركت أيضاً أن الشاعر إنما يدنو من الناس بمقدار ثقته بهم ، على أن يكون هو نفسه إنساناً حقيقياً ، وأن يعيش أيضاً حياة شعبه .

لقد كنت دائما اعتقد ان الشاعر الشعبي هو من نحتاج اليه أكثر من غيره ، إلا انني كنت مقتنعاً أيضاً ان الشعر يعكس روحية الشعب ،

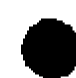
ويؤثر على حياته اطراداً مع تنوعه . هذا إلى يقيني من أن الجدل والملحمة والنقد والطبيعة والحب والتامل والهزل ، يجب أن لا يبقى هذا غريبة عن شعرنا .

وقد جعلني ذلك اليقين أكثر ثقة بعملي الفني ، ووضح مفهومي لواجبات الشعر السوفياتي وعرفت به مكاني المتواضع في قلب هذه الجوقة الضخمة . وهكذا لم يهل عام ١٩٣٩ حتى كنت قد تخلصت تماماً من رواسب اتجاهي السابق لأنني ، اعتباراً من ذلك التاريخ ، وجدت طريقي .

إن شعراء الشباب السوفياتيين يعرفون ، دون شك ، الصعوبات التي يمكن ان تعترضهم ثم لا يجهلون أن اكتشاف الطريق الصحيحة لا يمكن أن يتم منذ الوهلة الاولى . إلا أنني أستطيع التاكيد لهم ، أن سبيلهم لذلك يجب أن يخالف تماماً السبيل الذي سرت أنا عليه بادىء الأمر .

إنهم جميعاً قد درسوا في طفولتهم بشكل عادي وفتحوا لأنفسهم مدخلا الى الثقافة في شبابهم ، أضف الى ذلك أن الشعر في بلادنا قد اتجه منذ عهد بعيد نحو الواقعية الاشتراكية وهكذا لم يعد الشعراء معرضين الى إضاعة جهودهم كي يشقوا لأنفسهم طريقاً بين عوارض المدارس من رمزية وسريالية وغيرهما .

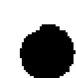
ومع ذلك فقد يجد بعض المتسرعين فائدة في اتباع طريقتي التي ذكرت ، وقد يعجب بها المدعون الذين يتصورون أن بامكانهم ان يرتقوا جبل الالهام بوثبة واحدة .



كتاب خالد للحب
قد يمر بعضهم على صفحاته باهمال ،
وقد ينسى آخرون كل شيء
وهم يقرأونه ليل نهار ،
ويغرقون بالدمع كل صفحة .

هذه الوريقات ،
المتكدسة يوماً بعد يوم ،
قد نترك عليها شيئاً منا ،
أو أثراً .

أيهـا الحب ،
لقد عرفت الألم والسعادة
وأنا أرسف في قيودك الأثيرة ،
وأكون سعيداً اذا حملت قسطي
إلى هذا الكتاب
ولو سطراً واحداً!



تذهب الى حبيبتك ، سعيداً معجلا ،
النسيم رخاء ، والنهار رائع
حتى لتبدو المدينة بأسرها كأنها تتلألأ،
حتى لكأن الطريق لم يتعبك .
تسير وشعرك في الهواء ،
على محاذاة الاسقالات المنصوبة ،
وفي نشوتك ، تسلك دروباً ، وأزقة ،
وحبيبتك ،
إذ تسمّر عينيها في وجهك

تلمح زوايا من السماء
في نظراتك

●

يلف العاصف السندرة بعنف
فتتملص منه دون أن تتقصف
لترمق بسكون وصمت
هذا الوحش الذي تخمد حدته فجأة ،
وفي ليالي الشتاء السود ، السود
يحسب الزعزع الصقيعي أنه سيقتلعها
فيهاجمها لاويا أذرعها العارية
وكله ثقة بالفوز ·

ولكنهما يضيعان جهدهما سدى
وهما يحاولان تحطيم الجذع الضعيف
المنتصب بثبات وهدوء
فالسندرة تحب آخر
وهي له وفية

●

ها هي الموسى تلمع في يدك ··
وأنت تحلم غالباً بالصبايا ·

ما أكثر الجميلات ·· إنما عليك
أن تختار واحدة منهن ،
وعليك ، كي تلحق بها في خلوتها ،
أن ترود زوايا الدنيا ·

إنها لا تملك الذهب ولا الاقطاعات
ولكن ·· بين يديها ·· كل سعادتك

●

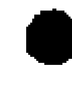
لا تتخذي الصديقات نموذجاً
ولا تتشبهي بالغلاميات ،
أو تظنين أنك ستلوحين أكثر جمالا
عندما يذوب أحمر الشفاه على أعقاب
اللفائف ؟!

خير لك أن تقضمي الأقحوان
الذي ما تزال مرارة الندى
على أزاهيره
كي يحفظ حبيبك
على شفتيه الملتهبتين
طعماً حاداً

●

نجمة مسائية تبعثر أضواءها
والغابات السود مستغرقة في تفكيرها ،
أما أنا فأحس بقلبي ينقبض ؛
هذه الأشعة الراجفة
التي تلامس الآن أهدابي ،
قطعت ــ لكي تدركني ــ
مئة وأربعين ألف سنة ،
أما أنت فليس أمامك
غير درب قصير تقطعينه

ومع ذلك ، فلا شيء يلهمك
أن تجيئي في الموعد ٠

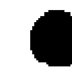


من النظرة الأولى ،
جذبتني هاتان العينان ، حيث تلمـع
الفرحة ،

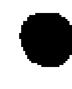
وهذه الخصل ،
من نحاس وذهب تصوغ لك تاجاً

زفرة الحياة
تفرط عقد الأيام
ولكن أريد أن أعتقد
بأنك ستعودين الى مخيلتي ،
جميلة ، شابة ، رغم هذا البعد ٠

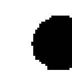
سأكون حزيناً وأنا أقول لنفسي
أن الصيف ولى إلى غير رجعة
وانك في الحياة
مثل بستان خريفي تسفعه الرياح



آه ، عيناك !
أشك أن في الامكان نسيانهما ،
فهما تشعان حتى عندما تبكين
وعلى ملامحك تسكبان أضواءهما ،
وباستطاعتي البقاء طوال ساعات
متأملا جمالك الأسطوري ٠
كم كنت أود أن تقترن حياتانا
وأن أتبع الطريق المرسوم ، دون وجل ،
لو لم يلح في خيالي ،
وجه دقيق لامرأة أخرى
ولو لم يكن قلبي يسأل دون انقطاع
عن تلك التي أحبها منذ عهد بعيد
والتي لقيتها في شبابي
ومحال أن أتخلى عنها
في هذه اللحظة ٠

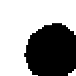


أنظري ٠٠٠ في السماء ،
ألا ترين هاتين النجمتين
كيف تسكبان على العشب وعلى السطوح
أضواءهما الشاحبة ؟
هل ثمة أكثر اقتراناً
من هذين الكوكبين ،
اللذين يحيلهما تمازج سناهما
نجماً واحداً !
وأنا الذي أعرف قيمة هذا الرباط الدائم
القوي ،
أغني اتحادهما ، واتفاقهما الخالد ٠

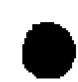


أحب أنْ أرى كيف تتكسر الموجة عـلى
الشاطىء
٠٠٠ وبين الصخور القاتمة
لاحت فجأة ، فتاة ،
قلت لها : « ما أجمل المكان هنا » ٠

وقفنا طويلا قرب المياه ،
وعند المساء عادت من جديد ٠
وعلى الرمل كانت تستلقي ثلاثة مجاذيف
وقارب مستدير الجوانب ٠
كان حديثاً سهلا ، رضياً ،
لم أحاول أن أبدو بليغاً ٠٠
قبلت اليدين الرقيقتين الملوحتين
حيث تلألأت قطرات من ماء البحر ٠
حبيبة ما تزال الى الأبد ،
ويدها الدافئة دوماً هنا ٠
يستطيعون أن يتحدثوا عن بحار جافة
أما أن يموت الحب
فلن أصدق أبداً !

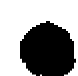


أحبك ،
ولهذا ، دون ريب ،
تلهمني الرغبة أن أكون
الأول في كل شيء ،
ما من أجل عشيقة ،
وإنما لتستطيع زوجتي
أن تعتز بي ٠
ربما كنت ولدت
تحت نجمة سعيدة ،
في ليلة ثلجية مقرورة
ولكني مدين بكل إحساني وتفوقي
لك أنت
أيتها الحبيبة ٠



يا حبي الوحيد ، يا حلوتي ،
ما العمل ونحن متباعدان !٠٠
أمامي صورتنا المأخوذة
ــ أتذكرين ؟ ــ عشية الحرب

في لغتنا الغنية
كلمات مزودة بطاقة عجيبة
تدفع الكتائب الى الانقضاض
وتوجه الى المجد ،
إلى الموت ٠
الحرب تقصف ، وتحفر الوهاد ،
ولكن لا تستطيع قتل الأسماء
التي أرست في أعماق القلوب ،
وامتزجت بالكلمات العلوية ،
هذه الأسماء البسيطة
لأناس معبودين ٠



كاليوم سوف يتجدد القتال غداً ٠٠٠
وتفور الأرض حول ملجأنا ،
لم أشاهدك منذ الحرب
وقد تكونين تغيرت كثيراً
وعراك الهرم ٠

ولكن لا ٠٠ فأنت أمامي الآن جميلة شابة

كعهدي بك ،
ذلك لأني أحبك
وخطى الأيام المجدة
لا تفسد جمال صورتك
في مخيلتي

●

أنظري التجديد كيف يعيد الشباب
إلى سهولنا .
كم أردت أن يسرع سير الأسابيع
كي تصل ، مع الربيع المعجل ،
رسائلي حاملة طابع الجبهة .

كم هي طويلة ، طويلة ،
الطريق التي يجتازها كل سطر ،
ليصل اليك من بين الملاجىء والخنادق
ولكن يدي لامست هذه الرسائل
وعندما تقرأينها
ستلامسها منك الأنامل

●

الريح تعصف في أعماق الغابات ،
وعلى ملجأنا يتساقط المطر .
لقد حلمت بك هذه الليلة ،
وبالقرية التي تضمك .. في البعيد .

فلتهطل الأمطار ، ولتزأر الرياح
في الجهة المبهمة التي تحتويني ،
فما من سعادة توازي لدي
علمي بأنك في الدنيا .

●

وأنا بعيد عنك ..
ضممت جوانحي على حبي ،
فتحدى غيابك ، وبقي حيا ،
لم تسلبه أيدي نساء أخر ،
ولم تزرعه في الهواء
شفاه غريبة ..

●

حياتي متعلقة بك ،
ومثلها فرحتي وأحزاني ،
ربما كذبت عليك بعض الأحيان ،
ولكن شعري لا يكذب أبدا! .

آه ! لو أستطيع
أن أحنو على مصيرها ،
كما على نافذتها !..
لن تتكشف لنا حجب الغيب ،
ولن نعلم
من سيموت منا أولا .

ولكني أصوغ أمنية واحدة
أرددها ، كل يوم ، هامساً ،

هذه الأمنية
هي أن يبقى حبك بعد موتي ·



يرى الرجال على وجهك تقدم الزمن ؟
ـ يا للأهانة الجميلة !·· ـ
عليك أن لا تخفي عدد السنين
وأن لا تعدي الغضون في الجبين ·
ثمة نساء مغريات
كالأزهار الذاوية بعض الشيء ،
وكذلك قلبي يحبك ، يشتهيك
أكثر فأكثر مع السنين



كل لحظة بجانبك عزيزة علي ·
قد نعيش أياماً طويلة ،
إنما ساعة الغياب الأكبر لا بد آتية ،
فنفترق إلى غير رجعة ·

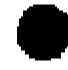
ولكن النجوم ستبقى هي نفسها
وستلمع في ساعة الرعاة ·
فكيف سأجد أثرك ، وأين سأبحث عنك
في هذه الأبعاد النجمية الباردة ؟!·



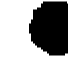
تستطيعين أن تفكري كما تشائين ،
ولكن حبنا يتضاعف ،
وتقوى علاقة قلبينا

فمن أين إذن
يأتيني هذا الاضطراب ؟

أحلامي الليلية تمتلكني ،
ورؤى كئيبة تعتادني ··
فالحب كلما نما
نما معه الخوف عليه ·



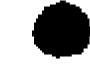
بنا ميل ، دوماً ، إلى تعقيد
حقائق بسيطة ·
أنت بحاجة الى اهتمامي ،
وحنانك هو الذي أحتاجه ، دون ريب·
أي شيء أضيف الى كل هذا ؟
حقاً ·· إني غير جدير بالحب ،
وإني ، وقد نلت كل شيء ،
أهملتك ··
فهل من السهل عليك أن تعودي إلي
بحنانك القديم ؟



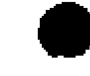
سذج أولئك الذين ينشدون الحب المسالم،
سأقول لهم أنه غير موجود على الاطلاق·
فالحب ذو مفاجآت
ولا شيء حتى الموت ـ ينفع معها ·

وأنت ··
يا من تحبين دون رياء ،

دون تزويق ، ولا تحفظ
آه ! حافظي على نقاوتك وأمانتك
فالحياة ، بدونهما ، ملأى بالآلام .

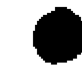


كثيراً ما يكون تماس يدين
جياشاً بطاقة قوية ،
ولكن للحب ساعات ضعف
وقد ننسى فجأة
أنه أغلى من الحياة ،
وأقوى من الموت .
وأنا منذ أن تفتحت عيناي على الدنيا
لم أستطع ، بعد ، سبر غوره .



القلق يضغط على روحي المتألمة .
ماذا أصنع لكي أعيد اليها الراحة ؟
فالغيرة ، هذه النمامة العجوز ،
ألقت إلي ، من جديد ، حديثاً أسود
وأغرتني بأن أتبعك مثل ظلك ،
وأشك بدموعك ، وقبلك ،واعترافاتك،
وأنظر بحذر إلى تصرفاتك ،
وأن لا أرى إلا بعينيها .

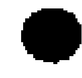
الغيرة ظالمة ، مرة المذاق ،
وهي ، إلى ذلك ، تصبح خطر



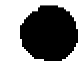
أجل ، لست دون مزية ، في اعتقادي ،
ولكن لا تلمني إذا تكلمنا بصراحة :

اليس كثيراً
أن تطلب من امرأة
أن تحيا وتتنفس لأجلك وحدك ؟

ستكون وفية ، حتى القبر ..
ولكن العالم الحافل بالأفراح ،
وبالسحر المتنوع ،
ينفتح أمامها رحباً ، لا متناهياً ،
وليس بمقدورك
أن تملأ فراغه ...



في دخان لفافتك الرمادي
توزع قبلاتك ، على هذه وتلك ، بسخاء
وأنا أعلم جيداً أن اللوم العنيف يؤذي الشاعر
أما العتاب فلن يهتم به أحد ..
ولكن الشيخوخة ستجثم بثقلها الرهيب
على من ينثر الحب في طريقه
بيد ذاهلة ، ودون تفكير



ظل داكن ينسج خيوطه الباهتة
على عينك الجامدة القاسية .
أعلم جيداً ، أن أذرعاً كثيرة ،
غير ذراعي زوجك ،
قد ألحت على تطويقك .
ومع ذلك ، فلست لأحد ،

ولم يستجب حب لنداء قلبك ·
إنه لشيء قاس أن تهرمي
وأن لا تكوني عرفت في الحياة
الرجل الذي يدفيء
صقيع قلبك ،
وربما كان في هذه الدنيا ،
من يبحث عنك سدى ،
ويتألم وحيداً ·

●

تحلم ، قبل كل شيء ، بالحب العظيم
الذي يملأ كل لحظاتك بالسعادة ،
ثم تدخل امرأة في حياتك ،
وتهرم قلبك في أيام قليلة ·

سعيد أنت ، عندما تلتقي ، في طريقك
بالتي تستطيع أن تحيا معها ،
رغم بياض شعرك ··
دون أحقاد ولا شكوك ،
مثل فتى مأخوذ بالحب ،
حتى تنزل القبر ·

●

الحب !··
حاولي أن تشعري جيداً بقيمته ،
خاصة مع الزمن ·
ليس الحب ، مطلقاً ، في التأوهات
تحت الظلال أو في شعاع القمر ·

على المحب اقتحام الثلوج والامطار ،
ليجتاز الحياة مع رفيقته ·
فالحب نشيد منغم
وليس من السهل صنع نشيد ·

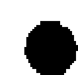
●

من قال ان حبنا
يجب أن يكون
أقل من أمجادنا ؟
ربما كنت غير جدير بمثل هذا الحب ،
ولكنه اذ يجبه العاصفة وثورتها
ويحيا ويشع
في بهائه الوسيم ،
فهو ، هو رفيق مصائرنا العليا ·

●

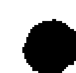
كانت تحنو على أخيها الصغير ،
تحرسه ، تهدهده في مهده ،
ونبتات عباد الشمس تترصدها
لاوية الأعناق
مثل غلمان صهب ·
كانت تتسلق الزرع المكدس ،
وتحمل العلف الى الماشية ،
وتغوص في الجليد ، وهي محمومة ،
لتغترف لها المياه ·
وكان ثور الجيران الهائج ،
ينقض عليها ، وقرنه إلى الأمام ·
كم من الأخطار كانت تهدد عمرها
الطري !

لكم تمنيت أن أدلل هذه الطفلة !
كانت قدرتي المنحوته من طبيعة بلادي الخالدة
لا تزال تنام في حواشي الزمن ٠
وكانت حياتي ، مهملة ، مجهولة ،
ومع ذلك ،
فقد كانت هذه الصغيرة
تحملها في الأعماق ٠



لا تستطيع الكلمات أن تعبر
عن فرحة الأم ،
حانية ، مبتسمة من السعادة ،
عندما يخطو ولدها ،
للمرة الأولى ، بضع خطوات
من الطاولة إلى الكرسي ٠

٠٠٠ ومع الزمن ،
سيقتحم الأفق طياراً ،
ويقطع البحار وشطآنها الصخرية ،
ولكن سيخيل اليه
أن طريقه هذه أقل صعوبة
من تلك المسافة
بين الطاولة والكرسي ٠



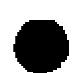
أجل ، إن تحدي الزمن
شيء باطل ٠

وما أسرع ما توليت
يا فجري البعيد ،
يا طفولتي ٠

تحت الجسور ، يجري الماء دون انقطاع ،
ويتآكل الحديد ٠٠
وهذه آثارك ، اليوم ،
تمحي ياشبيبتي ٠

ثورات وحروب
شهور من الصراع ، شهور من المتاعب ٠٠
أوه ! لقد تركت بعيداً ، ورائي ،
ظهر أيامي الذهبي ٠

على جبهتي يشق الزمن
أثلاماً متقاربة شيئاً فشيئاً ،
وأنا أعلم أن المساء يقترب ،
ولكن أية أهمية لهذا ،
لنعمل !
كي تخصب ، في زهوة النشاط ،
مشاريعنا العظيمة ،
فأعتنق اليوم الاخير مؤمناً
بمستقبل العالم ٠



سيأتي الموت ، ولن يخطىء الموعد
وسينقشون ، تحت صورتي ،
تاريخين ٠

منذ الآن ، أرى الخط القصير
الذي يجمعهما
و فيجزء صغير من سطر
تنحصر كل حياتي
ولكن ، أيها الصديق ،
هل لك عند ذاك
أن تكرم ذكراي هاتفاً :
هذا العجوز ،
لم يكن يشكو في شيء ،
امتداد الحياة ٠

●

أرجل شعري المتمرد
وأحس بنفسي شـاباً ٠ وانا في ذلك
على حق
ولئن كنت أعجب الجميلات حتى اليوم
فهل ينادينني : « الأشيب » ،
وأعترف أن هذا يؤذيني ،
وكثيراً ما يلقاني صديق شاب
فيردد وهو يشد على يدي :
ما أسرع ما مشى إلى رأسك الشيب ٠
مهما يكن فقد كانت المعركة حامية
وسيعلمون يوماً
كيف كنا نشيب
قبل الثلاثين
ونبقى مع ذلك
شباباً في الستين ٠

●

كل هذه الأرض تحت قدمي ٠
أحيا ، أتنقل ، أغني
ولكن ذكرى المحاربين
الذين صرعوا في المعركة
تحيا معي ٠
إن لم أستطع أن أسميهم جميعاً
فكلهم عزيز علي ،
ألستُ بَعْدُ منتصباً
لأنهم ينامون تحت الثرى ؟

لن أشكو بلهجة حزينة ،
وبمقاطع مهينة ،
من أنني ساهرم
وأن أيامي ستختصر :
فتحت وابل الرصاص
كان يمكن أن أسقط ـ ومايدريني ـ
في الأورال
أو في سواحل خليج « سيفاش » ٠
ألم يعفر أحدهمخده في التراب ،لأجلي،
وهل كنت ، لولاه ،
عدت إلى بيتي
وشاهدت أمي العجوز ؟
كان يمكن أن أجد الموت
عند « الكولاك » المتمردين ،
ولكن في السهول الرحيبة

ينام آخر ، غيري ، في ظل شاهدة .
... ألوطن يدعونا
إلى أعمال حربية جديدة ،
فعلى أرضنا تزأر وترعد
مدافع هي صوتُ النذير .

لقد رأيت الموت ،
بعيني رأيت الطرق تحت القنابل ،
والأرض المحروقة تنفجر

شلالا أسود
صاعداً الى السماء .
ولكني أعلم
أن المعركة كانت أقسى
بالنسبة لآخرين ، غيري ،
فلستُ أنا الذي صمد بصمت
أمام ضرارة التعذيب ،
إنه « كوتشيفوي » الجريء
في ربيعه السادس عشر
ثابتاً باعتزاز
حتى الشهقة الأخيرة ،
إنه «ماتروسوف» ، الخضيب بالدماء ،
يهب صدره للرصاص .
إن لم أستطع أن أسميهم جميعاً
فكلهم عزيز علي ،
ألست بعد منتصباً
لأنهم ينامون تحت الثرى ؟
ديني ضخم ،
وبحياتي – لا بهذه الأسطر القليلة –
أريد أن أكون جديراً
بهؤلاء الذين سقطوا
في سبيل الوطن .

●

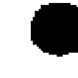
الرابعة صباحاً .
والكرى يهرب من جفوني .
تدور الأرض حول محورها ...
والليل يفر أمام الفجر ،
والثلج الفوضوي يلتمع ..
وبعد خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف
ستهب الريح الباردة نفسها
على عالم المستقبل
الذي نحلم به جميعاً ،
ويبقى معذلك مغلقاً علىالفكر البشري .
وأقول لنفسي :
هل باستطاعتي أن أحيا في ذاكالزمن،
كرة ثلجية بسيطة
لأطير فوق الأرض
تحملني الرياح
فأتأمل ، لفترة وجيزة ، هـذا العالم الذي يولد
ثم أمس في انطلاقي غصن شجرة ،

لأتلاشى وأذوب
على وجنة صبي .



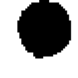
الجبال المعصوبة بالثلوج الأبدية
عمياء عن لمعانها الوديع الصافي .
والفضاء السماوي لا يرى زرقته ،
ولا تحس الزهرة كم هي جميلة .

ومع ذلك ،
فعلى امتداد الدروب الصاعدة
أو في الغابات ،
يلذّ للمرء أن يحدث نفسه
بأن الطبيعة تشاهد ذاتها
وتعجب بنفسها
من خلال نظراتنا
التي لا ترتوي .

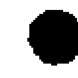


لم تحيَ الزهرة غير قليل
ها هو الشتاء .
الريح تهدر ، والثلج يصفع الأبواب
ولكن ، من العشب المجفف
يتصاعد عبيرك الساطع
أيتها الزهرة .
والحليب يعيد لنا بطعمه
حياة الزهرة البرية .
وإذا أسكرتك أنشودة
فليس إلا أن تردد منها مقطعاً

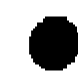
حتى تتحدى الزهرة الريح العاتية ،
وتحيا في اللازمة الغنائية .



نحلة ترفرف
وتمتص رحيق الزهور ،
دون مهادنة ،
ثم يجد له الجميع طعماً حلوا ،
غير أن حزيران ينتهي في السهل الفسيح :
قصيرة هي حياة الازهار ،
ومثلها حياتك أنت ،
تنطوي مهما طالت .
ولكن هل ستجف أغانينا
بهذا الشكل ،
إذا كان الشعب لا يموت أبداً
والزهرة تولد من جديد ؟



أمطرت السماء ..
فعلى الاسفلت
انعكاسات موجة براقة عميقة ،
العربات قوارب ،
والأضواء الراجفة كالنبات المائي ،
تعمر النهر ،
حيث نلمح في أعماقه ،
ـ كما لو يسبح ـ
سرب الأسماك الحمر المفزعة .



أفتح نافذتي . فماذا أرى !
ضوء يبهرني ..
وما هو في الحقيقة سوى قطعة زجاج
غرزتها في الأرض أقدام العابرين .
فاذا أوقدها شعاع
حسبتها شمساً تسطع تحت قدميك .
أيتها الشمس ،
ضياؤك المنساب في كل مكان
يصنع جلالك ،
فكل شيء له قدرة الاشعاع ،
كل ما يلمع ،
ولو كان صفيحة مهملة
تريد الشمس العظيمة
أن تعدله بنفسها .

●

من الذي أغرق بالخمر السماط ؟
ولكن ، ماذا يعني السؤال ؟
فليأخذ العيد مداه
حول الطاولة المصنوعة من السنديان.
أريد أن أشرب نخب السنديانة الجبارة
التي نمت في الغابة الخضراء !
ولنشرب أيها الأصدقاء
نخب النجار
الذي أبدع بيديه الحاذقتين .
طاولتنا !
سيشرب معي الأصدقاء
نخب زارع الكروم
فمهمته ليست سهلة
إنها تقتضي عناية وجهداً عظيمين
عندما يعصر العناقيد
أو عندما يعتق الخمرة
في الدنان المثقلة

المخبوءة في أعماق الليالي .
إن أقلنا سكراً
لا يكذب أبداً
ـ ولا أظن مع ذلك
أن أحداً منا ثمل ! ـ
عندما يمجد ، والكأس في يده ،
فن نافخ الزجاج الرفيع ،

الغطاء ناعم تحت الأنامل
والسماط ينبسط في بياضه ..
لقد أدارت الناسجة عشرين نولا دفعة واحـدة
لتصنع هذا الغطاء .
ثمة أقوام يكدحون بعزيمة
تحت الشمس أو تحت سياط المطر
لكي تنضد في الصحون
قطع الخبز بأحجامه المختلفة .
نحن هنا جميعاً
مجبولون من طينة متماثلة
ولن يجد خامل أبداً
مكاناً له على مائدتنا .

قصة من اليابان

العاصمة القديمة أزهار الربيع

يازيناري كاوا باتا الحائز على جائزة « نوبل » للآداب

ترجمة : ليان ديراني

على جذع الجميزة القديمة ، كانت أزهار من البنفسج قد تفتحت ، وقد اكتشفتها شيبكو ·

فكرت أمام عذوبة الربيع التي تجسمت فجأة :

عجباً ، إنها تزهر في هذه السنة أيضاً ·

كانت هذه الجميزة ، في الحقيقة ، شجرة كبيرة ، بل هي أكبر مما هي عليه ، ما دامت في حديقة ضيقة ، في قلب المدينة ، بل ان ردفي شيبكو لا يعادلان جذعها الغليظ · هذا الجذع ، ذو القشرة القديمة ، الخشنة ، المكسوة بالطحلب الاخضر ، ليس فيه ، في الواقع ، ما يجمع بينه وبين جسد الفتوة الغض ...

فالجذع ، على ارتفاع ردفي شيبكو ، ينحني انحناءً خفيفاً ، الى اليمين وفوق رأسها بقليل ، ينحني كذلك بشدة نحو اليمين · ثم تبرز الاغصان وتمتد وتهيمن على الحديقة · وتتدلى قليلاً هذه الأغصان الطويلة ، الثقيلة الرؤوس ·

وحيث تنحني الشجرة بشدة بل تحته قليلا ، يكمن في الجذع تجويفان صغيران ، في كل من هذين التجويفين ، نبتت زهرات من البنفسج · هذه الزهرات تظهر في كل ربيع · وتذكر شيبكو منذ زمن طويل ، وجود هاتين الارومتين من البنفسج على الشجرة ·

بين الزهرات العليا والزهرات السفلى ، ثلاثون سنتمتراً تقريبا · وتتساءل الفتاة ، شيبكو :

« أمن الممكن ان تتلاقى الزهرات العليا والزهرات السفلى ؟ أو تتعارفا ؟ » وما معنى « التلاقي » و « التعارف » في رأي الزهرات ؟ »

زهرات ، في كل ربيع ، كانت تظهر ثلاث او خمس زهــرات ، على أكثر تقدير ، هذا هو عددها تقريبا • مــع ذلك ، في التجويفين الصغيرين ، في اعلى الشجرة ، تبدو في كل ربيع ، براعم ، تتفتح أكمامهــا أزهــاراً ، وشييكــو تتــأملهــا ، من المجــاز ، او من تحت الشجرة ، رافعة رأسها ؛ ولئن دهشت من « حياة » هذه الزهرات على الجذع، فان « العزلة » التي تعيش فيها ،كانت تملأ جوانحها أحيانا •

« هنا ولدت وهنا تواصل عيشها•• » يمتدح الزبئن الذين يؤمون المخزن ، جمال الجميزة ، ولكن الكثيرين منهم ، لا ينتبهون الى تفتح زهيراتمن البنفسج فيها • فالجذع الغليظ ، الذي أكسبته السنون متانــة ، وكستــه بــالطحلب الأخضر حتى ذروته ، لم يفقد شيئاً من رشاقته ولا من عظمته • اما انزهيرات صغيرات ، قد استوطنت فيه ، فهــذا ما لا يعيره أحد اي انتباه •

لكن الفراشات ، من جهتها ،تعرفها• اذ أن شييكو ، حين اكتشفت الزهرات. كان سرب من فراشات صغيرة بيضاء ، يتطاير على أرض الحديقــة ، وكــان تراقصها يتعالى على طول الجذع حتــى البنفسجات • وكانت براعم الجميزة ، الصغيرة ، المائلة قليلا الى الاحمرار ، على أهبة التفتح ، وتراقص الفراشات الابيض ، كان يتنقل كبقعة نيرة •كانت زهرات أرومتي البنفســج وأوراقهمــا تلقي على طحلب الجذع الاخضر ،الندي ظلا خفيفا •

لقد كان يومــا ربيعيــا ، مفعمــا بالعذوبــة ، عبقت سمــاؤه بــالطيب كأشجار مزهرة •

الفراشات قد ابتعــدت ، وشييكــو ما تزال جالسة تحت سقف المجاز ،تمعن النظر في بنفسج جذع الجميزة •

« ما أجمل أن تزهري هنا ، في هذه السنة ايضا » بدت كأنها هكذا تخاطبها همساً •

تحت البنفسج ، عند جذر الجميزة، انتصب فانوس حجري قديم • كان والد شييكو قــد اخبرهــا ، ذات يــوم ، ان النقش على أسفل الفانوس القديم ، لم يكن سوى صورة المسيح •

« أليست هي صورة مريم ؟ سألتــه• شييكو • اذ ان ثمة فانوســاً حجريــاً كبيراً ، كبــير الشبــه بــه ، في معبــد ــ طانجان ــ في ــكيتانو ــ

ـ ما نقش على فانوسنا ، انما هو المسيح ، أجاب الأب بجفاء . هو لايحمل طفلا بين ذراعيه .

ـ آه أجل ، أجل . » أجابته شيبكو بهزة من رأسها . ثم أردفت : « هل كان لنا أجداد مسيحيون ؟

ـ كلا ، من الممكن ان الرسام او النحات هو الذي جاء به ووضعه هنا . على كل حال، فما هو بالتحفة النفيسة . »

لا ريب ان هذا الفانوس المسيحي ، قد نحت في عصر حظرت فيه المسيحية في اليابان . انه حجر خشن وسهل التفتت ، عبثت به الامطار والرياح ، خلال بضعة قرون ، فامحى الوجه المنحوت وتفتت ولم يعد فيه واضحا ، سوى شكل القدمين والجسم والرأس . لعله ، لم يكن ، بالأصل ، قد نحت الا بخطوط عريضة . فالأكمام لشدة طولها ، تبدو كأنها هابطة حتى اسفل الثوب . والشخص يبدو كأنه يضم يديه الى بعضهما ، ولكن الذراعين ، بما انهما رسما مع شيء بسيط من الانتفاخ ، فلم يعد من الممكن ادراك وضعهما تماما . بعد هذا ، فهو لايشبه في شيء تمثال بوذا أو ـ جيزو .

ان هذا الفانوس المسيحي الذي كان، فيما مضى ، رمزاً للايمان ، او حلية حسب الذوق الاجنبي ، لم يبق له الآن الا قيمة شيء براه الزمن وطوح به في حديقة مخزن شيبكو الداخلية ، كي يستقر عند جذع الجميزة القديمة . « هذا رسم المسيح » يقول الوالد ، اذا ما رآه الزَبُن . حقاً ، ان بين هؤلاء القادمين لأعمالهم ، قلة تلتفت الى فانوس بسيط ، قاتم المظهر ، ملقى تحت ظل جميزة كبيرة . أما اذا رأوه ، فان وجود فانوس أو فانوسين حجريين في حديقة ، انما هو أمر عادي ، مألوف ، لا يتوقفون عنده .

ولكن انظار شيبكو ، التي كانت قد اكتشفت البنفسج على الشجرة، ما لبثت ان انصرفت عنها لتنصب على المسيح . هي لم تتلقَ العلم على يد المبشرين ، الا انها ، كي تألف اللغة الانكليزية ، راحت تتردد على الكنيسة ، وتقرأ العهد القديم والجديد .

ولكن ، ليس يليق ، كما خيل اليها، ان تضع ازهاراً أو تشعل شمعة امام هذا الفانوس الذي ابلته السنون . فالصليب لم يكن محفورا في اي مكان منه .

ان زهرات البنفسج ، فوق نقش المسيح ، كانت تذكرها احياناً بقلب مريم · نقلت شييكو نظرها من الفانوس الى البنفسج ـ عندئذٍ ، قفزت الى ذاكرتها ، فجأة ، الصراصير التي كانت تربيها في آنية من (التامبا) القديمة ·

لئن كانت شييكو قد اكتشفت ، منذ زمن بعيد ، زهرات البنفسج على الجميزة القديمة ،فهي لم تشرع بتربية الصراصير ، الا منذ عهد قريب · ذلك يرجع الى أربع أو خمس سنوات خلت· كانت قد سمعت غناءها الصاخب عند صديقة لها في الثانوية ، فجاءت عندئذٍ بالبعض منها الى البيت ·

« في اناء !كلا،انها القسوةذاتها··»
هذا ما قالته · بيد ان صديقتها أجابت، بأن هذا أفضل من تربيتها في قفص فتموت · وقالت : بل ان بعض الأديرة تربيها بأعداد ضخمة لتبيع بيضها · اذ يبدو أن المولعين بها كثيرون جدا ·

في الوقت الحاضر ،تكاثرت صراصير شييكو ، حتى وجب عليها تخصيص اناءين اثنين من (التامبا) · فكل سنة ، في حوالي اول تموز ، تأتي بنقف البيض ، وفي حوالي نصف آب ، تشرع في الغناء ·

وهكذا في ضيق اناء وظلمته ، تحيا الصراصير وتغني وتبيض وتثبت بيضها وتموت · انها تخلد النوع ، نعم ، لذلك يظل هذا افضل من تربيتها في قفص ، فلا تعيش سوى فترة صيف واحد ، بقي اذن نوع الحياة في اعماق أناء : ان الاناء بالنسبة اليها هو الدنيا بأسرها · *

« الدنيا في اناء »هي اسطورة صينية قديمة جدا ، تعرفها شييكو · فالاناء يضم قصراً من ذهب ، وأبراجاً من لؤلؤ ، ورحيقاً سلسبيلا ، واطعمةجبلية وبحرية نادرة ؛ ان الاناء المغلق « عالم آخر » فصم عن الحقيقة ، التي هي حقيقتنا ، انه مكان شيق · هذه هي احدى الاساطير الكثيرة عند النساك السحرة ·

وان كانت الصراصير تعيش في اناء، فهذا ، بجلاء ، لا يعني انها تبغي الهروب من العالم · وهل هي تعرف انها حقاً في اناء ؟·· هكذا تنقضي حياتها ·

ان ما كان ادعى الى دهشة شييكو في هذه الحشرات ، هو ما عرفته ، أن عدم ادخال ذكر غريب عليها ، بين حين وآخر، مع المحافظة على نفس الحشرات في الاناء

إنما يؤدي الى ولادة جيل جديد ، أصغر وأضعف • هذا ثمرة تعاقب توالد عصبي واحد • فمن اجل تحاشي هذا الضعف ، جرى المولعون بها ، على عادة تبادل الذكور منها ، فيما بينهم •

اذن ، كان ذلك في الربيع ، لا في الخريف ، فصل الصراصير ، فليس عبثاً أن أزهار البنفسج المتفتحة من جديد في هذه السنة ، في تجويفي الجميزة القديمة ، دفعت شييكو الى التفكير بالصراصير التي في اناءين •

الحشرات ، هي التي جاءت بها الى هذه الآنية ، اما أزهار البنفسج ، فما الذي دعاها الى الاقامة في مثل هذا الموضع الضيق ، العسير ؟•• ان زهرات البنفسج قد تفتحت ، وهذه السنة ايضاً ، ستشاهد توالد الصراصير وغناءها •

« حياة الطبيعة ؟ »

رفعت شييكو خصلة الشعر التي كان نسيم الربيع يعبث بها• وراحت تفاضل بينها وبين هذه الزهرات وهذه الحشرات:

« وأنا ؟ » •

لم يكن أحد سواها ينظر الى هذه الزهرات الضعيفات ، في هذا اليوم من أيام الربيع ، حيث تتفجر حياة الطبيعة من كل جهة •

لقد تراءى لها أن ضجيج المستخدمين المنصرفين لتناول غدائهم ، يصل اليها من المخزن •

ولقد آن لها ، هي أيضاً ، أن تتهيأ لكي تمضي ، فتتمتع برؤية «الأشجار المزهرة» كما كانت قد وعدت •

كان ميزيكي شين ايشي قد اتصل بشييكو ، عن طريق الهاتف، في الليلة الفائتة ، ودعاها الى مصاحبته، لمشاهدة أشجار كرز هيكل (شينتو) في (هيبيان جنكي) • قال لها ، ان أحد أصدقائه الطلاب الذي يعمل منذ خمسة عشر يوما في تدقيق بطاقات الدخول ، عند باب حديقة المعبد ، أخبره أن الأزهار في أوج تفتحها •

« كأنني أقمت هناك مراقباً، وليس في وسع أحد أن يكون أكثر منه اطلاعاً• قال لها شين ايشي في ضحكة مكتومة•

ـ وهل سيقوم أيضا بمراقبتنا ؟ سألته شييكو •

ـ اهتمامه ينحصر بالدخول فقط وهو يسمح للجميع بالدخول • »

وضحك شين ايشي من جديد ضحكة

خفيفة · « مع ذلك ، ان كان هذا مما تكرهين فليدخل كل منا على حدة ، وليكن ملتقانا عند أشجار الكرز، فما من أحد ، يمل النظر الى هذه الأزهار، ولو كان وحيدا ·

ـ اذن ، نستطيع ، أن نذهب أيضاً كل منا على حدة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، ولكن ، اذا هبت عاصفة في هذه الليلة ، وأسقطت جميع الأزهار · من جهتي ، سيان عندي ·

ـ ان وريقات الأزهار ، وهي مبعثرة ، لها فتنتها أيضا ·

ـ أزهار ، عصفت بها الامطار وطوحت بها ووسختها · أهذه هي الفتنة التي تتحدثين عنها ؟

ـ فظيع أنت ·

ـ من منا ، نحن الاثنين ؟

اختارت شييكو (كيمونو) عادياً وغادرت بيتها ·

اشتهر هيكل (هييان) ب « عيده التاريخي » ، ولئن كان قد أهدي الى الامبراطور ـ كانمو ـ الذي جعل مقره ، منذ أكثر من ألف سنة ، في هذا المكان الذي ما زال ، حتى اليوم، يدعى « كيو » « العاصمة » ، فهو لم يشيد الا في عام ٢٨ من تاريخ (ميجي) أي في عام ١٨٩٥ ، فالأبنية فيه ،اذن ليست قديمة جداً · مع ذلك ، فان المدخل والهيكل الخارجي ، بنيا على طراز (باب أوتين ـ مون) و (قصر ديغوكيديين) المنتصبين في قلب ـ العاصمة ـ على عهد (هييان) ·وفي العام ١٣ من تاريخ (شووا) (١) فرض أيضاً على الهيكل طقس الامبراطور (كومي) ، وهو اخر امبراطور حكم البلاد ، قبل نقل المقر الامبراطوري الى طوكيو · ولكن ، ما زالت عقود الزواج الكثيرة ، تقام فيه حتى الآن ، حسب طقس (شنتو)·

ان الباقات الكبيرة الارجوانية التي تشكلها أشجار الكرز، المتدلية الاغصان، والتي تملأ أرجاء الحديقة ، هي أجمل ما يقع عليه النظر · « حقاً ، ما من شيء ، يفوق هذه الأزهار ، في تمثيل الربيع في (كيوتو) » · هذا ما يردده الناس الآن ·

ما ان اجتازت شييكو باب الحديقة، حتى اجتاح لون أزهار الكرز كل كيانها· « آه ، في هذه السنة ، حظيت

(١) السنة ١٣ من تاريخ شووا أي عام ١٩٣٨ حين فرض النظام العسكري ، وأصبح « الرجوع » الى الماضي هو القاعدة ·

أيضاً بربيع (كيوتو) » وتأملت المشهد ملياً ، وهي جامدة ، لاتتحرك.

ولكن ، أين يمكن أن يكون شين ايشي في انتظارها ؟ ألم يصل بعد ؟

قررت أن تتمتع بمشاهدة الازهار بعد الاجتماع به • فنزلت المنحدر الصغير بين الاشجار المزهرة •

كان شين ايشي مستلقياً على ظهره، في وسط الأرض الواطئة المعشوشبة • يداه مشبكتان تحت نقرته وعيناه مغمضتان •

شين ايشي مستلق ! هذا آخر ما كان يخطر ببال شييكو•لم تصدق• انتظار فتاة في حالة استلقاء ! أحست بشيء من الاذلال ، وبدت تصرفات شين ايشي السيئة ، أخف وقعاً عليها من صدمتها الآن وهو علىهذا الشكل• اذ لم يسبق لها ، في حياتها،أنأبصرت مثل هذه الامور •

بل ، لعل هذا الشكل شيء مألوف، في عرف شين ايشي ؟ انه ، كثيراً ما كان يندفع مع رفاقه في مناقشاتحادة، وهو مستلق على ظهره ، أو متكيء على مرفقه ، في حدائق الجامعة •

كان بالقرب منه ، أربع أو خمس عجائز صغيرات القامة ، بسطنطعامهن ورحن يثرثرن بارتياح • لا ريب أنه شعر بشيء من العطف عليهن ، فجلس بقربهن فأخذته سنة من النوم •

هذه الافكار حببت الابتسام الى شييكو ، الا أن وجهها ، على العكس، اصطبغ بلون الارجوان • ظلت في مكانها واقفة ، دون أن تناديه•فكأنما هي تنأى عنه •• انها ، في حياتها ، لم تشاهد وجه رجل نائم •

كان شين ايشي يرتدي بدلة طالب، أنيقة ، وكان شعره مقصوصاً بعناية• وأهدابه الطويلة ، تضفي عليه مظهر طفل • بيد أن شييكو لم تكن تنظر اليه •

« شييكو ! » صاح شين ايشي وقد نهض بوثبة واحدة • واذا بغضب مفاجيء يستولي على شييكو •

ـ أهكذا تنام • انكتغالي • وعلى مرأى من الجميع •

ـ ولكنني ما كنت نائماً ! عندما وصلت أبصرتك •

ـ فظيع أنت •

ـ ولو لم أنادك ، فماذا كنت تهمين أن تفعلي ؟

ـ أتظاهرت بالنوم ، عندما أبصرتني ؟

ـ ما أشد ما يجب أن تكون هذه الفتاة سعيدة ، فكرت في نفسي ، وهذا ما أدخل على نفسي شيئاً من الحزن. الى جانب هذا ، كنت مصاباً بصداع.

ـ سعيدة أنا ؟

ـ . . .

ـ أما زلت مصاباً بصداع ؟

ـ كلا ، انتهى الصداع الآن .

ـ أنت شاحب اللون ، فما بك ؟

ـ الآن ، على ما يرام .

ـ وجهك يشبه نصل سيف جميل».

كان شين ايشي ، فيما مضى ، قد سمع هذه العبارة ، كلما جرى ذكر وجهه . بيد أنه ، لأول مرة ، يسمعها من فم شيبكو .

وكلما قيلت له ، يحس كأن ناراً متأججة ، تشب فيه .

« نصل سيف جميل ، لا جدوى منه في القتال . هنا ، ونحن تحت الازهار .» قال باسما .

ارتقت شيبكو المنحدر الصغير بخطى دقيقة ، كي تعثر على مدخل المجاز المغطى . فغادر شين ايشي الأرض المعشوشبة ولحق بها .

قالت «أريد أن أرى جميع الازهار» .

ان أزهار أشجار الكرز الارجوانية ، عند المدخل الغربي من المجاز المغطى ، تلقي المرء ، على حين غرة ، في أحضان الربيع . الربيع هو ، حقاً ، هنا . فالاغصان المتهدلة ، الملامسة للأرض ، تنوء ، تحت ثقل الازهار المزدوجة ، المتألقة ، حتى أطرافها الدقيقة . انه فيض زاخر من الاشجار الزاهرة ـ فكأن الشجرة ليست هي التي أنجبت أزهارها ، وان الاغصان ماهي الا ركائز بسيطة لهذا التألق الفياض .

« من هنا ، الاشجار التي أوثرها » قالت شيبكو وجذبت شين ايشي الى المكان ، حيث ينعطف المجاز المغطى نحو الخارج .. هناك شجرة كرز ، تعج بأزهارها ، فدنا شين ايشي ، بدوره ، وراح يمعن النظر فيها معجبا .

« لو تأملها المرء ، لوجدها انثوية خالصة . أغصانها الدقيقة ، المتراخية أزهارها ، كل ما فيها زاخر ، وعلى غاية الرقة والعذوبة .. »

في أرجوان الازهار ، لون بنفسجي خفيف .

« أي شيء هو أكثر أنوثة ؟ هذا اللون ، هذه الفتنة الرائعة ، هذا

الجمال الجذاب الريان.» قال متابعا.

ابتعدا متجهين صوب الغدير . لقد صف ، هنالك ، حيث يضيق الممر ، عدد من المقاعد الصغيرة ، المغطاة بقماش أحمر ، قاني الحمرة . كان يجلس عليها مدعوون الى حفلة شاي وهم يشربون .

واذا بصوت ينادي : « شيبيكو ، شيبيكو ! » .

من سرادق للشاي ، خرجت مازاكو ، من تحت السقف الشجري ، وهي ترتدي ـ كيمونو ـ للحفلات ، طويل الأكمام .

« شيبيكو ، أفي وسعك أن تساعديني برهة من الزمن ؟ آه ، كم أنا تعبة ! انني أساعد الاستاذ في الحفلة .

ـ بثيابي هذه، لا أستطيع الدخول الا الى ـ الميزويا ـ (١) أجابت شيبيكو .

ـ لا أهمية لذلك ، الى الميزويا ، ان شئت .. هي حفلة بسيطة جدا .

ـ ولكن ، معي شخص يرافقني .»

(١) الميزويا : الدهليز التابع لسرادق الشاي، فيه تهيأ وتغسل الادوات الضرورية لتناول الشاي .

انتبهت مازاكو الى وجود شين ايشي ، فهمست في اذن صديقتها :

« خطيبك ؟ »

نفت شيبيكو بحركة من رأسها .

« عاشق ؟ »

حركت شيبيكو رأسها من جديد ، حركة نفي خفيفة .

أدار شين ايشي رأسه وبدأ يبتعد.

« لو تشتركان معاً في الحفلة ؟.. اذ ، لا أحد فيها تقريبا » .

رفضت شيبيكو دعوة مازاكو ولحقت بشين ايشي .

« هي صديقة لي ، نمارس معاً فن تقديم الشاي . جميلة ، أليس كذلك ؟

ـ من حيث الجمال ، ليست خارقة .

ـ حذار . قد تسمعك .. » .

وجهت شيبيكو ، بعينها ، تحية الى مازاكو التي كانت جامدة ، تنظر اليهما وهما يبتعدان .

عند أسفل سرادق الشاي ، بعد اجتياز درب ضيق ، يظهر الغدير . كانت أوراق الزنبق ، تنتصب قرب النهر متشابكة ، خضراء ، ندية ، وأوراق النيلوفر تطفو على وجه الماء. حول هذا الغدير ، لا يوجد شيء

من أشجار الكرز .

دارت شييكو مع شين ايشي حوله ، ثم أوغلا في ظل مجاز ظليل . تعبق فيه رائحة الاوراق الفتية والتراب الندي . كان هذا المجاز الضيق الظليل قصيراً ، في نهايته ، بدت في النور بحيرة أكبر من الاولى . وكانت أزهار أشجار الكرز الارجوانية ، تنعكس صورها من الشاطىء براقة على صفحة الماء . وكان عدد من الاجانب يصورون .

كان شين ايشي يسبقها ، فعبر الغدير ، على الحجارة المصفوفة ، في عرضه . على ما يمسى «الممر النهري» وهو حجارة مستديرة الشكل ، كأنها قطع نشرت ، من دعائم (توري) الدالة على مدخل الهيكل . لقد توجب على شييكو ، أن ترفع ، في بعض الأماكن، أطراف « الكيمونو » قليلا .

التفت شين ايشي اليها وقال : « كنت أؤثر أن أحملك كي تمري .

– ما عليك ، الا أن تحاول . فان أفلحت ، قدمت لك تهانئي ! » .

في الواقع ، كان بامكان أي امرىء حتى المرأة العجوز نفسها ، أن تمر بسهولة .

كانت أوراق النيلوفر تعوم حول الحجارة أيضا . وعندما اقتربا من الشاطىء المقابل ، بدت لهما صور أشجار الصنوبر الصغيرة ، المنعكسة على الماء .

« ألا ترين أن ترتيب هذه الحجارة ينبثق من الفن التجريدي ؟ قال شين ايشي :

– ألا ينطبق هذا على كل حديقة يابانية ؟ مع ذلك ، بدأت أضيق ذرعاً بالحديث الدائم عن التجريد ، حتى ولو كان الأمر ، لا يتعلق الا بالورس في حديقة دير ديكو – جي .

– مع أنه ، في الحقيقة ، بناء تجريدي . في ديكو – جي احتفال لاعادة افتتاح المعبد، بطوابقه الخمسة: ألا تذهبين ؟ . .

– أليس هو شبيها بمعبد كينكاكي – جي الجديد ؟

– هو جديد وبراق ، ولكنه لم يحترق . بل فككوه وأعادوه كما كان فيما مضى . هذا الاحتفال في موسم تفتح الازهار يجتذب جمعاً غفيراً .

– ان كان التمتع بأشجار الكرز هو الغاية ، فهذه الاشجار هنا، وحدها كافية ، ولا حاجة الى مشاهدة غيرها .»

وأتما عبور « الممر النهري » نحو أعماق الغدير •

فيما حول الشاطىء الذي بلغاه ، تنتصب أشجار متشابكة من الصنوبر؛ كانا قد وصلا الى (هاشيدونو) ، « مقصف الجسر » • انه « جسر » يشبه بشكله « مقصفاً » كما يدل عليه اسمه الحقيقي : « مقصف الصفاء » • ان جانبي الجسر يشكلان مقاعد صغيرة لها ظهر قصير • في وسع المرء أن يجلس عليها ويستريح • فيسرح النظر فوق الغدير ، ليسبح في تأمل عميق • في أنحاء الحديقة • بيد أن الحديقة لا يمكن فصلها في الواقع ، عن الغدير •

كان بعض الناس ، على المقاعد ، يشربون ويأكلون • وكان ، في وسط الجسر ، أولاد يتلاحقون •

« شين ايشي ، شين ايشي ! الى هنا ! » قالت شييكو ، وقد سبقته الى الجلوس ، مشيرة الى مكان على يمينها •

— اني مرتاح وأنا واقف ولو كنت عند ركبتيك ، قال لها •

— هذا ما يقال ••• » وبعد أن أجلسته ، نهضت واقفة • « أنا ذاهبة لشراء طعام ، لسمك الشبوط • »

عندما رجعت ، رمت ببعض الطعام الى الغدير ، فسارعت الاسماك ، على الفور ، وفي سرعتها المجنونة ، دفع بعضها البعض الآخر ، خارج الماء • واذا بدائرة من التموجات الصغيرة تكبر وتتسع ، فارتعشت انعكاسات أشجار الصنوبر والكرز •

«أتريد القاء شيء من الطعام ؟» قالت شييكو وهي تقدم له ما تبقى معها • فلم يجبها شين ايشي • « أما زلت تشعر بصداع ؟

— كلا » •

ظلا ، هكذا ، جالسين ردحاً من الزمن • كان شين ايشي يحدق الى سطح الماء ، طلق المحيا •

« بأي شيء تفكر ؟ سمع شييكو تسأله •

— لا أفكر بشيء • هنالك فترات من السعادة ، لا يفكر المرء فيها بشيء ، ألا تصدقين ؟

— ألأن هذا النهار ، يوم مشرق ، متلألىء بالأزهار ؟

— كلا ، بل لأني مع فتاة سعيدة • السعادة ، ألا تنعكس كالشباب ؟

— سعيدة ، أنا ؟ » قالت شييكو ، كما فعلت منذ لحظة • وطاف بعينيها ،

فجأة ، ظل من الكآبة . وكانت قد التفتت : لعل هذا لم يكن سوى انعكاس الغدير .

ونهضت واقفة .

« في الجانب الآخر من الجسر ، شجرة كرز ، أحبها .

— نراها من هنا أيضا : أليست هي هذه ؟ »

كانت أزهارها الارجوانية المزدوجة ذات جمال فائق . وكانت شجرة شهيرة . أغصانها متهدلة ، على نمط أغصان الصفصاف المائي ، ثم تنبسط كثيراً . حين دخلا تحت الشجرة ، شعرا بنسمة خفية تهب ، فبعثرت بعض وريقات الزهر ، ونشرتها عند أقدام شيبيكو وعلى كتفيها .

وكانت بعض الزهرات قد هوت على الأرض ، وزهرات أخرى كانت تسبح على سطح الغدير . ولكنها ، قليلة ، سبع أو ثمان ، لا أكثر ...

والأغصان المتهدلة ، رغم أنها قد أسندت الى ركائز من الخيزران ، فان أطرافها الدقيقة الزاهرة ، تبدو كأنها تلامس ماء الغدير .

من خلال هذا الفيض الزاخر من الازهار الارجوانية وعلى شاطيء الغدير الآخر ، فوق باقات أشجار الشاطيء الشرقي ، يبدو مرتفع تغطيه شجيرات يانعة .

« أليست هذه هي سلسلة جبال هيكا شياما ؟ » سأل شين ايشي .

« هذا جبل ديمونجي ، أجابته شيبيكو .

آه ، جبل ديمونجي ؟ كنت أتخيله عالياً جداً . »

« لأنك تراه من خلال الأزهار » قالت شيبيكو وهي لا تزال بين الأزهار .

عند أسفل أشجار الكرز ، كان ينتشر رمل أبيض . وكان الى اليمين باقة فخمة من أشجار الصنوبر ، وهي كبيرة في هذه الحديقة ، ثم كان المخرج .

قالت له شيبيكو ، بعد أن اجتازا باب — (الأوتين) :

« أوثر المضي الى (كيوميزي) .

— الى ديركيوميزي ؟ ردد شين ايشي ، بهيئة من لا يوافق على اقتراح سخيف جداً .

— من كيوميزي ، أحب أن أتمتع بمشاهدة الغسق فوق كيوتو . أحب أن أتمتع بمشاهدة السماء ، فوق جبال الغرب والشمس تميل الى المبيت .

وافق شين ايشي ، مسايرة لهذا الالحاح الشديد .

« حسناً ، هيا بنا .

ـ نمضي اليه مشياً على الاقدام ، أليس كذلك ؟ »

كان المكان بعيداً ، ولكي يتجنبا طريق الحافلة الكهربائية ، انعطفا في طريق (نانزنجي) ومرا خلف (شيبيون ـان) ثم سارا عند أطراف الحديقة العامةفي (مار يياما) وخرجا من زقاق ضيق قديم ، مقابل (كييوفيري) . وكان ضباب أمسيات الربيع قد تراكم.

لم يبق من الناس ، حتى على منصة كييوميزي ، المشرفة على الوادي ،سوى ثلاث أو أربع طالبات . تكاد ملامح وجوههن لا تظهر بجلاء .

هذا هو الوقت الذي تؤثره شييكو. كان في الهيكلالكبير ، في أعماقالظلام، نور قنديل صغير يشتعل . فمرت دون توقف . وتابعت سيرها ، من الهيكل الصغير الىالبناء الداخلي . هنا أيضا ، أقيمت « منصـة » ، بنيت بشكل عمودي . ولما كان سقفها من قشر شجر السرو ، فقد كانت خفيفة وصغيرة . هذه المنصة ، تشرف على الغرب . انها تطل على كيوتو باتجاه جبال الغرب . أنـوار المدينة تتلألأ ، على حين أن ضياء النهار ، ما زال ، خفيفاً .

دنت شييكو من المنصة وغاصنظرها في اتجاه الغرب . كأنما هي قد سهت عن رفيقها.فاقترب منها شين ايشي .

« شين ايشي ، أنا فتاة لقيطة ، قالت شييكو فجأة .

ـ فتاة لقيطة ؟

ـ نعم ، فتاة لقيطة . »

هاتان اللفظتان : « فتـاة لقيطة » أزعجتا شين ايشي . أهذا ، تعبير عن حالة نفسية ؟

« الفتاة اللقيطة » ردد شين ايشي ، بصوت خافت :

« وأنت أيضـاً تتخيلين أنك فتاة لقيطة ؟ أنـا أيضا مثلك ، في قرارة نفسي . لعـل هذا ما يـراه جميع الناس ... ولادتنا ؛ ألا تعني ، ان الآلهة ، تهجرنا وتلقيبنا الى العالم؟ »

حدق شين ايشي الى شكل وجهشييكو الجانبي . كانت ألوان المساء تلامس وجهها ، وتكاد لا تلونه ؛ بل ، لعل هذا هو التصور الذي يخامرك ، عند هبوط الليل في فصل الربيع .

« بل ، عـلى العكس ، أليس مـن الواجب أن نقول : طفل من عطاء الله

طفل هجر ، كي ينقذ فيما بعد ٠٠٠؟
الا أن شيبيكو ، ظلت تنظر الى المدينة

في الأسفل ، حيث تشع الأنوار ، كأنها لم تسمع وكذلك شين ايشي ، لم يلتفت هو أيضاً ٠

تجاه هذه الكآبة ، التي لم يكن شين ايشي يدرك لها سبباً ، تلمس بحركة منه يد شيبيكو ٠ فنفرت منه ٠

« لا أحد يلمس يد فتاة مهجورة !

ـ كل طفل من عطاء الله ، هو طفل مهجور ، قال شين ايشي يطمئنها ٠

ـ لا تسترسل في البحث عن أمور ، هي على مثل هذا التعقيد ٠ فأنا لست مهجورة من لدن الله ، بل أنا فتاة مهجورة ، هجرها والداها ٠

ـ ٠٠٠

ـ أمام شباك المخزن الأحمر ، هنالك هجراني ٠

ـ ولكن ماذا تقولين ؟

ـ الحقيقة : هذه الحكاية ، كنت بحاجة الى سردها ، لم أعد قادرة على كتمانها ٠

ـ ٠٠٠

ـ ٠٠٠ وأنا أنظر من هنا الى المدينة المنبسطة ، الغارقة في ضباب المساء ٠ اني أتساءل ان كنت ولدت ، حقاً ، في كيوتو ٠

ـ ماذا تقولين ؟ انك غريبة الاطوار ٠٠٠

ـ ولكن ، ما يمكن أن يدفعني الى اختراع قصة كهذه ؟

ـ ألست أنت الابنة الوحيدة ، المدللة ، لتاجر يبيع بالجملة ؟ ان للفتيات الوحيدات ، أحياناً ، تصورات وهمية ٠٠٠

ـ حسن ، موافقة ، اني مدللة ٠ مع ذلك ، سواء لدي ، ان كنت مهجورة أم لا ٠

ـ ألديك على ذلك برهان ما ؟

ـ برهان ؟ هو الشباك ، ذو العوارض الحمر ، أمام المخزن ٠ « الشباك » هو ، يعرف هذا ، كل المعرفة ٠ » صار صوتها أكثر ايناساً ٠ « وقع هذا تقريباً ، عدما انتسبت الى الثانوية ، فقد نادتني أمي وقالت لي ، اني ما ولدت منها ، وانها كانت قد سرقتني وفرت بي في سيارة ٠ مع ذلك ، فان أبي وأمي ، يتناقضان أحياناً ، في تعيين المكان ، حيث وجداني ٠ يقول أحدهما ، ان ذلك كان في حي (جيبيون) في ذات مساء ، في موسم تفتح أزهار

الكرز ؛ ويقول الآخر ، أن ذلك كان على ضفة نهر (كامو) • لا شك أن الشباك ، بعوارضه الحمر ، أمام المخزن، كان كئيباً جداً ، كما يفكران ، وان هذه القصص هي من اختراعهما •

ـ وأنت ألا تعرفين من هم أهلوك الحقيقيون ؟

ـ ان هؤلاء الذين ، هم الآن أهلي، يحيطونني برعاية فائقة ، ولا تراودني أية رغبة في البحث والتفتيش • لعل أهلي الحقيقيين ، يرقدون بين المجهولين من الاموات ، قرب (آداشينو) • فالحجارة هناك ، هرمة جداً ••• »

كانت تنتشر ، من الجبال الغربية ، ألوان دافئة ، يبعث بها غسق ربيعي ، وقد اكتسحت ، مثل ضباب برتقالي ، نصف سماء كيوتو •

لم ينجح شين ايشي في اقناع نفسه، ان شييكو كانت ابنة مهجورة ، أو مخطوفة • فبما انها ابنة أسرة عريقة، من أسر التجار بالجملة في المدينة ،فمن السهل عليها معرفة الحقيقة ، لو لجأت الى سؤال الجيران وحدهم ؛ بيد ان شين ايشي يشك ، حقاً ، ان كان هذا لم يخطر ببالها قط • أما ما أشاع الحيرة في نفسه ، وما تمنى معرفته ، فهو السبب الذي دعا شييكو ، كي تبوح له بهذا السر ، في هذا المكان ذاته •

فقد استدرجت شين ايشي الى كيوميزي لتدلي اليه بهذا الاعتراف ولذا كان صوتها محتفظاً بذلك الصفاء الهادىء• وكان هذا الصوت مشوبا بقوة براقة• ولم يبدُ فيه ما يدل ان كان نداء الى شين ايشي •

كان محالا على شييكو ، ان تشك في محبته اياها • بل ، لعلها باحت له بسرها ، لأنه يحبها حقا ؟ لم يخالج شين ايشي مثل هذا الشعور وهو يستمع اليها • بل ، على العكس ، ألم يكن لهذا الافشاء ، وقع في نفسه ، شبيه برفض مسبق لحبه ؟ « فتاة مهجورة » من يدري ان لم تكن ، القصة برمتها ، مصطنعة •••

قال لها شين ايشي ، وهما في «هييان جنكي » ، ثلاث مرات ، انها «سعيدة» ، فسألها وهو يحسب أن هذه الوسيلة قد تكون مدعاة للنكران :

« عندما علمت أنك كنت فتاة مهجورة ، أشعرت انك مفقودة حقا ؟ وهل خامرك شيء من الحزن ؟

ـ كلا ، أبداً ،ما شعرت اني مفقودة ولا حزينة •

— ...

— حين طلبت ان انتسب الى الجامعة، هتف والدي : « الجامعة ، لابنتنا ، الابنة التي سترث املاكنا ، هذا عمل ، لا فائدة منه مطلقا • بل ، الاجدى ان تراقبي الاعمال كيف تجري ... » عندئذٍ ، ربما في هذا الوقت كنت ، قليلا ...

— كان هذا منذ سنتين ، أليس كذلك ؟

— منذ سنتين •

— أتطيعين دائما والديك ، دون أي اعتراض ؟

— أجل ، دائماً تماماً •

— حتى ولو كانت القضية ، تشبه الزواج ؟

— في الوقت الحاضر،نعم ، أجابت شييكو دون تردد •

— وآراؤك ؟ أليست لك ، أية مبادرة على الاطلاق ؟

— لدي الكثير منها ، وقد تتحول في النهاية الى مصدر ازعاج •

— وأنت تخنقينها في داخلك ، حاسبة أنك تقتلينها هكذا •

— كلا ، لا أقتلها •

— أنت ، عمداً ، لا تتكلمين الا بالألغاز » قال شين ايشي ، ببسمة خفيفة ، الا أن صوته تحطم ، فزاد من انحنائه على الدرابزين وهو يستشف وجه شييكو •

« أود رؤية وجه الفتاة المهجورة الغامضة •

— الظلمة غمرت الآن كل شيء »

ولأول مرة ، التفتت شييكو اليه • كانت عيناها تشعان •

« أشعر بشيء من الخوف » قالت وهي ترفع عينيها الى سقف المعبد الكبير • كان طنف السرو الغليظ في السقف الغائص كله في أعماق الظلمات ينقض عليهما •

الدير والشباك

منذ ثلاثة أو أربعة أيام خلت ، كان ساتا تاكيشيرو ، والد شييكو ، قد وجد لنفسه مأوى،في دير للراهبات منزو في قلب هضاب (ساغا) •

هل هو حقاً « دير » ؟ لم يكن فيه سوى حارسة الصومعة ، وقد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها • هذا الدير الصغير،مثل كل شيء في العاصمة القديمة ، له حكايته ، بيد أن بابه، كان متوارياً عن الانظار ، في أعماق

غابة من شجر الخيزران ، وما دام السائحون يجهلون وجوده ، فقد ظل المكان مقفراً • الا أن ثمة مقصفاً ، منزوياً ، مخصصاً لحفلات الشاي • ولكنه ظل مغموراً • كانت الحارسة، أحياناً ، تغادر المنسك ، كي تنصرف الى تعليم فن الأزهار •

كان تاكيشيرو ، قد استأجر غرفة في الدير ، وفي هذه المرحلة من حياته، من يدري ، ان لم يكن قد أصبح شبيهاً بهذا الدير ؟••

أخيراً ، مهما يكن من أمر المتاجرة بالجملة ، بأقمشة (الكيمونو) التي هي السبب في شهرة كيوتو ، فان مخزن (ساتا) كان في حي (ناكاجيو) في المركز الرئيسي • وبما أن المخازن المجاورة ، أصبحت على العموم، شركات مغفلة ، فان مخزن (ساتا) كان في الظاهر ، شركة • وكان تاكيشيرو ، بطبيعة الحال ، رئيساً لها ، غير أن المستخدم الاول (أو كما نسميه في أيامنا هذه « مدير الاعمال » أو «الوكيل») كان مكلفاً بعقد الصفقات• مع هذا ، فان أكثر تقاليد «الدكاكين» ذات الطراز القديم ، ظلت محتفظة بسيطرتها •

كان تاكيشيرو ، منذ صغره ، يتصرف تصرفاً شاذاً ، غريبا • وينفر من الناس • وان عرض أقمشته المنسوجة والمصبوغة حسب تصميمه ، مثلا ، هو مطمع ، لا يسعى اليه أبداً• أما اذ عرضت ، على غير ارادة منه ، فان هذه الابتكارات الغريبة جدا ، عن الذوق العصري ، لا تلقى رواجاً، بل تجد صعوبة في بيعها •

كان أبوه (تاكيشيبي) قد صمم على تركه وشأنه ، يتصرف كما يشاء، دون أي رادع منه • كان المخزن ،اذ ذاك ، يضم عدداً كبيراً من الرسامين والفنانين أيضاً ، يصممون أقمشة ، تلائم ذوق العصر • ولكن ، ما كاد يدرك أن ابنه ، تاكيشيرو ، الذي لم يكن يتمتع بشيء من حدة الذكاء ، يدوس هذا كله ، ويلجأ الى العقاقير كي يتخيل رسومه المزعجة على أقمشة (يوزن) حتى بادر ، فوراً ، الى إرساله إلى المستشفى .

وحين خلف تاكيشيرو والده، سادت التفاهة تصميماته ، فتذمر وتأفف• وكان الاعتزال في دير (ساغا) يتجاوب مع رغبته ، في استرجاع مافقد من وحي •

بعد انتهاء الحرب ، زالت دواعي (الكيمونو) كغيرها من الأشياءالكثيرة، وتبدل كل شيء وانقلب رأساً على عقب ، فالتصاميم التي كانت ، فيما مضى ، مخالفةللصواب ، وكانتسائدة تحت هيمنة العقاقير ، ألا ينظر اليها اليوم ، على أنها من التجريد الجديد كل الجدة ؟ الا أن تاكيشيرو ، كان قد قارب ، اذذاك ، الستين من عمره.

«وان اندفعت فيالفن الكلاسيكي؟» كان يهمس في سره أحيانا ، فيمثل ، أمام ناظريه ، كل ما كان ، قبلا ، أجود وأكمل : الرسوم،ألوان الأقمشة القديمة ، الدقيقة ، ثياب الزمن الماضي ، كلها كانت في رأسه ، وكان بكل تأكيد،يضعتصميماته (للكيمونو) وهو يطوف الارياف وأجمل مافيكيوتو من حدائق .

جاءت ابنته ، شيبكو ، حوالي الظهر .

« بابا ، أيعجبك (التوفي) الحار من عند (موريكا) ؟ اشتريته لك قبل مجيئي .

ـ نعم ، أشكرك .. ولكن ما يثير فيّ اعجاباً أشد من اعجابي (بالتوفي) انما هو مجيئك . أتبقين معي حتى هذا المساء ؟ ان وجودك ، يبعث فيّ شيئاً من الهدوء . وهذا ما يساعدني على القيام برسوم ممتعة .. »

ان صاحب مخزن أقمشة يبيع بالجملة ، ليس أبداً بحاجة كي ينصرف الى تصميم رسوم ، بلبالعكس فهذا ما قد يعود على تجارته بالضرر.

مع ذلك ، فان تاكيشيرو ، كان قد أقام مكتبه ، في المتجر ، قرب نافذة في صدر غرفة ، تنفتح على الحديقة الداخلية ، حيث وضع الفانوس المسيحي ، وكان يظل جالساً فيه ،حتى الظهر أحياناً ، في أيام كثيرة . هنالك في خزانتين قديمتين من الخشب الثمين خلف المكتب ، حشرت أقمشة قديمة صينية ويابانية . وكانت المكتبة ،الى جانب الخزانتين ، لا تضم سوى نسخ ثانية من أقمشة العالم بأسره .

في مؤخرة المتجر ، في الطابق الاول فوق غرفة خاصة،حفظت بدلات (نو) وأثواب رسمية ، نسائية ، وهي ما زالت كما صنعت . كما أنها لم تخلُ من أقمشة منقشة ، صنعت في « بلاد الجنوب » .

هذه الثياب ، قام بجمعها والد تاكيشيرو وحده ، واذا ما حدثعرضاً،

وجاءه من يطلب استعارة البعض منها، لعرضها في معرض للثياب القديمة، فهو يرفض بجفاء وخشونة: « احتراماً لارادة أجدادي، لن تجتاز هذه الثياب عتبة المتجر » . ويكون الرفض جازماً.

انه متجر قديم من متاجر كيوتو، ولكي يصل المرء الى المراحيض كان عليه، أن يسلك مجازاً ضيقاً، يمر بجانب مكتب تاكيشيرو . في هذه الحالة، يلزم الصمت، مقطباً حاجبيه، أما اذا تعالى ضجيج من المخزن، فهو يصيح بصوت مضطرب:

« أليس بامكانكم، ان لا تحدثوا ضجيجاً ؟ » فيحضر المستخدم الأول وينحني، ويداه على الأرض .
« هذا زبون من (أوزاكا) .
ـ ليس عندي ما أبيعه اياه . إن تجار الجملة منتشرون في كل مكان .
ـ ولكنه، زبون قديم ...
ـ الأقمشة تشتري بالمشاهدة . فماذا يدعوه الى الكلام، أليس له عينان ! ان كان خبيراً بمهنته، فهو يعرف من أول نظرة . حقاً، ان التفاهة عندنا، ليست نادرة الوجود .
ـ حسناً، حسناً . »
تحت الفرش الخاصة بالجلوس، كان تاكيشيرو، قد ابتدأ من المكتب، ومد سجادة نفيسة، جيء بها من البلاد الأجنبية . كما علقت حوله على الجدران، بشكل ستائر، أقمشة ثمينة من النسيج المنقش . هذه كانت فكرة شييكو . وهي، مع ذلك، مفيدة أيضاً، في التخفيف من الضوضاء المنبعثة من المتجر . كانت شييكو، بين حين وآخر، تبدلها . وفي كل مرة، يؤخذ والدها بأنسها، فيحدثها، عن القماش، الذي وقع عليه اختيارها: ان كان من يافا، أم من فارس ؛ والعصر الذي ينسب اليه، ونوع رسمه . كانت شييكو، لاتفهم، أحياناً، هذه الشروح المفصلة .

« من الخسارة أن يصنع بها كيس، وهي أكبر من أن تقص الى مربعات لحفلة شاي، ومن يدري مقدار مايلزم منها لصنع حزام (كيمونو) ... قالت شييكو، ذات يوم، وأنظارها سارحة على الستائر .

ـ هيا، أعطيني المقص ... » قال، اذ ذاك، أبوها .

فأمسكه، وبيده الرشيقة، قص به احدى الستائر .

« هذا يكفيك، كما أظن . »

بهتت شييكو ، وأحست أن الدموع تجول في عينيها ٠

« ولكن ٠٠٠ بابا ؟

ـ هيا ، هيا ، لو صنعت منه حزاماً، فقد تجيئني أفكار جديدة ؟ »

وقد لبسته شييكو ، وهي تقوم بزيارة والدها ، في دير (ساغا) ٠

لئن وقع نظر تاكيشيرو ، بصورة عفوية ، على هذا الحزام ، المصنوع من القماش الثمين الذي تلبسه ابنته ، فهو لم يستقر عليه طويلا ٠ ان الاسباب التي أدت الى قماش ثمين منقش ، بألوان شديدة التناقض ، كانت دون ريب ، مرنة ونبيلة ، أما أن يصنع منه حزام لفتاة ، في ريعان صباها ٠٠ فكر الاب ٠

وضعت شييكو ، الى جانب أبيها ، علبة مصمغة على شكل هلال ، تحوي وجبة طعامه ٠

« انتظر قليلا ، قبل أن تبدأ ، سأهيىء لك طعام (اليودوفي) ٠

ـ ٠٠٠

أبصرت شييكو خلفها وهي تهم بالنهوض ، غابة الخيزران ، المنبسطة عند باب الدير ٠

« انه خريف الخيزران ٠٠٠ » قال أبوها ، ثم أردف :

« أما الجدار الترابي ، فانه يتفتت في بعض الاماكن ، ويميل في غيرها ويتشقق ويتجزأ من كل نواحيه ٠ انه يشبهني ! »

تعودت شييكو ، أن تسمع هذه الاقوال من أبيها ، فما حاولت ، أن تطيب خاطره ، بل اكتفت بترديد كلماته الأولى : « انه خريف الخيزران ٠٠

ـ وأشجار الكرز على طول الطريق ، وأنت قادمة ؟ سألها اذ ذاك وهو شارد الذهن ٠

ـ الازهار، كانت قد سقطت والبعض منها يعوم على سطح الغدير ٠ من أشجار الكرز ، لم يبق سوى اثنتين أو ثلاث ، متواريات بين أوراق الجبل التي مازالت طرية ؛ وان النظر اليها ، على بعد مسافة ، أثناء المرور ٠٠٠ في الاعماق ٠٠٠ جميل حقاً وبهيج ٠

ـ نعم ، أعرف هذا ٠٠٠ »

دخلت شييكو الى الغرفة الداخلية ٠ كان وقع البصل الذي تهرسه والسمك المجفف الذي تبشره ، يصل الى سمع تاكيشيرو ٠ عادت شييكو (بالتوفي) الذي هيأته ، في كوب (تاريجن) ٠

كانت هذه الأكواب قد جيء بها من البيت •

قدمت الطعام لأبيها وهي تطفح بشاشة •

« ألا تأكلين معي ••• قليلا ؟ » قال لها ، وفيما هي تجيب :

« بلى ••• بكل سرور ••• » ألقى نظره على كتفيها ، حيث يولد الصدر• « عفيفة ، أليس كذلك ؟ تلبسين دائماً أقمشة ، قمت أنا بصنعرسومها• أعتقد اعتقاداً راسخاً ، انكالوحيدة• اذ ما من أحد يشتريها •••

ـ ولكني ، ألبسها لأنني أحبها •

ـ هذا ، هو العفاف حقاً •••

ـ العفاف ، ربما •••

ـ ما يلزم الفتيات ، انما هو العفاف • قال فجأة بلهجة قاسية •

ـ ان من يمنعون النظر فيها ، لا يتوانون عن اطرائي ••• »

لم يجب أبوها بشي •

لا يرسم الآن تاكيشيرو ، الا لاشباع هوايتهأو لتزجية فراغه • ثم ماالفائدة من مثل هذه المشاريع ، في هذا المخزن الذي يعرض بضاعته على جمهور واسع ؟ فالمستخدم الاول ، ما كانيطبع منها سوى نسختين أو ثلاث ، وهذا أيضاً ،مراعاة لشعور صاحب المحل • فتأخذ ابنته واحدة منها لنفسها•وكان القماش ينتخب دائماً بعناية فائقة • « تعلمين أنك لست مجبرة على لبس الأقمشة التي أقوم برسمها ، قال تاكيشيرو ، ولا أن تأخذي من الأقمشة التي نبيعها في المخزن • لا تحسبي ذلك اكراهاً •

ـ اكراه ؟ أجابت شيبكو مستغربة• اكراه ! هذا ، في الحقيقة، آخر مايمكن أن أفكر فيه •

ـ حين تلبسين ثياباً ، أدعى الى البهجة ، الا أقول لنفسي ، ان لك عشيقا ؟ » قال الوالد ، وهو جامد الوجه ، لا يضحك فيه ، سوى صوته•

بينما كانت شيبكو ، تضع طعام (التوفي) وقعت نظراتها على مكتب أبيها الكبير : لم يكن عليه ، ما يدل على أنه كان يعمل في تصميم الكيوزوم(١)•

لم يكن في زاوية المكتب سوى مجلدين ، من النسخ (بل من الانسب القول ، انهما كتابان من الخط)

---

(١) قماش عليه رسوم مما تشتهر به مدينة كيوتو •

ولفائف تدعى « قطع من جبل كويا » ومحبرة ورسوم على خشب مصمغ ٠

كانت شييكو تتساءل ، هل حاول والدها ، في ذهابه الى الدير ، نسيان المخزن والاعمال ٠

« اني أتعلم وأنا في الستين ٠٠٠ قال ، وكأنه مرتبك ، تعلمين انميوعة الخطوط في الحروف التي كانوا يرسمونها ، على عهد (الفيجيوارا) ليست دون جدوى للرسوم ؛ ألا تعتقدين ذلك ؟

ــ ٠٠٠

ــ مايزعجني ، هو أن يدي ترتجف ٠

ــ وان كتبت حروفاً كبيرة ؟

ــ ولكنني أكتب حروفاً كبيرة ٠٠٠

ــ وهذه السبحة القديمة على المحبرة ؟

ــ هذه ؟ الحارسة ، كانت لطيفة وأهدتني اياها ٠

ــ أو تستعملها للصلاة ؟

ــ بلغة هذه الايام ، انها « مجلبة للسعادة » أشتهي أحياناً ، وأنا أضعها بين أسناني أن أفتت حباتها ٠٠٠

ــ آه ، هذا ما يقزز النفس ! هي حبات سبحة ، وسخها عرق الاصابع ، التي تداولتها ، خلال سنوات كثيرة ٠

ــ لماذا ؟ ان آثار العرق هذه ، انما هي آثار ايمان راهبات ، على مدى جيلين أو ثلاثة ، أليس كذلك ؟ »

أحست شييكو ، انها تثير كوامن الحزن في نفس أبيها ، فأحنت رأسها ولزمت الصمت ٠ حملت الى المطبخ كل ما بقي من الوجبة ٠

« والحارسة ؟ سألته وهي راجعة الى الحجرة ٠

ــ ستعود حالا ٠ وأنت ماذا ستفعلين؟

ــ سأتمشى قليلا في هضاب (ساغا) ، وسأعود إذ أن في هذا الوقت ، يجتمع حشد كبير من الناس في (آراشياما) واني أحب كثيراً أحياء (نونومييا) في (أداشيتو) كما أحب طريق دير (نيزون ــ إن) ٠

ــ ان كنت تحبين هذه الاماكن وأنت في هذه السن ، فهذا ما يثير القلق ٠ بشرط أن لا تصبحي مثلي ٠

ــ هل بامكان امرأة ، أن تشابه رجلا ؟ »

كان الوالد وهو واقف على المجاز المغطى ، يرافق شييكو بنظره ٠

سرعان ما عادت الراهبة العجوز ٠ وسرعان ما انصرفت الى تنظيف الحديقة ٠

جلس تاكيشيرو أمام مكتبه،ورأسه مفعم برسوم أزهار الربيع هـــذه ، وأزهـــار الخنشار ، التي خلفهـــا (سوتاتسو) و (كوران) • وفكـــر في شييكـــو ، التي انصرفت منذ برهـــة وجيـــزة •

ما كادت تبلغ طريق القرية ، حتى أطبقت غابة الخيزران عـلى الدير ، حيث يقيم والدها •

كانت شييكو التي تنوي أن تصلي في دير (نمبيتسي ــ جي) ، في حي (آداشينو) ، قد ارتقت السلم الحجري القديم ، حتى وصلت الى المكان الذي ينتصب فيه ، على منصة إلى اليسار ، تمثالان حجريان لبوذا ، فاذا بأصوات حادة ، تطرق مسامعها ، فتوقفت •

كانتأحجار رفيعة ، مجمعةبالمئات، لا تعد ولا تحصى ، تتفتت وتنهـــار ، هذه هي،التي تسمى «البوذاالمجهول»•

ففي هـــذه الأيام الاخيرة ، نظمت هنا ، لهواة التصوير ، جلساتخاصة، وقد أقيم ، في وسط تجمع القبور ، نساء يرتدين لباساً فريداً في نوعـــه وخفيفاً جداً • والآن ، يجري الشيء نفسه ، دون ريب •

عاودت شييكو نزول السلمالحجري مخلفة وراءهـــا تماثيل بوذا ، وقـــد عادت الى ذاكرتها عبارات أبيها •

ان شاءت أن تتجنب (آراشييياما) وسائحيها ، في الربيع ، فهذا شأنها ، أما أحياء (نونومييا) أو (آداشينو) فهي لا تليق بفتاة صبية،كما لا يليق بهـــا أن ترتدي ثياباً عفةً ، رسمهـــا والدهـــا •••

« في هذا الدير ، لا يؤدي والدي أي عمل » فكرت ، وقد غمـــر قلبهـــا حزن جامح •

« ترى ، ماذا يراوده من افكار ، حتى يشتهي أحياناً ، أن يقبض بـــين أسنانـــه عـــلى حبات هـــذه السبحة المهترئة •• »

كانت شييكو تعلم أن والدها كان أحياناً وهو في المخزن يكبح جماحذلك العنف ، الذي كان يهم أن يدفعه الى الامساك بحبات سبحة وسحقهـــا بـــين أسنانه ••

« ما عليه ، الا أن يستعيض عن ذلك بعضّ أصابـــع يديّ أنا •• » همست وهي تهز رأسها • ثم حاولت أن تتذكر اليوم الذي قامت فيهوحدها مع أمهـــا بقرع ناقوس (نمبيتسي ــ جي) •

كانت قبة الناقوس حديثة البناء· وأمها التي كانت صغيرة الجسم ، لم تفلح في احداث رنين رخيم ، رغم ما بذلت من جهود ·

« ولكن ، ياأماه ، لابد من معرفة طريقة الايقاع » وضغطت براحتها على يد أمها ، وقامتا معاً بدق الناقوس· فجاء الرنين رخيماً ·

« هذا صحيح · ولكن ، كم من الوقت ، سيظل يرن ؟ قالت الأم سعيدة ·

— هذا ، بالطبع ، لا يتناسب مع الأصوات التي يحدثها الرهبان» أجابت شيبكو ضاحكة ·

كانت شيبكو ، وهي شاردة في عالم ذكرياتها ، قد سلكت طريقاً صغيراً ، يؤدي الى (نونومييا) · وقد كتب عن هذا الطريق ، منذ زمن ليس ببعيد ، « انه يؤدي الى ما تحت أرض غابة خيزران » أما اليوم ، فان الظل قد تراجع أمام النور· كانت صرخات الباعة ، تتعالى من باب المعبد · أما الهيكل الصغير فلم يتبدل · وقد تحدث عنه (الجانجي مونو غاتاري) بهذه الكلمات : هنا ، على ما يقال ، كانت الكاهنة (الأميرة من الاسرة الامبراطورية) المختصة بخدمة هيكل (ايز)، منصرفة الى تطهير جسدها ، وبقيت منعزلة فيه، مدة ثلاث سنوات ، والناس يعرفون تابوتها المصنوع من «الخشب الأسود» الذي يحتفظ بقشرته ، كما يعرفون أسيجتها الواطئة ، ذات الفروع المتشابكة ·

عندما يترك المرء طريق نونومييا، ويسلك طريقا ريفياً ، تنبسط الارض اذ ذاك ويبدو للعيان ، واضحاً ، جبل (آرا شيياما) ·

وقبل أن تبلغ شيبكو جسر (توجيتسيكييو) على الضفة المكسوة بأشجار الصنوبر ، ركبت سيارة كبيرة·

« اذا عدت الى البيت ، فماذا أقول عن أبي ·· أمي تعلم ، ومع ذلك··»

كانت مخازن التجار في (ناكاجيو)، قد هدمت الحرائق القسم الأكبر منها، قبل أن يعتلي (ميجي) عرشه· ومخزن تاكيشيرو لم ينج أيضا من الحريق ·

ولئن كان قد بقي حتى الآن عدد من المخازن القديمة ، من نفس طراز « العاصمة » بشبابيكها ذات اللون الأسمر الآجري ، ونوافذها في الطابق الأول ، ذات القضبان المرصوصة ، فانها ، في الواقع ، لا تعود الا الى مئة

عام . يقال ، وهـذا صحيح ، ان الخشب الصلب ، في قلب مخـزن تاكيشيرو ، لم يستجب لألسنة اللهيب.

فان لم يجدد تاكيشيرو بناءمخزنه، وفق الذوق العصري ، ألا يعودالسبب في ذلك ، دون ريب ، الى خلق صاحبه ان لم يكن ، الىقلة نجاحه فيالتجارة.

وصلت شييكو الى بيتها ، ودفعت بشباكه : وغاص نظرها ، حتى صدر البيت .

كانت أمهـا ، (شيج) ، جالسة وراء مكتب أبيها ، وهي تدخن . ان من يراها وهي مسندة ذقنها،الى يدها اليسرى،وحانية ظهرها ، يخالها تقرأ أو تكتب ، بيد أن المكتب ، كانخالياً من كل شيء .

« هـا أنذا . قالت شييكو وهـي تدنو منها .

ـ آه .. عدت . متعبة ؟ أجابت وكأنها تنبهت فجـأة . ثـم قالت : « وأبوك ، كيف حاله ؟

ـ بخير ... »

فيما كانت شييكو ، تفكر برهة من الزمن ، في جوابها ، قالت : « جئته (بتوفي) حار .

ـ من عند (موريكا) ؟ لقد سُر أبوكِ ، دون ريب . وهل طبختهاله؟»

فأجابت شييكو بالايجاب .

«كيفكانت آراشياما ؟ سألتالأم.

ـ في ازدحام جنوني ..

ـ هل مضيت بصحبة والدك ؟

ـ كلا ، كانت الحارسة غائبة ..»

ثم أردفت : « يبدو أنه كانيتمرن على الخط .

ـ الخط ؟ قالت الأم ولـم يبـدُ عليها ما يدل على الدهشة : ان الفكر ينعم فيه بالهدوء .. هذا ما جربته بنفسي ... »

استرقت ، شييكو ، النظر الى وجه أمها الجميل الابيض . الا أنهـا لـم تعثر فيه على أمارة ، تستطيعتأويلها.

« شييكـو ، نادتهـا الام بلطف : تعلمين ، أنـك لست مجبرة عـلى أن تخلفي والدك ، في ادارة المخزن .

ـ ...

ـ ان شئت الزواج ، ففي وسعك أن تفعلي .

ـ ...

ـ أتسمعينني ؟

ـ ولكن ما تعنين بهذا ؟

ـ هـذا ما يصعب شرحه بعبارة واحدة ...

ولكني تجاوزت الخمسين ، وان كنت أقول هذا فلأنني فكرت فيه ·

ـ وان حدث وتركتِ هذا العمل ؟ وترقرقت الدموع في عينيها ·

ـ ما زالت الفرصة مؤاتية لك لتجيبي · » وراحت الام تبتسم بفتور· « شييكو ، أتفكرين حقاً ، ان من الواجب ، أن نتخلى عن المخزن ؟

لم تتعالَ رنة صوتها ، بيد أنها تصلبت · ـ وحين ظنت شييكو ، انها رأتها تبتسم بفتور ، ألم تكن مخطئة؟ « نعم ، هذا ما أفكر فيه حقاً · » واخترق الألم صدرها ، كالسهم · « لست مستاءة · فلا تكتئبي هكذا! ولكن ، أيهما أشد ايلاماً : قول مثل هذه الأشياء ابان الشباب أو سماعها ابان الشيخوخة ؟ أنت تعلمين هذا ، أليس كذلك ؟ ·

ـ عفوك ياأماه ·

ـ سيان ، أعفوت عنك ، أم لا·· وابتسمت الام حقاً ، في هذه المرة، وهي تضيف قائلة : « بصراحة ، هذا ما يناقض تماماً ما قلته لك ، منذ لحظة ··

ـ وأنا ، ما أشد سهومي ، فأنا لم أعد أعي ما أقول ·

ـ الناس ـ والنساء كالآخرين بالتأكيد ـ يجب أن لا يتراجعوا أبدا عما يتفوهون به ·

ـ اماه ؟

ـ هل قلت هذا أيضاً لوالدك في ساغا ؟

ـ كلا ·· لم أقل له شيئاً من هذا·

ـ حاولي أن تقوليه له · حاولي· قد ينزعج دون ريب ، بما أنه رجل، ولكنه ، في أعماق نفسه سيتهلل · »

زادت الأم من ضغط ذقنها على يدها ، وتابعت : « اني ، وأنا جالسة وراء مكتب أبيك ، كنت أفكر فيه ·

ـ أصبحت ، أنت ، ياأماه، تعرفين كل شيء ···

ـ ولكن ، أي شيء ؟·· »

ظلت كل من الأم والابنة صامتتين، لحظات قليلة · لم تعد شييكو، تستطيع البقاء في مكانها : هل أذهب الى نيشيكي فأجيء بشيء للعشاء ؟

ـ شكراً · هذا لطف منك · »

نهضت شييكو واتجهت صوب المخزن مارة بالغرفة المبنية على مستوى الأرض· كانت هذه الغرفة ، فيما مضى ، تمتد الى الداخل ، وهي طويلة وضيقة ·

كانت عند الجدار المقابل للدكان ، المواقد السوداء ، بجانب بعضها،وثمة مكان لتهيئة الطعام •

أما في هذه الأيام ، فقد بطل ، بالطبع،استعمال هذه الافران القديمة• وفي مكان ، يبعد قليلا ، أقيم موقد على الغاز ، وفرشت الأرض بألواح خشبية • لأن الأرض كانت ، قبلا ، من الملاط وكانت الريح تتلاعب بصورة دائمة ، فكان يصعب الوقوف هنا ، في فصول كيوتو الشتوية هذه، حيث البرد ، لا يشفق ولا يرحم •

غير أن الفرن ، كان سليماً، لم يمس • وكان ذلك ، دون ريب (كما هي الحال في أكثر البيوت) اكراماً (لكوجان) ، الاله الحامي دمار النار ، والمقيم في الفرن • لقد وضعت خلف الفرن صفيحة لدرءخطرالحريق، كما صُفت دمى (هوتي) •

كان عدد الدمى سبعاً ، على الأكثر، وفي كل عام ، في أول « يوم الحصان » يحج الناس الى (فوشيمي)، الىهيكل (ايناري) كي يأتوا منه بدمية واحدة • أما اذا أصيبت الأسرة بفقد أحد أعضائها ، فيجب ، عندئذ،البدء من جديد •

في مخزن شيبكو ، كانت آلهة المنزل السبعة ، موجودة كلها • لم يكن في الاسرة ، سوى الأب والأم والابنة وهؤلاء السبعة ، الذين ، لم يمس الموت أحداً منهم ، خلال السنوات العشر الاخيرة •

الى جانب آلهة المنزل المصفوفة،كان هناك اناء للزهور ، من الفخارالابيض وكانت الأم ، كل يومين أو ثلاثة ، تغير الماء وتمسح الرف بعناية •

ما كادت شيبكو تجتاز باب المخزن، وكيس المؤن بيدها ، حتى أبصرت شاباً يزيح شباك المخزنويدفعهجانباً•

« عجباً ، هذا عامل المصرف • »

لابد أنه لم يرها •

كان هذا ، موظف المصرف الشاب، الذي يجيء عادة •

« لا شيء يقلق البال،دون ريب » قالت لنفسها •

بيد أن رجليها عصتاها • فاقتربت من الشباك الذي يذود عن مقدمالدكان تاركة أصابعها ، تنساب واحدةواحدة، على هذا الشباك •

انزاح شباك المخزن بكامله:فالتفتت الى المخزن ونظرت •

في الطابق الاول ، أمام النافذة ،

ذات الشعرية المرصوصة ، وقعت عيناها على اللوحـة القديمة · فوق هـذه اللوحة ، كان قد ثبت سقف صغير· هذا ما يدل عـلى استمرار العمل في المحل ، كما أنه كان بمثابة زخرفة ·

كان نور شمس الربيع الغاربة ، يلقي على الأحرف الذهبية ، في اللوحة المهترئة ، بهاءً كامداً · ويخلع عليها، بالاجمال ، كآبة خرساء · وكان قطن اللافتة السميكة ، فوق الباب ، متفسخاً مهترئاً ·

« ان نفس أشجـار الكرز الحمراء المتهدلة ، في هيكل (هييان) قد تبدو لنا كئيبة حسب حالتنا النفسية »فكرت شييكو وحثت خطاها ·

في سوق (نيشيكي) كان الناس ، على عادتهم ، محتشدين ·

وفيما كانت شييكو عائدة ، أبصرت قبل مخزن أبيها بقليل ، فلاحة شابة من (شيراكاوا) ، فنادتها :

« هل تعرجين علينا ، الى البيت ، لو سمحت ·

— نعـم ، بكل سرور · هكـذا ، تعودين ، يا آنسة · أجابت · وأين كنت ؟

— في نيشيكي ·

— أنت همامة !

— هل لك ان تعطيني أزهاراً لآلهة البيت · · ·

— نعم ، بكل تأكيـد ، انظري الى ما يروق لك · »

كـانت هـذه « الازهار » اوراق (ساكاكي) · ولم تكن ، مع ذلـك ، سوى غرسات غضة ·

كانت الفلاحة الفتية ، تجيء لبيع الازهار ، في اول كل شهر وفي منتصفه· فرددت :

— ما أعظم سروري ، لرؤيتك اليوم، يا آنسة · »

شعرت شييكو ، كذلك ، بموجة من الغبطة ، تعمر قلبها ، لاختيارها هـذه الاغصان ، الغضة الاوراق ·

دخلت البيت وهي تشد على هـذه (الساكاكي) بيدها :

— جئت ، يا اماه · » وكان صوتها يرن بصفاء ·

أزاحت شييكـو الشبـاك قليـلا ، ونظرت الى الشارع ·ولما كانت القروية الشابة ، لا تزال في مكانها ، نادتها :

« تعالي ، خذي قسطا من الراحة · هل لك في شيء من الشاي ؟

وافقت الفتاة بايماءة من رأسها :

ـ نعم ، بسرور - هذا لطف منك ..»

اجتازت الغرفة القائمة على مستوى الارض وهي تحمل أمام وجهها بعض الازهار البرية .

« ما هذه ، سوى أزهار بريـة ، لا ثمن لها ...

ـ شكرا ، تذكرت اني أحبها ...»
قلبت شييكو أنظارها ، معجبة بزهرات الحقول هذه .

بالقرب من المدخل ، قبل الافران قليلا ، يوجد بئر قديم ، بغطائه المصنوع من الخيزران المجدول . على هذا الغطاء ، وضعت شييكو الازهار والساكاكي .

« سأجيء بالمقص ... آه ، حقاً ، يجب ، اولا ، غسل اوراق الساكاكي .

ـ المقص هنا ، قالت القروية الشابة وهي تقعقع به ، ان فرنك نظيف دائما ، ونحن اللواتي نبيع الازهار ، نطرب لهذه النظافة .

ـ أمي مولعة بالجدال ...

ـ وأنت ، ألست مثلها ؟

ـ ...

ـ البيوت المهملة في هذه الأيـام ، كثيرة جدا ، فيتراكم الغبار على الآبار والآنية والافران . ونحن ، بائعـات الازهار نمتعض ونحزن ، اما عندك ، فالأمر ، على النقيض ، مجلبة للغبطـة والمسرة .

ـ ... »

ان أهم شيء ، هو التجارة التي تسير في طريق التقهقر ، بين شهر وآخر ، وشييكو لا تستطيع ان تبوح بشيء الى قروية (شيراكاوا) .

كانت امها لا تزال جالسة خلف مكتب ابيها .

نادتها شييكو الى المطبخ ، لتريهـا ما كانت قد ابتاعت من السوق .

لاحظت الأم ، وهي قرب هذه الأشياء التي كانت شييكو تخرجها وتصفها تحت انظارها ، مقدار ما آلت اليه هذه الفتاة ، من الاقتصاد ، والتدبير ، أليس هذا ، ثمرة غياب الأب ، الذي كان قد انزوى في دير ساغا ...

« وسأشرع انا أيضـا في العمـل ، قالت وهي واقفة في المطبخ . أليست هذه ، بائعة الزهور المعتادة ؟

ـ نعم .

ـ هل كانت كتب التصوير ، التي أهديتها الى والدك ، عنده ؟ سمعت الأم وهي تسألها .

ـ كلا ... لم أنتبه ...

ـ مع انه لم يصطحب سواها . »

كان الحديث يدور حول كتب لرسوم (بول كلي) و (ماتيس) و (شاغال) وغيرهم من التجريديين ، المحدثين . وكانت قد ابتاعتها لأبيها ، آملة ، ان تثير فيه احساساً جديداً .

« في مخزن كمخزننا ، كان بامكان ابيك ، ان ينصرف عن القيام بصنع رسوم للاقمشة . كان بامكانه ، ان يرى ما يصنع الآخرون من أقمشة ، فيبيعها . ولكن ، بالحقيقة ، مع ابيك ... قالت الأم . وانت ياشييكو ، قالت متابعة كلامها ، انت التي لا تلبسين الا (الكيمونووات) التي هي من رسم ابيك ، انت حقا ، لطيفة جدا . وعلي ، انا أيضا ، ان اشكرك على ذلك .

ـ تشكرينني على ذلك ؟ هذا جميل ! انني ألبسها لأنني أحبها .

ـ من يدري ! لعل والدك ، قد داخله شيء من الكآبة ، لأنه رأى (كيمونووات) ابنته واحزمتها .

ـ ... بكل تأكيد ، تبدو على جانب من العفة ، ولكن فيها نكهة موحدة . وقد تلقيت التهنئة عليها . »

تذكرت شييكو ، انها في هذا اليوم ذاته ، قالت نفس الشيء لأبيها .

« حقاً ، قالت الأم ، في الواقع العفة تليق بالجميلات من الصبايا » ورفعت غطاء القدر ، وجست بطرف العصيات ، ما ينطبخ « لماذا لم يعد ابوك يجيد رسم أشياء حديثة ، براقة ؟

ـ جاء وقت ، كان يرسم فيه أشياء براقة ! غريبة ! »

فوافقت شييكو برأسها . « ولكن ، انت ، يا أماه ، لاتلبسين (كيمونووات) من رسم ابي ؟

ـ صحيح ، ولكنني عجوز ، انا ...

ـ عجوز ، عجوز ، ولكن كم عمرك ؟

ـ انا عجوز ... اجابت ببساطة .

ـ لنأخذ قماشاً ، من رسم (كومييا) على نمط (ايدو كومون) ، تعرفين هذا الفنان الذي لقبوه « الكنز الوطني » حسناً ، ان الصبية ، يرتفع قدر جمالها ، اذا ما ارتدت من هذا القماش ، والناس ، عند مرورها ، يلتفتون اليها .

ـ من الصعب ، المقارنة بين استاذ مثل (كومييا) وأبيك .

ـ ابي ، من كل كيانه ما ...

ـ ما اكثر الكلمات الكبيرة ! »قالت الأم مقاطعة ، وهي ترفع وجهها الابيض اللون ، الخاص بنساء كيوتو .

ـ ولكن ، ألا تعرفين ، ياشييكو ،

لقد قال ابوك ، انه ، حين تتزوجين ، سيرسم شيئاً باهراً ، بهياً . وأنا أيضاء منذ زمن طويل ، أعيش هذه الفرحة المنتظرة ...

ـ زواجي ....؟ »

وطاف بوجه شيبيكو ، سحابة خفيفة من الكآبة ، وظلت ردحاً قصيراً ، تلتزم جانب الصمت .

« أماه ، ما هو الحادث الذي كان له ، على حياتك ، أكبر وقع ؟

ـ اعتقد اني قصصته عليك : هو زواجي ، وهو ايضا ، حين ، نحن الاثنين ، انا ووالدك ، اختطفنا هذا الطفل الصغير ، الذي كنته ، انت ياشيبيكو . عشرون عاما انقضت على هذا الحادث ، وما زلت حتى الآن ، كلما تذكرت تلك اللحظة ،أشعر بخفقان عنيف في قلبي . شيبيكو ، انظري ، ما أشد خفقان قلبي .

ـ اماه ، قولي ، أما كنت طفلة مهجورة ؟

ـ ليس هذا صحيحا ، ليس هذا صحيحا ! » وهزت الأم رأسها ، هزاً عنيفا ، لم يكن من عاداتها .

« كل امرىء ، يرتكب ، في حياته ، مرة او مرتين ، عملا مريعا ، سيئا ، تابعت الأم . سرقة طفل ! هي أسوأ من سرقة المال ، أسوأ من سرقة أيشيء آخر ، بل هي أمر وأدهى . بل لعلها أسوأ من القتل ايضا ...

ـ ...

ـ لاريب ، ان والديك قد عانيا من الآلام ، ما ذهب برشدهما . حتى الآن، كلما فكرت بالأمر ، أشعر كأنني أهم ان اردك اليهما ، ولكنني ، لا استطيع . اما اذا كنت ، انت تودين ، ان تبحثي عن والديك وترغبينفي الانضمام اليهما، فعندئذ ، نعجز نحن عن الحيلولة دونك .. الا ان الأم ، التي هي أنا ، سوف تموت كمدا ...

ـ أماه ، ارجوك ، لاتتفوهي بمثل هذه العبارات . ان شيبيكو ، ليس لها من أم سواك . فأنا ، بهذه الفكرة نشأت .

ـ اعلم ذلك ، ولهذا السبب ، يزداد اثمنا فداحة . أن نمضي الى جهنم ، انا وابوك ، ذلك ما ارتضيناه. وما قيمة جهنم ما دمنا مع فتاة ، بمثل هذا اللطف ؟ »

كانت تنظر الى امها ، ذات الصوت الحاد ، التي اخذت الدموع تسيل على

خديها ، وكذلك ، شييكو ، فقد احست انها هي الأخرى ، على وشك البكاء

« اماه ، ارجوك ، قولي الحقيقة ٠ هل انا فتاة مهجورة ؟

ـ كلا ، ابدا ، اني أقول لك ، ان هذا ، ليس صحيحا ٠٠٠ وهزت رأسها من جديد ٠ لماذا تريدين ، مهما كلف الأمر ، أن تكوني فتاة مهجورة ؟

ـ ان تكونا ، انت وابي ، اهلا لسرقة ولد ،فهذا مالا أستطيع تصديقه٠

ـ يرتكب المرء في حياته ، مرة أو اكثر ، عملا مريعا ، سيئاً ، تتقزز منه النفس ٠ ألم أقل لك هذا ، منذ برهة؟

ـ ومن أين اختطفتماني ؟

ـ من حديقة معبد (جيبون) ، في ذات ليلة ، كانت فيها اشجار الكرز المزهرة ، متلألئة ، اجابت الأم ، دون تردد ٠ أعتقد أني قصصت عليك هذا٠ على مقعد ، تحت الأشجار المزهرة ، كان مستلقياً،طفل جميل ، لطيف الوجه، ينظر الينا باسماً ، كأنما هو زهرة ٠ فكيف نتمالك ، فلا نحمله بين ايدينا ؟ وما ان حملته ، حتى أحسست بغصة في قلبي ، فلم يعد بامكاني ان أتخلى عنه ٠ فقبلت وجنتيه ونظرت الى ابيك:

« شيج ، قال لي ، خذي هذا الولد ، وهيا بنا ! »

ـ ماذا ؟ ـ اسرعي ، ياشيج ، هيا بنا ! » ان ما حدث بعد ذلك ، كان أشبه بحلم ٠ أظن اننا قفزنا الى مركبة، قرب مطعم (هيرانو) الشهير بحسائه بالسمك ٠٠٠

ـ ٠٠٠

ـ لا شك ان أمك قد تغيبت ، برهة وجيزة ، وفي هذه الاثناء ، حدث ما حدث ٠ »

حكاية امها ، لم تكن بعيدة عن التصديق ٠

« هو القدر ٠٠٠ منذ ذلك الحين ، غدت شييكو ، ابنتنا ، عشرون عاما تقضت ، أليس كذلك ؟ أهذا لحسن حظك أم لنحسك ، منيدري ؟ حتى وان كان هذا لحسن حظك ، فاني ،من اعماق قلبي ، أضم يدي الى بعضهما ، طالبة العفو عني ٠ وكذلك ابوك ، على ما اعتقد ٠

ـ كان هذا لحظي ، يا اماه ، كان خيراً لي ، اني واثقة ٠ » قالت شييكو وهي تشد على عينيها براحتيها ٠

سواء أكانت شييكو ، فتاة مهجورة ، أو فتاة لقيطة ، فهي مسجلة ، في سجل

الأحوال المدنية ، ابنة شرعية ، لأسرة (ساتا) .

حين عرفت شييكو ، لأول مرة ، من والديها ، أنها ليستابنتهما الشرعية، لم تدرك مرادهما . هـذا ما حدث ، عند بـدء دخولها المدرسة الثانوية ، وقـد تساءلت اذ ذاك ، ان لم يكـن هذان الوالدان قد باحـا لها بهـذا السر ، لانهما أقلعا عن حبهما لها .

لا شك ، انهما باحا لشييكو بهـذا السر ، لخوفهما من الاطـلاع عليه ، عن طريق الجيران . وكانا ، كذلك ، واثقين،من المحبة التي تضمرها لهما، وقد بلغت سن الادراك .

كانت شييكو ، قد فوجئت ، بكل تأكيد الا أنها لم تكتئب . ورغم أنها في سنالشباب ، لمتتألم.فالمحبة والحنان اللتان تكنهما لكل من شيبج وتاكيشيرو لم يطرأ عليهما أقل تبدل ، كما أنها لم تكن في حاجة الى بذل الجهد ، حتى لا تفكر في هـذه القضية . لعل هـذا الخلق،كان من جبلة شييكووطبيعتها.

ولكن ، انلم تكن هي ابنة حقيقية لهما ، فان والديها الحقيقيين ، يجب أن يكونا في مكان ما . ومن الممكن ، انيكون لها اخوة وأخوات ؟ وفكرت:

« كلا ، لا أطمح الى التعرفعليهم. أليست حياتهـم ، دون ريب ، أشق وأقسى من حياتي ؟ » .

ظل هذا أيضا ، في نظرها ، غامضا جدا . بل هـذا ما كان مصدر شقاء والديهـا ، الذي يحـز في قلبها ، في أعماق هذا المخزن الطويل ، بشباكه القديـم .

وحـين ضغطت وهـي في المطبـخ راحتيها الاثنتين على عينيها . كانذلك هو هذا الشقاء .

« شييكو » وضعت الأم يدها عـلى كتف الفتاة وهزتها برفق .

« أتريدين ، أن لا تعودي بعدالآن الى طلب التحدث عن الماضي ؟ فمتى وأين ، في هـذا العالـم يهبط علينا الكنز ؟ لا أحد يدري .

ــ كنز . كنز غريب . لو كـان بالمستطاع ، صنع خاتـم منـه لك ، ياأماه !» وراحت تعمل بجد ورزانة.

عقب تناول العشاء ورفع الاواني عن المائدة ، انسحبت كـل من شييكو وأمها الى غرف الطابق الأول .

في الطابق الاول ، في القسمالمشرف

على الشارع ، بنافذته ، ذات الشعرية الناعمة ، والسقف المنخفض ، غرفة منخفضة ، بسيطة ، يقيم فيهما المستخدمون الشبان • وكان المجاز المؤدي الى الحديقة الداخلية ، يتصل بالغرف القائمة في صدر البناء•وكان من الممكن ، الصعود اليها كذلك ،من المخزن ، أما الزبن المختارون ، فكانوا يصعدون الى الطابق الاول ، حيث يستقبلون باكرام وتقدم لهم فروض الضيافة • أما الآن ، فالاعمال التجارية ، يكتفى باجرائها واتمامها مع أكثر الزبن ، في غرفة الاستقبال المفتوحة على الحديقة الداخلية ، في الطابق الأرضي • «غرفة الاستقبال» تسمية مضحكة ، مع أن الاقمشة،التي ضاقت بها الرفوف ، مكومة فيجوانبها من كل الجهات • وبما أنها عميقة وعريضة،فهي مناسبة لعرض الأقمشة، بكل ماهي عليه من الطول • لقد مدت فيها ، حصيرة من النخيل الهندي ،على طول أيام السنة •

فيما وراء المخزن ، في الطابق الأول كان السقف أعلى ، بيد أن الغرفتين، وفي كل منهما ست حصر ، كانتا معدتين للجلوس وللنوم • احداهما لشييكو والاخرى لأبيها وأمها • جلست شييكو أمام مرآتها ونشرت شعرها • ما أكثر ما ظل هذا الشعر الطويل ، مرصوصاً ومرتباً •

« أماه » نادت شييكو من وراء الحاجز •

كم كان في هذا الصوت من أفكار كامنة •

مدخل الى
الأدب السويدي المعاصر

ترجمة : سعد صائب

منحت جائزة «نوبل» للآداب هذا العام للكاتبين السويديين ايفند جونسون وهاري مارتنسون • وتعتبر أشهر مؤلفات جونسون رباعية سيرتـه الذاتية المنشورة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ تحت عنوان « رواية عن اولاف » • ولعل أهم أو أشهر أعمال مارتنسون قصيدته القصصية الطويلة «اينارا»• وقد أخرجت للمسرح وأصبحت أول اوبرا عن عصر الفضاء • وقد رشحت الأكاديمية السويدية ايفند جونسون ، البالغ من العمر ٧٤ عاماً « لفنه القصصي ، ونفاذ بصيرته في شتى البلاد والعصور ، ولحرصه على خدمة الحرية » •

أما هاري مارتنسون وهو شاعر في السبعين من عمره فقد أشادت بـه الأكاديمية « لكتاباته الرقيقة كقطرات الندى ، ولانها تعكس جمال الكون ••• »

وريثما نتمكن من تقديم نماذج من أدب هـذين الكاتبين ، نعرض في هـذه الدراسة للأدب السويدي المعاصر عموماً كي تكون لدينا فكرة صحيحة عنه ما أمكن ذلك •

توضح لنا دراسة المكتبة في التسعينيات من القرن التاسع عشر ، أن الآثار الرئيسية لعقده الأخير ، تبدو وكانهـا تستوي عـلى غارب موجتين :

استوت في الموجة الاولى في نحو عام ١٨٩٠ ، وفي الثانية في نحو عام ١٨٩٥ ، وان العام الاخير من هذا العقد ، ليدلنا اليوم على أن أدباءنا ناوا عن الرومانسية القومية ، كيما يكرسوا انفسهم لدراسة نفسية أكثر تغلغلا في النفس الانسانية ، رامين الى البحث عن أسلوب لهم ، يذكرنا بالاسلوب الذي انتهجته الرمزية الاوروبية !•

فهذا «پرهالستروم Per Hallström » على سبيل المثال ، وقـد كان أعمق ثقافة ، وأشـد أوروبية بـين أدبـاء العقد الأخـير (١٨٩٠ – ١٩٠٠) ينشر عام ١٨٩٥ ثلاثة آثـار له •• وثمة أديب آخـر هو « جالمار سودربـرغ Hjalmar Söderberg » الذي كان مثقفـاً وأوربياً بدوره ، يستهل النشر في العام نفسه ، متخذاً في الأدب موقفاً

اجتماعيا ساخراً ، وبدهـي أن هـذا الموقف ـ بالقياس الى العصر ـ لم يكن جديداً كل الجدة ، بيد أن « سودربرغ » مضى به في خفة ورشاقة ، عارضة لنا منذ اثره الاول «غوايات Egarments » (١٨٩٥) نموذجاً ظل نسيج وحـده في السويد ، وهـذا الاديب الشارد الحالم، فاقد الارادة ، ذو الميول الارستقراطية، بـدا وكانه يجوز الوجـود ، دون أن يلتزم صراعاته ، فكان الفاعلية كانت تعوزه ، بيد أنه كاديب ، وشارح ذكي فطن ، قد وحّد في نموذجه بين الحساسية المرهفة والتشاؤمية ، ولعل قوله في احدى مسرحياته : « أنا مؤمن برغبة الجسد ، وبعزلة الروح المزمنة » هو الجواب الشهير الذي في ميسوره أداء الفكرة التي بنى عليها كافـة انتاجه ، وفي وسعنا التعرف ان لم يكن على الالفاظ ، فعلى النبرة في قوله كذلك : « واحسرتاه ، كلما أمعنت في قـراءة الكتب ، تألم جسدي ، واستثيرت كوامن شجنه » مما يدل على أن « سودربرغ » يرتبط ارتباطـاً مباشراً بندوات الرمزيين ، بعد أن عـرف مبكـراً « مـالارميه (١) » و « فرلين » (٢) كما استسلم بجـلاء لتاثـير «أناتول فرانس» (٣) و «أندريـه جيد» (٤) فقدم للجمهـور السويـدي الأدب الفرنسي ، وأضحى هـذا الأدب ، خاصة مـن خصائصه المميّزة !٠٠

وكيف دار الامر فان رائعة « سودربرغ » « شباب مارتان بـيرك » (١٩٠١) تبـدو لنا وكانها نسخة طبق الأصل الى حد مـا ، عن سيرة الكاتب الذاتية ، اذ نرى البطل «مارتان بيرك» ينشا في أسرة بورجوازية ، ويتربى وفق الافكار الاخلاقية والدينية التي ورثهـا عن أسلافه ، بيد أنه يمضي مكافحاً ، في سبيل

---

(١) ستيفان مالارميه : شاعر فرنسي ، ولد في باريس عام ١٨٤٢ وتوفي عام ١٨٩٨ كان رائداً للحركة الرمزية ، أبان عن فكرته في لغة دقيقة ، تحمل ألفاظها من الموسيقا ، أكثر مما تحمل من المعنى ٠

(٢) بول فرلين : شاعر فرنسي ، ولـد في ميتز Metz عام ١٨٤٤ عاش حياة قلقة شفافـة ، عبـر عنهـا شعره في غنائية موسيقية ، مـلأى بالموهبـة ، زاخـرة بالايحاء ، متناهية في الدقـة والبيان ، بدا فيها متعارضاً مع الشعر ، وقد أثر في المدرسة الرمزية تأثيراً مرموقاً ٠

(٣) أناتول فرانس : كاتب فرنسي ولـد في باريس عام ١٨٤٤ وتوفي عام ١٩٢٤ وعلى الرغم من أنـه كان منكراً في الشكوكية الكلية Scepticisme Universel فقد أشفق على الالم ٠٠ ترك آثاراً ذات تعبير ساخر دقيق ، في أسلوب مغرق في الكلاسيكية٠

(٤) أندريه جيد : كاتب فرنسي ، ولـد في باريس عام ١٨٦٩ وتوفي عـام ١٩٥١ ، تكشف آثـاره عن صدقه في البحث عـن السعـادة والحقيقة ، وزرايته بالنظـم الاخلاقية المألوفة ورفضه المطلق للالتزام٠

الانعتاق من هـذه الافكار ، وكانت حصيلة جهوده ، عدمية Nihilisme فيها ما يكفيها من الحزن والألم !.

وهكذا فان روايـة «شباب مارتان بيرك» شانهـا شان بقية آثـار «سودربرغ» ليست سلبية محضة ، بل انهـا لتشهد له باخلاص طاغ ، وحماسة لا تكل ، للاطاحة بالاعراف، المبنية على الكسل الفكري والخمول ، وهـو بهـذا الصنيع يشبه «ستراندبرغ» اذ راح «سودربرغ» يشن بدوره الحرب عـلى آلهـة اوروبا ، بيد أن أسلحته اختلفت عن أسلحة « ستراندبرغ » لا لأنه استعمل هراوة ، بل لانـه استخدم خنجـراً .. ان شباب مارتان بيرك شباب مضني ، يكافح من اجل ارتيابيته Scepticisme ، ويناضل في سبيل حقـه في أن يفكر ، وحقه في أن يبين عن فكرته من جهة ، وحقه كذلك في أن يخالف اسلافه فيما فكروا ، أو أبانوا عـن فكرتهم مـن جهـة أخـرى ، وتلك ولا ريب هـي الصورة التي عرضتها لنا روايته « شباب مارتان بيرك » تلك الرواية التي عرف فيهـا الشباب نفسه معرفة حقة نحو عام ١٩٠٠ ، ثم لم تلبث أن امست لتوها ، الوجهالكلاسيكي ، الذي أدى الدور نفسه كما أدته الروايات التيسبقتها مثل « فرتر » للشاعر الالماني « غوته » (٥) و «رينيه» للكاتب الفرنسي «شاتوبريان»(٦) و « تونيو كروجر »(٧) نعني أنها استخدمت نموذجا لجيل باكمله !..

ناهيك عن أن « سودربرغ » مضى يقارع المسيحية بلا هوادة أو لين ، وقد استلهمهذه الروح ، في أثر له ثان يعد من أهم آثاره الادبية ، نعني روايته « الدكتور غلاس » التي صدرت عام ١٩٠٥ وقد خضعت فيهـا القضية الدينية لمنطق أخلاقي نافذ ، ثممالبث أن باغتنا بعد لأي بنقـد للمسيحية ضمّنه سلسلة مـن الدراسات ، تناولت تاريـخ الديانات !.

ويبدو أن هذا الفكر النضالي ، وهـذا

(٥) غوته : أشهر الكتّاب والشعراء الألمان، ولد في فرنكفورت عام ١٧٤٩ وتوفي عام ١٨٣٤ ، وحدت عبقريته الشاملة ، عمق الفكرة بخصب الخيال ، فأتاحت له أن يتخطى في تأثير متعادل ، جميـع الانواع Genres والاشكال Manières ترك آثاراً أدبية جمـة ، أهمهـا : فوست Fauste (نقلها الى العربية الدكتور محمد عوض محمد) « وفرتر » عرّبها أحمـد حسن الزيات بعنوان « آلام فرتر ») .

(٦) فرانسوا رينيـه دوشاتوبريان : كـاتب فرنسي ، ولد في سان ـ مالو عام ١٧٦٨ وتوفي عام ١٨٤٨ سافر الى أمريكا وعاد منها عند اندلاع الثورة الفرنسية ، ثم هاجر الى انكلترا وعاش فيها حتى عام ١٨٠٠ ، تجلت شهرته الادبية في آثـار جمة أهمها : «عبقرية المسيحية» (١٨٠٢) و « أتالا » و « رينيه » و « الشهداء » (١٨٠٩) بيد أن أروع آثارهكان «مذكرات فيما وراء القبر » وهي يوميات منحياته مشبوبة العاطفة .

(٧) لم نعثر فيما لدينا من مصادر على اسم لمؤلف هذه الرواية .

الشغف بالحقيقة ، قد أتاحا « لسودربرغ » أن يظل زاخـرا بالحيـاة ، بالقياس الى السويديين ، كما ظـل « أناتـول فرانس » زاخراً بها بالقياس الى الفرنسيين وما ذلك الا بفضل لغته الرصينة الصافية ، وجزالة أسلوبه ، الذي يعد اليوم أسلوباً كلاسيكياً مننحو ، وبفضل وضوح تجربته ، ودقةتحليله النفسي ، اللذان مكناه منالارتباط بالتقاليد الادبية الفرنسية من نحو آخر .!

ولعل رائعة « سودربرغ » التي ضمت مجموعة قصصية أسماها « حكايات صغيرة » وصدرت عام ١٨٩٨ لـم تكن مستلهمة مـن «موباسان» (٨) فحسب ، بل اعتبرت كذلك أثراً من الآثـار الأدبية السويدية النادرة ، التي تدعمهـا مقارنتها بالنموذج الـذي استلهمته واستوحت منه .!

لقد أضحى « سودربرغ » وشيكا ، معلم الادباء كافة ، ولعل السيكلوجية الحديثة ، والجمالية المفناج ، وأصداء « بودلير » (٩) و « فرلين » هي السمات التي ميزت تلامذته، وتلك لعمري نهاية عصر متاخر عملت عـلى ظهور هذا الاسلوب في الأدب السويدي ، وانه لأسلوب حياة منهارة ، متوانية بعضالشيء، كوّن كما هـو مفروض ، جانبا من لوحة ، وافضى الى دواوين شعرية جمة ظهرت خلال عام ١٩٠٠ و ١٩١٠ ، تميزت كلها بالشكل

(٨) غي دوموباسان : كاتب فرنسي ولد في « شاتوميرومسنيل
Chateau de la Miromesnil
عام ١٨٠٥ وتوفي عـام ١٨٩٣ ، اسلوبه في كتاباتـه بسيط ، واضح ، غايـة في الواقعية . كتب روايات جمة أهمها : « صديق وسيم Bel Amri و « قـوي كالموت « Fort Comme la mort و«قلبنا « Une vie » و « حيـاة »و Notre Cœur و « بطـرس وجنـا Pierre et Jean » كما ألف قصصاً وأقاصيص جمة رائعة .

(٩) شارل بودلير : شاعر فرنسي ، ولد في باريس عام ١٨٢١ وتوفي في عام ١٨٦٧. عاش حياة بوهيمية شبه بائسة ، وقـد عكف على نقل آثار ادغاربو الى الفرنسية فترجمها ترجمة أمينة ، كما الف «قصائد نثرية صغيرة » حلوة و « طرف جمالية من الفن الرومانسي » وهي عبارة عـن مقـالات نقديـة عنيفة ، هاجـم فيهـا الرومانسية ، بيد أنه ظل قبل كل شيء شاعر « أزهـار الشر » وهـو ديوانه الشعري الوحيد ، الذي صدر عام ١٨٥٧ فاشتهر به ، واضحى في طليعة الشعراء الفرنسيين ، ولقد كـان لهـذا الديوان الفذ ، تأثيره البالغ على الشعراء ، حتى قال عنه « فيكتور هيغو » : « لقد أحدث هـذا الديوان رعشة جديـدة في الشعر الفرنسي » ، ولعل عظمته لم تكن نابعة من غنى صوره المدهشة ، أو من عذوبة البساطة المتجلية في تجربته ، أو من حدة الاحاسيس المعبرة فيه فحسب ، بل مـن منبع الالهام نفسه،وادراكه الفن الرفيع، واصالة موسيقاه الأخاذة كذلك .

المرهف ، والموقف الملول ، والشكوكية ، والسخرية التي شد ما نعثر عليها لدن « سودربرغ » كما ندركها في يسر وسهولة لدن منافسيه من شعرائنا الشباب !٠

★ ★ ★

تلك هي بداية الادب السويدي في مستهل القرن العشرين ، بيد أن النبرة ما لبثت ان تغيرت في عام ١٩١٠ ، اذ أن الادباء الذين استهلوا نتاجهم نحو عام ١٩١٠ بدواوين من الشعر المنحط(١٠) امسوا ارتداديين بعد أن نذروا انفسهم لفن جديد في « الرواية ـ النهر (١١) » التي شد ما كانت تتصل بالانساب Généalogique من نحو ، كما اعتنقوا نموذجا جديداً من نحو آخر ، اما اليوم فهم ـ في الواقع ـ يحفون بكلمات مثل: واقع ، وواجب ، وعمل ، وحياة ، والايام كافة ، عازمون عزماً أكيداً على توحيدها !٠

ولقد طرحت هذه الكلمات ، وكانها زاخرة بالاحتجاجات ضد أدب العقد الاخير الذي أسلفنا الاشارة اليه ، وفي مقدورنا جميعاً التاكد من هويتها ، شانها شان الاسقاط التحويري الوضعي (١٢) لكل مايتيحه الموقف المتبطل من سلبية ٠٠ فالادباء الذين عانوا خلال شبابهم من تاثير « سودربرغ » ثم حاودا اليوم عن منهجه ، يوشكون أن ينتموا كلهم الى البورجوازية الناعمة المرفهة وهذه البورجوازية ، هي النموذج الذي نستشفه من روايات هذا العصر ، التي طبعت بطابع الروائيين « غوستاف هللستروم » و « لوب نوردستروم » و « ايلان فاغنر » و « سفن ليدمن » و « سيغفريد سيفرتز » بيد أن ثمة أديبين ليس في مقدورنا تصنيفهما تواً في عداد أية فئة من تلك الفئات على الرغم من خضوعهما في بداية الامر ، لتطور شبيه بالتطور الذي خضع له « ولهلم اكولند » مؤلف «أقوال ماثورة » أو التطور الذي أذعن له « يالمار برغمان » ، إذ استهل « أكولند » آثره بشعر حزين ذكي ، انتهج فيه أسلوب «فرلين» ثم ما عتم منذ عام ١٩١٠ ٠ وما تلاه أن اعتنق مثالا اغريقيا امتاز بالصفاء والايقاع ، عرضه فيما يقرب من عشرين مجموعة من مجموعاته في الاقوال الماثورة !٠ اما « برغمان » فقد استهل آثاره بدراسات نفسية مرهفة ، ادت الى قيامه ـ عقب عام ١٩١٠ ـ بدور المعلم في الرواية الواقعية ، كما اتصفت سلسلته الروائية الطويلة بدورها بالمهارة

(١٠) لعل الكاتب يعني مدرسة ماقبل الرمزية وهي المدرسة الشعرية التي ظهرت في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر، وكان من روادها بودلير ومالارميه ٠

(١١) الرواية ـ النهر : قصة طويلة تستعرض حياة أسرة بأجيالها ٠

(١٢) الاسقاط التحويري : عملية يعزو بها الفرد الى سواه مواطفه ودوافعه الخاصة ٠

البلزاكية(١٣) والوصف الدقيق ، قبل ان يسيطر عليه حب المال !٠

ولا يخالجنا شك في ان تصوير الطبيعة ، والبيئة الاصلية الذي ابتدعه « برغمان » في رواياته ، كا نخاصة من خصائصه المميزة ، إذ نراه يستعيد في هذا التصوير حقول المناجم، الكائنة وسط السويد ، بيد ان الشخصيات التي حركها فيها ، كانت اشبه بالارستقراطية الخصبة التي نعثر عليها في قصته الكئيبة الجميلة « وصية صاحب السمو » (١٩١٠) وان البخلاء العاطفيين في قصته « ماركورليون من آدكوبانغ » (١٩١٠) أو الفنانين المجانين الماساويين في قصته « المهرج جاك » (١٩٣٠) هم قبل أي شيء آخر من مبتدعاته ٠ ومن عجب أنه يكرر هذه النماذج في كافة اقاصيصه ، قصة تلو قصة ، فحينا نراها وكانها شخصيات رئيسية ، وحينا تبدو لنا وكانها صور ثانوية، بيد أننا اذا ما اخذناها جملة ، نراها تؤلف وحدة من مخلوقات أصيلة أسطورية ، خلابة بغرابتها ، وكأن الادب السويدي لم يعهد لها مثيلا قط ٠

لا جدال في أن هذا الكاتب روائي قبل كل شيء ، بيد انه الف كذلك للمسرح ، إذ أعد له روايتيه « وصية صاحب السمو » و « ماركورليون من ادكوبانغ » كما ابتدع مع « القفازات البيض » (١٩٢٥) مسرحية عن العبقرية والرشاقة ، والقضايا الخاسرة ،فخلق بذلك ضربا من الملهاة الشعبية السويدية !٠

★ ★ ★

أما الادباء الآخرون الذين اطلقنا عليهم من قبل اسم (جيل ١٩١٠) فلهم بدورهم بالقياس الى فاعليتهم مؤلفات هامة ، تحتل مكان الصدارة أحيانا ، وان بعضا من رواياتهم، في ميسورنا النظر اليها اليوم ، باعتبارها آثاراً كلاسيكية سويدية ، وتلك حال نعثر عليها في روايات كرواية « السلمبيون Les Selambs » (١٩٢٠) » لسورتز Siwertz »ورواية «للكهولم صانع القياطين فكرة « Le Passementier LeKhom a une idée » (١٩٢٧) » لهلستروم Hellström » وهما روايتان تتناولان السلالات ، حيث يكون التطور الاجتماعي الحديث والازمات الاقتصادية موضوع حبكتيهما !٠

أما رواية « تجار ومحاربون » (١٩١١) وهو الاسم الذي أطلق على احدى روايات « سفن ليدمن » التي طبعت في الحقبة نفسها،

(١٣) نسبة الى : هونوريه دوبلزاك وهو روائي فرنسي ولد في تور عام ١٧٩٩ وتوفي عام ١٨٥٠ من أهم آثاره « الكوميديا الانسانية » وهي ذات تأثير خصب ، كما الف سلسلة من الروايات الرائعة ، على الرغم من بعض العيوب الذي يشوب أسلوبها ، لما يبديه الكاتب من قوة ملاحظة ، إذ يدع احساسه يستحوذ على الواقع الذي يصوره ، ويترك غنى هذا الاحساس يطغى على الاخيلة التي يبدعها، ولقد أجمع دارسوه على أنه باعث عصره في آثاره ٠

فينبىء عنوانها اليوم ، بعالم صلب عنيد ، برجوازي ، تهيمن عليه نجوم المجتمع » !•

أما « لوب نوردستروم » و «الن فاغنر» فقد كتبا سلسلة تحقيقيات اجتماعية وانسانية غاية في الاثارة •• تناول « نوردستروم » في تحقيقاته، مقاطعته الواقعة شمال السويد ، منوهة بصناعتها المتصلة بالغابات ، وقد ضمنها روايته المرحة « المشرد الريفي » (١٩١١) كما كتب « فاغنر » حول البيئات الريفية في الجنوب ، وادمجها في روايته « آسا ـ حنا » (١٩١٨) !•

وجدير بنا أن نسلك في هذه الفئة كذلك الشاعر « اندرس أوسترلنغ » الذي لم يتخل كما تخلى سواه من شعراء جيله ، عن الشكل الغنائي في التعبير ، ولعل الاثارات التي احدثتها أولى آثاره قد أخلت له ـ عقب عام ١٩١٠ ـ مكانا في الغنائية الاكثر واقعية ، والاعمق فلسفة ، ولاسيما وان صلاته بالروائيين الذين أتينا على ذكرهم ، كانت غاية في الوضوح والجلاء !•

★ ★ ★

إن المدرستين اللتين نوهنا بهما حتى الآن، نعني مدرسة سودربرغ ، ومدرسة الرواية الواقعية ، تكوّنان همزة وصل ، بين الاعوام التسعين من القرن التاسع عشر ، وما بعد الحرب العالمية الاولى ، التي المعنا اليها ،اي نحو عام ١٩١٠ وهو العام الذي تم فيه الانقطاع بين الاتجاهين ، إذ هبت على أدب تلك الحقبة ردحاً من الزمن ، ريح هوجاء بعد ان اضحى « بارس »(١٤) في فرنسا المبشر بالوطنية وعبادة القوة ، إثر شنه الحرب على روح الانحلال ، التي كانت ـ بالقياس اليه ـ توصف بها ما بعد الرمزية ـ وهجر « توماس مان »(١٥) في المانيا ، روايته التحليلية ، ميمما وجهه شطر الرواية البورجوازية الكبرى، متاثرا بالمثل العليا الجديدة وبرز في انكلترا شعراء الامبراطورية الذين راحوا يطالبون بيقظة قوميـــة !•

وهذا التغيير في الاتجاه ، الذي طرأ على الادب الاوروبي في نحو عام ١٩١٠ ، التي المعنا اليه ، قد شمل بدوره أدباءنا ، بعد أن اوبد الجو واحسسنا أننا نقترب من الحرب العالمية الاولى !•

أما أعوام الحرب هذه ، التي امتدت مابين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فقد وهبت للأدب السويدي ثلاثة أمور :

١ ـ انسجام اجتماعي جديد •

---

(١٤) موريس بارس : أديب فرنسي ولد في شارم في جبال الفوج عام ١٨٦٢ وتوفي عام ١٩٢٣ عرف بتحليله البارع ، وكتابته في الغنائية الرقيمة ، وانتقاله من عبادة الأنا ، الى عبادة الارض والموتى ، وكان عضواً بارزاً من أعضاء الاكاديمية الفرنسية •

(١٥) توماس مان : روائي الماني ولد في لوبك عام ١٨٧٥ وتوفي عام ١٩٥٥ ترك آثاراً أدبية جمة منها روايته : أسرة بودنبروك والجبل السحري ، والدكتور فوست وقد حاز على جائزة نوبل عام ١٩٢٧ •

٢ ، موضوع جديد •

٣ أدب جديد •

ناهيك عن ان هذه الحرب عجلت باحداث تغييرات اجتماعية ، فالمجتمع الذي كان معرضاً من قبل لأزمات لا حصر لها ، خلال حقبة امتدت من مئة الى مئة وخمسة وعشرين عاماً ، عاود تذبذبه واستانف حيرته ، واضحت الطبقة الكادحة ، عاملا سياسياً مهماً فادى ظهورهـا في الوقت نفسه ، الى بروز ما يقرب من عشرين أديباً عمالياً مضوا يطبعون الادب السـويدي المعاصر بطابعهم !•

ولقد تجسدت هذه القاعدة العمالية فشملت أعداداً جمة من القراء ، أكثر ممـا تجسدت في الأدباء أنفسهم ، أما الحافز الجديد الذي ابتعثته الحرب ، فهو ذلك الانسان المعتزل المعذب بوحدته ، المبتلى بقلقه الذي شد ما أضحى غير ذي نفع ، فراح يلوب باحثاً عـن خلاصـه ، إما في الديانة والتصـوف ، او في المشاركة الاجتماعية !•

أما الاديب الجديد الذي كون مدرسة ، وبز تماماً أدباء العقد الاول من القرن العشرين ممن تقدموه ، فقد كان « پارلاجيركفيست » وهو أول أديب سويدي تحدث بلغة العصر المتنافرة النغمة ، واول أديب كيف شكل آثاره حسب مضمونها الشـاذ المشوش ، فاغوى باسلوبـه المحطم ، وتعبيره ، سـواه من الادبـاء !• ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن ما يفصل الاجيال عن بعضها في السويد ، كما في بقية أرجاء أوروبا يتجلى في تجربة ـ او جهل ـ الاحداث المثيرة ، وفي وسعنا على ضوء هـذه التجربة ـ أو الجهل ـ أن نميز دون ما حاجة الى براعة ، بين جيل الحرب العالمية الاولى ، وجيل ما بين الحربين ، وبين جيل ندعوه بجيل الاربعينيات ، ونعني به جيل الحرب العالميـة الثانية ، ولئن استطاع الاديب في هذا الجيل أن يدنو من الواقعية ، أو يهرب منها ، فقد عجز عن تجاهل أعمال مذابح « المارن » أو « فـيردان » و « أوشـويتز » او ضحايـا «هيروشيما» أما الاديب الذي كون ابلغ انطباع عن احدى هذه المذابح التي تراكمت فيهـا الاهوال ، فهو پار لاجركفيست » وتلك احدى الحقائق التي أضحى « لاجركفيست» بسببها أحد زعماء الكتاب في الادب السويدي المعاصر كما أمسى أثره ، نقطة التقاء ، لمختلف التيارات الادبية والفنية السويدية في القرن العشرين!•

ظهرت أولى مجموعات « پار لاجركفيست » الشعرية المسماة « قلق » عام ١٩١٦ ، وبعد نشرها بثلاثة أعـوام ، أصدر ديواناً شعرياً صغيراً ومن ثم مقطوعات ماساوية وملحمية بعنوان « هباء « وفي هاتين المجموعتين يرنـو « پار لاجركفيست » الى عصره ، طارحا السؤال عمـا اذا كان في ميسورنا العثـور على معنى لحياة كهذه الحيـاة ، التي اشـتدت وطاة فوضاها ، واستحوذ عليها القلق ، بيد انه لا يحظى بجواب وهذا السؤال الذي طرحه، لا يبدو على شاكلة السؤال الذي طرحه في مسرحيته « سر السماء » تلك المسرحية العجيبة ذات الفصل الواحد ، التي تؤلف جزءا من ديوانه « هباء » إذ طرحه على النحو التالي :

« إن معنى كل شيء ، معنى كل شيء اننا ... اننا ... اننا ندور في حلقة مفرغة ، بلى : اننا ندور في حلقة مفرغة ، وعلينا أن ندور كلنا في حلقة مفرغة هكذا كتب علينا وهنا يتجلى معنى كل شيء . » .. أتراه الاله نفسه ، هو الذي ينطق بهذه الكلمات ، وهو الذي يلتزم وعي ما ينطق به ؟!.

إن « پار لاجركفيست » ليبدو لنا في هذه المأساة الصغيرة ، المعنة في كثافتها ،وكأنه قد أذعن في هذا العصر لنفوذ المسرح الالماني التعبيري وان هذه المأساة ـ على ضوء الوساطة التي نجمت عنها الهواجس الستراندبرجية التي اعتورتها ـ مثلت على مسرح محدب يصور جانباً من الكرة الارضية ولم تكن أشخاصها أسماء قط ، حسبها أنها تدعى « الرجل » ، « المرأة » ، « الطفل » وهكذا دواليك ، أما الحرب والنكبات المتشابهة ، فقد رمز اليهـا اختصاراً ، بامرأة لا تبرح جالسة ، لائـذة بصمتها ، ممسكة ملقطاً تجز به رؤوس جنود من الرصاص ، أما الاله الأب فيبدو في خلفية المشهد ، شيخاً هماً ، ينشر الخشب نشراً رتيباً، لأنه الشخص الوحيد الذي عرف سر السماء: بيد أنه ما ان يهم بالكلام كيما يفض لنا هذا السر في نهاية الامر ، حتى نراه يعتمد على الصيغة التي نهم بتلاوتها !.

ولن يساورنا العجب إما أبصرنا الشخصية الرئيسية في المشهد الأخير ، وهي تلقي بنفسها في الفراغ .. حسبها أنها خدعت نفسها بهذا الكوكب الذي انتابته الحيرة ، فهجرت هـذه الارض الحزينة ، هذه الارض التي كانت لديها اجابات في غايـة اليسر ، كيمـا تجيب بها الانسـان !.

وكيف دار الامر ففي ميسورنا أن نغض الطرف عن الجانب المتكلف في هـذه المسرحية ، ولعل مما هو هام ومعبر ، ان ثمة فكرة تسيرها: فكرة حياة ، ليس لها معنى من نحو ، وليس لديها إله يستجيب لها من نحو آخر ولقـد ميزت هذه البساطة في الفكرة ، كل آثـار « پار لاجركفيست » إذ نراه يبدو فيها متخلياً عن الماساوي ، في سبيل البحث عن القيم الوضعية Valeurs Positives التـي يستحق مـن أجلها عناء الحياة ، بيد أن مخططها الاصلي ، يظل دوماً ثمة وكانه موضوع غامض ، ولشد ما يقع فعل رواياته في عالم ما فوق الواقـع وخارج حدود الزمن أمـا شخصياتها فتنوء بافكـار قابلـة للانفجار ، لأن ما عنـــاه « لاجركفيست » ليس البتة انساناً ما ، شريفاً كان أو فاجراً ، بل عنى الانسان بعامة عنى مكانه الذي يضطرب فيه فوق الارض ... هكذا يتجلى لنا هـذا الكاتب في مسرحيته ، سامقاً بعصابيته القلقلة المحتدمة ، معانقاً ايماناً بالحياة ، مثيراً للعواطف بيد أنه مالبث بعد عام ١٩٣١ ـ وفي أزمان تقصر أو تطول ـ أن مضى مجسداً هـذا الايمان في منهج سياسي ارتضـاه لنفسه ضمنه روايتيـه « الجلاد » ١٩٣٣) و « القزم » (١٩٤٤) . وهاتان الروايتان مثالان حيان لهذا الانتاج الملتزم إذ وصفتا لنا انتقاماً وثاراً من النازية ، بل إن الثانية « القزم » كانت بالقياس الى ربيبتها ، أشد ميلا الى الانتقام والثار !.

ويبدو أن «لاجركفيست» ينقض اللامبالاة وعلم النفس ، اللذين لم يفسحا مجالا لفيض الحياة الطبيعي الزاخر وانـنا لنعثر في آخر رواية له أسماها « باراباس » (١٩٥١)على العظمة البسيطة ذاتها ، التي لا تبرح تميز أسلوبه ، إذ نلقاه فيها في صراع مـع تدين مفرط ، أكثر خطأ في التحديد مما ينبغي ، ولشد ما بحث عن جواب للحلول التي تطرحها الديانة بيد أنه لم يعثر عليه فيها ٠٠ ومن المهم أن نلاحظ أننا نكتشف في هذه الرواية ، كما نكتشف غالبا لدى مؤلفها ، التناقض بين انسانية معذبة وإله أبكم ، ولعل المشهد الاخير يظهر لنا « باراباس » وهو الشخصيةالرئيسية في هذه الرواية ، وقد سمّر على صليب ٠ لقد عاش عصر الهيلينية الجائش عاش الصراع بين الديانة القديمة والمسيحية ، وأخيراً وفي خلال اضطهاد وشي به خطأ ، باعتباره واحداً من المسيحيين ، علق على صليب ، وإن كلماته الاخيرة لتربط بين احتضاره في أسمى لحظات حياته وميت آخر قضى فداء لمسيحيته ، أبصره باراباس مصلوباً على الجلجلة فراح يدمنالنظر في الفراغ هاتفا ، وكأنه كان يخاطب الليل : « إني إذ أسلمروحي فانما اليك اسلمها »وهذا يعني أن « باراباس » لم يلتفت قط نحو إله ، كما صنع السيد المسيح ، بل التفتنحو الجانب الآخر من الليل ، اي الى الليل نفسه الذي خاطبه ولشد ما نعثر في كل أثر من آثار « پار لاجركفيست » على ليل أصم يكتنف انسانية مصلوبة ، وان الظل نفسه ، مهمـا اشتدت كثافته أو نقصت ، يشمل كل جيـل الحرب العالمية الاولى ، وعلى هذا النحو نتعرف في السويد ـ خلال الحرب العالمية الاولى ـ على أمثال هؤلاء الادباء ، ممن تراوحت أعمارهم بين العشرين والثلاثين عاماً ، نعني الادباء الذين كانوا أناساً متساوين في السن ، بيد أنهم يختلفون عـن أولئك الـذين عـادوا للمشاركة في الصراع ٠٠ والواقع انه ما من امرىء في السويد ، مهما كان حيادياً إلا وعاش تجارب الحرب ، بدءاً من الايدي التي توجه دبابة وانتهاء الى الايدي التي تقود طائرة ، بل إن السويديين جميعاً ، عانوا تلك التجارب في أرواحهم ، معاناتها في أحاسيسهم ، وليس عجيباً أن نرى فئة تبرز للعيان فتضم لفيفاً من أدبـاء الحرب العالميـة الاولى : فئة ممن يطرحـون الاسئلة ، ولـم يكونـوا مؤهلين للتسلح من أجل الحيـاة ـ وما من جيل في السويد إلا ووهب الكثير مـن الموت العجول والانتحار ـ ولقد راحت هذه الفئة تتخبط في بحران قضايا غيبية ودينية دون أن تنتهي الى جواب شاف ، ممـا يدعونا الى ان ننعت المنتمين اليها بجيل الحنين الضائع ، والقضايا الخاسرة ٠ وان « برجر جوبـرغ » و « دان أندرسن » و « أريك لا ندورم » و « هالمار غولبرغ » و « أديث سودرغران » هم أعظم أدباء هذا الجيل !٠

أما « أديث سودرغران » وهي سويدية من أصل فلندي ، نعني أنها تنتمي الى الأقلية السويدية في هذا البلد ، فهي في الوقت نفسه واحدة من أعظم الاسماء الغنائية السويدية في القرن العشرين ، أضف الى ذلك ، حـال الكثيرين من مواطنيها ٠ وفي وسعنا أن نضيف

الى هــذه الشاعرة التي قدمت الشعر الحر وجددت اللغة الشعرية •• « المرديكتونيوس » الشاعر الذي يحق له أن ينعت بنبي المستقبلية و « غونار بورلانغ » الكاتب العظيم ، الموجز في أمثاله وحكمه •• و « راب انكل » المصور المرهف ، في معالجته الشرود واللامحسوس !

يقول « پار لاجركفيست » في مقال له : « إن علينا أن نتناول مواضيع صغيرة في أسلوب فخم » وهذا القول ينطبق كل الانطباق ، على مسرى حال أدباء هذا الجيل ، الذين قلما حالفهم النجاح ، على الرغم من أنهم جدوا كل الجد فيما أعطوا ، كما انطبعت آثارهم بمهارة تقنية بعد أن سعوا الى تجديد وسائل التعبير، وخصوا انفسهم باللغة الحية ، والاسلوب الاعلاني ، مثلما خصوها باللغة الديوانية :

« إني أوقع معلنا
أني افتقدت ايماني الطفولي
بعد أن مضت صوب المحطة
دون قبعة ، ولا معطف ولا قفاز ••• » •

هذا ما نظمه أحد أولئك الادباء ، بيد أن ثمة قضايا عظمى تتوارى خلف هــذه المنمنمة بخاصــة تلك القضية التي تتصــل بالمـوت ، وهاهي ذي عناوين بعض آثارهــم الهامة ، تومىء اليوم الى اتجاههم : « موشحات سود » (١٩١٧) لدان أندرسون • و « يوم الحســاب » (١٩٢٠) لأريــك لانــدورم • و « ذكريات الارض » (١٩٤٠) لبرجر جوبرغ و « هزيمة العالم » (١٩٣٧) لهالمار غولبرغ، وتلك لعمري غيبية تتخبط خبط عشواء ، في موضوع أسود حالك !•

وحسبنا أن نــورد ههنــا قصيــدة بعنوان « القمر » نظمتها الشاعرة « أديثسودرغران » تمثل أصدق تمثيل أدب هذا العصر باكمله: تقول الشاعرة :

مثل من قضوا نحبهم ، وهو أمر مذهل
يجل عن الوصف ،
كمثل ورقة ميتة ، وامرىء ميت
ومحيا قمر •
إن الازاهير كلها تعرف سراً
ترعاه الغابة ،
وهو أن انسياب القمر حول أرضنا
معناه درب الموت •
وان القمر ليحيك بساطه العجيب
الذي أحبته الازاهير
يحيك ضفيرته السحرية
حول من يحيون ،
وما ان تدبر ليالي الخريف
حتى يحصد منجله الازاهير ،
عندها تصبو كلها الى قبلته
في ترقب أبدي !•

ألا إن الموضوع لعامّ ، يشمل كافة أولئك الشعراء ، على الرغم من أن الفروق التي تفصل بينهم تبدو واضحة أشد الوضوح ، فالشاعر « برجر جوبرغ » على سبيل المثال ، وهو بكر هذه الفئة ، يستهل قصائده في ديوانــه « أغاني فريدا » بشعر يتغنى فيه بمجتمــع بورجوازي صغير ، كما يتغنى ، بمصاحبــة

المزهر ، بمجالات رحلاته ، وانها لأغان لطيفة يرددها فم كاتب متجر فيلسوف ، وصف لنا فيها حيّاة المدن الصغرى من أقاليمنا ، كما وصفها في أغان تالية ، ذات أنغام شديدة الايلام ، انبعثت من مزهر كذلك وقد ضمنها ديوانه اللاحق « أزمات وتيجان » مما حدا الجمهور الى ملاحظة تلك النبرات النائحة ذاتها ، التي نفثها من قبل في ديوانه الاول... إن « أزمات وتيجان » هو ديوان عبثية الحياة، والالم ، والموت الذي لا يدرك ، وان الشكل فيه تجريبي « ومفارقة Paradoxale » والشعر فيه مقهور بعنف ، كيما يعبر عن الوساوس التي يهجس المضمون بها ، لقد ظهر « أزمات وتيجان » عام ١٩٢٦ إثر ظهور ديوان الشاعرة « اديث سودرغران » فكان أول أعظم تجربة تقنية في حقل الشعر السويدي ، إذ استخدم بشكله المحطم ، وسلاسل صوره المعماة ، انموذجا احتذاه كافة التجريبيين الغنائيين الذين أتوا بعده ... أما الشاعر « دان أندرسون » فهو ابن غابات وسط السويد ، التي تغنى بها في قصائده ، كما راح يتصدى لها في مقاطع شعرية ، ذات رخامة قوية ، تصف نماذج انسانية غريبة ، تقطن هذه الغابات ، كما تصف عظمة طبيعة اقليمه، وان قصائده لتعج بالنشوة الدينية ، وتزخر بالسحر الاسود وعبادة الموت ، ناهيك عن ان « اريك لاندورم » الذي كان بدوره ربيب المدينة الكبيرة ، كما كان « دان أندرسون » ربيب الريف ، قد جعلت منه بعض قصائد جافة كئيبة ، الشاعر الاول في الطبقة العمالية . وليس يعني هذا انه من نحو آخر خلو من موهبة بعيدة المدى ، حسبه انه التزم كمحدث ، ذوق « صحيفة الاسبوع » وهي أكبر مجلة أسبوعية بورجوازية في السويد ، وانه نظم قصائد امتازت بغنائيتها ، وبراعة شكلها، وحبها واقع كل يوم ، وانه لحب امتاز بالشدة، والقلق المؤلم ، اللذين صنفاه في عداد سوداويي ما بعد الحرب !.

★ ★ ★

اما هذا التباين بين البهجة والوقار ، فقد بالغ بدوره في تمييز الشاعرين « هارييت لوانهيلم » و « هالمار غولبرغ Hjalmar Gulberg » الذي بدا بدوره مفارقا أشد المفارقة . وان الشاعرة «هارييت» التي نشات من نسب كريم ، وأمضت صباها في مراسم المصورين ، والصالونات ، ووسط آثار « سورن كيركيغارد »(١٦) Sorn Kier Kegaard » قد أمست رسّامة من الطراز الاول ، وان اعمالها لتذكرنا

---

(١٦) سورن كيركيغارد : فيلسوف وعالم باللاهوت دانمركي ، ولد في كوبنهاغن عام ١٨١٣ وتوفي عام ١٨٥٥ الف كتابا أسماه « مفهوم القلق » وهو دراسة تحررت فيها الفلسفة التشاؤمية من الوجود .

« بكالو(١٧) إذ انطبعت بطابع الرشاقة ذات التحليق الغنائي Envolée والاثارة العنيفة التي أضحت من مميزات قصائدها ، ولقد ضمت المجموعتان الشعريتان اللتان نشرتهما « فن الحب » و « فن الصيد » قصائد مقلقة صغيرة ، تعوزها المعاني ، ذات روحانيات عبثية، أهدتها الى « نسوة ذوات نسب كريم ، وموتى ملحدين » بيد أن ثمة خلف القناع المضحك يتوارى تدين مفرط ، فاضفى انسجام هذين الجانبين على قصائدها ، نبرة جديدة كل الجدة!.

وأية كان الامر ، فان شعر «هالمار غولبرغ» لم يكن قط في منأى عن هذا القلق النفسي خلال الحربين العالميتين ، كما ان أستاذيه « لوند » و « غولبرغ » قد وحدت الهذر والكلام الوقح اللذين طبعا الاوساط المثقفة في هذه المدينة ، بهموم الحياة العقلية ، التي قلما تواتي عصراً ذي فعالية ، في دعاوة ، وعنف !.

إن أسلوب « غولبرغ » متانق مرهف ، وقلة هم الادباء السويديون المعاصرون ،الذين اغنوا اللغة بنبرات جديدة ، أكثر مما أغناه هذا الشاعر .. لقد استلهم « غوته » واقوال الصحف ، وكتاب المزامير ، وأسلوب الاعلانات ، مؤمناً أشد الايمان ، بان للشاعر مكاناً في جيش الاله السري ، لأنه مكلف بحماية المستضعفين ، والنضال ضد الحسد ، وغريزة الابادة والهدم !.

وحسب الشاعر الذي يقود هذا النضال الفينة حد الفينة ، انه مثاب يتجلي السيد المسيح في أعاصير الشوارع العريضة ، أو غبش الاحياء سيئة السمعة وان السيد المسيح ليلج حجرة الشاعر ، فيعلق اكليل شوكه على المشجب ، ويمسي صديق جنديته المعتزل !.

هكذا نرى كيف أن كافة الشعراء ما بين الحربين العالميتين ، احتشدوا حول الغموض نفسه واليقين ذاته ، كما التزموا عقب الحرب الثانية بالخط البياني الكبير ، ولعل أكثر الاسماء أهمية هو اسم الشاعر « پار لاجيركفيست » إذ ان الظلال التي كانت مهيمنة على آثاره ، لا تعدو قلقه على مصيره ، ولا تنأى عن احساسه بأنه محروم من كل عون الهي !.

★ ★ ★

بقي علينا أن نعالج البنيان الاجتماعي ومدلوله بالقياس الى الادب : بدهي أن القرن التاسع عشر شهد في السويد ، شأنه في بقية أرجاء العالم ، ولادة القوى الاجتماعية الجديدة ، مما حدا الادباء الى الانحياز على نحو عام ، للمعسكر الثوري ، بعد أن انتظم العمال ـ خلال التسعينيات من هذا القرن ـ في مجموعات قادرة على النضال في سبيل مصالحها ، ودخل المجلس النيابي عام ١٨٩٦

(١٧) جاك كالو : فنان في الحفر ورسام فرنسي، ولد في نانسي عام ١٥٩٢ وتوفي عام ١٦٣٥ كان عبقرية مبدعة خصبة عجيبة . عمل في ايطاليا واللورين ، وبرز كمعلم عظيم في الرسم المطبوع Eau - Forte أثر تأثيراً شديداً على فناني الحفر في القرن الثامن عشر وما تلاه .

أول نائب اشتراكي ديمقراطي وهكذا توالى التنظيم الاجتماعي في اصلاحات ، وتهديدات بالاضراب ، واضرابات ، حتى حوالي عام ١٩١٠ بيد أن هذا العالم الذي أرخنا بولادة الرواية البورجوازية ، أمسى بدوره - على الصعيد السياسي - عام نصر للبورجوازية : ففي انتخابات ١٩١٠ كان عدد من ناخبي الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، قد مال الى هذا الحزب ، ثم مالبث أن عانى خلال الاعوام التالية ، محنا شديدة ، انخفض إثرها الى النصف بيد أنه ركز خلال هذا العام ، علما مهما في طريق نشر الديمقراطيةالادبية ، وأدخل أدباء في النضال الاجتماعي .. والحق أن هذا العام ، هو العام الذي بدأ الكتابة فيه أول أديبين سويديين كادحين هما : «مارتان كوش » و « هدنفند - اريكسون » فادخل « مارتان كوش » باثره العظيم « عمال » (١٩١٢) الرواية الجماعية على الادب السويدي ، وان العنوان الذي أطلقه على روايته « حكاية حقد » ليوحي اليوم بالالتزام الاجتماعيوشموله ، إذ وصف لنا فيها الحقد، كما صور التضامن بين المعذبين في الارض والارادة الطيبة التي نجمت من ظروف الحياة العصيبة !.

وهكذا أسهم « مارتان كوش » في وضوح وجلاء ، في اشاعة تذوق المطالعة بين الطبقات الشعبية السويدية كما نشر بين الشعب ، ديمقراطية الاحساس الادبي ، مجتذبا الى الادباء العمال وسواد الشعب !.

وفي ميسورنا أن نعثر خلال رواياته ، على نماذج راحت تمعن في تنقيبها في أكواخ عمال المناجم النورديين ، عثورنا عليها في اخصاص العمال السكنديناقيين المياومين .. أما الرائد الثاني لأدبالكادحين ، فهو « غوستاف هدنفلد اريكسون » الذي كان على الرغم من شدة باطنيته ، أديب الجهابذة ، وذا شأن حاسم في الالهام الذي وهبه لجيل المؤلفين الكادحين الجديد ، هذا الجيل الذي افتتن بثراء غنائيته المتفردة ، وتأثير قصته العميق ، وأصداءحياته الخاصة ، في منطقة نوردية محرومة لقد عاش « هدنفند - اريكسون » مأساة التغيير الاجتماعي أعنف مما عاشها معظم معاصريه ، فكان التزامه عامة شاملا ، وهو الذي روى لنا قصة حياته ، في كتاب لعله أصفى آثاره وأدفاها ، نعنيكتابه « في شاحنة صوب الادب » (١٩٤٤) فبعد أن هرّب أبا جائرا في منطقة جرداء بجامتلاند أضحى عامل منجم ، وعاملا حراجيا كما أمسى ممدد خطوط حديدية ، وصيادا ومزارعا ، كما نظم جمعيات تعاونية، وأثار اضرابات ، وحرر تشريعات نقابية ، فدلنا على أنه عاش تحول السويد ، من مجتمع زراعي ، الى مجتمع صناعي بيد أنه كان قبل كل شيء رحّالة شريدا ، التقى خلال رحلاته المديدة الجمة ، وخلال المهن التي امتهنها ، وهيمتباينة أشد التباين ، بنماذج بشرية لا حصر لها ، وفريدة أحيانا فاشاعها في الادب ، وهكذا نراه يعرض لنا «فيدياس» اللا مبالي ، الشريد الحافي ، الذي راح ينشد أسطورة « نرسيس » حين عجز عن جمعالقدور للمبيض « هدنفند » الذي أفرغ خزانته ، كيما يسدد ثمن جلسات سكره ، كما يقدم لنا الملحد السكير جابي البريد

« سالومونسون » الذي دله على العناصر اليونانية ، والفن الرفيع للتقطير الخفي ، ثم يعرض لنا « مالستروم » الشبق الذي فرغ حريمه النورديات من تعبئة الدواء له ، كيما ينتحر به ، بتفجير شحنة من الديناميت في فمه. لقد استطاع « اريكسون » أن يجعلنا نتابع سرده أمداً مديداً ، وأيا كان الامر ، فان شخصياته الرئيسية اقتصرت على العمال الذين يقيمون الخط الحديدي ، الذي يخترق المناطق الجرداء من نورلاند السويدية ، ولم تكن سمات الطباع الرئيسية لهذه الشخصيات، ذات ذوق مدمني خمر فحسب ، أو نسوة مجازفات ، بل انها تتسم كذلك بالصدق والصراحة ، والالفة والمروءة ، يبدو ذلك من خلال العشرينيات التي كتب فيها « هدنفند ـ اريكسون » روايتيه حول مقيمي الخطوط الحديدية ، وهما « تركات المشتتين »(١٩٢٦) و « العجلة المجنحة » (١٩٢٨) وهما ملحمتان عملاقتان ، تتضمنان مجموعة مؤثرة من الشخصيات !٠

لم يكن « هدنفند ـ اريكسون » روائيا واقعياً فحسب ، بل كان رومانسياً كذلك ، فمن خلال الوصف الاكثر مباشرة ، استطاعت لغته أن تدرك على غرة أرق الشعر وألطفه لذا ترانا نستاق في أية صفحة من صفحاته الحلوة المذاق ، عطر الارض ونشم طيب العرق، ناهيك عن العديد من الصفحات ، التي تطالعنا بها هاتان الروايتان ، اللتان قد تبدوان ذاتي صفة مميزة ، بالقياس الى هذا الروائي الشاعر ، ويجدر بنا ألا ننسى بدورنا ما يماثلها من صفحات ، في حكاياته الشعبية، وهي غاية في الرقة والعذوبة ، والتي لم تكن في صفاتها المميزة ، باقل مما درج عليه في أسلوبه ٠٠ وهذه الحكايات تحتويها أربعة أجزاء « حكايات جامتلاندية » الخ (١٩٤١ ـ ١٩٥٢) وقد بدت لقارئها أكثر آثار « اريكسون » اكتمالا ، إذ تروي لنا حكايات هذه المنطقة المتخلفة من مناطق السويد كما نرويها نحن في القرى ، ولقد عرف المؤلف كيف يحافظ فيها ، على العطر والفروق الدقيقة ، وكما بدا فيها فنانا في اللغة ، كذلك برز لبقاً أنيقا ، ممثلا في الوقت نفسه ، نكهة المنشدين الشعبيين انفسهم فدل بذلك على صحة انتمائه !٠٠

تلك هي جماع الواقعية المباشرة ، وجملة الشعر المؤثر اللذين لمسناهما لدن « هدنفند ـ اريكسون » هذا الروائي الشاعر ، الذي سحر جيل الادباء الكادحين الجديد ، وهم الفئة التي بدأت الكتابة حوالي عام ١٩٣٠ ، ولعل مما تجدر الاشارة اليه ، ان اسم الادباء الكادحين هذا قد استعمل ـ بادىء ذي بدء ـ وكأنه تعبير مشين ، وكلمة مهينة ، بيد أنه ما لبث أن اعترف به فاقر باعتباره لقباً فخرياً للمؤلفين ذوي الهدف !٠٠

أما أعظم الأسماء البارزة في هذا الجيل، فحسبنا أن نذكر منها : « يان فريديغار »

و « ايفند جونسون » (١٨) و « هاري مارتنسون » (١٩) و « ولهلم موبرغ » و « ايفارلو ـ جوهانسون » و «موآمارتنسون» ولا ريب في أن تطور هؤلاء الأدباء ، والمناهج التي انتهجوها في كتاباتهم ، كانت متماثلة كل التماثل ، على الرغم مما بينهم من بعض فروق أدبية ، تيسر لهم عرضها ، باعتبارهم ينتمون الى فئة وبيئة متشابهتين ، اذ ولدوا نحو عام ١٩٠٠ ونشاوا في أسر أمضت حياتها في مقاطعات ، ران عليها الفقر ، ثم أتت الحرب العالمية الاولى ، فزعزعت بداية شبابهم ، فاضطروا مكرهين في مستهل العشرينيات ، الى النأي عن بيئتهم ، ومضوا سالكين دروب اوروبا ، فاضحى أحدهم بحاراً وأمسى الكثيرون منهم جوّابي آفاق .

ولئن بدت أولى رواياتهم ـ في نهاية العشرينيات ـ متسمة بالتجارب البسيطة ، لقد طمحوا الى العثور على أسلوب لهم ، ونبرة خاصة بهم ، وهكذا نراهم يمضون ـ منذ عام ١٩٣٥ ـ متحفزين لكتابة أولى آثارهم الرئيسية ، معالجين ـ حتى ذلك الحين ـ مواضيع شديدة التباين ، كانت تستقي مادتها من عالم بورجوازي حيناً ، وتستلهم نماذجها من رحلاتهم حيناً آخر ، بيد أنهم في هذا العصر ـ وهو أمر ذو دلالة عامة ـ استنبطوا بعض الامور الجديدة ، بعد أن اتضح لهم ، أنهم يحملون في ذواتهم مواضيع يندر وجودها ، وان ميزة نضالهم من أجل الثقافة ، وهربهم من بيئتهم التي نشا فيها أجدادهم عبر أجيال ، قد أهابا بهم للامعان في النضال ضد البؤس والفاقة ، وولوج العصامية في المجتمع المثقف ، فابتكروا الروايات الكبرى ، التي تتناول سيرهم الذاتية ، الصادرة في الثلاثينيات ، وهي روايات تصور لنا هذا النضال المرير ، الذي استهدف التحرر الثقافي والاجتماعي .

أما ما يتصل برواية « يان فريدغارد » المسماة « لارس هارد » (١٩٣٥ـ١٩٣٦) فلعل هذا الروائي ، من بين أفراد تلك الفئة كافة ، الاديب الذي كانت حياته من اشد الحيوات امتلاءً بالصراعات النفسية ، وحسبنا دليلا هذه الرواية ، التي تصف لنا تمزق شاب متمرد على المجتمع ، في لهجة متميزة تنحو نحو « المتمرد » • وهنا يتعين علينا أن نطرح على أنفسنا سؤالا ، عما حدث لأجيال الشباب التالية الموهوبة ، التي لم تتكيف مع البيئات البائسة ، فثمة فئة وقفت من هذه البيئات ، وكانها واقفة في شرك كاهن القرية ، حتى لقد أضحت هي نفسها أحيانا ، كاهنة ، أو خادم كنيسة ، وثمة فئة ثانية امتهنت البحرية وابتلعت الهجرة الى امريكا فئة سواهما ، أغريت بهذه الهجرة أشد الاغراء ، ناهيك عن أن أغلب هذا الجيل ، راح يلوب باحثاً ـ عبر النظام ـ عن متنفس لحاجته الى العمل ، ولعل تاريخ السويد الجنائي ، يفيض بالحديث عن انعدام تكيفه ، ومحاولاته التحرر ، في سبيل الخروج من الطبقة التي ابتليت بالبؤس والفاقة ، لذا فقد بدا لنا تطور هؤلاء الأدباء الكادحين ، وكانه يبدأ مصادفة ، وهو خلو

(١٨ـ١٩) الكاتبان اللذان اقتسما جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٧٤ .

من مناهج يحتذيها جيلهم ، ومن توافقتطوره الى توافق تطور الاجيال التي سبقته ، يتضح انـه كان مغبونا كـل الغبن ، ولعل حيـاة التشرد ، والتغيرات المستمرة ، التي طرات على المهن التي امتهنها أدباؤه ، هي القانون الذي ساد جيلهم ، وان حياة البطل « لارس هارد» ـ ومن عجب أنه لم يفصح لنا عنها ـ هي حياة كاتبها « جان فريد غارد » نفسه، وانها تمثله أصدق تمثيل ، فهـذا النهـج الذي انتهجه نحو حرفة الادب ، لا سبيل الى سلوكه ـ بالقياس اليه ـ الا بالنار والماء، أو ان شئنا التحديد على نحو أكثر واقعية، لا سـبيل الى سلوكـه ، الا بالاصلاحيـات والسجن الانفرادي !٠

أمـا الروائية « موآمارتنسون » فتصور لنا من جانبها ، في سلسلة رواياتها ، الفتاة « ميا » ابنة عاملة معمل ، واصفة نضالهذه الفتاة ابتغاء الانفلات من عزلتها !٠

كما يصور لنا الروائي « ولهلمموبرغ » تمرد بطله « كنوت تورانغ » ضد عالم لـم يستطع التكيف معه ، عـلى الرغم من أنـه يسعى الى ترميمه !٠

وهذان الروائيان ـ شانهما شان جميع زملائهما من فئتهما ـ قد وسعا بعد لأيمن أفقهما ، في معالجتهما مواضيع تاريخية !٠

أما ما يتصل بـ « موبرغ » فيجدر بنا باديء ذي بـدء ، التنويه بثلاثيته الملحمية الكبرى التي تناول فيها قضية هجرة الريفيين السويديين الى امريكا ، وقـد صدر الجـزء الاول منها عام ١٩٤٩ بعنوان « المهاجرون » وتلاه الجـزء الثاني بالعنوان نفسه عـام ١٩٥٢ ، وليس من شك في أن هذا الروائي، كان واحداً من أذكى وأقدر روائيينا ، الذين تناولوا حياة الطبقة الكادحة في أسلوبعصبي معبر وواقعـي ، ولعـل تفوقـه يعزى ، الى الكيفية التي نسق فيها أفكاره الرئيسية ، في تكوينات منغومة ، لم تثر اعجاب الملايين من القراء فحسب ، بل أثارت اعجاب النقادالغلاة في نقدهم كذلك ، كما أصدر ـ خلال الاعوام الاخيرة ـ سلسلة من المقالات النقدية ، يندد فيها بالملكية ، ويشهر بعالم المحاكم،والادارة٠

★ ★ ★

وثمة قاص لا يقل اصالة عن « موبرغ » هـو « ايفند جونسون » المولود عـام ١٩٠٠ ـ ولعلنا حين قلنا قبل قليل ، ان الروائيين الاوائل من الادباء الذين اهتممنا بهم ، لم يكونوا الا « مقدمات »٠كان لزاماً علينا أن نستثني منهم هذا الكاتب ، الذي أضحى منذ البداية فناناً كامل العدة !٠

عاش في باريس عصابية ما بعد الحرب، خلال تجوابه عبر أوروبا ، وهانحن نراه في روايته «مدينةمضيئة» التي صدرت بالفرنسية عام ١٩٢٧ بعنوان « رسالة مسجلة » ثمنشرت بالسويدية عـام ١٩٢٨ ، يحدثنا عـن الجيل الجديد : « الاكثر حكمة من كـل ما عداه ، حتى من « أرسطو »، هذا الجيل الذي وهبنا لـه الكوكائين ، وهـذر العرافين ، والمبتلين بالشذوذ الجنسي ، هو الجيل الوحيد،القمين

بان يمنح القدرة على التقيؤ ، حين يرى نفسه في مرآة صقيلة » .

ويبدو أن ثمة تشاؤماً قاتماً طبع بطابعه أوائل روايات « جونسون » ولا ريب في ان منتصف الثلاثينيات هو الذي رسم له كما رسم لسواه من الادباء ، عهداً جديداً ، ولعل « رواية اولوف » (١٩٣٤ـ١٩٣٧) التي تعد أروع الروايات التي صدرت في تلك الحقبة، هي الأثر السيرذاتي Autobiographique الذي صور لنا فيه طفولته التي أمضاها وسط ورشات النشر Scieries النوردية ، ووعى فيها أربع مراحل كباراً خصت بكل مرحلة منها ، سنة من سني حياة مراهقته، الممتدة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، ولقد امتزجت في صوره المكثفة ، حكاياته الرمزية بمجريات القصة ، بملاحظاته السيكولوجية الدقيقة ، فاضحى التقني الأشد رهافة في فئته ، كما صنف في مدرسة «مارسيل بروست» (٢٠) و «هرمانهس» (٢١)

و « اندريه جيد » و « همنغواي » !.

لقد مزج « جونسون » في «رواية اولوف» العقد بالدوافع في دؤوب لعبة التخبئة ، وان الحدة لتبدو من خلالها ، اما قارنا بين شخصياتها التي تتغير دوماً ، والتصوير الذي يؤديه الكاتب مما استدعى ازدواجيتيها اللتين ترتضيهما التغيرات الرمزية !.

أما الروايات التي تلت « روايةاولوف » فقد بدت ذات تركيب غاية في البساطة ، اذ تخلي اللعبة الجمالية مكاناً للمغزى ، مما يبعث على اليقين بأن « ايفند جونسون » ينحاز لشتيت المعارك السياسية العالمية الكبرى ، وحسب مجموعته « سلسلة كريلون (١٩٤١ ـ ١٩٤٣) انها استقطبت ثار المتحمسين السويديين من ألمانيا النازية !.

أما رواياته الاخيرة « عوليس السعيد » (١٩٤٦) و « أحلام الزهر والنار » (١٩٤٩) و « اخطفوا الشمس » (١٩٥١) فان أحداث الرواية الاولى « عوليس السعيد » تجري في عصر أبطال حرب « طراودة » وتقع أحداث الثانية « أحلام الزهر والنار » في فرنسا، خلال القرن السابع عشر ، أما الروايةالاخيرة « اخطفوا الشمس » فتتناول حركات المقاومة في أوروبا ابان الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، وفي ميسورنا أن نطلق على هذه الروايات كلها ، العنوان الذي نطلقه على اولى رواياته وهو « رواية الازمنة الحديثة » ولا ريب في أن هذه الآثار تنسجم على نحو او آخر ، مع زماننا وصراعاته ، مما يدعونا

---

(٢٠) مارسيل بروست : كاتب فرنسي ، ولد في باريس عام ١٨٧١ وتوفي عام ١٩٢٢ اشتهر بروايته الطويلة « البحث عن الزمن الضائع » التي تروي تطور ذكرياته الشخصية ، كما تلخص بدقة عجيبة ، أحاسيسه وأحاسيس من احتك بهم أو عاشرهم .

(٢١) هرمان هس : شاعر وروائي الماني ، ولد في « كالو » عام ١٨٧٧ وتوفي عام ١٩٦٢ وقد تجنس بالجنسية السويسرية ، ونال جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦ .

الى القول ان الادباء الكادحين كافة ، كانوا في الثلاثينيات كتّابة ملتزمين بالصراعات والقضايا الراهنة ، وبدهي أن هذه الصراعات وتلك القضايا ، كانت نابعة من طبيعة المجتمع الاوروبي !•

وثمة كاتب آخر وجب أن ننوه به باعتباره واحداً من عصبة الستة « Groupe de six » وهو « ايفار لو – جوهانسون » الذي سعى عامداً متعمداً في آثاره كلها ، الى الفوز باصلاحات اجتماعية دقيقة ملموسة ، بعد أن كرس لها وقته ، مبتغياً احلالها المحل الاول في مصير « الستاتاريين Statares » – وهي كلمة فرنسية يتعذر فهمها – أسمى بها احدى رواياته ، عرض لنا فيها حياة طبقة من العمال الزراعيين ، عانت الفاقة، على نحو يتعذر وصفه ، تعمل لدن كبار الاقطاعيين ، ثم لا تلبث أن تقضي نحبها ، وتلك ظاهرة توشك أن تنسحب على صفحات هذه الرواية كلها !•

لقد وصف لنا هذا الروائي بؤس اولئك العمال وأحزانهم ، كما صور كذلك الافراح التي يفلحون في ابدائها أحياناً ، كيما ينيروا وجودهم الذي يدعو للرثاء !•

فعربات نقل الرياش التي يجرونها من حقل الى حقل ، تبرز في كل منعطف فصل من فصول الرواية ، ولقد افلح هذا الروائي حقاً في اطلاعنا على هذه الطبقة المحرومة ، كما أهاب بنا الى الاهتمام بها ، فكأنه لم يشأ أن يمسي مؤلفاً أدبياً فحسب ، بل يمسي مصلحاً اجتماعياً كذلك ، وأياً كان الأمر ، فان مساعيه وجهوده لم تخل قط من النجاح ، حسبه أن المجلس النيابي قد أزال عام ١٩٤٥ جانباً من وضع العمال «الستارتيين» الذين صور الكاتب حياتهم البائسة ، لذا لم تعد قضيتهم منذ ذلك الحين مثار اهتمامه ، بل راح يعنى بمجالات أخرى ، يستطيع أن يبدع فيها أثراً آخر مجدياً ، ولا ريب في أن « لو جونسون » الذي نراه يغلو حيناً في الوقوف ضد ارادته، ثم يعنو لها حيناً آخر، قد أضحى – على الرغم من غلوه وأذعانه – مؤلفاً ذا أهمية ووزن ، شأنه شأن سواه من زمرته ، ومبعث ذلك ، ما نلمحه فيهم من ميل قوي ، يزيد أو ينقص ، نحو تاليف أثر اجتماعي نافع مفيد !•

★ ★ ★

واضح أن الأدباء الكادحين قد عانوا الأمرّين للفوز برضا الجمهور ، ولعل أشدهم معاناة ، وأسبقهم الى شق طريقه في سرعة فائقة، هو الكاتب « هاري مارتنسون » العامل والبحار ، وأول عصامي يدخل المجمع العلمي السويدي ، بعد أن انتخب عضواً فيه عام ١٩٤٨ ، وكان أول نجاح عظيم حالفه ، اثر صدور روايته « الأشواك المزهرة التي صور لنا نفسه فيها ، صبياً تتبناه البلدية ، عقب اختفاء ذويه ، ثم ما لبث أن أن مضى مقتفياً أثرهم من مزرعة الى مزرعة، فعاني – خلال اقتفائه – حياة بائسة، محرومة

من الحب والحنان ، ولقد تجلى في هذه الرواية، الوصف الساحر لهذه الحياة ، وتكشفت فصولها عن مدى الهوة ، التي تفصل هؤلاء الادباء الكادحين ، عن الاوساط البورجوازية التي يحتكون بها ، حين يبدأون بالتعرف عليها ، ولشد ما يخطر ببالنا ونحن نتلو روايات « مارتنسون » رواية تلو رواية ، أننا حيال كاتب يعنى أشد العناية ، بتصوير حياة المغامرين والمشردين ، فنرى أبطاله خلال آثاره ، وهم يتسكعون بلا هدف الا هدف التسكع ، فاما أنهم يبتغون ازعاج المجتمع، أو أنهم هم أنفسهم كانوا ضحايا نصابين، اضطروهم الى هذه الحال ، وهؤلاء هم الذين يشكلون بؤرة اهتمامه في رواياته ، ويؤلفون الرابطة الوحيدة ، التي توحد أعمالهم وبيئاتهم المتباينة أشد التباين ٠! ان روايات «مارتنسون» لا تعدو روايات رحلة وجوب آفاق ، ولعل العناوين التالية تدل على هذه الظاهرة أبلغ دلالة : «رحلات بلا هدف» (١٩٣٢) و « رحيل » (١٩٣٦) و « طريق كلوكريك » (١٩٤٨) وثمة رواية بالعنوان نفسه صدرت عام ١٩٥١ وهي آخر مؤلف له نثري ، بيد أن هذا اللون من التكوين الذي لا يعدو أن يكون في العصور السالفة ضربا من البلاهة يعوزه الخيال ، يبدو ـ بالقياس الى « مارتنسون » ـ شرطا من شرائط فنه نفسه !٠

وهكذا يبدو أن « مارتنسون » هو الكاتب الاكثر ذاتية بين أدباء السويد المعاصرين ، والأكثر مباشرة في مخاطبة القارىء والتوجه اليه ٠٠ لقد أمسى اليوم ، بعد أن وخط الشيب رأسه ، يعيش في آثاره ، مردداً نظره الطلعة في الحياة ، كيما يفسرها لنا ، على نحو ذكي فطن لطيف ٠ أما الاسماء التي ينعت بها الحياة فجمة ، وأية كانت أسماؤه فليس ثمة أحد في ميسوره الشك ، بان البطل في آثاره الاولى التي أبدعها ، هو الكاتب « هاري مارتنسون » نفسه ، وبدهي أنه حين كتب هذه الآثار حوالي نهاية العشرينيات أتاحت له واقعية غامضة ، ساذجة عجيبة ، ولوج الادب السويدي ، على الرغم من أن هذه الواقعية ، لم تكن مستحدثة آنذاك ، بيد أن ما احدثه «مارتنسون» تجلى في قوته وشخصيته ، وهاهما روايتاه « رحلات بلا هدف » و « وداعة أيها الرأس » (١٩٣٣) تؤثران في رسائله ، التي كان يبعث بها الى أصدقائه المقيمين في السويد ، ولقد كتب هاتين الروايتين ، أو لنقل عاش أحداثهما، خلال الاعوام الطويلة التي أمضاها ماخراً عباب البحر ، فعبَّرت مشاهدهما وفصولهما عن أدق الخلجات التي ساورته ، واعتملت بين جنبيه ، فبدت لنا قصة غرق الباخرة اليونانية س-س يونوبوليس جذابة كرواية مغامرة ، كما تجلت قوة تاثيره ، في نظيرتها التي تروي لنا حكاية الراقصين الهنود ، الذين كانوا يرقصون وقد خارت قواهم ، وارتعدت أوصالهم من الونى ، خلال ساعات يمضونها ، وقد سلط عليهم سيدهم سوطه، لقاء دريهمات بخسة تلقى في قبعته !٠

وثمة حكايا صغيرة جمة تنحو هذا النحو،

ضمها اثـران له ، عرض لنا فيها لوحـات صغيرة،رسمتها ريشة قوية متمكنة لا تنتسي، ولعل مما يجـدر التنويه بـه ، أننا لا نفتا نلاحظ عزوفه في الوقت نفسه ، عن أيةكتابة نثرية تعنى بسائح من السواح ، وبدهي ان يعزف عن هذا الضرب من الكتابة ، لأنه لم يكن قط ثرياً امريكيا ، يكتب قصة رحلات بحريـة !٠

اولم يقل لنا في روايته « رحلات بـلا هدف » : « لقد وضح لي أن هذا يعني أنه كان يعاود الصعود نحـو سفينة « الاودر » في يوم صيفي قائظ ، ثم لا يلبث أن يعاود الصعود نحوها حتى قعرها ، وخلال الدقائق الثلاث التي يمضيها ، ومـن موضع مرجـل السفينة ، يخرج من الكوة رأسه وقد تصبب عرقاً ، كيما يلقي نظرة عجلى اعتاد ازجاءها الى السهل المفروش بالتفاح ، ثـم يعـاود هبوطـه » ؟٠

أولم يكتب في مكان آخر : « لقد تلقيت البحر كما يتلقاه طفل ، بعد ان افعمتروحي بروايات « ماريات » ومن ثم أمسيت معاون ربان في الصناعة البحرية » ؟ الا ان هـذه الرحلة البحرية لتظهـر لنا بجلاء ، الغيبة التي ساورت «مارتنسون» بيد أنها لا تبرح أن تنجلي امّا علمنا أنه كان مزوداً دوماً ، بما يكفيه مندعابة ، تحول دونه ودون وقوعه في النواح والشكوى،اللذين لا مسوغ لهما، ولاسيما وانـه لا يني يسترعي انتباهنا الى اعتزازه وفخره ، بأنه عامل كادح ، وانهربان في « مصنع البعد » يندفع ماخراً عباب بحار العالـم السبعة ، كيمـا يمـلا مخـازن «روتردام» (٢٢) ومخازن « برنامبوك » (٢٣) هذه المدينة المرفا ، التي اشار اليها قائلا :

« كان البحارة على دروبها ، يستخدمهم التجـار الذين اكتشفوا أن الحنين البشري كان ضرورياً مـن اجـل نقـل سلعهم(٢٤) Camelote » وان هذا القوللبدلنا أعمق دلالـة ، عـلى أن الكاتب الشريد « هـاري مارتنسون » لـم يكـن قط مـن نمط ذاك الأفـاق ، الذي نراه في الأدب القديم ، بعد ان أضحى عضواً في بيئة اجتماعية ، وأمسى ذا ظما لا يرتوي الى المغامرات ٠ ولئن صمم له الآخـرون دروب تجوالـه ، لشد ما كان الزمن يتيح لـه أن يلقي نظرة عجلى عـلى المناظر ، التي تبدو حياله خـلال فترتين ، يملأ فيهما بالماء مراجل سفينته !٠

كما اننا نرى في آخر رواية له وهـي « طريق كلوكريك » وصفـا رائعـا للشريد الفيلسوف «بول» يوضح لنا فيه جملةتجارب عقلية وطبيعية عاناهـا جيل الثلاثينيات ، فيصف في فصلها الاول حكمة الصانع الماهرة المتبصرة ، ومن ثم يجيء استقصاؤه النقدي للمجتمع المتحضر الفرح بنفسه ، تتلـوه في النهاية تجربة الاقلال من الحاجات الأساسية، الى أدنى حد من المعيشة !٠

---

(٢٢) روتردام : مدينة صناعية ومرفأ هـام في هولندا ٠

(٢٣) برنامبوك : مرفأ في البرازيل ٠

(٢٤) سلع ذات نوعيـة منخفضة ، سـيئة الصنعة ٠

لئن امست الرواية المعاصرة الاكثر وفرة في خطها العام ، طابع روائيي السويد في الثلاثينيات ، لقد عنيت على نحو شامل بالتبسيط والاختصار ثم أتت المفاهيم الجنسية والحيوية فشكلت قاعدتها الاساسية ، أما ما يختص « بمارتنسون » فانه لم يعن بقيمة الامور البسيطة عنايته بحق المستضعفين ، والاهتمام بهم في عصر العنف ، وهذا ما نلمحه جيداً في مجموعتين شعريتين له « هوى عابر Passade » و«سيكادا Cekada » اذ نراه فيهما يغوص في الحكمة الهندية ، متأثراً بالشعر الصيني ، وهو بهذا الصنيع يجمل لنا فلسفة للرقة ، يعتبرها ذريعة للسلام في العالم !.

هكذا تغدو الازمة العالمية مبرحة رويداً رويداً ، ويمسي كافة هؤلاء الادباء متاهبين للذود عن المثل العليا ، التي يرونها مهددة، متخذين ـ ضد الطغيان والحكم المطلق ـ موقفاً جعلوه في السويد الوديعة ، مبدءاً لهم، شبيهاً بموقف المقاومين القادمين في قابل من أوروبا. أما الادباء الذين وجب أن يحمل أثرهم ـ قبل كل شيء ـ طابع المعركة المأساوية ، فقد انتموا الى جيل أكثر حداثة ، هو جيل الحرب العالمية الثانية !.

★ ★ ★

لقد اعتدنا ـ وتلك عادة سيئة ان شئنا ـ أن نومىء خلال بحثنا في تاريخ الأدب السويدي ، الى مختلف المدارس الادبية ، بجوانب من العقد الاخير ، وهو منهج لا يفي بالغرض ، شأننا حين نشير الى الاجيال كافة، ولئن كان ثمة عقد قد يفيدنا في تمييز مدرسة على مدرسة ، لهو عقد الاربعينيات، فخلال شتاء عام ١٩٤٠ وفي بولونيا وفنلندة، تولى التاريخ نفسه، فصل الاجيال عن بعضها، أما من دعا الأدب الجديد الى استيعابها، فهم اولئك الادباء ، الذين كانت لهم آذان مرهفة في التقاط النبرات الاولى ، التي تاتت من الاواصر التي ربطت فارسوفيا بسالا . أما أدب الأربعينيات في السويد ـ شأنه في بقية أرجاء العالم ـ فقد كان لزاماً عليه ان يستشرف خلفية نكبة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ والتوترات التي أعقبتها ، ونحت نحوها ، بيد ان المصادفة أبت الا التوفيق بين النزاع المسلح والمقطع العشري مما أدى الى تكوين أدب العقد الذي عاشه في الاربعينيات ، بيد أن « الحداثة » ـ ابان هذا العقد الجديد ـ لم تصنع في الأدب السويدي ـ حتى ذلك الحين ـ سوى بدايات قصيرة ، توحدت فيها مدارسه شيئاً فشيئاً ، وكان « مالارميه » و « ريلكه » (٢٥)

---

(٢٥) راينر ماريا رلكه : شاعر وكاتب نمساوي ، ولد في براغ عام ١٨٣٥ وتوفي في سويسرا عام ١٩٢٦ له شعر يميل محتواه الى الغموض ، ويبدو التكلف على شكله . أقام في باريس ردحاً من الزمن، وعمل سكرتيراً للنحات الفرنسي الشهير « رودان » .

و « ابولينير »(٢٦) و « ت٠س اليـوت » وسواهم ، عرّابي هذه المدرسة ، مما ادى الى أن تمسي آثارنا الادبية ، آثاراً تجريدية، وان لم تكن قط مبهمة بسبب فعالية المواضيع التي تناولتها ٠!

كما لم تحتج الاربعينيات الى المفاهيم التي تدور حول الاعوام التي عاشتها تلك الحقبة، اذ على قدر ما كان من أدباء ، كان ثمة قراء تيسر لهـم أن يلتقوا ٠٠ أما بالقياس الى أناس العقد الذي تلا ، فقد كانت «هيروشيما» اسمة لمكان ، والقنبلة الذرية فكرة طبيعية ، وادوات التعذيب قطعاً في متحف ، وعلى هذا النحو نرى أن هذه المفاهيم تضطلع ـ خلال الاربعينيات ـ بفاعلية عسيرة لم تكن لها ـ من وجهه تاريخ الافكار ـ اهمية جوهرية ، وان عاشت واقعيتهـا ، او كانت بالتالـي مـزودة بالمعرفة فحسب ، لـذا كان التشاؤم والاحساس الغامر بالنكبة ، همـا العلامـة المميزة لهذا العقد ٠!

ثمة ناقدة تعد من أعتى النقاد المعروفين بعدائهـم للأدب السويدي المعاصر ، راحت تهاجمه محقة ، آخذة عليه انعدام التزامـه لسياسي ، متحدثـة عـن الشعوذة الرمزيـة وماساة الوهم اللتين توارى خلفهما الادباء السويديون ، مما ادى الى عجزهم في الافصاح عن حياتهم الحقيقية ٠!

لقد حـاول هؤلاء النقاد الادعاء ، بان ثمة أدباء لم يعانوا ويلات الحرب، لذا فليس من حقهم أن يجعلوا منها موضوعاً يتناولونه في آثارهم ، وبدهي أن منطقاً كمنطقهم هذا، باطل بطبيعته ، وليس في ميسورنا الأخذ به، ولاسيما وأن من لم ينكل به في عصر التنكيل، في مقدوره ان يحيا هـذا العذاب في أثـره الأدبي، في حين أن من شوهت أعضاؤه ، شد ما يحتاج حاجة ملحة الى النسيان والصمت، مما يدحض قول القائل بحـق النقاد الذين تحدثوا عن الشعوذ المجلي من ادبائنا، وحسب « دانتي » (٢٧) مثلا نضربه دعماً لرأينا ، فاما أنه ـ في وصفه كوميديته الالهية ـ كان في جحيم ، او أنـه لم يكن فيه ، يكفيه أنه أثار اهتمامنا ، اذ أن ما يهمنا منه كتابته جحيمـه ٠!

ولا ريب في أن الأدبـاء السويديـين في الاربعينيات بحثوا عن شكل للتعبير ، بـدا أكثر ملاءمـة للاحـداث الماساويـة التي استلهموها ، وانهم شاءوا ان يعطوا ـ في محتوى لا متناسق ـ شكلا لآثارهم غير منسجم، ويعزى السبب ، الى انهم لم يروا ثمة جدوى من اقامة ترابط منطقي بين المحتوى والشكل، بعد ان اتضح لهم ، أن كـل شيء يتنافر والواقـع المتبايـن ، الذي يكتنفهم ، لـذا

(٢٦) غيوم ابولينير : شاعر فرنسي ولد في روما عام ١٨٨٠ وتوفي في باريس عام ١٩١٨ سلك في الشعر الرمزي دروبـا جديدة بشرت بالسريالية ٠

(٢٧) دانتي اليجيري : شاعر ايطالي ولد في فلورنسا عام ١٢٦٥ وتوفي عام ١٣٢١ واشتهر بكتابه « الكوميديا الالهية » كما يعد أبا للغات اللاتينية الحديثة٠

نلقاهم يجدون في البحث عن هذا الشيء ، كيما يعيدوه الى شكل طبيعته ذاتها !٠

★ ★ ★

وقبل ان نمضي بعيداً في تعريفنا بالأدب السويدي المعاصر ، يجدر بنا أن ننوه بشاعر علت به السن ، كان ذا نفوذ عظيم على الجيل الحديث ، نعني به « غونار ايكيلوف » فلقد انضم هذا الشاعر – بادىء ذي بدء – الى الرمزية الفرنسية ، ناهيك عن أنه أسهم أيما اسهام في اطلاع السويديين على الشعر الفرنسي ، في مجموعة ترجماته « من بودلير الى السوريالية » (١٩٣٣) وهي ترجمة شد ما تقرن قيمتها بقيمة الاصول التي ترجم عنها !٠

عاش « ايكيلوف » في باريس من عام ١٩٢٥ حتى حوالي عام ١٩٣٠ فعثر في هذه الحقبة على الالهام ، الذي بان في ديوانه الاول «فوق الارض بعد فوات الاوان» وعلى قدر ما كان الشكل في هذا الديوان ثوريا ، على قدر ما طبعت العدمية المضمون فيه بطابع الفنائية القارية التي سادت الادب الغربي، خلال الحربين العالميتين ٠٠٠ ورويداً رويداً، وحتى صدور آخر دواوينه « لا جدوى » (١٩٤٥) و « في الخريف » (١٩٥١) نراه يقر بمذهب التعقلية (٢٨) الذي اشتد تاثيره في اللاعقلانية (٢٩) التي تميز بها النموذج البوذي ولم يكن تكلف الشكل لديه ، اقل شانا من هذا النموذج ، بيد انه بزه في هدفه الى البساطة ، التي عرف بها أسلوب الاغنية الشعبية والمثل !٠ وأيا كان الأمر ، فان مرد ابتداع « ايكيلوف » مدرسة في الشعر، يعود الى طبعه الذي اقتضاه اتصاله بعلم النفس من نحو ، والى التزامه الثقافي من نحو آخر ، ولئن بلبلت قصائده – في الثلاثينيات – رمزيتها الطليعية ، وحرية تداعي افكارها ، وتكوينها الموسيقي ، لقد اضحى على غرة – في مستهل العقد التالي – رسول الشعراء الشباب ! ٠

ويتجلى المثال الادبي الاول لهذه الاربعينيات في صدور دواوين للشاعر « اريك لاندغرن Erik Lindegren » كديوانه « الانسان بلا طريق » (١٩٤٢) وهو من آثار العصر الاكثر أصالة ، امتاز باحساس بالحدث مبرح، وبازدراء سام لكل ماهو خارجي مزخرف ، وذاتية قوية ، ممزوجة بسخرية رومانسية خفيفة ، كما أنه أول ديوان شعري ، أسمع نبرات ثابتة ، حذا شعراء آخرون حذوها ، على مدى العقد الذي ظهر خلاله ، ثم تلاه ديوانان هما « منظومات متتاليات » و «قربان الشتاء » فقد حشد في رؤى مكثفة ، عظمة بمثابة مراحل ثلاث سمت بالشاعر «لاندغران»

(٢٨) التعقلية : « مذهب يرى أن كل ماهو موجود ، مردود الى مبادىء عقلية)٠

(٢٩) اللاعقلانية : (مذهب فلسفي يقدم اللامعقول ، ويقول بأن العالم لايدرك كله بالمعرفة الواضحة ، بل يتضمن بقايا غير معقولة ، وغير قابلة للتأويل)٠

نحو قمم الغنائية السويدية .. لقد أشاع الديوان الاول « الانسان بلا طريق » الحداثة في الشعر ، كما تجلى فيه القلق والتردد ، وصور الثاني « منظومات متتاليات » ادراكاً للحياة أشد اطمئناناً،وكانت اللغة في تعبيره شجية مطربة ، أما الديوان الاخير « قربان الشتاء » فقد حشد في رؤى مكثفة ، عظمة فلسفة ظاهراتية وحكمة جديدة ، لا تشبه الحكمة النابعة من الديانة ، بل تشبه اليقين والادراك ، وهكذا أضحى « لاندغران » أحد شاعرين عظيمين ظهرا في هذا العقد !.

أما الشاعر الثاني فهو « كارلفنبرغ » وفي حين زاد الاول من وقف نتاجه على التعبير الرمزي الموسيقي ، صاغ الثاني الشكوكية الثنائية الموضحة Second Formulé التي تضمنتها قصائد غامضة شد ما تبدو حكمية تعرض اتجاهاً تحليلياً وثمة شعراء هامون آخرون ، حري بنا ان ننوه بهم هنا ، كالشاعرة « الز غراف » التي تشبه بفضل نبرتها السحرية ، ومواضيعها اللذيذة الأخاذة « هاري مارتنسون » !

والشاعر « رانيار تورسي » وهو أحد الشعراء الأوائل الذين خطوا بالاسبقية في هذا العقد ، وقد ظل مرتبطاً به أشد الارتباط !.

والشاعر « فرنر اسبانستروم » الذيقرن المغزى المتشائم بتصويره الدقيق للقيم !.

والشاعر الغنائي « سفن الفونس »الذي كان أحد نظريي العصر المهمين جداً ، كما كان رائداً من رواد الفئة التي ينتمي اليها !.

★ ★ ★

لئن قلنا ان الاربعينيات قد أوجدتمذهب العقد الغنائي ، فقد أضحى لزاماً علينا أن نشير الى ناثرين وكتاب مسرح لاعداد لهم ، زُودوا بمواهب فذة ، ظهروا في تلكالحقبة، بيد أنهم شد ما كانوا ورثة تابعين،او كانوا - في الأعم الأغلب - يبحثون عن دروبجديدة دون أن يهتدوا اليها كل الاهتداء ، وهنا يجدر بنا أن نذكر كاتبين عنيفين ممن عنوا بالكتابة للمسرح وهما : « ستيغ داجرمان » و « جورن - اريك هوجر » اللذان تفوقا في صورهما الشعبية . كما نضيف اليهما كاتبا آخر هو « اكسل سترندبرغ » الذي تفرغ كعمه الكاتبالمسرحي « اغوست سترندبرغ » (١٨٤٩ - ١٩١٢) لمسرح القضية . ولعل روايات الدوافع والمحرضات التي قدمت على مدى الاعوام اللاحقة من قبل « جيمس جويس » (٣٠) و « د. هـ. لورنس » (٣١)

---

(٣٠) جيمس جويس : شاعر وروائيايرلندي ولد في دبلن عام ١٨٨٢ وتوفي فيزوريخ عام ١٩٤١ نظم مجموعتين شعريتين ، الاولى بعنوان « تصويريون » والثانية « موسيقا الحجرة » (١٩٠٧) وكتب مسرحية بعنوان « منفيون » وسلسلة من القصص الواقعية « فتيان دبلن » (١٩٠٧) كما أصدر عام ١٩١٤ فيتحليل نفسي دقيقروايته «ديدالوس أو صورة الفنان في شبابه » ثم أعقبها برواية « عوليس » وهي تعد منأغربالروايات وقد منعتفي شيكاغو بأمريكا ، وطبعت في باريس عام ١٩٢٢ ، تروي - في

قد تاثرت بدورها بهذا المنهج ! ٠

وثمة تاثير آخر بالغ القوة ، وفد الينا من الادب الامريكي « العسير Dur » ولعل « لارس آهلين » أحد الكتاب الناحين نحو هذا التيار الفكري كما نحا الكاتب « سيفار آرنر » هذا النحو ، في دراساته السيكولوجية ، التي شد ما غالت في تعمقها!٠

سبعمئة صفحة ـ حكاية يوم واحد يقضيه السمسار « ليوبولدبلوم » منذ أن هب من رقاده حتى عودته اليه ، وما تخلل ذلك من أحداث وقعت له في دبلن ٠ ولعل المنولوج الداخلي الذي تغلغل فيه « جويس » حتى أعماق النفس ، لم يحل دونه ودون ذكر أي هجر في القول ، أو اعطاء أية صورة بذيئة عبر عنهما في لغة غنية مشوشة٠

(٣١) روائي وشاعر انكليزي ولد في «استوود» عام ١٨٨٥ ومات في «فانس» عام ١٩٣٠ استهل الكتابة بروايات « الطاووس الابيض » (١٩١١) و «النهاب»(١٩١٢) التي أثارت ضجة لجرأة مؤلفها النادرة في تصويره الحب الطبيعي ، ثم أعقبها بروايات : « أبناء وعشاق » (١٩١٣) و « قوس قزح » (١٩١٥) التي منعت الرقابة الانكليزية تداولها ، و «عشيق الليدي تشاترلي) (١٩٣٢) وقد طبعت بعد وفاته٠أما شعره فينحو فيه نحو المدرسة الخيالية في حسية عنيفة ٠٠ صدر له ديوانان : « قصائد حب » (١٩١٣) و « عشاق » (١٩١٦) ٠

وثمة نموذجان اقتدى بهما أدباؤنا هما « سارتر » و « فرانز كافكا » وأياً كان الامر فان الادب السويدي لم يتفرد وحده بالانتفاع بهذه العوامل ، ولعل مما يلفت النظر حقاً ان مآسي « سارتر » على سبيل المثال ، شد ما كانت تمثل على مسارح السويد ، قبل تمثيلها في بقية البلدان الاوروبية وانآثار « كافكا » و « سارتر » كلها قد ترجمتبادىء ذي بدء في السويد ، مما يدلنا على أن التربة كانت مهياة للاقتداء بهذين الكاتبين ، ناهيك عن أننا كنا نستشعر الحاجة الى هذه التوابل الحريفة ، بعد أن استوفت التشاؤمية المعاصرة مسوغات نظريتها في الفلسفة الوجودية ، التي تاثرت من قبل ـ ب « سترندبرغ » في منهجيتها الكيركيغاردية ٠

أما ما يتصل ب « كافكا » فانه الهم الرمزية التعبيرية للهواجس ، على نحو ما استخدمها كتاب الاربعينيات ٠ ولعل « ستيغ داجرمن » مثل لما أوردناه ، وإن توفي قبل الاوان !٠٠

★ ★ ★

لقد كانت الثلاثينيات عصر الروايات السيرذاتية أما اليوم فان الادب السويدي ينتهج نهجاً ذاتياً لا يسعى فيه الى تحديدمكانة الفرد في عصره فحسب ، بل يحاول تعيين مكانة العصر باكمله ، ولاسيما وان النزعةالاجتماعية التي ميزت العقد الذي سلف ، قد اتسعت كما اغتنت بتاثيرات أخرى ، وعلى حد تعبير « اليكس كومفورت » في حديثه عن « متطوعي الحرب الاهلية الاسبانية » الذي قال فيه :

لقد مضى الادباء مصطحبين « ماركس » ثم آبوا مصطحبين « لوركـا » و « أونامونـو »(٣٢) ولا يخالجنا شك في ان هذا القول ينسحب على ادبنا السويدي المعاصر بمجمله ، إذ سار تطوره من أدب قضية الى أدب ذاتي ثم الى بعث الروحية والتعلق بقيمها كما تجلى هذا التجديد بوضوح، في اختيار الشعراء والكتاب مواضيعهم ، أكثر مما تجلى في تقنيتهم ، أو في لغة الرواية التي يكتبونها !·· وهاهو ذا « لارس فورسيل » وهو أحد الشعراء الشباب ، يوجز لنا هذا المثال بقوله : « مادام الاحساس قد استنتج وحدة موهنة مـع الكلمات أمسى لزاماً عليه ان يسترد – على نحو أو آخر – نقاءه الاصلي فيميت الكلمات ، كيما يبعثها اشد قوة ومضاء ·· امسى لزاماً عليه ان يجتث جذور الاحساس بالكلمات التي خنقت تشنجها ، بحيث تتناسى هـــذه الجذور متعاونة ، ذاتيتها ليغدو في ميسورها التلاقي في مكان آخر جديـد ·· أما نحن فعلينا أن نشـر الكلمات على صخرة الصمت ، كيما نستطيع الاستماع اليها من جديد !·· » ·

تجلى على هـــذا النحو تقسيمنا الكتاب السويديين المعاصرين الى فئتين : فئة «سوداء» وفئة « وردية » بيد أن التعاميم التي أطلقناها، تنبيء – على الرغم من مفارقاتها – بانهـا لا تبرح خدّاعة ، إذ ان الحقيقة تظل وليدة التفرد وان ثمـة أدبـاء يصعب علينـــا تصنيفهم في فئات محددة !···

★ ★ ★

لـم نفرد في عرض حديثنا الذي انثر في الصفحات السابقة أي مكان للباحثين من كتاب المقالات ، وإن الشوق ليهزنا الى اجالة النظر

---

(٣٢) ميغل دواونامونو : كاتب اسباني ، ولد في « بلباو » عام ١٨٦٤ ومات في«سلمنكا» عام ١٩٣٦ · كان واحـداً ممن أثروا أشد التأثير في الحياة الاسبانية المعاصرة· درس عام ١٨٩١ اللغة اليونانية في جامعة «سلمنكا» وبرز كشاعر إثر صدور مجموعته الحلوة « أشعار » (١٩٠٧) وروائي في وصفه مسقط رأسه الذي تضمنته رواياته: « السـلم في الحـرب » (١٨٩٧) و « من موطني » (١٩٠٣) و « مركيز لومبريا » كما بدا فيلسوفاً في دراسته: « احساس الحياة المأساوي» (١٩١٣) واحتضار المسيحية (١٩٢٥) وفقيهاً لغوياً مرموقاً· ثم أمسى ذا مذهب نشيط ، يدعو الى تضييق سلطة الدولة ، وتوسيع نشاط الفرد ، ومضى يهجو حكومة المديرين هجاء عنيفاً لا هوادة فيه ولا لين ، مما حدا بها الى اقالته عـام ١٩٢٤ مـن رئاسة جامعة « سلمنكا » التي شغلها منذ عام ١٩١٤ ونفيه الى جزر « الكاناري » ثم ما لبث أن نزح منها الى فرنسا · وقد كتب خلال منفاه صفحات مشرقة ، ضمنها كتابين « كيف نؤلف رواية » و « أغنية مـن المنفى » · وعنـد الاطاحـة بـ « بريمو دوريفيرا » عاد الى اسـبانيا واضطلع بجانب فعال في الثورة ، التي تأسست إثرها الجمهورية الاسبانية ·

فيهم ، والالمام بجملة ما انتجوا ، ولنيخالجنا شك في أن من سناتي على ذكرهم ، قد انتجوا على نحو ملائم ـ الى جانب آثارهم الادبيةـآثاراً نقدية أو جدالية ولا سيما وان الكثيرينمنهم قاموا بدور مهم كمحكمين وسطاء ، في الآراء والاذواق التي سادت الحقبة التي مروا بها ، وتلك ملاحظة تنسحب لا على المؤلفين القدامى فحسب ، بل على المحدثين منهم كذلك !٠

فـ « اللن كي » كاتبة نشيطة ، ومصلحة طموح ، وحكم في الفن والناس منصف نزيه، تنتمي الى مدارس عام ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ وقد تاثرت بالتيارات الاجتماعية في القرن العشرين بيد أنها لم تبلغ في أسلوبها غاية الكمال ، إلا بعد عام ١٩٠٠ اثر صدور كتابيها «حدس» (١٨٩٢) و « منطق الشعر » « ١٨٩٨ » !٠

و « هانس لارسون » باحث آبدع فلسفة للحدس أصيلة ، ودافع بعد لأي عن فلسفات اخرى مماثلة ، كفلسفة « برغسون » مثلا ، كما طرح كذلك في سلسلة بحوث ، تصوراً للمجتمع والحياة أكثر ثورية ٠ ولعل هـذا الموقف المميز ، هـو الموقف نفسه الذي وقفه « بانفت ليدفورس » الصحفي اليساري ، والاستاذ الجامعي المحترف ، وقد عرف باديء ذي بدء ككاتب مقالات نقدية جمة ، هاجم فيها الكنيسة ، والنظام الملكي ، والاعـراف الاجتماعية ٠

وثمة حدث ألم فاتاح للأدباء السويديين الفرصة كيما يؤكدوا افكارهم في مجـالات متباينة ، ولقد سمي هذا الحدث في السـويد « خصام سترندبرغ » الذي امتد من عـام ١٩١٠ الى عام ١٩١٢ ، وكان ماتى هـذه الخصومة ، حملة قادها « سترندبرغ » ضـد زملائه السويديين ولمة قومية ، توشك أن تكون في الوقت نفسه مدبرة لمنفعته ، وقد انقسم الرأي توآ الى معسكرين : معسكر المدافعين عن « سترندبرغ » انتظم فيه « بلنغت ليدفورس » الذي دعي بالناقد الاشتراكي الديمقراطي و « اريـك هيـدن » الصحفي الليبرالي ، و « جـون لاندكيست » تلميذ « برغسون » والناقد النشيطاليوم ٠٠ وبين معسكر مهاجمي « سترندبـرغ » الذي راسـه مؤرخ الادب « فريدريك بوك » ٠ ولقد هيمن تاثير هـذه الخصومة أمداً مديدا على مجال النقد الادبي العلمي ، كما وجه ذوق المتخاصمين ، وراي الاوساط البورجوازية خلال أعوام عديدة !٠

أما في فنلندة السويدية ، فقد استوفى الجدلالادبي ما أسهم به الباحثون فيالجمالية، ممثلا في الناقدين « ايرجوهين » و « هانس روان » إذ ترك الاول منهمـا وراءه انتاجاً مهماً يعتبر مواضيع أساسية ، تناولت التقليد الفني للكاثوليكية ، في القرن الثامن عشـر الفرنسي وسيكولوجية الابداع الفنية !٠

وكرس الثاني نفسه لدراسة الحساسية الشعرية لدى الشعراء وقرائهم بخاصة ٠

وان دراسات « روان » حـول التصوف الشعـري وبياناتـه عـن التصوف الديني ، تدعونا الى مقارنتها بنظائرهـا من أعمـال « هنري بريموند » ٠ ويبدو أن معظم هؤلاء الادباء ، أمضى ردحا من الزمن ـ طـال أو

قصر ـ منتمياً الى جامعة ، كما أن الفئات التي في ميسورنا تمييزها عن سواها ، تلقت بدورها معالم طابع تقاليدها ، من هذه المراكز المتباينة ، وهاهو ذا « لوند » يعرض لنا في أسلوب مسل ساخر،ترتضيه المناظرات البلاغية ، قضايا محددة غاية التحديد ، كما نعثر على شبيه لهذا الاسلوب لدى « ايفار هاري » عالم اللغة والادب اليونانيين ، والاثري الذي نظف بفرشاته ، العديد من المصنفات التاريخية التي تعنى بالثقافة • كما نعثر عليه كذلك لدن « اول هلمبرغ » مؤرخ الادب ، الذيكتب نثراً ، مفعماً بالفكر المتقن الواعي ، وان التقليد اللوندي (٣٣) ليبدو ـ أن شئنا ـ شكليا وبلاغيا ، بيد أن الاسلوب الذي انتهجه « هلمبرغ » لم يكن اسلوبة مزخرفاً ، لانه تضمن كل ما يستفز العواطف ، ويثير الاحاسيس ، وما ذلك الا لأن جامعات «ابسال» و «ستوكهولم» لم تقدم لنا تجانس الشكل نفسه !•

ولئن أسهمت هذه الفئة بالمقابل ، باسهامات هامة في الجدلالايديولوجي ، فلأن هذه الاسهامات كانت وليدة وحي اشتراكي• أما الرابطة الطلابية « وضوح » فقد كونت « فكتور سفانبرغ » و « آكسل سترندبرغ » الذي سبقت الاشارة اليه !•

و « سفانبرغ » هو مؤرخ للادب امين، من وجهة النظر الماركسية ، و «سترندبرغ» صحفي اشتراكي ـ ديمقراطي ، وقف قلمه على التحري عن الشعر السويدي ، من زاوية

(٣٣) نسبة الى الناقد « لوند » •

اجتماعية ، كما انضم الى هذه الرابطة بله الى فرع جامعة « ابسال » الشاعر الباحث « اريك بلومبرغ » في حينكان نظيره « سفن ستولب » «ستوكهولمية» ، وهو أحد الكتاب السويديين المعاصرين الكثر ـ الى حد ما ـ الذين تحولوا الى الكاثوليكية •• وثمة باحث آخر هو « هولجر اهلنيوس » الذي أسهم في ادخال الادبالفرنسي المعاصر الى السويد !•

أما الأدباء السويديون الذين تفردوا في الكتابة للمسرح ، فقليلون نسبياً ، وفي ميسورنا ان نذكر منهم : الروائي « هالمار سودربرغ » والشاعر « تورهدبرغ » ومؤرخ الفن « رانيار جوزفسون » وهذان الاخيران، كانا مديرين قديمين للمسرح الدرامي الملكي، كما نضيف اليهم الشاعر « كارل رانيار جيرو » الذي يتولى اليوم ادارة هذا المسرح و « ردولف فارنلند » الذي وافته المنية قبل الأوان وكان يعد بانتاج غزير •• والروائي « ولهلم موبرغ » والصحفي « هربرت غريفنيوس »•كما نذكر بين من كانوا أصغر سناً ، اضافة الى أدباء العقد الاول من الاربعينيات ، الشاعر الرقيق «لارسفوسيل» والممثل « ارلند جوزفسون » والروائية « ساراليدمان » ! •

أما من أفلتوا من التصنيف ، من بين الادباء الذين أجملناهم ، فثمة الشاعر « بوبرغمان » الذي يذكرنا ب « جالمار سودربرغ » وان بزه هذا في رقته،وحساسيته الشديدتين ، وتوفيقه بين الجمال الشكلي الذي ران على التسعينيات من القرن الماضي،

والشكوكية التي عرف بها عام ۱۹۰۰ وبين الحساسية المعاصرة ، ولقد بدا الانسان في أثر «برغمان» دمية في يد المصادفة ، وظهرت الحياة هرجة Farce ، والموت مقبلا خلف الافضل على غير موعد ‥ نطالع هذا كله في روايتيه « الدمى » (۱۹۰۳) و « انسان » (۱۹۰۸) وهو ما نلقاه في العقيدة الدينية ، التي جهر بها الشاعر «بوبرغمان» وصانها طوال حياته ، حتى بعد أن عثر على الهدف، الذي راح يناضل في سبيله –رغم كل شيء– سياسة يطلق عليها اسما لاحدى مجموعاته الشعرية،التي صدرت له عام ۱۹۳۱ وحسبه أنه مؤمن بهذا الهدف في شعره نفسه !.

كما نعثر على هذه المثالية الجمالية كذلك، لدن الشاعر الباحث « برتيل مالمبيرغ » بعد أن اهتدى بها عبر قضايا توشك أن تغدو قضايا دينية ، لجيل الحرب العالمية الاولى، واننا لنعثر في آثاره كافة – ومنذ أن أصدر مجموعته الشعرية الاولى « حرائق » (۱۹۰۸) وحتى كراسه الكثيف ، الفائق الحداثة « تحت القوس الهابط من القمر » (١٩٤٧) على الشاعر المتصلب في رأيه ، الذي يلوب باحثا عن معتقده !. وأيا كان الأمر فان الشكل الصلب والواضح – وهو كلاسيكي محدث – يظل طابعه المميز ، مهما كان المحتوى الذي تضمنته قصائده ، من تامل فلسفي،واحساس بالانهيار ، ومسيحية اكسفوردية !.

أما « ارتورلوند كفيست » و « كاران بوي » فنراهما يوحدان القلق النفسي الذي ساد الحقبة التي اعقبت الحرب ، وقيام الحزب الاشتراكي ومبتكرات التجديدية ، كما يكونان في نحو عام ۱۹۳۰ فئة صغيرة من الشعراء الشباب ، دعيت فئة «لوندكفيست» بالشباب الخمسة ، وقد ضمت شعراء من العمال ، استثارتهم الحياة ، واستعبدتهم الآلة ، وسحرتهم قراءة «د. هـ. لورنس»!.

أما فئة « بوي » فقد كانت فئة أدبية من الروابط الطلابية اليسارية «وضوح» !. وحين نكشف عنحياة ذينك الشاعرين نلقاها غنية بالتجارب ، وعلى قدر الشكليات التي ابتدعاها اتى تفلسفهما ‥ لقد كان « لوند كفيست » – الى جانب الجيل الجديد – احد الفاعلياتالمحدثة من أوروبية واميركية ، قام خلال الاعوام الاخيرة ، برحلات طويلة جمة تحدث لنا عنها ، انعشت ايمانه بسياسة اليسار !.

أما ما يتصل بـ « كاران بوي » فقد انطبع شعرهأكثر فاكثر ، بطابع فقد التوازن والاختلال العقلي الذي اعترى شخصيته الممزقة ، الحائرة بين معنى الواجبوالتضحية، وبين الرغبة في المتعة والسعادة ، ولئن بدا هذا الطابعاستغراقا شخصيا صميميا ، لقد كان – في الوقت نفسه – طابع جانب كبير من الغنائية السويدية المحدثة ، التيتتلخص في الأبيات التالية :

مثلت حيالي بارجة
فتقدمت –
بيد أن الذعر
تملك لامتي (٣٤)
واستحوذ عليها الحياء .

(٣٤) اللامة : الدرع .

أما أهم المعتزلين الذين لم يتح لهم بعد مكان في دراستنا ، فهو الروائي « اغنر فون كروز نستييرنا » وقد اشتملت آثاره الأدبية، اضافة الى رواياته القصيرة وأقاصيصه ، على ثلاث مجموعات روائية ضخمة ، تناولت الاولى منها حياة الفتى « توني » (١٩٢٢-١٩٢٦) وروت الثانية قصة اسرة النبيل «فون باهلن» (١٩٣٠ - ١٩٣٥) وعالجت الثالثة اصالة بائس مسكين (١٩٣٥ - ١٩٣٨) . ولقد اتصفت آثار هذا الكاتب بدراية بالناس لا ترحم ، في صوفية شبقة ، وعبادة محمومة ، توشك أن تكون دينية ، كما تميزت شخوصه بغرائز جنسية ، تتمثل في نسوة من الصفوة المثقفة في المجتمع ينطلقن في حياة الضلال والعبث ، ثم لا يلبثن أن ينتهين الى الغرق فيها ، بيد أن قوة تصويره الطباع والبيئات، وغنى هذا التصوير على علاته ، كامنان في أن ما من أحد يستغني عن هذه الآثار ، فثمة مشاهد طبيعية نضرة ندية ، ناهيك عن لغة شفافة كالبلور ، تشكلان معاً اطاراً مسلياً حول قدر ساحرة ، وهو ما يدلنا عليه تصويره شخصياته !.

★ ★ ★

وبعد ..

لقد تبسطنا في الحديث عن أدباء وشعراء وباحثين ، انتموا الى مدارس أدبية شتى ، تنسمنا ريحها فيما كتبوا من بحوث وروايات، وما نظموا من شعر ، وأمسكنا عن التنويه بلفيف من الادباء والشعراء والباحثين ذوي المستوى الرفيع ، ممن وقفوا على حيد الطريق، متأبين أن يصنفوا في أية مدرسة أو مذهب، مما يحدونا في نهاية المطاف ، الى أن نبلو خبرهم ، ونشير اليهم اشارة عابرة،وحسبنا أن نذكر المبرزين منهم ، وفي مقدمتهم : « تاج اوريل » وهو كاتب منمنات في النثر صلبة ، و « اول هدبرغ » الذي اشتهر برواياته البورجوازية.و «تورستن جونسون» و « جورن - اريك هويجر » وهما أديبان من مصوري « نورلاند(٣٥) Norland » الكثر في الأدب السويدي .. و « فالتر جو نغكويست » الذي امتاز بدراساته السيكولوجية الكئيبة ، المفعمة بتصوير البيئة . و« فولك فريدل » الذي أضحى - في العقد الاخير - من الاربعينيات الكاتب البالغ الجودة ، برواياته ذات النزعة المؤيدة للحركة النقابية !.

وفي ميسورنا التعريف كذلك بالحب العذري التقليدي ، في آثار «فرانز. ج. بنغتسون» و « فريتيوف نيلسون بيراتن » (القرصان) و « سيغفريد لاندستروم » .. والواقع أن هؤلاء جميعهم يعرضون لنا المعرفة والفكر، والحكمة المتبصرة الرزينة . ولعل « فرانز. ج. بنغتسون » بقدر ما كان كاتب سيرة شخصية ، وروائيا باحثا ، بقدر ما كان معلم مفارقة Paradoxe ، اذ نراه يمزج في اسلوبه ، أفضل ما أتت به الموضوعية ، من دعابة باردة ، ونزوة وقحة ، ولئن استطعنا أن نختار من بين هؤلاء الادباء الثلاثة اللامعين

---

(٣٥) احدى ثلاث مقاطعات كبرى في السويد.

أديباً تفوق على سواه برفق وتؤدة ، فلسوف نختار « فريتيوف نيلسون ـ بيراتن » الذي يجدر بنا الوقوف عنده ، فهو كاتب فكه ظريف ، له مكانة عالمية ، كما أنه راو ذو اسلوب بسيط يذكرنا باسلوب « ساغا »(*) الاسلندية • استهل انتاجه بمجموعة من قصص الاوغاد ملأى بالمغامرات ، تبدو للوهلة الاولى غريبة كل الغرابة ، وظريفة غاية في الظرف ، فثمة في قصته « بائع الكتب الذي توقف عن الاستحمام » غيمات سود تجيء فتحجب سماؤه ، والواقع أن هذه الغيمات لم تطارد الهزل قط ، بل أعادته قاسياً ماتمياً معقداً ، ولقد ظل « نيلسون بيراتن » وما برح ، ينتهج في اسلوبه هذا النهج •• كما نعثر لديه كذلك ، على هذا الشكل الأرق والأسمى ، وتلك الدعابة السوداء في قصته « الانسان الوحيد » التي ضمتها مجموعته القصصية « حكايات من منطقة فارس » اذ جعل من التصوير البسيط المتقن للشخصيات، والانعكاسات على العزلة ، والدعابة المريرة التي اضفاها على هذه القصة ، أكمل نجاح، وآتى الأدب السويدي المعاصر !•

أما « غبرييل جونسون » و « اولوف لاجركرانتز » و « جوهانس ادفلت » فيصنفون في عداد الشعراء الحيارى الحالمين ، أو اللامبالين ، من شعراء هذا الجيل ، فلقد عرف « جونسون » بانه شاعر البحر ومرافىء الصيد الصغرى ، ناهيك عن أن «لاجركرانتز» هو أحد الدارسين الاكثر أهمية في السويد، اذ عبر عن القلق والتصوف ، وغرائزالطبيعة المجنونة ، في قصائد ذات محتوى كئيب،وحياء عاطفي ، في حين أن « نلس فرلن » هو ناظم اغان ، مزج فيها فرحة الحياة الطفولية بالسخرية اللاذعة ، حيال كل ما يتمخض به المجتمع الحديث ، الذي تبدى له مجتمعاً عابثاً أو مزيفاً !•

ويجيء في آخر المطاف الشاعر « ادفلت » الذي عددناه بين هؤلاء الشعراء ، ليوحد في نظمه بين اللغة المزخرفة الاكثر أيحائية ، وبين تشاؤمية قاتمة ، شد ما عكست قلقه الشخصي ، بقدر ما عكست الازمة العالمية ، وفي مقدورنا أن نضيف الى ما قلناه ، أنلدى هذا الشاعر مثالية تفاؤلية ، وايماناً بان النصر سيظل حليف الفكر رغمكل شيء !•

* * *

نعود الآن بعد تنويهنا بهؤلاء«القناصين» من محترفي الأدب ، وترديدنا النظر في ثبتما أنتجوا من آثار ، الى تبيان الملامح الادبية العامة ، التي يتجاذبها عصرنا فنقول : ان للادب السويدي صلة ودية بتيارات العصر وأحداثه ، دفعته الى الاتحاد بالأدب الاوروبي، وان سلكه الناقل لينطلق ، من عبادة القوة والواقع التي تتوضح في الرواية ، انطلاقه من المذاهب الايديولوجية التي ظهرت قبل الحرب العالمية الاولى ، وهو ماض في دروب القلق التي سار عليها جيل ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وكان أول ممثليها « بارلاجر كفيست »

(*) الساغا : اسم لأقاصيص وأساطير اسكندينافية مكتوبة في اسلندا •

متخطيا واقعية العصاميين الاشتراكية ، ممن ابتدعوا رواية الثلاثينيات ، كيما يبلغ تشاؤمية الاربعينيات الجديدة !•

وهكذا نرى أدباءنا ـ على امتداد هذه الدروب ـ يتدربون على التأثيرات المتبادلة ، بين الشعر الواقعي ، ورومانسية ، أو واقعية الامور الصغرى من نحو ، وبين القضايا الانسانية الكبرى ، أو القضايا الغيبية من نحو آخر !• وحسبنا أن نورد ههنا قصيدة للشاعرة « اديث سودر غران » التي اسمتها « البلد الذي لم يوجد » وعنت بها هذا الموقف الشامل ، الذي يفضي فيه الدرب الدنيوي الى عالم الحلم الوهمي :

أصبو الى بلد لم يوجد ،
لأن جميع من فيه يعييني توقي اليه•
ان القمر ليحدثني ، خلال دورانه
عن بلد لما يوجد بعد ،
عن بلد كل رغبة فيه مرضية على نحو رائع ،
عن بلد حيث ننعش في ندى القمر
جبيننا الجريح !•

• • •

ألا ان حياتي امست وهماً مضطرماً
بيد أني عثرت على شيء ، وربحت
حقاً شيئاً ـ
على درب البلد الذي لما يوجد بعد •

• • •

في البلد الذي لما يوجد بعد
يختال حبيبي ، وعلى مفرقه تاج متلالىء•

• • •

من يكن حبيبي ؟ الا ان الليل داج
والنجوم تتجاوب برعشتها !
من يكن حبيبي ؟ ما اسمه ؟

• • •

تعلو السموات في قبتها الزرقاء
علواً سامقاً ، ولن تبرح سامقة ،
أما ابن الانسان فيتيه في ضباب لاينتهي
دون ان يدري البتة ماذا يجيب ،
بيد ان ابن الانسان ليس شيئاً آخر سوى يقين
فتراه يمد ذراعيه أعلى من كل السموات
ويتناهى اليه جواب :
أنا من تهوى
وستظل تهواني ما حييت (٣٦) !•

(٣٦) عن : Ingvar Holm/Magnus von Platen : La Littérature Suédoise : Le XXe Siècle — P. 190-238 — Institut Sudédois.

رسول حمزاتوف

داغستان بلدي

ترجمة : عبد المعين الملوحي

● أيها المسافر ! اذا لم تعرج على منزلي فليسقط البرد والرعد على رأسك ، البرد والرعد ...

أيها الضيف اذا لم يرحب بك منزلي فليسقط البرد والرعد على رأسي ، البرد والرعد ...

كتابة على باب منزل

● قال أبو طالب : إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك .

بدلا من المقدمة ومن المقدمات على العموم

● عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من سريرك كأن احداً عضك ٠
فكّر قبل كل شيء بما حلمت به في نومك ٠

الطيارة ، قبل أن تطير ، تثير كثيراً من الضجة وبعد أن تذرع المطار كله لتصل الى المدرج تثير ضجة أكبر ، قبل أن تندفع وتطير ، وهكذا لا تقلع الطائرة في الهواء الا بعد أن تتم استعدادها هذا كله ٠

والطائرة المروحية لا تحتاج الى مدرج لكي تندفع ولكنها قبل أن تنفصل عن الأرض تنفخ وتدمدم أمداً طويلا وتأخذها رعدة شديدة ٠

نسر الجبال وحده ينطلق دفعة واحدة في السماء الزرقاء خفيفاً ويعلو ثم يعلو حتى يغيب عن الإنظار ٠

مثل هذا الانطلاق ينبغي أن يكون انطلاق كتاب جيد ، لا مقدمة مملة ، لا تحفظات لا تنتهي ٠ إنك اذا لم تستطع أن تمسك بالثور من قرنيه فلن تستطيع أن توقفه اذا أمسكت به من ذنبه ٠

المغني يمسك بطنبوره(١) ٠ أعرف أن له صوتاً حسناً ، ولكن لماذا يداعب أوتاره زمناً طويلا؟! ولماذا يحلق في عالم آخر قبل أن يبدأ أغنيته ؟

مثل هذا القول يرد في موضوع الكلمة التي تسبق حفلة الغناء ، والايضاحات التي تسبق التمثيلية والمواعظ الثقيلة التي يقدمها أبو العروس الى صهره بدلا من أن يدعوه الى المائدة ، فيصب له كأساً ٠

كان هنالك جماعة من المريدين(٢) يتفاخرون بسيوفهم أيها أكثر مضاء وبفولاذها الذي صنعت منه ، وبالآيات القرآنية المجيدة التي كتبت على نصالها ، وكان بينهم الحاج مراد نائب(٣) الشيخ كامل فقال لهم :

ـ وعلام تتنازعون في ظل أشجار الدلب الظليلة ؟ غداً تخوضون المعركة منذ الفجر وعندئذ تقرر سيوفكم نفسها أيها أقوى وأشد مضاء ٠

---

(١) في الأصل بندور وهي آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار ٠
(٢) المجاهدون ٠
(٣) النائب : مساعد القائد ٠

ومع ذلك فمن عادة جبالنا الا يمتطي الفارس صهوة حصانه أمام داره(٤) • عليه أن يخرج حصانه أولا من القرية(٥) • هذا ما ينبغي أن يكون ، وذلك لكي يستطيع الفارس التفكير مرة أخرى فيما يترك هنا في القرية وفيما ينتظره هناك في الطريق • ومهما كانت المهمة التي يسافر من أجلها فهو يقود حصانه من لجامه في تفكير ودون عجلة من أمره حتى يخرج من القرية • وعند ذلك فقط يقفز على صهوة الحصان فلا يكاد يمس الركاب ثم يغيب في غيمة صغيرة من الغبار وهو مكب على سرجه •

وأنا كذلك ، قبل أن أقفز لأمتطي صهوة كتابي سامضي في تفكيري ودون عجلة من أمري • أقود حصاني من لجامه وأتامل • أتاخر في نطق الكلمات •

الكلام يتلجلج ، في لسان التمتام ، وكذلك في لسان الرجل الذي يبحث عن الكلمة المناسبة ، الكلمة التي لا بديل لها ، الكلمة التي هي أكثر الكلمات حكمة • لست آمل أن أثير دهشة الناس بما في كلماتي من حكمة •

ومع ذلك فلست بتمتام • أنا أبحث ولذلك فانا أصر على انتقاء الكلمات •

قال أبو طالب :

مقدمة الكتاب هي القشة التي تعض عليها امرأة جبلية مؤمنة بالخرافات وهي ترقع معطف زوجها ، لأن الخرافة تقول إن المعطف يمكن أن يصبح كفنا لصاحبه ان لم تحفظ زوجه قشة من التبن بين أسنانها •

قال أبو طالب أيضاً :

أنا مثل من يطوف في الليل ليبحث عن باب مضياف او مثل من وجد الباب وهو يتلمسه تلمسا ولكنه لا يدري ان كان في استطاعته أن يدخل أو أن هذا الباب لا يستحق عناء ولوجه • ويطرق الباب : طق طق طق !

- أنتم يامن في البيت اذا كنتم تريدون طهي اللحم فقد آن لكم أن تستيقظوا •
- وأنتم يامن في البيت اذا كنتم تريدون أن تدفقوا الماء فناموا كما تشاؤون فلا داعي للعجلة •
- وأنتم يامن في البيت اذا كنتم تريدون شرب الخمرة(٦) فلا تنسوا دعوة جيرانكم • طق ـ طق ـ طق •
- اذن فهل أستطيع الدخول او أنكم في غنى عن دخولي •

---

(٤) في النص (ســاكليا) وتعني المنزل في جبال القفقاس •

(٥) في النص (الأول) وهي القرية الجبلية •

(٦) في النص : (البوظة) وهي شراب من طحين الحنطة السوداء والشــوفان يشبه صنعه صنع البيرة •

ان الانسان في حاجة الى عامين ليتعلم الكلام ، والى ستين عاما ليتعلم الصمت • ولست ابن عامين ولا ابن ستين عاماً • أنا في نصف الطريق • ومع ذلك فيخيل الى أني أقرب الى الستين لأن الكلمات التي لم أقلها أغلى على قلبي من كل الكلمات التي قلتها •

الكتاب الذي لم أكتبه أغلى على قلبي من كـــل الكتب التي كتبت • وهو أكثرهــا قيمة وقدسية وصعوبة •

• الكتاب القادم هـــو شعب الجبل الذي لـم أسلكه قط ، ولكنه تفتح أمـام عيني يجذبني الى ضبابه البعيد • الكتاب القادم هو الحصان الذي لم أسرجه قـط ، والخنجر الذي لم أنتضه قط من غمده •

الجبليون يقولون :

لا تخرج الخنجر من غمده دون حاجة اليه ، ولكن اذا انتضيته فاضرب به • اضرب لكي تقتل الفارس والفرس بطعنة واحدة •

ما أحسن حكمتكم يا رجال الجبل !

ولكن قبل أن تشهر الخنجر ينبغي أن تعرف أن حده قاطع •

يا كتابي ! كم سنة عشت في نفسي ! أنت مثل المرأة التي نراها من بعيد ، نحلم بها ، ولكنا لا نستطيع أبداً أن نشم عطرها • كم رأيتهــا قريبة مني ، يكفي أن أمد يدي ، ولكني في خجلي واضطرابي يحمر وجهي ثم أبتعد عنها •

حسبي ما فعلت • لقد قررت أن أقترب منها وأن أمسك يدها • من عاشق خجول أريد أن أتحول الى رجل جريء مجرب •

أسرجت حصاني ، ضربته ثلاثا بسوطي ••• وليكن ما يكون !

ومع ذلك فقد بدأت أضع حفنة من تبغ جبالنا فوق ورقة من ورق السجاير ، وأدرت أصابعي لأجعل منها لفافة ، دون ما عجلة • ما أحسنها حين ألفها وما أحسنها حين أدخنها !

يا كتابي ! قبل أن أبدأ بك أريد أن أقص قصتي معك • كيف نضجت في نفسي ؟ كيف وجدت لك عنوانا ؟ لماذا أكتبك ؟ وما أهداف حياتي ؟

أدخلت ضيفي الى المطبخ رأسا ، كانوا يذبحون خروفا • ليست هذه رائحة لحم مشوي (٧) ، انها رائحة الدم ، اللحم الطري ، جلد الخروف الطازج •

---

(٧) في النص : (شاشليك) •

ادخلت أصدقائي الى مكتبي رأساً ، الى الغرفة السرية التي فيها مخطوطاتي ، وأذنت لهم أن ينبشوا فيها ما شاؤوا •

ومع ذلك فقد كان أبي يقول :

إن من ينبش في مخطوطات غيره مثل من ينبش في جيوب غيره •

ويقول أبي أيضاً :

المقدمة تشبه الى حد بعيد رجلا عريض القفا ، ويلبس فوق ذلك قبعة كبيرة من الفرو ، ويجلس أمامي في المسرح وليته بعد ذلك كله يحافظ على جلسته فلا يميل مرة إلى اليمين ومرة الى الشمال • مثل هذا الشخص يثير غضبي •

من دفتر المذكرات :

اشتركت كثيراً في ندوات شعرية في موسكو وفي غيرها من مدن روسيا • الناس لا يعرفون لغتي ـ لغة الآفار ـ وكنت أقدم نفسي بادىء بدء باللغة الروسية ـ على علاتها ـ في نبرة قفقاسية واضحة • ثم يقرأ أصدقائي من الشعراء الروس ترجمات من أشعاري • ولكنهم كانوا يطلبون مني قبل قراءة قصائدي ان أقرأ واحدة منها بلغتي الوطنية : « نحن نحب أن نسمع موسيقى لغة الآفار وموسيقى القصيدة » واطيعهم وتصبح قراءتي لشعري مثل تسوية أوتار القيثارة قبل بدء الاغنية •

أليس هذا ما يحدث في المقدمات ؟

من دفتر المذكرات :

عندما كنت طالباً في موسكو • أرسل لي والدي نقوداً لأشتري معطفاً شتوياً • وأنفقت النقود ولكني لم أشتر المعطف • وعندما عدت الى داغستان في عطلة الشتاء كنت ألبس ما لبسته حين غادرت داغستان الى موسكو في أخريات الصيف •

وعندما وصلت الدار حاولت أن أعتذر عما فعلت مخترعاً أساطير بعضها أكثر غباء وسخفاً من بعض • وعندما أضاعتني قصصي ضياعاً تاماً قاطعني والدي :

ـ قف يارسول • أريد أن أسألك سؤالين •
ـ اسألني •
ـ هل اشتريت معطفاً ؟
ـ لا
ـ هل انفقت النقود ؟

ـ نعـم

ـ اذن فقد اتضح كل شيء • فلماذا تتقول كل هذه الاقاويل ؟ ولماذا تخترع مقدمة طويلة طويلة كل هذا الطول ؟ وأنت تكفيك كلمتان اثنتان لايضاح ماهو مهم ؟

هكذا رباني أبي •

ومع ذلك فان الطفل الذي ياتي الى الحياة لا يتعلم الكلام مباشرة • إنه قبل أن ينطق كلمة يتمتم ويتلعثم بالفاظ لا تتبين • ويبكي اذا لم تستطع امه أن تعرف ما يريده وما يؤلمه •

أليست روح الشاعر مثل روح الطفل ؟

يقول أبي : عندما تترقب عودة القطيع من الجبل تظهر لك اول مايظهر قرون الكبش الذي يمشي أمام القطيع ، ثم الكبش كله ثم يظهر القطيع • وعندما تترقب قدوم العروس أو قدوم المأتم يطلع عليك الرسول بشيراً أو نذيراً •

وعندما تترقب وصول الرسول من القرية ترى قبل كل شيء غيمة صغيرة من الغبار ثم الحصان ثم الفارس •

وعندما تترقب عودة الصياد ترى كلبه اولا •

من النوع نفسه

« الأحمق يضرب بالصراخ ، والعاقل يضرب بحكمة تقع موقعها » •

« غن اذا حل الربيع ، واحك حكايا اذا جاء الشتاء » •

ها انذا امام الجبل الذي يجب علي أن أجتازه مع حصاني الباسل استطيع أن أجتاز أصعب الثنايا • الجبل هو موضوعي ، والحصان هو لساني•ومع ذلك فيجب علي الآن ان أختار الدرب الذي يجب أن أسلكه لأتغلب على الجبل العاتي •

كان كل أجدادي الجبليين يفضلون الدرب المستقيم • انـه أكثر مشقة وأشد خطراً ولكنه أقصر الطرق •• قد يكون سبباً في هلاكك ولكنه يقودك الى هدفك في أقرب وقت •

ها انذا أمام حصن يجب علي أن اقتحمه • وها انذا أملك سلاحاً ممتازاً لا يفل في المعركة • الحصن هو موضوعي ، وسلاحي هو لساني • يجب أن تنتقي أسهل وسيلة للاستيلاء على هـذا الحصن المنيع • هل تاخذه على حين غرة ؟ أو بعد حصار طويل الأمد ؟

هذا هو حقل الذرة ، وهـــذا هو الماء في مجرى السيل ولكن كيف يمكن ان نجر هذا الماء الى ذلك الحقل ؟

وهذا هو الحطب في المنزل ، وهذه هي القدر وتلك هي المواد التي يمكن أن تطبخ في القدر• ولكن ما لون الطعام الذي تريد تقديمه عند الغداء ؟

عرض علي مدير المجلة أن أختار ماشئت من ألوان الادب : قصة ، رواية ، قصيدة ، مقالة • كلما اتسع الممكن عسر الاختيار •

من دفتر المذكرات :

في معهد الآداب جرت الامور على النحو الآتي : كنا في السنة الاولى عشرين شاعراً وأربعة قصاصين ومؤلفا مسرحيا • في السنة الثانية أصبحنا خمسة عشر شاعراً وثمانية قصاصين ومؤلفا مسرحياً وناقداً أدبيا • في السنة الثالثة صرنا ثمانيــة شعراء وعشرة قصاصين ومؤلفاً مسرحياً وستة نقاد • وفي نهايـــة السنة الخامسة بقينا شاعراً واحـداً ومؤلفاً مسرحياً واحـداً وسائرنا أصبحوا نقاداً •

الحق أني أبالغ ، وتلك نادرة من النوادر • ولكن كثيراً من المؤلفين يبدؤون حياتهم شعراء ثم ينتقلون الى النثر ثم الى المسرح واخيراً الى المقالة • وفوق ذلك فقد أصبح الطراز الادبي الجديد كتابة (الحوار • السيناريو) •

كان هنالك ملوك وسلاطين يطلقون زوجاتهم لأنهن عاقرات • وبعد أن يبدلوا عـدداً كبيراً من الزوجات يقتنعون أخيراً أن المسئولية لا تقع على الملكات • ونجد في مقابل ذلك فلاحاً عاش حياته كلها مع امرأة واحدة وهاهو ذا ينط اثنا عشر ولداً في بيته •

اليكم ما افكر فيه : اشرب الخمر ولا تحتقر الخبز • غن اغنيات ولكن أصغ الى الحكايات • اقرض الشعر ولكن لا تطرد النثر •

في النثر :

عندما كنت طفلا كانت أمي تغني لي اغنية المهد • الأغنية نفسها دائماً ، كانت لا تعرف غيرها • ورغم أن ابي كان شاعراً شهيراً فلم يكتب لابنائه قصيدة واحدة • كان يسره أن يقص علينا قصصاً أو حوادث أو نوادر • ذلك كان نثره •

كان أبي لا يحب أن يتحدث عن قصائده • كنت أحس أنه يعتبر الشعر أمراً ليس فيه جد كثير• المسائل الجدية عنده هي فلاحة الارض ، اصلاح الزريبة ، العناية بالبقرة والحصان ، جرف الثلج عن السطوح ، وبعد ذلك الاسهام – على قدر المستطاع – في أعمال القرية حيناً وحتى في أعمال المقاطعة حيناً • كان اذا نظم قصيدة لايهمه أن يعرف أين تنشر ، وسـواء عنده انشرت في مجلة العاصمة أو في المجلة المخطوطة التي يصدرها طلاب القرية بل لقد لاحظت أنه كان أكثر سروراً اذا نشرها في مجلة الطلاب •

كان يردد مسروراً الكلمات التي قالها أنس محمد لولده محمود شاعر الغزل الشهير • كان اذا عاد الى بيته طفلا مدللا يشغله الحب وأغانيه عن كل شيء ، أصفر اللون جائعاً ، يقول لـه والده في هدوء :

ـ كل القصائد واشرب الحب • كفاني ما حملته من حرارة الارض بدلا عنك •

نعم ان الاغنية ضرورة هي ايضا للعصفور ، ولكن مهمة العصفور الاولى أن يبني عشه وأن يجد رزقه وأن يغذو صغاره • كان أبي يعتبر قصائده مثل أغاني العصافير من كل الجوانب • انها جميلة ، لذيذة ولكنها ليست مما يستغنى عنه • انه يعتبرها مثل « صباح الخير » تقولها في كل صباح ، « ومساء الخير » تقولها عند كل مساء عندما تمضي لتنام ، مثل التمنيات الطيبة في المناسبات الحلوة أيام الاعياد أو التعزيات المرة في ساعات الشقاء •

يظن بعض الناس أن الشعراء يقفون على هامش الاحداث في هذا العالم ، وان لكل واحد منهم مزاجه الخاص • أما أبي ، فكان ذلك الجبلي البسيط في طبيعته وفي طريقة عيشه • كان يحب قبل كل شيء الحوار الطويل الهادىء الذي يديره رجال يتحلقون حول موقد النار ويتحدثون عن كثير من الامور دون أن يقاطع أحدهم صاحبه ، كان يفضل دائما هذا اللون من النثر •

لقد عرض أبي قصائده الاولى على الشاعر المجيد ليرى فيها رايه • ودهش الشاعر وقال انه لا يفهم أن يكون موضوع الشعر بقرة او جراراً أو كلاباً أو الطرق المؤدية الى قرية (خنزاخ) ويساله أبي في حياء :

ـ وعم يجب أن نتحدث ؟

ـ عن الحب ، والحب وحده • يجب أن نشيد قصر الحب •

قصيدة لمحمود :

أنا الذي شيدت قصور الحب
أتشرد تحت المطر والريح في الطرقات
الجسر الملكي الذي بنيته لعواطفنا
تهدم وأنا فوق صخرتي وحيد •

لم يبن أبي قصراً للحب • ولم يهتم به قط • كان كل مايشغله ، كان قصر قصائده : البيت والاسرة ، الاولاد ، القرية ، الحصان ، البلد ، السلام ، الارض ، السماء ، المطر ، الشمس والزرع •

الحق أنه كتب ذات يوم قصيدة غزل • ولكيلا يقرأها أحد غيره وغيرها كتبها باللغة العربية• كانت قصيدة غزل بالمرأة التي أحب •

أحب أبي الحكمة وهدوء القصة • ياخذني عند المساء ، وقت الغروب فوق ركبتيه ويلفني بعباءته الدافئة ويقص علي القصص دون أن يتعب • يقص قصة أولئك الذين سافروا بعيداً في ديار الغربة ، وأولئك الذين ظلوا في أرضهم صامدين ، يقص قصص الطرق والأنهار وتفتح الازهار والنحل الذي يحوم عليها ويرشف رحيقها ، يقص قصة الشمس كيف تشرق ولماذا تغيب •

يتحدث عن العادات والتقاليد في العصـور الخاليـة وعن الادعيـة التي يدعوها المحاربون قبـل بـدء المعركة ·

كان يكفيه أن يرى السماء متفحصا ليعرف هـل تمطر غداً أو هل سيكون النهار صاحياً · يعرف ان كان المطر عاماً يشمل كل ماحولنا أو ان الشمس تشرق على قرية (تيليتل) وهذا يعني ان الجليد يكتسح هضبة (خنخاج)

يقص علي قصة السنبلة وكم حبة فيها ، وكيف تحدث قوس قزح بالوانها الجميلة ·

فاذا رأى الناس مسافراً يتنقل من قرية الى قرية كان أبي يذكر في وضوح من هذا المسافر ولماذا يسافر وفي اي بيت سوف يقضي ليلته ···

آه لم لم يكتب كل هذا واكتفى بروايته · هذا ما يمكن ان يكون نثر الشاعر نثر حمزة تسداداسـا ·

القصة والحياة عنده شيء واحد · يعتبر الفكر قصة ويعتبر القصة فكرا · أما القصائد فيشبهها بقلب ذي أهواء ·

ليته خط كل قصصه على ورق · لأن هذا القلب صاحب الاهواء هو الذي بسط سيطرته علي منذ أصبحت كبيراً · عندما يمر بي عصفور لا أسأل لماذا يطير ولا الى أين يذهب ولكني أريد أن أمسك به وهو يطير · ورغم كل الجهد الذي كان يبذله أبي في قصصه كنت افضل عليها جميعا أغنية المهد التي كانت تغنيها لي امي ، وكانت أغنية واحدة لا تتبدل · هـذه الاغنية رافقت طفولتي ، ولحقت بي في شبابي وما تزال معي هنا وقد غدوت رجلا ، وهي التي سترافقني وقد شاب عارضي ·

فهمت اليوم ، رغم كل الاماكن التي تشردت فيها والاشعار التي صغتها ان كانت لي هنالك دائما تلك الصخرة التي تنتظر النسر الذي يقف فوقها ، والشجرة التي تترقب العصفور الذي يبني عليها عشه ، والبيت الذي يتوقع الضيف أن يطرق بابه ، والنثر الذي ينتظر الشاعر ·

وأنا اقف على الصخرة التي تنتظرني ، واقرع الباب الذي يفتح أمامي ليستقبلني البيت · فهمت اني لا أستطيع بالشعر وحده أن أعبر عن كل مارأيته في الارض وعن كل ما فكرت فيه وعن كل ماشعرت به ·

فهمت أن النثر ليس أغنية يمكن أن نغنيها ونحن وقوف · ولكنه أمر يدعو الى أن تجلس وراء منضدتك ، وتقلب كميك ، وتضبط المنبه على ساعة مبكرة من ساعات الصباح وأن تصنع ابريق شاي كثيفة لكيلا تنام الليل ·

حقاً إن الاساس اذا كان متيناً والدعائم اذا كانت وطيدة أمكن أن نتابع عملية بناء البيت ، مهما كان هذا البيت : قصة أو رواية أو أسطورة أو تاملات أو كان مقالا من المقالات ··· سيقول

لي بعض المحررين والنقاد : هذا الذي كتبت ليس رواية ولا قصة ولا اقصوصة بل نحن لا نعرف ما يمكن أن يكون •

ويقول لي محررون ونقاد آخرون : إن ما كتب هو هذا أو ذاك أو أشياء أخرى •

اما أنا فلا أصر على إعطاء هوية لما اكتب•عمدوا بالاسم الذي تختارونه ما سوف يخطه قلمي• لست أكتب لكي أوافق واحداً من القوانين الكنسية التي وضعتموها ؛ ولكني كتبت ماكتبت لألبي نداء قلبي • والقلب لا يعرف قانونا ، أو على الصحيح إن للقلب قوانينه التي لا تناسب الناس جميعاً •

اتساءل : هل أنا افسد المائدة اذا خلطت في القدر الواحدة اللحم والرز والفاكهة والفلفل ثم أضفت اليها الملح والعسل ؟ أو أن ذلك سيصبح طعاماً لذيذاً متميزاً ؟ ليحكم على ذلك من سياكل •

حكايتي ، قصتي ، تاملاتي •! عندما كنت طفلا كانت تمر بي ليال لا أذوق فيها للنوم طعماً وأنا أنتظر في قلق عودة إخوتي أو أبي • كنت أميل باذني أسترق السمع الى صرير الباب ، وتصبح الدقائق ساعات •

في هذه الليالي كان جدي يهرع الي ، ويشرع في سرد شيء ما في هدوء ، كان قصة أو أغنية أو مثلا أو كلمة مضحكة حيناً ورهيبة حيناً أو مزاحاً والزمن ـ الدقائق والساعات ـ يمحي ، ولا يبقى الا صوت جدي واللوحات التي يخلقها خيالي • ويقاطع أبي أو اخوتي بعودتهم حديث جدي • ما اصعب أن تقطع عودتهم خيوط القصة الرائعة •

واليوم وقد أصبحت كهلا مازلت اذا قمت برحلة في العالم أسرع في العودة الى بيتي ، كما كان يسرع في العودة اليه أبي أو اخوتي ، وكلما اقتربت الرحلة من نهايتها زاد خفقان قلبي وأعدت ثم أعدت حساب مابقي لي من مراحل ، وها هو ذا أحد رفاقي في الرحلة يحدثني عن حادثة مسلية أو واقعة ، عن حكاية أو قصة ، وأنا أصغي اليه في إهتمام ، وها نحن هؤلاء قد انتهت رحلتنا • فما اصعب أن لا ينتهي صاحبي من حكايته • وأبي يسال :

إذن : ماذا حدث في الجبل ؟ والدرب ألم يقطعها الثلج ؟

وأنا أيضاً لا أتذكر الجبال ولا الدرب ولا الثلج • اتذكر ماحدثنيه صديقي البليغ • هذه الحكايات تحول الجبال في نظري الى سهل فسيح أفيح ، والثلج المتجمد الى قطن دافيء •

أيتها الحكايا ، يا تاملات قلبي • أفي مقدوركن أن تجعلن انتظار الحبيب اقصر مدى في ليلة

من ليال الشتاء الطويلة ؟ أفي مقدوركن أن تجعلن الطريق الشتوي الطويل الذي يودي الى دار الاهل الحزينة أقل طولا وأقرب سبيلا ٠

من عادتي في قصصي المضجرة ان أضيف ـ كما تضاف الاعشاب ذات الرائحة الطيبة الى الحساء لتعطيه مذاقا افضل ـ من عادتي أن أضيف اليها مثلين سائرين أو كلمتين مأثورتين ٠

صبايا قريـة (تيللوخ) يضعن وشمين ملونين فوق أذقانهن قرب فتحة الشفتين ٠ أيمكن أن تكون الامثال السائرة في نشوة مثل هذين الوشمين على شفتي الصبية الحلوة ؟

أصب في قصصي ذكرياتي وبعض ماهو مسجل في مذكراتي كانني أضع احجاراً غير متساوية في حائط صقيل ٠ ان كل حجر قد لا يكون بالضرورة صالحاً من أجل الحائط ٠ وبعد أن أضع بعض هذه الاحجار أعود الى قصتي وأشعر بما يشعر بـه المؤمنون حين تطول الصلاة بينما يكون القلب مشغولا عنها ٠ أنا مضطر الى أن انتزع من الحائط الحجر الذي لا يناسبه ٠

وهكذا انتقل من القصـة والاغنية الملتهبتين الى القصـة الهادئة الى النثر ٠ ولكني عندما كنت أقرر أن أهجر الشعر الى النثر كان الشعر هو الذي لا يريد ان يهجرني ٠ إنه مثل قط اليفياتي يندس في فراشي وتحت لحافي عندما أنام ٠ وعندما أفتح نافذتي عند الصباح يتسلل الي كمـا يتسلل شعاع الشمس من وراء الجبال ٠ إنه ينتظرني في قعر الكاس مع قطرات الخمرة الباقية ، والتي هي أطيب مافي الكاس ٠ إنه يطاردني في كل مكان كانـه امرأة خدعتها فهي تلقاك فتسد عليك طريقك :

ـ أحق أنك تريد ان تهجرني ؟ ولكن فكر قليلا هل تستطيع أن تعيش دوني ٠ إنك وعل الف مرعاه في الغابات الرطبـة ٠ إنك سمكة تعودت أن تسبح في المـاء الذي يجري سريعاً بارداً كالثلج ٠ أتظن أنك ترضيك بحيرة دافئة ساكنة ؟ حسناً مادمت قررت أن تذهب فتعال نجلس معاً لحظة قبل أن نفترق ٠

أيها الشعر ألا تعرف أنني لا أستطيع لك هجراً ؟ أأستطيع أن أهجر كل الافراح التي تولد في نفسي ؟ كل الدموع التي تغرورق في عيني ؟

أنت مثل البنت التي جاءت الى العالم ، والعالم كله ينتظر صبياً ٠ أنت مثلها حين ولدت وكانها بولادتها تقول : « أنـا أعرف أنكم لا تنتظرونني ، وأعرف أن ليس فيكم حتى الآن مـن يحبني ٠ ولكن دعوني أكبر وأتفتح ٠ دعوني أسرح شعري وأغني أغنية ٠ عندئذ سترون ان ليس في العالم كله من يجرؤ فيدعي انه لا يحبني ٠

شـــعر :

يأتي العمل أولا ثم تأتي الراحة
يأتي السير الجدي أولا ثم تأتي عشر دقائق من الوقوف
أنت لي هذا السير العنيف وذلك الوقوف
أنت لي تلك الراحة وذلك العمل العنيف

أنت الأغنية التي نمت على أنغامها في المهد وحلمت بها فوق وسادتي
أنت حلمي البطولي وحلمي الربيعي
أنت ولدت يوم ولد حبي
وقد ولدت أنا وولد الحب معي ٠

عندما كنت صبياً كنت لي أما
وأنت اليوم حبيبي وغـدا
ستكون لي الابنة التي تسهر على شعري الأبيض
وستبقى ذكرى رمادي
حين أغيب في قبري ٠

أنت تبدو لي حينا جبلا لا يرتقى
وتبدو لي حيناً عصفوراً اليفاً أنيسا
أنت الأجنحة التي أطير بها
أنت السلاح الذي أخوض به المعركة
أنت لي كل شيء ما عدا هدوئي
سواء أكنت طيبا أو خبيثا فقد أخلصت في خدمتك

ولكن أين ينتهي الجهد وأين تبدأ الراحة ؟
أين ساعات السير الجاد ولحظات الوقوف ؟
أنت لي هذا السير الجاد وذلك الوقوف
أنت لي تلك الراحة وذلك العمل العنيف ٠

قال أبي :

لكي تسكت ثرثاراً متطفلا ينبغي أن يتولى الكلام شيخ محترم أو ضيف ممتاز • واذا لم يوقف الثرثار موجة بلاغته الفارغة يجب أن تغني أغنية • وأذا لم تنجع الاغنية ولم تؤثر فيه فعليك ، دون خجل ، أن تقبض عليه من عنقه وأن تقذف به الى الباب • بل لك الحق في أن تضرب كل من يقاطع الأغاني •

أيها الشعر :

انت تعرف أكثر من الناس جميعاً أن كل ما يقولونه عنك لايجعلك أكثر جمالا ولا أكبر قدراً• أيمكن أن نمجد الاغنية بحديثنا عنها ؟ أيمكن أن نزيد سيل الجبل اذا القينا فيه جرة ماء ؟ أيمكن أن نقوي هبوب الريح اذا نفخنا فيها ؟ أيمكن أن نزيد عظمة جبل سامق يضيع بين الغيوم اذا حملنا الى ذروته قبضة ثلج ؟ أيمكن أن نزيد في حب الام لولدها اذا البسناه ثوباً أو خططنا له شارباً ؟

أيها الشعر :

أنا ـ لولاك ـ يتيم •

شعر :

لولاك كان العالم مغارة من الظلمات
لا تعرف قطرة شمس •
أو سماء دون نجم يلمع •
أو حباً لا يعرف حرارة قبلة •

لولاك كان العالم بحراً لا زرقة فيه
ولا رطوبة خالدة ولا حركة لا نهائيه •
أو بستانا لا أزهار فيه ولا أعشاب
ولا أغنيات بلبل ولا نغمة صرصور •

لولاك لكانت الاشجار عارية سـودا
لا شيء غير ضباب تشرين ، لا صيف ولا شتاء ولا ربيع
لكان الانسان وحشاً وشقيا
والأغنية ••• ولكن الأغنية لا يمكن أن تكون •

يقول الآفار(١) :

« لقد خلق الشاعر قبل خلق العالم بمائة عام » وكأنهم بذلك يريدون أن يقولوا : لو لم يشترك الشاعر في خلق العالم لما كان في هذا الجمال •

كنا أربعة إخوان ، وأختاً واحدة • وكان أختنا أكبرنا سناً • وكان نصيبها ــ مثل نصيب كل فتاة جميلة ــ كثيراً من العمل ومن الحزن ومن الدموع • وكان أبي غالباً ما يقول :

ــ أنكم أربعة • وأختكم واحدة • احرصوا عليها ، اعتنوا بها • ليس في العالم من هـو أقرب اليكم من أختكم • حقاً • ان أختي أغلى الناس عندي • ولكن لي أختاً أخرى ولست أدري أيتهما أغلى علي : أختي تلك أو قصيدتي •• لا أستطيع العيش دونها •

اتساءل أحياناً • من يحل محلها ؟ نعم ستبقى لي الجبال والثلج والغدران والمطر والنجوم والشمس والخبز ••• ولكن هل تستطيع الجبال والمطر والازهار والشمس أن تستغني عن الشعر ؟ وهل يستطيع الشعر أن يستغني عنها ؟

لولا الشعر لتحولت الجبال الى كومة من الحصا ، والمطر الى ماء آسن ومستنقع ، والشمس الى جرم سماوي مشع له قدرة حرارية •

وأتساءل أحياناً : ما الذي يمكن أن يحل محل الشعر ؟ نعـم هنالك بلدان بعيدة ، وأغنية عصافير ، وشمس وقلب يخفق • ولكن لا يمكن أن يبقى ذلك كله كما كان لولا الشعر • تبقى المفاهيم الجغرافية ، بدلا من نداء البلاد البعيدة ، يبقى خزان مياه كبير بدلا من البحر • تبقى صرخة ذكر يدعو أنثى بدلا من أغنية عصفور ، تبقى مجموعة من الغازات بدلا من الشمس الزرقاء ، وتبقى الدورة الدموية بدلا من خفقان القلب •

نعم هنالك الحنان والطيبة والشفقة والحب والجمال والشجاعة والحقد والكبرياء ••• ولكن

(٨) قبيلة الشاعر •

كل هذه المفاهيم ولدت من الشعر وولدت الشعر • هذه المفاهيم لا يمكن أن تعيش دون الشعر ، والشعر لا يمكن أن يعيش دونها •

لقد خلقني شعري وخلقت شعري • ويموت واحدنا ان مات الآخر ، لا نعد في الوجود • لي عضلات ولي عظام • لا تستطيع العين المجردة أن ترى العظام في داخل الجسد وأن تحدد ماهو سليم وقوي منها ، وماهو مكسور ثم جبر ، ومع ذلك فهذه أشعة (اكس) تخترق عظامي ، فاذا كل ماهو مغطى وكل ماهو سري تراه العين •

إن روحي أكثر خفاء في أعماقي ، أكثر خفاء من أضلاعي وعمودي الفقري ورئتي • وها هي ذي أشعة الشعر تخترقها وتصبح كل نامة في روحي معروضة على الناس • روحي على يدي مفتوحة شفافة ، تخترقها أشعة الشعر السحرية ويستطيع الناس أن ينظروا خلال نفسي •

الآلة الحاسبة الحديثة لها ألوف من الاسلاك والحجيرات • يمكن أن تعهد اليها بأشد البرامج تعقيداً وبعدد كبير من الارقام • ويجري التيار الكهربائي في الاسلاك والحجيرات التي لا تكاد تحصى عدداً •• ولا تستطيع عين ولا عقل أن يحيط بالعمليات التي تدور في هذه الآلة • ولكن هاهو ذا رقم يظهر : انه الجواب النهائي ، النتيجة •

ولا يستطيع انسان أن يحيط بالاتصالات ، بتيارات الحب والحقد التي تجري على طول الاسلاك التي لا تحصى في جسدي • ولكن هاهي ذي القصيدة الشيء النهائي ، الشيء الرائع الذي يمكن لروحي أن تبدعه منطلقة من مشاعرها في الحياة •

لقد شققت الأرض شقة ، مشياً على الاقدام أو على صهوة الحصان ركبت الطائرة ونعست في مقعدي ، وسافرت في القطار مضطجعة على السرير الفوقاني ، وركبت السيارة أحياناً والناس يقولون وهم يرونني في شعاب الجبل أسير أو أركب الحصان : ها هوذا رسول حمزة ، إنه وحيد ، ولعله أن يسأم • ولكني لم أكن في يوم من الايام وحيداً • هي ــ قصيدتي ــ دائمة معي • نحن لا نفترق لحظة من اللحظات • وحتى في الحلم أنظم أحياناً بعض الابيات أو أتذكر الابيات التي كنت نظمتها أو أقرأ قصائد الشعراء •

ظننت أمداً طويلا أن عدد الشعراء في الارض قليل • وأن الشعراء يملون مللا غير قليل وهم يعيشون بين الناس غير الشعراء • كل انسان له مايشغله في الحياة ، ويمكن أن يتحدث عنه الى صديق أو جار : عن العمل ، والزوجة ، والاجور ، ويوم العطلة ، ومنزل الاسرة ، والصيد والسينما والامراض ••• نعم إن الشاعر يمكن أن يتحدث عن كل هذه الاشياء مع الناس ولكن من ذا الذي يمكن أن يشاطره مفهومه الشعري عن العالم ، قصيدته ؟

واخيراً فهمت أن ليس في الناس من ليسوا شعراء • كل واحد منهم شاعر في روحه الى حد ما•

وكل واحد منهم زاره الشعر • ما من ذلك بد ، كما يزور الصديق الحميم(٩) منزل صديقه •

إن حب الاغنية عند شعبنا طبيعي مثل حب الاطفال • نعم نحن جميعاً شعراء • والفرق بيننا أن بعضنا ينظمون الشعر لانهم يعرفون كيف ينظمونه ، وبعضنا ينظمون الشعر لانهم يظنون أنهم يستطيعون نظمه ، وبعضنا لا ينظمون الشعر على الاطلاق • ومن يدري فلعل هذه الزمرة الاخيرة أن يكونوا فعلا هم الشعراء حقاً •

لقد مر بي عهد كنت لا أنظم فيه شعراً فهل كنت آنذاك غير شاعر ؟ هل كان قلبي يخفق أقل مما يخفق الآن ، هل كان دمي أقل حرارة مما هو الآن ؟ هل كانت الآلام أقل تأثيراً في نفسي ؟ والافراح أقل إسعاداً لها ؟ هل كانت عيناي تريان الارض أقل جمالا مما تريانها الآن ؟ هل كنت أقل احساساً بروعة النجم الازرق يبدو مزقة بين الغيوم السود ؟ هل كانت ترنيمة النهر أقل انسجاماً في نغمتها من ترنيمة اليوم ؟ ألم أكن أهتز لصرخة الكركي وصهيل الحصان ؟ ألم تكن الدموع تملأ عيني وأنا أصغي الى أغنية قديمة أو الى الاساطير الرائعة التي يرويها آباؤنا ؟

أتذكر ••• عندما كنت صغيراً تطوعت عند جارنا لكي أحرس حصانه ••• ولقاء ذلك كان على الجار أن يقص علي قصة وكان علي أن أحرس الحصان ثلاثة أيام •

أتذكر ••• كان ذلك في العهد الذي كنت أرافق فيه الرعاة الى الجبل ••• نصف النهار ينقضي في الغدو ونصف النهار ينقضي في الرواح •• واذا كنت أغدو وأروح معهم فما ذلك الا لكي أسمع قصيدة واحدة •

كمثرى (أونتزوغول) وعنب (إمري)
وعسل (بصرى) وأغاني (الآفار) ••••

أتذكر :

عندما كنت في السنة الثانية من المدرسة سرت في الدروب الوعرة في الجبل المؤدي الى قرية (بصرى) وهي تبعد عشرين كيلو متراً عن قريتي تسادا • كان فيها شيخ عجوز هو صديق والدي الحميم •كان يعرف كثيراً من الاغاني القديمة ومن الشعر ومن الاساطير • وظل العجوز أربعة أيام من صباحها الى مسائها وهو يغنيني القصائد وانا أحاول على قدر ما أستطيع أن أسجل ألحانها • فاذا عدت الى المنزل عدت جد مسرور وجعبتي ملأى بالقصائد والاغاني •

---

(٩) قوناق في الاصل : الصديق الحميم (م.ف)•

يشرف على (بصرى) جبل عال ، فلمـا جزتـه طلعت من حيث لا أدري كلاب الرعاة الضخمة المتوحشة • كانت تنطلق في العشب الاخضر كما تنطلق الصواريخ في الامواج لتصل الى جناح السفينة الأسـود • كنت أرى أشداقها المفتوحة ذات الأنياب الصفر السائلة الدقيقة التي كادت تمزقني إربا إربا كنت أسمع صرخة الراعي :

ـ نم ••• لا تتحرك •

وأستلقي في الارض والتصق بها ولا أتحرك • أخاف أن أتململ حتى كدت أظن أني لاأتنفس• قلبي وحده كان يخفق فوق الارض في قوة ، وخيل الي أن خفقاته تسمع بعيداً حولي • ووقفت الكلاب حولي تشمني وتشم جعبتي وما فيها من أشعار • وتظن الكلاب أنها أخطات وينظر بعضها الى بعض نظرات حائرة ثم تهرع الى شخص تتصوره في خيالها وتختفي وراء الجبل • وأبقى مستلقيا في مكاني حتى يقترب مني الراعي ووراءه قطيعه :

ـ من أنت

ـ أنا رسول بن حمزة من تسادا •

وسميت أبي عامداً على أمل أنيسمع الراعياسمه فيكون أكثر حفاوة بي ولايسمح بالاساءةالي•

ـ وماذا تصنع هنا في الجبل ؟

ـ ذهبت الى بصرى لأبحث عن قصائد • إنها هنا في كيسي •

وسحب الراعي القصائد من كيسي وجعل يتفحصها :

ـ أتريد أن تكون أيضاً شاعراً ؟ إذن فلماذا تخاف من الكلاب ؟ ستلقى في طريقك في المستقبل كلاباً أشد سعاراً ، وهؤلاء لن يتركوك اذا شموا رائحة القصائد كما تركتك كلابي هذه • ولكن لا تخف ، لا تخف شيئاً على الاطلاق • أتعرف هذا الجبل ؟ من هـذا الجبل قفز الحاج مراد لكي يتخلص من حراسه • وبقي الحراس وأيديهم فارغة ، واستطاع الحاج مراد الفرار • ان الجبال في بلدك تهب الى نجدتك •

ظننت أمداً طويلا أن نار الشعر التي تضطرم في نفسي ، والقلق الذي يعيش دائماً في روحي والحب الذي اختار منزلا له في قلبي ، وصخب الدماء في عروقي ، ظننت ذلك كلـه أمراً موقوتاً سرعان مايمضي •

وها أنذا الآن وقد ابيض شعري ، وكبر أولادي ، وشاخت كتبي ، ولكن هذه العواطف لـم تهجرني • وما يزال الشعر أكثر أصحابي إخلاصاً لي •

وأنا الآن أتوجه اليه واخاطبه •

أيها الشعر :

أنت لم تفارقني في رحلاتي الطويلة عبر العالم وعبر الحياة ، بل أنت لم تتركني اليوم وأنا أجوب بحر النثر المديد العريض . أنا أعلم أن من العبث أن اجعل للقصة نغماً . خير القصص يصبح شعراً سيئاً . والشعر في القصة ينبغي أن يكون كالملح في الطعام . وقد كان الشعر دائماً ملح حياتي . لولاه كانت حياتي تفهة لا معنى لها . عندنا في الجبال لا ينسى صاحب البيت أبداً أن يضع المملحة على مائدة الضيف .

النثر يطير بعيداً ولكن الشعر يطير عالياً . النثر طائرة كبيرة تستطيع أن تدور حول العالم . أما الشعر فهو طائرة مطاردة تطير في عنف رائع وتقبض على طائرة النثر الضخمة في طرفة عين .

أريد أن أخلط ألواناً عديدة في كتابي وأن أرسله الى ما وراء حدود بلدي (أفاريا) . ولم لا ؟. منذ زمن بعيد وأشعارنا تخط طريقها ودروبها نحو قلوب الناس بعيداً عن حدود داغستان.

بل ان قصصنا نالت تاشيرة خروج . ربما بقي مسرحنا في أرضه لا يغادرها . يمكن أن يكون في طريقه الى التحقق من هويته أو أنه في حاجة الى أن يتعلم كيف يجب أن يكون سلوكه ؟

لو أني جعلت أكتب مسرحية لاخترت لها مكاناً كل داغستان . ولكان اطارها الجبال والسماء والأنهار المتدفقة والبحر والارض . أما زمان المسرحية ؟ فالقرون الغابرة ، والعهد الحاضر وكل المستقبل ، كنت خلطت الالوف من السنين باللحظات . أما أشخاص المسرحية فهم أنا وأبي وأبنائي وأصدقائي ، وناس ماتوا من عهد بعيد وناس ما يزالون في عالم الغيب .

هذه المسرحية ستكون أحسن مؤلفاتي ، « حربي وسلمي »(١٠) ، « دون كيشوت »(١١) ، « المهزلة الالهية »(١٢) بالنسبة الي ، ولكني لا أجرؤ على كتابة مسرحية بل لا أجرؤ أن أضع في جدران كتابي القادم حجراً واحداً من المسرح . أترك المسرح لوقت آخر ، بل أتركه في صراحة الى غيري من الكتاب ، وأكتفي بالشعر والنثر أقرن واحداً بواحد . الشعر هو الطيران على صهوة حصان، والنثر هو السير على الاقدام . وعلى الاقدام يمكن أن تمضي الى مكان بعيد ، وعلى ظهر الحصان يمكن أن تسافر في سرعة . وساسير حيناً على قدمي وأمتطي حيناً حصاني . ساقص كل ما أستطيع وأجعله أغنية ، في نفسي عنفوان الشباب وحكمة الشيخوخة .

فليغن الشباب ولتتكلم الحكمة .

---

(١٠) الحرب والسلم : رواية تولستوي .
(١١) دون كيشوت : رواية سيرفانتس .
(١٢) المهزلة الالهية : رائعة دانتي .

في نفسي تعيش شخصيات كثيرة مختلفة : أحياناً أجلس الى المائـدة في حفاوة ، وأسـتعمل الشوش الصقيل وأمسك الشوكة باليد اليمنى ، وأحياناً أمسك بكلتا يدي ضلع خروف وآكل وأنا جالس على الارض ومعي مواطني ، وأبلع الخروف بجرعات من البوظة(١٣) •

عندما أغادر المدينة لأذهب الى الجبال أحمل معي ، كما يفعل سكان المدن ، فواكه وخموراً ناعمة ، وعندما أعود الى المدينة بعد أن أفارق الرعاة الكرام أحمل معي خروفاً يلقى على سرج الحصان •
والبحر نفسه يكون مرة لطيفاً ناعماً ومرة غضوباً مزمجراً • وكذلك تعيش في نفسي طباع مختلفة •
رأيت على شفير هاوية سحيقة في الجبل شاباً وفتاة يتعانقان
لم أر الا خيالهما المشترك ، لم أستطع التمييز بينهما ، كان عناقهما حاراً الى هذا الحد ،
وكان اتحادهما وثيقاً الى هذا الحد •
وكذلك تعيش في نفسي ، ولا تتجزأ السعادة والالم ، الدموع والفرح ، الضعف والقوة •
كلا ، الفرس لا يشب منتصباً على قوائمه ولا يقضم من غيظ لجامه ،
إنه يبتسم بأسنانه البيض
ورأسه يميل في حزن

يتدلى عرفه الى الارض
أحمر كأنه نار المسـاء
يخيل الي ، ويا للعجب
أن الحصان يضحك كما يضحك الانسان •

من ذا الذي لا تتملكه الدهشة ؟
اقتربت لأرى هذا الحصان الغريب رؤية أوضح
كلا إنه لا يضحك كما يضحك الانسان
إنه يبكي ورأسه يتدلى ثقيلا •

في عينيه وهما مثل ورقتي شجرة
دمعتان تعكسان ضباباً بعيداً
أوه يا صديقي • اذا كنت أضحك فاقترب مني
وخذ حظك من النظر الي •

---

(١٣) شراب وطني •

من دفتر المذكرات :

جبلي من قرية (سيوخ) رأى غيمة بيضاء في سفح الجبل • وقفز اليها وهو يظن أنها كومة من الصوف الناعم الهفهاف • كان الشبه كبيراً بين غيمة رقيقة وكومة من الصوف أو القطن المندوف • وما كان للغيمة أن تصبح قطناً •

مهما كان جميلا شكل الكتاب الذي كتب للشكل وحده فانه لا يمس قلب الانسان • الشكل وحده لا يترجم عن المعنى • الصياد الذي قضى حياته في البحر ، يرى في الغابة قرية من النمل ويظن أنها كومة من الكافيار • والجبلي الذي لم ير البحر يرى كومة من الكافيار فيظن أنها قرية نمل •

من دفتر المذكرات :

القلب نفسه تستهدفه الرصاصة والوردة
والوجه نفسه تاتيه الضحكات والدموع
والشفاه نفسها تذوق العسل والسم
وفي السماء نفسها تطير الصقور والحمام
وفي العش نفسه ، في الغيمة السوداء نفسها تنبثق النار والماء••
وعلى المسمار نفسه تعلق القيثارة (١٤) والخنجر(١٥)

من دفتر المذكرات :

فتاة جبلية ، عرفت نشوة الحب ، تطلعت من النافذة عند الصباح وصرخت :
ـ آه ما أجمل الزهر على الاشجار •

ودمدمت أمها العجوز :
ـ وأين ترين الزهر على الشجر ؟! انه الثلج • نحن في أواخر الخريف وأوائل الشتاء •
وهكذا بدا الصباح الواحد لامرأتين صباحين : صباحاً ربيعياً وصباحاً شتوياً • وفي نفسي

(١٤) كوموز نوع من آلات الغناء •
(١٥) بالعربية مع بعض التحريف خنجل(م•ع)•

يعيش هذان المظهران المتناقضان : الشاب والشيخ ، الزهر والثلج ، الربيع والخريف • فلا تاخذنك الحيرة اذا وجدت في كتابي شعراً حيناً ونثراً حيناً •

سالوني : ـ ولكن الست تحاول أن تمسك بطيختين بيد واحدة ؟

وقلت : ـ كلا • لست أحاول ذلك •

عندما أمزج الوانا شتى في لون واحد فليس يعني ذلك اني آخذ ثمرات مختلفة فاقسمها وأخلطها لأجعل منها سلطة فواكه ، ولكني أمزجها حية ، أزاوج بينها كما يصنع البستاني العاقل لكي يحصل على نوع جديد من الثمار والخضر • ولا أدري ما سيعطي هذا التنوع في آخر الحساب، ولكن ذلك هو ما يحدث في كل شيء • لا تستطيع أن تتصور كل النتائج التي تترتب على اشعال نار • ولكن ذلك لا يعني أن تخاف اشعال النار في كل مرة • اذن فانا أحك عود ثقاب واقربه الى عود يابس وأحميه من الريح براحة يدي • وتبدأ النار بالحياة • لست أخاف أن تنقلب هذه النار الخجلى ، الضعيفة ، في هذه اللحظة الى نار مفترسة لا يمكن أن نسيطر عليها • لا أرى هذا ، ولذلك فانا أشعل النار •

لقد نقش الشيخ شامل على سيفه حكمة من حكمه : « من فكر ، قبل المعركة ، في نتائجها فليس شجاعة » •

يقولون : سم الأفعى يمكن أن يكون ترياقا اذا كان في أيد ماهرة ، وعسل النحل يمكن أن يكون سمة اذا كان في يدي أحمق •

يقولون : اذا لم تعرف القصص فعليك بالغناء ، واذا لم تعرف الغناء فعليك بالقصة •

الأسلوب

يُعرَف المغني بصوته •

والصائغ بزخرفته •

كتبت على قطعة من الحلي في كوباتشي •

ـ لماذا تصرخ بي ؟

ـ أنا لا أصرخ • هذه طريقتي في الكلام

حوار بين رجل وامرأته •

ـ شعرك لا يشبه الشعر •

ـ هذه طريقتي في نظمه

حوار بين شاعر وقارىء •

نحن ، الصغار ، لم يكن مباحاً لنا أن نذهب الى مجلس القرية (١٦) ، الذي كان يضم من هو أكبر منا سنا • كنا نجلس على صخرة كبيرة ونراقبهم من بعيد •

ولاحظنا ذات مرة أن ضيفاً جاء من قرية (آندي) وظل يتكلم ساعة كاملة في المجلس وأن الجماعة(١٧) كلها كانت تستمع اليه ولا تقاطعه • وناقشنا الموضوع واقتنعنا أن الجبلي من (آندي) لا بد أن يكون حاملا لأنباء هامة لولا ذلك لم يصغوا اليه هـذا الاصغاء الطويل •• وعـدت الى البيت وسالت أبي :

ـ ماذا حمل اليكم ضيف (آندي) من أخبار ؟

ـ آه نحن أبناء تسادا سمعنا ما قاله اليـوم عشرين مرة أو تزيد ، ولكنه يقص في أسلوب جيد يدعونا الى أن نسمعه حتى المساء • ياله من رجل • مد الله في عمره •

في الطريقة :

لكل حيوان حيلة ، له طريقته في الخلاص من الصياد ، ولكل صياد طريقته في مطاردة الحيوان والامساك به • وكذلك فلكل كاتب طريقته ، أسلوبه في العمل • طبعه • كتابته •

عندما دخلت معهد الآداب في موسكو ، وكنت فتى شاعراً آنذاك • وقعت في جو لا يمكن أن أعيش فيه • كان كل شيء يلقى علي درساً جديداً : موسكو نفسها ، الدروس ، الشعراء الكبار الذين يشاركون في مناقشاتنا ، الاساتذة ، أصدقائي في المعهد وفي البيت • كانت الدروس تسقط فوق رأسي كما يسقط البَرَد من كل مكان ، حتى كدت أضيع ، وفي ضياعي جعلت أكتب شعراً في طريقة جديدة ، في أسلوب غريب ، لم يروا مثله في الادب الأفاري • ولا أخفي اني كنت حريصاً على أن أرى شعري مترجماً الى اللغة الروسية • كنت أطير الى القارىء الروسي وخيل الي أني ساصبح أكثر قرباً منه وصلة به اذا نظمت شعري في هذا الاسلوب الجديد • وكففت نهائياً عن الاهتمام بموسيقى لغتي القومية ، وبانغام شعرها • كان البناء ، والفكر العاري يحتلان المحل الاول• كنت أحاول الوصـول الى طريقة لا مناص لي منهـا ، وكنت في الواقع ـ كمـا فهمت اليوم ـ أتصيد الوسيلة •

ولكني سرعان ما فهمت أن الشعر والحيلة أمران متناقضان • وفهم أبي الحكيم مقاصـدي بادىء بدء • ولم يكد يسمع قصائدي الجديدة حتى أدرك أنني أريد أن أضحي بالخروف كله في

(١٦) جود يخان •
(١٧) الجماعة بالعربية •

سبيل الحصول على أليته ، وأني احاول أن أحرث وأبذر حقلا من الحجارة لا ينبت شيئاً ، مهما سقيته ، وأني أطلب المطر دون أن تكون لي سماء •

أدرك أبي ذلك منذ أول وهلة ولكنه كان رجلا ذكياً وحذراً • وذات يوم ألقى الي وهـــو يحاورني بهذه الملاحظة :

ـ يارسول • يقلقني أني أرى كتابتك تتغير •

ـ يا أبي • لقد أصبحت فتى يافعاً ، والكتابة لا تعنى بهـا الا المدرســـة • والفتى ينبغي أن يتحمل لا مسئولية الطريقة التي يكتب بها ، بل مسئولية مايكتب •

ـ قد يكون هذا صحيحاً ينطبق على جندي أو على أمين سر مجلس السوفيات في قرية وهو يحرر شهادات ووثائق أما عند الشاعر فالكتابة والاسلوب هما تماماً نصف مهمته • والقصيدة ينبغي أن تكون جميلة مهما كانت الفكرة التي تعبر عنها مبتكرة • لا جميلة فحسب بل جميلة كما ينبغي أن تكون • اذا وجد الشاعر أسلوبه فقد وجد شخصيته ، إنه عندئذ يصبح شاعراً •

« أنت في عجلة من أمرك ، ولكن النبـع الصغير الصاخب السريع لا يصل الى البحر • ان السيل البطيء الهادىء يبتلعه •

« العصفور الذي يبدل أعشاشه دائماً ولا يعرف انتقاء واحد منها يبقى أخيراً دون عش • اليس خيراً لو بنى له عشاً ؟ وإذن فهو عندئذ في غير حاجة الى انتقاء عش من بين الاعشاش » •

واليوم وقد جاوزت الاربعين أقف أمام كتبي الاربعين فاقلب صفحاتها وأرى أن في الحقل ، الذي بزرته قمحاً ، نباتات أخرى جاءت من حقول أخرى ، نباتات لم أبزرها • قد لا تكون أعشاباً ضارة ، بل قد تكون نباتات نافعة ، منها الشعير والذرة والشوفان ولكنها تبقى غريبة عن حقلي وعن قمحي •

أرى خرافاً ليست لي بين قطيعي ، انها لا يمكن أن تعتاد أعالي الجبال ، هواءها • الاحظ أحياناً ان في نفسي أشخاصاً آخرين • ولكني أريد أن أكون في هذا الكتاب أنا بالذات • وسواء أكنت حسناً أم سيئاً فتقبلوني على علاتي •

يذهب الجبلي الى العرس ويسأل المدعوين الذين سبقوه :

ـ أيكفيكم جمعكم هذا أم أن لي مكانة بينكم ؟

ويجيب الجبليون في العرس :

ـ ادخل اذا كنت أنت أنت وهاهو ذا كتابي أثبت به أنني أنا أنا • أريد أن أكون كاتباً لا أن أملأ دور كاتب • انظروا الى الممثل في المسرح يشرب (الكونياك) • هاها ذا يصبح سكران ، يلذعه لسانه ، ويرتمي رأسه على صدره • ولكن الزجاجة ليس فيها الا الشاي بدل (الكونياك) •

يستحيل أن تثير أعصابك الشاي • واظن أن الذين لم يذوقوا (الكونياك) يوافقون على ذلك •

عندما يدخل الكاتب المسرحي في تمثيليته دور شـاعر ، فاصعب ما يعانيه أن ينظم قصائد لشخصيته هذه • ولذلك فان الشاعر في التمثيلية لا يقرأ شعره على الاطلاق • ولكن ما معنى شاعر دون شعر • ما الفرق بينه وبين تمثال مزين في واجهة مخزن •

أنا لا أريد أن أشبه أحداً ، لا عمر الخيام ولا بوشكين ولا بيرون •

بعض اللصوص اذا سرقوا بقرة كسروا قرنيها أو قطعوا ذيلها • بعض اللصوص بعد الاستيلاء على سيارة يصبغونها بلون جديد • ومع ذلك ، ورغم كل هذه الحيل تبقى السرقة سرقة •

وأكبر لذة أشعر بها هو أن أسمع القراء يقولون : ان رسولا كتب كتابة لرسول •

أحب العصافير التي تغرد أكثر من العصافير التي تزعق ، أحب العصفور في عنفوان طيرانه أكثر من العصفور الذي ينبش كومة من المزابل • أحب المركب في عرض البحر الازرق أكثر من المركب الذي يرسـو في مرفأ ضيق • انظـروا الى القوارب الخفيفة تتراقص فـوق كل موجـة ، وانظروا الى المراكب الكبيرة الثقيلة ما أشد ثباتها ورسوخها حتى في أوج العاصفة • يثير الحمقى الضوضاء ويتنازعون كانهم سكارى وما هم بسكارى ، انهم لم يشربوا نقطة واحدة من الخمر • أما الحكماء من الناس فهم حتى حين يفرغون في أجوافهم أقداحاً كثيرة من الخمر ، يتحدثون في لطف وفي هدوء وفي دم بارد •

يا كتاب رسول ! اسلك بين الناس سلوكاً يليق بكتاب رسول •

عندما يدخل ضيف مجهول منزل رجل جبلي ، لا يسالونه عن اسمه ولا من أين جاء طـوال أيام ثلاثة • وأنتم تقبلوا كتابي دون أن تسالوا ماهو ؟ ومن أين جاء ؟ ومن هو صاحبه ؟ دعوه يتحدث عن نفسه •

لا أريد أن أكون خيراً ولا شراً مما أنا • اذا لم تكن في العشرين من عمرك قوياً فلا تنتظر القوة ، بعد ذلك ، فهي لن تاتي • واذا لم تكن في العشرين من عمرك ذكياً فلا تنتظر الذكاء بعد ذلك فهو لن ياتي(١٨) • واذا لم تكن في الاربعين من عمرك غنياً ، فلا تنتظر الثروة بعد ذلك فهي لن تاتي أبداً • هكذا يقول المثل الروسي • ويقولون في جبالنا : اذا لم يكن الرجل في الاربعين من عمره نسراً فهو لن يطير أبداً • لتدرج عجلتي على طريقي • في قريتي عندما يهطل المطر تنحدر الجداول الكثيرة من الجبل الذي يحتضنها ، ثم تتجمع كل هذه الجداول في سفحه وتكون بحيرة من ماء المطر • يخرج منها نهر كبير واحد •

---

(١٨) كانه قول الشاعر العربي :

اذا بلغ الفتى عشرين عاما ... ولم ينبغ فليس لـه نبوغ

كثير من الدروب الضيقة تنحدر نحو قريتنا من الجبال المحيطة بها • وتذوب كلها في قريتنا كالجداول • ولكن عندما نترك القرية سيراً على الاقدام أو فرساناً لنذهب الى مركز المنطقة ، الى المدينة ، أو الى العالم الواسع فليس أمامنا الا طريق عريضة معبدة • لست أدري بم أشبه نفسي؟ أبالطريق أم بالنهر ، ولكني أعرف أن افكار أبناء وطني ، كلمات أبناء وطني ، مشاعر أهل وطني قد تجمعت في نفسي كما تجمعت جداول الجبل ودروبه الملتوية • أما طريقي الخاصة ، دربي الخاص فقد قادني من القرية الى الشعر • زرت كثيراً من زوايا العالم ، زرت كثيراً من البلدان ، لاقيت كثيراً من الناس • وحدث أني حضرت حفلات استقبال فخمة عند رؤساء وملوك ، أو رؤساء وزارات أو وزراء أو سفراء • ما أكثر مالمعت الاحذية والصلعات في هذه الحفلات ! ما أكثر ماعقدت ربطات العنق في أناقة ! ما أشد ما تالقت ياقات القمصان ! ما أشد مافي التحيات والابتسامات من تهذيب! ما أدق ما حظيت به كل كلمة وكل حركة من تفكير ! في حفلات الاستقبال هذه يبدو الفنانون كانهم رؤساء وزارات ، ورؤساء الوزراء كانهم فنانون •

لم أكن في يوم من الايام ، خلال هذه الحفلات ما انا عليه حقا • كنت أصطنع حركات لاأريدها، وأقول كلمات لا أرغب فيها • وفي أضواء هذه الحفلات كنت أرى بيتي في تسادا فجاة ، وأرى أهلي يتحلقون حول النار ، أو أرى أصدقائي المرحين يتجمعون في غرفة من غرف الفندق ، وأحس عندئذ بالرغبة في أكل (الخانكالي)(١٩) بالثوم بدلا من كل هذه المآكل القادمة من وراء البحار • آه ما أطيب أن تجلس أمام النار ، بين أصدقائك ، وأن تقلب أكمام قميصك وتلتهم (الخانكالي) بالثوم حتى يسيل الدهن من بين يديك •

بعض الكتب تبدو وكانها في حفلة استقبال سياسية • تخلو من حرية الحركة ، من حرية المظهر ، من حرية الكلمة •

أيمكن أن تكون يا كتابي غير مدعو الى حفلة رسمية ، أيمكن أن تنقل الكلمات التي تناسب طبيعتك وحدها ، لا تلك الكلمات التي يجب أن تقال في المجاملات •

رأيت أناسا يظلون ما داموا في بيوتهم ، بين أسرتهم مع نسائهم ، مع أولادهم ، مع أصدقائهم، أناساً مثل سائر الناس • ولكن هاهم أولئك يتربعون في مقعدهم في مكتب ، في دائرة ، واذا هم جفاة غلاظ خبثاء ؛ كانما حل محلهم ناس آخرون • طباعهم ، طريقتهم في العيش ، وجوههم ، تتغير كلها في كل منصب جديد ، في كل مقعد جديد •

أيمكن ياكتابي أن تظل كما كنت راسخا ، فلا تغير طبعك ولا أخون فيك نفسي • أحب أصدقائي ودخان بيتي ، لا حفلات الاستقبال الطنانة ، أحب الحقول لا ندوات الشعر ، اصغي الى نداء الارض

(١٩) طعام يصنع من اللحم والثوم والتوابل•

لا الى ضوضاء الاجتماعات • كثيراً ما يحدث أن يقال في اجتماع شيء ، وأن يقال بعد انتهاء الاجتماع شيء آخر •

من دفتر المذكرات :

أي داغستاني لا يعرف (البابابخا)(٢٠) الضخمة (باباخا) سليمان ستالسكي ، وقرونها الثقيلة التي صنعت من جلود الاغنام ذات الرائحة ، و (شركسييه)(٢١) الخفيفين المصنوعين من جلد الخروف • أعتقد أن أهل داغستان ليسوا وحدهم هم الذين لا يستطيعون أن يتصوروا سليمان دون (باباخا) ودون (شركسية) •

وفجاة هاهو ذا سليمان وقد أصبح يحمل وساماً • مكسيم غوركي قال : انه هو هيروس القرن العشرين • ودعي سلمان الى موسكو ، وفي موسكو قابل وزيراً داغستانياً • وقال الوزير للشاعر :

ـ ايه ايه ياعزيزي سليمان • لا يمكن أن تسلكك في موسكو كما تسلك في قريتك • يجب أن تلبس هنداماً مناسباً •

وبناء على طلب من الحكومة الداغستانية صنعت لسليمان بزة رسمية ، وجيء له بزوج من الاحذية ، وقبعة ذات غطاء للأذنين ، ومعطف شتوي له فرو من استراخان • وفحص سليمان كل قطعة على حدة وراز المعطف ونظر الى كعبي الحذاء وضرب احداهما بالاخرى ثم كوم هذه الاشياء جميعاً كما اتفق والقاها في حقيبته •

شكراً لكم • انها أشياء جيدة جديدة ومن صنف متين • انها تصلح لولدي مصعب • أما أنا فاريد أن أبقى سليمان • لا أريد أن أغير اسمي لقاء بزة ولا لقاء حذاء • شركسيتي تغضب علي•

كان والدي يعجب كثيراً بتمسك سليمان حتى بهذه المظاهر الخارجية من الاصالة •

من دفتر المذكرات :

لقد حاول أبناء سليمان ستالسكي مراراً تعليمه القراءة والكتابة ، وكان سليمان يكب على التعلم في جد ، ولكنه لا يلبث أن يدفع بالورقة ويقول :

ـ كلا يا أولادي • عندما أمسك بالقلم تهرب مني القصائد ، وذلك لاني عندئذ لا أفكر في القصائد ، وانما أفكر في طريقة الامساك بهذا القلم اللعين •

---

(٢٠) قبعة من الفراء •
(٢١) نـوع من الاحذيـة في الجبل من الجلد غير المدبوغ •

من دفتر المذكرات :

كان أفندي كابييف صديقاً لسليمان ستالسكي ، وهو الذي ترجم أشعاره الى اللغة الروسية. وكانت هذه الصداقة مثار حسد في نفوس بعض الناس المساكين .وحاولوا أن يغضوا من أفندي كابييف في عيني الشاعر الشهير وأن يدسوا عليه ، وقالوا لسليمان :

ـ أنت لا تقرأ اللغة الروسية ، ولكننا نحن نعرف أن أفندي كابييف يفسد أشعارك عندما يترجمها ، يزيد فيها ما يشاء ، ويحذف منها ما يشاء ، ويصوغ بعضها تماماً حسب طريقته .
وذات يوم في حوار هادىء قال سليمان لأفندي .

ـ ياصديقي . قيل لي إنك تضرب أولادي . وفهم أفندي رأساً موضوع الحديث :
ـ ليست أشعارك أولادك يا سليمان . ان قصائدك هي أنت نفسك .

ـ اذن فانا أستحق وأنا عجوز احتراما أكثر مما يستحقه الاطفال .

ـ ما الذي تراه أكثر قيمة في نظرك ؟ أعدد أبيات القصائد أم أسلوبها ؟ روح قصائدك ؟ أمامنا زجاجة خمر . ولنفرض أنها تعرضت للهواء وفسدت . سيكون لدينا تقريباً كمية مماثلة من الخمر ، ولكنها لن تكون خمرتنا نفسها ، خمرتنا هـــذه التي نشربها الآن . والتي نتمطق ونتلمظ بها . المسألة ليست مسألة كمية الخمر ، ولكن مسألة نكهتها ، مذاقها ، حمياها .

ـ أنت على صواب . ذلك هو المهم .

والحق أن أفندي كابييف كان يقدم الى القارىء الروسي على هـــذا النحو أشعار سليمان ستالسكي .

من دفتر المذكرات :

قال لي أفندي كابييف شاكيا : ـ لا أستطيع قط أن اجد مفتاح شعر ابيك (لقد ترجـم ايضا الى الروسية أشعار حمزة تساداسا .) ان لابيك قفلا خاصاً . تظن أنه يضحك ، ولكنه في الواقع حزين ، وتظن أنه يرثي ، ولكنه في الواقع يمزح ويسخر . تظن أنه ينتهر ولكنه في الواقع يمتدح . أفهم كل ذلك ولكني لا أستطيع أن انقله الى اللغة الروسية . يمكن أن انقل أفكاره الشعرية ومعاني قصائده ولكني في حاجة الى حمزة الحي كما نعرفه . هكذا يجب أن يعرفه من يقرأ له في اللغة الروسية . يبدو وكأنه يشبه الناس جميعاً وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يشابه أحداً . هكذا يجب أن يكون الشعر .

ذكريات :

أنا اليوم معروف في قريتي بالشاعر رسول حمزة • ولكن كم مرت بي أيام يعتبرني فيها أبناء قريتي شخصاً لايصلح لشيء • عندما أفعل شيئاً أفكر في شيء آخر • وهكذا فانا ألبس قميصي وأجعل صدره قفاه وأزر معطفي زراً مكان زر ، وأخرج هكـذا الى الشارع ، لا أربط شرائط حذائي ، فاذا ربطتها فسرعان ما تنحل عراها • ويقول عني :

كيف حدث أن يكون لمثل هذا الاب النظيف ، المعروف بعنايته بهندامه وبهدوئه واتزانه مثل هذا الولد المضطرب الاخرق!؟ من منهما أكبر سناً وأكثر شباباً : أذلك الذي ينسى أن يربط شرائط حذائه أم هذا الذي لا ينسى شيئاً ؟

وأسمع هذه الاحكام الشائكة وأجيب :

ــ نعم لقد أخذت من أبي شيخوخته وأعطيته شبابي •

والحق أن والدي بقي الى آخريات أيامه متميزاً ، مستقيم العود ، كانه شاب • كان في مظهره الخارجي كمـا كان في أعماق روحه منظماً تنظيماً جيداً ، متزناً واضحاً • كـل الناس في القرية يعرفون الساعات بل الدقائق التي يلبس فيها معطفه ويصعد على سـطح البيت • ويمكنهـم أن يطمئنوا الى تصحيح ساعاتهم عند ظهور والدي على سطح منزله • كتب أحد شبابنا وكان يؤدي خدمته العسكرية الى أهله : « نحن نستيقظ في قطعتنا مبكرين ، يوقظوننا تماماً في الساعة التي اعتاد فيها حمزة الصعود على سطحه • »

وعندما كانوا يريدون مقابلة حمزة في الصباح فهم يعرفون الساعة والدقيقة اللتين يلاقونه فيهما وهو في طريقه الى (خنزاخ) كان يترك دائماً منزله في الوقت نفسه ليذهب الى عمله •

كان الناس يعرفون كل شيء عنه : يعرفون المكان الذي يذهب اليه يقود فرسه برسنه قبل أن يمتطي صهوته ، يعرفون قميصه البسيط الاسود ، سروال الفارس الذي يلبسه ، وحذاءيه اللذين صنعهما بيديه ويمسحهما كل صباح بيديه • يعرفون حزامه ولحيته المقصوصة في عناية دون أن تحلق قط و (البابابخا) التي يعتمرها في شـكل معين قاس • وكان جانبا هــذه (البابابخا) من (الاستراخان) مزرورين دون ضيق ولا سعة •

كان والدي شخصاً له خصوصياته وأصالته • كل ما كان يلبسه وكل ما كان يصنعه يليق به في شكل عجيب••ومن العسير أن نتصور أن شيئاً آخر غير حمزة موجود في ثيابه وتصرفاته وسلوكه•

وكان هو نفسه لا يحب التغيير • عندما يهترىء ثوب ويتوجب عليه أن يشتري آخر ، يصنع

مثله تماماً على المقاييس نفسها ، وعند الخياط نفسه ، ومع ذلك يبقى عدة أيام منزعجاً وقلقاً في ثوبه الجديد •

وحدث مرة أن استسلم للزمان حزامه فاهترأ ، ولم يكن سهلا عليه أن يشتري حزاماً جديداً ولكن حمزة رفع حزامه المألوف في عناية بالغة واستعمله زمناً آخر • لم يكن بخيلا ، وكان ذا مال ، ولكنه يوجع قلبه أن ينفصل عن الاشياء التي اعتاد عليها وألفها • وأخيراً تمزق حزامه مرة أخرى واضطر الى شراء حزام آخر • ومع ذلك فقد نقل الى الحزام الجديد حلقة الحديد من الحزام القديم•
كان يداعب (باباخاه) كما يداعب حملا حياً • وعلينا أن نتصور درجة حرصه على (باباخاه) من قدر حرصه على حزامه •

وفي بـدء الحرب العالمية في صيف ١٩٤١ أصرت حكومـة داغستان على والدي ليستقر في (ماخاتشاكالا) • وظهرت له العاصمة حارة خانقة بعد رطوبة الجبال العالية • والثياب التي أعدت للجبل أصبحت لا تطاق في جو المدينة القائظ ، وخاصة (البابابخا) وجرب والدي أن يلبس قبعات من مختلف الانواع ولكنها كانت كلها تبدل من مظهر حمزة فيلقي بها بعيداً رغم كل مانبذله من جهد لاقناعه •

حتى كارثة الحرب يمكن أن تصبح شيئاً مألوفاً عنده ، لقد جرت الحياة في الحرب ، مجرى جديداً ، وكان والدي يمضي في طريق الجبل حيناً بعد حين • ما أطيب الحرية التي كان يستنشق فيها نسيم الجبال !! وما أروع اللذة التي كان يعود فيها الى لبس (باباخاه) ! كل مافيه يوحي اليك أنه مثل مدخن حرموا عليه الدخان تحريماً قاطعاً ، أو لم يكن معه تبغ ، وهاهو ذا فجاة يصبح قادراً على أن يلف لفافة من تبغ قوي ذي رائحة عطرة ، وأن يشعلها في بطء ، بل في عبادة ، وان يستنشق في مثل ذلك العمق وهذا البطء وتلك العبادة دخان لفافته •

لم يدخن أبي طوال حياته ولكنه كان يجد مثل لذة التدخين (بل أكثر من لذتها) في ألف شيء من الاشياء الصغيرة في الحياة دون أن نتحدث طبعاً عن أفراحه الكبرى فرحة الخلق ولـذة حب الوطن تراب المهد •

من دفتر مذكرات والدي :

« رجب صديقي ، ولكنه عاملني معاملة عدو • لقد حالف موسى الحلاقة « ليعمل ضدي » هذا ما كتبه والدي في دفتر مذكراته • واليكم الحادث : في عـام ١٩٣٤ سافر أبي الى موسكو ليشهد المؤتمر الاول للكتاب السوفيات • وكان الكاتب الآفاري رجب دنهاجو ماييف ما يزال حياً في تلك الفترة • ونجح في أخذ والدي الى حلاق لكي يسوي شيئاً من شعره ولحيته • هل دبر رجب الامر

أو أن الحلاق لم يفهم ما طلب منه ؟ وكانت النتيجة أن والدي وجد نفسه دون شعرة في لحيته البيضاء ، هذه اللحية التي لم تمسها الموسى قط • وعندما أدرك ما حدث كان قد فات ما فات • وعندما رأى في المرآة هذا الوجه المجهول بل الغريب عنه صرخ صرخة ، وغطى وجهه بيديه وهرب من الدكان • ولم ير مطلقاً في جلسات المؤتمر ، ولم يجرؤ على الظهور أمام الناس • قال والدي بعد ذلك : اذا كنت لم أستطع ان أخون وجهي في حياتي فكيف أستطيع أن أخونه في أشعاري ؟!

لم يكن والدي يحب الدقة المفرطة في حياته ، كما لم يكن يحبها في شعره • ومع ذلك فقد وطن نفسه مرة على موقف غير طبيعي كان غريباً عنه •

أتذكر ذلك : ذهب بعض المواطنين في قريتنا لزيارة والدي في (ماختشكالا) • وحدثهم حمزة تساداسا وهو يسند ذقنه الى ثلاثة أصابع من يده • ولاحظ أحد الفلاحين ذلك فقال له :

ـ لم نلاحظ قط أنك تعتمد على ثلاثة أصابع في الامساك بذقنك • أتراك اكتسبت هذه العادة من زمن بعيد ولماذا ؟ ذلك لا يليق بك • ليست تلك عادتك يا حمزة •

وأجاب والدي :

ـ أنت على حق • ويجب أن أتخلص من هذه العادة • لقد كانت خطيئة الرسام محيي الدين جمال • صنع لي صورة في ثلاثة أشهر كاملة • ثلاثة أشهر كاملة جلست أمامه دون حراك . وأنا أملك ذقني بأصابع ثلاثة • هكذا قرر الفنان وكان علي أن أطيعه •

ـ ذلك عسير •

ـ كلا ليس عسيراً أن تجلس ! ولكن هذا الوضع هو الصعب • شعرت أحياناً أن هذه الاصابع التي تسند ذقني ليست لي • وأحياناً أتصور أن الذقن التي تدعمها هذه الاصابع الثلاثة ليست ذقني • وهكذا كان يحدث كل يوم خلال أشهر ثلاثة حتى اعتدت ذلك شيئاً بعد شيء • وانتهت الجلسات وانتهت اللوحة بل علقت على الحائط أما أنا فظللت أمسك ذقني بأصابعي • ان المصابين بقلوبهم يضعون أيديهم على قلوبهم حتى حين لا تؤلمهم هذه القلوب • ولكن لا تقلقوا سأحاول التخلص من هذه العادة •

من دفتر مذكرات والدي :

قص علينا حمزة كيف وضعوا له أسناناً اصطناعية • سأل الطبيب حمزة عن نوع الاسنان التي يفضلها : أسنان من ذهب أو من فضة أو من فولاذ • وتحير حمزة وأشار بعينيه الى أصدقائه حوله يستشيرهم بحثاً عن رأي يعتمد عليه ؛ وقال أحدهم :

ـ ضع أسناناً من ذهب • الذهب معدن ثمين • وقال الثاني :
ـ ضع أسناناً من فولاذ • الفولاذ معدن متين ، لا يهترىء قط •
واعترض حمزة قائلا :

ـ وما نتيجة ذلك ؟ لو عدت الى القرية باسنان من ذهب أو فولاذ لنظر الي الناس وكان في فمي مشاعل ، ولن يتطلع الناس الي ولكنهم سوف يتطلعون الى وجهي • ولسوف تكسف الاسنان الصناعية وجهي • ألا يمكن أن تضع لي أسناناً من عظام كيلا يلاحظ أحد أن لي أسناناً جديدة ؟ أنا موافق على الاسنان التي لا تلفت الانظار •

وقام طبيب الاسنان بعمل ما طلبه حمزة ، ومنذ ذلك اليوم كان والدي اذا لاحظ في شعر شاعر جملاً غريبة أو جملا مقتبسة من شاعر آخر قال :
ـ تلك هي الاسنان الاصطناعية بدأت تلمع •
حقاً إنك تستطيع أن تقضم تفاحة باسنان من ذهب ولكني أقسم انك لا تقضمها بالطريقة التي تقضمها بها بأسنانك ، ولن تجد فيها المذاق ولا العصير اللذين تجدهما فيهما اذا قضمتها باسنانك•

أتذكر عام ١٩٤٧ • اقيمت حفلة فاخرة في مسرح ماخاتشاكالا : كانوا يحتفلون بوالدي (حمزة تساداسا) بمناسبة عيد ميلاده السبعين • كان هنالك كثير من الخطب وكثير من التمنيات ومن القصائد والهدايا • وأخيراً جاء دور حمزة في الكلام • وصعد حمزة على المنبر ، وسحب من جيبه الداخلي ـ دون استعجال ـ ورقة فيها قصيدة نظمها من أجل هذه المناسبة ، وبحث في جيب آخر دون استعجال عن عويناته ••• ولكن حركات والدي الهادئة أصبحت أكثر عصبية ••• ومد يده الى جيب بعد جيب ، وعرف الناس أن بطل العيد نسي عويناته في البيت •

وأرسلوا فوراً أحد الشباب للبحث عن العوينات ولكن حمزة ما يزال على المنبر ، عندئذ أعاره أبو طالب ، وهو صديق حمزة ، عويناته • وأخذ حمزة عوينات أبي طالب وبدأ يقرأ قصيدته• ولكن صوته ووضعه كليهما كان ينقصهما الثقة والطمانينة ، كان فيهما شيء من الخجل الغريب • حتى خيل للناس أن أبي يقرأ قصيدة يراها أول مرة ، قصيدة ليست له ، قصيدة لشاعر آخر •

وعندما بدأ بتلاوة قصيدة ثانية ، كان الشاب الذي ذهب للبحث عن عويناته قد عاد يحملها اليه وهو يجري في القاعة جرياً • وترك حمزة عوينات أبي طالب ووضع عويناته ، واعتدل وضعه اعتدالا واضحاً • ورن صوته رنينة أكثر اطمئناناً ، وبدأت القاعة كلها تصفق له كان حمزة صعد الآن فقط على المنبر وكأنه كان من قبل شخصاً آخر يشبهه •

وقال حمزة : ـ وهو يضحك ـ كادت العوينات تفسد علي عيدي •
وسأله أبو طالب في صوت عال :

ـ ولماذا ؟ هل عويناتي أقل جودة من عويناتك ؟
ـ بل هي جيدة جداً ولكنها ليست عويناتي •
كل انسان له عيونه ، ويجب أن تكون له أيضاً عويناته •

كان أبي لا يحب ماهو منير إنارة تبهر العيون ، ولا ماهو مظلم ظلمة لا تخترقها العيون ، لا يحب كل ماهو سميك جداً ولا ماهو مائع جداً ، ماهو شديد الحرارة وماهو شديد البرودة ، ماهو غال غلاء فاحشاً وماهو رخيص جد رخيص ، ما هو كثير التحفظ والجمود وماهو كثير التقدم والبروز• لا يحب وحشية الذئب ولا ضعف الارنب ، ولا إرهاب السلطة ولا الخضوع الذليل •
كان يقول :
لا تكن صلباً فتكسر ولا تكن مائعاً كالخرقة تعصر •
لم يكن ممن تبله قطرة مطر ، ولا تجففه نسمة • كان عاملا من العمال يحيا في نفسه كل مافي شعبه من عادات وصفات يحملها في وقار وجدارة •

أتــذكر :

كان على والدي وعلي ذات يوم أن نسافر الى القرية لعيادة قريب مريض ، هو عبد ابرحمن دانيالوف الذي كان رئيس الحكومة الداغستانية • وعلم بعزمنا على عيادته فارسل الينا سيارة سوداء من سيارات الرئاسة ، اعتقد أنها (زيم) •

كان والدي على خير ما يرام ما دمنا نجول في شوارع عاصمة داغستان • ولم نكد نخرج من المدينة ونصادف في طريقنا أبناء الجبل يركبون حميرهم وبغالهم أو خيولهم ، أو يمشون على أقدامهم، حتى جعل والدي يتململ في مركبه الفخم النفيس • أما أنا ، وكنت شابة أحب الظهور ، فحاولت ـ قدر ما أستطيع ـ أن ألصق وجهي بزجاج النافذة لكي يراني الناس جميعاً في هذه السيارة ، بينما كان والدي ينزوي في أعماقها ، قدر ما يستطيع •

كان المطر يهطل ، وعندما بلغنا نهر غونرالتين لقينا شيخاً يركب عربته ، وقد حبسه السيل في تياره ، وأوقف والدي السيارة رأساً ، وخاض في النهر وجعل يساعد العجوز ، وظلا معاً يشجعان البقرتين ، ويدفعان الدولابين • واجتازت العربة النهر وبلغت الطريق • واستأنفنا سيرنا • وبعد بضعة كيلو مترات بلغنا نهرا آخر وأوقف والدي السيارة وظللنا ننتظر العجوز وعربته •
ـ ستتوقف العربة حتما هنا ، وأنا أعرف كيف أمكن البقرتين من اجتياز النهر•سأنتظر العجوز•
والواقع أننا انتظرنا حتى وصلت العربة وهي تصرصر الى النهر الثاني ، وجاز والدي النهر بالبقرتين في مهارة بالغة •

وقال والدي وهو يعود الى السيارة ويمسح يديه باطراف ثيابه :
ـ طالما وقعت في مثل هذه المآزق ، وآنا أحمل أثقالا من (البونيناك) في الجبال •
ثم نظر الى العربة نظرة حزينة وهو يراها تجري ويجري معها ماضيه كلــه ، حياته كلها • ولم نكد نبلغ الشاطىء الذي يؤدي الى سهل (كنزاخ) حتى ضربتنا سيارة شاحنة وكسرت احدى عجلات السيارة • وسر والدي بالحادث ، فمضى الى القرية سـيراً على الاقدام ، رغم كل ما بذلناه لنقنعه بانتظار تبديل العجلة في وقت قليل ، وكانه لا يريد أن يستمع الينا •
ـ أخجل من دخول القرية في مثل هذه السيارة الفاخرة حتى لو كنت مدعواً الى حفلة زفاف • فكيف لا تكون هذه الفخامة أقل جدوى حين أدخل القرية لعيادة صديق مريض • كلا • أنا مسرور لان السيارة انكسرت • وسأمضي سيراً على قدمي •

ومضى في دربه المألوف الذي يعرفه منذ الطفولة والذي سارت عليه أجيال لا تحصى من سكان الجبل لتذهب الى قريتنا • وأصلحنا العجلة وسرنا في الطريق العام • وبلغنا القرية في الوقت الذي بلغها فيه والدي •

وبعد زمن علم عبـد الرحمن دانيالوف بما حدث وقلق فسال والدي عن الحادثة فقال لـه وهو يضحك :
حقاً لقد كانت سيارة جد جميلة • لو كانت أقل حسناً لم يصبها شيء •

أتــذكر :

في السنوات الاخيرة من حياته كان أبي مريضاً مرضاً شديداً • فاجاه المرض وهو في احـدى رحلاته في الجبال ، يقوم بالاتصال بالناخبين • كانت الانتخابات لمجلس السوفيات الاعلى لاتحـاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تقترب وكان حمزة تساداسا مرشحاً لها •

وبعد أن قطع حمزة بالسيارة الطريق الى مركز المقاطعة كان عليه أن يركب حصانا لكي يصل الى قرى الجبل • كان والدي يحب الخيول الهادئة الساكنة • وكان عادة يسير على قدميه وهو يجر لجام فرسه • كان في الحقيقة يفضل السير على قدميه •

واهتمت السلطات المحلية بنائب المستقبل وأرسلت اليه فرس سباق فتية جم النشاط • ليس في هذا الكلام عتاب لتلك السلطات فقد أرادت أن تفعل كل ما تستطيع من خير • فمن أجل ضيف عزيز لا يجوز أن يعطى الا أفضل فرس في المقاطعة •

ولم يرغب الشيخ في رد هدية مضيفيه ، ورغم سنواته الحادية والسبعين قفز على سرج الحصان

في عناد كما كان يقفز في عز شبابه • وبدا الشاعر ذو اللحية البيضاء وقد أحاط به الشباب على الخيول وكانه إمام يحيط به نوابه •

وضرب الشباب بالسياط خيولهم فمضت بهم تعدو في دروب مختلفة تؤدي الى قرى مختلفة لكي يذيعوا نبأ وصول حمزة • وأصاب فرس حمزة عدوى الحماسة العامة فانطلق يعدو به • ولم يستطع العجوز ايقاف حصانه وبدأ سباق مجنون وشعر حمزة أن حالته تزداد سوءاً ، وقد هزته الحركة هزاً شديداً وأخيراً وقع عن سرجه وعاد مريضاً الى ماخانشاكالا ، ولم يتركه مرضه هـذا حتى قضى عليه بالموت •

قال لي ذات يوم وهو يسعل :

ـ مثل هذايحدث في الشعر • على الشاعر أن يركب حصانه المألوف لا فرس سباق مجهولا ، إن فرس السباق الغريب يزل بك عن صهوته ،

أستطيع أن أتحدث حديثاً مطولا عن والدي ولكنني أريد أن أقص بعض ما يتعلق بصديقه أبي طالب • لقد قضيت البارحة كلها في رفقته •

يوم مع أبي طالب :

أصعب ما علي أن أعود الى نظم قصيدة لم أتمها في وقتها لسبب من الاسباب ، وهاأنـذا أكب عليها من جديد لانتهي منها • الجبليون يقولون ان الضفدعة بقيت دون ذنب لأنها أرجأت الى الغد العملية التي تؤدي الى وضع ذنبها في مكانه •

في الصباح قررت أن أنهي قصيدة طويلة شرعت فيها منذ أسبوعين • كان العمل الذي ينتظرني صعباً ، وقلت للمشرفة على البيت (فروسيا) :

ـ اذا سأل عني أحد فقولي إني لست موجودا•ومن كانت له حاجة فيستطيع أن يعود بعد الظهر•

وأخذت عدتي للعمل وصعدت الى مكتبي ، وشرعت أعمل • كانت جلبة الشارع تبلغني وسمعت صرير الباب الكبير • ثم قرع الجرس • ولم أسمع صوت (فروسيا) ولكن بلغني صوت أبي طالب• وشعرت أن الكرسي تحتي يتحول الى مدفاة ملتهبة ، أو الى كومة من الاشواك • لم يحدث أبداً أن أبا طالب وجد باب حمزة تسادسا موصداً في وجهه ، أو باب رسول حمزة ، وهاهو ذا يدير ظهره الى عتبة الباب ويمضي • لم يحدث هذا قط ولا يجوز أن يحدث • ووجدتني في وضع حرج : أنا لا أستطيع أن أتركه يمضي من جهة ، ولا أستطيع من جهة أخرى أن أخون (فروسيا) لأنها نفذت بأمانة ما طلبته منها حين قالت لأبي طالب إنني غير موجود ، وإنني سأعود بعد الظهر •

واتبعت نصيحة قلبي وتركت نصيحة عقلي ، وأطللت من النافذة وناديت صديق أبي الكبير :

– ادخل يا أبا طالب • أنا هنا •

– بسم الله الرحمن الرحيم • أممن الممكن ان يختبيء ولـد حمـزة تساداسـا عـن عيـون أصحاب الديون ؟

والقى أبو طالب بقلبقه ونظر شزراً الى فروسيا ثم تابع :

– قل لهذه المرأة يا رسول إن الابواب تفتح تلقائياً حين يزور أبو طالب هذا البيت ، وإنك تكون دائمة هنا حين أجيء • وحتى حين لا تكون موجوداً ففي البيت ما يشربه أبو طالب وما ياكله ، بل إن فيه سريراً ينام عليه أبو طالب حين يريد •

– ليس الخطأ خطأ فروسيا • عندما ذهبت فاطمة الى العمـل أوصت فروسيا أن تعلن لمن يزورني أني لست في البيت • إنها تعنى بصحبتي •

– ما أحسن أن يكون لنا امرأة نلقي أوزارنا على أكتافها • ولكن هل نسيت فاطمة أن يومنا هذا هو يوم الخميس • دمدم ذلك أبو طالب وهو يعبث بقلبقه ذي الريش المبلول •

– وبم يتميز يوم الخميس عن سواه من الايام •

– إنه اليوم الذي أذهب فيه الى الحمامات • ألم تلاحظ أنني أذهب اليها كل خميس ، ولما كانت حمامات البخار قريبة من بيتك فعليك دائمـة أن تتوقع زيارتي لك وجلوسي عندك لحظة نتحدث وندخن •

– وما حاجتك الى الحمامات يا أبا طالب • عندك حمام في بيتك وماء ساخن •

– المغطس أو (الدوش) قطعة خبز أسـود • اما حمامات البخار فوليمة • عندي بستان وجدول يجري من الجبل منذ ألوف السنين • جعلته يحيـط بكل شجراتي ويسقيها • أيمكن أن أسقي كل أشجاري بسطل ماء ، أو برشاش • اقول لك إن الحمامات هي الجدول الغزير الجبلي وأن مغطسك هو الرشاش • لا يارسول ، دع هذه الدمى دمى الاطفال لشاعر الاطفال نور الدين يوسف • يبدو أنه يضع حواراً للدمى • وذلك حقاً مايصلح له وللدمى التي يصنعها •

ومضينا الى غرفة الجلوس وعرضت على أبي طالب :

– أفضل أن نشرب كأس شاي بعد الحمام •

– والله اني أريد الشاي ولم لا ؟ وبالله إن الحساء ليس اقل جودة ، وتالله إن كاس خمر ليست كثيرة • ولكن خير ما يشرب بعد الحمام كأس من الفودكا الخالصة •

– أما الحساء فعندنا منه ماشئت ولكنه صنع أمس ، نحن الآن في وقت مبكر ، ولم يحن صنع حساء جديد •

– نبتدىء بحساء أمس ، وخلال ذلك يجد الحساء الجديد وقتاً لطبخه • وبينما كانت فروسيا منهمكة حول المائدة كنت أتبجج بالوان المشروبات الغريبة المختلفة •

كنت في أسفاري الكثيرة حريصا على جلب زجاجات جميلة من مختلف الالوان من الروم والكونياك والجن والويسكي والكالفادوس ، والابسنت والفيرموس والسليفوفينسا ، ونبيذ هنغاريا• وكان الكونياك نفسه من أجناس مختلفة من المارتان والكامو •••

وقلت : اختر ما تشاء منها يا أبا طالب •

ـ خذ كنوزك هذه كلها يا رسول وأعطني فودكا عادية ، الفودكا ذات الرأس الابيض(٢٢) للرأس الابيض مزاياه : ذلك اننا لسنا نعرفه فحسب ، بل انه هو ايضاً يعرفنا • كل ما أريتنيه قد يكون طيباً ولكن كل هذه القناني جاءت من بعيد ، إنها تتكلم بلغة أنا لا أعرفها ، وأنا أتكلم بلغة هي لا تفهمها • والعادات والصفات • كلا نحن لا نتآلف ولا نتعارف • إنها تشبه ضيوفاً لا تعرفهم وأنت مضطر الى الحديث معهم بادىء بدء ، الى معرفتهم ، الى ممالحتهم• أخشى ألا نتفاهم مع زجاجاتك • دعها لأصدقائك ، كتاب موسكو • دعها لأولئك الذين نسوا طعم الطعام الذي تعده أمك على الموقد في بيت أسرتك •

لم يكن لي في مجموعتي زجاجة واحدة من الفودكا ذات الرأس الابيض • وجعلت أصطنع حركات الرجل الذي يستعد للخروج من بيته ليشتري شيئاً من المخزن في السوق ، آملا أن يستبقيني أبو طالب في البيت ويقنعني بعدم الخروج : كان المطر يهطل ، وكانت الريح باردة ، وعندي في البيت كل هذه الانواع من المشروبات • ثم أن يطلب الفودكا وعلى المائدة أطيب أنواع الكونياك الفرنسي ؟ حقاً إن ذلك دلال •

والواقع ان أبا طالب حاول أن يثنيني عن عزمي :

ـ كلا يا رسول • لا شك أنك شاب رغم شعرك الابيض • ولكن لماذا تخرج لتشتري فودكا ؟ اليس عندك من هو أصغر منك سناً ؟ إذهب الى الباحة واطلب من أحد أولاد الجيران أن يذهب ليشتري لك هذه الزجاجة • أما أنا فلست مستعجلا ، وسانتظر عودته في سرور •

وفعلت ما قاله أبو طالب • أعطيت ابن الجيران دراهم ومضى يقفز الى المخزن • وكان ابو طالب ينقب عما حوله بعينيه •

ـ الظاهر أن ليس عندك ضيوف من الجبل • أمن الممكن ألا يكون لديك واحد على أقل تقدير ؟

ـ ما عندي اليوم منهم أحد •

ـ عندما كان حمزة صديقي وابوك حيا كان الضيوف يملؤون البيت كل يوم • ما احسن الضيوف • إنهم دائماً يحملون علب دخان في عبهم •

(٢٢) زجاجة فودكا « ستولتشنايا » مختومة بشمع أبيض •

ـ وأنا عندي دخان • وأخرجت من الجرار أنواعاً من التبغ •

ـ هذه العصي الملس البيض ليست لي • دع هذا التبغ لأهل موسكو • أما التبغ الوحيد الذي يدخل على قلبي السرور فهو تبغ جبالنا • أنا مضطر الى أن أخرج علبتي •

وسحب أبو طالب من عبه علبة تبغ ضخمة ، وفتحها وبحث في أعماقها عما يمكنه من صنع لفافة ، ثم لفها بيد معلم صناع ، والصقها بضربة من لسانه •

ـ أيمكن أن تقارن هذه السيجارة بعصيك البيض الملس ؟ إن سيجارتي لها وجهها الخاص وهي لا تشبه الا نفسها ، أما سكايرك فيشبه بعضها بعضاً • والآن قل لي : أيهما أدعى الى السرور : أن تسحب من علبة السجاير سيجارة جاهزة أو أن تلف بيديك سيجارة مثل هذه التي بين يدي ؟ أتعلم أني أحس وأنها ألفها بسرور بالغ • إذن فلم تريد أن تحرمني هذا السرور ؟

وأشعلت عود ثقاب من سويسرا أو بلجيكا ، ولكن أبا طالب أزاح يدي التي تمسك بالنار ، وأخرج من جيبه قطعة من الفولاذ وحجراً من الصوان وفتيلا • ووضع نهاية الفتيل على الحجر وبضربة واحدة تطاير الشرر من الفولاذ ، وحرك الفتيل ليشتعل ويشعل منه سيجارته • وقرب من فمي الفتيل المشتعل :

ـ شم هذه الرائحة الطيبة • أليس كذلك ؟ وثقابك ماهي رائحته ؟

وغاب أبو طالب لحظة في غيمة من الدخان ، ثم انقشع الدخان قليلا وسألني ابو طالب :

ـ قل لي يارسول • لماذا ابيض شعرك منذ اليوم ؟

ـ لا أعرف يا أبا طالب •

ـ أما أنا فاعرف لماذا شاب شعري •

ـ احك لي حكايته •

ـ لقد ابيض شعر رأسي لأن علي أن أنتظر دائماً هؤلاء الاولاد الملاعين الذين يذهبون الى الحانوت ليأتوا بالفودكا ثم يتأخرون • نعم يارسول • الاولاد لا يفهمون عذاب الآباء ما داموا هم أنفسهم لم يأتوا باولاد •

وينطبق هذا نفسه على من لا يشربون • إنهم لايستطيعون فهماً لنا • يجب أن ترسل للبحث عن الفودكا من يحب هو نفسه أن يشرب منها قدحاً ، وعندئذ لن يتأخر •

وهيأت (فروسيا) المائدة ، وجاءت الفودكا أخيراً واتخذت مكانها وسط المنضدة •

وقال أبو طالب • أف ، إنها مثل رئيس (سورخين) عندما يظهر بين فلاحين بسطاء •

وأمسك بزجاجة الفودكا وجعل يرجحها بين يديه • كأنها طفل صغير •

ـ يالها من زجاجة رائعة • هذا الصبي الذي جاء بها سيصبح حتماً رجلا عظيماً عما قريب •

ولاحظ أبو طالب ، خلال ذلك ، الاقداح الصغيرة التي وضعت على المائدة • وتقبضت جبهته كانه أصيب بألم في اسنانه ، وتشنج فمه كأنما يبلع لقمة شديدة المرارة ، وقلب القدح الصغير ثم قلبه والقى نظرة الى قعره ، وأظن أنه كان يرغب في أن يطفىء فيها عقب سيجارته لكي يعبر عن احتقاره الكامل لشيء لا يستحق غير الاحتقار •

وأخذت قرناً كبيراً أهداه لي بعض أهالي جورجيا وقدمته الى أبي طالب •

وفحصه العجوز زمناً طويلا من جميع وجوهه ثم القى حكمه :

ـ انه جيد ، ولكنه يمكن أن يكون أكثر روعة لو لم يزين بالفضة • انها مثل حزام على عروس هذه الفضة المزركشة فوق القرن • ولم هذه الفضة ؟ هل تجعل الفضة الفودكا خيراً مما هي أو أشد قوة ؟ لا يارسول أعطني قدح ماء عادياً ، تعودت يدي أن تمسك به • أنا أعرف عدد الجرعات في الكاس الكبيرة وأعرف متى أتوقف عن الشراب ، ومتى أستمر فيه ؟

ولبيت طلب أبي طالب • وسكب الفودكا في الكاس والقى فيها قطعة صغيرة من الخبز وقال بلغته الدرجنية (٢٣) :

ـ درخاب(٢٤) :

وأفرغ كاسه دفعة واحدة ، واضاف وهو يسترد أنفاسه :

ـ كلمة « درخاب » يجب أن تقال دوماً قبل الشراب •

من الصعب أن أشرح معناها ، ولعلها أن لا يكون لها معنى ، ولكن الا تفهم هكذا : درخاب! وشرب أبو طالب ثم جر نحوه صحن الحساء ، واصطاد مافيه من اللحم وضعه في صحن آخر ، وجعل يفت الخبز في الحساء • أكل دون استعجال ، في سرور ، وهو يتمطق بكل ملعقة من الصحن الطيب الساخن •

وكان يقطع حيناً بعد حين ، ودون استعجال قطعة من اللحم في الصحن الآخر ويبتلعها • وخيل الي أن اللحم لا يمكن أن يكون في مثل هذه اللذة لو أنه أكله في شكل آخر أو أنه قطعه بسكين أخرى لا بموساه •

وبعد أن انتهى من الحساء واللحم جمع أبو طالب كل ما سقط على المائدة من فتات الخبز ووضعها في فمه • ثم شرب قليلا وجعل يداعب شاربيه :

ـ أتريد الآن الشاي •

ـ الشاي عندي الآن دخاني • قل لي يارسول • ما الفرق بين السيجارة وأي شيء آخر ؟

ـ لا أدري •

(٢٣) احدى لغات داغستان (م.ف) •
(٢٤) بمعنى : في صحتك أو كاسك (م٠ع)٠

ـ كل شيء يمتـد إذا سحبته الا السيجارة فتتضاءل اذا سحبتها • وجعـل يضحك مـن احجيته الساذجة ؟

ـ أنت تدخن كثيراً يا أبا طالب • أليس في ذلك ما يضر بصحتك ؟
ـ ومن لا يدخن بعد مثل هذا الغداء الدسم ؟
وبعد أن دخن حتى اكتفى سالني فجأة :
ـ متى يعقد اجتماع ادارة الكتاب ؟
ـ غـداً •

ـ لا أدري ان كانوا سيناقشون غداً الطلب الذي قدمه زين الدين الى ليفوند(٢٥) ؟
ـ لا أعلم • ولكن ما يهمك من الموضوع ؟
ـ أريـد أن أحكي لك حكاية : عندما كنت يافعاً كنت أرعى الاغنام • وكانت أغنامي هادئة لذلك كنت أستطيع ان أتمدد على العشب الاخضر ، وتحت الشمس ، وهي ترعى حولي • وكنـا جميعاً مسرورين : أنا والاغنام وصاحب الاغنام • ولكن مالبثت أن حلت بنا كارثة • خروف أكثر خبثاً من أصحابه وجد الطريق الى حقل من الشوفان • وتبعه الآخرون • وكان هذا اليوم نهايـة حياتي الهادئة • لم استطع ان أنسي خرافي طعم الشوفان ، فاضطررت الى ألا أترك مراقبتها لحظة واحدة • وذلك ما يحدث للتيفوند ولشعرائنا • إنهم يعيشون في سلام كامل ، ويكتبون مؤلفاتهم ، حتى الساعة التي يشمّون فيها رائحة التيفوند • أنا لا أعلم من كان أول من قبلها منهم ، ولكنهم الآن يقبلون عليها جميعاً كما تقبل خرافي على الشوفان •

إنهم يفكرون في قصائدهم ، أقل مما يفكرون في التيفوند • فلا يكادون يستيقظون عند الصباح حتى نراهم يشرعون لا في كتابة القصائد بل في كتابة كل لون من ألوان الطلبات • وأنا أيضاً أريد أن أكتب طلباً وأنت تتولى مناقشته في اجتماع اللجنة الادارية •

ـ ولكن يا أبا طالب ، أي طلب تريد ••• ما الذي ينقصك ؟
ـ أنت تعلم أنني لم أعرض جسمي على طبيب حتى الآن • ومع ذلك فقد قررت رغم ذلك أن أقيم اقامة طويلة في أحد المصحات •
ـ يمكنك أن تعد طلبك هذا مقبولا كانه في جيبك • ولكن ألا ترى من الاوفق لك أن تتقدم بطلبك هذا الى مجلس السوفيات الاعلى في داغستان بدلا من تقديمه الى اتحاد الكتاب ؟ أنت عضو في مجلس الرئاسة للسوفيات الاعلى • ان بيوت الاستجمام التابعة للدولة خير من بيوت استجمام الكتاب•

(٢٥) مبالغ من المال تقدمها اتحادات الكتاب وتخصص لمساعدة رجال الأدب ماديـاً لتسهل عليهم الخلق الأدبي (حاشية المترجم الى الفرنسية) •

هز أبو طالب رأسه وقرع لسانه • قرقعة اللسان هذه يمكن أن تعبر عن عواطف كثيرة مختلفة : الحماسة الاشمئزاز ، الدهشة أو النفي كما عبرت عنه الآن •

ـ كلا يارسول • أنا أولا عضو في السوفيات الاعلى لفترة أربع سنوات فقط ، ولكني كاتب مدى حياتي • وهناك ثانية نواقص في كل بيت من بيوت الاستجمام ، مهما كان نوعه • ثم قل لي : أليس يناسبني أن أقرعك أنت وخاباليف أكثر من تقريعي للسوفيات الاعلى •

ـ حسناً • أكتب طلبك ، وستجري مناقشته غداً •

ـ سيكتب الطلب ميرزا ، فانا لم أكتب طلبا قط ، وعلى كل حال ، هيء لي بطاقة الاقامة •

ونهض أبو طالب ، وهو يقول هذه الكلمات ويهم بالذهاب •

ـ أين تذهب الآن • يا أبا طالب •

ـ سأذهب الى المطبعة • يظهر أن كتاباً من كتبي قد نشر • واريد أن أعرف هل هو ذكر أو أنثى ؟

ـ تعال الليلة الى معهد التربية • الطلاب يستقبلون الكتاب •

ـ موافق • سآتي هل آخذ معي المزمار؟(٢٦) •

ـ ولماذا ؟ لست عازف قيثارة ••• أنت شاعر • خير أن تاتي بمجموعة شعرية •

ـ الى اللقاء ، قال أبو طالب •

الامسية الادبية المقرر عقدها في معهد التربية كان موعدها في الساعة السابعة مساء • جاء بعض الشعراء • وفي الساعة السابعة تماماً بحثت بعيني ذات اليمين وذات الشمال ، فلم أجد أبا طالب • وكان علي أن أبدأ الامسية دون حضوره • وتتابع الشعراء على المنبر • كل واحد منهم قرأ قصائده في لغته الاصلية : اللاك ، وكوميك ، وليزجيان ، وآفار • وبينما كان أحد الشعراء الشباب يلقي قصيدته قاطعه الجمهور بتصفيق حاد : انـه أبو طالب يبدو في القاعة ، والشباب يصفقون لـه •

وبعد أن استمعنا الى شاعرين آخرين اشرت الى أبي طالب ليستعد ، وفجاة بدا عليه الجد ، وجلس على كرسيه كأنه يستعد للتصوير وجعل يفرك شاربيه : وكان جلسته تقـول لي : انظر « ها أنذا أستعد »

وصعد أبو طالب على المنبر ، وتحدث الى الطلاب الشباب بالروسية ثم بلغة آفار ولاك ، لأنه يكاد يعرف شيئاً من كل لغات داغستان ثم قرأ قصيدتين بلغة لاك •

(٢٦) في الاصل : الزرنا : آلة موسيقية هوائية•

ولكن هذا الجزء الادبي ـ اذا صح التعبير ـ من مشاركته في الامسية قاده في سرعة الى ماهو عنده أساسي ، وكأن ذلك النصيب الادبي لم يكن الا مقدمة له • فقد أوقف أبو طالب بحركة من يديه التصفيق ثم سأل المستمعين :

ـ أتريدون أن أعزف على المزمار ؟

وصرخت الصبايا :

ـ نعم • أعزف • هذا ما نريد •

ومضى أبو طالب يبحث في ثنايا المسرح عن مزمار ثم عن شبابة • وبدأ يعزف في نعومة على أحدهما ثم على الآخر ، وعرف كل الحاضرين أن ذلك اعداد للعزف وأنه يصلح أنغام الآلتين ، وبعد أن اطمأن الى سلامة الآلتين أمسك بكأس من الماء فوق المنضدة وسكبه في جوف المزمار ، وهو يقول :

ـ اسق حصانك قبل أن تشرب أنت • هكذا يقول أهل الجبل ، وقبل أن تشرب أنت اسق مزمارك •• هكذا يقول العازفون في الجبل •

وعزف أبو طالب على المزمار ، وهو يتمايل الى هذا الجانب أو ذاك • وأحس أبو طالب بحميا النشوة في هذه القاعة التي تغص بالصبايا • ولعل أنغام المزمار في هذه الليلة سمعتها كل أرجاء (ماخاتشكالا) •

وسألني أبو طالب في بساطة وهو يعود الى مكانه في سُدّة الرئاسة :

ـ أعزفت جيداً ؟

ـ نعم •

ـ اذن فلماذا صفقت تصفيقاً قليلا ؟• أتريد أن تصفق أيضا ؟

واستقبلت كلمات أبي طالب بضحكات جماعية •

لقد ساءني ، كمسئول عن اثارة الحماسة في الامسية ، أن ينتقل الشاعر المرموق أبو طالب الى دور عازف على المزمار • ولقد حدث مثلا أن الشاعر الروسي (ايسينين) اندفع الى أداء رقصات روسية بدلا من القاء قصائده • ان (يسينين) قد يعرف الرقص • ولكن لكل شيء زمانه• ومن الممكن أنني قطبت حاجبي وصفقت تصفيقاً قليلا وذلك ما دعا الى سؤال أبي طالب المرح والى نشوة عارمة في القاعة •

ونزلنا الدرج العريض الذي يؤدي الى الرواق يصحبنا سرب من الصبايا • ولبست معطفي ونظرت الى المرآة • في ذلك العهد كان يسود طراز المعاطف ذات الاكتاف العريضة المربعة المحشوة ، وكنت ألبس هذا المعطف ، ورمقني أبو طالب وهز رأسه :

ـ كان (الكورليدك) في الماضي ، يعني التغذية الفنية والصحية هي التي تصنع الاكتاف

العريضة ، أما الآن فالذي يصنعها هو القطن • وكانوا في الماضي يغنون الاغاني ترافقها (الكوموز) أما الآن فانتم تقرؤونها في قصاصة من الورق • لقد تغير العالم كثيراً • ذلك مالا يرضيني •

ـ ولم تاخرت يا أبا طالب ؟

ـ كنت على أهبة السير في الطريق عندما هرع الي أحد الممثلين في المسرح وهو يركض !

ـ وماذا يريد الممثل الآفاري ؟

ـ أفهم ما أقول • في المسرحية مشهد للزواج ، لا يمكن الا ان يقدموا مسرحية دون حفلة زفاف • وكان عازف المزمار مريضاً • ما قيمة حفلة زفاف اذا لم يكن فيها مزمار ؟ وعندئذ دعوني الى أن أعزف • عشر دقائق فقط • ولكن الوصول الى المسرح والوقت الذي استغرقته المسرحية حتى تبدأ حفلة الزفاف كانا طويلين • وقد اخترت أغنيتين جيدتين حتى نسي المشاهدون المسرحية ، ولم يصغوا الا إلى عزفي • وكان من الممكن ان يبقوا وهم يصغون الي طول السهرة •

وقلت لـه :

ـ أما أنا فلو كنت مكان أبي طالب جعفر ، الشاعر الشهير وعضو رئاسة السوفييت الأعلى في الجمهورية ، لما رضيت أن أكون عازف مزمار •

ـ أبو طالب يعرف خيراً منك ما يجب أن يفعله وما يجب ألا يفعله •

ـ أذهبت الى دار النشر ؟ كيف حال كتابك ؟

ـ الحمد لله : لقد ظهر الكتاب • والحمد لله : لقد قبضت بعض المال • والحمد لله : لقد وفيت ديوني ، والحمد لله : لقد اشتريت إوزة •

ـ أتريد أن تقيم مادبة ؟

ـ لمن ؟

ـ للمحرر والمصور والمحاسب لكل أولئك الذين أسهموا في طبع الكتاب

ـ مادبة للمحرر ؟ ـ وكاد أبـو طالب يفقد الكلام من غضبه ـ أيستحق مادبة ••• انـه يستحق الضرب •

وضحك أبو طالب ضحكا طويلا ثم استانف :

ـ اسمع يارسول • سمعت أن الداغستان الذين يختنون أولادهم يهددون بالتسريح ، بل بالطرد من الحزب • ولماذا اذن لا يسرحون المحررين الذين يزيدون في قصائدي ويقطعونها تقطيعاً ؟ من مجرد النظر الى الترجمة الاخيرة أستطيع أن أقول لك من أية قرية جاء المحرر • عندنا ، في شعب اللاك ، كل قرية لها لهجتها الخاصـة • والمحرر يحاول كل مرة أن يترجم قصائدي الى لهجـة قريتـه •

وصمت أبو طالب فجأة وابتسم :

ـ أما المرأة التي وقعت العقود هناك فهي امرأة باسلة ! لقد شكرتها شكراً عميقة •

ـ وماذا قلت لها أيضا ؟ لعلك قدمت اليها هدية •

ـ عرضت عليها أن تعطيني مالديها من أوان مطبخية مهترئـة ، أو مثقوبة ، أو مكسورة وساصلحها لها حتى تعود كانها أوان جديدة •

هذه الاندفاعة الجديدة لأبي طالب كانت أقل اثارة لسروري من اندفاعته الى عزف المزمار في المسرح • ورأيت أمام أحد الجدران كومة من الاواني النحاسية القديمة ، فقلت لأزعج العجوز :

ـ مادمت تصلح الاواني فلماذا تترك هذه الكومة هنا • كان عليك أن تجمعها وتمضي بها البيت •

ـ قال أبو طالب في سذاجة :

ـ لا لا يمكن أن آخذها يا رسول • لعل هناك من يلتقطها قبلي •

ومر بنا عابر متاخر • فاوقفه أبو طالب في بساطة وطلب منـه بعض التبغ وعـود ثقاب ، وجعـل يدخن •

الحق أن سلوك أبي طالب لم يرق لي •

شاعر داغستان الشعبي الكبير ، الشهير في كل البلد ، عضو الحكومة يوافق على أن يقوم بدور عازف مزمار ، في مسرح ويعرض اصلاح الأواني على أمينة سر دار النشر ، ويطلب قليلا من التبغ من عابر سبيل • ومع ذلك فقد أحجمت عن اثارة العجوز ، وخفت أن يتضايق •

وقلت لـه :

ـ إنك شيخ عجوز يا أبا طالب • أليس من الخير لصحتك أن تكف عن التدخين •

ـ ما هذا ؟ اليوم يجب أن أكف عن التدخين ، وغداً يجب ألا أصلح الاواني ، وبعد غد يجب ألا أعزف على المزمار • أما القصائد فساكون مضطراً الى ترك نظمها ، انها ستفر مني فراراً • إنها تعرف أبا طالب ، أبا طالب النحاس ، المدخن ، عازف المزمار ، فاذا لم أكن أبا طالب فهل تحتاج إليَّ قصائدي • أنا أبو طالب جعفر ، ولست رسول حمزة الذي لا يحب التدخين ولا يعرف إصلاح الاواني ، ولكنه يعرف ادارة اتحاد الكتاب • ولست أيضاً يوسف خابالي ولا نور الدين يوسف ، ولا مكسيم غوركي ، ولا زوستشنكو (كان زوستشنكو معرضاً للنقد في ذلك العهد فتذكر أبو طالب اسمه) •

ـ أين تستطيع المهاة الاختفاء إن لم تختف في الجبال ؟ أين يستطيع الغدير الجريان ان لـم يجر نحو الوادي • لا تحاول أن تلبسني قلبق(٢٧) غيري •

علام تساومني في موضوع ما مضى من حياتي ؟ نعم لقد كنت عازف مزمار وراعياً ونحاساً •

(٢٧) القلبق : لباس الرأس •

ولكن هل أخجل من سنواتي الماضية ؟ أنا دائماً أبو طالب • تذكر يارسول ما أقوله لك : اذا أطلقت رصاصة من مسدسك على الماضي أطلق عليك المستقبل قنابل مدافعه • لقد هجرت نساء ، وهجرتني نساء • ولكن العمل الذي أجيد صناعته لا يمكن أن يتركني ، وليس في مقدوري أن أتركه•

نعم ، إنه هو حقاً الشيخ الشاعر أبو طالب ، صديق والدي • كان دائماً على هذا الشكل ويجب أن أقبله على علاته • لو تغير لكف في الوقت نفسه عن أن يكون الشاعر أبا طالب • ساقص عليكم أيضاً حكاية يمكن أن نسميها :

بيت أبي طالب الجديد :

كان ذلك في العهد الذي انتخبت فيه رئيساً لادارة اتحاد الكتاب في داغستان • وهذا المنصب يعطي من الحقوق أكثر مما يطلب من الواجبات ، ولو شاء الانسان الراحة لانصرف هادئاً الى عمله الاساسي ، الا وهو نظم الشعر • ولكني كنت في ذلك العهد لا أزال شاباً كثير الحماسة • وجعلت أمارس ألواناً من النشاط ، وأبحث عن كل نوع يناسب مهمتي الجديدة •

كنت أتصور أننا عندما نريد أن نتحقق من صلابة بيت ورسوخ قواعده ، فيجب أن نفتش بادىء بدء عن عوارض سقفه وأعمدة زواياه وكل نقاط ارتكازه • وبعد أن انصرفت الى تامل طويل ، تحققت أن هناك أربعة شعراء من قوميات مختلفة يمكن لهم أن يضمنوا دعم اتحاد الكتاب :

تاجر خريوجسكي من ليزجيان ، وعلي كَزْيَاف من اليوميك ، وساجد جاجيف من الآفار وأبو طالب جعفروف من اللاك •

وبعد أن أدركت هذا وضعت مشروعاً • قررت أن يلتقي هؤلاء الشيوخ المحترمون بأعضاء حكومة داغستان • الشعراء يعبرون عن حاجاتهم للحكومة ، والحكومة تلبي مطالبهم •

وها نحن هؤلاء نتناقش مع عبد الرحمن دانيالوف أمين سر اللجنة المحلية للحزب • كانت المناقشة تجري في جو طليق وبقلوب مفتوحة ، وشربنا الشاي • وشعر شعرائي أنهم يعيشون في السماء السابعة ورددوا باصواتهم الأربعة : ما أحسن هذا الرجل ، هذا الرئيس الجديد لاتحاد الكتاب رسول حمزة • وشعر الرفيق دانيالوف بالمتعة مع الشعراء الشعبيين وكرر هو أيضاً في نفسه الثناء على رسول ، وظللت جالساً كأن الأمر لا يعنيني •

تحدثوا عن داغستان ، وعن الحياة وعن الشعر • وأخيراً طلب اليهم أمين سر اللجنة أن يذكر كل واحد منهم مطالبه ، وبدأ الكلام تاجر خريوجسكي فقال :

ـ أنا متأثر جداً يارفيق بالموضوع الآتي : في الشتاء عندما يهجم البرد تموت الاغنام في الجبال • ألا يمكن أن يرسلوا الى هناك ، في الصيف ، بما يكفيها من العلف في الشتاء ؟

وسجل الرفيق دانيالوف الملاحظة ثم سأل :

ـ أليس لك طلبات أخرى •

ـ ألا يمكن أن تخصص سيارة للمزرعة الجماعية في خريوج ؟

وانتقل الحديث لعلي كازياف • وفتح علي فمه وعرض علينا جميعاً وعلى أمين السر في هذه المناسبة أسنانه العتيقة المريضة :

ـ انظر ألا يمكن أن تصنعوا لي أسناناً جديدة ، أسناناً جيدة • فمن الصعب أن أمضغ طعامي بتلك الاسنان • ثم إن الأهتم لا يستطيع الغناء • وعندما ألقي قصائدي أجدني ألثغ

وأوضح لنا كازياف أيضاً مدى صعوبة القاء القصائد عندما تذهب الاسنان • وقرأ لنا رسالة أرسلها الى رئيس اللجنة التنفيذية لـ (خاسافيورت) وفيها طلب مؤثر للشاعر العجوز بارسال فحم يدفىء به بيته •

وسأل دانيالوف :

ـ وهل أرسلوا الفحم اليك ؟

ـ المسألة ما تزال موضوع بحث منذ العام الماضي • وسجل أمين السر الملاحظة ، وتهيأنا لنسمع جادجييف •

ـ في مشاهد المنوعات ، الشباب يصرخون ولا يغنون • وهم بصراخهم هذا يشوهون الاغاني الشعبية الرائعة • أما الاغاني الجديدة فهي التي تدعو المغنين الى الصراخ رغم أنوفهم • يجب أن نضع حداً لذلك • ثم انهم يذيعون في الاذاعات كثيراً من أغاني الحب • بل ان بعضها يشيد بحوريات الاساطير القديمة • قل لهم يارفيق دانيالوف ألا يشيدوا بتلك الحوريات ، وأن يمجدوا العمال وهم طلائع زراعتنا •

وبعد أن أنهى جاديبف خطابه التفت إليَّ ووشوش في اذني :

ـ وليس هذا كل شيء لقد علمت أن شختامانوف وسليمانوف شربا الخمر أمس في المطعم • يجب أن نمنع الكتاب من الشراب • ولكني سوف ألقاك خصوصاً من أجل هذا الموضوع •

وجاء دور أبي طالب فقال مخاطبة أمين السر •

ـ ياعزيزي عبد الرحمن • زوجتي الاخيرة جاءتني بطفل •

ـ كيف : زوجتك الاخيرة ؟

ـ كان لي نساء كثيرات • وماذا تريد مني أن أصنع ؟ ينشرون صوري في الجرائد ، يتحدثون

عني في الاذاعة ، يعلنون على الملأ أنني شاعر داغستان الشعبي ، وأنني نائب ، وانني أحمل هذا الوسام وذاك ، والنساء سريعات التصديق يهرعن الى عض الطعم ، ويتباهين ، ويعتقدن أنني مادمت شهيراً الى هذا الحد فلا بد أن يكون لي قصر ، وأن تكون صناديقي ملأى باكياس الفضة • ويتزوجن بي ، ولكنهن لا يكدن يفعلن ذلك حتى يرين أبا طالب يسكن قبواً من الاقبية • ولايرضيهن ذلك فيهجرنني • هذا ما جعلني أتزوج عدداً من الزوجات •

نعم يا عزيزي عبد الرحمن ، ان أغانيّ تحلق في السماوات كالقبرات ، أما أنا فاعيش دائماً في قبو • من هذا الكهف البائس أطلق نحو السماء أغاني من ذهب • وهاهي الآن زوجتي الجديدة التي أعطتني ولداً صغيراً تهددني بتركي اذا لم يكن لي بيت ترتاح فيه • ستذهب وهي تضم ولدها الى صدرها ••• اسمع ياعبد الرحمن ، انها لم تتركني حتى الآن وقلبي يتقبض حزناً ، لا تدمر أسرتنا ، أعطني منزلا أحمل فيه طناجري على السطح(٢٨) • عمري أكثر من سبعين سنة ، وعربتي لا تصعد الشاطىء بل تهبط الى السفح • ولك علي اذا أعطيتني منزلا أن أدعوك اليه •

ولم يمض أسبوع حتى أصبح لأبي طالب منزل جديد • الى اللقاء أيها القبو المرح • هذا أبو طالب ينتقل الى منزل يتألف من ثلاث غرف في الطابق الثالث في بناية جديدة في شارع بوشكين•

والتقيت بأبي طالب ذات يوم في الشارع ، ولم يكد يراني حتى تظاهر أنه مشغول بالبحث عن شيء ما في كومة من الحديد العتيق ودنوت منه وقلت له :

ـ مرحباً يا أبا طالب • كيف الحال في منزلك الجديد ؟ هل يرضيك ؟

ـ لقد قضيت زمنا طويلا في البحث عن جرس كبير أعلقه على باب البيت لادعوك الى زيارتي ، يابن حمزة من قرية تسادا • فتحت نافذتي المطلة على البحر ثلاث مرات وعزفت على مزماري وأنا آمل أن تسمعه وتأتي ملبياً ندائي • ولكني عرفت أني لا أصل الى طلبي ان لم أحصل على جرس كبير، وهاأنذا أبحث عنه في هذه الكومة من الحديد •

وذهبنا رأسا لنزور بيت أبي طالب الجديد • لم تكن فيه الا الجدران العارية • على الارض تتمدد أشياء من سقط المتاع جاء بها أبو طالب من قبوه : قيثارة قديمة ، ومزمار ، ومنفاخ حداد عتيق (والله أعلم بما يمكن أن يقدم له من نفع في المنزل الجديد) وكانون عتيق ، وطسوتوسطول وجرادل ، واحذية وفروة •

كثير من الشيوخ ياتون من الجبال ويمرون بأبي طالب • يلبسون الفروات ، ويقدمون المدينة لبعض أعمالهم • وقال أبو طالب لاحدهم وهو يخلع عنه فروته ويتعجب :

---

(٢٨) تعبير محلي عن امكان الطبخ في المنزل •

ــ أيتها الفروة اللعينة لماذا أنت فارغة ؟ آه لو أنك حملت لنا خروفاً على سبيل المثال ، لانتهى عمل ضيفي في سرعة • هؤلاء الناس يقطعون جبل شتانخ عبثاً لمجرد أنك فارغة •

وهكذا حمل أبو طالب على الفروة الفارغة وهو يبحث بعينيه عن مكان أستطيع أن أجلس فيه • ولما لم يجد شيئاً مناسباً أعطاني سكينا كبيرة وأشار من النافذة الى قن في ساحة البيت :

ــ هنالك إوزة • اذهب واذبحها • ستكون غداءنا • وفتحت باب القن وأمسكت بالاوزة بعد طول عناء ، كانت تتخبط يائسة بين يدي • وبدأت عملي ، وصوت أبي طالب يأتينا من فوق :
ــ أرأيت إوزة تذبح على هذا الشكل ؟ أدر لها رأسها الى الجهة المقابلة • ألا تعرف جهة القبلة في مكة ، أم ما خبرك ؟
واتممت عملي في شكل ما ولكني حظيت أخيراً برضا أبي طالب •

ووضع أبو طالب القدر على السرج ــ كما يقولون عندنا ــ واشتغل باعداد المائدة • واغتنمت الفرصة لفحص منزله • لقد ترك الشاعر العجوز قبوه ولكنه حمل الى البيت الجديد كل ما كان في حياة القبو القديم ، بدءاً من القدر العتيقة حتى أقل عاداته • ليس في البيت كرسي ، ولا منضدة ولا مرآة ولا سرير ولا شيء من الاثاث •
وسألته :
ــ أين تكتب أشعارك يا أبا طالب ؟

ــ لم أكتب حتى الآن شيئاً في هذا البيت • في البدء كنت اذهب الى قبوي القديم واكتب فيه• ولكنهم أعطوا القبو لرسام ليكون مرسمة له • الله يعلم اني أنام وأنا أقل راحة في هذا البيت مني في ذلك الكهف • هنالك كان مصروفي أقل ، وكان وقتي أكثر • ولم يكن الناس يشغلونني ويهبطون علي دون استئذان • كان الزائرون لي في قبوي نادرين • هنالك كنا لا نرى البحر • هذا صحيح، ولكن هاهو ذا البحر الآن تحت نظر العجوز ابي طالب •

وتأمل أبو طالب طويلا بحر الخزر ، وكانت تصطخب فيه الآن عاصفة زرقاء بيضاء • ولم أرغب في احراجه فسكتنا • ثم استأنف أبو طالب حديثه :
ــ سأحدثك يارسول عن يومين في حياتي : أسعد يوم وأشقى يوم •
ــ حدثني •

ــ أنت ترى يارسول أنني قضيت في حياتي عدداً غير قليل من أيام السعادة • لقد وهبوا لي أوسمة ، وكنت مسروراً ووهبوا لي بيتاً ، وكنت مسروراً ، وكنت مسروراً كذلك يوم أعطاني الحمر في عام ١٩٢٠ فرساً أصيلا • نعم لقد سرت مع الحمر ، وكنت عازف القيثارة في الكتيبة • وكان حصاني في دروب الحرب يمس بمنخره كفل حصان القائد • وكان ذلك أيضاً مدعاة لسروري•

ومع ذلك فان سعادتي الكبرى والاولى لم تكن كل هذه • عندما كنت في الحادية عشرة من عمري وكنت أرعى الغنم ، قدم لي أبي أول جزمة عرفتها في حياتي • لا تستطيع الكلمات أن تعبر عن كبريائي التي شعر بها قلبي بهذا الحذاء الجديد • كنت أسير في الاودية ومجاري السيول في جرأة ، أنا الذي كنت أمسي فيها أمس وأمزق قدمي بالحصا البارد القاطع ، أصبحت اليوم أطأ هـذا الحصا نفسه دون أن أشعر ببرود ولا ألم • واستمرت سعادتي ثلاثة أيام فقط ، ثم جاءت أقسى لحظات حياتي مرارة • في اليوم الرابع قال لي أبي :

ـ اسمع يا أبا طالب • لك الآن حذاء جديد متين • ولك عصا ، ووراءك أحد عشر عاماً فوق هذه الارض ، لقد حان لك أن تضرب في الارض وأن تسير في دربك لكي تأكل وتلبس من عملك• وأرسلني والدي لاتسول في القرى والدساكر • لقد كان عذابي الاخلاقي في هـذه اللحظة أقسى ما عانيت في حياتي • لقد سالت دموعي مراراً ولكنها لم تكن في حياتي في مثل هذه المرارة • أحد الكتاب ذكرني فقال : ـ أبو طالب أخذ بيتاً جديداً ، وسنرى مانوع الشعر الذي سوف يكتبه • وكان هـذا الكاتب لا يعلم أن أبا طالب يعرف أن الشعر لا يتعلق ببيته • ان الشاعر هو نفسه بيت قصائده قلب الشاعر هو بيت شعره • في نفسي تعيش لحظات حياتي : أفراحها وآلامهـا • أما المكان الذي أعيش فيه أنا فليست له قيمة •

لقد أثر في نفسي بيت أبي طالب تأثيراً عميقاً • وتحدثت في ذلك الى قادة جمهورية داغستان، وتقرر أن يخصص قسط من حقوق أبي طالب في كتابه (العنادل تطير نحو الجنوب) لشراء أثاث حديث جميل لمسكنه الجديد • وتألفت (لجنة عمل ثلاثية) : مدير دار النشر في داغستان ، ووزير التجارة وأنا • وكان علينا أن نجد الاثاث الضروري ، وأن نشتريه وأن ننقله الى بيت أبي طالب• وكلفت أن أجري معه المباحثات الضرورية •

وطفنا نحن الثلاثة في مستودعات ماختشكالا ، وانتقينا غرفة النوم (فلعل شاعرنا يذوق طعم الراحة !) ومجموعة مكتب (فلعله يؤلف فيها أشعاره الرائعة !) وغرفة طعام (فلعل طعامه أن يكون أطيب مذاقاً وشرابه أكثر حلاوة !)

وحسبنا أن أبا طالب سيهرع الينا وهو لا يدري كيف يعبر لنا عن شكره • والواقع أننا لم نتلق شكراً صغيراً بل نحن لم نتلق منه ما يشعر بوصول الاثاث الى بيته • وقررنا عندئذ أن نذهب لزيارته لنعرف كيف يستعمل ما اشتريناه •

ولم نحتج الى قرع الباب ، لأن الباب كان مفتوحاً • ودخلنا ، فاذا أبو طالب وأسرته يجلسون على الارض فوق بساط قربمنضدة غرفة الطعام•وكانوا يجلسون متحلقين على ركبهم قرب الكراسي• وطعامهم موضوع أمامهم فوق جريدة ، وأبو طالب يلتهم في ضوضاء صحناً من الكفير ، وهو يرمق من حين الى حين تلك المنضدة اللماعة كأنها صبية تنتظر أن يضمها بين ذراعه ، بينما هـو ، أبو طالب ، لا يرغب فيها أقل رغبة •

في الغرفة الثانية وجدنا مجموعة مكتبية جميلة • فوق المنضدة ورق وقلم ومحبرة ، وكلها عذارى لم تمس • وهذه الاشياء ، حتى المكتب نفسه ، تبـدو كانها قطع يضمها متحف لا قطع للاستعمال • وفي آخر زاوية من الغرفة كانت هنالك أوراق تغطيها أحرف عربية تتناثر على الارض•

ـ ألا تعرف كتابة الابجدية الحديثة يا أبا طالب ؟

ـ أعرفها ، ولكني تعودت الكتابة القديمة • أكتب بالاحرف العربية أولا ثم أنقل لمحرر دار النشر ما كتبته بالحروف الحديثة ، وكاني بذلك أترجم نفسي • وأعلنت امرأته :

ـ لم ينم مرة واحدة في السرير • ما أضيع التعب في شراء مثل هذه الاشياء الغالية !

ـ وما السرير ؟ في البدء في أول سنة أقمت فيها في المدينة كانت وسادتي حجراً من أحجار الجبل ، وكنت أنام نوماً عميقاً أكثر مما أنام على وسادة • لقد تعودت النوم على حجر منذ كنت راعي غنم •

ـ إذن فانت غير مسرور بالاثاث الذي اخترناه لك ؟ بهـذا المكتب ، وبهذه الكراسي وبهذه المنضدة ، وبهذه المرآة ؟

ـ الاثاث جيد جداً • ولكنه أكثر ملاءمة لجاري جاد فريد غسانوف •

ـ وهل هو جار طيب ؟

ـ يمكن أن يكون انساناً جيداً ، ولكننا لا نتفاهم •

ـ ولماذا ؟

ـ إنه حقاً كثير الثقافة • أنا جبلي ، أما هو فمدني • جئت من الجبال وعاش في السهول • إن غطاءي رأسينا مختلفان ، بل لعل رأسينا أيضا لا يتشابهان • أنا ابن أرضي ، وهو ابن‌صنعته• انه لا يتحمل قيثارتي ولا أغاني ، وهو ينطح رأسه بالحائط ويصرخ : أبا طالب • أنت تمنعني عملي •• وأقول له : لست أنا الذي أعزف • العزف في المذياع • والحق أنه معذلك ينطح رأسه اذا سمع القيثارة في الاذاعة • ما معنى هذا ؟ انه لا يمنعني العزف على القيثارة بل انه يريد أن يمنعني الاستماع الى المذياع • وبكلمة واحدة ، نحن لا نتشابه • عندما يزورني ضيوف • فهم من الجبل جاؤوا من قراهم ، أما ضيوفه فياتون من موسكو بمناديل من الجلد • أنا أقدم الى ضيوفي البوظة (العرق) والشنكليش ، وهو يقدم الى ضيوفه الكونياك والقهوة • أنا أقوم بشراء حاجاتي من السوق ، وهو من المخزن • عندما أنام يكتب ، وعندما ينام أكتب • وهو يحب الازهار التي تنمو في الاقبية وأنا أحب الاعشاب التي تزهر في الحقول الجبلية • اسمعوا هاهـو ذا يعزف الآن احدى سمفونياته • كنا نعرف جيداً جار أبي طالب • انه جود فريد علييفتش غسانوف ، معلم خبير بفنون داغستان وهو من اتحاد فناني روسيا • كان يعمل في ذلك العهد على تاليف كونشورتو عـلى البيان • كنت أسمع في نشوة موسيقاه الناعمة الملهمة • وقلت في نفسي : آه • ليتنا نستطيع

الجمع بين هاتين العبقريتين الكبيرتين القادرتين : العبقرية البسيطة الشعبية في أبي طالب ، والعبقرية المهنية المثقفة عند غسانوف • وتصورت في نفسي أيضاً أن من أكثر الامور طرافة أن أجمع في كتبي بين هذين التيارين : الطبيعة العفوية في شعبي ، روحه المبتكرة والمقدرة المهنية العليا • أردت أن يجتمع في شعري أبو طالب وجود فريد • أردت أن يكون تجاورهما في مؤلفاتي تجاوراً هادئاً مختلفاً من تجاورهما في البيت •

نعم آمل في أن يتحقق التعاون بين هذين الينبوعين • ومع ذلك فماذا تصنع لو لم يكن ذلك ممكن التحقيق ، ولو انك مضطر الى أن تختار واحداً منهما • يمكن في النهاية ان افضل الماء المثلج في ينبوع الجبل على اطيب أنواع الشراب المتمدين • ان الثقافة والتمدن ودقائق المهنة يمكن أن تكتسب • يمكن للانسان ان يكتسبها ، وان لم تكن فيه ، أما المشاعر الوطنية ، والشعبية فانها فطرية في الانسان عند ولادته • ان الشاعر الوطني وعازف القيثارة أبا طالب ، في شروط أخرى ، يمكن أن يصبح موسيقيا محترفاً ، بل ومؤلفاً ، أما المؤلف والموسيقي المحترف جود فريد فلا يمكن أبداً أن يصبح شاعراً شعبياً بسيطاً •

وعندما كدنا نغادر البيت قال أبو طالب فجاة :

ـ رسول ألا يمكن أن يكون لدي هاتف ؟

ـ وما تصنع بالهاتف مادمت ترفض استعمال المكتب والسرير ؟

ـ أريد أن أعزف في الهاتف مرة لنيكولاي تيخونوف في موسكو ومرة لرئيس مزرعتنا التعاونية • يجب أن يعرف رئيس المزرعة ، مهما كان الامر ، انني ما أزال على قيد الحياة ، وان قيثارتي ماتزال تعزف اغانيها الاصيلة • لو سمع الرئيس قيثارتي في الهاتف لأدرك أن مافي جبالنا من عطور وأصوات ما زالت تعيش في هذا المنزل المدني •

ـ يا أبا طالب ان أغانيك المضمخة بعبير الجبال تطير الى موسكو ، الى مسقط رأسك في قريتك ، الى كل قرية في داغستان الى كل زاوية في العالم دون أن تحتاج الى هاتف • أغانيك تطير فوق الجبال ، وأعلى من الجبال •

والآن أريد أن أترك أبا طالب وأريد أن أحدثكم عن قصة لنا وانا ووالدي :

أتذكر ••• :

لا أدري لم لم يكن من المألوف لدينا ان يلقي أحدنا على الآخر قصائده ، بل حتى أن يتحدث عنها • اكتشف قصائد جديدة لوالدي عندما كانت تنشر أو تلقى في الاذاعة وعندما يتحدث عنها أصدقاء سمعوها • وكذلك كان والدي لا يعرف أشعاري الجديدة الا بعد نشرها •

في عام ١٩٤٩ نشرت جريدة في آفار قصيدتي (سنة ولادتي) • ووقعت الجريدة طبعاً في يدي والدي ، ووجدت عدد الجريدة وقد غطته ملاحظات كتبت بقلم الرصاص • لقد قرأ والدي في انتباه شديد قصيدتي ، وعدل كثيراً من الابيات حسب طريقته • « أصلح » الابيات التي وجد فيها مبالغة ، والمجازات المعقدة والتشابيه التي تخطف الابصار • وفي الابيات التي كتبها فوق أبياتي حاول التعبير في شكل أكثر بساطة ووضوحاً وقرباً •

وما أزال آسفة لأني لم أحتفظ بهذه الجريدة وما فيها من اصلاحات : ذلك أنني اعتدت أن أحرق المسودات والمخطوطات المختلفة عندما يتم طبع القصيدة •
أكثر التصحيحات أفرحتني وبدت لي القصيدة أكثر جودة • ولكني لم أوافق على بعض الاصلاحات • وقلت لوالدي :

ـ لا شك أنك أكثر حكمة وأكبر سناً وأظهر نبوغاً مني • ولكني شاعر من عصر آخر غير عصرك • ومن مدرسة غير مدرستك ، ولي أذواق أدبية مختلفة ، وأسلوب آخر ، كل شيء مابيننا مختلف • ألمح في هذه الاصلاحات الاسلوب الشعري لحمزة تساداسا ، ولكني لست حمزة نفسه ، أنا رسول حمزة • اسمح لي أن يكون لي طريقتي الخاصة ، أسلوبي الذاتي •

ـ لست تماماً على حق فيما تقول • أسلوبك ، طريقتك يعني طبعك سجيتك يجب أن يشغلا المحل الثاني في أشعارك • وعليك أن تجعل لطبع شعبك وسجاياه المحل الاول • أنت قبل كل شيء جبلي ، ومن شعب آفار ، ثم إنك بعد رسول حمزة • أنت في اشعارك تتكلم بلسان لا يتكلم به جبلي • واذا كانت أشعارك غريبة عن فكر رجال الجبال ، عن سجيتهم ، فان طريقتك في الكتابة تبقى مصطنعة مزخرفة ، وستتحول قصائدك الى دمى جميلة ، يمكن أن تكون مسلية • من أين ياتي المطر ان لم تكن هنالك غيوم ؟ من أين ياتي الثلج ان لم يهطل من السماء ؟ من أين يجيء رسول حمزة ان لم تكن هناك بلاد آفار وشعب آفار ؟ من أين تاتي بقوانينك الشخصية ان لم تات بها من القوانين العامة في شعبك ، والقوانين ترسخت خلال عصور وعصور ؟

ذلك هو الحديث الذي دار ذات يوم بيني وبين والدي • كل السنوات التي قضيتها بعد هذا الحديث ، كل الدروب التي سلكتها كانت وما زالت تؤكد أن أبي كان على حق •

رمز الزوجة الثالثة :

ذهب شاعر شاب من داغستان الى موسكو ليدرس في معهد الآداب • ومضى عليه عام واحد فاعلنت الجرائد أن الطلاق قد تم بينه وبين زوجته وهي صبية من قرية نائية في الجبل •

وسالوه :

ـ لماذا طلقت زوجتك ؟ تزوجتها حديثا ، وانت تحبها • فماذا حدث ؟

ـ ليس بيننا لغة مشتركة • انها لا تعرف (شكسبير) ، ولم تقرأ (أوجيني أونيغين) ولا تعرف الشعر ولم تسمع (بميريميه) •

ولم يلبث الشاعر الشاب أن عاد الى (ماخاتشكالا) ومعه زوجة من موسكو لعلها سمعت بميرميه وشكسبير • ولم تعش غير سنة واحدة في بلدنا ثم عادت الى موسكو لان زوجهاطلب الطلاق• وسالوه •

ـ لماذا طلقت زوجتك ؟ تزوجتها حديثاً وانت تحبها فماذا حدث ؟

ـ لقد اكتشفت أن ليس بيننا لغة مشتركة • انها لا تعرف كلمة واحدة من لغة آفار ، ولا تعرف عاداتنا • ولا تفهم طبيعة مواطني من رجال الجبال ، وهي لا تريد أن تبقى في بلدنا • انها لا تعرف مثلا واحداً من آفار ، ولا رمزاً واحداً من رموزنا ، ولا أغنية واحدة من اغانينا •

ـ اذن ما الذي تريد أن تفعل ؟

ـ يجب ـ فيما أعتقد ـ أن أتزوج مرة ثالثة •

في رأيي أن هذا الشاعر الشاب يجب أن يجد نفسه قبل أن يجد زوجة ثالثة •

أيمكن أن تتحد جبال بلاد آفار مع قصائد شكسبير في كتابي ؟ كتابي هذا أريد أن يكون الزوجة الثالثة التي يبحث عنها الشاعر الداغستاني الشاب •

من دفتر المذكرات :

تم بناء بيت للكتاب في (ماخاتشكالا) يضم أربعين مسكنا • وشرعوا في توزيعها • طالب بعضهم بتوزيعها حسب النبوغ ، وطالب بعضهم بتوزيعها حسب عدد الاطفال •

يجب أن أذكر أن توزيع المساكن على الكتاب من أعسر القضايا • وأخيراً حل الموضوع في شكلما حلا حسنا أو سيئا • وسكنت في البناية الجديدة أربعون أسرة من أسر الكتاب ، وهاهي ذي تمد حبال الغسيل • وفي اليوم التالي سافرت عشرون زوجة من زوجات الكتاب مجتمعات الى موسكو • وعدن بعد أيـــام متعبات هزيلات كانهن خرجن من حرب • وبعد قليـل بدأ الاثاث الجديد يرد من موســـكو •

واليكم ما حدث • بحثن في موسكو طويلا عن الاثاث • وقررت واحدة منهن أن تشتري • ولم تحتمل الاخريات أن يكون اثاث احداهن خيراً من أثاثهن • ولكن المؤسف أن الزوجة الاولى اشترت أغلى أنواع الاثاث ولم يكن في مستطاع الباقيات أن يجارينها • النتيجة : تشابهت المساكنالعشرون حتى كانها أسنان مشط • يستحيل ان تتصور كيف يمكن لشعب آفار أن يعيش بين مثل هذاالاثاث• في المساكن الباقية كنت اذا دخلت عتبتها قفزت الى أنفك رائحة اللحم المشـوي ، والبوظة

وجلود الغنم ، والشحم المجمد •

وعندئذ تعرف رأساً ان الآفار هم الذين يسكنون هذه البيوت • ثم لم يكن في مقدورك أن تجد كاتباً واحداً منهم يمتلك فكر هذا العصر وأسلوبه •

يمكن لك وأنت تقرأ كتابي أن تدرك أن الآفار هو الذين يسكنون فيه ، ولكنك تدرك أيضاً أن واحداًمن معاصريك ، ان إنساناً من القرن العشرين يسكن كذلك فيه •

أنا لا أريد أن تكون لي الشمس وحدها ، ولا ان يكون لي الظل وحده • يمكن أن يكون لمسكني ساحات واسعة مشمسة ، ولكن ينبغي أن يكون لي فيه أيضاً زوايا صغيرة يغمرها الظل • أريد أن يشعر كل زائر أنه في بيته ، وأنه حر لا يضايقه شيء ، لا يريد أن يغادره ،أو على الصحيح ، (مادمت أتحدث عن الضيوف) أن يغادره حين يشاء وهو في حسرة في لهفة الى العودةاليه•

كنا في اليابان ذات يوم مجموعة من الاجانب ، وجعلنا نتبادل انطباعاتنا • كنا واقفين • عند نبع خيل الي أن أحجاره مصنوعة من أحجارنا في داغستان ، من تلك الحجارة التي يزّين بها المجلس الذي يجتمع فيه الشيوخ للندوات •

قال موسيقيأمريكي : ماأعجبهذه البلاد ! أحسفيوجه اليابان انني أجد وجهأمريكا الصناعية•

واعترض صحفي من هاييتي فقال :

– فكروا في الموضوع ، عدت الآن من البرية ، ان اليابان تشبه على الخصوص جزيرتناالصغيرة•

ودمدم مهندس معماري فرنسي :

– لا تتنازعوا يا سادتي • هنا كل مافي باريس من أفراح وأحزان •

أما أنـا فقد تاملت أحجار النبع الياباني التي يبدو سيمائها أنها جاءت من قريـة آفـار وقلت في نفسي : « أيتها اليابان العجيبة ! فيك كل مافي بلاد العالم ، ومع ذلك فانت لا تشبهين واحداً منها • إنك اليابان » •

يا كتابي يمكن لكل إنسان أن يجد فيك شيئاً من ذاته ، ولكن عليك أن تبقى كتابي ، ابق كما أنت ، لا تشبه كتاباً آخر • أنت بيتي الآفاري ، بيتي الداغستاني • يمكن أن يستريح في هذا البيت ، وجنباً الى جنب ، كل مالم يكن فيه حتى الآن ، وكل ما كان فيه منذ عصور •

كان أبي يقول :

إذا لم نر المؤلف في أثره الادبي ، فكاننا نرى حصاناً يجري دون فارس •

يقال :

كان هناك جبلي لا تنجب أسرته الا البنات • وكان يحلم بصبي • وتصور كل من في الجبل أن من واجبه أن ينصح الأب المنكود • وانهالت النصائح عليه حتى ثار غضبه وصاح :

– كفوا عن نصائحكم ، فقد كدت أنكر ما أعرفه •

العبقريــــة

« احترق لتضيء »
(كتابة على سراج أيقونة)

أسطورة الشاعر والسمكة الذهبية :

زعموا أن شاعراً سيء الحظ اصطاد في بحر الخزر سمكة ذهبية ٠
وتوسلت اليه السمكة :
ـ يا شاعر ! يا شاعر ! أعدني الى البحر ٠
ـ وبماذا تجزينني بديلا عنك ؟
ـ كل آمالك السرية أحققها لك ٠

وكان الشاعر سعيداً جداً فاطلق السمكة الذهبية ٠ وجعلت كل أنواع النجاح تنصب فوراً على الشاعر ٠ نشروا مجموعات أشعاره مرة بعد مرة ٠ واصبح له بيت في المدينة ودارة فاخرة في الريف ٠ وأصبح الشاعر شهيراً يدور اسمه على السنة الناس جميعاً ٠ الارض كلها هنا تحت قدميه كأنها لحم وضعت عـلى السفود محفوفة بالبصـل مضمخة بعصير الليمون يكفيه أن يمـد يده : خذ وامرح ٠ وقالت له زوجته وهي تلقي على لسانها هذه الكلمة من كلمات القدر ذات يوم وقد أصبح زوجها عضواً في المجمع العلمي ونائباً وحامل أوسمة :
ـ لماذا اذن لم تطلب من السمكة الذهبية أن تهب لك قليلاً من العبقرية ٠

وكأنما أشرقت نفس الشاعر ، وادرك ما كان ينقصه حتى الآن٠وهرع الى البحر ونادى السمكة:
ـ أيتها السمكة الصغيرة ! أيتها السمكة الجميلة ! هبي لي شيئاً ولو قليلاً من العبقرية ٠

واجابت السمكة الذهبية :
ـ وهبت لك كل شيء ٠٠ كل ما اشتهته نفسك ٠ وكل ما سوف تشتهيه يمكن أن أهبه لك ٠ اما العبقرية فلا ٠٠٠ لا أستطيع ٠٠ أنـا نفسي لا املك منها شيئاً ولو نصيباً يسـيراً من العبقرية الشعرية ٠

وهكذا اما أن تكون صاحب عبقرية أو لا تكون ٠ لا يستطيع أحـد أن يهب لك العبقرية ، ولا يستطيع أحد أن ينتزعها منك ٠ يجب أن يولد الانسان وتولد معه عبقريته ٠
وادرك شاعرنا الذي غمرته السمكة الذهبية بالوان النعم انه غراب يلبس ريش طاووس ٠

وفجاة سقط عنه الريش المزيف ، بل فقد في الوقت نفسه ريشه الخاص ، واصبح الشاعر أسوأ حالا من كل وقت مضى • تكرار الدعاء لا يفسده ، وكذلك أكرر أن من شروط من يكتب أن تكون له عبقرية ، ومن أين يمكن أن نحصل عليها اذا كانت السمكة الذهبية نفسها ليس لها منها شيء ؟

حكى والدي قال :

استقبلت يوما شاعراً من الجبـل قدم من قريته البعيدة ليقرأ علي شعره • وأصغيت الى الشاعرالطري المتدرب ، وبينت له المقاطع القاتمة ، والمقاطع الضعيفة ، وشرحت له كيف يمكن أن اكتب أنا حمزة تساداسا هذه القصائد •

وصرخ الجبلي :

ـ ولكن يا عزيزي حمزة يجب أن يكون الشاعر عبقرياً ليكتب مثل كتابتك •

ـ أنت على حق ••• قليل من العبقرية لا يضرك •

ـ ولكن أين أجدها ؟ انصحني •••

كان ذلك سؤال الجبلي ، وهو مسرور ولم يدرك مافي جواب حمزة من سخرية •

ـ مررت بالمخازن اليوم فلم أجدها ، لعل من الضروري أن نقوم بجولة في السوق •

لا ندري من أين تاتي العبقرية الى الانسان ؟•• هل هي عطية الارض أو هبة السماء • لعلها أن تكون بنت السماء والارض جميعا ؟ لا نعرف أيضا أين تقيم : هل هي في القلب ؟ أو الدم ؟ أو الدماغ ؟ هل عششت في قلب الانسان الصغير عندما ولد ؟ أو أن الانسان لقيها بعد ذلك على طريقه الصعبة فوق الارض ؟ وما الذي يكفل أحسن غذاء لها : الحب أم الحقد ؟ الفرح أم الالم ؟ البسمات أم الدموع ؟ أم أن كل أولئك ينبغي أن تجتمع لتنمو العبقرية ويشتد عودها ؟ هل هي وراثية ؟ أو أن الانسان يراكمها شيئا بعد شيء في نفسه وكانها محصلة لكل ما رأى ، وسمع وقرأ وعانى وعرف ؟

هل هي ثمرة الجهد أو لعبة من لعب الطبيعة ؟

هل هي لون العيون الذي يجده الانسان عند ولادته ، أو انها العضلات التي يكتسبها وهو يمارس الرياضة كل يوم ؟ هل هي شجرة التفاح التي تنمو بما يحيطها به البستاني من رعايـة وعناية أو هي التفاحة التي تسقط بـ ين يدي الطفل وهو يلعب في البستان ؟

العبقرية هي أشد مافي الوجود غموضا وسرا ، ولو أن الناس عرفوا في يـوم من الايام كل مافي الأرض : ماضيها ومستقبلها ، وعرفوا كل مافي الشمس ومافي الكواكب ، والنار والازهار ،

وعرفوا كل شيء في الانسان لبقيت العبقرية مع ذلك شيئاً لا يعرفونه حتى بعد معرفتهم كل شيء : من اين تاتي ؟ وأين توجد ؟ لماذا كان نصيب هذا منها أكثر من نصيب ذاك ؟

لا تشابه عبقرية انسان عبقرية انسان آخر ، لأن العبقريات التي تتشابه ليست عبقريات على الاطلاق • وأكثر من ذلك أن العبقرية لا تتعلق بالتشابه الذي يمكن ان يقع بين أصحابها •

لقد رأيت كثيراً من الوجوه التي تشبه وجه أبي ، ولكني لم أر في أي مكان عبقرية أبي •

العبقرية ليست وراثية ، ولو كانت كذلك لسادت في الفن السلالات الملكية • وليس نادراً أن يولد الأحمق من حكيم وأن يصبح ولد الأحمق حكيماً •

عندما تقطن العبقرية انساناً ما فهي لا تعبأ ان كان بلد هذا الانسان كبيراً او غير كبير ، ولا تكترث ان كان عدد سكانه كثيراً او غير كثير • وظهورها نادر غير متوقع ، وعجيب ، كانما هو لمح البرق ، قوس قزح ، مطر في صحراء تموزية لا تنتظر المطر •

كيف أضعت صديقي :

كنت يوماً في مكتبي عندما اقترب فارس من البيت •

ـ السلام عليكم •

ـ وعليكم السلام •

ـ جئت يا رسول اليك لأرجوك اداء خدمة صغيرة •

ـ ادخل وضع عريضتك على المنضدة •

وسحب الشاب من جيبه عدة أوراق وضعها على المنضدة • وكانت واحدة منها رسالة كتبها صديق كبير لوالدي طالما كان من ضيوفي • كتب لي صديق البيت وصديق الاسرة : « عزيزي رسول ؟ هذا الشاب واحد من أقاربنا الاقربين ، وإنسان جيد جداً • ساعده على أن يصبح شاعراً معروفاً مثلك »•

أما الأوراق الاخرى فكانت : شهادة من السوفيات المحلي •• شهادة من المزرعة التعاونية ، مصدقة من منظمة الحزب ووثيقة تعدد صفات الفتى •

تذكر شهادة السوفيات المحلي أن الرفيق فلاناً هو ابن أخي الشاعر الشهير محمود من كاخاب ـ روسو ، وأن السوفيات يعتبره جديراً بترشيحه له شاعراً داغستانياً شهيراً •

والشهادات الاخرى تذكر أن ابن أخي محمود بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه درس تسع سنوات وأن صحته جيدة •

ـ حسناً ••• كل شيء كامل •• والآن هات ما عندك من آثار ••• قد تكون ذا موهبة وقد تصبح فيما بعد شاعراً كبيراً • وأنا سعيد جداً بمد يد المعونة اليك وبتحقيق رغبات صديقنا المشترك•

ـ كيف ! لقد ارسلوني اليك لتعلمني نظم الشعر • أنا لم أحاول قط نظمه •

ـ وماذا تعمل على العموم ؟

ـ اعمل في المزرعة ، ولكن هذا العمل لا يجدي شيئاً • يسجلون لحسابي أيام عمل ولكنها لا تكاد تدفع • وأسرتي كبيرة ، وعندئذ فكروا في ارسالي لأعمل شاعراً • أنا أعلم أن عمي محموداً يربح ارباحاً غير قليلة أكثر مما اربح في المزرعة • ثم انهم يقولون إنك أنت يا رسول تنال مبالغ ضخمة •

ـ أخشى كثيراً ألا أستطيع أن أجعل منك شاعراً رغم كل ما أملك من رغبة •

ـ كيف ، ولكني ابن أخي محمود ••• ذلك مكتوب على الشهادة •• السوفيات المحلي يرشحني لهذه الوظيفة ، ومنظمة الحزب تؤيد ترشيحي •

ـ حتى اذا كنت ابن أخي محمود ••• كلنا نعرف أن أبا محمود كان فحاماً ولم يكن شاعراً •

ـ إذن أين العدل ؟•• أنتم هنا في ماخاتشكالا معشر الشعراء والكتاب تتقاسمون فيما بينكم شحم الأدب ولحمه ••• فكيف لا أستطيع الحصول على شيء من المصارين ؟ انا أقبل المصارين • ماذا أصنع الآن ؟ ساعدني على السكن في مكان ما ••• كل شهاداتي صحيحة قانونية •

واستطعت تخصيص مساعدة صغيرة مالية له من (ليتفوند) باعتباره ابن أخي محمود ، ثم أصدر مدير معمل الآلات الكهربائية أمراً بتعيينه في المعمل بعد شفاعتي •

ورغم ذلك كله ظل المرشح للقب شاعر غير راض عن حظه ، ولم يلبث أن أرسل أبوه ، صديقنا ، كتاباً غاضباً :

« كان أبوك حمزة يلبي كل ما أطلب منه • ولم يرفض لي طلباً • وانت يابن حمزة تابى أن تحقق لنا خدمة صغيرة : ادخال ولدي في الشعراء • يظهر يارسول أنك أصبحت مغروراً وأنك لا تشبه أباك • لم يحدث أنقطعت صلتي بصديق ، ولكني هذه المرة يجبعلي أن اقطعها•الوداع•••»

وهكذا أضعت صديقاً عزيزاً حرمتني إياه العبقرية أو على الصحيح غياب العبقرية • الحق أن صديقي كان رجلا جد طيب ، ولكنه لا يمكن أن يفهم أن ليس في مستطاع احد ، لا رئيس اتحاد الكتاب ولا أمين سر الحزب ، ولا رئيس الحكومة توزيع العبقرية على الناس كما توزع أعضاء الشاة على الجبليين الملتفين حول المائدة ، حين تقدم الشاة ، والبخار المحرق يغطيها •

مثلا : يمكن أن نرى في دروب داغستان عربة محملة تصعد سفح جبل واحد : يجرها من أمام ، وآخر يدفعها من وراء •

مثلا : يمكن أن نجد سيارة شحن كبيرة تجر بحبل سيارة موسكيفتش وقعت في الثلج •

مثلا : يمكن أن نرى سيارة شحن ضخمة وبطيئة تسد الطريق على سيارة خفيفة سريعة ••• طريق الجبل ضيقة ، والسيارة الخفيفة ليس لها سبيل الى تجاوز السيارة الثقيلة •

حسناً ، ولكن العبقرية ليست عربة يمكن سحبها من أمام او دفعها من الخلف ، العبقرية ليست سيارة موسكيفتش يمكن جرها بحبل ، العبقرية ليست سيارة لا يمكن أن تتجاوز سيارة أخرى لتندفع الى أمام •

ما من حاجة الى دفع العبقرية من خلفها ولا الى جرها باليد • انها تشق طريقها بنفسها ثم اذا هي في مقدمة الناس جميعاً •

ومع ذلك ما يزال كثير من الناس يأملون أن يسحبوا او يدفعوا •

هذه قصة صغيرة يمكن أن يكون عنوانها :

يمكن أن تكون عجوزاً ، نعم ، ولكن أن تكون ذات عبقرية :

عندما كنت أدرس في معهد الآداب في موسكو لاقيت عدداً من الشعراء الروس كانوا هم أيضاً طلابة في المعهد • حاولوا ترجمة قصائدي • ونشرت التراجم في عدد من الصحف والمجلات • وبفضل التراجم الى الروسية انتقلت قصائدي الى شعوب داغستان •

ودارت على بعض ألسنة السوء في ذلك العهد أحاديث تذكر أن رسول حمزة ، ليس قادراً في الواقع على نظم الشعر بلغة آفار ، وأن بعض التراجمة الروس من أصحاب العبقرية يحاولون أن يجعلوا منه شيئاً ما ، وأن مايكتبه انما يستجيب فيه الى ذوق القارىء الروسي •

وبالمناسبة أتذكر دائماً حكاية شاعر داغستاني • في بلادنا اقلية من السكان تسمى (تات) لا تكاد تبلغ خمسة عشر ألف نسمة • ومع ذلك فهناك خمسة أو ستة كتاب مرموقين من (تات) تعرفهم داغستان كلها • وقد نشرت مؤلفاتهم بلغتهم فيماخاتشكالا وترجمت الى الروسية • وأريد أن أقص عليكم حكاية شاعر من (تات) لا أريد أن أصرح باسمه •

عندما أتممت دراستي في معهد الآداب عدت الى ماخاتشكالا ، وبعد أيام من عودتي دعاني الشاعر التاتي الى زيارته • وقدم لي طعامه في الهواء الطلق • وقرأ لي قصائده بلغة تات ثم ترجمها لي كلمة كلمة بالروسية لكي أستطيع فهم معانيها •

ولقد أخذت بعين الاعتبار اني ضيفه ، وانه يمكن ان يعتقد اني أريد أن أعرض عليه معلوماتي التي تلقيتها في موسكو ، وأن كل الشعراء يفضلون المدح على النقد ، وأن كل نقد لا يمكن أن يساعده ، وأنه أخيراً يرفع الى عنان السحاب كل قصيدة من قصائدي ، وكل بيت من أبياتي ، كل ذلك حسبت حسابه فاثنيت دون حياء على كل ماقرأه لي من أشعاره •

الواقع أن بعض قصائده أعجبتني ، وتحدثت عنها بكل ما يختلج في نفسي ، ولكن قصائد أخرى لم تعجبني ، فتساهلت ووافقت • ومنذ ذلك اليوم ، وأنا أمد يدي ـ عقلياً ـ الى أمواج بحر الخزر وأركع على ركبتي أطلب منها العفو عن هذه الاكذوبة • ثم جعلت ، في خيالي ، ادير وجهي الى الجبال ، وامد يدي الى قممها البيض ، وأركع أمامها على ركبتي واقول لها :

ـ عفوك عن تلك الأكذوبة ٠

وبعد أن قرأنا أشعارنا وتبادلنا المدائح سكتنا فترة من الوقت ٠ أصغيت الى البحر في بساطة، وكان صديقي ـ كما علمت بذلك مستغرقاً في أفكاره ٠ وأخيراً أستانف الحوار على الشكل الآتي :

ـ رسول ٠ أريد أن أصرح لك بفكرة هامة ، هامة جداً ٠ ولكن عدني ألا تقولها لانسان ٠ ووعدته بذلك ٠ وتابع صديقي :

ـ انت تعرف أننا نحن « التات » شعب جد صغير ٠ وأشعر أني أضيق ذرعاً بقصائدي ، وانت تحسن الي اذا وجدت لي قراء في موسكو ٠ أريد أن أسير على هدي خطاك ، وأذهب للعيش في موسكو ٠ ولكن ليس لي هناك اقارب ولا أصدقاء ، ولا علاقات ، وليس لي سقف آوي اليه ٠ ماذا ترى ؟ أيمكن اذا سافرت الى موسكو بما سأقبضه من مال لقاء كتابي الجديد ، أن أجد مأوى مناسباً ؟

ـ ولم لا ؟ اذا كنت تملك مالاً تستطيع أن تستأجر غرفة ٠

ـ لست أتكلم عن هـذا ٠ هل يمكن أن اجد زوجة ؟ لتكن عجوزا ، لتكن مشوهة ، لتكن ما تكون ، شريطة أن تكون ذات عبقرية ، شريطة أن تترجم أشعاري الى الروسية ، شريطة أن تجعل مني شخصاً ما ٠ ذلك أني اذا استطعت أن أقف على قدمي وجدت طريقي الشخصي ٠ والا فسوف أجف وأيبس في هذه القوقعة الوطنية ٠

وشرعت ألاحظه في انتباه ٠ انه قوقازي في الخامسة والعشرين من عمره ، ذو عضلات ، متوقد ٠ يدان كبيرتان ، وأصابع يغطيها الشعر ٠ شعر صدره قاس كأنه مسامير مغروسة في حائط٠ في وجهه الأسمر ـ والذي يكاد يكون كستناوياً ـ شفتان غليظتان وعينان زرقاوان كالبحيرة ٠ يمكن أن يظن رأسه رأس قنفذ ٠ أسنانه بيض عريضة ٠ ساقاه كأنهما عمودان ، عضلاته بارزة في كل موضع من جسده ٠ إنه إنسان بدائي من أبناء الطبيعة ٠ من ذا الذي يستطيع أن يجد زوجة في سهولة وفي مدينة تعد عدة ملايين من السكان ، وبعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب ، من الذي يستطيع ذلك ان لم يكن صاحبي هذا ؟!

وقلت لـه :

ـ يكفي أن تقف في وسط الشارع وأن تصفر صفرة واحدة حتى تجد كل الزوجات اللواتي ترغب فيهن يهرعن اليك ٠

وفرح صاحبي كأنه طفل ، ومشى على يديه الى البحر وقبل أن يغطس في الماء سألني :

ـ بما تنصحني ؟ : هل أسافر الى موسكو بالطائرة او بالقطار ؟

ومضت ستة شهور ٠ وذات يوم كنت أصعد الى الطابق الثالث في سلم دار نشر (الطلائع) وأنا أنفض قبعتي المبللة بالثلج فالتقيت بالشاعر التاتي الذي دعاني الى وليمته في بحر الخزر ٠ كان يهبط السلم وهو يمسك منشفة كبيرة تحت ذراعه ٠ وقد لفت انتباهي أول الامر الطريقة التي

يحمل بها منشفته فهو لا يمسك بها في قبضة يده كما يصنع الكتاب العاديون ولكن تحت ذراعه كما يفعل المحاسبون وأمناء الصندوق • ولاحظت أيضا أنه تغير تغيراً كبيراً خلال هذه الأشهر الستة • شعره الذي كان يشبه شعر القنفذ أصبح مصقولا وموزعاً في جدائل تتضح فيها العناية• وكانت له لحية مثل لحية (الديسمبرست)(٢٩) وظفر خنصره طويل ناجل مصقول محدد كأنه حربة• وفي بنصره خاتم له فص • وهناك شيء يشبه جناحي خنفساء مثبت في ياقته كأنه ربطة عنق • أنيق أناقة شيطان • وبعد التحيات المعتادة أصلح لي ربطة عنقي ، وكانت منحرفة قليلا • وشكرته طبعاً• وقدم لي أحمد زوجته وقدمني اليها •

قالت ومدت لي ثلاثة أصابع :

ـ تشرفنا •

عندنا في داغستان ليس من المألوف أن يقبل الرجل يد المرأة • وهكذا اكتفيت بمصافحة اليد مصافحة خفيفة ، ولكنها جعلت تصرخ صراخا عاليا ، حتى كأنني كسرت أناملها جميعاً •

ـ عفواً ••• أنا جبلي غير متمدن ••• لم أكن أقصد ••••

ـ لقد آن الأوان لتصبح متمدناً •••

ثم اقتربت من المرآة ، وهي تغنج كأن المرآة يمكن أن تصلح شيئاً ما من هيئتها •

نعم • لقد كانت عجوزاً ومشوهة ، وتضع على وجهها مساحيق تكفي لتجصيص منزل صغير • وأشد ما أسفت له أن أبا طالب لم يكن معنا اذن لوجد لها الجواب المسكت •

يقولون : لا شيء يمكن أن يتجاوز ما يتمتع به الثعلب وذنب الثعلب من مكر • ولكن أي محجن استطاع أن يظفر به هذا الثعلب الفضي لكي يجد نفسه معلقاً في عنق هذه العجوز الخبيثة • ومضت المرأة في طريقها الى كشك الجرائد وبقينا قليلا وحيدين •

ـ ماذا حدث لك ؟ وكيف أنت يا صديقي أحمد ؟

ـ أوه أشعر أني بقرة ربطت في بيدر العدس • ان امرأتي تدير أعمالي • لو عرفت ماتتمتع به من ثقافة • رأس ويا له من رأس • تعرف جيداً بلوك وماياكوفسكي • وكانت صديقة سيرجي إيسينين • وزارت باريس • وهي تتحدث بالانكليزية • لنا بيت مؤلف من أربع غرف ، وليس لنا جيران • ما عندنا أولاد ولكن لنا كلبة صغيراً اسمه طرزان • كلب ياباني أصغر من قطة •

ـ حسناً أراك محظوظاً • أين تذهب الآن ؟

ـ حملت بعض القصائد الى مجلة (مورزيلكا) ولكن المحرر وجدها أشد عمقاً مما يقبل الاطفال الصغار • وفكرت في ارسالها الى مجلة (للزراعيين التعاونيين الشباب) فنالت رضاهم ، ولكن يجب الالحاح قليلا لابراز كلمة (زراعي تعاوني) • وسأتمم ذلك الليلة وأحملها اليهم

(٢٩) فئة من الثوار قاموا بثورتهم في كانون الاول (ديسمبر) وسموا باسمه •

غداً ... نعم يا رسول ، هكذا حقاً يجب أن تعمل وتعيش . تقول لي زوجتي دائماً : إنه حتى الاطفال حين يتعلمون المشي يتحركون وهم يزحفون . بعد ذلك سوف أكتب قصائد جيدة .

وعادت الزوجة الينا وقالت في صوت رقيق وآمر في وقت واحد :

ـ أليوشا هيا بنا نطعم طرزان ثم نمضي الى (التمساح) والى (الفتاة العاملة) .

ولم نلتق مدة طويلة بعد ذلك . ثم تلقيت منه رسالة يطلب فيها أن أوصي له بصنع جرة في بالخاري تحمل هـــذه العبارة : « الى زوجتي العزيزة . » وأوصيت بها وأنا أفكر في نفسي : « يمكن أن يكون صحيحاً أنها تعمل كثيراً من أجله » كانت أشعاره التي تترجمها زوجته تنشر أحياناً في (مورزيلكا) وفي (الطلائع) وفي التمساح . ولكنه لم ينشر شيئاً عندنا في مخاتشكالا بلغته الأم. وطلبنا اليه مراراً أن يرسل الينا شيئاً فلم نتلق جواباً .

ولم نلتق ثانية الا بعد خمسة عشر عاماً . كان يعقد في موسكو مؤتمر دام عشرة أيام للفن الداغستاني . وجاء أربعون شاعراً من داغستان الى موسكو . والقينا قصائدنا في لغات متعددة ، في قاعة الاعمدة ، وفي مسرح الكرملين ، وفي معمل للسيارات ، أمام جنود فرقة كانتيميروف .

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر جاء صديقنا احمد يبحث عنا في الكواليس يكاد يحلق الجدران، قال لي في استعطاف :

ـ رسول ! أعدني الى داغستان . لقد أردت هنا أن أصنع لي سناماً من الشحم ، ولكني أضعت آخر ما أملك من ريش .

وهكذا عاد أحمد الى داغستان . ولكنه لم يستطع تحقيق الانسجام في قيثارتـــه ولا ادراك الدرب الصحيح . كان كانه جام تصدع فسالت منه الخمر . ومهما جبرت صدع الجام لـــم تكف الخمر عن مسيلها .

وهكذا فان المترجم لا يستطيع زيادة عبقرية من ليست له عبقرية . يقول ناس : ان افندي كابيف صنع سليمان ستالسكي . ويقول آخرون ان سيلمان ستالسكي هـــو الذي صنع افندي كابيف . والحق أنهما كليهما يمتلكان ناصية العبقرية . عبقرية أفندي أبدعت أفندي ، وعبقرية سليمان أبدعت سليمان .

سأنقل ذلك الى (ايزيا) :

هكذا يمكن أن أعنون قصة أخرى تذكرتها .

لقد درست أنا ومحمد سليمان معاً في معهد التربية في آفار ، وهو الآن كاتب داغستاني مشهور . كان منذ طفولته موهوباً مواهب مختلفة : يرسم جيداً ، ويرقص جيداً وينظم قصائد . كان يحب حتى الجنون . (أوجني أونيجين) ويكاد يحفظها عن ظهر قلب . ومن ذلك العهد كان يفكر في ترجمتها الى لغة آفار . بل انه حمل معه قصيدة بوشكين الى جبهة القتال .

وفي نهاية الحرب وجدناه في مستشفى موسكو وقد خرقته الرصاصات وشظايا القنابل حتى كأنه مصفاة • وتعرف في المستشفى الى فتاة موسكوفية تدعى فاليا • وعندما شفيت جراحه تزوج بها وبقي في موسكو •

وعندما قدمت الى موسكو لاتمام دراستي وجدت صديقي بعد الاستعانة بمكتب الاستعلامات • كنت لا أمل منه ، ولا يمل مني • ولم تكن فانيا تعكر علينا حوارنا الطويل • كنا نظل طويلا نحن الثلاثة نتحلق حول زجاجة خمر • محمد يحدثني عن الحرب وأنا أحدثه عن داغستان والجبال وقريتنا مسقط رأسنا ، وأقرأ له قصائد ، قصائدي وقصائد أصدقائي من شعراء آفار • ثم سألته عما ينوي أن يفعل في مستقبل أيامه •

ـ فكرت طويلا فيما ينبغي أن أشغل به نفسي • إن لفانيا عمة ، وعمتها تعرف رجلا ذا نفوذ كبير في موسكو يدعى (ايزيا) ورأت العمة أنني أتعذب في بطالتي ، وقالت لي : ولماذا أنت مشغول البال ؟ سأحدث ايزيا عنك وسوف سيتولى هذا الامر كله • والواقع أن (ايزيا) وجد لي مركزاً مرموقاً في المجمع العلمي • وأنا فيه أعمل منذ ذلك الحين •

ـ والرسم

ـ لقد رسم الرصاص جسدي رسماً يكفيني •

ـ والشعر ؟

ـ كنا أطفالا يارسول • أما الآن فأنا رجل كهل جدي ويجب أن أجد عملا جدية •

ـ وأوجني أونيجين ؟

وأطرق صديقي مفكراً • لقد لمست النقطة الضعيفة فيه •

ـ ولماذا لا تعود الى داغستان ؟

ـ وماذا أصنع بفاليا ؟

ـ خذها معك •

ـ بيتي في القرية ولا أستطيع الذهاب مع فانيا اليها • ثم إنها لا تستطيع التحدث الى أمي ، ولست أستطيع أن أجد مترجمة لتفهم فانيا أمي ، ولتفهم أمي فانيا •

وقبل أن أنهي هذا الحوار الشاق مع محمد رفعت نخب صحته وصحة فانيا وصحة أوجيني اونيجين • وعدت لأرى صديقي في لقاء لاحق ، فذكرت لي فانيا أن محمداً تغير تغيراً كبيراً حتى لتكاد لا تعرفه • وهو يغتنم كل لحظة من لحظات فراغه في الليل وفي النهار لكتابة أشياء لا يلبث أن يمزقها • وهو ينسى معها أن يأكل ويشرب ويرتاح •

وبعد أن لاحظت عمة فانيا محمداً مدة طويلة سألته أخيراً عما يكتب ؟ ولماذا يمزق ما يكتب ؟ وأجابها محمد :

ـ أريد أن أصبح شاعراً • أريد أن أترجم أوجيني أونيجين لبوشكين الى لغة آفار •
ـ ولماذا إذن كل هذه الحكايا ولماذا ترهق نفسك هذا الارهاق ••• سأنقل ذلك الى ايزيا ، وسيتولى هذا الأمر •
ـ كلا يا عمتي ••• لا يستطيع ايزيا ولا رئيسه ولا زوجته مساعدتي لكي أصبح شاعراً • يستطيع تحقيق ذلك إلا أنا نفسي •
وبعد قليل أطلعني محمد على الفصل الاول من ترجمته لأوجيني أونيجين ، وبعد ثلاث سنوات صار في مستطاع كل شعب آفار أن يقرأها بلغته الأم •

أي صورة أنشر ؟

يظهر أن الزوجة النشيطة يمكن أن تسهم إسهاماً مقبولا في نجاح زوجها • نعم لقد عرفنا أمثال هؤلاء الزوجات النشيطات • وهذه على الخصوص حالة شاعر داغستاني مشهور • كل الناس في اتحاد الكتاب وفي دور النشر وفي الصحف يكتسون لحم الدجاجة حين يذكر اسم زوجته •

وأنا أيضاً أخشاها الى حد ما • ولذلك فلقد علقت في مكتبي لأكسب رضاها صورة زوجها • وتصورت أنها ستكون مسرورة بذلك وأنها ستعاملني معاملة أكثر رقة • ولكن ذلك لم يغن عني لديها الا قليلا • ذلك أن وجود صورة زوجها في مكتبي لم يزدني كوبكا واحداً •

ذات يوم ألحت على دار النشر لتطبع فوراً مجموعة شعرية لزوجها ، واعترض مدير الدار في خجل وذكر ان قائمة المشاريع في السنه الحالية قد تم إعدادها وتوقيعها ، وأن الورق غير كاف ، وأن في الامكان طبع المجموعة في السنة القادمة •

وصرخت المرأة في غضب :

ـ أنت قليل الحياء • أنت تخشى في بساطة أن يرى الناس الى أي حد تتفوق قصائد زوجي على قصائدك • ولذلك فانت تحدثني عن تلك الاساطير في الورق وفي المشاريع • أوه • إنني أرى جيداً ما يدور وراء رأسك • ولن أدع لك ان تنتصر علي • سأجبرك على طبع ديوان زوجي •

قالت الزوجة ذلك ثم صفقت الباب وراءها ففرقع • وماهي الا ساعتان حتى قرع الهاتف عند المدير • إنه أمين سر اللجنة المحلية للحزب •

وجعل يتوسل للمدير :

ـ بحق السماء ! اصنع شيئاً ما كيلا تاتي الي هذه المرأة • لم تتح لي فرصة لاستبدال زجاج مكتبي ، لقد كسرته وهي تضرب عليه بقبضة يدها •

وماذا كانت نتيجة ذلك في آخر الحساب ؟ قذفوا بالحاج مراد من تاليف تولوستوي ، ونسفوا كتاباً للأطفال من تاليف حمزة تساداسا ، وكلاهما كان مقرراً • وبدلا منهما حشروا المجموعة الشعرية لزوج هذه المرأة المقاتلة •

وبدا في الظاهر أن السلم قد ران على الدار أخيراً ، ولكن فضيحة جديدة لم تلبث أن ذر قرناها • إنهم لم ينشروا صورة زوجها الشاعر في مجموعته • وصرخت المرأة وهي تتميز غضباً :

ـ يالكم من أوغاد ! أنتم تخافون أن يرى الناس الى أي درجة كان زوجي أكثر جمالا منكم • ولذلك فلم تنشروا صورته •

وأجاب مدير دار النشر :

ـ كلا ••• ولكنا في بساطة لم نعرف ما علينا أن ننشره في هذا الديوان : أصورتك أم صورة زوجك •

وأجابت الزوجة في خبث :

ـ ولم لا ؟ فليس من المؤكد تماماً أن يصبح شاعراً لو لم أكن الى جانبه •

أبو طالب رأى هذا الشاعر ذات يوم فقال له :

ـ اسمع يا كوسا • تنازل لي عن زوجتك أسبوعاً واحداً ، وساحمل فوراً وسام جائزة ستالين •

ـ أتظن ذلك يا أبا طالب ؟ أنا أعيش معها منذ عشر سنين ولم أتلق حتى جائزة الحاج حسون •

ـ إذن فاطلب منها شيئاً من العبقرية •

حوار بين أبي طالب وخاتمة

كان أبو طالب في أول حياته راعي غنم • ثم مارس مهنة نحاس ، ولكنه ظل دائماً يحمل شبابة الراعي ويعزف عليها كلما وجد دقيقة من فراغ • وكانت مهنته تقوده من قرية الى قرية ، وها هم أولئك يقولون : إنه الآن في (كوالي) ويقول آخرون انه في (كوموخي) ، وهاهو ذا في يوم من الأيام تاتيه فتاة تدعى خاتمة وتحمل اليه دلواً مثقوباً • وحثت خاتمة أبا طالب النحاس على إصلاح دلوها وهي تصرخ :

ـ لتكن سكايرك التي تلفها على أقل تقدير أكثر قصراً •

ـ فكري يا عزيزتي خاتمة أني ساجعل طولها ست أقدام لأستطيع تدخينها مدة أطول •

واخيراً غضبت الفتاة حقاً ، وكان على أبي طالب أن يرد اليها قدرها بعد إصلاحه •

كان الدلو يلمع كانه دلو جديد فقد عني به أبو طالب عناية فائقة • ولكن الفتاة لم تكد تستقي به الماء حتى نفذ منه • وبكت الفتاة غيظاً وعادت الى أبي طالب •

ـ رغم كل الوقت الذي أضعته في اصلاح دلوي فهو مايزال يرشح أكثر مما كان يرشح ٠
ـ لعل الشباب يرمون دلوك بالحصا فيثقبونه ٠ فلماذا تغضبين يا خاتمة ؟ لقد تركت فيه عمداً ثقباً صغيراً لتعودي الي وأراك مرة أخرى ٠
ـ ولكن ليت الشباب يرمون الحصا على رأسك لا على دلوي ٠ ومضت الفتاة ٠
وتالم أبو طالب كثيراً ، وتاججت نار حبه لخاتمة ، يوماً بعد يوم ٠ وكلما عظم اللهيب عظم الالم ٠ ونظم أبو طالب في أله قصيدة يغني بها خاتمة وحبه لها ٠ ثم كتب أغنية ثانية ، ثم عشراً ثم عشرين ، وهكذا أصبح شاعراً شهيراً ٠

وخلال ذلك تزوجت خاتمة شخصاً يسمى حاجي ، ثم طلقت وتزوجت شخصاً ثانياً يدعى موسى٠ وذات يوم كان الشاعر الشهير أبو طالب في الطريق ، فاذا امرأة تقول له : أتستطيع اصلاح دلو ؟
والتفت الشاعر ليرى خاتمة وقد أصبحت عجوزاً ناضبة مريضة ٠
ـ أنت تنفخ ريشك يا أبا طالب ٠ انظروا اليه ٠ انه نائب ، وله وسام ! أحقاً أنك نسيت مهنتك عندما كنت نحاساً ٠ ولكن فكر قليلا : في الواقع إنني أنا التي جعلت منك شاعراً يا أبا طالب ٠ ولو لم آتك بدلوي لاصلاحه في ذلك العهد لبقيت نحاساً ٠
ـ اذا كانت قدرتك تصل الى هذا الحد يا خاتمة ، واذا كنت تستطيعين حقاً أن تحولي الناس الى شعراء ، فلماذا لم تجعلي من زوجك الحاج شاعراً ؟ ثم أين أغاني موسى ، زوجك الثاني ، إننا لا نسمعها ٠

ومضى أبو طالب في طريقه وبقيت خاتمة مسمرة في مكانها ، فاغرة فاها ، لا تدري بماذا تجيب٠ ولم تتمالك مشاعرها الا عندما هطلت عليها القطرات الاولى من المطر فايقظتها ٠
كلا ما من أحد يستطيع أن يخلق شاعراً من شخص ليس هو نفسه شاعراً ٠

حدث أبي قال :

عندما بدأت أنظم قصائدي الاولى ، قال صديق قديم لابي ، وهو شخص مشهور جداً ومحترم جداً في داغستان :
ـ ما يلزم الآن لرسول هو أن يصبح عاشقاً ولهان ٠ لايهم إن كان سعيداً او غير سعيد في حبه ، أن يلقى استجابة لغرامه اولا يلقى ٠ بل إنه إن أحب ولم يحبه من أحب كان ذلك خيراً له ، حتى اذا لم يلق من حبه الا المحن والعذاب ٠ عندئذ يصبح شاعراً كبيراً ٠
بل إن صديق والدي وجد فتاة جميلة جداً كان عليها أن تجعلني شقياً لأصبح شاعراً ٠
وأجاب أبي :

ـ أتعرف كم في العالم من عشاق ؟ فهل هم كلهم شعراء ؟ يجب أن تكون هنالك عبقرية لكي يحب الانسان حباً جميلا • وربما كانت العبقرية ضرورية للحب أكثر مما يكون الحب ضرورياً للعبقرية • وليس في الامر تناقض : الحب يجري مع العبقرية ولكنه لا يحل محلها • وأنا أقول مثل ذلك في عاطفة أخرى مناقضة للحب : هي الكره •

ـ ولكن خذ ، على سبيل المثال ، محموداً فهو شاعر الحب •

ـ صحيح تماماً • محمود شاعر كبير • وذلك الى حد بعيد بفضل محبوبته • وأنا أعتقد رغم ذلك أن هذه المحبوبة اذا لم تكن موجودة فان محموداً على كل حال سيصبح شاعراً كبيراً • ان قوى القلق والثورة التي تتمخض في روحه لا بد أن تشق طريقها كما تشق النبتة الغضة الخضراء طريقها نحو الشمس من خلال أكوام التراب الرطب الثقيل المظلم • الا ترى العشب ينجم أحياناً من تحت الحجر ؟

نعم إن العبقرية تتغذى بالعواطف الانسانية القوية ، من الحب والكره ، كالنار التي تتغذى بالحطب اليابس • يمكن للقصيدة أن تبعثها بسمة مشرقة أو دمعة مرة • ولكني أريد أن أضرب لك مثلين : أي ألم يعدل ألم الأم التي ثكلت ولدها ؟

ها هم هؤلاء يحملون جثته الى القبر ، والناس مجتمعون • ولكن الام تبقى خرساء • تبكي في بساطة ، إنها لا تستطيع أن تجد الكلمات التي تعبر بها عن ألمها ، هذه الكلمات التي تبكي بها الناس كما تبكي هي نفسها •

وعندئذ تأتي النائحات اللبقات • ليس في عيونهن قطرة دمع واحدة ، لأن الفجيعة لغيرهن وليست لهن • ومع ذلك تجد الناس جميعاً يجهشون في البكاء في اللحظة التي تمارس فيه هؤلاء النائحات فنهن الرهيب • أنا أقول إن هذا الفن رهيب • والحق أنه رهيب وقاس والمسلمون يقولون ـ وليس ذلك عبثاً ـ : إن النائحات محكوم عليهن بالعذاب الابدي في الحياة الآخرة كما يحكم على المنافقين والكذابين والمفترين •• ولكن هذا الفن فن إجبار الناس على البكاء ما يزال قائماً •

ثم إليك مثلا آخر يناقضه تماماً هل هناك فرحة تعدل فرحة الأب والأم عندما يصبح ولدهما شاباً وقوياً وجميلا يستعد للزواج • الزفاف من أحلى أعياد الناس يرقصون ويغنون • ولا شك في أن أبا العروس وأمه أسعد الناس •• ولكن هل في استطاعتهما أن يعبرا عن فرحهما بكلمات ، باغان ، تجعل كل من حضر العرس سعيداً يشعر بالفرح كما لو أن هذا العرس له ؟

كلا •• إن الابوين يبحثان في كل قرية عن الموسيقين البارعين • ويأتي الموسيقيون الى العرس• أمس كانوا في أعراس أخرى وغداً سيذهبون الى أعراس ثالثة • كلها عندهم سواء • ولكن مواهبهم توحي الفرح الى الناس وتحمل اليهم سعادة حقيقية •

هل معنى هذا أن العبقرية تتغذى بالمشاعر المنوعة في الحياة اليومية ؟ وأن كل ظاهرة من ظواهر العبقرية هي المحصلة الفنية لمعرفة شاملة ، لقدر معقد ، لسبب علوي ؟

إذا كان ذلك كذلك فبماذا نفسر إذن أن يستطيع فتى في الرابعة عشرة من عمره ، وأعمى زيادة على ذلك ، أن يدهش ويسحر قرى آفار بطريقته في العزف على شبابته ؟

أعرف فتى آخر هو محمود رجبوف ، إنه مقعد كسيح في سريره منذ ولادته ، أهدى الى أمه أغنية بلغ من جمالها أنك لا تجد في بلاد آفار كلها إنسانا لا يعرفها ولا يغنيها •

وقد وضع موسيقاها أحمد سورميلوف وهو أيضا مشلول الساقين •

لقد أهديت اليه هذين البيتين :

في أوتـار عودك الثمانيـة
تنساب ثمانية آلاف نغمة •••

إن الأعمى الموهوب يرى ما لايرى المبصر غير الموهوب • وقد قال أحد الحكماء : إن الرجل الذكي يرى دون أن يترك كرسيه ، مالا يراه الأحمق الذي قام بجولة حول العالم •

وأضيف الى ذلك أن هذا الاعمى محمداً لم يخطىء قط في حساب ما يتصدق به الناس عليه ، بعد يوم يقضيه وهو يتسول في السوق •

من دفتر المذكرات :

اذا كانت العبقرية تاتي من النظر فكيف استطاع الشاعر اللزجيان كوتشخورسكي الذي فقا الخان عينيه ، أن يغني ؟ واذا كانت تاتي من الغنى فكيف بلغ الشاعر اللزجيان اليتيم أمين ، وهو الفقير اليتيم رتبة المجد ؟ واذا كانت تاتي من التعليم فكيف أصبح الشاعر سليمان ستالسكي هومير القرن العشرين » ، وهو لا يعرف كتابة توقيعه ؟ (كان يبصم إصبعه بعد أن يغمسها في الحبر) واذا كانت تاتي من التبحر في الثقافة فكيف عرفت كثيراً من الناس المثقفين والمتبحرين ثم هم لا يعرفون كتابة سطر واحد مقبول ؟

في الجبل كانت تقام مساجلات شعرية يقف فيها المتعلمون(٣٠) وهم يعرفون القراءة والكتابة بلغة آفار) ويقف في الجانب الثاني الرعاة الاميون الذين لا يعرفون شيئا أبعد من عملهم • وكان هؤلاء الرعاة هم الذين يخرجون غالبا منتصرين في هذه المساجلات • إن الصوت المحسوب للشعراء المتعلمين يختنق في الاغاني الحرة مثل ريح الجبال •

ومع ذلك فان هؤلاء وأولئك يغلبهم شعراء هم متعلمون ورعاة في وقت واحد • عندما كان

(٣٠) بالعربية وهم طلاب مكاتب القرآن •

محمود ووالدي حمزة يشاركان في هذه المساجلات ، كان الامر ينتهي دوما الى منافسة بينهما كليهما ، ويبقى سائر الشعراء بعيدين في آخر الحلبة •

ولكن هل تأتي العبقرية في بساطة من الذكاء ؟ ومع ذلك فقد لقيت عدداً كبيراً من الاذكياء جداً في موسكو وفي غيرها من البلاد • ولو ان ذكاءهم تجسد في شكل شعر أو رواية أو قصة لكان لدينا مؤلفات فنية لها قدرها • ولكن شيئاً ما يحول دون أن تسيل أفكارهم من رؤوس أقلامهم على أوراقهم ، ثم نجد هذه الافكار الذكية تتبعثر في الهواء أو تذهب الى القبر مع أولئك الذين حملوها •

إذن فهل تأتي العبقرية من عمل عنيد ، من جهد ينزف دماً وعرقاً ؟ طالما سمعت أن العبقرية لا توجد عفواً من نفسها ، وأنها لا تظهر الا بعد عمل جبـار • ولكن تصوروا أني أحب أغنيـة العندليب الذي يقف هكذا في بساطة على غصنه ، اكثر مما أحب أغنية الحمار الذي يحمل أثقالا • إن من يجر العربة لا يغني ولكن الذي يغني هو من يركب العربة •

يا الله ، ما أكثر ما يحفل به العالم من تناقضات ؟ اذا كان الغناء ثمرة فراغ الرجل الجالس في العربة فهل يأتي الفن كله من الفراغ والبطالة ، من الرفاهية وطمانينة البال ؟

ولكن أليست الاغاني التي تتردد في القصور الغنية هي الاغاني التي ولدت في الاكواخ الشقية؟ إن الفقراء هم الذين ألفوا الاساطير التي تروي حكايا الخانات وأصحاب الثروة • السلطان كوميك أمر بنفي الشاعر أرشي قازاق الى سيبيريا • ولكن أرشي قازاق ظل ينظم القصائد في سيبيريا • إننا من أشعار أرشي قازاق نعرف اليوم من كان سلطان كوميك هذا •

الجبليون الذين اختطفوا الأمير الجورجي الشاب دافيد غوراميشفيلي ألقوا به في غيابة حفرة عميقة في أونتسوكول • وبكى الامير الشاب في حفرته الرطبة ، وتذكر لؤلؤته ، جورجيا الزرقاء ، وجعل ينظم الشعر • إن الجبليين هم الذين جعلوا ، الى حد ما ، من هذا الامير شاعراً •

عائشة بنت السلطان خونزاخ أحبت راعية شابة جميلا • وعندما اكتشف السلطان ذلك طرد الفتاة من قصره • كان ذلك في ليلة من ليالي الشتاء ، بردها يجمد أوصالها ، وثلجها يصل الى ركبتيها ، وكانت تلبس ثوباً خفيفاً تمزقه الرياح الغاضبة • عندئذ نظمت عائشة أغنيتها الاولى •

إذن فهل تأتي العبقرية من ضعف الانسان ، من الشقاء ؟ هل يهب الشقاء والألم أحلى الاغاني ؟ من أنت أيتها القصائد ؟ وماذا تريدين ؟ .

جئت توسوسين الى باتيري ، وهـو عجوز مريض جائع قابع في كوخه قرب موقده الخامد •

جئت توسوسين الى محمود عندما كان يتجمد في خنادق الكربات ، وعندما كانت حبيبته ، التي هي أغلى عنده من الشمس والارض والحياة ، تتزوج واحداً غيره •

جئت توسوسين الى أبي طالب عندما كان يدور في القرى متسولا ، وعصاه في يده ، وعندما كانت حبيبته تصد عنه لتتزوج غيره •

جئت توسوسين الى الداريلاف عندما تلقى من يد قاتله كاس السم • خاط زونتي النائب فم انخيل مارين بالخيطان وعندئذ غنى انخيل مارين أحلى اغنياته • وسلبت هذه الاغنية النائب راحته ونومه حتى نهاية عمره •

قولي إذن أيتها العبقرية من اي مصدر تاتي قوتك ؟ مـن انت ؟ : الوجدان ، الشـرف ، الشجاعة أو لعلك انت الخوف ؟ لأن من يخاف يغني أيضاً وهو يضرب في الليل ليهب نفسه الشجاعة •

أانت السعادة أم الشقاء ؟ المكافأة أم العقوبة ؟ أانت الجمال الذي خلق لعذاب الناس ؟ أم الألم الذي يلد فيه الجمال ؟ أأنت ابنة العصر أو الحادثة ؟ بنت الشرارة تلد مـن قرع الحجر بالحجر • بنت الحرب لا تزيد عدد الناس على الارض ، ولكنها تزيد عدد الابطال على الارض •

ما العبقرية ؟ أنا لا أعرف ، مثلما لا أعرف ما هو الشعر • ومع ذلك يحدث لي ، وأنا في طريقي الى البيت ، أو في بلد غريب ، أو خلال نومي (كان ذيل معطفي يشمر) أو عندما أسـير فوق العشب الأخضر (كان خضرته الحية تجري فيَّ وتسري في دمي) أو عندما أتناول طعامي ، أو عندما أصغي الى الموسيقى ، أو عندما أكون بين أفراد أسرتي ، أو بين أصدقائي الصاخبين ، عندما ارفع بين يدي طفلا لأبارك له في حياة طويلة ، أو عندما أمسك بنعش صديق أسير به الى مثواه الاخير ، أو عندما ارنو الى وجه الحبيبة الغالية ، في كل هذه الحالات المتباينة ، وفي غيرها من الحالات يحدث لي أن احس أن شيئاً ما يوسوس لي ، إنه شيء نادر ، مدهش عجيب قـوي • إن عروس الشعر عندي مرحة حيناً ، حزينة حيناً ، ولكنها دائماً تحثني على العمل ،وتضطرني الى التعبير عن نفسي• إنها تجيئني دون أن أدعوها ، دون أن تقرع باب بيتي •

عندما تاتي ترفع الستار عن صورة محمود ، وهو يلبس فروته ويحمل ربابته وحبه واغانيه اليائسة ، وعن صورة والدي بابتسامته الرقيقة الحزينة ، وصورة الداريلاف ، وكاس السم في يديه ، وصورة اسخيل ـ مارين بشفتيه الداميتين ، خاطهما النائب القاسي ؛ وهنالك أيضاً تبدو صور كثيرة لفئة من العمالقة : دانتي ، تولستوي ، شيللر ، بلوك ، غوته ، بلزاك ، دوستويفسكي••• ويخيل لي احياناً أن صورة الله تبدو خلال ضباب يخترقه شعاع مضيء من نور •

وسألتها :

ـ من أنت ؟

ـ انا عبقريتك ، شعرك •

ـ من اين جئت •

ـ انا في كل مكان •

ـ أانت لدتي ؟

ـ كلا ، عمري ثانية واحدة وعمري مائة قرن • في ذاتي سذاجة الطفل وعاطفته وطيش الشاب

وحكمة الشيخ • ليس لي عمر • أنا النار التي لا تخمد ، أنا الأغنية التي لم تتم • أنا الطيران الذي لاينتهي ، أنا بعيدة جداً عنك ، وأنا في ذاتك • من يحملني في روحه يرّ العذاب الأليم • ما من شيء أشد مني وطأة •

يكفي أن أكون ليستطيع رنين الأوتار في قيثارة ان يشق صخرة صماء • يكفي أن أكون حتى ترقص الربابة بقر الوحش في ثنانيا الجبال ، يكفي أن أكون حتى يسقط الخنجر من يد القاتل ، ويتحد العاشقون في قبلة •

كنت هناك عندما نزعوا الغطاء عن راس باتي(٣١) في قرية أندي ، كنت هناك عندما أغويت مريم وألقيت هكذا على سرج الحصان • كنت هناك عندما سلت جان دارك سيفها • كنت هناك عندما اخترع رجل ما أجنحة وقفز من قبة جرس • كنت هناك عندما نصب ماجلان وكولومب الشراع• كنت هناك عندما ولدت عذراء القديس سيكسيت •

كل العصور وكل البلاد ساحات لنشاطي • وأصحابي هم الناس • الناس لهم ذكاء ولهم أرواح • في كل مرة يعرف الناس الحب والبغض ، الشجاعة والرياء • ذكاء الناس وأرواحهم هي ساحة معركتي ، ساحة إخفاقاتي ونجاحاتي ، ساحة إنجازاتي •

ـ إذن فاخبريني عن حقيقتي • فيم أنا أصلح ؟ أمن الممكن أن أتعرض لخطر ما مثل أن أكون ثلجاً يذوب غداً ، مثل أن أحاول ملء جرة قعرها مثقوب ؟ هل وهبت روحي ولو شرارة من نارك التي لا تخمد • هل بللت شفتي ولو بقطرة واحدة من قطراتك المحرقة الملتهبة المثيرة ؟

من عيني تسيل دموع الفرح والترح • ولكن هنالك دموعاً أخرى تتوارى في أعماق عيني كما يتوارى العصفور الخائف وهو يسمع خطى الصياد • ولكن هذه الدموع الخفية واحدة فيها دمعة حب ، وأخرى دمعة ألم ، وثالثة دمعة شقاء ، ورابعة دمعة سعادة •

رأسي يجلله شعر أبيض وأسود ، وأنا اضع رجلا في الشباب ورجلا في الشيخوخة • والشباب والشيخوخة يتصارعان دائماً ، وروحي هي ميدان المعركة •

حبي شجرة دلب لها جذعان •
جذع يجف وجذع تغطيه الأوراق
حبي نسر له جناحان
جناح يحلق وجناح يسقط

(٣١) علامة على التشهير •

في صدري جرحان يلتهبان ،
جرح يدمى ، وجرح يندمل •
هكذا عشت دائماً • ينتظرنا الفرح حينا
وحينا يسرع الألم ليحل محله •

الحياة لها حدود ، إنها قصيرة • أما الأحلام فلا تنتهي • ما أزال على الطريق ، وأحلامي ما تزال هنالك في البيت • أمشي الى حبيبتي ، وأحلامي ما تزال بين ذراعيها • أنا أعيش في هذه اللحظة وأحلامي ما تزال تطير هناك في السنوات الخالية • تطير الى ما وراء الحدود التي تغرق فيها الحياة في الظلمات • أحلامي تطير فوق العصور •

أحجية تعرض على شامل :

وضع بين يدي شامل حبل فيه ثلاث عقد • اثنتان منها متجاورتان في طرف الحبل ، والثالثة في طرفه الآخر بعيدة عن العقدتين • وقيل له : احزر ؛ وأمسك شامل بالحبل وفحصه وقال :

— إحدى العقدتين هي أنا ، والثانية هي موتي • والثالثة التي في الطرف الثاني من الحبل هي المكان التي تعيش فيه الآن أحلامي وأفكاري ، الغاية التي أحاول الوصول اليها في حياتي •

إن الحقل الذي تحرثه أحلامي أوسع بكثير من الحقل الذي أحرثه في الواقع • فمن ذا الذي تريدين أن تخدميه ياعبقريتي ، أأنا أم أحلامي التي تطير بعيدة أمامي ؟

نعم أنت النار التي لا تخمد ، أنت الأغنية التي لا يستطيع أحد أن يضع لها نهاية ، أنت الطيران الذي لا يحده حد • ولكن هل أستطيع أن أمسك في أغنيك الخالدة ولو بنغمة واحدة تكون هي نغمتي ، نغمة من آفار •

عندئذ يمكن أن تكون أغنيتي كلها أكثر غنى •

أيمكن أن أشعل على قمم داغستان نوراً تبعثه نار متواضعة ، تكون شعبة من نارك التي لا تخمد ؟ أيمكن على أقل تقدير أن أحدد ، ولو من صخرة الى صخرة ، طيرانك الذي ليس لـه حـد ولا نهاية •

قريتي هي تسادا ، ومعناها الشعلة • سألني يوماً قروي من غير قريتي :
— من أين أنت يا ولدي ؟
— من تسادا •

وقال السائل :

ـ اقرأ لي أولا شعرك ، وعندئذ اقرر إن كان شعرك هذا شعلة أو رماداً بارداً .

الشك يستبد بي . ألست في سبيل لبس معطفي تماماً في الوقت الذي ينتهي فيه الطقس الرديء ، وتشرق الشمس مرة أخرى من وراء السحب التي تتبدد ؟ ألست في سبيل أن أضع قفلا لباب الزريبة بعد أن سرق اللصوص بقرتي ؟ الست أروي أشياء سمعها كل الناس عدة مرات ؟ الست أدعو الى بيتي جماعة تركوا الآن مائدة عامرة في منزل مضياف ؟ فهل ثمة ما يدعو الى تاليف هـذا الكتاب ؟

ـ إذا كنت تستطيع ألا تكتب فلا تكتب .

ـ أيمكن ألا أكتب ؟ المريض الذي يتوجع كثيراً هل في إمكانه أن يكف عن الأنين ؟ السعيد هل في إمكانه ألا يبتسم ؟ العندليب هل يستطيع الكف عن الغناء في صمت الليل الذي يغمره القمر ؟ العشب هل يستطيع ألا ينجم إذا انفلقت الحبة في الارض الرطبة الندية ؟ الأزهار هل تستطيع ألا تتفتح عندما تدفىء شمس الربيع البراعم ؟ جداول الجبل هل تستطيع ألا تجري نحو البحر عندما تذوب الثلوج ويهرع الماء مزمجراً يكب الحصا في وجهه ؟ النار هل تستطيع ألا تندلع إذا مس اللهب الأغصان اليابسة ؟

أحببت دائمة نيران المعسكر . في الليل عند الرعاة ، على شاطىء النهر ، عند قدم الصخرة ، على قمة الجبل ، وخلال أحجار الموقد في المنزل . أنا أعرف أن إشعال النار ليس إلا نصف العمل ، وأن حراستها وحمايتها خلال ليل طويل ماطر أصعب كثيراً من إشعالها .

أنا أعرف أن في قلبي ناراً . ولكن ماذا أعمل ؟ كيف أسلك لكيلا تخمد هذه النار ؟ كيلا تنطفىء قبل الأوان ؟ قبل أن أجد الزمان الذي أستطيع فيه ادخال الدفء على قلب إنسان أو إضاءة الطريق في الظلمات في عيني إنسان ؟ كيف أصنع لأحتفظ وأغني ما أتمتع به من عبقرية ؟

ذكريات والدي :

جاء جبلي الى والدي وقال له :

ـ لقد حاولت ، واقتنعت أني قادر على الكتابة . ولكني لا أعرف ما يجب أن افعله لأستطيع نظم قصائد جيدة .

واجابه والدي :

لا يكفي أن تستطيع إصلاح الاوتار في كمان ، ولكن عليك أن تعرف كيف تعزف عليه . لا يكفي أن يكون لك حقل ، ولكن عليك أن تعرف كيف تحرثه وتبذره .

ـ وما عليّ أن افعل لكي أنظم شعراً ؟

ـ كيف تسال عما تفعل ؟ اشتغل واعمل .

العمـــل

إذا ظننت أن عملنا عسل على الدوام
فتعال إلى كوباتش ، تعال إليها يوماً واحداً •

(كتابة على آنية من صياغة كوباتشي)

أنا عبد أشعاري طوال النهار المقدس •
أحني ظهري ، أمسح عرق العناء •
ولكن أولئك السادة ، ليس لهم ما يكفيهم •••
لا يعنيهم أن أركض حتى في الليل •••
أجد عجلتي ، وعموداها الجانبيان
يخزانني في عنف ، والعجلة تترجح دون نهاية
أثقال العربة تزداد يوماً بعد يوم
وأنا أجرها الى أبد الآبدين

حدث ذلك منذ أمد بعيد ، ولكني ما أزال أتذكر في جلاء ووضوح كأنه حدث أمس • بل إني وصفت الحادثة في قصيدة ، ولكني لا أستطيع منع قلمي من كتابتها هنا •

كنت ابن شاعر داغستاني هو حمزة ، ولكني كنت ما أزال مغموراً لا يعرفني أحد عندما غادرت قريتي لأسافر أولا الى ماخاتشكالا ثم الى موسكو • ومضت السنون ، انهيت دراستي في معهد الآداب ونشرت عشر مجموعات شعرية ، ونلت على واحـدة منها جائزة ستالين • وتزوجت • وأصبحت في اختصار الشاعر رسول حمزة ، وعندئذ فكرت في زيارة قريتي •

كنت أتشرد أياماً كاملة هناك في الأمكنة التي ركضت فيها وأنا طفل • كنت أرى الصخور والكهوف وأتحدث الى الناس ، وأصغي الى أغاني الجداول • وأجلس في صمت المقبرة ، وأدور مرة أخرى في الحقول •

في أمريكا زرت معامل فورد ، والارض التي تختبر فيها السيارات • إن المكان الذي ولد فيه الشاعر هو أرض اختباره وتجربته •

وذات يوم لقيت نساء عائدات الى بيوتهن بعد أن نظفن الاعشاب الطفيلية من حقول القمح • وجلسن على قارعة الطريق يسترحن ، مرهقات ، يغطيهن الغبار ، وتبدو على أيديهن علامات الوخز والجراح التي خلفتها الاعشاب الشائكة •• واقتربت منهن •

هل لاحظتني فجعلن عامدات يتحدثن عني ، أو أنهن كن يتابعن حديثاً سابقاً طويلا لا أدري ؟ وسمعت فتاة إحداهن تقول ، وهي تمسح جبهتها بقبضة من العشب :

ـ لو سالوني : ماهي أمنيتك الاولى لقلت لهم : قلب رسول حمزة الخلي ، وعيشه الرغيد •
وقالت احدى قريباتي تدافع عني :

ـ ولماذا تعتقدين أن لرسول قطعة من الجبن بدلا من القلب •

ـ لنفرض أنه ليس قطعة جبن ، ولكنه على كل حال لا يضطر الى اقتلاع الاعشاب من حقول القمح • ثم إن جرس المزرعة التعاونية لا يدعوه الى العمل ، في الوقت المحدد ، ولا ينتظر قرع الجرس ليذهب الى الغداء • ثم إنه لا يعرف ماهو يوم ـ العمل ، وكيف نربحه وكيف يدفع لنا • إنه يكتب: ترا ـ لا لا ••• ترالي ، فالي ••• وماذا يشغل باله بعد ذلك ؟•• ما الذي يمكن أن يعذب قلبه ؟ أنا لا أحب حظاً خطيراً من حظه !

أيتها المراة الطيبة : كيف يمكن أن أشرح لك عملي ؟ وكيف أني أجده شاقاً لا نهاية له ؟

كنت أعود من الحقول الى القرية أحمل أفكاراً حزينة • الشيوخ ذوو الشعر الابيض يدفئون احجار ندوتهم الباردة • يتحدثون في هدوء عن الارض وعن الحصاد الجديد ، وعن الجبال والمراعي ، والأمراض والأعشاب ، وعن أيام القرية الخوالي •

ودنوت منهم والقيت عليهم التحية وجلست فوق حجر بارد •

أحد الشيوخ كان يمسك بيده آخر عدد من جريدة فيها قصيدة لي • ودار الحوار حولها • إن الفارس يحب أن يسمع الثناء على مزايا حصانه • ورجوت أن يثني مواطني على قصيدتي • وكنت ألفت المدائح في موسكو وفي ماخاتشكالا •

العجوز الذي يمسك بالجريدة لاحظ ما ياتي :

ـ أبوك حمزة كان ينظم القصائد ، وانت يابن حمزة تنظم قصائد • متى تشرع في العمل ؟ أتظن انك ستعيش طول حياتك ، وانت لا ترفع حملا أثقل من كسرة خبز ؟

وقلت له في حياء ، وقد استغرقني ما جرى في الحوار من تحول :

ـ ولكن الشعر هو عملي •

ـ اذا كان الشعر عمـلا فماذا تسمى البطالة ؟ واذا كانت الاغنية عمــلا فماذا تسمى النشوة والراحة ؟

ـ الاغاني في الواقع نشوة لمن يغنيها ، ولكنها عمل لمن يؤلفها ، عمل لا نوم فيه ولا راحة ، دون يوم اجازة ، دون عطلة ••• ان الورق عندي هو مثل الحقل عندك ، والحبوب عندك هي الأحرف عندي ، وقصائدي هي السنابل •

ـ آه • هذه كلها كلمات جميلة • إن الحقل لا ياتي الي ليستلقي على سقف بيتي • وعلي انا أن أذهب الى الحقل لكي أعمل فيه • اما الاغاني فانها موجودة حيث أنت موجود ، بل إنها في سريرك • كل أغنية من أغانيك ضيف يقرع باب بيتك •• وكل أغنية عيد • أما حقلنا فهو حياتنا اليومية ، حياتنا كل يوم •

هكذا قال الشيوخ في الندوة ، أو هكذا على وجه التقريب كان تعبيرهم عن أفكارهم •

ـ ولكن الاغنية هي حقاً حياتي •

ـ إذن فان حياتك عيد أبدي • الاغاني شان من شؤون العبقرية • والعبقري يكتب في سهولة أغنية جميلة • ومن لا يتمتع بالعبقرية فيجب عليه أن يعمل • وذلك صحيح • ولكن العمل في مثل هذه الحالة قليل الجدوى •

ـ كلا • أنت مخطىء • إن صاحب الموهبة القليلة يعتبر الفن أمراً يسيراً • فهو يتنقل من أغنية الى أغنية ، وبذلك يسف في عمله ، كما يقال • اما الموهبة الكبيرة فهي تاتي مع الاحساس بالمسئولية التي تفرضها ، والرجل الموهوب حقاً يعتبر قصائده عملا عسيراً وكثير الخطر • ليس كل ما يُغنّى أغنية ، ولا كل ما يُحكى قصة •

ـ إذن فحدثنا كيف تعمل وأين تجد الصعوبة في مهنتك ؟

كانوا فئة من الشيوخ المزارعين يجلسون حولي • وجعلت أشرح لهم ، ولكنني سرعان ماأدركت ان من العسير شرح أبسط الاشياء لهم ، وهي التي تبدو لي أكثر الاشياء وضوحاً وفهماً • وانقطع خيط حديثي ، وارتج علي فسكت • لقد انتصر علي شيوخ الندوة اليوم • لقد أخفقت في شرح السبب الذي جعل نظم القصائد قضية عسيرة على الخصوص وما معنى نظم القصائد على العموم •

ومضت سنوات كثيرة بعد هذا الحوار • ومع ذلك فلو سالوني اليوم شرح مايقوم عليه عملي، وما الذي يجعل منه عملا صعباً وبماذا يتميز عن المهن الاخرى لما استطعت الجواب •

أين مكان عملي ؟ لا شك في أنه منضدة ومكتب • ولكنه أيضاً درب الجبل أثناء النزهة ، عندما أفكر في قصائدي فتاتي الكلمات والانغام ، فانتقي منها ما أشاء واترك ما أشاء •

إنه أيضاً القطار الذي استقله الى بلد غريب ، في هذه الفترة يمكن أن تخالجك فكرة قصيدة جديدة • إنه الطائرة والحافلة ، والساحة الحمراء ، وضفة جدول ، والغابة ومكتب وزير • كل ذلك هو مكان عملي الذي أحرث وأحصد •

متى أعمل ؟ أفي الصباح أم في المساء ؟ ما عدد ساعات يوم العمل ؟ ثماني ساعات أو ست ، وربما اثنتا عشرة ساعة ، وقد تكون أكثر ؟

وإذا كانت ساعات العمل طويلة فلماذا لا أعلن الاضراب وأطالب بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات ؟

ذلك أني أعمل دائماً منذ عرفت نفسي • عندما آكل وعندما أكون في المسرح ، وأثناء الاجتماعات ، وفي الصيد وأنا أشرب الشاي ، وأمشي في جنازة ، في السيارة وفي الأعراس • حتى عندما أنام تنثال علي أبيات وصور وافكار ، وأحياناً قصائد تكاد تكون كاملة • إذن فان يوم العمل عندي يستمر حتى أثناء نومي • وكان علي منذ زمن بعيد أن أعلن الاضراب !

كيف أعمل ؟ هذا هو أصعب الاسئلة • أحياناً يخيل الي أن عملي يشبه أي عمل آخر ، ويخيل الي أحياناً أن عملي متميز لا مثيل له ، ولا يضارعه أي عمل يعمله الناس على ظهرالارض•

ويخيل الي أحياناً أن كل الناس حولي يعملون ، أما أنا فطفيلي • وأحياناً يخيل الي انني الوحيد الذي يعمل ، أما الناس جميعاً فلا يحركون أناملهم •

ما أشد حرارة الدم الذي يجري في عروق العصافير • تغني دائماً ، وطول حياتها ، الاغنية التي تعلمتها من أهلها • وللجداول دم حار ، فهي تغني دائماً أنشودتها منذ الوف السنين • اما انا فيجب علي ، خلال حياتي القصيرة ، أن أبدع أغاني ترضاها السنون بين السنين والأجيال بعدالاجيال• إن أول من حرث قطعة من الأرض لاقى ــ ولا شك ــ عناء كبيراً ، وكذلك من أبدع الأغنية الاولى• ولكن عندما يحرث ألف إنسان هذه الارض ، فان الانسان الواحد بعد الألف يجد حرثها أكثر سهولة• أما عندما يكتب ألف إنسان أغاني ، فان الانسان الواحد بعد الالف يجد كتابتها أكثر مشقة • نعم أيها الانسان الذي تحرث الارض إن بين عملي وعملك شيئاً مشتركاً • لا تنظر الي نظرتك الى انسان كسول ، حياته لذة دائمة ، وراحة مستمرة • إنني أفكر ليالي طويلة بيضاً في حقلي تماماً كما تفكر أنت في حقلك • أنت تنتقي أحسن الحبوب للبذار وأنا أنتقي أحلى الكلمات من بين كل ما في اللغة من كلمات • يجب علي ان أنتقي كلمة واحدة من الف كلمة • وأنا أيضاً لي أشغالي ، النجوم الاولى التي أفرح بها ، ثمرات جهدي • انا أيضاً يجب أن أزرع وأن أقتلع الأعشاب الضارة لأنها موجودة في حقلي • من الصعب أن تفصل الحبة الطيبة عن الشوفان المجنون حتى حين تستعمل الآلة • وأصعب من ذلك أن تنتقي الكلمات السيئة لتفصلها عن الكلمات النافعة الصحيحة الطيبة •

أنت تحمي حقلك من الجمد والجليد والرياح اللافحة ، وأنا ينبغي علي أن أبدع أغاني لا تخشى ألد أعدائها : ألا وهو الزمن ، لأني أريد أن أبدع أغاني تعيش مئات من السنين • وأنا لي أيضاً طفيليات : الحشرات والجراد والقوارض ••• إنها تستطيع أن تسرق نصيباً من محصولي أو تقضي عليه كله • تستطيع أن تجعله مراً لا يؤكل ، يدير الناس رؤوسهم اذا مروا

بثماري • والفرق بيننا أن القوارض عندي أكبر حجما وأكثر هولا من فئرانك ، وان حربها أشد ضراوة ، بل إن حربها لا تجدي •

النار تضطرم ، والدخان يشق الفضاء فوق المنزل •
ولكن شرخاً صغيراً صدع الحائط ،
والريح التي لها رأس بقرة
تسللت من هذا الشق لتجمد البيت •
قصائدي لها أحيانا هذا الحظ
أنا الذي أدفع من دمي ثمن الشعلة التي تلهبها
وتاتي الريح فتصيبها بالتجمد حتى القلب
وهي تنفذ دائماً من بين الكلمات الدنيئة

يجب أن أوزع أثماري على الناس • في داغستان ، وفي غيرها من البلاد • وعلى الناس أن يتذوقها ، ويعرفوا حلاوتها ومرارتها ، وطعمها الخاص • من واجب هذه الاثمار ألا تشبه أية ثمرة في العالم •

ما أزال أذكر كيف كان أبي يعلمني كيف أجمع الاعشاب حزمة حزمة عندما كنت صغيراً • وعندما كنت أشد نطاق الحزمة بكل قواي ، وأنا أعتمد على ركبتي كان ينصحني :

ـ انتبه يا رسول • لا تخنق العشب !

واليوم عندما تستعصي علي قصيدة ، وعندما يفر مني بيت رغم كل ما أبذل من جهود لاقراره في موضعه أراني أضرب ضربة صاعقة لأنهي القصيدة مهمـا كلف الامر • عندئذ أتذكر كلمات والدي : « انتبه يا رسول • لا تخنق العشب » •

المحاصيل في الحقول تختلف كمياتها من عـام الى عـام • أحيانا نجد الحنطة تضيق بهـا المستودعات والأهراء ثم تاتي ثلاث سنوات لا ينبت فيهـا شيء • وهكذا يحدث لي : لست دائمة أعمل في سهولة • يبدو لي أني دخنت واشتغلت وبذرت بعض البذور ولكني مع ذلك لم أحصـد مايكفيني خبزي • عندئذ أراني أهرع الى التراجم واشتري حنطتي من كندا أو من أوستراليا • الكيمياء ، الكبيرة منها والصغيرة ، لاتستطيع أن تساعدني عندما يفتر الالهام الشعري ، في فترةما ، وعندما تابى الأبيات أن تنساب من روحي الى الورق •

ما العمل ؟ لو أن كل مزرعة وكل مشروع ينتهيان دائماً بالنجاح لكان الناس جميعاً سعداء ومسرورين • لو كانت الارض تعطي في كل سنة غلالا وفيرة لشبع الناس في الارض جميعاً • لو

أن كل ما يكتب يغدو أغنية لكان الناس من زمن بعيد لا يتحدثون حديثاً عادياً ، ولكنهم يظلون يغنون. حقاً إن ابداع أغنية أمر جد عسير .

زرت كهوف الخمور في داغستان وجورجيا وأرمينيا وبلغاريا ، ومستودعات الجعة في بيلزن . ويخيل الي أن الشعراء تربطهم بالخمارين نقاط التقاء جمة . لكل مهنة دقائقها وأسرارها . كل قصيدة مثل الخمرة ، يجب أن تختمر في النفس وتهرم فيها . وكان لكل قصيدة جيدة (نكهة) تبهج النفس . وهكذا تربط بين الخمرة والقصيدة صلة وثقى .

هذه سيارة شحن تحمل براميل النبيذ تصل الى مخزن في قرية في الجبل . هذا البرميل ، لهذه القرية ، وذلك البرميل لتلك وهكذا يوزع السائق نبيذ (يونياك) على قرى الجبل .

ولا يكاد القرويون يبصرون السيارة حتى تضج بهم كل زوايا القرية . ها هم هؤلاء يمضون الى المخزن دون عجلة ، وفي بطء ، ولكنهم في الواقع يشعرون بان صبرهم ينفد . هاهم هؤلاء يحيطون بالبرميل كما تحيط النعاج بقطعة ملح يضعها الرعاة على الأرض . وينصب النبيذ في الجرار ، ويتذوقه الناس فاذا خيبة الأمل تعمهم ، وإذا الاصوات تعلو :

ـ أهذا نبيذ ؟ هذا ماء !

ـ ولكنه من ماءالنهر !

ـ ليشربه الذين يبيعونه .

ويدافع البائع عن نفسه :

ـ لا علاقة لي بالموضوع . لقد رأيتم أن السيارة هي التي حملت البرميل . وإننا أنزلناه أمام عيونكم . بل لقد ساعدتمونا على انزاله . اذن فما علاقتي بذلك ؟ أنا أبيع النبيذ الذي حملونيه ، وما عليكم الا أن تكفوا عن شرائه اذا لم يعجبكم .

والواقع أنهم قبل أن يرسلوا النبيذ من المنطقة الى الناحية ياتي مدير مستودعات المدينة فياخذ برميلا ما دون انتقاء ، ثم يضيف اليه ماءصافيا ويقول : « في الناحية سيكون الناس سعداء بهذا النبيذ وفي مستودعات الناحية تتكرر العملية نقطة بعد نقطة ، ويقولون في الناحية : « هذا النبيذ جيد في القرى » وفي الطريق يشرب السائقون والحمالون من البرميل ليتسلوا ويقطعوا الطريق ، ثم يعوضون عما شربوه من النبيذ الراتق من ماء أول جدول يجدونه في الطريق . وتكون النتيجة أخيراً أننا نحصل على نبيذ أفسده الماء ، أو ماء أفسده النبيذ .

وهكذا عندما نقرأ بعض القصائد لا نعرف هل هي شعر أو رص كلمات ؟ هذا اللون من القصائد ينظمه شعراء كسالى لا يعملون في صبر ولا في جد ودأب . ولكن السيل النزق قل أن يصل الى البحر ، والراجل الكسول قل أن يصل الى مكة . عندما يضطر فارسان الى امتطاد صهوة جواد واحد ، يمسك أحدهما بالآخر ، وكذلك تمتطي العبقرية والعمل حصاناً واحداً .

قال أبو طالب :

على العبقرية والعمل ان يتلازما كما يتلازم الخنجر والغمد •

من دفتر المذكرات :

في ذلك العهد كنت أمضي أيامي في الشارع أكثر مما اقضيها في البيت • كنت ما ازال اذهب الى المدرسة حين نظمت الشعر • ولم أكن أصبر على نظم الشعرء وعلى قراءة الدروس وعلى كتابة الوظائف • كنت لا أكاد أستقر على مقعدي • وبدات اتحرك ثم اقفء ثم أغتنم أول فرصة ممكنة لأفر الى الشارع • وأنا لا أزال حتى الآن غير كثير الداب وغير طويل الصبر •

في يوم من الايام أجلسني أبي الى وظائفي ، أو على الصحيح الى أشعاري ، وغادر المنزل دقيقة، ولم يكد يغلق الباب وراءه حتى تركت الكرسي وصعدت على سطح المنزل • ورآني أبي فصرخ ينادي أمي :

ـ هاتي الحبل ، الحبل المتدلي من المسمار !

ـ ولماذا ؟

ـ أريد أن أربط رسولا بكرسيه ، والا فلن يصنع خيراً •

وربطني أبي في هدوء وعناية الى الكرسي وربت على جبيني ، وقال لي وهو يشير الى الورق :

ـ أنقل على هذا الورق كل مافي هذا الرأس • آوه ••• ليتنا نجد الآن نحن معاشر الكتاب من يربطنا بمكاتبنا ، ولو حيناً بعد حين !

الرأس يعمل ولا شك ، ولكن عندما تبقى اليدان عاطلتين فذلك يشبه طاحونا تدور على فراغ بدلا من أن تطحن الحب •

أحجية شانغري وابنه والروبلات الخمسة :

كان في زمن من الأزمان ، في مدينة كونزاخ رجل غني يحترمه الناس جميعا ، وكان اسمه شانغري • وكان له ولد وحيد ، إذن فهو ولد مدلل وذو نزوات • وأراد الأب أن يعمل ابنه كما يعمل كل الناس ، وأن يغدو رجلا حقيقية • ولكن الولد لم يكن يرغب في العمل ، وكان أقاربه وأصدقاء أبيه يدللونه • هذا يهديه حصاناً وذلك شركسية وثالث مالا أو خنجراً • ومرض شانغري ذات يوم مرضاً خطيراً • ولم تجد في علاجه الادوية ، وكان أقاربه وأصدقاؤه وكل أهل المدينة يحيطون به •

ـ ماذا نفعل لنحقق لك الشفاء ؟
ـ أما أنا فاعرف ما يجعلني أقف على قدمي ، ولكنكم لا تستطيعون تلبية طلبي •
ـ وماذا تريد ؟ سنفعل كل ما نستطيع •
ـ سيتم شفائي عندما يستطيع ولدي أن ياتيني بخمسة روبلات يكسبها بعمله ، ويقول لي : « خذ يا أبي ، هذه لك • »

وبعد يومين جاء الولد الى أبيه ومد اليه يده بخمسة روبلات •
ـ خذ يا أبي لقد اشتغلت في تعويم الشجر في النهر ، في خليج « كواسو » وكسبتها •
ونظر الاب الى ولده ، ثم الى الدراهم وألقاها في النار • ولم يتحرك الولد ، واصفر وجهه كانه تلقى صفعة على وجهه •

والواقع أن الولد لم يكسب المال وانما أعطاه إياه عمه الذي سمع ما قاله شانغري وأراد أن ينقذ الولد من ورطته •

وبعد عدة أيام جاء الولد من جديد ومد الروبلات الى أبيه وقال :
ـ اشتغلت في غونيب ، في شق الطريق الجديد وكسبت هذا المال •
ونظر الاب الى المال ثم الى ولده ودعك الاوراق المالية ثم رماها من النافذة •
ولم يتحرك الولد • كان هذا المال عطية من صديق لأبيه من سكان غوتساتلي •

وجاء الولد الى أبيه مرة ثالثة ، وقدم اليه مرةثالثة ورقة بخمسة روبلات •
ودون أن ينظر الأب الى ولده مزق الورقة قطعتين ورماهما • عندئذ أسرع الولد كانه صقر ينقض على فريسته ، والتقط القطعتين وجعل يلصق احداهما بالاخرى • وهو يصرخ :
ـ لقد نظفت زرائب بتروفسك لا لكي تمزق هـــذا المال كانه قطعة من ورق • انظر الى الدمامل في يدي •
ـ هذه المرة عرفت أنك كسبت المال بعرق جبينك •
واصبح شانغري اكثر فرحاً وتحسنت صحته ثم ما لبث أن شفي تماماً •
وهكذا فان ما نكسبه بعملنا هو وحده ذو قيمة حقيقية •
أليس يصح هذا على الشعر • أنت عانيت العذاب في نظم قصيدتك • كل كلمة فيها ، كل فاصلة فيها ، عزيزة عليك•ولكن عندما تلتقط فكرة في الطريق فلن تحصل أبداً على قصيدةثمينةحقاً•

الصاغة ، جيراني
رأيتهم مراراً في يسر بالغ
يستعملون معيارهم
ليميزوا الذهب من النحاس

وانت أيها القارىء الذي تعرف قيمة الاشياء
ليتك تساعدني في استعمال معيارك
لتمييز العملة النحاسية
التي تتوارى خلف زخارف الشعر وبهارجه
لتدعي أنها عملة ذهبية

إذا أردت أن تكون السمكة طيبة الطعم فاذهب الى البحيرة واصطدها بنفسك • النسر يطير ضد العاصفة ، والسمك يسبح ضد التيار • والشاعر يكتب وهو يمضي الى لقاء العواطف العنيفة حتى اذا لم تكن فرحاً ، بل كانت عذاباً • قال لي أبو طالب مثل ذلك في يوم من الايام •

أحجية صانعي الفخار في بالخار وجرارهم والمشترين الوقحين

صانعو الفخار في بالخار وضعوا جرارهم في سلال كبيرة وحملوها على حميرهم وبغالهم وذهبوا بها الى المدينة ليبيعوها • وفي الطريق صادفوا فتياناً من القرية المجاورة احبوا أن يسخروا بهم :

ـ يا صانعي الفخار ، أأنتم تسافرون الى مكان بعيد ؟
ـ نذهب لنبيع جرارنا •
ـ وما ثمنها ؟
ـ الجرة الصغيرة بعشرين كوبكا ، والجرة الكبيرة بخمسة كوبكات •
ـ وكيف ذلك ؟
ـ لأن الفاخوري يلقى في صنع الجرة الصغيرة عناء أكبر من صنع الجرة الكبيرة •

والفتيان العابثون اشتروا كل الجرار •

وقال صانعو الفخار وهم يستأذنون ويديرون أعنة حميرهم وبغالهم ليعودوا الى قريتهم :

ـ ستكونون مسرورين من بضاعتنا • انــه عمل تم في وجدان • إن فخارنا يمكن أن يخدم أبناءكم وأحفادكم •

ومضى صانعو الفخار يرتقون التل ثم جلسوا ليستريحوا قليلا • كانوا يرون من هناك كل الطريق ، وفجاة أثارت انتباههم مجموعة الفتيان الذين اشتروا من بضاعتهم الجميلة الطنانة •

لقد وضع الفتيان الجرار على جانب هاوية في الجبل وتراجعوا عشرين خطوة وجعلوا يرشقون الجرار بالحصا • ويظهر أنهم تراهنوا أيهم يكسر أكبر عدد منها •• وتفجرت الجرار وجعلت شظاياها تسقط في الهاوية • وسر ذلك الشباب سروراً كبيراً •

وكان صانعي الفخار صدر اليهم أمر مباغت • فقفزوا من التل ، وهم يشهرون خناجرهم على الشباب الاوغاد • وهم يصرخون :

ـ ماذا تصنعون أيها الاشقياء ؟ لقد بعناكم أحسن مالدينا من جرار ••• ما الذي تصنعونه بهذا الكنز ؟ وصعق الغلمان وسالوهم :

ـ ولماذا تغضبون ؟ لقد بعتم بضائعكم واشتريناها منكم ودفعنا لكم ثمنها • والجرار الآن لنا ، فما علاقتكم بما نعمل ؟ نحن أحرار في أن نكسرها ، أحرار في أن نحملها الى بيوتنا ، أحرار حتى في أن نتركها هنا على قارعة الطريق •

ـ ولكن هذه الجرار عزيزة علينا • ولقد كلفتنا جهداً كبيراً لتصبح جراراً ، ووضعنا في طينها كثيراً من الجهد وجزءاً كبيراً من أرواحنا حتى أصبح الطين شيئاً جميلا ، يعجب به الناس • لقد ظننا أن عملنا سوف يدخل السرور الى قلوب الناس ، وأنه سوف يجمل حياة البشر • عندما قمنا ببيع جرارنا كنا نرجو أن تستعملوها ، واحد يضع فيها نبيذاً يقدمه للضيوف ، وثان يملؤها من ماء النبع النمير ، وآخرون يزرعون فيها أزهاراً رائعة • أما أنتم يا قليلي الايمان فتكسرونها وتحولونها الى شظايا ، كل جهودنا ، كل مهاراتنا ، كل أحلامنا تحطمونها بالقاء الحجارة عليها على حافة هاوية • أنكم حين تقذفون الحجارة على جرارنا مثل الاطفال المجانين الذين يقذفون حجارتهم على البلابل ، على الطيور الصداحة باصواتها الجميلة • وحمل صناع الفخار دون تردد كل ما لم يستطع الغلمان كسره من الفخار وعادوا به الى ديارهم •

كل من يعمل بروحه ، وكل من يحب أن يرى نتائج عمله يفهم عذاب صناع الفخار •

بهذه الكلمة انهى أبو طالب حكايته •

تذكرت حكاية أبي طالب وأنا في اليابان أشاهد صيادات اللؤلؤ الصبايا • كن فتيات جميلات وقويات ، يغطسن في أعماق البحر • وقد نجحن في وضع عدد من اصداف اللؤلؤ في كيس يتدلى على خصورهن ، ثم صعدن الى وجه الماء قبل أن يختنقن • يمكن أن تكون احدى هذه الاصداف تضم لؤلؤة • ولكن ينبغي أن تخرج ألف صدفة لتحصل على هذه الصدفة السعيدة اللؤلؤية • كم مرة ينبغي أن نغوص ، كم صدفة ينبغي أن نخرج من جوف البحر حتى نحصل على عقد من اللآلىء الحقيقية •

ولكن هل تاليف أغنية كانها العقد مصنوعة من الكلمات التي يستعملها الناس في حوارهم أقل من عقد اللؤلؤ عناء ؟ ان مجموعة الكلمات العادية والحوادث والعواطف والتجربة في الحياة تؤلف محيطاً تتناثر فيه الاصداف اللؤلؤية في كرم • ولكن ما أحلى وما أصعب عمل صياد اللؤلؤ الذي يجب عليه أن يغطس دون هوادة في أعماق المحيط ذات الاسرار • يجب أن يكون مسلحاً بكثير من الحصافة والصبر والصحة والثبات والحماسة • ويجب أيضاً أن يكون ذا حظ • إن صبر الغواصين على اللؤلؤ وصبر الصاغة في كوباتشكي الذين يصنعون الفضة المشبكة ينمان عن عبقرية ، ولكن ذلك كله هو العبقرية والعمل معاً وفي آن واحد •

لكي تعيش قصيدة الى نهاية العصور أيها الاصدقاء الذين ترونني مرحاً أو قاسياً اعلموا اني اتعلم الصبر والصلابة من صاغة كوباتشي •

قواعد الحياة التي يعرفها كل جبلي :

لا تزوج فتاتك قبل سن النضج !

لا تخلع نعليك من قدميك قبل أن تقترب من النهر ، لا تضع قدرك على النار لتطبخ الصيد ، والصيد ما يزال في الغابة ، لم تصطده ولم تذبحه •

الثعلب الأزرق لا يملكه أول من يراه ولكن يملكه من يمسك به •

ما أزال أتذكر :

ما كنت أريد أن أذكر هذه الحكاية لانها ليس فيها ما يدعو الى المباهاة ، ولكني مادمت بدأت في ذكر الامور حسب تسلسلها فمن المستحيل أن اقفز على حلقة منها • ليس عبثاً ما يقولونه في الجبال : « اذا غصت في الماء الى سرتك فاغمر كل جسدك • » و « اذا حللت عقدة كيسك فافرغه»••

كان من الممكن أن يتم هذا الكتاب منذ زمن لولا هذه الحكاية السخيفة التي قررت ذكرها الآن• من عادتي اذا بدأت بكتابة كتاب ثم كان علي أن أسافر ، أن أحمل مخطوطته معي • ولذلك فان مخطوطاتي سافرت معي غالباً في رحلات طويلة • وطبيعي أني لا أحملها لمجرد أن أحملها • هنالك أيام أكون فيها حراً عند الصباح في الفندق ، فآخذ المخطوطة وأتأمل فيها وأكتب صفحة • وكتابي هذا قطع معي بحاراً ومحيطات وقارات •

عدت يوماً من (بروكسل) ، ونزلت في فندق (موسكو) في الطابق الثامن ، ومادمت قد ذكرت هذا الموضوع فانا أريد مباشرة أن اقول ان فندق (موسكو) ليس بالنسبة لي فندقا عادياً • إنـه يكاد يكون بيتي الثاني • لقد قضيت فيه نصف حياتي الشاعرة تقريباً ككاتب عندما كنت أجيء الى موسكو في أعمال مختلفة •

كل من في هـذا الطابق من اداريين وموظفين ونساء مشرفات أعرفهم جيـداً ويعرفونني • ويعرف أصدقائي في موسكو أني انزل دائماً في هذا الفندق ، والحق ان بعضهم تعني عندهم كلمات (رسول في موسكو) أن لهم حظ الدعوة عنده إن لم يشغلهم شاغل •

ولا أكاد أدبر أموري حتى تبدأ عادة الهواتف والقرع على الباب • وبعد قليل لا نجد مكانا نجلس فيه ، ثم لا نجد مكانا نتحرك فيه • ليست غرفة في الفندق بيتاً في القرية • نحن معاشر

الجبليين لا نسأل عادة عن اسم ضيوفنا قبل اليوم الثالث من بدء زيارتهم ، حسب تقاليدنا القديمة • ومع ذلك فإن قليلا من الناس يبقون ثلاثة أيام في غرفتي في الفندق ويبقى كثير منهم وأنا لا أعرفهم •

إذن فقد عدت يوماً من بروكسل ونزلت في فندق (موسكو) وامتلأت غرفتي بالناس كالعادة • جاء بعضهم للتهنئة بعودتي من الرحلة ، وبعضهم يرجون سفراً سعيداً الى داغستان ، آخرون هنا هكذا دون سبب • بعضهم جاء بدعوة مني ، وبعضهم دون دعوة •

كنا نتبادل المدائح عالياً ، ونشرب نخبنا ، وكنا نذم غيرنا عالياً ونشرب نخبهم • نثرثر ونشرب ونضحك ونشرب ، ونغني ونشرب • وامتلأت الغرفة بدخان كثيف حتى خيل الينا أن هناك ناراً من حطب رطب تشتعل تحت المنضدة او تحت السرير •

قال أبو طالب :

أمور ثلاثة عجلت هرمي :

الأول : أن يحضر كل الضيوف دعوتك ما عدا واحداً ، تضطر الى انتظاره •

الثاني : أن تضع زوجك الصحون على المائدة وابنك الذي أرسلته ليأتي بالفودكا ما يزال غائباً •

والثالث : أخيراً ، أن يذهب ضيوفك جميعاً إلا واحداً • إنه ذلك الذي سكت طوال السهرة ، فلما بلغ العتبة بدأ يتكلم ليستدرك كل ساعات الصمت التي فاتته ، وتشعر أنت وهو يحدثك أن حديثه ليس له نهاية •

لقد أنهك التعب قواك وألقى النوم ثقله على جفونك ، وأنت مضطر الى الاستماع الى حديثه السخيف ، ومضطر الى عدم معارضته شريطة أن يكف وأن يذهب ، ولكنه وقد شعر بموافقتك على كلامه يسترسل في اندفاعات تتجدد دون انقطاع •

كان عندي في الواقع واحد من هذا النوع في هذه السهرة ، اريد أن أتحدث عنه وعن نهاية زيارته وكانت سيئة • ذهب الناس جميعاً فامسك بي من كتفي وهو سكران ، يلقي أعقاب سكايره في أماكن لا يمكن أن تصدق ، ويطفئها على الستائر ، على ظهور الكراسي ، على حقيبتي ، وعلى الاوراق المتناثرة فوق مكتبي •

بدأ بالتغني بمآثري • ووافقت • ثم بدأ بالتغني بمآثره فوافقت • ثم تغنى بمآثر زوجته ، ووافقت • وفي آخر الحساب بدأ بشتمي واثارة كثير من السخافات ضدي • ووافقت أيضاً • وقلت في نفسي في خوف : « الآن يبدأ بشتم نفسه ثم بشتم زوجته » ولكنه عندما بلغ النقطة التي كان ينبغي فيها أن يبدأ منطقياً بشتم نفسه كف فجأة عن الحديث وأسرع في الذهاب الى غرفته ، ووعدني ، لكي يخفف عني أسفي على مغادرته غرفتي ، أنه سيعود الى زيارتي صباح غد •

يقولون أحياناً : إن الضيف جميل دائماً ، ولكنه أكثر جمالا حين يدير ظهره • الآن أدركت معنى هذا المثل • إن ظهر ضيفي وهو يغادرني بدا لي رائعاً • وقلت لنفسي ، وأنا أتنفس

الصعداء : « حسناً أستطيع الآن النوم في هدوء • » واغلقت بابي وتسللت الى سريري مثل لص ، ونمت فوراً • وكان نومي هانئاً كاني راع يلتف في عباءته الدافئة ، والمطر يهطل ويضج في الخارج• وحلمت أنت كنت ، أتلفف في عباءة قرب نار موقدة في معسكر • والرعاة يجلسون حولها ويمدونها بالحطب حيناً بعد حين • وكانت النار تدخن ، والدخان يحرق عيني ويدغدغ أنفي • ثم رأيتني في مخبز ، ولا أدري لماذا ؟ والحرارة في المخبز شديدة ، كان شيئاً يحترق ، ثم وجدت نفسي في الريف بين أصدقائي ، في يوم من أيام الاحد ، ونحن نشوي لحماً طيب الرائحة •

واستيقظت على ألم في عيني لا يحتمل • ونهضت فافزاًعمى • الحجرة كانت ملأى بالدخان ، وظننت أن هنالك حريقاً قرب الباب • وأسرعت الى الردهة فاذا حقيبتي تكاد تاتي عليها النيران • كانت تغطيها لاصقات من أحسن فنادق العالم • كم من بلد قطعناه معاً • كم من جمارك اجتزناها معاً دون حرج • حقاً إنها لم تضم يوماً ما شيئاً سيئاً إلا ان يكون زجاجة فودكا مهدية الى صديق، أو علبة دخان أكثر مما تسمح به أنظمة الجمارك • أو مبذلا يهدى الى زوجة •
وها هي ذي الحقيبة التي اجتازت في امان الحرائق الجمركية تشتعل هنا في اهدأ غرفة في فندق موسكو •

وهرعت الى بقايا حقيبتي المحترقة ونقلتها الى المغطس وأجريت عليها الماء • وتصاعدت من جديد سحب من الدخان الكثيف • وأتيحت لي الفرصة في الوقت نفسه لاحراق يدي وحتى وجهي ؛ وكان علي أيضاً أن أطفيء النار التي أصابت الكرسي الذي كانت الحقيبة فوقه ، والسجادة وحتى الستائر ، وأسرعت الى الهاتف ودعوت المشرفة على الطابق •
وقلت لها : أنا أحترق • أسرعي لانقاذي • والظاهر أن المشرفة ظنت أن رسولا لا يمكن أن يحرقه الا الحب ، وأنني بالتالي أحترق حباً لها • واجابت في هدوء ، وحنان الام في صوتها :
ــ اسمع يارسول • اذهب ونم • غداً تنسى ما عانيت • أيتها النساء • ما أعجب أمركن : كم مرة قلت لكن وأنا أمزح اني أحترق حباً ، فكنتن تصدقنني وتهرعن الى نجدتي • ولكني لم أجد واحدة منكن تصدقني حين كنت أحترق فعلا •

واضطررت أن أكافح النيران وحدي ، مثل إطفائي باسل • واخيراً نجحت في إطفاء النار التي أصابت السجادة والستائر والارض الخشبية التي بدات تتفحم • نعم خرجت منتصراً من معركتي ، ولكن النار كانت قد كبدتني خسائر فادحة •

الظاهر أن ضيفي ، في سكره ، ألقى عقب سيكارة مشتعلة في حقيبتي ، وبـدأ من هنـاك الحريق • قمصاني وبزتي والهدايا التي جئت بها من بروكسل كلها احترقت • واقامت ادارة الفندق دعوى علي تطالبني بالسجادة والكرسي والستائر وكلفتني مبلغاً ضخماً • اما أنا فاضطررت الى الذهاب الى المستشفى وهتفت الى زوجتي أني اضطررت الى البقاء في موسكو لقضايا مستعجلة •

وبما أني لم أجد من الوقت مايسمح لي باختراع سبب ما لتاخري فقد وعدتها بارسال هاتف آخر• ذلك ما استطاع أن يفعله عقب سيكارة لعين •

ولكن علي أن أذكر أن كل ما أضعت تافه بالنسبة الى مابقي • الواقع أن المخطوطة التيعملت فيها سنتين كانت في قاع الحقيبة •

يقال : إن أكبر سمكة هي التي استطاعت أن تقطع الشبكة وإن احسن الايائل هو الذينجا منك، وإن أحلى النساء هي التي هجرتك •

قسم كبير من المخطوطة احترق ، وأنا مقتنع تطبيقا لهذا المثل أنه خير ما فيها من صفحات •

وأضيف أن تلك السمكة التي نجت ليست لي ، وان الأيل الذي فر ليس ملكي ، وأن المرأة التي هجرت ليست حبيبتي ، ولكن هـــذه الصفحات التي احترقت هي لي فعـلا • أنـا الذي اخترعتها ، أنا الذي عشتها ، أنا الذي تعذبت وأنا أكتبها ، أنا الذي قضيت ليالي وليالي بيضا في عمل متصل دائب • لهذا اجدني أتالم لضياع مخطوطي • ولهذا عددته خير كتبي •

شعرت أني وحيد مهجور كاني حقل قاموا بتعشيبه ، او كاني سنبلة وحيدة نسيها الحصادون في الحقــل •

كل حرف خططته على هذه الاوراق التالفة أصبح عندي اغلى من لؤلؤة • وبدا لي كل خط من خطوطها ، في أحلامي ، كانما هو عقد يتلألأ •

وظللت سنتين كاملتين لا أستطيع العودة الى المخطوطة ، لكثرة ما أقلقني وهزني ضياعها • وعندما استطعت أخيراً أن أصحو وأهدأ شعرت أني أستطيع اعادة كتابتها تقريباً على نحو ما كنت كتبتها ، ولكن يستحيل علي أن أعيد صفحاتها الضائعة •

ذلك يشبه زوجين جديدين أضاعا ولدهما الاول • الزمن يمضي ، والزوجان يرزقان ولداً آخر يحبانه مثلما أحبا الولد الاول ، ومع ذلك يبقى غير الولد البكر الذي مات •

يقال إن القصائد تخشى الماء • القصيدة نار ، وفن الشاعر لهب • الحق أن القصائد لاينبغي أن تكون مائية ، ولكني أســال الله أن يصونهـا أيضـا من النار التـي التهمت مخطوطتي في غرفة الفندق •

سرقة بيت أبي طالب :

كيف حدث هذا ؟ من الذي استطاع أن يضرب هذه الضربة ؟ كيف كان البيت خالياً من سكانه في ذلك اليوم ؟ تلك أمور لا أعرفها ، ولكن الذي حدث أن بيت أبي طالب سرق • وأسرعوا ليروا ما أخذ منه ، واكتشفوا أن السارق أخذ ساعة ابنته الذهبية ، وخاتمها الذهبي وشنوفها وغير ذلك

من الحلي ، واخذ أيضا معطف الفرو ، والثياب والاحذية والمال ··· وكادت زوجة أبي طالب يغمى عليها ، وانهارت ابنته على المقعد وهي تبكي · أما أبو طالب فقد مضى الى غرفة ثالثة وجلس على الارض وشرع يعزف على ربابته ·

وهجمت زوجته والقت نفسها عليه :

، كيف تجرؤ على العزف بعد هـــذه الكارثة الفادحة ؟ يجب أن تســرع الى الشــرطة ، إلى المدعي العام ·

ـ أتتحدثين عن كارثة ؟ انظري هذه قصائدي ما تزال هنا ، هذه أوراقي لم تمسها يد السارقين· إذن فلماذا أغضب ؟

ـ ومن يحتاج الى قصائدك ، ولا سيما وقد كتبت فوق ذلك بلغة لاك ؟

ـ أوه أيتها الجاهلة · هناك أشخاص لا هم لهم الا سرقة الشعر ، بل انهم ربما سرقوا عناوين الشعراء · أما قصائدي فها هي ذي سليمة والحمد لله · لقد عملت فيها سـنة كاملة ، لو سرقت لكانت هذه هي الكارثة · ثم انظري هاهي ذي ربابتي سليمة · فلماذا لا أعزف فرحاً ؟

وظل أبو طالب يعزف على ربابته دون أن يكترث بصرخات زوجته وابنته ·

حدثني أفندي كابيف قال :

في يـوم من أيام الصيف الرائعة كان سليمان ستالسكي يتمدد على سطح بيته ، ينظر الى السماء ·. العصافير تزقزق ، والينابيع تدمدم · كل من رآه ظن انه يستريح · وذلك ما ظنته زوجته · وصعدت الى السطح ونادته :

ـ اللحم المشوي انتهى ·· حان وقت الطعام ·

ولم يجب سليمان ولم يلفت حتى رأسه ·

وبعد فترة نادت (عينه) زوجها مرة اخرى ·

ـ اللحم برد · وعما قليل لا يصلح للأكل

ولم يتحرك سليمان ·

وعندئذ حملت الزوجة الطعام الى السطح لكي يستطيع سليمان تناوله هناك ، ما دامت تلك رغبته · وقدمت اليه الطعام وهي تقول له :

ـ أنت لم تاكل منذ الصباح · ذق هذا اللحم الطيب الذي اعددته لك ·

وغضب سليمان · وانتصب واقفا يصرخ بزوجته التي تعتني به :

ـ أنت دائما تحولين بيني وبين عملي ·

ـ ولكني ظننت أنك لا تعمل ، فانت تستلقي على ظهرك ·

ـ كلا · بل أنا اعمل ··· لا تزعجيني ·

والواقع ان سليمان نظم في ذلك اليوم قصيدة جديدة • وهكذا يعمل الشاعر حتى حين يكون مستلقياً على ظهره ينظر الى السماء •

الشاعر ينظم قصيدة لزوجته
« يا ضيائي ، يا نجمي ، يا صباحي
الحياة حلوة قربك ،
ومرة عندما لا أراك •

ولكن ها هي الزوجة ـ النجم والضياء ـ
تقف عند عتبة الباب
ويصرخ الشاعر : « أأنت ماتزالين هنا » ؟
اذهبي ودعيني أعمل • بحق الله • »

حدثني أبي :

مغني الحب الكبير محمود ذهب يوماً لزيارة رجل من الصالحين • كان هنالك ضيوف آخرون ، وبقي الشاعر يسحرهم باغانيه حتى انتصف الليل • ثم ذهبوا الى النوم • وأعطيَ محمود أحسن غرفة • ووضع له رب البيت طستاً وإبريقاً للوضوء وتمنى له ليلة سعيدة •

وعند الصباح خاف رب البيت أن تفوت محموداً صلاة الفجر فجاء يلقي نظرة خجلى على غرفة محمود ، فوجد الشاعر ما يزال ساهراً لم ينم ، وهو جالس على السجادة ينظم شعراً ويدندن في صوت خافت :

ليس في الجنة غناء
فاعفني منها إن أردت •
واحتفظ بجنتك
وانا أحتفظ بحبيبي

ـ يا محمود ! حانت صلاة الفجر • دع قصيدتك وهيا الى الصلاة •
وأجاب محمود :
ـ ولكن تلك هي صلاتي •
وهكذا يعمل الشاعر حتى في ساعات الصلاة •

من دفتر المذكرات :

والآن ساقص عليكم حكاية شاعر من آفار • لن أذكر لكم اسمه ، لأني لا أريد أن يشار اليه ويسخر منه ، ففي حكايته ما يستحق السخرية •

تزوج هذا الشاعر • وبعد حفلة الزفاف غادر المدعوون البيت وتركوا العروسين في غرفة أعدت لليلة الزفاف وتمددت العروس على الفراش في انتظار زوجها • ولكن العروس بدلا من أن ياتي ليجد زوجته ، جلس الى المنضدة ينظم قصيدة • وظل يكتب طول الليل ، وعند الصباح أتم قصيدة طويلة مهداة الى زوجته ، الى الحب ، الى ليلة الزفاف •

أيجب علينا أن نستنتج من هذه الحكاية إن الشاعر يعمل حتى في ليلة زفافه • لو فعلت كما فعل هــذا الشاعر لكنت كتبت خمسين كتابا فوق ما كتبت ؛ ولكن يخيل الي أن هــذه الكتب ستكون كتبا زائفة •

إن من يجلس الى منضدته ، وعروسه تفتح له ذراعيها ، ذلك الذي لا يدع أوراقه وقلمه اذا حضرت امرأة جميلة • ذلك في رأيي مدع مغرور • يمكن أن يكتب عشرة مؤلفات أو عشرين مؤلفا زيادة على ما يكتب غيره ، ولكن كلماته تظل ينقصها الصدق والاخلاص •

العمل • ذلك أمر لا مناص منه •

جلس حكيم تحت شجرة في انتظار أن تسقط تفاحة في فمه • ولم تسقط التفاحة •

ومع ذلك فان الصدق ، أمام الاشخاص وأمام الذات ، أكثر ضرورة للشاعر من العمــل ، وربما من الموهبة •

يقولون : الرجل الشجاع يجب أن يظل على صهوة حصانه أو على ظهر الأرض •

يقولون :

ـ ما هو أشد مافي العالم حقارة وشناعة •

ـ الرجل الذي يرتجف خوفا •

ـ وماهو أشد من ذلك حقارة وشناعة •

ـ الرجل الذي يرتجف خوفا •

الحقيقة والشجاعة

ينبغي ان يتصف الامام بالحكمة ، في جملة ما يتصف به ٠
قال ذلك نائب أبيض الشعر في المجلس ٠
ينبغي أن يتصف الامام بالشجاعة في جملة ما يتصف به ٠
هكذا اعترض نائب ثان على النائب الاول ٠

حكم العالم أسهل في ما اعتقد
من أن تكون شاعراً تحكم الشعر
لأن الشاعر ينبغي ان يكون شجاعاً وحكيما
وأن يتمتع بمائة سجية أخرى ٠

يقول أهل آفار :
الصدق والكذب يتراهنان منذ الأزل
الصدق والكذب يتجادلان لمعرفة اي منهما أكثر نفعاً
وأكثر ضرورة وأشد قوة ٠
الصدق يقول : أنا ، الكذب يقول : أنا ٠
والصراع لا ينتهي ٠

في يوم من الايام قرر الصدق والكذب أن يذهبا الى الناس ويسالاهم ٠ الكذب ركض على طول الدروب الضيقة ، المتعرجة ، ونظر في كل شق ، وشم كـل ثقب ٠ ودار في كل منعطف ٠ ومشى الصدق رافع الرأس في الطرق العريضة المستقيمة ٠ وضحك الكذب طول الوقت ، وبقي الصدق مفكراً حزيناً ٠

وهكذا زارا كل الطرق ، والمدن والقرى ، ذهبـا الى الملوك والشعراء والخانات والبائعين والعرافين والناس البسطاء ٠ كان الناس يشعرون أنهم أكثر حرية ، أكثر راحة اذا ظهر الكذب٠ ينظر بعضهم الى بعض في العيون وهم يضحكون ، بينما هـم يخدعون الآخرين في الوقت نفسه ٠ ويعرفون أنهم يكذبون ٠ ولكنهم يشعرون أنهم لا يحملون حرجاً ولا عبئاً وأنهم لا يتضايقون اذا خدع بعضهم بعضاً أو تبادلوا الاكاذيب ٠

فاذا ظهر الصدق اغبرّت وجوه الناس ، وطاشت أنظارهم ، وخفضوا أبصارهم ، وأمسكو بالخناجر (باسم الصدق) وثار من أهين على من أهانه ، وهاجم المشتري البائع ، وثار الفلاح على الخان ، والخان على الشاه ، وقتل الزوج زوجته والمحب حبيبته ، وسال الدم ٠

وقال أكثر الناس للكذب :

ـ لا تتركنا • انت خير الاصدقاء • معك نستطيع ان نعيش في سهولة أكثر وفي بساطة أوفر • اما انت أيها الصدق فلست تحمل الينا غير القلق • انت تجبرنا على التفكير والعذاب والنزاع • كم من المحاربين الشباب والشعراء والفرسان ماتوا من اجلك •؟ أليس يكفيك ذلك ؟

وعندئذ قال الكذب للصدق :

ـ إذن فقد رأيت أني اكثر منك قيمة وأجل نفعاً • في كل بيت زرناه كانوا يحتفلون بي ، ويضيقون بك •

ـ نعم لقد زرنا بيوتاً كثيرة ماهولة • هيا الآن لنزور القمم • تعال نسأل الينابيع الباردة الصافية ما رأيها ، تعال نسأل الازهار التي تتفتح في مرتفعات الجبال ، تعال نسأل الثلج الذي يتوهج بالبياض الناصع الذي لا يزول • الالوف المؤلفة تعيش في القمم • المآثر الخالدة السامية للأبطال والشجعان والشعراء والحكماء والقديسين تحيا هناك ، وتحيا هنالك كذلك أفكارهموأغانيهم ومبادئهم • إن كل ماهو خالد لايخشى مافي الأرض من اضطراب تافه يعيش في القمم •

وقال الكذب :

ـ لا ••• لن أذهب الى هناك •

ـ ولم تخاف الأعالي ؟ انظر : الغربان وحدها تعشش في الحفر ، اما النسورفانها ترقى فوق قمم الجبال • أتحسب أن كونك غراباً يليق بك أكثر من أن تكون نسراً ؟ نعم • أنـا أعلم أنك خائف • أنت وغد على العموم • أنت تجلس الى مائدة العرس وقد سالت عليها أمواج الخمر ، ولكنك تخشى ان تخرج الى الساحة لتستمع الى رنين الخناجر لا إلى رنين الكؤوس •

ـ لا •• لست أخاف قممك • ولكن ليس لي فيها عمل ، لأنه ليس فيها أحد • مملكتي هنا تحت ، حيث يعيش الناس • أنا أسيطر عليهم دون منازع • إنهم كلهم أتباعي ورعيتي • بعض أصحاب المبادىء الشجعان يجرؤون وحدهم على عصياني ، ويتكلمون بصوتك ، صوت الحق • ولكن هؤلاء الناس يعدون على أصابع اليد الواحدة •

ـ حقاً إنهم يعدون على أصابع اليـد ، ولكن الناس يدعونهم ابطالا ، والشعراء يخصونهم باحلى اغانيهم •

أحجيـــة :

هذه الأحجية قصها علي أبو طالب • عاش في أحد البلاد شعراء كثيرون يذهبون من قريـة الى قرية وينشدون اغانيهم • بعضهم على الربابة وآخرون على الدف ، أو الكران أو القيثارة • وكان الخان ـ اذا لم تشغله أعماله أو نساؤه ـ يحب أن يستمع الى أغاني الشعراء •

وفي يوم من الأيام سمع أغنية تتحدث عن قسوة الخان واستبداده وجشعه • فامر الخان وهو غضبان ، بالبحث عن الشاعر الذي ألف هذه الاغنية التي تحض على عصيانه ، وأن يؤتى به الى القصر •

ولم يستطع أحد العثور على مؤلف الأغنية • وعندئذ أمر الخان وزراءه وجنوده بالقبض على جميع الشعراء • وهجم حراس الخان مثل كلاب الصيد على القرى ، والطرقات ودروب الجبال ، والشعاب الموحشة ، وقبضوا على كل من ألف أغنية ، والقوا بهم في سجون القصر •

وفي صباح اليوم التالي جاء الخان ليرى الشعراء المساجين :

ـ حسناً • على كل واحد منكم أن يغني أغنية واحدة •

وبدأ الشعراء يغنون واحداً بعد واحد ، يمجدون الخان ، وفكره النير ، وقلبه الطيب ، ونساءه الجميلات ، وقوته وعظمته ومجده •

وقالوا في أغانيهم إن الارض لم تشهد قط مثل هذا الخان في عظمته وعدله •

واطلق الخان سراح من غناه من الشعراء • ولم يبق في السجن غير ثلاثة شعراء لم يستمع الى اغانيهم • وتركوهم في السجن ، وظن الناس أن الخان نسيهم •

ومع ذلك فقد عاد الخان بعد ثلاثة اشهر ليرى الشعراء المساجين :

ـ حسناً • على كل واحد منكم أن يغني أغنية واحدة • وجعل شاعر منهم يغني ويمجد الخان ، وفكره النير ، وقلبه الطيب ونساءه الجميلات وقوته وعظمته ومجده • وقال في أغنيته إن الارض لم تشهد قط مثل هذا الخان في عظمته وعدله •

وأطلق الخان سراح الشاعر • وبقي شاعران رفضا الغناء ، فامر الخان بنقلهما الى محرقة أعدت في الساحة العامة •

وقال الخان :

ـ سنلقيكما في النار • هذا إنذار نهائي : غنياني احلى اغانيكما •

ولم يستطع واحد منهما أن يتماسك • وجعل يغني ويمجد الخان وفكره النير وقلبه الطيب ونساءه الجميلات وقوته وعظمته ومجده • وقال في أغنيته إن الأرض لم تشهد مثل هذا الخان في عظمته وعدلـه •

وافرجوا عن هذا الشاعر ، ولم يبق الا واحد ، هو الاخير الذي أبى في عناد أن يغني •

وامر الخان :

ـ اربطوه بالجذع واشعلوا النار •

وعندئذ أنشد الشاعر ، وهو مربوط بالجذع ، أغنيته الشهيرة عن قسوة الخان واستبداده وجشعه ، تلك الاغنية التي كانت سبباً في كل ما حدث •

وصرخ الخان :
ـ فكوا حباله • أخرجوه من النار • أنا لا أريد أن أفقد الشاعر الوحيد الحقيقي في بلدي •

وقال أبو طالب معلقاً على الحكاية :
الحق أني لا أعتقد كثيراً أن هنالك خانات في مثل هذا الذكاء وفي مثل هذا النبل ، ولكن الواقع أن وجود بعض الشعراء من هذا النوع ضروري •

حدثني أبي قال :

سألت الشيخ شاملا العظيم يوماً بطانته :

ـ يا إمام • قل لنا لماذا منعت نظم الاشعار وتاليف الأغاني ؟

وأجاب شامل :
ـ أريد أن يبقى الشعراء الحقيقيون وحدهم هم الشعراء • لأن الشعراء الحقيقيين يستمرون في نظم الشعر مهما حدث ، أما الكاذبون ، أما المنافقون الذين يدعون أنهم شعراء فسيخافون ويسكتون لأنهم جبناء • وهكذا يكفون عن خداع الشعب وعن خداع أنفسهم •

ـ يا إمام • قل لنا لماذا ألقيت في النهر بقصائد سعد آراكان ؟

ـ يستحيل أن تلقى في النهر قصائد حقيقية • إنها تعيش في قلوب الناس • ولكن عندما تكون القصائد لا تساوي الورق الذي كتبت عليه ، عندئذ يحدث لها ما يجب أن يحدث • وعوضاً عن أن يكتب سعيد آراكان شعراً خفيفاً يحمله النهر معه يجب أن يشرع في كتابة شيء مفيد •

قالـوا :

عندما مات الشاعر الكبير محمود ، أخذ والده ، وقد سحقته المصيبة ، الحقيبة التي تضم مخطوطات محمود وألقى بها الى النار •
ـ احترقي أيتها الاوراق اللعينة التي كانت السبب في موت ولدي قبل أوان موته •
واحترقت الاوراق ولكن قصائد محمود بقيت على قيد الحياة • لم تنس من أغانيه كلمةواحدة• لا تزال أغانيه تعيش في قلوب الناس ، لا سلطان للنار ولا للماء عليها •

كان أبي يسخر :

من هؤلاء الذين يخافون العين فيسافرون في الليل سراً ، من هؤلاء الذين يملؤون معاجلهم

بالحصا ليظن الناس أن فيها خبزاً ، من الصيادين الذين يرجعون من الصيد يحملون زاغة عوضاً عن حجل •

حدثني أبو طالب قال :

هذه حكاية الفقير الذي يتخذ مظهر الغني •

كان أحدهم ياتي كل يوم الى الندوة وهو مسرور ، يبتسم ، وشارباه يلمعان من الدهن كانه قام الآن عن أكل حمل صغير طري اللحم • وكان يتبجح في صوت عال :

ـ آه • ما أسمن هذا الحمل الذي ذبحته اليوم عند الغداء • ما أطرى لحمه وما أطيبه •

وتعجب اهل القرية وتساءلوا •

ـ ومن أين ياتي كل يوم بحمل ؟ يجب أن نتحقق • وتسلق بعض الفتيان المهرة سطح بيته ونظروا اليه من ثقب في السقف معد لانطلاق الدخان ، ورأوا الرجل الفقير يغلي في قدر عظماً قديماً كان عنده من زمن بعيد ، ثم ياخذ من سطح القدر شيئاً من الدهن ويمسح به شاربيه • ثم يمضغ قليلاً من الصعتر لأنه لا يملك غيره مما يمكن ان يؤكل في البيت •

وهبط الفتية سريعاً من السطح ودخلوا الى منزله :

ـ السلام عليكم • كنا نمر من هنا فاغتنمنا المناسبة لنكون ضيوفاً عند رجل غني •

ـ لقد تاخرتم • الآن فرغت من أكل حمل سمين • كنت أهم بالخروج من البيت •

ـ قل لنا شيئاً خيراً من ذلك • من أين تقطف مثل هذا الصعتر الزكي ؟

وأدرك الرجل الفقير أن الفتيان عرفوا كل شيء ، وفقد شجاعته ، ومنذ ذلك اليوم لم يره الناس وشارباه يلمعان بالدهن •

أتــذكر :

عندما كنت صغيراً فرض علي أبي ذات يوم عقوبة قاسية • لقد نسيت طعم السوط منذ زمن بعيد ، ولكنني ما أزال أتذكر سببه •

تركت البيت صباحاً كأني ذاهب الى المدرسة ، ولكني في الواقع عرجت على درب صغير ثم على درب آخر ثم لم أصل الى المدرسة • ولعبت طول النهار بالطرة والنقش • مع أولاد الشارع • أعطاني أبي بضعة قروش لاشتري كتباً ، فضربت بها عدة ضربات ونسيت كل شيء في العالم • ورأيتني أضيع نقود أبي ، وبدأت أفكر : كيف أستعيدها ؟

اللاعبون في لعبة المصادفة عندما يضيعون آخر قرش معهم يشعرون أنهم لو وجدوا قطعة واحدة

ذات خمسة قروش لكانت لهم الغلبة ولاستردوا كل ما فقدوا ، بل لربحوا ربحاً وفيراً • وشعرت الشعور نفسه ، لو وجدت قروشاً قليلة لكانت لي الكرة عليهم •

وطلبت من الاولاد الذين ألعب معهم أن يدينوني • ولم يقبل أحد • ذلك أن الاسطورة تقول : اذا أقرضت مالاً في اللعب للاعب خاسر أضعت نفسك •

عندئذ اخترعت الحل الآتي : درت على منازل القرية وقلت : إن فرقة بهلوانية ستصل قريباً وإنها كلفتني جمع مال لها •

ماذا يكسب كلب متشرد جائع يجري من بوابة الى بوابة ؟ عصا أو عظمة ، هذا أو ذاك • وانا أيضاً لم الاق الا الاعراض ، ولكن بعض الناس دفعوا لي ، ولا شك أن ذلك كان احتراماً لأبي •
وبعد أن طفت في القرية عددت ما حصلت وعلمت أني أستطيع استئناف اللعب • ولكن المال الجديد لم يلبث أن لحق بصاحبه القديم • وزاد الطين بلة أن سروالي تمزق وتجرحت ركبتاي، لأن من شروط اللعبة أن من يخسر فقد وجب عليه أن يسير قافزاً على ركبتيه •

وفي أثناء ذلك افتقدني أهلي في البيت • وذهب أخوتي الكبار للبحث عني في كل القرية ، ورجال القرية الذين حدثتهم عن وصول البهلوانات الى القرية جاؤوا الى البيت واحداً بعد واحد يطلبون مزيداً من التفاصيل • وبكلمة واحدة كانت كل مغامراتي قد انتشرت ، بكل دقائقها ، عندما عثروا علي وقادوني وهم يجرونني من أذني الى البيت •

وقدمت الى أبي • كنت أخشى محاكمته أكثر من كل ما أخشاه في العالم • ورازني أبي من رأسي الى قدمي ، وبدت ركبتاي العاريتان ، الحمراوان وقد أصابهما الورم من الجراح كانهما وسائد من ريش تسد بها النوافذ في المنزل •

وسالني والدي ، وسحنته هادئة في الظاهر :
ـ ما هذا ؟

واجبت وانا أحاول ستر الخروق بيدي :
ـ ركبتاي ؟
ـ أنا أرى أنهما ركبتان ، ولكن لماذا هما مكشوفتان للهواء ؟

حدثني قليلا عما مزق سروالك ؟

ونظرت الى سروالي كاني أكتشف الآن بعض مافيه من سوء • تلك نفسية الكاذب المخادع : يعرف تماماً أن الكبار قد فهموا كل شيء ، وأن من العبث ومن المضحك أن ينكر ، ومع ذلك يحاول أن يتملص من الاجابة وأن يخترع ما لايعرفه الا الله •

وجعل صوت أبي يأخذ لهجة تهديد ووعيد • وجاء كل من في البيت لنجدتي وتحلقوا حولي ، وهم يعرفون طباع رب البيت • ولكن أبي أوقفهم بحركة من يده وسألني ؟

ـ إذن فأين مزقت سروالك ؟

ـ في المدرسة ••• علق بمسمار •••

ـ كيف •• كيف •• أعد •

ـ علق بمسمار •

ـ أين ؟

ـ في المدرسة •

ـ ومتى ؟

ـ اليوم •

وصفعني أبي صفعة رنانة •

ـ قل لي الآن كيف مزقت سروالك ؟

ولزمت الصمت فصفعني والدي صفعة ثانية على الخد الآخر •

ـ قل الآن •

وجعلت أبكي •

ـ اخرس • ومد يده الى السوط •

وتوقفت عن البكاء ورفع أبي ذراعه :

ـ اذا لم تقص علي فوراً كل ما حدث في الواقع أخذت السوط •

أنا أعرف هـــذا السوط ، وهذه العقدة في طرفه ، قاسية كأنها الحجر • وكان الخوف من السوط أكبر من الخوف من الصدق وقصصت بالتتابع كل مغامراتي منذ الصباح •

وحوكمت وحكم علي • وظللت ثلاثة أيام أتشرد كأني روح قضي عليها بالعذاب • كانت الحياة في المدرسة وفي البيت تجري في مجراها العادي في الظاهر ، ولكن قلبي كان في غير موضعه • كنت أشعر أن يوم التفسير الكبير بيني وبين والدي سيأتي لا محالة • ومع ذلك فقد كنت أتمنى في أعماق قلبي أن يتم هذا الحوار ، بل كنت أتمناه في لهفة • ولكن أصعب ما علي أن والدي كان لا يريد الحديث معي ، كان صخرة حقيقية تنتصب على رأس جبل •

وفي اليوم الثالث استدعاني أبي وأجلسني قربه ، وداعب شعري ، وسألني عدة أسئلة عن عملي في المدرسة وعلاماتي التي أحرزتها ، وفجأة سألني :

ـ أتعرف لماذا ضربتك ؟

ـ نعم أعرف •

ـ ولماذا ضربتك في رأيك ؟
ـ لأني لعبت بالدراهم •
ـ كلا ، ليس هذا هوالسبب • من ذا الذي لم يلعب منا عندما كان طفلا ؟ أنا أيضاً لعبت ، وأخوتك الكبار لعبوا •
ـ لأني مزقت سروالي •

ـ كلا ، ليس هذا هو السبب • من منا لـم يمزق سرواله أو قميصه عندما كان صغيراً ؟ نحمد الله أننا نفقد صوابنا حتى الآن ! ثم إنك لست بنتاً لتمشي دائماً في منتصف الطريق •
ـ لأني لم أذهب الى المدرسة •

ـ لقد كان ذلك خطا كبيراً ، كل مصائبك في ذلك اليوم أتتك من هنا • أنت تستحق من أجل هذا تقريعاً عنيفاً ، وكذلك من أجل سروالك الممزق ، ولعبك بالمال • ولكني في مقابل ذلك كان من الممكن أن أكتفي بشد أذنيك • ولكني ضربتك لغير هذا كله ، ضربتك يا ولدي بسبب كذبك علي • الكذب ليس أمراً يقع مصادفة ، وليس خطأ ولا هفوة ، انه سيماء تدل على خلق يمكن أن نكون له جذور • إنه عشب ضار في حقل روحك • اذا لم ينتزع في الوقت المناسبة من جذوره يمكن أن يملأ الحقل كله ، ثم لا يبقى فيه مكان صالح تنبت فيه حبة طيبة • ليس في العالم كله شيء أكثر هولا من الكذب ، إنه لا يمكن أن يطرد ولا أن يضرب • اذا كذبت مرة أخرى قتلتك • منذ هذه اللحظة لا تقل أبداً غير الحق والصدق • تسمي الحديد الاعوج حديداً أعوج • وتسمى عروة الجرة العوجاء عروة الجرة العوجاء ، والشجرة الملتوية شجرة ملتوية •

هل فهمت هذا ؟
ـ نعم • فهمت •
ـ إذن فاذهب •

وخرجت وانا اقسم إني لن أكذب أبداً • وفوق ذلك فقد عرفت أني إن لم أنفذ ما وعدت به ، فان أبي سينفذ وعيده ويقتلني مهما كان مقدار حبه لي •

وانقضت سنوات طويلة وقصصت قصتي هذه على صديق لي •
وصرخ بي :
ـ كيف • ألم تنس هذه الكذبة الصغيرة ، هذه الكذبة التافهة ؟

وأجبتـه :
الكذب هو الكذب ، والصدق هو الصدق • لا يمكن أن يكونا صغيرين ولا كبيرين • هناك الحياةوالموت•لايمكن لهما أن يتعايشا معاً•أحدهما يطردالآخر•وكذلك الامر بالنسبةللصدق والكذب•

الكذب هو العار ، والطين ، والقذر • والصدق هو الجمال والبياض والسماء الصافية • الكذب هو النذالة والجبن ، والصدق هو الشجاعة • هذا أو ذاك ، ليس بينهما حد وسط •

واليوم عندما أقرأ مؤلفات كاذبة لمؤلفين كاذبين أتذكر سوط أبي • كم كان هـذا السوط مفيداً ؟ وكم كان هؤلاء في حاجة الى أب قاس ينذرهم في اللحظة الحاسمة : « اذا كذبت قتلتك » •

أوه هل الكذب هو وحده الذي لا يحل به عقاب ؟ أليس هناك حالات عوقب بها الصدق نفسه ؟ هـل هي قليلة في التاريخ الأمثلة التي تتحدث عن اناس تألموا باسم الصدق ؟ والذين هددوا بالسوط بسبب الصدق ؟

في طفولتي كنت أحتاج الى كثير من الشجاعة لأتخلى عن الكذب وأنحاز الى الصـدق • ولكني كنت أشعر كلما فعلت ذلك أن عبئاً ثقيلا ينزاح عن صدري ونحن نحتاج الى قسط أوفر من الشجاعة لكيلا نتخلى عن كلمات الصدق • لأننا اذا فعلنا ذلك لم نشعر بالراحة ، بل شعرنا بالآلام المخيفة ، بآلام الضمير •

إن الرجال الحقيقيين لا يبدلون أبداً قناعاتهم • يعرفون أن الارض تدور • يعرفون أن الشمس ليست هي التي تدور حول الارض ، بل ان الارض هي التي تدور حـول الشمس • يعرفون أن الصبح يعقب الليل حتماً ، ثم يأتي النهار ثم يعود الليـل ••• وأن الربيع يحـل محل الشتاء ثم يأتي الصيف الجميل •

نستنتج من ذلك أخيراً أن سوط الضمير ، سوط الشـرف ، سوط الصدق يقرع الكاذبين والمنافقين ، وأن الكذب لا يمكن أن ينتصر على الصدق مدى الدهر •

سمعت ذلك في ندوة القرية :

ـ ماهي المسافة الفاصلة بين الصدق والكذب ؟
ـ مقدار أنملة •
ـ وكيف كان ذلك ؟
ـ لأن مسافة ما بين الاذن والعين أنملة •

إن ما تراه بعينيك هو الصدق ، وما تسمعه باذنيك هو الكذب •

كل ذلك صحيح • ومن الخير للانسان أن يرى مرة واحدة من أن يسمع مائة مرة • ولكن على الكاتب أن يغترف الصدق من كل مكان ، مما رآه ومما سمعه ومما قرأه ، ومما عاشه هو نفسه •

(٣٢) الاصل : فيركوك ، وفي الحاشية مقياس يساوي طوله ٤ر٤ سم •

هل يمكن للانسان أن يثق بعينيه وحدها ؟ انه يرى الحياة بعينيه ، ولكنه يصغي الىالموسيقى، يقرأ تاريخ بلاده ، أما بعض الكتاب فلا يضعون في المقام الاول عيونهم ولا آذانهم ، ولكنهم يؤثرون عليها حاسة الشم لديهم •

يجب أن يكون للكاتب يدان قويتان قادرتنان على القيام بكل عمل ، وقدمان راسختان وأسنان متينة ولكن عليه أيضاً أن يمتلك الذكاء والمعرفة ليستطيع أن يميز بين الكذب والصدق • بين الذهب والرقائق الرخيصة ، بين الحبة والحصوة في كل مايسمعه أو يقرؤه • والانسان دون ذكاء ولا معرفة لا يمكن أن يطمئن الى ما تراه عيناه •

سكان بعض القرى الجهلاء ، الذين لم يروا الذهب قط ولكنهم طالما سمعوا الحديث عنه ، وجدوا ذات يوم صندوقاً ثقيلا جداً • فقال بعضهم لبعض « انه من الذهب ما دام ثقيلا الىهذا الحد•» وتنازعوا على الغنيمة وقتل بعضهم بعضاً ثم تبين لهم أن الصندوق من نحاس • العبقرية نار • ولكن النار في يد الأحمق يمكن ان تاتي على كل شيء • الذكاء هو الذي يديرها • الذكاء يسرج حتى الجمال ، كما يسرج الفارس الماهر الحصان الثائر •

سالوا جبلياً : أيهما تفضل ؟ جمال الوجه أو حكمة الكهل ؟

الأحمق يختار وجهاً جميلا ويبقى أحمق • والخطيبة تهجر الأحمق وان كان جميلا • الذكي يختار الحكمة ويعرف بفضل حكمته كيف يحتفظ بزوجته الى جانبه • وهذا ما حدث في الحكاية التي ذكرت أن من اختار الحكمة نجح في وضع جميلته على سرج حصانه البحري • ويتحدثون في الحكايات أيضاً عن ثلاثة اخوة ، وثلاث طرق وثلاث نصائح حكيمة • فمن سمع هذه النصائح عاد الى بيته والى أهله ، ومن لم يسمعها ترك رأسه في ديار الغربة •

أوه يا سمكتي الذهبية : هبي لي بعض العبقرية • هبي لي بعض الدأب ، هبي لي قلباً صادقاً نشيطاً مثل قلب شاب ، وحكمة باردة مثل حكمة شيخ ، ساعديني على اختيار طريقيالصحيحة• لتكن هذه الطريق ملأى بالحصا ، كثيرة العثار ، خطرة ، ولكني لا أريد أن أزحف كالحية من طرف الى طرف •

يتساءل الجبليون : « لماذا كانت الافاعي ملتوية ؟ » ويجيبون أنفسهم : « لأن الجحور والثقوب التي تضطر الأفاعي الى المرور فيها ملتوية » • أنا انسان لا أفعوان ، أحب الاعالي ، الصفاء ، الطرق المستقيمة •

احفظيني من المرض والرعب ، والمجد والافكار الخفيفة •

احميني من النشوة لأن الانسان يرى في النشوة ماهو جيد جيداً أكثر مما هو مائة مرة •

احميني أيضاً من البلادة لان الانسان يرى في البلادة ماهو سيء سيئاً أكثر مما هو مائة مرة •

أعطيني إحساساً بالحق والصدق حتى استطيع دائماً التمييز بين الامور الملتوية والامور المستقيمة ، ثم أن أقول ذلك دون خوف ٠

ـ « كل ما في العالم شر ، كل ما في العالم فوضى »
قال ذلك الشاعر قبل أن يغادر هذه الدنيا ٠
ـ « العالم رائع ٠ » قال ذلك شاعر آخر ٠
وهو يغادر الدنيا في زهرة العمر ٠

شاعر ثالث ، وهو يغادر هذا العصر الخبيث
وكان يحمل اسم الشاعر الكبير الخالد ،
كان يسمي ماهو سيء جداً سيئاً
وماهو جميل ، جميلا

ذات يوم علق جبلي في أذني بقرته قرطين ليستطيع بهما تمييزها عن سائر البقرات ٠ وذات يوم علق جبلي في عنق حصانه أجراساً لكيلا يختلط بحصان جيرانه ٠ ولكن الفارس الذي لا يعرف حتى في الليل الأليل حصانه المفضل فارس سيء جداً ٠

هذا هو كتابي ، لا أريد أن أعلق عليه قروطاً ، ولا أجراساً ولا زخارف ٠ فانا لا يمكن أن أخلطه بكتب اخرى كتبتها أنا أو كتبها غيري ٠ أيمكن ألا يختلط على غيري من الناس ٠ أيمكن أن يقول من يقرؤه فوراً ، حتى اذا كان غلافه منزوعاً ، إن هذا الكتاب كتبه رسول ، ابن حمزة ، من قرية تسادا ٠

يقولون :

الشجاعة لا تحتاج الى صخرة عالية ٠

★ ★ ★

ترجمها إلى الفرنسية :

سفيتلانا وماكس ليون

عدد تشرين الاول ١٩٦٨

من مجلة : آثار وآراء

« الآداب الأجنبية »

من خلال المجلات والصحف والقراء

لقاء مع الدكتور أحمد سليمان الأحمد

حول مجلة « الآداب الأجنبية »

منذ أمد بعيد شرع اتحاد الكتاب العرب في دمشق باصدار مجلة فصلية جديدة من نوعها ، هي مجلة « الآداب الاجنبية » التي يشرف على تحريرها الدكتور أحمد سليمان الاحمد • وصدور هذه المجلة حدث ثقافي له أهميته دون شك ، فهي أول مجلة عربية تتخصص في نقل الادب الاجنبي بصورة منتظمة الى القراء العرب وتحاول أن تكون مرآة لحركة الادب والفكر الجمالي والنقدي في العلم المعاصر • وقد صدر من هذه المجلة حتى الآن عددان ، وبين أيدينا عددها الثاني الذي يضم أكثر من ثلاثمائة صفحة ويشمل أعمالا لادباء وباحثين من مختلف الجنسيات •

وفي بهو فندق بوريفاج ، حيث تنعقد ندوة المجلات الادبية والثقافية الآسيوية ـ الافريقية ، التقينا رئيس تحرير المجلة ، الدكتور أحمد سليمان الاحمد ، وأدرنا معه هذا الحوار :

● متى ظهرت فكرة هذه المجلة الى الوجود وما هي الدوافع التـي حدت باتحاد الكتاب العرب الى اصدارها ؟

ـ فكرة صدور هذه المجلة الحت علي منذ فترة بعيدة ، وكنت في كل مرة أزور فيهـا بعض البلدان التي تصدر مثل هـذه المجلة أتحدث الى العاملين فيها حول جميع ما يتعلق بها من قضايا انتقاء المواد وترجمتها والخطة المعتمدة في العمل ، ولما كنت مؤمنا بالمهمـة التي يمكن للترجمة أن تنهض بها ازاء قارئنا العربي بشكل عام ، فقد اقترحت على المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب هذه الفكرة بعد أن قدمت دراسة تفصيلية بشأنها وجاءت الموافقة سهلة ، وهكذا تم صدور العددالاول، ولا شك انه كانت هناك نواقص ما تـزال قائمة ، ولكننا نجتهد في تلافي ما أمكن في كل عدد جديد •

ولضرورات متعـددة فان المجلـة تصـدر

حالياً مرة كل ثلاثة أشهر ، على أمل أن يصدر منها في عامها الثاني - أي بعد صدور العدد الرابع - عدد كل شهرين مع طموحنا الى جعلها شهرية في بداية عامها الثالث •

● المجلة لا تستوعب طبعا الا جزءا يسيراً مما يصدر في العالم من اعمال أدبية ودراسات نقدية جديرة بالنقل الى العربية ، وهذا يعني بالتالي أن مواد المجلة تخضع لانتقاء دقيق ، فما هي الاسس والمقاييس التي يتم بموجبها انتقاء المادة للترجمة ؟

- صدور مثل هذه المجلة لا ينفي ضرورة الترجمة في غيرها من المجلات ، ولكن مجال اختصاصها يملي عليها واجبات دقيقة وكثيرة، فعليها أن تحسن الاختيار موضوعيا وجماليا ، وعليها أن تهتم كثيرا بالامانة للنص وبدقة نقله • وباستطاعتي القول اننا اجتزنا مرحلة الامتحان العسير بما يمكن له أن يجعلنا نواصل مسيرتنا بمزيد من الثقة • للمجلة بالطبع سياستها الثقافية فهي تنفتح على جميع آداب العالم ويهمها أن تنقل منها ما يكون مفيداً من حيث فكره وفنيته • وقد لا تتجاهل احيانا بعض البدع الادبية ، ولكنها لا تحاول أن تجعل من نفسها بوقا أو وسيلة لهذه البدع، كما انها تهتم بالتراث العالمي وبالدراسات التي تعالج هذا التراث من وجهة نظر تقدمية وعلمية ، لاننا لا نؤمن بالانفصال في الثقافة وانما باستمرارية التطور الثوري ، فثقافتنا الفنية التقدمية المعاصرة ستغدو يوما ما تراثا، وبهذا المفهوم ننظر الى التراث العالمي السابق•

المجلة والتراث العالمي

● الملاحظ في الحياة الادبية المعاصرة أن الادب والفنون ذات المضمون التقدمي تميل الى التشبث باشكال التعبير التقليدية ،وبالمقابل فان قادة الثورة الشكلية في الفن المعاصر ينتسبون اجمالا الى الفكر البورجوازي المنحل، وفي مضمار الادب بالذات يمكن الاستشهاد بصاموبل بيكيت ويونسكو مثلا • فما هو موقف مجلة « الآداب الاجنبية » في هذا الصدد ؟

- لا أريد أن أكون توفيقيا في عالم الفن أو الادب ، ومع ذلك فانا شخصيا لا أؤمن الآن بوجود هذه المدارس المتمايزة تماما ، ذاك عهد انقضى مع انقضاء القرن التاسع عشر ، فهل يعني هذا اننا نعمد الآن في أدبنا الى نوع من التوفيق بين هذه المدارس ؟ الحق أن قوة جذب الثورة الشكلية في الادب المعاصر قوة طاغية في المرحلة الحالية على الاقل •• وتعرف الاوساط الرجعية في الفكر - لكي لا نقول ، وفي السياسة أيضا - كيف تمهد السبل لمثل هذا « اللمعان » إلا أنه لا بد للفكرة المفيدة من ثوب عصري • كذلك كانت رسالة من تقدمنا في آدابنا العربية وفي الآداب العالمية عموما ، وهكذا يجب أن تكون رسالتنا • ولكن الفكرة هي التي تملي شكلها ضمن عوامل المحيط والعصر • هذا رأيي الشخصي في الابداع ومع ذلك فانا لا أحاول أن أفرض منظوري الخاص على ما ينشر في المجلة ، وان كانت هناك سياسة عامة لا محيد عنها للمجلة ، وهي أن يكون للشكل الجديد محتوى اجتماعي وانساني تقدمي •

حول الشعر المترجم

■ لدي سؤال فيما يخص ترجمة الشعر، وأنا أعرف أنك شخصيا نقلت أعمالا شعرية

أجنبية الى العربية ، ومن المؤكد انك لاحظت أن الترجمة تتضمن في كل الاحوال شيئا من الجور على النص الشعري الاجنبي .. فما هو منهج المجلة في نقل الشعر الاجنبي ؟

— في العدد الاول من المجلة كتبت مقالا حول هذه الفكرة نفسها كمقدمة لترجمةشعرية لقصيدة طويلة كتبها شاعر رومانيا الكلاسيكي الاكبر ميخائيل ايمينسكو . وخلاصة رأيي أن الترجمة الشعرية من الافضل أن تتم على يد شاعر . ومن المؤسف حقا ، ومن خلالتجربتي فيمجلتنا وغيرها ، أنالمترجمين عموما يستسهلون الترجمةالشعرية فيقدمون عليها وكانهميقدمون على ترجمة خبر سياسي في جريدة . وكم من مرة انتقيت قصة او بحثا وأعطيتهما لمن اتوسم فيه الخير في الترجمة فعاد الي بعد أسبوع او أكثر ، وهو يحمل ترجمات شعرية معتذرا عن ترجمة ما أعطيته اياه ، وبالطبع يكون ردي رفض ما قدمه ، لانه انما نظر الى القصيدة باعتبارها مجموعة صغيرة من الكلمات . وبهذا المفهوم فان ترجمتها تكون أسهل .

ان الترجمة الشعرية عملية صعبة ، ولا اقصد بها نقل الشعر شعرا ، ولكن نقله بصيغة لها من الشعر جرسه ولفظتهالمناسبة. وقد قمت بتجربة في المجلة عمدت فيها الىقصيدة رومانتيكية مشهورة للشاعر الفرنسي لامارتين، وهي « البحيرة » ، فقدمتها مترجمة شعرا على الطريقة الخليلية بعد أن قام بترجمتها احد شعرائنا السوريين ، ثم عمدت الى تقديم هذه القصيدة نفسها في ترجمة نثرية لها من الشعر مزاياه الاساسية . وتركت للقراء مجالا للحكم على ذلك . وبالطبع انا من انصار الترجمة الثانية ، ولكن من المؤسف أن بعض النقاد لم يفهموا من هذه التجربة الا أني أقدم ترجمة جديدة لقصيدة قديمة استهلكتها الترجمات .

جريدة « المحرر » البيروتية
١٩٧٤/١٢/٧

● وكتبت جريدة « لوريان — لوجور » في عدد السبتالممتاز عن سورية ، ٢٥ـ١ـ١٩٧٥، ما يلي :

« الآداب الأجنبية » مغامرة تدعو للاهتمام سنتحسس أثرها ، بلا شك ، في مستقبلقريب. صدر منها حتى الآن ثلاثة أعداد باربعة آلاف نسخة ، كل عدد . واقدر انا ، انه أخذا بالانفتاح السياسي والاقتصادي لسوريا على العالم ، قرر اتحاد الكتاب تاسيس مجلة مكرسة فقط لترجمات الشعر والقصص والدراسات الاجنبية . وقد وجدت فيها كثيرا من الاشياء الهامة : آخر أشعار فرلنغيتي ، وقصائد مترجمة عن البلغارية ، والروسية ، والرومانية ، ونصوص انكليزية ، وأعمال من الادب الالماني ، ووليم غاس ، وجورج أمادو (من البرازيل) .

والمترجمون هم اما أساتذةمن جامعةدمشق، وإما شعراء وكتاب يعرفون أدبا أو عدة آداب اجنبية .

وأعداد المجلة كما قيل تنفد بسرعة . وستصدر المجلة عما قريب مرة كل شهرين . إنها ، إذ تضع الكتاب الشباب والطلاب على صلة مع أكثر النصوص تنوعاً ، ستسهم في تجديد الأدب السوري .

ايتيل عدنان

تجربة « الآداب الأجنبية »

العدد الاخير من مجلة « الآداب الاجنبية » الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب ، يقدمنموذجا متميزا لما ينبغي أن تكون عليه المجلةالثقافية• فقد استكملت « الآداب الأجنبية » باعدادهـا الثلاثة التي ظهرت حتى الآن ملامح خطة عمل تحاول الالمام بجميع الثقافات العالمية ، وعلى صعيدالاجناس الادبية المختلفة من قصةوقصيدة ومقالة ، بحيث يمكن بعد فترة من الزمن أن يجد القارىء العربي المعاصر نفسه في داخـل تجربة الادب العالمي بوجهه التقدميوالانساني، دون أن يحتـاج الى الاستعانة بلغة اجنبيـة لا يتقنها الاتقان الكافي في معظم الاحيان •

واذا كان من معاني المعاصرة الاساسية ، الاتصال بثقافة العصر بمعناها الزمنيوالفني، فان من المؤكد أن هذه المعاصرة ماثلة ـ بمقادير متفاوتة طبعا ـ في مجمل الاعداد التي صدرت عن (الآداب الأجنبية) • وبعبارة أخرى فان المعاصرة بهذا المفهوم تشتمل على معنى الحداثة الزمنية بالاضافة الى الحداثة الفنية •ويصبح (هوميروس) على هذا الاساس معاصرا كل المعاصرة ، ما دامت (الالياذة) تطبع من قبل دور النشر القائمة حاليا باعداد تتجاوزالملايين•

ان التعايش بـين التيارات الفنية يغـدو مثلا لتواصل مفترض في الادب العالمي •فليس في الادب قدم أو جدة وانما هو وحدة فنية تطرد خارجها كل ما هو رديء وتحتفظ بكل ما هو جيد • وبالتالي فان التنهيج في تجربة (الآداب الاجنبية) قد أخذ بالاعتبار هذا المفهوم للأدب، بحيث يستوعب جميع آفاق هذه التجربةالشاملة على مر العصور ، دون الانحياز الى تيار دون تيار آخر • ان القارئ من هذا المنطلق هو الحكم • ان الأدب موجه اليه ، وما دام يقبل على قراءة (المتنبي) مثلما يقبل على قراءة (السياب) و (اليوت) و (ماياكوفسكي) فان من العسف كل العسف الزام القارىءبتيار فني معين أو القيام بدور الوصاية عليه •

وهكذا تتحاور افضـل منجزات التيارات الأدبية المختلفة على مر العصور ، وتبرز نقاط التقاطهـا ونقاط تعامدها ونقاط تعارضهـا لتقدم للقارىء مفهوما متصل الجذور بتجربة الأدب الشاملة ، ويتحقق بذلك معنى المجلـة التقدمية المتميزة •

وعندما يتحقق هدف (الآداب الأجنبية) الذي يرمي الى تقديم أعمال أدبيـة كاملة ، ولتكن أعمالا روائية على سبيل المثال ، فان تجربة المجلة تكون قد استقرت وتبلورت على أسس تكفل لها أداء رسالتها عـلى النحـو المطلوب •

« المحرر الثقافي »
لجريدة « البعث » ٧٥/١/١٩

« الآداب الأجنبية »
في عددها الثالث

في العدد الثالث الصادر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق من مجلة الآداب الأجنبية قفزة جديدة وخطوة وضاءة على طريق التطور ضمن التخصص الذي التزمت به المجلة منذ عددها الاول • يبشر بكثير من الخير • ويدعو الى كثير من الغبطة والتفاؤل •

صار الجميع يعلمون أن الآداب الأجنبية مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة شهور ويرأس تحريرها الشاعر المعروف الدكتور احمد سليمان الأحمد الذي أصر كما يبدو ومن هذا العدد بالذات على ترسيخ أسس مجلة منفردة وذات صبغة أدبية تسمح لها بأن تكون الاولى من نوعها على امتداد وطننا العربي كله• وقد تستقطب قراءها وتشدهم من بين ركام المجلات الكثيرة جداً والتي لا يحصرها عدد في لغتنا •

من هذا العرض السردي لمحتويات العدد تبين لنا ان المجلة لا تنوي التوقف عند حدود التحققات الاولى التي أنجزتها في عدديها السابقين • وان طموحها كبير جدا يشغل القائمين عليها لبذل المزيد من الجهد والسهر لتكون فعلا أول مجلة من نوعها تقدم للقارىء العربي جانبا من الفكر الادبي العالمي بفرعيه الابداع والنقد • فهي مقسومة كما رأينا لتوصيل هذين الجانبين الهامين او جناحي الادب كما يقول توفيق الحكيم عن الابداع والنقد• فحسن الاختيار والانتقاء واضح الى حد ان القارىء لا يستطيع أن يمر على مادة دون أن يقرأها •

والتنوع واضح في تقديم مواد المجلة حيث يلم القارىء بأطراف ملونة من آداب العالم المعاصر بين اليابان شرقا وأمريكا غربا • مع الحرص على النقل من عدد من اللغات - الانكليزية - الفرنسية - الروسية - الالمانية - الاسبانية - البورتغالية - •

ولعل أهم ما يميز هذه المجلة في عددها الاخير هو الحياد أي أنها حرصت على تقديم وجبات أدبية دسمة من عدد من اقطار العالم المعاصر دون أن تتدخل وهذا أقصى ما يطالب به المثقف العربي الذي زكمت أنفه الاقلام الجاهلة وغير المسؤولة في تشويه أدب العالم عن طريق نقد فج لا يعتمد على آية ثقافة أو معرفة أدبية •

تظل لنا ملاحظة لعل طموحنا بتطوير المجلة يدفعنا الى ابدائها • ولتكن الى الشاعر الدكتور أحمد سليمان الاحمد وهي : لماذا تهمل المجلة التي نعتبرها فاتحة خير كبير لماذا تهمل المسرح ؟ وهل يخالفنا احد في أن حاجة الاديب العربي المعاصر الى قراءة نماذج مسرحية عالمية متطورة أكبر من حاجته الى قراءة الشعر والقصة والنقد ؟ لا نظن ذلك • ونعلم أن المسرح أصبح يشكل طرف الثالوث الابداعي - الشعر - القصة - • خاصة وان الادب العربي يمر بمرحلة تدجين فن المسرح ليصبح كما في أدب العالم طرفا من أطراف أدبنا الرئيسية •

مجلة « الرسالة » الكويتية
العدد ٦٥٢

هـذه المجلة قفزت بهذا العـدد الثاني الى أن تصبح أهم المجلات الادبية العربية التي صارت نافذة مشرعة للمثقفين العرب ويطلون منها عـلى أعمال الكتاب الاوروبيين رغم أن الدور الاساسي في اهميـة الترجمة يعود الى المترجم الذي قـد يتصرف بالموضوع المترجم عـلى هواه •

مجلة « أفكار » ــ الاردن
العدد (٢٦)
كانون الثاني ١٩٧٥

وقد كتب المحرر الثقافي لصحيفة «البلاغ» اللبنانية في العدد « ١٦٢ » تاريخ١٧/٢/١٩٧٥ مـا يلي :

عن اتحـاد الكتاب العرب في دمشـق صدر العدد الثالث من المجلـة الفصلية « الآداب الأجنبية » التي يرأس تحريرها الدكتور أحمد سليمان الاحمد •

● « الآداب الأجنبيـة » استطاعت بعد صدور ثلاثة أعداد منها فقط أن تفرض نفسها كاحدى أرقى المجلات الأدبية في العالم العربي، فقد بدأت تلعب الدور المنوط بها على أكمل وجه • ويتماثل هـذا الدور بشكل أساسي بتعريفنا على الآداب الأجنبية من خلال رؤيـة عربية وتقدمية صافية لا أثر فيها لعقد النقص والغربة والتقليد •

« علينا أن نلجأ الى الاختيار الموضوعي ــ الجمالي الى تقديم مافيه فائدة • • • • • • وهذا الجمهور الثقافي هو الذي يلعب دوراً متعاظماً أوليا خاصة في بلداننا ••• »

هذا ما جاء على لسان رئيس التحرير في مقدمة العدد الثالث وهو يرسم الخط الذي تحاول أن تسير عليه هذه المجلة الناشئة •

وقـد ضم العدد عـدداً من الدراسات الجيدة من بينها دراسة حول «الروايةوالمجتمع» لميشيل زيرافا ، ودراسات أخرى في « الواقعية ــ جوهر النموذجيـة وأشكالها في الواقعية » ودراسة ثالثة حول النقد المقارن أعدها يوسف اليوسف ، ودراسـة رابعة بقلم كرابشنكو تعالج موضوع « التقدمية في الادب والفن » •

ومن المواد الادبية دراسة حول « شعراء الكومونة » وترجمات شعرية من كندا وامريكا وقصص من بلغاريا واليابان والمانيا وهنغاريا والبرازيـل وتحليـل للتراجيديـا الاغريقية القديمة ومواد اخرى متنوعة •

وتحت عنوان شمعة من عمر « الآداب الأجنبية » كتب الاستاذ خالد محي الدين البرادعي في العـدد ٦٦٣ مـن مجلة « الرسـالة » التي تصـدر في الكويت يقـول :

في الكتاب الرابـع الذي انتهت بصدوره مجموعة السنةالاولى من مجلة الآداب الاجنبية الجديدة والمتفردة ، علامة وأكثر من علامات الغبطة والرضا والتفاؤل ، واشارة وأكثر الى أن بعض مثقفينا على امتداد رقعة هـذا

الوطن الاخضر ينذرون ثقافاتهم دون ادخار الخاص منها لخدمة المجتمع كله ، وانهم متحفزون دائما لتحمل مسؤولياتهم التاريخية كحملة مشاعل ونذر ربيعورسل خير وناشري كلمة طيبة .

وكانما قدر لهذا العدد الكتاب بالذات والذي يحمل الرقم ٤ وبه تنتهي السنة الاولى .. ان ياتي متكاملا او قريبا من الكمال . ونضع اشارات التقريب لا الجزم حتى لا نقع في مغبات المبالغات ، ونحن نمقتها .

كان آخر عدد صدر من الآداب الاجنبية ، فيه تواشج الاجناس الادبية ، وتلاحم المنازع والمناهج وتعدد الاصول والمنابع في مجال الادب العالمي من قصة وشعر ونقد وتاريخ .منقولا كله عن خمس لغات وأكثر . وبعد قراءة العدد ذاك المحنا الى النوع المفقود من المجلة ، باشارة لوحنا بها أمام رئيس تحريرها الشاعر المجدد والناقد المثقف الدكتور أحمد سليمان الاحمد . وكان النوع المفقود منها هو المسرح نصا ونقداً .

وجاء العدد الاخير من السنة الاولى بصفحاته الثلاثمائة ليوجد النوع المفقود ، ويسترد النفس الضائع . ويغلق الدائرة على شبه التكامل التام في مجال نقل الشوامخ او بعض الشوامخ من آداب العالم الذي نحن جزء من تكوينه وتاريخنا بعض من حركته وشعبنا فصيلة من انسانه .

فهو بالاضافة الى الشعر الذي نقله المهتمون في دفع « الآداب الأجنبية » عن اليوت ممسك سندات التجدد في الشعر الانكليزي والعالمي المعاصر ، وعن ميشيل دي غيه أحد شوامخ القريض الفرنسي المعاصر ، والقصة عبر حركات تجددها وتطويرها بين الشرق والغرب فنقل الناقلون انماطا منها . والنقد في منازعه ومشارب أهله بين تفسير وتحليل نفسي وسرد تاريخي وتاريخ واضاءات ملتهبات امام الابداع الادبي . بالاضافة الى كل هذا تقدم لنا المجلة مسرحية للكاتب الالماني « جورجكايزر » وبانتزاع هذا العمل المسرحي عن أصله الى صفحات الآداب . تتكامل أبوابها وتتآلف اغصانها لتغيب شمعتها الاولى ولها في ذاكرتناالنصيب الاوفى من التقدير .

وخلال قراءتنا لاعدادها السالفة ، واكتشافنا بديهة لا تغيب ، هي وحدانية هذه المجلة وتفردها بين عشرات مجلات الضاد بنزوع خاص ونفس خاص ونكهة لا تقاربها الاخريات ..

جال في الذهن سؤال ما كنا لنجرؤ على طرحه ، لماذا لا تكون هذه المجلة شهرية تخترق مثل السهم صفوف المجلات المتراصة طولا وعرضا على أرض هذا الوطن .. ما دامت واحدة لا تغيب في زحام المجلات الكثيرة؟ بل الذي ايقظ هذا السؤال هو حاجتنا المرحلية الملحة لمثلها . فالمترجمون كثروا بين الامين الذي ضاع صوته ، والمزور الذي

راجت بضاعته ، وأصبح متذوق الادب ملهوفا أكثر الى قبس يضيء له اوسع مساحة ممكنة من آداب العالم ، خاصة ونحن ابناء عصر لا تجدي العزلة فيه • وبكثير من الامانــة التي تمنح الثقة او تجتذبهـا من الاخرين فيقـراون وهم مطمئنون الى أن ما يلقـى أمامهم من احمال الثاقات صرف كما أبدعه أهله • لا خمرا أفسدها الماء العكر •

وفي مقدمة هذا العدد يقول الدكتور الشاعر أحمد سليمان الاحمد ما معناه : ان التفاف القراء حول المجلة ومسؤوليات أصحابها أمام ثقة قرائها فيها دفعتهم الى الامام دفعة اوسع ليقدموهـا مرة في الشهرين بدلا مـن المـرة الواحدة في الشهور الثلاثة •

اذن بعض الامل الذي راودنا قد تحقق ، والمجلة التي جاءت تسعى الينا أصبحنا نحن نسعى اليهـا وأيدينـا عـلى الصـدور كمن استرد نفسه بعد لهفة الضياع والخوف من الضياع •

مجلة الاداب الاجنبية مولود تخطى عامـه الاول ، لنبـارك لـه •• وننتظر الشمعـة الثانيـة •

« كان صدور مجلة تعني بالآداب الاجنبية عملا ثقافيا بارزا واطلالة مشرقة على العالم• وكانت الخشية أن يصاب المولود الجديد بعدوى التهافت على الجديد لجدته وحسب ، وحرمان القاري من الدراسات الجيدة النافعة عن الآداب الاجنبية ، حديثها وقديمها ، والآثار الادبية الخالدة من كافة الاقطار والعصور سواء أكانت تمثل (موضة) أو (تقليعة) أم لا •

••• ان الدعوة الى اهمال روائـع أدب الانسانية بداعي الحداثة هي دعوة الى الجهل• وكيف يا تـرى تكـون الحداثـة • أليست بالدراسة الجادة المتعمقة لروائع الآداب العالمية وفي كافة عصورها وتفاعلها مع الذات والبيئة •

أتـراه الكسل الذي يدفـع بالبعض الى اللهاث وراء التيارات الحديثة محاولين تقليدها مع جهالة كاملة عن الأدب • ولماذا نغدق الاموال إذن على ترجمة روائع تولستوي ودوستويفسكي وشكسبير ثم لا نريد من مجلة «الآداب الاجنبية» أن تغنينا بكتابات نقدية جادة دالة على حسن تذوقها وفهمها •

•• وحقاً أن المعجزة الادبيـة هي التـي تتخطى حدود الزمان والمكان واني أرى أن مجلة « الآداب الاجنبية » لا يمكن أن تعزف عن تقديم الروائع الادبية لتتحول الى مجلة أزياء فتعنى بكل جديد وتلاحق من بعده الأجد منه لتكون دائماً عـلى صلة بآخر « تقليعة » تفرزهـا تفسخات بعض أوساط المجتمعات الغربية •

محمد الجبريني

جريدة « البعث » ــ دمشق

صفحة « الاسبوع الثقافي » ١٩٧٤/٩/٣٠

•• في العصر العباسي عاشت حركة الترجمة عصرها الذهبي وكان (انتقاء) الكتب القيمة التي تغني الفكر الانساني أول خطوة لكل مترجم لا بد منها ، تتم بعد دراسة عميقة لمدى النفع الادبي والفكري للكتاب المترجم ، بحيث يشكل رافداً ثراً لحركة الادب والفكر ، والترجمـة كما وصفها بوشكين « أصعب الفنون الادبية وأكثرها جحوداً » لما تتطلبه من وعي كامل بالمادة المترجمة ، وتفهم عميق لنفسية الكاتب و « أرضيته الفكرية » أي أن « الدافع » الى

ترجمة الاثر الادبي أو الفكري هو اغناء حركة الادب والفكر ورفدها بنتاج جديد • واذا نظرنا الى الترجمة في نهضتنا الادبية المعاصرة نلمس غياب الدافع المذكور لدى بعضهم فالمترجم أحياناً لا ينظر الى اغناء عقول الناس بآداب جديدة بقدر ما يتطلع الى ترجمة ما يناسب ميوله الذاتية التي قد لا تتفق مع المصلحة الفكرية للمجموع الذي وجدت من أجله أصلا الحركة الادبية والترجمة •

ويصر بعض الكتاب على الابتعاد فكراً وقلماً عن مجرى التغيير الاشتراكي والنهضة القومية فيكرسون وقتهم وعقلهم وقلمهم في انتاج أو ترجمة ماهو بعيد عن مجرى التغيير الثوري ، ورغم أن الأدب الاشتراكي يعيش تجدداً خلاقاً كل يوم وينطلق بكافة اللغات الحية فهو في حركتنا الأدبية لم يثبت حتى الآن وجوده الفعال •

مجلة الآداب الأجنبية رفدت فكرنا الاشتراكي وأغنته بالرواية البلغارية الرائعة (الأرض) •

عبد الحميد قصبجي

«الثورة ــ العدد ٣٥٥٣ الخميس ١٩ـ٩ـ١٩٧٤»

« مجلة الآداب الأجنبية التي برزت في خضم الحركة الأدبية رافداً ثراً يمدها بروائع الفكر والأدب والفلسفة •• مترجمة عن شعوب ولغات أجنبية ، تشكل هذه المجلة وشاجة انسانياً رائعة نحن في أمس الحاجة اليه في معركة التغيير والبناء الحضاري الذي يشكل الأدب والفلسفة ركناً أساسياً من أركانه •

ومن الطبيعي ونحن ننتهج الخط الاشتراكي في عملية التغيير والبناء أن نتسلح بالفكر الاشتراكي العلمي الذي أثبت فعاليته الفكرية والحضارية في كافة اللغات التي ترجم اليها، وكان المحرك لعقول الشعوب المسحوقة يدفعها الى التحرك النضالي ضد الاستعمار •

عبد الحميد قصبجي

الثورة ٢٦ـ١٠ـ٧٤

« سررنا لصدور العدد الاول من مجلة الآداب الأجنبية ، ونتمنى لها عمراً مديداً في عهدكم الزاهر•وقد تصفحت العدد المذكور فأحببت أن أقدم بعض الملاحظات لاعتقادي برحابة صدركم في الاعتناء بها والأخذ بالصالح منها •

١ ــ أن يتصدر المقال بصورة للمترجم •

٢ ــ كلمة عن المترجم وعن أهم انتاجه المطبوع والمخطوط •

٣ ــ في الهامش : كلمة عن صاحب الترجمة المترجم عنه وعن انتاجه ، المطبوع والمخطوط •

٤ ــ تخصيص زاوية للنشاط الثقافي في العالم ولاسيما في البلدان التي تستقي المجلة مادتها الأدبية منها •

٥ ــ اختيار مقال جيد ينشر باللغة الانكليزية في نهاية كل عدد •

٦ ــ تخصيص زاوية خاصة بالاخبار الأدبية وبالانتاج الأدبي خلال الفصل السنوي•

٧ ــ ثبت بالمجلات الأجنبية باللغتين الانكليزية والفرنسية ، وعنوانها واتجاهها ، ولاسيما الأدبية منها » •

حلب ــ عبد القادر حافظ
ماجستير في الآداب

محتوى العـــدد

الموزعون

سورية : مكتبة حسين نوري ــ دمشق

الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

تونس : الشركة التونسية للتوزيع

بقية الأقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع ــ بيروت

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :

■ للأفراد ١٥ ل.س

■ للدوائر الرسمية ٣٦ ل.س

في البلاد العربية :

■ البريد العادي ٢٤ ل.س

■ البريد المسجل ٤٨ ل.س

تضاف تكاليف الطائرة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى محاسب اتحاد الكتّاب العرب

سعر العدد

سورية	٣٠٠	ق.س	السعودية	٦	ريالات
لبنان	٣٠٠	ق.ل	ليبيا	٣٧٥	درهم
الكويت	٢٧٥	فلس	تونس	٦٠٠	مليم
أبو ظبي	٩	دراهم	المغرب	٦	دراهم
دبي	٩	دراهم	الجزائر	٦	دنانير
الخليج العربي	٩	دراهم	السودان	٧٥٠	مليم
الاردن	٢٧٥	فلس	العراق	٤٠٠	فلس
قطر	٩	ريالات	مصر	٤٥٠	مليم
البحرين	٦٠٠	فلس			

مطابع الف باء ــ الاديب ــ دمشق

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة الثانية - العدد الثاني - تشرين الأول ١٩٧٥

المدير المسؤول : حافظ الجمالي

رئيس التحرير
د. أحمد سليمان الأحمد
دكتوراه في علم الاجتماع الأدبي - السوربون - باريس
الدكتوراه العليا في العلوم اللغوية والأدبيّة - موسكو

الادارة: اتحاد الكتاب العرب - دمشق - شارع مرشد الخاطر
هاتف ٤٤٦٧٠ - المراسلات باسم رئاسة التحرير ص ب ٣٢٣٠ دمشق

تنويــــه

- جميع المراسلات تكون باسم رئيس التحرير •

- تتوجه رئاسة التحرير الى الأدباء والمترجمين في الوطن العربي لتزويدها بمواد مترجمة من الأدب العالمي في مجـالات القصة والشعر والمسرحية والنقد والبحث الأدبي ، وتقديم أو تلخيص الكتب ذات الشهرة والفائدة الفنية والفكريـة • ويُرجى من الأساتذة الذين يرسلون المواد المترجمة أن يرفقوها بالأصل ، من أية لغة كانت ، أو الاشارة الى مرجعها اذا كان مشهوراً • وتعتذر الادارة عن اعادة هذه المواد سواء نشرت أو لم تنشر •



كلمة المجلة

هذه المجلة ، خلال عـام من مسيرتها ، ضاعفت أعدادها الى القراء ، وكانت طامحة الى مزيد ، وما زالت على درب الطموح والعمل الدائب لتحقيقه •

هذه المجلة طريقُها طريقُ كـل كائن حـي ، محفوفـة بالصعاب ، مفروشة بالمزالق ، وقد تقوم عليها الحواجز ، وقـد تستشهد كالأحياء ، بقول أبي العلاء :

ومن عاش بين الناس لم يخل من أذىً
بما قال واشٍ أو تكلّم حاسدُ

ولكنها مـع ذلك مؤالية عـلى نفسها أن تظلّ تعيش بين الناس ، وللناس ، والتقدم ، والعطاء ، لأنها شيء من كل ذلك ، ولأنها لا ترغب في أن تهجر كل ذلك ، أو تفرّ منه :

وهـل يأبق الانسان من ملك ربـه
فيخرج مـن أرض لـه وسماءِ

ولــو طــار جبريل" بقيــة عمره
من الدهرِ ماستطاعَ الخروجَ منَ الدهرِ

ولئن حالت ظروف تعوّدنا أن نقول عنها : قاهرة ، في حالِ اعتذارنا ، دون صدور المجلة مرة كل شهرين ، في عامها الثاني ، كما سقنا النبأ الذي تقبله القراء الأعزاء على أنــه بشرى ، وكمــا رسمنا للمجلة ، وقدّرنا ، وأعددنا ما استطعنا ، فان الأمل لكبير في أن يتحقق القسم التالي من رغبتنا وهــو صدور المجلة شهرية في بداية عامها الثالث ، فتستطيع أن تنجــز الكثير من طلبات القــراء والأدباء ، وأن تتوفر على أن تكون إحدى المجلات العالمية التي تسهم إسهاماً مقداماً غــير خجول في تقارب الفكر الانساني على الصعيد الأدبي ، وعلى أن تتسع صفحاتُها ، أكثر فأكثر، للابداع الإنساني في شتى مجالاته ، وعــلى أن تستجيب لاقتراحاتِ المخلصين لهــا قَصْدَ تعميم فائدتها .

وكما أخذت المجلة على عاتقها أصلا ، سنعمل عــلى إصدار ملاحــق ولو بــين الفترة والفتــرة ـ في انطلاقنا الأول ـ وباللغات الفرنسية والانكليزية والألمــانية نحمل فيها الى القرّاء الأجانب إبداعنا الأدبي العربي ، مرددين مرةً ومرةً قــول مثقفنا العظيم ومثالنا الخالد الرائد ، أبي العلاء المعري :

إذا ركبتُ لادراكِ العلى سُفُنَاً
فالبحر يحمــل ما لا يحمل النَهَرُ

« رئيس التحرير »

مختارات

من الشعر التشيكي المعاصر

ترجمة : د. أحمد سليمان الأحمد

جوزيف ريباك

سيرة حياة

اليوم الذي ولدت فيه ـ اول أيار ١٩٠٤ ـ شهد وفاة الموسيقي التشيكي الشهير ، انتونين دفوراك : وكانت حرب البوير قد انتهت ، ولكن في الشرق الأقصى كانت حرب أخرى يذر قرنها بين الروسيا واليابان . وفي أميركا كان الأخوان « رايت » يجربان الطائرات الأولى . وكان ليف تولستوي ما يزال على قيد الحياة ، وكان عمر أبولينير أربعة وعشرين عاماً ، بينما كان همنغواي في الخامسة ، أما يوليوس فوتشيك فقد سبقني الى الحياة بعام واحد . وشهدتُ بعد ذلك حربين عالميتين ، سقط ، في الأولى ، والدي على الجبهة ، الأمر الذي حدّد أفكاري وقناعاتي .

وعندما كنت ما أزال فتىً وقعت في يدي كتب كانت تنقصها إما الفاتحة وإما الخاتمة . وكنتُ أنا بنفسي أكمل هذا النقص ، وهكذا ، دون ريب ، أصبحت كاتباً . كنت أعتقد اذ ذاك ، بل وبعد ذاك ، أنّ الخيال ضروري للكاتب . ومع ذلك فقد كنت الاحظ أكثر فاكثر أن الخيال والموهبة لا يكفيان ، وأن الابداع مرادف للعمل .

٢٥ـ٩ـ١٩٧٣

الانســان

كانت العواصف هي أول من تراجع .
ثم ارتدّت الزواحف
واختفت النباتات الجبارة .

ثم ظهرت النجوم
تحت سمع السماوات ونظرها ·
وأخيراً فتحت الأزمنة المتعاقبة قبوراً لنفسها ،
وأخذ الجيل القديم يقاتل الجيل الجديد
وبدأ التاريخ وراء الانسان يتحرك ·

في يوم من الأيام شهد العالم ميلادنا :
كانت الصين بلد الأفيون
وأبيد الهنود الحمر عن بكرة أبيهم تقريباً
وتلت حُمَّى الذهب هجمة نحو البترول ·
وأرسى آل روكفلر سلالتهم ·
وبدأت حرب البوير
واخترع الانكليز معسكرات الاعتقال ·
ومع ذلك فقد كان القمر دوماً زهرة المؤرقين ·
وأخذ ملوك الأرض وأقوياؤها
يهجرون الخدم والحشم
ليس بمحض ارادتهم
ولكنْ لأنَّ الانسان أراد ذلك ·

هذا الانسان الذي صنع رسوم ألتاميرو
هذا الذي روَّض النار

ودار حول العالم في سفينة
هذا الذي ألف السنفونية التاسعة
والذي لقّن نابليون درساً في روسيا
هذا الذي أبدع نور الكهرباء المتوهج
وحلّ رموز الخط المسماري ·

الانسان الذي أخذ يكتب الرأسمال
والدولة والثورة ·
الانسان الذي يحتل الطليعة
أبـداً ·

الشـتاء

الثلج يغفو وراء نوافذي
والقمر يصعد
درج
هرادشين
وفم الماضي البعيد مرتعد
وقلبي متعب
طاحونة ذكريات
تدور بطيئة
وتتلاشى

ووحده هذا السائل الأحمر
الذي يشبه المياه الراكدة
يجري فيه بلا انقطاع ،

بعيدة سفائن الصيف

الجبال ترمقنا
بعيون المياه
كمـا العصور القديمة
ترمق بونابارت ٠

بعيدة سفائن الصيف
بعيدة عن النار
خريطة الحظ

آثـار خطى مدماة
في أسفل الأهرام
فوق الحب
فوق الغدر
فوق المجد الهش
وفوق تعاستنا ٠

في أيامنا

في أيامنا
تنطلق الحمائم الحديثة
برأسها تشق الظلام اللا متناهي
كي تكتشف لنا
الوجه الغامض للكون البعيد ·

ومع ذلك فما هي أسعد لحظة
بالنسبة لهم ؟
إنها لحظة العودة
عندما يضعون الأقدام
على الكوكب الذي ولدوا فيه
على هذا الكوكب
الذي تتعاقب فيه الفصول
حيث تزهر الأشجار الرائعة
وتشدو العصافير
وتصرّ الجداجد على التخوم
ويهدهد النسيم السنابل في الحقول
وحيث يتكسر الثلج تحت الأقدام
كما لو يرقصون على زجاج مكسور ·

صحيح أنّه حتى رواد الفضاء
من وقت لآخر يرقصون
ووحدي لا أجد وقتاً لنرقص
ذلك لأنّ النفير دوماً يدعوني الى المسيرة
واعتاد قلبي أخيراً
أن يسير مثل جندي

لقد اعتدنا أن نجتاز التاريخ
حتى عند الضوء الأحمر
دون أن نهتمّ
بقانون السير الهرم
كم من الدورات إذن على القلب أن يقطع
إذا ما استهلكنا حب عنيف
واذا عرفنا أيضاً كيف نبغض ؟

جيري توفير (١٩١١)

لقد نضج الزمن

تفتح الزمن
نضج الزمن ...

التقويم يتساقط ورقة ورقة
مثل وردة زاهية
تناثرت وريقاتها
بمروحة الزمن

كانت الساعة الكبيرة ، ورق اللعب ،
كتاب الأحلام
تخيف عيوننا كأطفال
طوال الليالي العميقة

على الطاولة محبرة وريشة
وقرب الباب عصا أبي
التي لم يحملها في الخنادق

ذلك لأنهم أعطوه

بديلاً عنها
بندقيـة

نشيد ختامي

الدقائق تخبّ
فارساً في مَلْعَبِ الساعة

لقد شغفنا الجاز
وسحر التزويق
وعطر الذرور
وأسرار الستار

الساعة تخبّ في الجيب
وفي أربع وعشرين ساعة
تكون قد دارت حول اليوم

نهوى الفلم ، طفل جميع الملهمات
لهو الضياء والظل
الظل والضياء

تمرّ الأيام
مثل متدربين

ينحنون وفي وجوههم الدم والثلج

نحن مثل شارلو
حزانى بلا حدود في داخلنا
وعلى وجوهنا
الضحكة
الضحكة
الضحكة

الى اللقاء

أحسد في المرآة وجوهها التي لا تحصى
وفي الأشجار عمرها المديد

وفي التاريخ حكمته

وفي الطفل ميلاده

ومع ذلك فانّ عليّ اليوم أن أغني
وأن أكره

الى اللقاء

عندما

عندما نكون قد أحيينا ذكرى
أولئك الذين لم يعد بإمكانهم أن يساعدونا
في القتال
لأنهم توقفوا عن النضال
وليس بوسعهم بعد اليوم أن يشاركونا الأفراح

عندما يلقي آخِرُ سفاحينا
حياته اللا مجدية
كما كان يلقي في الماضي
سترته أو لباسه العسكريّ المغطّى بالأوسمة
عند ذاك سأكف عن أكون شاعراً
سأغدو عاملاً
سأستبدل بريشتي مفتاحاً انكليزياً
وبربة الشعر صفارة مصنع .

سأغدو مهندساً
وسأبدع بواسطة الرياضيات
غنائية الأشياء المجدية

سأغدو طبيباً

ذلك لأنه لن يضطر لمعالجة الناس
كي يشفوا ، ومن جديد الى الحرب

أو قد أغدو شاعراً مع ذلك
وهكذا سأغدو عاملاً ، مهندساً ، طبيباً
واذ ذاك لن أكره بعد الآن
وستملأني الحياة •

دوناتساينر

من سيرة حياتي

ليس مستبعداً أن أكون آخر الشعراء في أسرتي • لست متأكداً ، ولكني واثق أن جدتي كانت شاعرة رغم كونها أمية • كانت تعرف كيف تروي القصص وكيف تغني بطريقة آسرة • كانت تخترع حكايات يبكي لها أو يخاف من يسمعها • ربما ورثت منها شيئاً ما • أما جدي فكان لا يتحاشى شجاراً ، وكان مرهوباً • وجمع بين أبي وأمي حب لاهب • وعندما يتمازج كل هذا فبامكان شاعر أن يولد • وقد حصل ذلك في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٤ في مقاطعة عذبة كالأغنية العاطفية ، في جنوب بوهيميا ، بمدينة سوبيسلاف •

وقد شاهد النور أول ديوان لي عام ١٩٣٥ وبعد ذلك كتبت عدداً كبيراً من الكتب يجد فيها القارىء ليس الشعر فقط بل النثر وكتباً للأطفال ومسرحيات وإذاعيات •

ولكنّ الشعر ربما يظل حبي الأكبر ، وفي الوقت نفسه أصعب الأعمال وأكثرها دقة • •

وهكذا ، على امتداد حياتي ، يزداد اقتناعي بان الحياة جميلة ، تزداد جمالاً مع الشعر والفن بشكل عام ، وأن علينا أن نحياها باحسان • بشرف وامتلاء •

أعتقد أني أقول بما أستطيع من أجل تمجيد الشعر والحياة •

٢٣ـ٨ـ١٩٧٢

أقول لنفسي •••

أقول لنفسي : شاعر ؟
أي شيء يرتعش على الشفاه ،
ماذا ستحكي الريح للعشب ؟
ماذا يثرثر الأطفال ؟
كلمات كما لو تكون مصوغة •

أجراس السنابل ، خيوط الشمس ، مخمل الغابات ،
وما تقول المياه ؟
أعط اسماً للقبلة ، للقاء ، للحزن ، للرغبة
وأخيراً للموت !
كلمات دوّارة كالنحل يبحث عن مدخل الخلية
ذاك سهل للغاية ، اذ يكفي أن تعرّض نفسك
لتيار الزمن وأنْ لا تتحاماه ·
إنه الليل الذي يحمل كلمات عذبة مسكرة ·
احفظها جيداً !
والنهار ؟ عند ذاك تنصهر الكلمات حولك مثل البرق
ووراءه نار الذرة تتحلل الى قوس قزح ·
أي شاعر إذ ذاك ؟ طاولة بسيطة مغطاة بسماط بلادك ،
بالخبز والملح · إنه لسهل أن تقول أمس وغداً
ويد في يدك ، والرأس مرفوع الى السماء ،
هذه السماء المرتفعة على التماع النجوم ،
ونار الشمس في المروج · وعيون زرق
وعيون سود أيضاً ·
القلب نفسه يتكلم ، يبحث عن كلمات لا يجدها في معجمه ·
وفجأة يخترق الرعد الصمت ، وتنفتح الأبعاد ·

كل شيء ، كل شيء يملك اسمه ، الموجود واللا موجود ،

حتى أنت ، حتى هو ، حتى أنا الانسان الواثق حتى القمم،
اليائس حتى الأعماق ٠
فيا أيها الشاعر ، تبحث عن كلمة الكائن
لايجاد قافية فقط ،
بينما هو مطوّق ، مدمّى يومياً بين مئات
وألوف الكائنات ،
أبـــداً هو نفس الرجل
دانتي وايسينين ٠

يسيران معي وأقول لهما وأعيد هذه الكلمات الهائمة دوماً ،
كلماتي ، كلماتك الملأى بالآن ،
ولا يبقى لهما إلا أن يردّا بالايجاب ٠
ويا أيها الشاعر ، اني أعرف نفسي في كل واحد منا ،
في كل عامل من عصرنا ،

إنهم في كياني عندما يذهبون الى العمل ،
وبواسطتهم أطلب الكلام لأقول ماذا أحس ،
لست أقلّ ولا أكثر من انسان بين الآخرين
والأحلام التي لم تتحقق ، والخيبات تؤلمني ،
وأنا أتعلق بأقوالكم لأجد نفسي

لم يوقع أحد حتى الآن على شهادة تدريبي

وأظل ــ حتى موتي ، عاملاً متمرناً
لدى سيدتي ــ الحياة ٠

مهداة الى البحر

في البداية ، كانت الغيوم ثم المطر
في النهاية ، وجد البحر مكانه ليغني
من الصباح حتى المساء ، ولديه بحث بتهوفن
عن ألحانه التي مجدت بها الأسماك النجوم خفية ٠

تمضي الموجة باحثة عن الأقواس ،
حذاؤها مفضض ،
لسانها يلعق عرق الأرض المرّ
ويعود الصيادون بأشرعتهم المثقوبة
من الآماد البعيدة ،
ومن جديد يدندن بتهوفن بألحانه ٠

حتى العلوّ يبحث عن مكان ليسند إليه راحته ٠
وليمة العاصفة جاهزة ، ترعد هائجة ٠
وأنا أسمعها أيها السيد بتهوفن فخذ علماً بذلك :
كل الطبول تقرع معاً ، كل المزامير الزرقاء ٠

من أعماق الليل

يغمر الليل الينابيع
وجدائل النجوم
تختنق بالندى
الليل لا يقول شيئاً
لهؤلاء الذين يولدون
إنهم به مشبعون ٠

من أعماق الليل
في خفايا الليل
يصل شعاع من ضياء
يشقّ أجفانهم
وسينادون الليل
الليل المكتظّ بالكوابيس
الليل الممتلىء بالحب

يغمر الليل الينابيع
والقوى السحرية
الكائنة في أعماقنا
تضع على ألسنتنا

عملة النسيان
هذه العملة الزائفة أبداً ٠

تشيلي

سبعة حدود لأجنحة الغربان
المنطلقة مثل ورقة نعي الأغاني
يتجاوب الصدى عبر جميع الهواجر
ولا تتوصل الرشاشات الى إحصاء الأموات

تجمع ولا تتوصل الى النتيجة أبداً
يرعد البحر ، وتعلو الجبال
وما تزال تشيلي حية ، يبزغ فيها الفجر دوماً
إنهم لم يعتقلوا الشمس بعد !

غويا ، في الماضي ، عبّر عن بغضائه برسومه
أية بلاد ! نُحاسُ الدمُ يروّي جذورها ،
وأجراس أشعار نيرودا تطنّ في القبضات
عندما يجهر بايمانه بأن الحرية هي العليا

نشيد تشيلي يرسل لهباً
والطلقات لا تدقّ الجرس الأخير

تشيلي ما تزال تحيا ، والفجر يبزغ بها دوماً ،
ولن يضعوا الشمس أبداً في الزنزانة !

الأموات ما يزالون يحيون ، والأحياء سينهضون !
١٩٧٣

حول موضوع لِ يان نيرودا

كل الذين ساروا على الدرب ، في الماضي ، ما زالوا معنا ·
السماء' المكوكبة هي نفسها ، والشمس لم تتغير هي الأخرى·
القمر الشاحب دوماً معلّق" فوق الأرض
والجدران الصخرية نفسها دوماً واقفة ·

اننا إذ ننظر الى النجوم لا نشاهد تحولات
يمكن للعين البشرية أن تكتشفها ·
ومع ذلك فان تسلسل الجنس البشري
متراً فمتراً ، يشق طريقاً نحو عصور جديدة ·

والينا تندفع رغبة الوجود والحياة
كما أحس بها العبد الروماني القديم
وكذلك ترعد في آذاننا دموع القمح
والأهراء الفارغة من الأزمنة المرتعدة برداً وجوعاً ·

كل العالم معنا ، عندما يغمر السقف البيت ،
كما هو معنا عندما تفتح الشمس الباب ٠
وعندما حكمت الانسانية على البؤس ، كم من الأقوال
الجديدة وجدتها ،
كم من الشعراء بسطوا الأذرع نحو الطرق
المكوكبة !

معنا جميع الأجيال التي يرتكز اليها العالم !
ومع ذلك فنحن نعرف القمر معرفة مختلفة
وفي رؤوسنا تخصب حقيقة أخرى :
فالذي يعبر جَمْرَ القلب لا يستطيع أن يتجاهل
بأن الأيام القادمة تزيل الأيام الراهنة
دون انقطاع ٠

ميروسلاف فلوريان

ولد عام ١٩٣١ في كوتناهورا ، في بوهيميا • وقد أراد أبوه أن يصنع منه موسيقيا ، وهكذا عزف على الكمان في جوقات مدينته • وبدأ كتابة الشعر في الرابعة عشرة من عمره • وصـدر له ديوانه الاول وهو في السابعة عشرة من عمره وكان ما يـزال على مقاعد الدرس • ولكن ديوانـه الحقيقي الأول ظهر عام ١٩٥٣ بعنوان : « نحو الشمس » • وتلته تسعة دواوين نال عليها جائزة الدولة عـام ١٩٧٣ • وقد أخذ يتجه الى الكتابة للأطفال وهكذا ظهر له ديوان « رحلة على ظهر جرادة » وهو قصائد غنائية للأطفال •

نهر النسيان

السواقي تهيء الغسيل الكبير ـ
يهبط الثلج بطيئاً
مِن الروابي
وكلُّ الآثار تؤدي
الى أعماق الينابيع •
النوازل الجليدية تخفض
أصابعها ـ مثل القياصرة الضجرين ـ
باتجاهي •
وتنفتح الأرض بصرير خفيف
والصفصاف المحسن
سيسقي
الهررة الصغيرة الخضراء •

من أجل بينوشي

لا تذهب الى البحر ، أيها السيد الجنرال ،
حتى ولو كان اسمه الهادي
ذلك لأنّ المحيط ، أيها السيد الجنرال
يصعّد صيحة رهيبة ، مأساوية ،

جباله الرمادية تتماوج محنقة
وتعمل ضِدّك أيها السيد !
حتى صخور الأندلس ترفع قبضاتها
وتلقي الى ترامي الموج ببغضائها !

لا تنزع نظاراتك السوداء ، أيها السيد الجنرال ،
لا تنزعها ، من فضلك ،
ذلك لأنك ستنبهر بحقد الشمس
التي يجب أن تمسح حذاءك
وأحذية زمرتك المتآمرة !

ومثل قيثارة شجية
تردد تشيلي مقاطعها الغنائية
وراء الأسلاك الشائكة

وحتى تحت مخالبك المجهضة !

ألا فارهبوا الأيام والليالي القادمة ،
فالزمن لا يُثمَّن بالدولارات
ذلك لأن غناء « فكتور جارا » الذي لا ينقطع
والذي يستعيده آخرون
سيكنسكم في يوم قريب

٢٣ آذار ١٩٧٤

قصص من بلغاريا

نيقولاي خايتوف

ترجمة : ميخائيل عيد

ولد نيقولاي خايتوف عام ١٩١٩ في قرية يافروف في منطقة بلوفديف ، حصل على شهادة مهندس غابات في صوفيا وزاول هذه المهنة لفترة طويلة •

بدأ نشاطه الأدبي بعد أن تجاوز مرحلة الشباب وبعد ان عايش الناس والغابات وعاش الآفاق الرحبة للبناء في بلاده •

يمتاز نثره بغنائية واضحة فهو يقتطع شريحة من الحياة ويصوغ منها شعراً أو اسطورة ، ومن خلال سطوره ينبعث الشعر متلفعاً بالسحر وبروعة الاغنية الشعبية وتمتزج في ابداعه خصائص الشعر والنثر بخصائص الحكايات •

صدر أول أعماله الابداعية الكبيرة « أوراق النثرية » عام ١٩٦٥ ثم تتالت أعماله وكأنها تتدفق من نبع ثر • أغان ، صور ريفية ، قصص، كتابات للاطفال ، مسرحيات سيناريوهات للافلام وغيرها •

ويعتبر كتابه « أقاصيص متوحشة » الذي صدر عام ١٩٦٧ من أنجح الاعمال النثرية في الأدب البلغاري خلال السنوات الاخيرة •

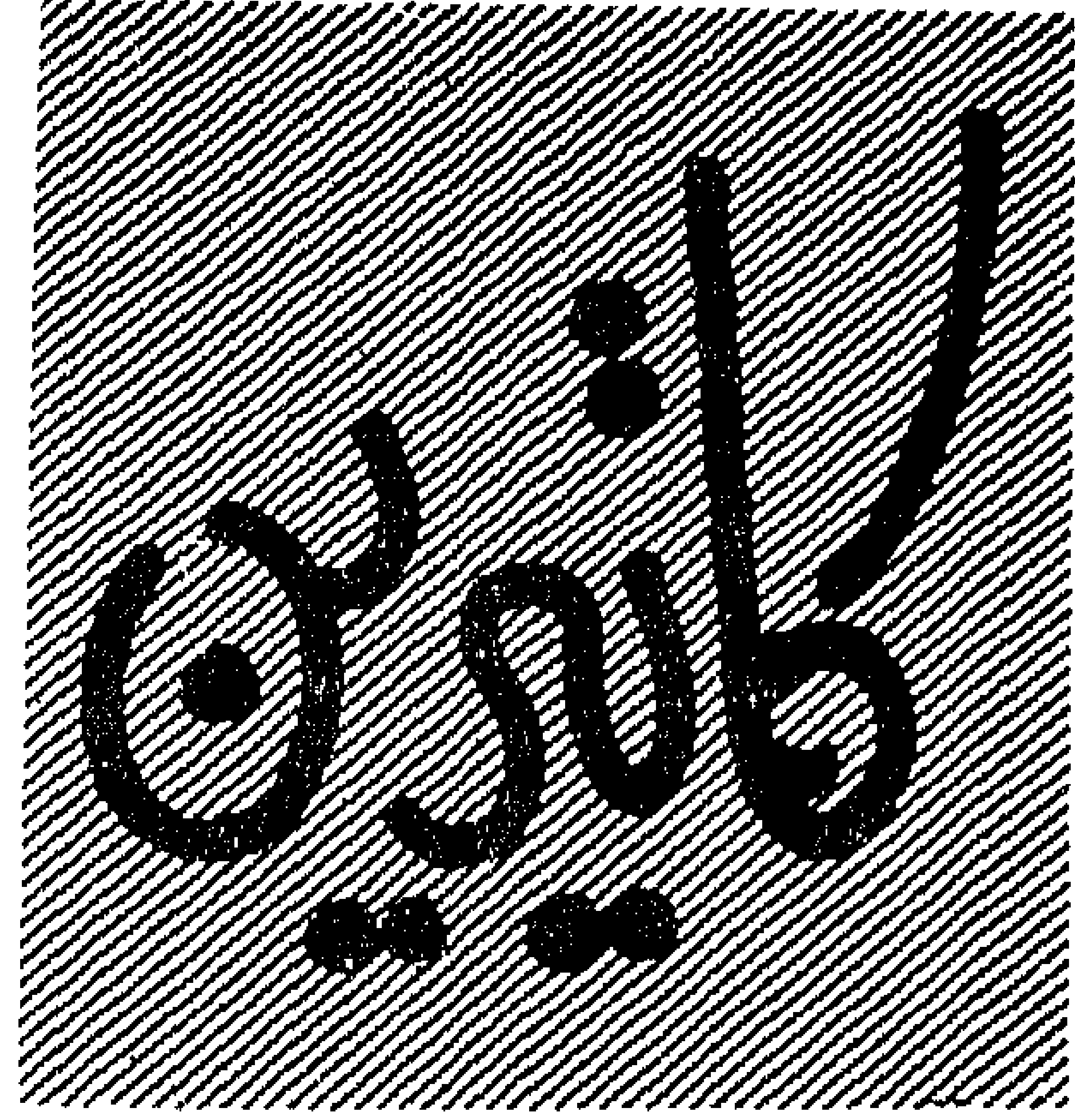
وأبطال خايتوف أناس بسطاء عاديون من منطقة « الرودوب » ولكن مصائرهم غير اعتيادية • فهم لا يستطيعون حبس ينابيع عواطفهم • انهم أطفال الطبيعة الطلقاء • رأى خايتوف لديهم غنى الروح الحقيقي والجذور القوية التي تشد الناس الى الطبيعة• هنا للناس أخلاقهم القائمة على الجرأة أخلاق بدائية ولكنها قوية • تلتمع بين أيديهم الخناجر والبواريد ولكن لانرى فيهم عتاة ظالمين•

الشجاعة لديهم دليل طيبة الرجال والنساء وهم يفضلونها على الجمال والاغنية• قد تفعل كل ماهو جميل ، ولكنك تخاف ، اذن ستبقى الى الأبد ذليلا ومحتقراً • فالخوف يلطخ الانسان •

وكتابه « أقاصيص متوحشة » الذي ترجمنا منه هذه القصص ليس ثمرة تعبد للماضي بل هو من وحي أناس معاصرين •

وفي عام ١٩٦٧ صدر أيضا كتاب «الهايدوث» وهو كتاب عن حياة المتمردين البلغار المشهورين وله عدة كتب أخرى •

وقد منح أرفع جائزة أدبية في بلغاريا « جائزة جورج ديمتروف » لقاء أعماله الأدبية•



كان لدينا كلب ندعوه «كاتيريـن» • كان فتياً مولعاً بمطاردة الذئاب • صوته عاصفة بكاملها : ينبح « عو ، عو » فترتجف الغابة وتترجع الاصداء•كان غليظ الرقبة ، سريع الجري ، مرهف السمع ، كانه لا ينام ، ثم، لو تـرى أي ذيـل مستدير هو ذيله ! كلب فاخر ، ولكن العم باتشولا يقدم له الجراية الكافية • يقضيها بالنخالةوالقطع اليابسة• قلت له مراراً : أعطني بعض طحين الذرة لاخلطه للكلب »• كان بخيلا يقول : «طيب» ولكنه لا يعطي • رعيت الماعـز مع كاتيرين خمس أو ست سنوات • وثقت به تماماً والى أقصى حد • كنت ادخل الكوخ واشعل النار وأكوم الجذوع في الموقـد ثـم أدفـيء ساقي واغفو • فانا أعلم أن كاتيرين في مكانه ولن يسمح للذئب بالاقتراب ، ولئن فعل فسوف يعلمني •

كان ذلك جميلا ، ولكن ما الذي جرى ؟ ذات يوم ، ذات صباح ، على وجـه الدقة ، نهضت فلم أجـد احدى العنزات ـ المخططة اللون ـ ولم أجد كاتيرين ـ ياللعجب ! مـا الذي حدث ؟ بعد فترة رأيته عائداً ، ولكنه وحيد • سرت في الاتجاه ذاته ووجدت العنزة بيضاء اللحية ، ولكن كيف وجدتها ؟ لقد مزقتها الذئاب حتى العظم•طاردها كاتيرين، ولكنها أنهت عملها • خطمه مدمى ، وهذا يعني أنه قاتل • ثمة شيء لـم يكن واضحاً لدي : لماذا لـم ينبـح لاسمعه فانهض ؟ في مواجهتنا صخور عالية ترد الصدى مضخمـاً جلياً • هذا وحده لم يكن واضحاً •• لماذا لم أسمعه ؟ قلت لنفسي : « يبدو أنني كنت نائماً نوماً عميقاً حين حدث الحادث » •

في أحد الأيام (وكان أيضا يوما خريفياً) حل ضباب قاتم ، كثيف ، رطب متحـرك : ما ان يرتفع حتى يهبط •• أوان ذئاب •• والذئاب تحب هــذا الأوان أكثر مـا تحب لتختلس في الظلام • ولقد اختارتني الملعونة فريسة لها : صرخت عنزة ، وصرخت أنا ، وثب كاتيرين ونبح ثم اندفع وراء الذئب • عاد بعد قليل مدمى الخطـم • لا بقية مـن العنزة • وجدت أمعاءها ، لا غير ، في الوادي•

هذا الخطم المدمى رماني في الريبة ـ فهو يعني أن الكلب قد تعارك فعلا مع الذئب وقد عضه ، فهاهو ذا خطمه ملطخ بدم الذئب • أليس كذلك ؟ ولكنني افتكرت : حسناً ولكن

لو حدث عراك ، أكان ثمة وقت كاف للذئب لياكل بسكون فلا يبقي سوى أمعاء العنزة ؟ ولو حدث عراك لحدث نباح ، وانا لم أسمع نباحاً ولا أي صوت •• أيمكن أن يسمع مضغ الذئب لعظام العنزة ولا يسمع نباح كاتيرين ؟ ذلك مستحيل !•

زادت ريبتي وقلت : سأنتظر وأراقب ما يفعله كاتيرين من الآن فصاعداً • ولقد استرعى انتباهي شيء آخر : كان الكلب يترك ذيله مكوراً عدة تكويرات ، أما الآن فهو ممدود على مستوى ظهره • هذا أولا • وثانيا : صار يشم النخالة حين أقدمها له ويبعثرها ثم يطاها ، وهذا يعني أنه شبعان ولا يريد أن ياكل • وذلك بدهي •• ومر زمن وهاهي ذي الذئاب مرة اخرى • تناولت هراوة (اختار الارذال أكثر العنزات سمنة وخطفتها) • نعم خطفتها وجرتها • كاتيرين خلف الذئاب • لم أنتظر هذه المرة عودته فذهبت اثره ، صعدا ، صعداً حتى القمة • ثمة عطفة ، فتجويف ، فمكمن جعله الهواء نظيفاً • نظرت من مكان أرى منه كل شيء فرأيت : العنزة مرمية ، ممزقة وعلى بعد ثلاثين خطوة منها يقعي الذئب ، وينتظر ، كاتيرين فوق العنزة ، يلعن أمها بانيابه ومخالبه • اذن هو الذئب ذاته ! لم أكن أتوقع ذلك ، ولكن مالم أتوقعه يحدث أمام نظري • أكل كاتيرين ما أكل وتراجع – لياكل الذئب• الذئب ياكل وكاتيرين ينتظر ويتلمظ• كل شيء واضح : لقد تحالفا •

فهمت ما يفعله كاتيرين • ولكنني لا استطيع اصدار الحكم عليه وحدي فالعم باتشو يحب هذا اللعين كاتيرين كثيراً وهو يتوخى أن يفرخ له الدواجن•قلت : ساخبره بما رأيت،وليحكم عليه بما يشاء • وأخبرت العم باتشو بالامر ولكنه لم يصدق وقال :

– كنت في حلم ولم تر عياناً • كيف يمكن أن يتحالف الكلب مع الذئب !

– انهما شريكان ، ياعم باتشو ، رأيتهما بعيني •

– لا ، لا يمكن أن يحدث ذلك • شيء كهذا مستحيل !

قلت :

– ساجعلك ترى بعينيك !

وحدث ذات يوم ، لا أعرف التاريخ بالضبط ، ولكن كان حوالي عيد القديس ديمتري•توقف العم باتشو عن الحك وقال لي:

– ساجمع الحطب للكوخ وترعى أنت العنزات ، هنالك فوق ، عند «الفايرياك»•

نحن ندعو الحاجز « فايرياك » •

وأردف :

– ترعى أنت العنزات هناك وأجمع الحطب بمفردي •

مشيت ومعي كاتيرين • وحدث ، تماماً حين بدأت الماعز ترعى ، أن صرخت احداها• كان الذئب مختبئاً ، عرف وجهتنا فانتظر مرورنا وخطف ضحيته • نبح الكلب واندفع خلف الذئب ولكني لم أستطع رؤيتهما بين الخنشار ، كنت أرى فقط اهتزازه ، ثمة خنشار كثيف طويل ضخم يضيع الانسان بينه رؤوسه وحدها كانت تتحرك ، ومن حركتها عرفت الى أين تنجر العنزة •

صرخت :

ـ ياعم باتشو ، آن الاوان ، تعال !٠

ولكن ، الى أن سمع عمك باتشو ، والى أن جاء ، كان الذئب قد عبر الفسحة المقابلة واختفى ، ثم اجتاز واديا ومعه العنزة ودخل في تجويف ٠ توقف هناك وكنت أقف والعم باتشو في الجهة المقابلة ٠ قضى الذئب على العنزة وجرها كجيفة من عنقهـا ٠ كاترين خلفه ٠ لا يسرع ولا ينبح ٠

صاح العم باتشو :

ـ اللعنة على أمه من كلب ! هل تغير؟ ما الذي حدث له ؟

قلت :

ـ انتظر ، سترى الان ما حدث له !

وقفنا ونظرنا : اقترب كاترين من الذئب، لم يقترب عدواً ، لا بل برفق وبصمت ٠٠ التفت الذئب ونظـر اليه دون أن يصـرف بانيابه ، لا شيء من هذا ٠ لا الكلب ينبح ولا الذئب يفعل شيئاً ! تفاهما ، اللعنة على أميهما ! هل تبادلا الغمزات ؟ ما الذي في عيونهما وقاد الى تفاهمها ؟ لا أعرف ، ولكن الذئب تـرك العنزة وانتحى جانبـاً ، فتح الدرب لكاترين ، واقترب كاترين من العنزة وراح يلتهم ٠ ينهش بانيابه كالذئب ، يمزق بمخالبه ويمزق ، يمزق وينهش ٠ فغر العم باتشو فاه دهشة لما يرى ٠ لم يكن يصدق ! لم يقل شيئاً ٠ تراجع الى الوراء وصرخ :

ـ انتظر !

ذهب الى الكوخ حيث توجـد بارودة من ذات الطلقـات المدوية التي يصم الغابـة صداها ٠ لم أدر ان كان قد ذهب من أجلها ولكني رأيته يعـود وهي في يـده ، سدد ، شحب لون وجهه ثم صار أبيض كالقماش٠

صاح :

ـ سأقتله ٠ ابـن العجـوز الخائنة ، يتحالف مـع الذئاب ! ولكنه بعيد جـداً ، سأنتظره الى أن يعود ثم سأرميه مابين عينيه وأرديـه ٠

هذا يعني أنه لا يزال مشفقاً ٠

جلسنا ننتظر شبع كاترين ٠

ـ انتهى أمر العنزة ، فلندعه يشبع قبل الموت ، وفوق ذلك،لقد خدمنا طويلاباخلاص وأمانة ٠ وارتعش العم باتشو ٠

قلت له :

ـ لقد خدم ، خدم ، ياعم باتشو ، واذا لم نقدم له طحين الذرة المخلوط جاع وفهم أن لا فائدة من الخدمة فصار شريكا للذئاب٠

ـ لا ، لا ، ليس بسبب من الجوع ، لقد تربى على المكر ٠ هنا لب الموضوع ، تربى على المكر ٠٠ لقد خطر لـه : « لئن سمعت العنزات أو لم اسمعها فالأمر سواء ، لـن يقدموا لي « الشاورمة » وما علي سوى أن أعملها بنفسي » وهذا ما فعله٠سوف أقتله ـ وصاح ـ لن أغفر له !

سيقتله ، سيقتله ، ولكنه لـم يرفـع البارودة ، وشبع كاتيريـن وافسح المجـال للذئب وانصرف ٠ اجتـاز الوادي ، توقف هناك ، لعق بعض الماء ، ثم تابع السير ٠

ـ هيا ياعم باتشو ! اقتله انكنت حانقا، أم تراك غير حانق !

رفع البارودة وسدد ثم فكر وانزلها ٠ صاح :

ـ ياله من خائن ، أمه عجوز ، كيف سادعه ؟ لقد فقدت عنزة اليوم وسيفعل الشيء ذاته غداً ٠

رفع البارودة ثانية و « بوووم » ٠ وثب كاتيرين ثم ارتمى ، تدحرج مرتين ـ ثلاثاً وضم أرجله ٠

خاطبني العم باتشو :

ـ أدفنه ! كان حيواناً ماكراً ، أصنع له حفرة ٠

دفنته ، حتى وبكيته ، فلم أر ولن أرى كلباً له مثل صوته ٠ وعيناه ! انظر اليه دون أن تتكلم ، صالبت رجليه وطمرته ٠٠

وأرسل لي العم باتشو كلباً آخر ومعه كيس من طحين الذرة وأوصاني :

ـ اصنع له وعاء وأطعمه !

أحس ، ولكن متاخراً ! وراح الكلب الجديد ياكل وياكل حتى سمن كثيراً ، وصار لسمنته يكره مطاردة الذئاب ٠ وضرب عمك باتشو مرة ثانية على فمه !

ساعترف لك أنني أخطات في مسالة إطعام الكلاب : تقدم لها القليل فتتحالف مع الذئاب ، تعلفها فتسمن ولا تطارد ٠

لهذا أطعمها وأنا حذر ٠

شجرة بلا جذر

تسالني ما اسمي ! شكـراً لـك • سنة كاملة آمضيتها فيهذهالمدينة أجلس كل يوم على هذا المقعد ، وحتى الساعة ، لم يسالني أحد ما اسمي • لا أحد أبداً ! أنت الاول • لهذا أشكرك • لتبق حيـاً معافى •• أرجـو ألا تصل الى ما وصلت اليه •

أجوعان أنا ؟ أعطشان ؟ لا •• انظر الى ظاهري ترني على ما يرام •• ابنتي متزوجة وتعيش في القرية ، طفلهـا بصحة جيدة ـ زوجها رئيس •• ابني يدعونه في الوزارة ، كبير المهندسين • يحمل شهادة بحجم الشرشف تاخذه السيارة الى عمله وتعيده منه•زوجته طبيبة موظفـة تقبض راتبـاً • يستحمان في مغطسمن البورسلان • طعامي طعام وفراشي فراش ومع ذلك فان حالتي في البيت سيئة ، سيئة ، سيئة ولكن ، لا مفر ـأسيرللوراء، انحل وأذوب •• لا يلذ لي طعام ولا أستطيع الاغفاء وفوق ذلك تدور برأسي حماقات عديدة دون أن أجد من أرويها له •• أأرويها ! اذن سيقولون اني أحمق بل ومجنون •

خـــذ مثالا ، شيئاً بسيطاً : اللبن •• قلت لابني كيرتش :

ـ هيه ! دعني ياكيرتش أذهب لأشتري اللبن •• دعني •• لأعود انساناً يرىالناس ويرونه « ينتعش » حيث ينادونه • أليس كذلك ؟

أجاب : لن تذهب • قد تصدمك وأنت ذاهل احدى وسائط النقل الآلية •• عندها من سيلطم رأسه •• أنا ! اجلس كما قلت لك في البيت وأفعل ما يروق لك •

وماذا سافعل في البيت ! بيت كبير يجول فيه الجواد ، شقة كاملة ! مزين من الداخل ومـرتب ، فيه كـل شيء • السجادة قـرب السجادة حتى لا تتجاسر علىالخطو •• أرضه الخشبية مجلوة صقيلة فما ان تتحرك فوقها حتى تقع •

استلق في الداخل ـ يقول ابني ـ استلق في الداخل ، عش ، كـل ، اشرب ولا تفكر باي شيء •

ويلاه ! كيفأعيش ؟ مع من ؟ معالمنضدة أم مع « البوفيه » • ابني وزوجته لا يعودان الا في المساء •• يذهبان منـذ الفجر وحـين يعـودان يجلسـان متلاصقـين الى الصندوق

الشيطاني ليشاهدا فيلماً • واذ يحين وقت النوم يهتفان : هيا ! ليلتك سعيدة ـ ليلتك سعيدة ، الى اللقاء ، الى اللقاء ـ ليلة سعيدة ـ بهذه الكلمات نلتقي ونفترق منذ سنة وكسور •

حتى عندما يكون طفلهما في البيت تكون الحال أفضل • ألعب معه وأرعاه فيتبدد الضباب من رأسي • ولكن كنتي البرية ـ سامحها الله ـ وضعته في روضة للاطفال وما عدت أراه الا مرة كل يوم أحد •

أتعلم لماذا أرسلته ؟ فعلت ذلك كي لا يتعلم مني كلمات قروية ، كي لا تفسد لغته وأنا أحدثه بلهجتي القروية • أتظن أنني علمته بعض الشتائم ؟ لا ! لقد تلفظت أمامه بكلمة واحدة • قلت له « القضوبة » بدلا من القضيب وكنت أقصد العصا الدقيقة التي نستعملها في الضرب • نحن نسميها في القرية «قضوبة» لأنها دقيقة ولانها تلتوي أثناء الضرب • أعطيتها لحفيدي ليسوق بها حصانه وقلت :

ـ اليك هذه « القضوبة » فلا تتعثر •

صرخت أمه :

ـ ما هي هذه « القضوبة » ؟ لماذا لم تقل عصا ؟ انك تشوه لغته بمثل هذه الالفاظ •

ـ وماذا في ذلك ياكنة ! سيتعرف الطفل الى مثل هذه الكلمة • يطلقون كلمة عصا على الغليظة أما الدقيقة فيدعونها «قضوبة» وهي ماخوذة من قضيب • دعيه يتعرف عليها فقد يحتاج اليها •

ـ لن يصير راعيا ليحتاج الى «قضوبتك» سيتعلم اللغة حتى شهادة الدراسة الثانوية وعندها سيقرر ما يجب تقريره • وعلى كل حال لن يحتاج الى « قضوبتك » •

وبسبب هذه « القضوبة » سيق الطفل الى روضة للاطفال •

قلت لزوجها : الأفضل أن أعود الى القرية ويعود الطفل الى البيت •

ولكنه قال حاسما الأمر :

ـ لا عودة أبداً • ستعود لتعيش وحيداً ! لتلوكني ألسنة السوء في القرية : لايستطيع اعالة والده •• اضطجع هنا • كل واشرب ولا تفتكر بأي شيء •

كل ! ولكنني لا أستطيب الطعام المسخن من العلب • المحاشي في علب •• الكباب في علب •• كل شيء في العلب •• يفتحون العلبة ويسكبون الطعام • وأسوأ مافي الأمر ان كنتي تضع فوقه « الصلصلة » لقد ذهبت الى المانيا ورأتهم هناك يأكلون كل شيء مع « الصلصة » فاشترت جهازاً لتحضيرها وما ان تنفد حتى تحضرها من جديد حتى كأن لا نفاد لها • لحم العجل ، لحم الخنزير ، المحشي ، كل شيء مع الصلصة ! فلا تستطيع أن تعرف نوع النخالة التي تأكلها ولا تستطيع ألا تأكل ـ المرأة حادة الطبع وتحرد

قلت مرة لكيرتش :

ـ سوف تقضي علي هذه «الصلصة» •

ـ لماذا ؟

ـ تؤلمني معدتي بسببها •

ـ انت على حق •• وهذا يعني أنك

مصاب بالقرحة ! ساخذك غداً للمعاينة فان كنت مصاباً بها فسوف يقطعونها •

ـ خذني •• عسى آن يقطعوني•

ليكن مـا يكون ، ليقطعوني ، ليمزقـوا معدتي على أن يحموني من « الصلصة » •

اشتهيت مرة أن أدق بعض الثوم مـع الملح والخل وآكل طعاماً انسانياً • جاءتني هذه الوجبة الحـادة كالبلسم بعد الصلصة الموقرة • ولقد كررتها مثنى وثلاثاً ولكنني سهوت مرة ونسيت أن أفتح الشباك•وشمت الطبيبة رائحة الثوم فقالت :

ـ رائحة أية جيفة هي هذه ؟

لم أستطع الكذب ، فقلت لها : ثوم •

ـ وعما يبحث هذا الثوم في البيت ؟

ـ اوه هوه •• دققته وأكلته •

ازرقّ ولدي •• ولـم تصرخ هـي ولم تزعق على الرغم من غضبها فهي ليست عـلى مثل هذا من البساطة ! تكلمت بهدوءولطف ولكن باسلوب يكوي كياً :

ـ جيد جداً ، ممتاز ! جمعت أنا وكيرتش حوائج هذا البيت من مختلف أنحاء الارض، وتاتي أنت لتطيبها بالثوم •• تعفنت الخزانة ساستدعيالنجار ليستبدلها •• ولن أستطيع أبداً أبداً بعد الان أن أستقبل الضيوف في هذا البيت •

أقنعتها بعد جهد بالا تحطم الخزانة •

قلت لها : تغاضي عن خطاي هذه المرة• لن يكون بعد الآن ثمة ثوم •• ليسد السلام•

السلام ، ولمـاذا السلام ! لقـد خضت الحرب مرتين : في الاولى كنت في الجبهة وفي المرة الثانية خدمت كعنصر تموين للكتيبة•• وأقولها لك •• لم أمت في الحرب بل ولم أخف •• ولكـن أستطيع أن أقـول لك ان الانسان قد يموت على مهل بسبب السلام •

ساوضح لكالامر : ضع انساناً فيمنزل، دعه دون عمل ، أطعمه كل شيء معالصلصة كلمه بالمطر عن الهواء فينتهي •

صرخت بكيرتش :

ـ عندمـا تذهب الى السدود لتغلقهـا وتفتحهـا ، أحضـر لي بعضـاً مـن أغصان الصفصاف فاجدل منها سلالا •

قال ابني :

ـ لقـد جدلت سلتكَ فاجلس بسكـون وابحث عما يطيب لك •

انه يشبه أمه رحمها الله • يقول قـولا فلا يحيد عنه حتى ولو مضت على ذلك أعوام عديدة • انـه لا يتراجع عما قال •• هـو مهندس يفهم بالارقام •• اثنان تظل دائمـة اثنين •• الصفر صفر •• كل ما عدا ذلك هواء وضباب•«ليلة سعيدة واضطجع لتنام»• اضطجع ولكن لا تنم •• فمـا ان أستلقي حتى يبدأ المثقب بالدوران • اليكم حالتنا، يقولون لـي : يا أبتي نحن نعيش في مكان واحد وناكل على مائدة واحدة ومع ذلك نحن غرباء واحدنا عن الآخر • لماذا ؟•

نحن غرباء الى حـد أنهـما لم يقبلا آن يمنحا الصغير اسمي حـين عمدناه لان اسمي ايغنات وسيناديه الاطفال غاتيو •• أسمياه

كراسيومير ، اسم جديد . جدك كان يدعى غاتيو وجد جدك كذلك غاتيو ولقد عاشا حياة نضال مع المتمردين «الهايدوت» وخاضا الحروب . جمعهما اسم واحد وكانا نصيرين سريين للثوار ، وهاهو حفيدهما يسمى كراسيومير .. لندع الحفيد .. فلقد بدأ والده بالتخلي عن اغناتوف ليصير ايغناتيف. ولقد سجل حتى في دليل الهاتف : « المهندس كيريل ايغناتيف » ويرن جرس الهاتفوأرفع السماعة :

ـ من تريدون ؟

ـ الرفيق المهندس ايغناتيف .

حين عاد قلت له في وجهه :

ـ اسم عائلتي هو اغناتوف .. وهذا مسجل في المحكمة منذ زمن . واكراما لـ هذه العائلة دخلت الجامعة ودرست الهندسة وصرت تركب سيارة .. فمن أين اخترعت الاسم الآخر . فاما أن تتبرأ في الجريدة الرسمية من العائلة أولا تحرف اسمي وتحتقره .

كان أحيانا يكشر في وجهي ، أما في هذه المرة فلم يتفوه بحرف . ولكن شجاعتي لم تفد حفيديفيشيء فقد ظل اسمه كراسيومير.

هذا مثقب صغير وثمة آخر أكبر . عندما أداروه مرة .. حفر في أحاسيسي ثقبا مخيفا . ضايقني طوال ساعتين من ساعات الليل حين تساءلت : لماذا تركتبيتي في القرية وجئت لأنزوي في هذا القفص الذهبي ؟ لماذا ؟ ولكن قل ذلك لابني الذي يقول لي : ماذا ستفعل في القرية حيث ستعيش وحيدا منفردا ؟.. كيف أستطيع أن أفهمه انني أكون في قلب العالم حينأكون في بيتي في القرية ، الكرز في البستان ، قرع ، بصل ، هذا وذاك .. شيء يرسل خريرا ؛ آخر يرسل حفيفا ، ثالث يثغو .. كان عندي جديان قبل أن أجيء .. اثنان أبيضان شيطانان .. لقد تعودا أن يقتربا مني اذ أعود تعبا واجلس على العتبةوالعرق يسيل من جسدي ، ويلحسا بلسانيهما عرقي ، خلف اذني ، رقبتي وحيث يمكن أن يدور لساناهما . رغم الملوحة يلحسان وينفخان، وينفخان ويلحسان ، فكانهما يعدانني لتناول القربان المقدس .. ذبحناهما لنولم لولدي. حتى الساعة لم اغتفر لنفسي . كانا اذ يسمعان صوت انفتاح الباب يشرعانبالثغاء: ماع ع ، ماع ع .

سأروي لك شيئا عن الباب . انه بمفصلات بدائية ولكنه ثقيل ومن خشب السنديان . يصر عند الفتح ويصر عند الاغلاق . يغرد أحيانا كالشحرور ويرسل صوتا أبح أحيانا أخرى . حين تكون ثمة رطوبة يثغو كالحمل ، وعندما يشتد الحر ويجف يصير كالارغن اليدوي تماما ! وأنا أعرف من صريف الباب متى ستمطر ومتى سيعتدل الطقس..حتى صرت أقولللمهندس الزراعي : كف أيها الفتى عن رش الكروم فغدا سوف تمطر .

كان المهندس يجيبني : ولكن المذياع يقول غير ذلك

ـ استمع أنت الى مذياعك وسأصغي الى مذياعيالخاص وسنرى أيهما سيقولالصواب.

وهطل المطر حسبما قلت • ومنذ ذلك الوقت صار رئيس فريق العمل ياتي الي ليسالني عما سيكون عليه الطقس اليوم وغداً •

هذا الباب يصدأ الان •• ليس ثمة من يفتحه ولا من يصغي لما يقوله ، ولا من يؤانسه •• كنت قد أرسلت رسالة الى عديلي أساله فيها أن يخبرني عما اذا كان البيت ، وعلى الأخص ، الباب ، على ما يرام ولقد أرسل الي القصاصة التالية :

« تحياتي لك ياعديلي

تفحصت الباب وهاأنذا أفيدك بانه لازال في مكانه ولا زال سليماً •• ولكنه لم يعد يغني ولا يصر بل يصرف كمن يصرف بأسنانه ويعوي كالكلب المضروب •• رئيس فريق العمل يسال عنك والجميع هنا يسالون عنك ، فليكن في علمك » •

أعطيت الرسالة الى ولدي ليقرأها ، عسى أن يحس أنني بحاجة الى البيت ، وانني لست حبل سرة قطع ورمي في مسيل عميق ، فهل تعلم ماذا قال لي ؟

ـ أنتم العجائز كالاطفال : لا تبحثون عن راحتكم • وسواء لديكم من يصرخ في وجوهكم ومن يعزف لكم •

ـ آخ •• أين أنا الآن !• امض •• لقد تساوت الصلصة والثوم •

لئن كنت لا تستطيع الكلام معه ، فمع من ؟ ومع ذلك أرغب في الكلام ولكنني لا أجد المكان المناسب وليس ثمة من أكلمه ••

في الحديقة يجلس الفتيان ويلعبون الورق•• ابتعد قليلا يتعانق بعضهم ويتبادلون القبل•

وابتعد قليلا أيضاً ترى الامهات والاطفال ولا يوجد هنا أحد ممن هم في مثل سني • أيسيرون بالصف أم تراهم يرهقهم الحر ؟ لا أدري •• ولكنني لا أرى أحداً منهم •• قد أصادف أحداً ، موظفاً في بنك أو كاتباً على سبيل المثال ، فلا أجد ما استسيغه في حديثه• التقيت مرة بمقدم متقاعد • أخبرته أن موسم الكروم سيكون جيداً جداً هذا العام وان الكرامين سيرشون الكروم طوال النهار ولكنه راح يحدثني عن اللازر القادر على اختراق كل شيء •

ـ اللازر سيقضي على المدفعية ، سيحل محلها ان عاجلا أو آجلا،سوف تفنى المدفعية•

ثم راح يروي لي كيف بدت مدفعيته فوجاً انكليزياً فرنسيا • وحكى عن القنابل الضخمة التي تتفجر وأبدى أسفه لانها ستتلاشى بصمت فكان ما فعلته لم يكن سوى انتفاضة النزع الأخير •

حكى لي هذا عن الحرب ، و كان الآخرون يتحدثون عن الادوية والاوجاع ، متى تحسنوا وكيف دلك أحدهم صدره بالمرهم ، الكمادة التي نصحه البروفسور الطبيب دينكوف باستعمالها • أحدهم ، من قرية كراسنو يدعى يوغي او يورغي وصف لي كيف يلطم رأسه كل صباح ليغذي دماغه بمزيد من الدم •• ورغم ذلك ترى وجهه شاحباً حتى لتظن أن قطرة واحدة من الدم لم تجر في رأسه طوال حياته • رقبته ملتوية ، تبدو

يسراه وكانها تطقطق بين الحين والحين • نعم هكذا ! لو أعطوني هذا اليورغي لأعطيته مجرفة وعندها سترى كيف يتدفق الدم في عروقه •• بدأت استشعر ألماً في ركبتي لبقائي طوال العام هنا فصرخت : ويلاه ، رباه ! ساموت ! جعلوني أصير كالغربال من شك الابر • صرت أتالم دون أن أتكلم •• مر مرة عديلي حاملا مجرفة •

ـ الى أين ؟

ـ أعطوني قطعة أرض في التعاونية •• وها أنا ذاهب لاسويها كي أزرعها برسيمة للخراف •• تعال معي !

ليكن ما يكون • مشيت معه • سوينا الحقل ، شذبنا الدغل وحل المساء فزال مني كل ألم حتى لكان أحداً قد مسحه بيده ودفنه في الارض • قلت لرئيس التعاونية : أعطني قطعة من الارض أسوة بالاخرين اذ يوجد لدي الكثير الكثير مما يجب أن أداويه بها •

قال الرئيس : ابحث عما يطيب لك ! ما حاجتك الى قطعة الارض ؟

صحت به : أعطني مرجاً مهملا وساخبرك بعد ذلك بما يطيب لي •

كان يحترمني فانا ممن أسهموا في اقامة التعاونية ، ولقد أعطاني مرجاً ولكن ، أتعلم أين ؟ تحت ذيل الكلب ، في مكان قفر • كان فيما مضى مرجاً فترك الادغال البرية تنمو به مما أضر بتربته وخنقه فلم تجسه قدم •• أنا كرام بالدرجة الاولى ومع ذلك لم أقصر هنا • أزلت الادغال البرية أولا بأول •• تقصيتها واجتثثتها ورميتها بعيداً ، نظفت المرج ولكنني صادفت جذر « قرانيا » ضارباً في الارض عميقاً فلا يتزحزح ولا يهتز • عالجته بعصا المجرفة فلم افلح • حفرت حوله ولكنه كان صلباً معقداً يتمسك بالارض بقوة ولا يريد مغادرتها • قطعت كل تفرعاته ولم يبق منها سوى واحد ، ومع ذلك لم يخرج ذات يوم أحد تعاركت معه كما لو معووحش، قطعت ، حفرت ، لهثت وأرغيت وأزبدت ثم أخيراً ، ألقيته أرضاً وتنفس المرج • سويت الارض بالمجرفة وسورتها بحاجز وغرست شجرة كرز مكان جذر القرانيا • وغرست كمثرى وخوخاً،جمعت بذور النفل وبذرتها وسقيتها وتركتها تنمو •

في عيد القديس قسطنطين ذهبت وعديلي لنحش العشب فماذا رأينا ؟ كان النفل مزهراً وقد اختلط زهره بزهر الخشخاش واحمرت ثمار الكرز فاجتذبت روائح الزهر المتضوعة من الغابة حشوداً من النحل وغيره مما يتعشق الزهر وقد فردت أجنحتها وراحت تمتص الرحيق •

صاح عديلي : هيا لنحش !

ـ يسقط الحش • لن يحش هذا المرج• دع النحل يغني ويشكر غاثيو •

قلت مساء للرئيس :

ـ ان كنت تريد أن تعرف ما يطيب لي فاذهب معي غداً الى المرج •

وافق الرئيس وذهبنا •

ـ هاهو ذا ما يطيب لي أيها الرئيس !

ـ هذا جيد •• ولكن سيصير الامر أكثر وضوحاً اذا وضعت تحت مزراب العين « دمجانة » من شراب « الغمزا » (نوع من

الخمرة البلغارية الجيدة) واستلقيت على هـذا النفل وكانت لديك شاورما وتطايرت من حولك عالياً عظام فطيم مشوي وعندهـا ساعرف جيداً ما يطيب لك ٠٠ حسن ان معي بعض الشحم ٠

أخرج ما لديه من الشحم وأكلـه ثـم ذهب دون أن ينظر الى الكرز أو أن يستنشق العبير الفواح ٠

ولم تتطاير عظام العظيم عالياً ٠

منذ ذلك الحين وانا أفكر بما يطيب لي٠ قلت مرة لكيرتش :

ـ أيها الرفيق المهندس ٠٠ تطلب مني أن أفعل ما يطيب لي فماهو هذا الذي يطيب؟

ـ اتسال ماهو ؟ هو أن تنام ، أن تذهب الى السينما ٠ ويمكن أن تلعب «الطرنيفه» (من ألعاب الورق) فيما لو وجدت من تلعب معه ٠ أما المزاج الرائق فهو : أن لا تهتم لأي شيء ٠

قلت : هواء هو مزاجك الرائق هذا ٠٠ أتعرف ماهي هذه السينما التي تحدق اليها كـل مساء ؟ انهـا كالزيت الذي تنقعه في الزجـاج ٠٠ السينما الجميلة هـي التي أحياهـا أنا ٠٠ أما أن لا تهتم لأي شيء فذلك هو الموت ٠

ـ انـه لأمر طبيعي أن تتقاعد وألا تهتم لأي شيء ٠ يجب أن ترتاح ٠

ـ لا ، ليس طبيعياً الا يهتـم الانسان الحي لأي شيء ٠ أتوجد في الطبيعة وريقة متقاعدة؟ كلا لا توجد ! ولا يمكن أن توجد٠ هل سمعت بأن الصقور تحال عـلى التقاعد فتجلس قرب الاعشاش فاغـرة الفم تزقهـا الصقور الفتية بالفئران ؟ الصقر يطير حتى النفس الاخير ثم يهوي الى الارض ٠

رويت له ما حدث لي مرة قرب « المياه البيضاء » اذ كنت في وقت القيلولة تحت احدى الصنوبرات وحولي الخراف ٠ سمعت دفيفا فوقـي ٠ نظرت فرأيت صقراً منطلقاً من ناحية برسنك ويندفع الى الاسفل فالاسفل حتى صار فوقي ومن ثم انهبد خلف الصنوبرة٠ نهضت لارى مـا حدث فوجدته فارداً جناحيه فوق المرج وقد فارقته الروح دون أن يكون مصاباً بجرح أو ثقب ٠

مات وهو يطير ! ذلك هو الشيء الطبيعي يابني ! أن تموت وأنت تطير ٠٠ أما أنت فتحبسني في هذا القفص ٠٠ هذا ما أردت أن أقولـه لـه ولكنني لكته وبلعتـه دون أن أتفوه به ٠

نظر كيريل الي ونظر فكانه يراني للمرة الاولى وقال :

ـ ساذهب بك الى الطبيب ، يبدو لـي أنك مريض الاعصاب ٠

ـ دعني من الاطباء ٠ الافضل لك أن تذهب الى السينما ٠

ظننت أنه سيفهم ما قلته له ولكنه لم يفهمه ٠ الكلمات بالنسبة لـه كالأرقـام ، اثنان هي اثنان والصفر هـو الصفر ٠ أنا أتجه نحو المروج الرحبة وهو يتجه الى بغداد! أين سنلتقي ؟

هاهـوذا الثقب الغليظ الـذي يثقبني ليلا ٠ انـه يدور ويدور الى ان يلقيني في

اتون النار والعرق ·· انهض لأفتح النافذة كي يدخل الهواء وما أن أفعل حتى يدوي هدير المحركات في الاسفل : بر ـ بر ـ بر بو ـ بوك ـ بوك ـ غررر ـ غررر · برر·· بررور ـ بر · بررر بو ـ وم · وتزعـق الدراجات النارية في الشارع وكأنها تسدد زعيقها الى اذني وقلبي · عدد سكان مدينة تولشاف يقارب المليون نسمة · وفيها محافظ وفرقة جيش بكاملها ، أفلا يوجد فيها من يبعد عنها هذا الألف أو خمسة الآلاف من أصحاب الدراجات النارية التي تصم وتخرب هذه المدينة ·

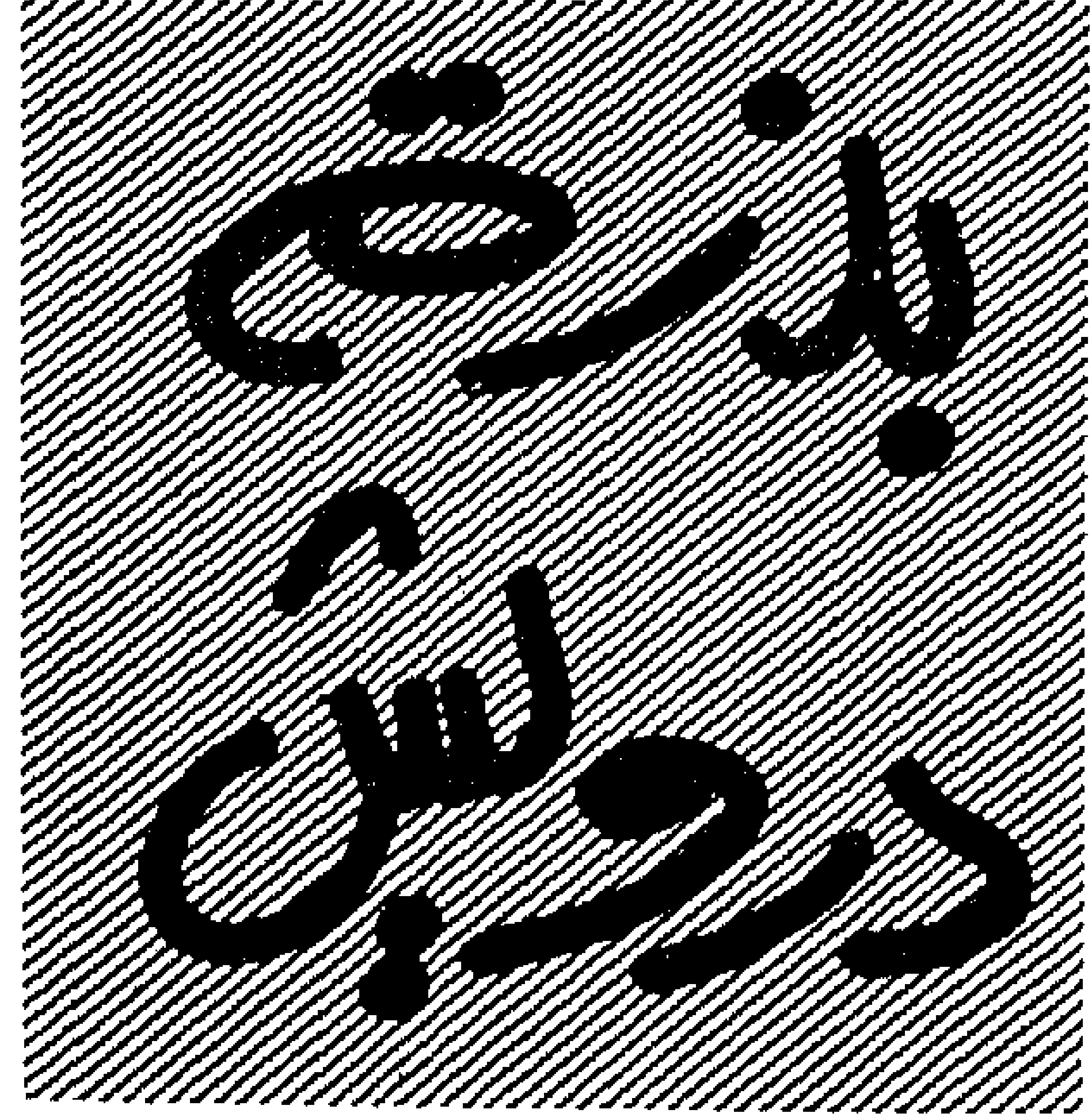
أغلقت النافــذة ووضعت رأسي تحت الصنوبر ·· حتى الان أجد في هــذا ملاذي الوحيد ·· يلزمني شيء آخر : أن أهرب·· جسدي بحاجة لاستنشاق عبير التراب الهش الدافيء الحي ! لا فرق بين الحديث معكيريل أو الثلاجة ·· هذا لا يعني أن ابني سييء، انه يعمل باخلاص وشرف حتى لتحسب أنه لم يفقس في بطن أمه وانما في برميل ولهذا لا تشم منه رائحة انسانية وانمـا رائحـة البنزين ! لا جدوى من كلامي معه · سأكتب له هذه القصاصة وحسب !·

« كيريل ، أنا ذاهب الى القرية ، انهم ينقلون الغراس الغضة لزراعتها في أماكن أخرى ·· لقد احضرتني الى المدينة لتغرسني فيها ، أنا الذي عتقت ، ليس لي هنا جذر، جذري هناك في القرية وأنا ذاهب لابحثعنه، ساذبل وأجف وسأنزلالى قبري مفتوحالعينين·

اعذرني يابني ولا تبحث عني ·

أنا ذاهب الى المروج الرحبة ، أما أنت فتابع طريقك الى بغداد ·

والدك غاثيو ·



هـذا الذي سأحكيه لك قد حدث منذ زمن بعيد • لم أكن قد أكملت الرابعة عشر من عمري ، وكنت دون أم أو أب • قتلوا أبي بسبب بقرة صالح ، وماتت أمي بالحمى الاسبانية • ربيت عند جد عجوز وجدة ، كانت يد جدتي اليمنى متخشبة ، وهذا يعني أنه لم يكن ثمة من ينجز أعمال المنزل•وضع الجد عينيه علي ، ليزوجني ، لم يسألني • لم يكونوا يسألون ، حينذاك ، الذين يزوجونهم ، العجائز ينهون الامر فيما بينهم سمعتهما مرة يتحدثان قالت جدتي :

ـ لا يزال صغيراً !

ـ سيقوى ـ قال جدي ـ المهم أن نجد له صبية !•

ماذا رأى جدي وكيف ؟ لا أستطيع أن أقول لك ، ولكني عدت ذات مرة من المرج فرأيت في البيت أحد بني آدم في زناره مقص كبير • قال جدي :

ـ يارمضان ! لقد دعوت الخياط ليخيط لك سروالا • فهل تريده ملونا أم أشهب اللون « ساده » ؟•

لم يسألني سوى ذلك • خطبوا لي ، زوجوني وما سألوني سوى : « أتريد سروالا ملونا أم أشهب اللون ؟ » •

جاء الخياط يوم الاربعاء وأنهى خياطة السروال يوم الخميس ، كان سروالا ملونا ذا شرائط ومطرزات ، ويوم الجمعة جاء المطبلون وقرعوا طبول العرس • الطبول تقرع والقدور تغلي باللحم ، وأنا لا أعرف من هي التي ستكون عروسي • سألت جدتي خجلا •

ـ أمن الجوار هي ، أم من القرية !

أما من هي ، وكيف تكون ؟ فلم تقل جدتي شيئا ولم أتجاسر على السؤال • عرفت مساء من هي وكيف هي •• تلا الشيخ صلاة القران ، وقرع الطبل لنا ثم حان الوقت الذي نترك فيه وحيدين في الغرفة ، انتحى جدي بي جانبا وقال :

ـ احرص على أن يكون ثمة دم غدا صباحا ـ فلئن كنت قد استرجلت فاعمل كالرجال ! المهم أن يكون ثمة دم ، والا فان القرية كلها ستسخر منك !•• ودفعني الى الغرفة ثم اقفل الباب •

جلست حوالـي نصف ساعة من الزمـن متخشبة ، دون أن أتجاسر على الحركة ، أو على اماطة نقابها ، أخيراً ، أنزلت حجابهـا بيدها وأومات • ظننت أن جـدي قد جلب لي امرأة سمينة ، بدينة ، ولكني رأيت فتاة كالفراشـة ، بيضـاء كالحليب ، عيناهـا غامزتان واسعتان ! حدقت اليها باستغراب، وراحت تنظر الـي ثم انفجـرت ضاحكة ثـم سألت :

ـ أخجل أنت ؟

ـ أجـل !

ـ ممم تخجـل ؟ لديك سروال مزرر ، أنظر! بالزنارك ! أتريد أن نلعبونتدحرج؟ قبل أن اقول لها ان كنت أريد أولا أريد ، أمسكت بزنـاري وراحت تشدنـي وتقلبني وتطويني •• وهكذا لعبنا جيداً فلـم نشعر بصياح الديكة الاوائل ، وعندها خطر الدم ببالي فامتدت التجعدات على جبيني ، « الآن جميل ، ولكن سيأتي الفجر ، وسيأتي اولئك الذين سيسألون عن الدم ، وبعدها ؟ » رأت ما أصابني فسألتني عما أفكر به فقلت :

ـ بالدم !

قالت :

ـ سأجـده لك ! نفخت خديهـا فصارا بلون الارجوان ونقرت أنفها فنفر الدم • لن أقـول أين وبماذا مسحناه ـ انتهى كـل شيء ، عشت مع سيلفينا كرجل مع امرأة، هي فتاة ، ولكنها زوجتي • في الانثى امرأة منذ الطفولة ، أهي تحت الاهداب ، أهـي تحت الاظافـر ، المهم انها موجودة ! أمـا بالنسبة للذكر ، فالأمـر مختلف • الرجل الذي ليس لـه لحية يحك بها وجنة المرأة ليس برجل ! ان القلب حين يفكر بامـرأة لا يسأل الرأس ولا اللحية وذلك ما حدث لي • فحين تدحرجت مع سيلفينا ولف أحدنا الآخر ولعبنا قدر ما استطعنا ، شحن قلبي وشحن • وحـين حاولـوا قسره عـلى الانثناء انتزعوه مني مع جذوره •

حصل ذلك دون أن يشعر أحد • سار كل شيء وكأنما على الماء ـ كما يقال ـ ولم يكن ثمة من يظن أن منالممكن أن تكون تحت مياهنا صخرة يرتطم بهـا زورقنا فيستحيل حطاما •• تبقى سيلفينا في المنزل ، تعتني بالجدة وتستقبلنا ، حين نعود ، بالعصيدة الساخنة ، تعمـل ، تكنس حتى صـار بيتنا القديم يتوهـج كالشمس • حتى الاعمـدة ابتسمت ـ فقد زينتها سيلفينا بمختلفأنواع الزهـور والاعشاب • وصارت تبلل زجـاج النافـذة ثلاث مرات وتنظفـه لتتمرأى بـه وتمشط أمامه شعرها • لها شعر يلوح من هنا أشقر اللون ومن هناك يبدو أحمر كأنه يشتعل • واذا نظرت اليه من ناحية أخرى رأيت ما يشبه الذهب الحي يتماوج فوقه !

تبدأ تسرحه وأروح أنظر اليها وأنظر الى أن يصيح بي الجد :

ـ هيا يارمضان ! عنزاتك تكـاد تموت جوعـاً !•

أي عذاب مع العنزات ! تقف الشمس ، صيفاً ، متكاسلة وسط السماء فلا تغيب ! انها لا تساوي خمسة قروش ، وعروسي في القرية ، يخطر لي أن أشب وأرمي الشمس

بهراوتي ثم أدفنها في الأرض فلا تشرق بعد الآن • ليبق الليل الى الابد لا ظل مضطجعاً قربهـا أو لا داعب أهدابها بأنفاسي • لقد تعودت مداعبتها حـين آستيقظ صباحاً بان انفخ على أهدابها الى أن تنتظم كل شعرة في مكانها • كنت قد وعدت سيلفينا بان أجلب لها مشطاً من العظم لاهدابها حين أذهب مع جدي الى المعرض في فيليبه • أخلفت بوعدي• ذات يوم كنت في الحصاد مع جدي ، وحـين عـدنا مساء الى البيت رأيناه خاوياً معتمـاً بـدون العروس • قالت الجـدة ان أخـوي سيلفينا قد طلباها • لـم تعطهـا اليهمـا فدفعا الجدة وأخذاهـا • قـالا ان لسيلفينا بائنة ويجب أن تحصل عليهـا • أركباهـــا جواداً ، وحين جاء الناس انطلقا بها صوب الغابـة •

لا أعرف ما أصابني ، ولكن حين رآنـي جدي أتناول سكيناً أمسك بي وقال لجدتي:

ـ أعطني حبلا !

أحضرت جـدتي الحبل فربطني جدي الى العمود وقال لي :

ـ أنت تلزم لي من أجل النسل ، لـن تتحرك ! أريـد أن يعول هنـا حفيد حسن درويش ، ثم لتذهب فتقتل حيث تشاء !

امتطى البغل واندفع خارجا وهو يصيح بالجـدة :

ـ حافظي عـلى بذرة درويش أو اشـج رأسك !

جدتي تعرف من هو جدي فلم تحل وثاقي• لكان ثمـة مئة علقة تمتص دمـــاء قلبي •

أحسست به يتضاءل كالميت ولم يكن يراودني سوى أمل ضئيل بان يكون أخواها قد أخذاها حقاً لاجل البائنة • ثم انهما أخواها وليسا غريبين !•

بهـذا الأمل الضئيل عللت نفسي حتى مجيء جدي مع الفجر • كان الزبد يعلو فم البغل وجدي في أسمال لكثرة ما مر بادغال• دفعني الى الغرفة وأقفل الباب ودخل وجدتي غرفتهما• يفصل بيننا جدار تتوسطه مدخنة • الجدار يطـن عند المدخنة فأستطيع التقاط حديثهما من هناك • انحشرت في مكان ضيق وأصغيت • جدي يتكلم بصوت خافت ولكني فهمت كل شيء ، كان يقول :

ـ لم تعد لنا كنة ! أخواها بلا أدب، علما أنها لا تزال عـذراء فاعطياها لرفعت مقابل تيسين •

سألت جدتي :

ـ والآن ؟

ـ الآن أخذوها الى الغابة ولا يعلم أحد متى يعودون • ولكن ما الفائدة من عودتهم ان كانت ستعود وفي أحشائها بذرة غريبة ؟

سألت الجدة :

ـ والان ماذا ستفعل ؟

قال الجد :

ـ يخطر لي •• أتعرفين ماذا ؟ ان أدق رفعت كالطلقة في الجفت ! وسوف أفعلها ، ولكـن ليس الآن • سأزوج رمضان وأنتظر مجيء الحفيد ثم أجعل أم رفعت تبكي •

كلمات جدي ، كلماته هـــذه ، جعلتني التصق بالوجاق ولا أتحرك • وهذا ماجعلني

انغمر بالرماد صباحاً ! أحضر جدي الشيخ باكراً وعزم علي ورقاني : كي لا أشنق أو أغرق • حتى لا أخاصم أو أعارك •• لاورث جدي حفيداً •• ثم ليحطم رأسي بعد ذلك•

الاحداث التي تلت مرت هنا ، عبر قلبي• ولقد أوجعتني كالمسلات • المسلة الاولى حين رجعت سيلفينا الى القرية • أهـل رفعت جيراننا•يفصل بيننا وبينهم جدار لا أكثر• ولكن حين عادوا لم يرهم أحد • مر حوالـي الشهر أو أكثر ولم يبد على سيلفينا أن هذا الظربان قـد علكهـا ، علك وجنتيها كالعجين ، لم تتجرأ على ذكر ذلك • وقـد عرفت ما جرى •

أعجب بها رفعت منذ اليوم الاول ، حين رآها تسير في الحوش فاحدث ثقبة في الجدار وراح ينظر اليها•هو يكبرني بسبع سنوات، وفوق ذلك ، كان مرفها • لا يذهب للاحتطاب ولا الى الحقل بل يساعد والده الذي يعمل لحامـاً • يشرب العرق ، ويكثر ثـم يروح يبيع الناس تبجحا وفخفخة •

لدى أهل رفعت تيسان ، تيسان مكتنزان ، وفي عنقيهما جلجـلان كبيران يرنـان فيسمع رنينهما عبر عشر تلال • أخوا سيلفينا ، رجب ويومير مـن الجشعين ــ راعيان هما ــ يحسبان حساباً للجلاجل والتيوس • ساومـا رفعت • همـا يريدان التيسين وهـو يريد اختهمـا • ولقد عرفـا أنهـا لا تزال تسير ببطن عذراء فاعطياها له •

رغبت كثيراً في رؤيـة سيلفينا ، ولكـن ذلك الضاري ظل محتفظا بها تحت القفل فلم أجد سبيلا لرؤيتها • افتكرت بها مرة ، وما أن حل الظـلام حتى صعدت الى سطح بيتنا واختبات خلف المدخنة ورحت انظر عبر نافذة بيت رفعت • النافذة مستديرة ، وفي الداخل يشتعل مصباح بترولي فيظهر كل ماقي البيت بوضوح • ليس كـل شيء تمامـاً ، ولكني رأيتهمـا يجلسان الى المائـدة ثـم رأيتهمـا يرفعانها ، ورأيت رفعت يحل زناره •• و•• لم أستطع رؤية عينيها ، ولكن رأسها ينوس كالمقطوع •• هو يمسكها من رأسها ، يسند ذقنها بابهاميه ويلتهمها كالمتوحش •

المصباح يشتعل وقلبي يذوب كالشمعة ! كيف لا يذوب هذا القلب ! كيف لا ينتهي! كيف يبقى الى الغد وما بعد الغد ؟ أحست جدتي باختبائي وراء المدخنة واخبرت جدي بذلك فزجرها وقال :

ــ ليفعل ــ ليتوثق ! ليمتلىء كرهاً ! ليتعلم ، فلا ياخذ دم امرأة من أنفها !

أكان جدي على صواب ؟ أكان على خطأ ؟ لن أحكم عليه ولكنه ، فيما يخص الكره ، كان مصيبا : حين تجمح بك الرغبة لا تفكر بغيره • أرأيت دمية محشوة بالقش ؟ ليس في داخلها شيء ! لا قلب ، لا عظم ، تقـوم فقط على قشة ، أنا مثلها ، قشتي كانت الكره• وهو الذي جعلني اظل واقفاً على ساقي •الكره الذي سابديه لرفعت هو في رأسي وتحت لحافي ومعي في الحقل•اتخيل ليل نهار كيف ساقطعه بالبلطة أو أطعنه بالخنجر في بطنه ولا يموت حالا بل يتعذب • يجر أمعاءه على الارض وأنا أدوسها بقدمي وامزقها باظافري دون أن يشفي

هذا غليلي : سيتعذب قليلا بالخنجر ٠٠ فكرت بعذاب آخر ، أن اخنقه على مهل ، علىمراحل، ولكنني فهمت أنني اذا لمسته فلن أتركه ، لهذا رفضت فكرة الخنق ، ابتدعت عذابات جديدة،قتلته ثلاثمئة مرة وأعدته الى الحياة٠ اشتعل راسي ٠ ذبحته وقطعته الف مرة ٠ وهنت يداي وصرفت بأسناني الى أن التهبت أخيراً القشة بالدمية وارتعدت من الحمى وانطرحت مريضاً ٠

عندها ، خاف جدي ، ليس من أجلي ، وانما من أجل بذرة درويش ، حملنيوانطلق بي الى تريغراد ، الى السمينة عائشة ٠ سقتني العديد من الادوية المرة ، دهنتني بالكثير من المراهم فغادرتني الحمى بعد اسبوع وشفيت ٠ ولكن جدي لم يعد بي الى القرية بل تركني في تريغراد مع عنزات ديليومير وأوصى عائشة أن تسقيني ما تشاء على الا أعود بدون لحية وشاربين ٠ وهذا ما حصل ؛ هل كان ذلك بسبب المرار أم بفعلالسنين ـ لم تمضسوى عدة أشهر حتى نبت في وجهي شاربان ولحية ٠٠ لا احد يعرف أية لحية هي ، ولكنها لحية على كل حال ! خفف ذلك مما اعانيه،شفيت من داء الخنازير هذا ، ورحت أفعل ما يروق لي ٠ وجاء الجد وقال :

ـ هيا نزوجك ، يدي تحكني ، وساجعل أم رفعت تبكي !

قلت لجدي :

ـ بامكانك أن تزوجني ، وأن تفعل بي ما تشاء ، ولكن لا تتعرض لرفعت ! أنا ساسوي الامور معه !

ارغمته على أن يقسم لي على ذلك ، وتزوجت في تريغراد ٠ لم يكن ثمة لعب هذه المرة : تم كل شيء على ما يرام ، وولد طفلي ، لا في الشهر التاسع وانما فيالشهر السابع ! لقد عرف ، على ما يبدو ، أن جده مستعجل فسلق موعد ولادته ٠

لم اكن منذ سنوات قد رأيت جدي يضحك ٠ ورأيته الآن ٠ لقد ضحكواضطجع ليموت ! اضطجع فعلا ! بعد ثلاثة أيام من ولادة الطفل اضطجع ! خطا متكشراً ثم ارتمى على الفراش ، تراقص حاجب عينه اليسرى وحيداً ثم ناداني وقال :

ـ يارمضان ! رايت ، أنا جدك ، بذرة درويش وهاأنذا ذاهب لاحمل لوالدك «خبر الخير» ٠ أما رفعت فاتركه بين يديك !٠

قال جدي ذلك وانتهى تاركاً بين يدي طفلا وزوجة ورفعت ٠ وهيا يارمضان لنرى كيف تحمل ثلاثة اشياء بيد واحدة ! ثلاثة اشياء : غريم ، وطفل ، وزوجة ! ـ انت القشة التي تحمل الدمية ٠ عليك أن تسير مستقيماً وأن ترعى العنزات وأن تحرث لتاكل٠ وأما كبدك وقلبك فهما عند القصاب ، رفعت، يعصره كما يشاء !٠

قلت لنفسي : يجب أن يكبر طفلي قليلا لتستطيع أمه أن ترعاه ، وعندها أشق بطن رفعت ٠٠ ومن ثم قلت : سانتظر حتى يمشي ! وحين مشى بدأت سيلفينا تخرج وعلى يديها طفل ٠٠ تتمشى عبر الحوش كسابق عادتها ٠ الحجاب يغطي وجهها ، لم أره،ولكن عينيها تدوران وتدورانلترياني ٠

ثقبت ثقباً في جدار الانبار ورحت أنظر اليها .. بينما كنت أنظر اليها في الانبار تبعها رفعت عبر النافذة ، وتبعتني زوجتي. لحسن حظي أنها امرأة لطيفة ، لم تصرخ ولم تخاصم . راحت تذرف الدمع دون كلام.

وتوالت الايام على هذا المنوال : أحرث، أحفر ، أو أذهب مع العنزات وأسرع في العودة قبل حلول الظلام . التصق بالثقب الذي في جدار الانبار وأنتظر سيلفينا لأراها. فاذا رأيتها نصل سمي وتعبي مني ، واذا لم أرها أمضيت الليل وأنا أصرف بأسناني حنقة على رفعت ـ أسلخه ، أخنقه أسممه دون أن أجد سكينة لروحي . قررت مراراً أن أنهي أمره ، ولكن ما ان أفكر بأنني سأمكث في السجن حيث لا يوجد ثقب أطل منه على سيلفينا حتى أتصاغر وأتريث .. وهكذا استمرت الحياة ، يوم اثر يوم ، وعام اثر عام . لولم يكبر أطفالي ، لو لم يتزوجوا وينجبوا أطفالا ، لما عرفت كم مضى من الاعوام . الحاجز الذي بيننا وبين بيت رفعت ، وهو من خشب السنديان، قد اهترأ ولم يكن يسيراً أن يظل رفعت يثمل بالخمور المبردة بالثلج كل مساء ، وأن يستيقظ كل صباح مع الصقيع . لقد شرب الكثير الكثير من الخمر . آن لزمن سيادته أن يولي ـ أخذوا منه ملحمته فزاده ذلك انسحاقاً . واذ لم يضرب بالدبوس ، راح يضربه دبوس الخمر .. قصم الخمر ظهره ورماه طريح الفراش . تزوجت بناته في قرية أخرى وبقي وسيلفينا وحيدين رفست الحاجز النخر ودخلت حوش بيت سيلفينا كما أدخل بيتي.

اجتزت الحوش الى غرفة رفعت وجلسنا هناك. لاول مرة نجتمع نحن الثلاثة في مكان واحد منذ أربعين عاماً، ولاول مرة أنظر الى رفعت، عيناً لعين ، وبيننا سيلفينا . روحي آثمة، ياسيدي ، لاقل لك ، فقد وددت لو أحتضن سيلفينا أمام عيني رفعت ليراها بين ذراعي كما رأيتها بين ذراعيه طوال حياتي . لكنها لم تسمح بذلك :

ـ يكفينا أننا هنا . لئن كان ضارياً فلا تكن أنت كذلك !

ستسأل : وماذا الآن ؟

الان تسير الامور على الشكل التالي : يبرد رفعت وليس لدى سيلفينا حمار، وبدلا من أن تحتطب وتحمل الحطب على ظهرها وتشعل له النار في المدفاة اذهب وأحتطب . كل يوم أجلب حمل حمار حطباً فلا يكفي . نظم خفراء الغابة بي محضر ضبط وطاردوني لينظموا محضراً آخر فهربت . لهذا صرت أذهب ليلا ، أراقب بعيني واقطع بيدي إلى أن ينام الخفراء فاجر ، عبر الوادي ، الحطب الى البيت وقد تحطم جسدي من أجل الذي أحرق روحي ! أشعل النار وأدفيء ذلك الذي جعلني أعيش أربعين عاماً ، في النار حيناً ، وفي الجليد حيناً ! لم أستطع الكف عن ذلك . فلئن فعلت فان سيلفينا هي التي ستحتطب . أكون في عملي فتستدعيني لمساعدتها .. ولانه معلوف جيداً فهو ثقيل ويتوجب رفعه ، واعذرني ، لنفض فراشه ، ازالة فضلاته ، امرأة ضعيفة لا تستطيع القيام بعمل كهذا ، ومن لهذا ، من ، ...

وهيا يارمضان لتخدم رفعت ! ولقد خدمته كي لا يقع عبء ذلك على عاتق سيلفينا •• سمعتهم في المحلة يتحدثون : « انظروا ، اي جار هو ، أي انسان ! » ولكنهم لا يرون ما يحدث في داخلي ، في داخلي ، ياإخواني، يغلي القطران ويغلي ! انتظر موت رفعت لاتزوج من سيلفينا ، ولكن هذا الكرجالي لا يذهب•ومن هنا القطران الاسوأ • أريد أن أنام معها تحت لحاف واحد كرجل مع امرأة وليحدث بعدها ما يحدث •• ساترك زوجتي وأولادي وكل أحفادي وأذهب اليها، ولكن هاهوذا يتمدد بيني وبينها ، رفعت المشلول هذا ، يتمدد دون حراك ! والزمن، يا آغا ، يطير وركبتاي تضعفان ولا أعلم ان كنت سأنام مع سيلفينا كرجل مع امرأة ونكون كاخ وأخت فلا يباغتنا احد • أفكر أحيانا : يتألم هو ، ونتألم نحن ، لماذا لا افتح له باب الغرفة الذي أغلقته منذ عامين ؟ لن أخنقه ولن أغرقه : أتركه في البرد ليلتين ثلاث وينتهي • بهذا فكرت ، ولكن ، هي أنجزته ؟ رأيت عيني سيلفينا تحدقان الي فتركته وأخذت طريقي الى الغابة لاحتطب من أجل رفعت •

آتخبط على مفترق الطرق هذا،لا أعرف الى أين اتجه • أرشدني ان كنت تستطيع ارشادي أو فساعدني على رفع الحطب الى ظهر الحمار لأسير ، أسنان ذلك الكرجالي تصطك ، وهو ينتظر •

أزمنة الرجال

في سنوات الشباب تلك كان دمي صاخباً لم أكـن ضخماً ولكن كنت قوياً . البارودة على ظهري وفي محزمي الخنجر قرب الخنجر، كانا اثنين ـ ثلاثة ، لا أذكر . أما المسدس فكان هنا على الورك . الجميع يعرفون أنني لا أهادن لهذا كانوا يستدعونني حين يريد أحدهم أن يخطف امرأة . لـم يكن الزواج يتم بالملاطفات في أزمنة الرجال تلك .

أحب أحـد جيراني امـرأة مـن ناستان فقال مرة :

ـ قل كم تريد مقابل ارغامها على الزواج؟

قلت :

ـ أعطني ثلاثـاً من ذات المئة ليفـا ، ومئتي ليفا من أجل الشراب فيكون المجموع خمسمئة ليفا ويتم العرس .

وافق على المبلغ فذهبنا بعد بضعة أيام الى ناستان . أربعة غربـاء دخلنا القريـة فانكشف أمرنا . قالوا للفتاة : « عـلى كل حال سيخطفونك ! » ولم تعد تخرج . أعد أخوهـا بارودته وقـال : « ليأتوا سائقب جماجمهم ! » وانتظرنا يوماً واثنين ولـم تخرج . في اليوم الثالث جاء شكري ، أحد الخلصاء لـي من ناستان وقـال : « ذهبوا ليحرثـوا في بلاتنيتشي . انهض » قلت : « والفتاة ؟ » قال : « والفتاة أيضاً » .. ذلك أفضل ثمة مرج وليس ثمة من يدافع.. حقاً ان أخاهـا غير سهل ولكنه وحيد ونحن أربعـة .

أخـذنا نبيذاً وعرقـاً واتجهنـا نحـو بلاتنيتشي .. سرنا على الطريق وتحت الطريق حتى وصلنا الى نبع ماء تحت أشجار صنوبر شاهقة فانتظرنا . الحقل قريب ونحن نراهما يحرثان ، الاخت وأخوهـا . قلت « لنشرب العرق حتى الظهر اذ ستأتي الفتاة لتسقي الثورين فنخطفها » .

تقول ذلك ويحدث غيره . رآنا أحـد المعازيـن مختبئين عند طـرف الحقل فتسلق صنوبرة عالية وصاح بأعلى صوته :

ـ أي بـي ي ... يا آغـا شيبان ! (أخوها يدعى مثلي شيبان » يوجد رجال في الوادي ، سيسرقون أختك ، يوجد رجال ، ل ، ل !

قلت للرجال :

ـ استوت ! هيا نخرج !

استعد أخوها حين رآنا • تناول الفاس المعلقة بشجرة الخوخ • دفع أخته الى خلف ظهـره وصاح :

ـ عـودوا مـن حيث أتيتم ، أو اجعـل أمهاتكم تندبكم ! ثم راح يرمينا بالحجارة كي لا نقترب منه • كان يرمينا ونحن نتقدم فصحت به :

ـ لابد من اتمام هذا الامر ياسميي ! واذا كان الامر يتعلق بابكـاء الامهات فانا أشجع منك ! أرم الفاس والتفت الىشغلك لن ناخذ أختك الى مكان غير مناسب،سناخذها الى المدينة !

صـرخ :

ـ الى الوراء ! ساسحق رؤوسكم !•

ارتعدت فرائص رفاقي ، أمـا أنا فلم أتوقف • احدى يدي على الخنجر والاخرىعلى المسدس • صحت به :

ـ اذا كانتالقضية قضية تكسيررؤوس فهيا نكسرها ، يا ابن امك ! اندفعت لاقبض عليه ، لوح بالفاس فوقي وكاد يقطعني لولم أحد جانبة ، ولكنه أصاب يـدي ، هنا تحت المرفق ، اقتطعت مني قطعة • حتى منتصف اللحم•نقصت ، أعني يدي ، يدي اليسرى• أمسكت عنقه بيمناي وزرعته في الارضفورا• كنت صلبا حينـذاك ، وكنت قويـا • حيث أمسك لا أرحم•ثبته أرضا بركبتي وتناولت بيدي السليمة شجيرة واهويت بها علىرأسه فانسلخ شجته من قمـة راسه حتى جبينه • حللت زنـاره وربطنـاه الى صنوبرة كـي لا يتحرك • وضمدنا الجرح بالزنار • لففناه كالعمامة ونظرنا حولنا فرأينا أن أخته قد هربت • فرت ونحن نسوي الامر مع أخيها والآن ؟ صرخت بطالب الزواج الشاب :

ـ أأنت خرف ؟ اللعنة على أمك ، أين عيناك ؟

بحثنا عنهـا هنا وهناك فوجدناها بـين أشجار النربية وقد عقدت حجابها واستلقت صامتة • انقضضنا عليهـا فوثبت وبـدأت تعارك • نحن أربعة وهي وحدها ومع ذلك دوختنا • ولكننا أمسكناهـا من ضفائرهـا فلانت • قدناها الى الحقل حيث أخوها فراح يرجونا :

ـ دعونـي أمضي ! حلوا وثاقـي فقد ساءت حالي ، لا تتركوني هنا لاموت الىهذه الصنوبرة !•

استجبنا له وأطلقناه • رثيت لحاله •• وما أن أفلت حتى انطلق يسابق الريح •• نسي المحراث ، نسي أخته وكل شيء • عبر الوادي واختفى •

صحت بالعروس :

ـ هيا ، هيا الآن ، يامحترمة ، امشي معنا لتكوني امرأة لهذا « الحباب » •

ـ ألهـذا الذي لـم ينم شعر عارضيه بعد ! تفووو ـ وبصقت عليه ـ أبـدا لـن يكون ذلك ، هه أصير أمرأة له !•

انقضضنا عليهـا وقدناهـا صعدا نحو التل ولكنها أبت السير • ضفائرها غليظة• نتفنا نصفها ولكنها ظلت حرونا ولم تلن• اخيرا حملناها على أكتافنا ، هذا برجل وذاك بيد وأوصلناها الى دجينجوق ازماك • سبق لي ان خطفت أخريات ولكن لم أر أبدا كهذه

لا من حيث القوة ولا من حيث العناد ، قوية العظام متينة البنية ، ان لم نتحاشَ عن الشيء الآخر مباشرة ، وأرجو أن لا ترى أو تواجه ، يا آغا ، مثل هذه الضراوةومثل هذا العنفوان .

انعطفنا من الغابة نحو غروخوتنو . توقعت أن يتبعنا أخوها مع آخرين فاستعضنا عن الطريق الى دوفلن بالمسير عبر الغابة . أتعبتنا فانزلناها . جررناها فاستحالت سراويلها الى خرق بالية . صرخ طالب الزواج :

ـ لنتركها . انها وحش ضار لا امرأة !

ـ أمسكها ، هي فريستك . أتريدنا أن نتركها لكي يقال فيما بعد أنها غلبتنا ؟

ثم انحدرنا وانحدرنا حتى نهر غرو فوتنو علينا أن نعبر النهر ثم نمر بحمام بونار الى دوفلن . علينا أن نعبر النهر ، ولكن كيف ؟ النهر يندفع صاخباً عكراً ، ويغلي ثمة جسر ولكنه في القرية ولا يصلح لنا . علينا إجتنابه باي شكل . لم يوافق على عبوره مساعدانا فانصرفا عائدين ـ بدا لهما النهر خطراً . والمرأة ثقيلة الوزن ولا تريد أن تخوض مياه النهر من تلقاء نفسها . قلت لطالب الزواج :

ـ أرمها على ظهري !

جميل ، ولكنها طويلة وهو لا يصل حتى الى عنقها فكيف «سيرميها» ؟ وصحت به :

ـ اجث ، اجث لتمتطيك !

جثا ، ولكنها أبت . أجهدت نفسي لاضعها فوقه ولكن لم أستطع بيد واحدة، سمرت ساقيها ولم تتحرك ! تناولت خنجري وادنيته من صدرها وصرخت :

ـ اللحظة ، سامص دمك ! ضغطت الخنجر فمالت وضغطته فمالت حتى استلقت على ظهر العريس فحملها نحو الماء أمسكت بعنقه . صرخت به :

ـ اقطع ، لا تتلفت،سامسك برجليها !

مشى ومشى ثم غاص في حفرة وضاع في المياه العكرة ومعه المرأة . بقي جوربها في يدي لا غير . صرخت: « ياه ! ذهبت العروس الجميلة ! » غصت في الماء . امسكت بها وعمت . أنا لا أخاف الماء ولكن هذا ليس بماء.انه خليط مخيف من الصخور وجذوع الاشجار ! بعضها ينغرز في بطنك ، وبعضها بصدم كتفك والثالث يضرب فخذيك كي تتدحرج ـ فهل تحمي نفسك أم غيرك ؟ آه لو كنت بيدي الاثنتين ، ولكنني بواحدة ! بواحدة .

أمسكت المرأة من ساقها ـ أمسكتها بأسناني لا بيدي ـ وامسكت بيدي أحد الجذور وسرت عليه الى الضفة . طوال ساعتين لم نستطع التفوه بكلمة واحدة .. زرق ، زرق كنا وخرس . وكان ذلك في ضوء القمر . حدث العراك مع أخيها ظهراً، طاردنا المرأة وعدنا بها مع غياب الشمس ، أما الباقي فحدث في ضوء القمر .

جلسنا ما جلسنا

قلت :

ـ انهضا ، لنسر ؟

صرخت المرأة !

ـ لن أصعد من هنا ! الاحسن آن تغرقاني في الماء !

بدأت أكلمها بالحسنى ٠

ـ هيا يا أمينة ! لا يجوز الحرد ! قومي بالحسنى ما دمنا نرجوك !

ـ لا ، أبداً ، لا ! لي أخ شقي في دراما وسوف يغمرك بالليرات ان انا طلبت منه ذلك ، دعني ، لا أريد أن أتزوج من هذا ، دعني !

جلس طالب الزواج ينتظر وجلا

قلت :

ـ «انهضي•سنزوجك ! هاهوذا فارسك!

ـ لا أريد فارسك هذا ، فدعني ! أموت هنا ولا أتحرك !

تناولت المسدس وصوبته اليها وقلت :

ـ قتلت ثمانية قتلى وستكونين التاسع ! ثمانية قتلى ـ أنت التاسع ان لم تنهضي فوراً وتسيري !•

أجفلت المرأة ونهضت ، مشينا ومشينا وطلع الفجر • نظرت ، لقد تجاوزنا حمام بونار وبلغنا أسفل كريفوبيلو متجهين نحو دوفلن • سرنا طوال الليل على الطريق ودون طريق ، عبر الممرات الضيقة خلال الادغال والاشواك فتمزقت ثيابنا حتى كأنها مرت على مندف فلم تبق منها قطعة سالمة •يمكن أن نظل نحن بلا صداري أو سراويل ولكن كيف نتركها تجتاز المدينة هكذا ؟ قلت للعريس :

ـ اذهب واحضر لها ثيابا كي لا يراها الناس مهلهلة هكذا في دوفلن •

انتحى به جانبة وقال :

ـ لا باس ، ولكن دعنا منفردين فترة وجيزة لنتداعب فقد تلين قليلا •

قلت :

ـ لا باس •

مشينا ومشينا وبدأت أحل زناري وهتفت:

ـ تابعا،الى الامام وساظل وحدي قليلا•

ذهبا وبقيت أراقبهما • توقفا مرة على الطريق ، قال لها جاري شيئا وأعثرها فارتمت انقض عليها وأمسك ساقيها وراح يداعبهما متلطفا فلم تبق ساكنة • تمايلا واندفعا الى الامام فتدحرج العريس مرتين أو ثلاث ، لا أعرف تماما • وكما في كل أمر ، ان لم تكن أهلا للمسالة فلماذا تتصدى لها• لحقت بهما ومشينا • أرسلت الجار ليحضر الثياب وتوقفت وأمينة هناك فوق دوفلن بانتظار الثياب•حملقت الي وقالت:

ـ لماذا تعطيني لهذا البصاق ليلوثني ! لا أريده زوجاً ، لن اذهب الى دوفلن !

قلت :

ـ ستذهبين ، ستذهبين • لقد قبضت ثمن احضارك •

ـ اذا كان الامر متعلقا بالمال فان أخي سيغمرك بالليرات الذهبية مقابل أن تتركني أذهب •

قلت :

ـعند كلمتي ، لا يساوي الذهب شيئاً. ستسيرين !

ـ اذهب معك أنت لا الى دوفلن فحسب بل وعبر البحر ، أما معه فلا !

يا الهي ، الى أين تسير الامور ، ماذا افعل ، انها لمعضلة ! لدي امرأة في البيت ، هذا صحيح ، أما هـذه فامرأة ونصف ، بيضاء كالحليب ، عيناها تجرحان كالخنجر، أمـا نهداهـا ففرن ، يا اخوتـي الاعـزاء ، ـ ارم العجين واخبز وكل !

صرخت :

ـ أتريد ؟ هاأنذا !

حينئذ صار الاثم خيرا ـ قدتها الى الحقل وانتحينا ناحية واحتضن أحدنا الآخر • لم تبق عشبة منتصبة ! صرخت : الى هنا وكفى! والآن ؟ آآخذهـا ؟ ـ خجلت من زميلي ! لا آخذها ـ لقد جرحت قلبي في الصميم !•

استشعرت أنني ندمت •

ـ سأذهب معك ، أليس كذلك ؟ سألت وقـد سمرت عينيهـا عليّ ـ انشطر قلبي شطرين ، بين المرأتين •

تود في مثل هذه الحال لو أن لك قلبين ـ أحدهما للشرف والآخر للمزاج • أما قلبي فواحد ، أشطره ، أقسمه ويظل واحداً •

رميته نحو الشرف وقلت :

ـ لن تذهبي معي ، بل معه ! لا مفر • صرخت :

ـ لن أذهب معه !

ـ معه ستكونين !

ـ لن يكون ذلك ! واستعدت للفرار • حين تلاقت نظراتنا اندفعت • ألقيت بنفسي أرضاً وامسكت كعب رجلها • لم تدع لي فرصـة للتماسك أو النهـوض • انـدفعت كالزوبعة ، تـدور ، تنفتل ، تجرنـي عـلى الحصى والشوك درست المسكينة ما يمـلأ اهراء كاملا ولكني كنت أمسك بها كالكلاب من كعبها دون أن أتركهـا • تعثرت أخيراً وسقطت ـ الزبد الابيض حول فمها • تعبت أيضا • جلسنا نستريح فقلت لها :

ـ هل ستسيرين الآن ؟

ـ صاحت :

ـ استسلم على يديك !

وأخيراً جاء ذاك فاحطنا بهـا وانطلقنا نحو دوفلن • علينا أن نجتاز الجسر الذي فوق النهر ثم نكون ، كما يقال ، في بيوتنا• هذا يعني أننا انتهينا على ما يرام ، وخطر لي أن أغني ••

انه لوقت لا يصلح لغير الغناء •

اقتربنا من الجسر فانتفض شيء وصرخ:

ـ قف ف ف ! أو اجعل مـن أمهاتكـم باكيات عليكم !

رأيت ماسورة بارودة ، أمان أمان على بعد عشر خطوات لا أكثـر •• ورأيت رأساً معصوباً فعرفت أنـه أخوهـا • عرف أن لا طريق الى دوفلن سوى هذه فانتظرنا هنا قرب النهر تحت الجسر • حين عرف جاري ماحصل

مشى خلفي ـ ثم انعطف عند التخم في تعريشة واختبأ • كنت في وسط الطريق ، احدى يدي مربوطة ، المسدس في أسفل الزنار وقبل أن أتناوله ساكون قد انتهيت ببارودته •

ـ لا تتحرك ! ـ صرخ أخوها واتجه نحوي ليأخذ أخته •• فوهة البارودة موجهة نحوي •• حينئذ ، قد لا تصدق ، اندفعت أخته نفسها ، التي كانت قربي ، أخته التي جررتها طوال الليل ولم تبق من ثيابها قطعة سليمة ، اندفعت لتقف أمامي وتقيني بنفسها • أمسكتها بيدي السليمة من خصرها وصحت بأخيها :

ـ ما ان تخطو خطوة أخرى حتى أرمي أختك الى النهر ! ـ أما النهر فكان يصطخب تحتي ، يا للهول !•

سمرته في مكانه ـ الى الوراء ، الى الوراء سرت فوق الجسر • أخته بيدي ، أمسكها جيداً فلا أفلتها ، وهو ينتظر الي دون أن يلاحقني أو يطلق علي النار • رأيت حينئذ انسانا كالمومياء ، كالشمعة ! لم تبق قطرة واحدة من الدم في وجهه ! يجلس متخشبا ، وقد رمى البارودة ، ووضع يديه على عينيه و ـ ـ بكى•لم أكن قد رأيت رجلا يبكي•• ورأيته •• خطر لي أن أعود ، أن أعطيه أخته ، ولكن لم افعل ذلك : فانت تريد شيئا ، وتستطيع غيره ، ومن ثم تفعل الثالث والرابع ••

وهكذا أخذناها الى دوفلن • ومن هناك مباشرة الى عند الشيخ لنكتب كتابها • سألها الشيخ :

ـ أترضين بهذا الرجل زوجة لك ؟

ـ لا أريده •

قال الشيخ :

ـ حقا انك امرأة صلبة • لقد جعلتماها كالخرقة البالية ولا تزال ترفض • خذاها ياشيبيان الى الغابة لتبقى وحيدة مع الوعول فقد يعود عقلها الى رأسها •

أجفلت المرأة حينئذ وانتهى الأمر • عقدنا قرانهما •

تسأل : « وأخيراً ياشيبيان ، ماذا حدث ؟»

أمضيا شهرين وبعض الشهر لا أكثر • دعت مرة زوجتي : هيا يا يالا ، خذيني لنبذر الذرة الصفراء في البستان أريدك أن تعلميني كيف يبذرون الذرة الصفراء » سمح لها زوجها بالخروج (ولم يكن قبل ذلك ليسمح، فذهبت مع زوجتي لتعلمها كيف تبذر الذره• ذهبنا وعادت زوجتي ولم تعد الاخرى • تبعت مجرى النهر ومضت رأسا الى قريتها •

فيما بعد بعثت تطلب أن أذهب اليها لنتحدث • ذهبت وقالت لي : طلقني من هذا اللعاب السائل وخذ ما تريد » سألتها : وماذا تعطينني ان فعلت ؟ قالت : « ساعطيك

ليرتين وقماشة صوفيا يكفي لثلاثة أزواج من كاسيات الساق، وقطعة من جلد للخفاف ثم أردفت : حين تفعل ذلك يكون كل شيء جاهزاً » •

عدت الى دوفلن وأمسكت جاري وقلت له: مالم تقطع هذه المرأة فلن تكون لك مهما حاولت • وان كنت راغباً فيها فما علينا الا ان نخطفها كما خطفناها سابقاً » •

قال خائفاً : « لا ، لا أبداً ، لن أكرر ذلك حتى وان بقيت دون امرأة طوال حياتي »

قلت : « ما دام الامر كذلك فدعها وشانها • سنخطف لك غيرها ، أكثر لطفاً ، وتعيش حياتك ! » •

ــ كم تريد مني هذه المرة ؟

ــ ثلاث قطع من ذات المئة ليفا • مئتان للشراب • المجموع خمسمئة •

قال :

ــ أعطيك ــ اذهب وقل لتلك الشرسة انني لا أريدها !

ــ لا حاجة لان اقول لها ، ستذهب معي الى ناستان ليفرقكما الشيخ ، ثم تفعل ما يطيب لك !

ذهبنا الى ناستان • طلقهما الشيخ ثم أخذنا له أخرى ، خطفناها ، ولكن لا كما خطفنا تلك : ما ان أمسكناها من ضفيرتيها حتى تم الامر •

أعطتني تلك الليرتين وكل ما وعدتني به•

جررت الكثيرات من النساء ، ولكن تلك وحدها علقت بقلبي ، امرأة شجاعة ، حيث تلمسها تجد امرأة وأكثر !•

لا زلت أتذكرها وآسف•ألم أقل لك : تريد شيئاً وتستطيع غيره ومن ثم تفعل الثالث فالرابع •

ميشال ديـڤي

الفـقرة أعمال ١٩٦٦

ترجمة : الياس بندور

اصعد لتستمع ، في طريق الـدم ، بعد تأهب لا متناه ، إلى ولائم الزواج والغرام وزينة المنازل وترتيب الآراء ، إنها تتكدس بعضها إلىجانب البعض الآخر •

لننظرنّ إلى الروح القبلية • هيا بنـا لاستقبالها بفخر وتأهب لنخرجنّ إلى حضرتها • أهذه هي ؟

على الطريق الذي يصعد إلى دمشق
طـوال النهـار صـوتها معروف كأي
صوت آخر
عندئذٍ دخل ما كان هنالك
الجدران صنعت خطوة إلى الأمام

الأثاث اسـتعرض نفسه في السـاعة
الجدارية التي لا تنقطع
الصمت كان في بيته
إن ما يستحق من هذا أن يسطر ،
كما تقولون وأنتم به لا تشكون ، هو

تسبيحة الشكر ، قسوة الصيام • أيها الحزن ها أنت ذا عرفتك في ضفة العاصفة من ثيابك الصولونية • أجل، المزاج المبهم حيث أنتم تسبحون أنا أتشنجه كلاماً ؛ عيناي على أكتافكم لكي أنبهكم :

إن بعضاً من الانتباه لم تتعلموه ولهذا فان الغرور الأصم يحيط بكم في أكثر الاحيان• إن ماهو سريع يفوتكم وأنا هنا لكي أقوله لكم في وقت متأخر جداً• لقد فاتكم هذا الذي فرض نفسه عليّ مثل زراعة الدلب ؛ هذا الذي جعلني قادراً على تحية الحزن : كان هنالك لا أعرف أي استسلام من البنت الصغيرة جداً بينما كان البحر يحاصر هذا التل المتقدم ؛ الاتساع المجلو عنه فجأة مثل متنزه تحت العاصفة ، وبينما كان فم عم يسقط من جديد ، كان واحد من أبنائكم يلقي بفتيله في صمت ؛ كانت هنالك زاوية رقبته والخريف الذي يهجره الأوقيانوس عنوة مثل نخبة من شيران كرجية ؛ كل ما لاتعرفون أن تبلغوه والذي يعذبكم الآن مثل طفيلي عميق ؛ هذه العلاقات السريعة التي أنتم ضحية لها: أنا ساهر ، تجدونني صامتاً • أنا أستحضر ظرف أيلول القريب • أنتم تجدونني كئيباً أنتظر مثل خادم استقبال هذه الخطوط التي تهملونها؛ ألم كتفي ذاته وبطالة طفل يتطور ؛ زمن ضارب على الآلة الكاتبة ،الكلس في الجدار المنتحب ؛ دخول زميج الظهر في غابة المطر ؛ العودة الخالدة ، السريعة ، اللا منتظرة ، مبررات سيركنا المصنوع من خطوط منحنية • يجب أن أسهر على قنديل الزيت لكي أنتظره إلى وقت متأخر ولكي يجدني مستعداً برغم كل شيء لمراقبة الاشارة السريعة التي يقدسها ؛ أنتم حزانى لأنكم لم تعرفوا ـ أنتم أبرياء ومع ذلك بؤساء ـ أن ذلك كان لكي يعرف ، هذا التلقين المعاصر الخفيض لشريين يمتد ، وأنا أعود منه ، والذراعان الصامتان للبنت الصغيرة جداًيستقبلان أمها وأباها • ولكن النافذة تصطفق ، وحارس الابقار يصفر ، ويد تسقط من جديد على المخطط الاول ، وهذه الحركة لكش الحشرة التي يتخذونها دمعة ، وهذا هو الحزن بين جداريها يدعونا الى العبور ؛ لهذا أعمل • عملية التدبيج الشاحب نسجت من جديد ، الشبكة الغريبة ممدودة لكم ولكنكم لا ترفعونها ، أطياف حكايات وسعف ألوان وإنذار طيور وأحشاء

عصير وصحائف مخدشة وسجع ذاو تبعث كلها من جديد إذ أن كل شيء لقاء أكثر غرابة بكثير من لقاء حطام أصيص وزهرة في ذات القفص ، وفن عصرنا يصل إلى ماهو موجود ، تعقد النماء الآني للبصر والأغصان ، تصنيف الأشـياء المـرة : كم قميصكم ، زر النافذة الأسود ، صرخة الطريدة ؛هذه الخريطةالبحرية المتبدلة : أيارتفاعات للأصـوات المختلفة في الحزمـة التي تشحب حـالاً في جملنا ، يقـال « محادثات » ، الريح تفتح كتاباً وهذا هو « بندار Pindare » الذي يخفيه الغطـاء من جديـد ، طائرة تنتشي شراع « تيزي Thésée » الأحمر يتجاوز رأس « برانيك Brance » الأغنيـة التي هي عـلى المودة تقطع الطريق ، الأخوات يتبادلن أحاديث خبيثة ، أيها الحزن ها أنت ذا :

الفن الشعري

الجسد ولغزه :

عندما تندرج الرياح في الشرايين
يصلب حيّ
العلي يرسل له وصياً يركب كتفيه
يسير معلقاً
بعكس جاذبية الأرض

الاسم والشيء :

وهو يسمي لابنه زهرة
(إن لم ينسالقصيد بيته الأولينحرف)
لبلابة ولكن لماذا
لا تسمى هذه الزهرة بلانش ؟
أيتها اللبلابة المتسلقة
الاسم المناسب يحاكي أيّ سفر تكوين؟

السـفر :

في البلدان حيث الناس أتقياء
والقمر هلال
الأمـوات ، الغربان ، سـرو المقابر
تدعم معاً
بينة ضد الايديولوجية
(ننحت كتاباً عن السبي :
ذلك الذي أعطي أن يعيش في قبره
كانت ساقاه منفرجتين

المؤلف والاسم :

أوريج بوجه أوريج
وهو يحدق بلطف
(والتلال المستشيرة
تحيط بوجهه الموقوب)
كان المؤلف لا يَعْدِلُ اسمه

القصيدة ورجاؤها :

بين الذهب والسماء ريح عظيمة
كانت تقيم العدالة فوق محارة السفينة
الطيور التي لا تحصى كانت تتوسم الخير
ما صنعه شاعر
لا يستطيع أن ينقضه آخر
الكلمة المثقلة بالرعب ، بالمغناطيس
تعير اسمها لمن يضع لها عنواناً
الزورق المشحون بالملح ، بالبعد
يستعير اسمه من المركب المختلط به
أثناء مروره سراً في تحالف
مع « الأزرق » — في زي تنكري —
إنهما يبيحان التجارة الرابحة
بتماثل لفظيهما

(هل تعارض ، أيها القارىء المخاطب هنا بصيغة المفرد كما في الماضي) ، أيها القارىء الذي تظهر الاحصاءات شكه بالقريض ، هل تعارض في أننا نتظاهر ، ليس بغير جذل ، بأننا نميز بين نماذج القصيدة؟)

شعر من أجل إعادة طرح قضايا لم تعد تطرح قط خارج الشعر ، حتى ولا في « علم الظواهر الحسية » ، الذي يجب أن يختار أحداثه •

— الكلاب تسير فوق الأرض مثلما نسير فوق بساط
لكي نركض مثلها نحتاج إلى مهارة بطولية طويلة
بقفزة واحدة يلحق مسبوقها بالآخر في صمت
إنه ليس ثقيلاً ولكنه فقط يشبه سفينة
أو بالحري الأرض هي صدر السفينة
وجريها الموجة الخفية
التي تعني ثقالة البشر ؟

هنالك أيضاً حكايات الأسرة
في الغالب عندما تغلق بنتي الباب
ترجع أكثر نضوجاً
تحمل قدامها صورتها
مثل نار في كف عروس
الوجوه المتأملة تساعد على فهم الأقنعة
نفخة من صانع زجاج حافرة في البلاسما
تكشفها

فراغ حبل بالعظام • الوجه كالأرض
التي تبتعد عن مركزها لكي ترى
قناع آل « ديغي » « باللبياس »
معلقاً أمامه من قمة « عظم الرقبة l'axis »
عن نفسك تتحدث مع أول إنسان
الماء كان يسيل على فمي
وهذا يمكن احتماله بعض الشيء

مذكرات مأخوذة أثناء التشريح اليومي
أهراءات السماء تمتلىء
الموت في يد صريعة يستيقظ

الايام حمل من حطب
يختفي في رقبة الكتفين

العينان تندفعان
قبل العظم الذي يلحق بهما قريباً

ستر الزمن ينهار
مثل وجه غريكو

أســاطير :

مقال عن توازن السوائل :
بين الراحات إناء الهواء ،
بين الاضلاع إناء القصبات ،
بين الجناحين هذا الاناء ،
بين الخاصرتين هذا الاناء القناطري ،
بين الجناحين الصغيرين هــذا الاناء
العظمي الناعم ،
بين عضلات القلب هذا الاناء من الدم،
بين الأصدقاء هذا الاناء من الرماد ،
بين الشــفاه هــذا الاناء البشوش ،
بين الأذنين هذا الاناء من الخطوط ،
فوق الرأس هذه القرية الزرقاء السماوية
بشكل أنك إذا قلبت قدحاً جنت النساء

لحظات حنين :

نهاية في المدن فوق ظهر النهر الكبير
من حيث المدينة تكتشف ذاتها
أوفيد «لوكريس» «غوته» « سواريز »
عصر النهضة علم البلاغة
ثياب تكسو فوق الجسور
الوقاحة التي تبدل سلّماً
تحت القرية الزرقاء لبقايا السماء

صور ذاتية

هذا مكان مصنوع بنفس الطريقة
« الريو » عندما تكون فيها أو «نيقيل»
أو « ليما »
ثياب « كيسكو » الكنيسية فوق المنحدر
عرائس بحر فاريج في الوكالات الشفافة
بذرة الشواطىء زمن التسكع في الشارع

أنا لا أسـتطيع أن أتخلى عن سـوق
التصدير الكبير
ليس ثمة من وفاء لا أستطيعه
هنا بشر تسمى « نهر »
أو
(عندما يلتقي شاعران
ومن الأفضل أن يحصل هذا
مصارعان تركيان ببنطال ملوث بالشحم
طائران من نوع واحد مندهش

يتجنبان بعضهما بعضاً مثــل تطورين
بالانسلاخ

ثواني حلم محمول الى قرار غناء ، الى
شعارات ، الى تذكار
حيث اللوار يظلل
مثل غيمة
حيث الخريطة تشبه
خريطة « لوار » تشبه
« مونتريزور »

« أيتها الأبراج أيتها القاعات أيتهــا
النســاء
أيها الفرسان أيتها الحدائق والقصور
هذا السيل الذي يتحتم على الطفل أن يراه
من مؤنث ومذكره
هذا التبادل الذي ينبغي عــلى الطفل
أن يعرفه

من مذكر ومؤنثه
إذ أن النهر هو لوار
والنهر الكبير هو لا لوار
بينما يرقد تماثل لفظيهما
في المملكة الأخرى وفي الفصل الآخر

أيتها الأبراج أيتها القاعات أيتها النساء

أيها الفرسان أيتها الحدائق والقصور

جان" هي مرادف
امرأة نهر
حيث تركع المقصلة
في تجويف تاريخنا
بهذه اللغة الوطنية حيث تصلح لقافية
واحــدة :
لوار ، غلوار كروار لوار وسوار

أيتها الأبراج أيتها القاعات أيتها النساء
أيها الفرسان أيتها الحدائق والقصور»

ليس عن أزهار أو عن أحلام
ولكن أفتش عن لغة اللغات
إذ أنني عندما أكتب انتصار
فذلك ليس لكي تروا أحمر
ولكن لكي تسمعوا لوار

« أيتها الأبراج أيتها الغرف أيتها النساء
أيها الفرسان أيتها الحدائق والقصور»

ولِمَ لا ، إذن ، ألعاب الكلمات المقلوبة

هــل لاحظت كم تتمســك الدواب ببعدها ؟ ما نكاد ندخل حتــى تفرّ متراجعة حتــى الضفاف : غربــان ، أيائل ، قطط ، هذه الأجنحة المقصودة التي تتناقص ؛ بشكل أنها لكي تشاهد يلزم ربطها في البيت ، أسماك تختفي

بسرعة ، حيوانات ذابلة حتى أن الاطفال لا يعرفون أسماءها وحتى أنها وهي تعيش على الارض تظل مجهولة .

فالذئب ، الذئب الذي حتى النظارات لا تكفي لتقريبه والذي يتحول الى داع منذ أن تضعه في قفص ، الذئب الموضوع على حافة الليل بين كلب وغسق ، الذئب قد يضيع واحداً من أسماء الحيوانات التي لا تؤسر : أو بالأحرى يسمى وشك حدوث ما يحف بنا ، السواد ، ما هو قريب جداً منا ، من كل حضور معاكس تقريباً لوجهة ضوء النهار ؛ إذ أن القنديل يبدد الظل ، ولكن يكتفي بمس ، بازدحام ، بمرفق يغطي البصر لكي يحس الأطفال مسبقاً بكمينه ، وبالنسبة لكل إنسان عندما يتعلق ذلك بظهوره في مطابقة تتحدى كل معرفة . الذئب يفترس نقيضه الدجاجة البيضاء ، المكورة ، الطائشة ؛ شعاره المعكوس يقدم هذا الوجه الغريب من الداخل الذي يستعصي على كل تحول : جلده المعاد من جديد لا يسلمه ؛ الموت لا يهدده .

« إنسان ذئب » « فرازر » أو « غوردون » يعلقه الحاضر في متاحف الانسان الطفل والذئب ، الطفل ـ الذئب في واحد كالمينوتور : «الانسان العجل» الذي تسحبه الأسطورة القلقة أحياناً من « غابة ـ عفريت » ديكان ، الطفل يراقب الترجمة الجيدة للأسطورة ، الطفل يلعب ، الطفل الذي يبدل نفسه في الاختباء والذي يسحره الغزو البسيط شبيهاً بحشرات تتحول الى « مدوزا » بعيونها ، الطفل الذي صراخه أثناء الليل ليس سوى دعوة للذئب ، الطفل الهوهو ، بالنسبة اليه يكون الظلام استعارة وكل خلفية لعبة تركيب كلمات بقلب حروف غيرها .

الذئب الجانبي ، « ذئب البروفيل » وجه لكل ما سوف ينبع من كل زاوية ، الذئب ذو الأذنين ، الحسود المتطاول ، الكلي الغياب كوجه مخبوء بالأشياء ، مضاعفة ظلية في ظهر هذه العودات التي تسعى الى طرد كل ماليس مرئياً وتصور أن ما لايسمع يؤدي الى الوضوح ، يقترب بخطوته ، اللغة تشهد له ، لصالح ماهو مظلم ، كل عكس لا تسمية له وسره لا يمكن الكشف عنه .

(ليغلف الشعر قيمة القواعد الأولية ، أساس جديد للصور اللفظية ، ولادة العرف أو قدرة اللغة في امكاناتها .)

الآن

تستطيع أن تجيء في كل لحظة
« الآن نرى بالصورة »
ليس ثمة الا صورة واحدة
سفر تكوين مقبول
نحن مجودون ـ
من مدى المضاف إليه
استعارة وتشبيه
« هذا الشيء المخيف
كان يقول الانسان ـ الضاحك
امرأة في عريها »
استعارة هي شعار
من أفروديت أنا ديومين (فيوس-خارجة من زبد البحر)

أيها الوعد الأخاذ
إن « اللاتقترب لدى نهوضك
يضع الشاعر غير الملتزم
في وضع مساندة الظهور

« كما في يوم عيد » :

الشعر يبدأ عيداً ناغماً من نافذته المصنوعة التي تصنع الصمت ، وسوف نمتلك كلاماً مملوءاً بالألم الضئيل ... إذ أن القصيدة شيء من لعبة كلام صوتية من « كلمة من ذاتها » التي لا يطلقها بشكل آخر ، هذه الكلمة المجفورة فيه كسرداب كالقصيدة التي إذا قرىء الحرف الأول من كل أبياتها حصل اسم موضوعها ، المرنة التي تختبىء ، هذه السلسلة القنطرية التي يبحث عنها وهو يتقدم مثل ساحر نحو ينبوعه الخاص ، هي نوع من تبديل بانوراميكي على مفتاح نغمته الخاصة التي يترنم بها بصورة عمياء ؛ الشاعر يجعل نفسه مصوتاً لكي يستمع الى بلوره

توقيت :

لا تستمع بعد إلى الثرثرة الخصيبة / البحر لن يرجع بعد حتى مكان انتظاره الرملي / شبيهاً بعجوز يتذكر أنه قبل كل الاحياء كان البحر يصعد حتى مقعده / فقدان ذاكرة أصم في هذه الأماكن القاحلة / حيث كان ينمو منذ وقت قصير طحالب وأوابد / يوم أكثر اتساعاً من العمل يريش الماء مثل هذه القوس حيث المتسكعون يهملون جؤجؤ جناح « الرون » الأمامي ذا المقعدة الفخارية الخالية في المدينة عديمة القراءة .

إلى هذه النسوة لابسات القفازات على النهر الثقيل ، في شمس الشرايين، الأعصاب ذات الانفجارات الخفية

المتباعدة الأكثر بعداً من الشمس وفقاً للقوانين غير المنفصمة للرغبة (خسوف كلي مرئي فقط في ليما هذه السنة) ما عساني أضيف ؟

سيل النساء ، الصخر ، صفوف النساء ، الأشجار ، الأجساد العارية تقريباً ، الأجراف ، في المماشي أنواع زجاجية شبيهة بنا ، عملاقة قليلاً ذات أزواج وزيجات عفويتية (النساء ذات الجسد التمثالي السنطوري من أسفل)؛ من البطن في الشمس يخرج الأطفال المولودون حديثاً معروضين إلى جانب الكلاب ذات البراز الغزير تحت أسياد رحماء ·

إذن بسيط كعلم الجغرافية (دمّل الأمازون ، الطيات) ، مكان الرؤية هذا حيث فوق منحدره يزحف كل شيء من أجل الساعة والتبادل ، العرفان بالجميل فوق الجرم العارم حيث الرمل المثقل بالتماثيل يعارض في سطحه سيولته بالطمي المخطط ، تدفقه ، قطعة الغرانيت مبرّدة مطحونة ؛ نسغ مقشور ، صخر مكبر ، مركز منحن من أجل المعرض المغلق في مكانه : مكان الرؤية هذا حيث الله يظهر ويختفي ، تاركاً عيوننا تحت مزروعاته · إنني أعود دون أن أعرف إلى هذا المتنزه المعاصر لهذا المجيء : لقد يدخل المكان قريباً لقد شوهد ، خاصته استقبلته يوم السوق ، في الهيكل ، في السوق ، عارضو الأزياء تحركوا ، جمدوا سيلان الدم ، طوفان اللنف المخطط ، هذبوا المرض الخبيث انتشروا باحثين في كل صباح عن القماش الجميل المناسب لهذا الضماد من ضياء أوراق الصخر من أجل الخروج : أساور ، جعب ، عقود ، بلاكات ، مشبكات ، زنانير ، حيات ، خضاب ، تيجان ··

أو – بين أشجار الصنوبر التي ترفض عليها الشمس الفريدة نوراً خلاقاً : قلقاً من عمى نسبي إلى الحيوانات والأشجار والبشر

بينما تسرع الريح بضجيج تلميذات مدارس –

بخصوص الحصان الحالم : فأنا ماذا أحمل؟ إذ أن الأرض تحمل الحصان الذي يحملني باحثاً عن طريق حيث للنبي فيه لسان مربوط

فكيف يفك ثم
وهو نائم فوق رأس الأرض
جدثاً فارغاً أمبريالياً مع نحلات في حلم أرجواني

أو
على قناة الألحان راية الصراخ
متميزة معاً
الأفعى الطيارة تجتاز الأنفاس

في الوادي العجلة الفارسية تُخضع العشب
اكليل مجد طيور شبيه بالمصابيح التي
تشعشع حول أيقونة عصرية

هدير وعد صراخ نباح انفجارات
أطفال خارجون من النغم
قذائف واحدة سبع خمس واحدة
تسع ست خمس
الروح الصمت الذي يحترمها
ممحوة من أجل « الى الشيطان »
متميزة معاً
والهدير ينتفخ فجأة
وفي وحدة مختصرة كالجمهور
في زوايا اللعب والأشجار
الناهضة
وأذرع الريح الحاملة كل الأوجاع
الخفية • مراسم العام الكنائسية
تعلن لنا اجماعها في الرأي غير
القابل للفهم

●

أخطبوط عالم صغير بالتأكيد وأطول
أذرعه يسمى الطريق اللبني / هذه
الحياة حيث لا يوجد شعر بالمعنى حيث
إلى آخره إلى آخره / ولكن التهديد
يحملها نائمة في الليل (أفكار خيانة
تؤمن بأولئك الذين يؤمنون ولكن يجب
أن لا يؤمنوا / حساسة وليست حساسة
مثل عجوز / نبعة أحياناً كلسان كلب /
اليقظة وهي نشق الطريق بين الكهنة /
الدمار اللا معنى له للذاكرة بعد الوجبات
الأنيقة من المعرفة / (طين مشوي
توتوناك لازومي بيلو غلاس بن
ماشيزي) / الرئتان تتناجيان فوق
أوتار الهواء أبيات شعر •

حيث　　　حيث
امرأة تتخذ من الغبار لما
ذا　　　ذا

ولا تشارك بالدم إلاّ قليلاً
امرأة « فيرا ـ كروز » التي تعاني
آلام الوضع في حجر اليشب (ثلاث
امبراطوريات مكسيكية مجهولة كانت
تموت مجهولة بغير ما دمار معاصر /
منذ الوقت الذي اخترع فيه عربي
غامض من بحر آزوف علم الجبر) •
ولكن السماء تأخذ من كل مكان

●

السهل ذو الضفاف المنبسطة حيث ترشف
الشفاه الجافة

حيث يخرج الآن قطيع البقر
الشمس تدرج فوق الروابي ،
العاصفة تميل مصباح المنظر
فحوم الصيف الحجرية تشتعل من أجل
سهرة الأرض الحلوة

في الصلصال فوق الطاولة الحجرية رقص
تروكائيكي للحشرات
وعندما تحط الشمس تشحذ اليعاسيب
القصب
بعد قليل الأبقار المتخلفة
أنت تأخذ بواسطة الطريق
الذي يشطر القمر تماماً

هذه النصوص غير الواعية للذاكرة
...
الذهبية بعيني الزجاج
أيلول المحاصر بالقشر

●

منذ ثلاثة أيام ينام / مع
الساموارئيين الذين يرفعهم المحيط /
هذه الموجات المعتمرة بالشيب الذي
يخطب في الصخر / في سيرك العالم
الشبيه « بأولد ـ ساروم » / حيث
غليوم يبدد جيشه ٠

●

الطاولة تضيع حباتها
القمر ذو الجبهتين يرتفع فوق الرحى
صفير الماس يتحرك ٠ الألوان تمحي
لكي تسمح بمرور النور
كريب صيني ما زال يمنع العرض
نسر يلتهب
ريش الحوت ليل الأراغين القطبية تزداد
النار تسيل قبة بيزنطية في الابنس
المسلح بمنتصف الليل
خيانة في الضباب ضد راقصي الباله
دوائر حلزونية فوق محور
عندئذٍ يعود من جديد شدق الجحيم
بفكيه ٠ الفيل البحري يحضر من جديد
طيارة مدبوغة في إناء من العسل ٠
« الانسان ـ اليعسوب » يصعد
قريباً من الصيد تحت الأرض ٠ صفائح
التصوير تتباعد لكي تمتد ظلال
الأنصاب ٠ تفاصيل بيت مشتعل مازالت
تلتمع أسد منسوب يظل سجيناً في قفص
الاطار ٠
الشمس تصطاد البشر ٠ ملائكة
تغذي أفواه الجنية ٠ أزرار العيون
تسحق أشلاء سماء انكليزية تنطبع ٠
وقريباً العاصفة شبيهة بجفن حصان ٠

●

أشجار واقفة حقواها مزنران !
جالب للعمى (مضلل) ووثني

كالكون ،
الرحمة تتقدم • المياه والجباه تتواجد
اللغات محترمة • كل يفهمها في لغته•

استعداد استقبال : رقص من الماضي
مستمر • بكاء • المبذر يكمل دورته•
كل قضاء ينتقي ضحيته • الآلهة تثير
إلهها • كل شيء يدخل من باب القاعدة
الكهنة المقيتون غفرت ذنوبهم • كل
يعيد لعبه بأكثر دقة وأكثر سرعة •
الوجـوه تتواجد كالنحل في القفير •
انتظارك أقل بعداً من خطبة رثاء كنتم
تريدونها • النبوءات وتحقيقها وجدا
الحركة الابديـة المبررات المطروحـة
تسير وتعلم • تردد في المرايا المطروقة؛
الاعلانات تضعّفها • الاهانات تنتهي•
نسـاء الاسـعاف يحملن وجوههن في
قماش • المطاعيـم تلتحم • الصليب
مرسـوم عـلى الأفـواه • بكـــاء •
الامـوات • اتركوا الظلم • الحقيقة
مبددة الخبز ، الاسـماك الأموات •
الابناء يولدون متداخلين وبوليين • الذل
يفوق الرعب • هي تتعرف على وعـد
اللعاب والغبار • الكبريـاء سقطت •
الرسام يقف من جديد أمـام شـيء
الموتى ، الأطفال مقبولون ؛ هي ماتزال
« اسماً مؤنثاً بغير موضع طبيعي منطقي
وفلسفة تضعها بين مقيمين » •

السـفر

كل رابية ، كل قمة ، في السلسلة
هي سيدة منحدرها ؛ كل شيء ينتظم
حولها إلى الأبد وهنا الكبير والصغير •
لكل جبل أميره • الملك الزائر يتنقل
أحيانـاً ، يتسلق السـور الاقطـاعي
يُستقبل سريع العطب مثل ضيف •

لا شيء بعيد في الحقيقة لا الخصاف
الواطيء ولا أسفل الحديقة حيث الماء
النافذ يجد قشزاوية في قرنة الطحالب
والحـور فـوق الصخر ؛ ولا الدهليز
المحاكي حيث الشمس توافق على البدء
من جديد ؛ ولا الشمس المجرورة بحبل•

نمالة العضلات تتمركز فوق النقطة
الضعيفة • الفكرة أفرغت الأماكن •
الناس يحصلون عـلى نفس الحركات
السعيدة في غيابها • السقاف (هيا ،
لا تنس الدرس القديم ! انظر أيضاً
إلى السقاف !)كائن من الطبيعة ، وكما
يقال : المختار للمجد السماوي ، إذ أن
الناس هنا لهم اسم مهنتهم ؛ السقاف
المائل يخيم فوق الخيمة المصنوعة من
اللوح الحجري ؛ بعيد بنـاء بيته في
كل مكان •

عند تمفصل الوجه الجميل ، فاقد
الخطوة ، ــ إذ من جهة هذه هي البقعة

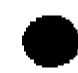
التي تربط البحر ومن جهة أخرى الخد البطولي ، هذه هي الشمس التي تنظف نفسها بجميع الأعشاب ، ـ أجتاح ، أدعي الحاجة ؛ أعترف : أن وصلاً بالكلمات ليس إلاّ تغطية ، مجادلة ، احتفال مخادع بكتابة وصية مريضة ؟ أو أيضاً في هذه المحالفات الرديئة السهلة أي قوة خليط ؟

زعيم الحواس ، أفتح لهم يديّ : إذن ضعوا كل شيء هنا واستأنفوا الرحيل ... إنني أجمّع لشتاء القصيد ، ادخر من أجل الحلم ، أجمع من أجل يوسف . ضعوا في هذه الجهة الخراف على سطحها الملمح مثل مندوبية رسمية أضاعت مدعوها ؛ وهنا لعبة القوى الرديئة الاختباء ... أشجار ثلاث سنين تطيع ؛ أبو الحناء يعود إلى حديقة تشرين الأول . استمر : استمر . الخليج يزداد ، أكثر زرقة من ذبابة . استمر ؛ هذا لا يهم واليود ، الشمس الذكر ، تنقيها ...؟ الهامش الغريب بيننا وهو جالس في جهته المرتجفة ينسحب من كل ماهو قديم بغير غضب مثل لغز مستريح ، مثل عليل صامت ينقذ شرفه ، يستأنف الكلام وينكر أنه يعرف .

والانسان في الوسط ، تقلده الاشياء وهو محروس وحارس ، يتلاءم معلغته التي يساهم كل واحد في ترتيبها . وهو نفسه يتجمع ؛ زبائن سودتها الغيوم تغطي حديقة البحر ؛ هبة الريح التي تجيء لكي تقدم يداً قوية للريح ضد الجدائل ؛ صراخ طيور يغطي ذاته من جديد ؛ والأزاهير التي تصر ذاتها مثل النساء .

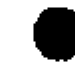
عنده أسماء لما ينقص ـ الحب واحدها . الاسطورة تتيح له معرفة الادوار . كل شيء في هذا التبرج سوف يدعى يوداص وهذا طوبيا ...

ولكن شبيهاً « بابليس » يستأنف السفر بحقارة ؛ في ظهره يسمع خطواته الخاصة ؛ يرى ساقية الخاصين اللذين يتقدمان فوق الارض كقناع قاتل في نهاية فصل الرواية الأول . أعمى في النقطة التي فيها تتعلق أطرافه ؛ إنه محاصر بذاته مثل سرطان .

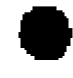


الآن سوف أتكلم لغة لنا
آه يازوجتي الوحيدة
قرنية عينك ثوبك من أجل البكاء
كنت تتركيني في المتاهة

(مكان نساء يبكين ، رقابة «شخصية»
غرفة فيها كنت أعد مئة وعشر خطوات
من طرف الى الطرف الآخر
مثل قصيدة ذات خطوات بطيئة يجتازها
قارىء وكمثل قصيدة تمتلىء شيئاً فشيئاً
بالمعاني الخطا كانت تصعد من جديد نحو
الساعة الزمنية المعينة للمسافة
الموضوعة بيننا كما بين بطلين في فيلم
بسبب من التخفيف الذي تحصل عليه
الزوجة بدموعها
كنت أعرف سرك ٠ بيننا سر)
إنك تتركيني محاطاً بالأرض
ولكن البعيد يحب ذاته
أيتها الحاجة إلى الغياب من أجل الرغبة
الفراق يدع كلاماً ٠ ها هو
الصمت يدع نفسه يغتسل في خطرة
مأمونة واثقة كالكتابة



كوة النــور السريعة تكوم أمامها الهضاب ٠ الشاعر المبهم ، الذي ترك جنباز البحر من أجل هذه الحقول حيث للطبيعة مقبرتها الخاصــة (طبقــات جماجم، نذر أشنة، قطعان ثلج شتوي)، جاء لكي تتحقق نبوة مجهولة ، الشاعر المربوط المجتث ، وهو يلقي بأطرافه حتى الأراضي الغريبة ثقة منــه بأن أسنانه حتى النخرة منهـا تخرج من جديد كلمات ، الشاعر الذي يمكن أن يأسف على الفاصلة الزمنية التي كان الناس فيها متوحدين وأقل تهريجاً أمام الله ، يجوب الوصف الذي لا ينتهي ، مهيئاً جملاً تستطيع أن تعود ٠



رواق من الماء ٠ كانوا ينتظرون؛ قصبات عطشى ٠ هذه اللحظة : يقظة أكثــر ازعاجاً مــن مغادرة الألــم ٠ التحالف الأول ٠ القراءة ٠

التحالف الثاني : هــــذا ، قمــح مصنوع ، جسدي ٠

أرض قفر ٠ باتاغونيــا ٠ خراف مشتتة ، خراف بغــير صراخ ، معدة للمــوت ٠

وقت طويل كمــا يجب ٠ موارا ، الشمس تشرق على الأرض الصحراوية ٠ جمعوا القطيع ، اجنوا الصوف ٠ إنهم يتركونه يموت ، دون خوف ٠ مثــل البحر القاحــل ٠ انتظروا الأطيــار تنتقل بصعوبة ٠ على صوت الأيدي ، يتحركون قليلاً ويسقطون من جديد ، كالشحاذين ٠ الشمس لن تشرق ، إنها تلامس الصحراء ٠

« ديميتير » كان يبحث عــن بنتــه في جميع الأماكن

وجوهنا كانت وجوه طيور في المدينة

أخاديد وحل في أمريكا الواسعة المنخرين مثل شقوق جلد «المتوحشين» • صنع قليلاً من وحل من التراب ولعابه • مجرات ممددة مثل ملاقط الجراحة ، مباضع قابلة للفتح في خواصر الوحل واسعة •

أشغال • كان واجباً جمع أسلحة الفارس ، العباءة ، العذار ، الجزمة ، الخوذة ، المسدسات المرصعة ، الزنار ، الجوارب الثلاثية ، المنديل الحريري ، الخناجر ، الحربة •

أثناء التقدم فوق المضيق ، كان المكلف بعملية المرور يمنعنا من المرور ، كنا نادي النهار ؛ مدفونين حتى الكتفين مثل موسى لكي نخادع بظفر ياقث • ليس فقط مع ذلك • كانت ابتسامتي المدعومة هي التي تدعم الخطوة أيضاً • الاشارة بالرأس • كانت تنقل المعدات فوق السلاسل خلف منطقة الرحيل • إن ما أعرفه لا أعرفه •

في مدينة ماجلان ، شبيهون بالأوائل الذين يجلبون خشب الشوح في فجر مصنع السفن ؛ من الضواحي المحيطة بالمدن •

صفيح المزارع ، في دولاب العصور • صفيح على منحدرات الباسيفيك • فالباريزو : مرفأ شهير في أغاني الحركات ؛ ميازيب زنك تالف • في مكان أكثر انخفاضاً ، أرض النبوة •

هذه الأرض لنا ، كان يقول مدير أعمال مالفيناس • الرجال الأوائل وصلوا بدون نساء ، وكان عليهم أن يذهبوا للبحث عن نساء حتى المرافيء •

لقد استطاعوا أن يقفوا في البداية مرتفعين في خط طويل من النار التي تقتسم العناصر الثلاثة الاخرى •

حصان على امتداد ماجلان ، ثور أسود قرب بحيرة بورفينير كنت أدور حول الأرض الصغيرة بين الجماجم • ومن بعد بعيد كان يصل المسافرون • سائقو كميونات بعمرات الـ E.N.A.P.

الآلة جرافة الوحل ، محطات القطار الامريكية الطويلة معرجال من خراف • ذرية العمالقة كانت قد انطفأت • ذرية خيول الجليد كانت قد انطفأت • العواميد الفقرية العاجية الكبيرة كانت تستريح ، عندما كان جلد الجسد شبيهاً بجلدة الوجه • عراة كما في طرف ملعب أولومبي ، عراة كالسباحين ، عندما أعلن السفر الدواب المحشوة

بالريش كانت ترتفع فوق الأرض القاحلة ، لكي تحضر سفرة البشر •

أعطيت اشارة السفر واقفة في نصف الرؤية هذه التي تخلط الأشياء ؛ الأشياء كانت تتعرى وتتكاثر ؛ أسطورة صامتة بعيدة جداً •

وصفق البحر ، مبني قصر الأرض الصابرة • نصف رؤية ، أرض الذاكرة هذه حيث الأشياء تعود بلغاتها الدوابية الى ذات الحقل هدنة ، البحر يختبىء من ضفة الى ضفة في الجزيرة • كنا نتحادث ؟ علم اللاهوت كان يعرض في مشهد ؛ كانت تمطر • فترات استراحة • الخطة كانت تبحث عن معمودية • لغات كثيرة كانت تصعد الى بابل الممتدة • الساليزيون كانوا قد بنوا •• الرجل كان يرفع أول ميت في الجبل الى جانب اليعازر • ضجيج مختلط من البحر والأمواج • في الطرف الآخر من الباسيفيك وفي ذات الوقت كان التاريخ ينتهي • الأسماك المحترقة كانت تلجأ إلى الأشجار • السلاحف التائهة كانت تموت باتجاه الصحراء •

الروح كانت تتحرك قرب الأمواج نازلة على طول الشاطىء ، أكثر ارتفاعاً من الجبال العالية وهي تقطر العناصر •

الليلة الأولى في هذه الغابة التي جربتها الأرض : ميتة مثل جذوع الحرب العالمية الأولى • متفسخة • كهنة جاؤوا بطريق الحلم المباشرة القصة • الليلة الأولى بحركات محرومة من البشر ، من حجر يعين بشكل ضئيل بداية المسرح • الأرض كانت قد أقيمت تحت البرد : اللون الأزرق الساجي كان قد زاد من قساوتها في كير القر الشديد فوق سندان القمر • وعلى القشرة المتكسرة تحت أقدامنا كنا نتقدم أطفال كانون الأول الذي يجربون البحيرة • أي منطق لآثارنا ؟ زائرو أعمال • الريح كانت قد بدأت تخف • كان هنالك أشياء قليلة • حصى مبردة كانت تشكل تلاً لأطيار الجمز •

كنا نذهب إلى تلك الحفرة الأكثر عمقاً في الأرض ، ولكن دون أن نستعيد دماً للأشباح • وجاء يحمل أسئلة عن جدث لغاتنا في الأغصان المتصالبة التي تجمع بينها رابطة اللاتينية • من تكونون أيها الرجال المتدون « حتى شطآن البحيرة الباردة مثل كيم » ويترك سعفاً من الذهب في المدينة الكئيبة ذات الأرض النارية ، نازلاً نحو الجسر من

جبل « أنالوك » دون تصور لقمة « كومبر » الامريكية حيث الريح القوية تحمل آلتنا على استباق الزمن ٠

« من هذه الجهة أحمل الآنحدة عينيك أحترم هذه الذرية

رومانيون هم ذووك
هنا قيصر ومن « لول »
كل الذرية المقبلة
الكون حولها يتجمع كما حول محوره »
(٠٠٠) يضعون هم الآخرون
بمزيد من مهارة
البرونز الذي يتنفس حياة

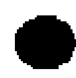
(أنا واثق مع ذلك وسيعرفون بشكل أفضل

أن يكتشفوا أحياء من الرخام ووجوهاً وأن يدافعوا عن القضايا والحركات السماوية للأوصاف

بواسطة الشعاع
ويفجروها نيرات موعودة » (٠٠٠)

كان يقدم لنا طعاماً ٠ كنا نهتم بأعمالهم ونحن نصعد من الشواطيء « الكيميانية » من خليج « أولتيما اسبيرنزا » ، كنا قد دخلنا بيت ذلك الذي رفع ميته في الجبل ، متجاوزاً الزمن نحو الأماكن الموبوءة وقاطعاً المضيق ٠ ظهر المستقبل في مشاهد مسرحية ٠ وصلنا ليلاً بواسطة الدروب المتذبذة إلى ذلك المنحدر حتى شغيلة النار والدواب : رجال متوددون مثلنا ، مشنوقون ، محمولون على الذهول من الحاضر ، ميزان زيوس ، خبيرون بالفلاحة ، محاسبون ، جنود ، غياب ، معدن ، وعقاب في قفص ٠

كان هنالك بشر من كل أمة من يوغوسلافيا ١٢٠٠٠ ، من ألمانيا ١٢٠٠٠ من اسبانيا ١٢٠٠٠ ، من ارلندا ١٢٠٠٠ ، ٠٠٠ وكان أناس قد ماتوا تاركين أسماءهم وكنا فوق أسمائهم نسير مثلما يسير الصينيون فوق جسد غرقاهم ٠ كل واحد كان يتكلم لغته فيفهمها الجميع ٠



أسمي عبقرية أرجوحة السماء ، الريح التي تختار رواءنا على هواها ، هذه العذوبة عندما أفتح عيني التي تداعب السهر ؛ عبقرية هو الاسراف الذي تسطره الانجازات في لقطة كونسبرتو لا متناهية ، في قصائد منظومة ، في مدماك هندي مبسوط مصنف مكوم فوق الأقمشة ، على الحجارة ، على الخشب ، على ورقة

موسيقى في «أوكتافو ليني» في فيترينات أرسطو ، على مصنفات ·

أسمّي عبقرية الألم الذي يسببونه لي ، شعوذة القمر والشمس · عبقرية الرحلة إلى جنوب الأرض حيث البحيرات المتجمدة محاطة بالنحام الزهري الشبيه بالأظافر المرسومة على مراوح الغسق ، القمر وموكبه البحري عندما يجتاز كالعروس جسر الأرض شبيهاً بالتشيلي من طرف إلى آخر · عبقرية السلوان ، الثور الأسود ، بوم يسبق الأوز ، المدينة الأكثر جنوبية حيث كنت المسماة « بورفينير » ، الطائر العانة ، حصان البحر الذي يتفسخ تحت الصليب اليميني لطائر الجمز ؛ عبقرية السفر ، أرض النار الشبيهة بغيمة في نهاية الشارع من « بونتا أريناس » ، يد البحر الملوكية ، الطائرة التي تشبه عيناً حلوة ، صبر نوح الضروري لتحية القداسة الطويل طول نهار ماجلان ، الغيمة التي تغطي السماء بها حبها وجسر الالوان حيث تمر ، في العودة من ضفة « باتاغون » مثل ديك ·

عبقرية الرحيل الأخلاقي حيث الأحلام نهارية والشجاعة تنمو في الظهر ، الدقة الشاعرية للأرض التي تمر من الرأس ، ليل « باما » الذي يكشف البعد ، الطاولة الخالية من امرأة حيث كل واحد يرتاب أن يتكلم ، هذه السفرة من الهدوء على بعض من عمق العذاب ، صبر الألوان التي تشاهد اختيارنا ، غطاء الأرض الزراعية العائد كل صباح ، الوادي الذي ينبغي النزول اليه ·

منجل حصاد رماد

الغفلة البلغمية في اللغة

التي هي الجوكوندا الشبيهة بالمومياء الشهيرة ، الجناس المضياف الشبيه بلعبة الصبر المهجورة من الأطفال (لعبة صف المكعبات وهي تعود على الصبر) ، القناعة حيث كل شيء يستريح في إبهام المضاف اليه ، النحت الدائم الأصالة الذي به استخرجت من اللاتينية الاسبانية والبرتغالية ·

عبقرية الدماغ الغض حيث كل شيء يهرب ، المقولة الموهوبة للقائل ، الجرأة التي يقدم بها علم النحو ذاته ، عبقرية ثقتي بلا إرادة التفكير ، الأجوبة المهاجرة ، المساواة التي تسقط كالثلج على « أدنى الأحداث » أن يكون كل شيء صدقاً بما فيه « رقة الوداع

المخادعة » ، العبقرية التي يكون الارتقاء فيها ارتقاءً في الجسد والانحطاط انحطاطاً في الجسد ، عبقرية أيضاً الروح العجيبة والشروط ، القصائد التي نقرؤها عند طبيب الأسنان ونحن ندق بأقدامنا لكي نغطي الدم ، في رفوف الصدفة قصائد تستعصي على تغليب أوراق النبض ؛ عبقرية وجبة الطعام التي تعطى دائماً هنالك في هذه القصة « الجميلة المغفلة » حيث نعيش ، إذ « إنه نزل إلى الحديقة فوجد الوجبة جاهزة » ٠

أسمي عبقرية « فينيسيا » رعاة الخنازير ذوي الأشرطة ، فينيسيا ذات الأظافر الجندولية حيث الغريب يعود كذلك الذي يصل الى فينيسيا منقاداً إلى المنظور بمعجزة المكان مثل مربع اللاعبين الأشياء تتطلع بعضها إلى بعض إذ أن المنظور هو من أمور البشر ٠

عبقرية الأمتلاء المتساوي في جميع الأماكن ، الجمال المتساوي ، ذلك الافريز الغني من مضيق مساوٍ لعيوننا الضيقة ، إفريز الأشياء المتباعدة ومع ذلك بالفاصلة الموجودة إذ أن البعد بيننا يجعلها تدعنا أحراراً ، لا مبالاتها الوفية التي لا تمتنع وتستدير قليلاً ، الافريز الواضح من كل سراب ، والشرفة النوافذ المخصصة مثل « خادم أمين » على مسافة صغيرة قائمة إلى جانبهم ٠

الحرية الواسعة للفضاء الحر ، التي يخليها كل فناء كنيسة كل ساحة ، كل سطح كل درجة سلم من أجل الرؤية ، هذه الكثرة الخفية التي تدعنا ندخل ونخرج ؛ نروح نبتعد نتقارب ، « لا أزعجكم » ، عبقرية هذا الفراغ ٠

عبقرية العبقريات ، الشواهد الأثرية ، كل ولادة جنية قائمة سرير قائمة تحت هدايا عرّاب ريفي غير قابلة للرفض ، ما يحدث للشعوب وتبادل الكتب ، التاريخ الآن هذا الالتحام للأنباء والمخطط المنحني للاختراعات ، المجيء المدهش « لفيلوكتيت » أو « لجويس » ، الحركة اللا متوقعة « لآشيل » أو « لتنتوري » ٠

تنت تنت أوري أوري ، تنت فوري ، ستنتور أربتن بيروكه ، تندار بندوري تنتوري ، زيادة وعد الأسماء ، اللا مسمى من الأجناس التي ما زالت

مختبئة تنتظر دور صعودها إلى كـوة نور البشر •

أسمي هـــذا العرس المتأخر الذي يجب السهر عليه ، هذا الغياب الصيفي الذي تدعـم ناره البعيـدة مصابيحنا العذارى ، عبقرية إذن مجيئه ، تصوره مسبقاً في هزات ذات لون رمادي مذهب كلون دجاج الفرعون •

مآبر المخيلة الناعمة ليلاً ، أسطورة الكلمة ، عبقرية أيضاً العدو ، البغضاء التي تدغدغ المواجهة ، هذه القبضـة من العظام المزيفة ومن التقزز ، هـذا الخلط الثابت بين البشرة والمزاج الذي يلاحق بعيداً مني علاقة وزن الأجسام، اللامبالاة بموتي ، تخلف البشـر في تحويـل عنصرهم إلى دسـتور ، برود الاحســاس بسعادة المعرفة ، جميــع الرســوم لالتقاء الحروف الصوتية ، للدعائم ، للفجوات في بنـاء الاقامـة اللا ارادي • الكتف المتحجرة لليد التي تسجل •

●

شاعر بمقدار كاف لكي يرجع إليه كما إلى « ايليس » شعراء كثيرون • في أي حفرة ؟ بطالة معلقة الخطـوة اللامتناهية حيث المسير بين الأبواب بينما تحرر الموسيقى المبعدة لقضبان الأوتار عصفوراً (ليوباردي وهو يستمع إلى غناء بنّاءٍ يتصور خلق العالم) •
كثير النسيان ــ ولكن
القضبان تحتفظ بالأشـياء في قلبها ، المرأة من تحت مثل شجرة (ايميلي ؟••• أيقونة مسكونة ، بين الأزاهير هنا)

●

في المساء فوق الجرف الآخر صراصير متجمعة
ايروليث هنا في جواء المصابيح
أدخل در يا أوقيانوس فالنهر الكبـير في صندوق

أخبار ١٩٦٦

شاعر الرؤية الجانبية

الشاعر الكوسي الجسد والظل فوق الأعتاب

الشاعر جيليفير(١) الذي يعيد رسم عوسجة شتاء بريشة هوبكنز

أو يتراجع لكي يربط العشب بالأبراج بفرجار غونفورا(٢)
عبقر حكايات فارسية لأنه يرفض اللا مبالاة

يحدث النسغ الأزرق في شريان الدردار

يسهر على زيتا اسبيون دلتا أوريون فوق الغصن المنخفض

عين ثلاثية مثبتة على ويتش ١ ويتش ٢ ويتش ٣

يطير مجموعة سريعة من غربان

هو هنا لكي يخترع شيئاً جميلاً ككلمة ساكسيفرج(٣) التي لم يخترعها إنسان

إن يبحث عن كنز يجده

---

(١) بطل رواية سويفت : رحلة جيليفير ٠
(٢) شاعر اسباني ٠

(تصور سمكة تبحث عن سمكة في ظلمة البحار ٠٠٠)
عندما يعود الينا في شفافية الشتاء حيث الأشياء خطوط
عندما ينفجر ينبوع ألوان سماء مفتوحة
عندما يعود فوق سدّ ضيق رحيم
ونصر يشق التربة المتجمدة عالِماً
أن الحياة القاحلة على بضعة أمتار ارتفاعاً
عندما يجد طوطمه كرات بلون الروث
في شجيرات التفاح الفرنسية قرب المكان الذي تسطر فيه المحاريث

وعندما يدفع إلى الأكتاف
كانسان متحول
يسير بجانب النهر المدعو إلى الطاحون
الديك عرفه ليلكي صوته عبر الأجواء ٠
ـ الأعمى
يلبس قفازاً من الصفصاف
يركب ظهر النهر
وها هو ، متلمساً ،
يـده ممدودة ،
يتقدم في عالم عجيب
يسرع نحو الصحراء ، كفة ميزان سهمه نحو الشمس
الفضاء قوته الشمس تمر مثل خاتم زواج
بين الأشجار السخية إنه ينتمي إلى الانسحاق
نازحاً يسلخه العمر يعمل من أجل غائبة تحت أقدامه تنام
عندما ينهض
لكي يلحق بغائبة بلاده التي تسهر عندما ينام
الوقت هو الشيء الذي لا يملكه من أجل التفكير بها ٠

(٣) زهرة تنمو في قلب الصخر ٠

كان يهاجر شتاء في الغصون النقية
الشتاء على صورة واحدة يتكرر
ـ العظام الكلمات الاتساع الخطا الأصوات الفضاء المهموم
الأسفار العدالة ـ
وهو يرصد المنظور حيث تتحرك الصور
كان يهاجر إله حقل ضاغطاً بأسنانه غليوناً من أوردة
مومياء مطفأة أوعيتها الدموية المجوفة ملمومة قدامها
حيث الدم يطيل شقاءه والقلب يصعد حتى الأذنين
يريدون أن يجعلوه ملكاً
زبائن الرياح تضغطه
الصراخ يحمله
كل صوت يريد من جديد أن يكون مسموعاً
الشتا ينشر عرائض
مجموعة من أزهار تنتظر دورها
هنالك حرير لبلابة هنالك هذه الخرائب
نير ، جبهة جاموس ملتهبة
من جعلك خراباً ؟

خليطة الأيدي تلطف يميناً وشمالاً
حجر ينتظر مئة ألف عام يفتقد الصوان
لعبة من المطاط فوق أخدود ماذا أيضاً

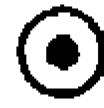
الحقيقي كله مستحيل
الأساطير تتكلم كالبهائم

يا طيف فرجيل الذي صار صوت فرجيل
صوت ربة شعر صار رغبة وطاعة
انني أتبعك مصغياً الى الشكوى معطياً صوتاً الى الجحيم الأخوي . أنا أصغي

اليك صوتك المقطوع الرأس يصغي إلى الصمت المستمر تحت العريشة شبيهاً
بمنتقم يجلد الانتقام
أنا أعرف الألم بواسطة الأماكن
العشب هنا لم يكبر وبقي الحيوان
إنني أستمع إليك فما تقول عن فصلك ؟
أهبط إلى الوادي مشاطراً
ورقــة
أصعد نحو القرية
جمّع ستيرات العظام في النار
الخطأ ؟ ولكن الانسان يقدم لك المكان
الطيور تملك دروباً فلترفع هذه الحدود
الماء الذي تجففه لنفسها في هذا المكان السليب
حلّ عقال قرون الأكاسيا المناضلة
اسحب بلطف زرقة الكون
التي أخذت من خناجر الشتاء
الأنهــار الرؤية النسبية
المصبات حطب الدروب
إنه يقود نحو سرير من المقاطع

الريح سوطه
إنــه ينشط نزوح الأراضي
يسمي ضجيجاً رعود باطن الأرض
وهو يسير إلى جانب قوس حيث السماء
حاصرت أنواره
سروات كلام
تنتصب حينئذٍ وتتمايل

بفضل أولئك الذين يسيرون هنا كما في نفق مفتوح (جدران من دردار أعمدة من كوارتز أرضية من تراب سماء من سماء) بفضل
أولئك الذين يقولون
هذا شريط أخضر
العالم كان في حاجة لأن يعلن عنه
« الملكوت يشبه درباً مثلاً
خارج جدار القصر المسيج المنخفض
الملكوت شبيه بهذا المكان
الذي هو في حاجة إلى الأمثال مقاماً »



إنسان متعب من أمر الخلاص ومتعب
من التاريخ من الذات المنقسم على ذاته
ـ أيتها النساء المطلقات ـ

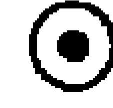
يحمل حزم أشعة المعرفة
ولكن بشكل مناجل حصاد فوق الحقل

علامات استفهام فوق الفودين
قرب حيوانات مرقشة كانت تموت حتى الضفة
الريح تعود من جديد
بين أحراج السنديان التي لا تتطور بالانسلاخ
مهندس الشمس يتخذ منحى الشاقول
منائر بطيئة من ظل

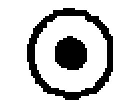
ما هو ميراثك ؟
المعلق بين المرافعة والقانون

ملوكياً كبائعة
الاستقبال بكلمات مغطاة بالتشابه التائه
الانتقام بديله في سـلال
ترقيع الأعضاء بكلام له معان متناقضة
معمودية الأسماء وراء الأسماء

أيها البحر المحدود ! يا جهالة العوسج !
تحت الأجفان نحن نتقارب
لكي نتحدث عما يختص بها وبي
آخذ قناع الأرض من تحت الجلد
العشب يجتاح عظامي

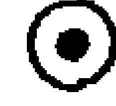


قارب نشوان بسوار حيث الجسد
يرتدي نفاد الصبر الذي يشبهه
وفكره المجرور عندئذٍ إلى الأحشاء
يعرف هـــذا :
محاكاة عميقة للرحيل
الوريد يحرك الذراع
العظم يحمل أثر جراح حركة إبحار الدام

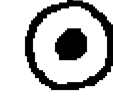


علم كلام
له اتساع الارتباط
سرير عدالة بين
ما يصعد ويجيء

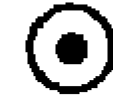
مرآة مضاعفة حيث الأحشاء
تصنع دباغاً للأشجار
وفوسفور الأشجار للدم



وجه كأنه خارج من بين الأدغال
منزوع الزينة نباتي
حليته آثار الجدري معفر بالتراب
أرضي منظر أرض بور
نابت من القش
هكذا الجلد هذه هي التربة

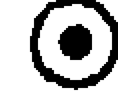


...
العيون تجري وهي في صناديق
طريق الروح في هذه المسيرة
وهي تصعد من الضياع على سوية صيرورتها
عيوناً كالتي في فوكليز
غير منتظرة وهادئة
كانت ترى جارية كل يوم
تقريباً بغير ضجة ...

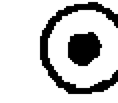


أمراض سرية مثل محار قليل العمق
كنا نداويها دون أن نعرفها
فوق ظهر الأجفان أحياناً

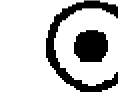
في طيات العماوة
تزهو شرايين عذراء



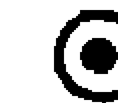
وكما أن هنالك نهراً فثمة جسد جاث
الحصى تصبغ الأدمة السريعة بلون الزهر
نتوءات مسرعة تغلق مجرى الماء الممتد
أو المنطوي وتصعد نحو الينبوع
يا لحركات العاشقين
ووقع خداعهم
المحمولين على الدموع إلى الجذوع الطويلة
العشاق الباردون يديرون وجههم عن سعيرهم
وكما من نار شتاء يتباعدون



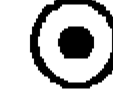
أولئك الذين يلطفهم الحزن
شيوخ صاروا شعراء في الشمس
مؤمنين في الهيروغليفية هنا
كما لو كانوا قد مضغوا عشباً
يغير الصداقة ذاتها



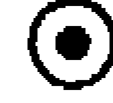
معدن مصهور يسرع في العودة لكي يتقطر
شبيهاً بجمهرة أرواح
عددها الكبير يؤخرها واحدة فواحدة سفينة حرب ترتدي ثياباً
لكنها باتجاه المنظور حيث الموتى يصعدون
ونحن أمام الأرض المنتصبة ننتظر هكذا دورنا
كما لو كان النور هناك يستطيع أن يمتصنا



هنالك طرق مختلفة للظهور في المرآة
مبادلة { بين الأدمة المقطوعة من الأرض
و
الوجـــه في كواليس الريح }
تعلـّب الشوارع تزدحم مثل ملعب قديم
إذ أن الناس يحضرون عالماً مسرحياً



الجميع يتسامحون ويتتالون أعداداً وهورتانسيا(١)
الزرقاء والخضراء في طيف النهار
بينما من الشرفة المتحركة تماماً
ينحني بسرعة إنسان الأرثرويود
عبر الروح ذات الوجوه المتطلعة إلى كل الأشياء
إنسان الهيليوتروب
إنسان الأنتروپوئيد

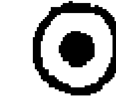


لص قليل الاطمئنان يبسط دميته تحت الأشجار
إنسان في العمر الذي ينحني تحت العتبة
...
الانسان قد يكون كائناً
الانسان قد يكون قارئاً
في كل ما هو كائن مهما كان
دواب حظيرته أوراق حديقته ساعات نهاره
الطريدة الحدأة السلحفاة الذئب

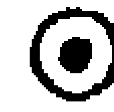
---

(١) زهر له أنواع كثيرة مصدره الهند

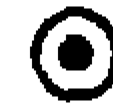
المنفوص إنه يلخص
خزانته أسلحته والأرض الخازنة



إنسان لا منظور الانسان
يتلمس الأخضر المتداخل
يهبط عندما تتقدمه السماء
الانسان نصف الدم
المنخول في الغربال الأرضي
يجرح الانسان
يترك مومياءه تتكلم فوق صمته
تعب بوار الحزن يجرنا
« كل شيء » كان يعود مثل كلمة كلب
في جمل الأطفال



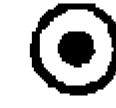
عندما تنتهب الريح المدينة
وهي تعجم الصراخ
العصفور
يغرق في الشمس
كل شيء خراب
والخراب
إطار روحي



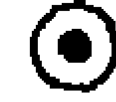
نسمة الليل تلتصق بالخد مثل خاتم
عالي العلا ينزل إلى الساحات

كل شيء يجيء مؤذياً
وقريباً لحسن الحظ

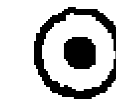
حول الحديقة
في الحلم ذو الزنار المزرور بالورشان(١)
أسرار السنونو تتحاشى والبحر
الليل كان يمر



صداقة عظيمة مع الكواكب
وفي الليل المسبور عميقاً
في الليل المقرب تنفتح الأرض
على الشمس هذه النجمة المتعاظمة
في قلب الليل النهار
ليل الليل يعرف
نجمة أكثر لمعاناً



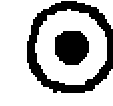
هــذا بيننا
الهواء بين الأيدي ســلام
واليــد بين السلامات
والسلام النقي فاصلة
لا شيء مع لا شيء يلعب
بتبادل الظهور الجميــل



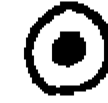
الشجرة تنير فودي السماء
الحصان يبتلع النبع

(١) طائر معروف بحجم اليمام لونه جميل .

اللون يلتصق بالحيوانات
تاركاً الانسان
يا حياتي
سر أداة التشبيه
ثم يصير الظلام ضياءاً
الأيام ليست معدودة
لنعرفن كيف نؤلف كورساً من مغنين مثقفين
أشجاراً خواصرها من صلوات
بعيدة في طفو الزمن
ألحاناً تقود الحس إلى سرير القصيدة
ما عسانا نسمي الشيء الذي يهب اللحن ؟
الشعر شبيهاً بالحب يضحي بكل شيء على مذبح العلامات (الموسيقية)



الحجارة موضوعة في الأسر
حجر يرتفع في المنزل
ضجيج نساء يمزق سدادات الأذنين
وأخاديد في قصعة الرساميين
يشكل أخطبوط شرايينه فوق الديوان حتى الشرج
الماء المغبوط الى جانب النعاس بينما
وهو محذر من قبل الروح المأخوذة
يترك لحظاته الأخيرة



التيم وهــو منتصب
يستأنف الكلام

شاعر يفضل
أن يقول كيف هـذا
كرة الأشياء
بأنامل الخلاص
جملة القصيدة

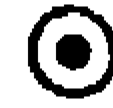
الحيـاة تشبه حقلاً غير متساوٍ
ون
والحقل

يشبه ضريراً يحمل إلى الشمس
سي
والشمس

تشبه تخوماً الأرض فيها تدور
ور
والأرض

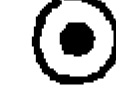
تشبه نصاً يقربه الأحسر من عينيه
هي
و

تشبه الحيـاة



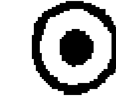
ركام صراخ منارات سنونو
في دلتا الريح انطواءات الريح
حرج آس يزرق
نبض الغدير يدق
في كل ثلاث ساعات قصيدة

تصبح جديدة ثم تشحب
بالقراءة وتنمو في الصمت

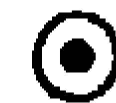


تحت الطائر مقياس زرقة وخيمة الظل
تقلب رأسها · الغيوم تتصاعد
باحثة عن سطح الأراضي
أنت تصبح أطلساً · تضيع قدماً في السماء
شص السنبلة يمسك بالقبرة من هدبها

عملاق عندما تغلق عينيك بحرية
رأس تمثال يوشك أن يطير فوق كورنيش العشب
إذ أن الجسد لم يعد يهجر المخطط الأول
وينفتح مثل سهل من رقبته

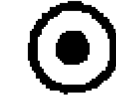


انتظر أن يحملك ملاك
إلى مكان تمنح فيه الرؤية دون سحر ساحر
أرض هشة تحت قمة الأيادي
كل شيء مسيرة حيث الصرخة لا يا بابل
فلا الحمامة التي رآها يعقوب ذاتها
ولكن من حيث ترتفع الأرض فوق مذبح الأرض
حتى هذه النقطة منها ذاتها لو علمنا
حيث تشابه حلباتها يقودنا نحو
جبالها شقوقها أجرافها مياهها
فجوات بين الساعات شبيهاً ببغلة
يتقاسمني دربها بين الكل والكل

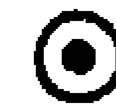


لحظة تفترض أنّا
ونحن ننتهي من سدّ الأفق
نصل إلى الشجرة كالأغصان
صاعدين نحو الطحلب سباحة
والجسد غير المنظور مثل حراشف جنية
والأزاهير تشبه طابة واتر بولو(١)

نحن درجات السلم
وخفيفون كالملائكة التي رآها يعقوب
الحياة تكون عندئذٍ بيننا هذه النار هذا المرجان الذي
يتجمـــع
في الليل القعر العظيم البشر



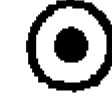
رصيف محطة رمادي منه تسقط رغبة الثلج
النهار ينحدر بسمته
الرجل والمرأة يتبادلان وجهيهما
الخمر بطيء فوق اللوحة
وهو يتقطر في مرملتها الزجاجية
والفنان يسرع نحو القلب بالرمز
فيتردد وهو المفطور على الثقة :
أيكون الحجر أكثر جمالا في الجدار ؟



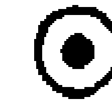
إنك لتندهش وأنت تستمع إلى حرية بولس
كورنتث ؛ ١١ ، ١٩ ـ ٣٣ ؛ ١٢ ، ١ ـ ٩
السمع الذي تربى منذ الولادة على اللحن

(١) لعبة بولو تبدو فيها أطمار تلعب تحت الماء .

يسمع « هذا الاسم الذي أؤمن به بصمت »
بيت الشعر الطويل يرتفع وينخفض في المنزل
نغم جنوب غربي حيث تنام السيدات
بين البذرة التي تحضنها البذور
لوثر ودروع نازاغارا
تسقط بوفاق على المطبخ ،
الانسان الذي سبقوه فجر الأحد
يدعي صليبية عظيمة شبيهة بمطاردة الانسان
الذي قطعه الصليبي ران راسبايل

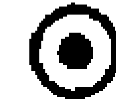


استأنف صعودك في مكان انقلاب الجفن تحت العظم
عـد وعاشر الأرض
كالحب دون عنف
إن ما أعرفه أنا لا أعرفه
في انقصامية لطيفة أقوى من الانسان الفاني
طيف على ارتفاع وسط تحت نور المصطفى
ولكن بأطمار لحم وقماش
شبيه بقماش ميتة منحوتة في القرن الخامس عشر



كانت تلك حركة إبعاد : شمس خادم رواق ملكي مشعله كان يبعد المكان
(تحت المياه تتكدس الأرض العاتمة ولكن خلف الزرقة النادرة السواد)
قطـاع
الأكثر بعداً يمر في الأعلى مدخـل الأرض سَمْت • هكــذا نحن نرمى من نقطة القمة طاليس في قعر البئر تراب هـذا الغطس الذي تكرسه الأشجار برشة مقلوبة وحوض الشرفات فوق النجمات الست •
شمشون الذي يحاصره في الفضاء لسان من الأرض ضيق يتوسل وهو يترنح

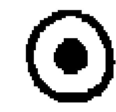
يميناً وشمالاً كذراعي منارة
واقفاً منذ الفجر مثل يتيمة يؤخذ بالمقلب وقلب المقلوب
وقد سمرته انعكاسات أضوائه وأضوائهم ·
طفل تحت الأجفان كان قد أخذ من خلف
(المعدة كانوا يقولون)
تقذف بحشوتها إلى أبعد مساحة محروسة
(عملية بتر بغير تخدير)
لقد تعلم
العزف على هذه القيثارة الوهمية
التي تطوّف بالأرض
وكان العوز الذي لا وجه له يدفعه
عندما حفظ الأسماء
بـدأ العالم ينتهي
في ظهره



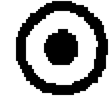
كان ذلك في يوم ضبابي وكان الانسان قادراً أن يميز من خلال بعض الفجوات السقوف فوق مقاعد من قماش لم يكن شيء واضحاً في أيامنا فالعين مثـل سمكة صغيرة في الحوض لا تجد جفناً في أي بقعة مضاءة

ما من جالس وعلى النقرة قفير الشوارع المسرعة نحو رصيف المحطة
السـين والشهر تشرين

مدهون بزجاجات اهليليجية ، بحصى ممهورة بلبلاب مطحون بأخشاب متوجة بلون الزهر : هذا الخريف الذي حضرته أنامل عصير التيترا كروم الماهرة وعند أشجار الدردار على الضفة اليمنى من اللوفر تحط أجنحة حمراء
العالم كان يصنع قرنة



فكر بعظماء القصور
حيث الشكل الأول كان مقياساً
خطا نمر فوق الصخر
العشب كان للطواويس المستنيرة
الآنية للنحات الرخام للكلاب
كان الناس يصمتون بالقرب من الحصان
يصطادون الصقر الأسطوري لكي يحملوه إلى الصخور
ولكي يستطيعوا بدورهم أن يسكنوا



من الممكن أنه كان يوم الدينونة • الثيران البيضاء ، كانت تجثو ، الخيل تصطف جانبياً ، الريح تتقدم الشمس فوق الجسور المنحنية كغاسلات الثياب• الناس ، لكي يؤدوا التحية ، كان عليهم أن يرفعوا العيون إلى مستوى زجاج النوافذ •

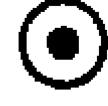
الكنائس المحاصرة كانت تصبح عصرية

ويقبل وجه من القاع يحمل ألواناً ، شبيهاً بسيل يلون الأرض يلون هيكله • ومثلما تضخم الحمى بروز الملامح ، يستدرج الرسام الوجه صاغراً إلى عمود العضلات ، إلى حركة التنفس التي يصنعها فمه على القماش ، ويجتاز الوجه المنطقة الواقعة قبل الألوان ، ثم الألوان ، مزيجاً من كبريت ومعادن مصهورة وجذور قوس قزح •

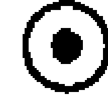
يظهر الشكل المراد اسقاطه بفضل أمواج المادة الاولية وهكذا تجتاز الأزاهير الأرض : آنية من تحت ، وتتماسك في طريقها إلى الأصفر فالأحمر خلال طبقة الدهان ، إلى الأسود فالذهبي ، إلى الأخضر والبرتقالي الغامقين : تبديل أثواب معادن فوق اللا منظور •

والروح التي تنزل كل مساء ، مغتسلة في المطهر ، تبعث بلحمها على بضعة

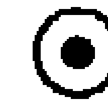
أقدام تحت الأرض النباتية بين الجحيم وتجلي الحقيقة ، هنالك حيث كان سنيورلي يعرف منجم العظام الأول ·



لن يُنقذ بل يسافر بعيداً هـو ، الذي يحلم بالصعود ، سـوف يأخذ قامة جسد في الأرض ·
عندما تصير الشمس أقل اتساعاً ، والشتاء أقل كرامة ، والريح أقل ضغطاً ، والخبز أقل خفة ، والضحى أقل أماناً ، والمنزل أقل ظهوراً ·
يعود عندئذٍ إلى وجهه البسيط



ركام أزرق في جليدي المساء
الكرمة ترجع تحت الأخضر ، الأزرق يعود إلى السماء ، الأرض تمحي من الأرض ، الأحمر يفتقد ذاته ويمتص حقول « كرو » · الألوان تتحرر من الأشياء وتنشد مملكتها السميكة الحرة قبل الأشياء الشبيهة بالأرض الدبقة التي سبقت آدم ·
أرض عصر الزواحف تطفو وتشرع فكيها نحو القمر ، السنون الحالمة تخرج من المغاور وتجوب بلطف محيط الجلد السميك · أرض صخرية تنتصب · النصر يستعيد عمره من أجل الليل · الغيوم ذاتها تتباعد تاركة اياهم ·
بسرعة تصير الأرض المرتعدة مهجورة لقد تجمعوا في المدينة متدرعين بالأبواب

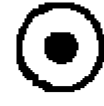


زرقة رمادية ، قليل من ألوان مسموح بها للسماء مسموح بها للأرض ولكنها متنوعة في التخوم ·
رأيت منذ قريب مرور البط الستوكاسيكي ·

صمت في صنوج شجرة التفاح ،
الخريف حيث يبرد الجسد

يتلف برتقاله ، عند شناشيل الدروب التي تربط القرى ٠

من العتبة ، من حيث يوجد من يضع إطاراً للحقل ،
يحرّج باللون الأشقر شجرة الشوح الصامدة
ويترك الجذوع العازلة تشحب



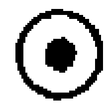
(مع كلمات مأخوذة من رونسار)

مسيرة تنشر الفضاء المطوى مثل كتاب طفل مفصول ، اللون الباهت والحق ، البركة ومنحاها ، البحر وشاطئه الصخري ٠

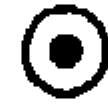
سجين سلاسل الأسماء ، مثل محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، تحت النير الذي يجتاز لقبه ، دون أن يستطيع التفاتة اليه ، غريب في العمل ولكنه « ناضب العينين » كما يقول جوفيال يحمل اليه مثل لا أحد ٠

حقل مليء بالمفارقات ٠ أهو بحاجة إلى محب جاهل وهذا الحب غير كاف إذ أنه لا يبقى هل يستطيع أن يضيف اليه عريه !

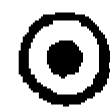
أيتها الأغراس الدموية والحيوانات المجوّعة
الرحمة تأكلني
أليس ثمة من يحترمك غير الرصيد ، أو الرسم الدقيق الذي يسحر كالمعرفة ،
أو بعض من اسم علم كاسم التوت ٠
(مريم كانت تريد أن يرجع اسمك
فيجد المحبـــة)
حيث تماثل اللفظ يتحد بالمرادف إذ أن هذه الثمرة ليست هنالك إلا لتؤكل
غابة الماء توقف المنزل أمام الفيوم :
اقطاعي تتقلص جملته يضع فيها مثيل كلبه شبيهاً بأمير فانديك



دنانير نور في عمق السواقي وشاحاتهم الأخيرة ،
لا وعي التطلع في العيد يغيّب
وجهاً طويلا ٠
مباضع الزمن في قرنة العينين ضفائر أكاسيا ٠
الأصوات لا تصل ٠
حركة الجدران تشبه مراكب تطير ٠
الرؤية في الميناء

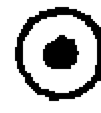


السماء ترتفع مثل ولد فوق الأشجار
الماء الذي أصبح رائحة
يجتاز
الأزهار تسمّى دانا في السرير
ضجيج روما في القمم
حشرات سكرى عديمة صراخ
والشمس موضوعة في أكياس هنا
وهناك
الجلد يهتاج
جمال الشجرة كالحصان الممتلىء لحماً فوق البركة
مدرسة الرقص أكثر بعداً من شجيرات التفاح ٠



مدينة بكاملها في سقوف القرية ٠٠٠
الطعام كان يعود مرات كثيرة
هذا الحقل لي كان يقول الأطفال المساكين
الطقس الرديء القلب الرديء
زهرة الخباز الفاغية

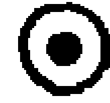
« ملاك يسير » ريشة في اليد
كانوا يعيرون التفاح
كلمة عن الآخرة لا كلمة عن الجسد
من يعود مثل الريح
الخطيئة الأصلية : اغتسال
من يجوفنا فنصنع القاموس
البصل يتدلى مثل قارات



يبدو في بلادي أن الأشجار تصنع دوائر
حول العشب (الذي يستعمل بصيغة المفرد)
وفي بلادي بلاد الفم
يسيل اللعاب غزيراً عندما تفقأ حبة العنب
امرأة في هذه البلاد
كتاب في هذه البلاد
أشجار الغار تصنع الجدار الداخلي · ثمة أشكال بيضوية
والماء أجري في الصخر
ما بين نوم ويقظة يسقي الصور :
الماء جادة وطريق وساقية في البلاد
شعر قديم ورقص قديم
يسور مخرجاً ضيقاً للقرية
الحجر أخضر من أجل هذه الشوارع
زوارق وقنوات تستعد قافية قوية
عمليات التدبيج كلها متشابهة · الكلمات تستطيع أن تدق الباب

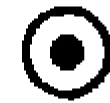
الأشباح تبين مكاناً لكل اسم : إنهم يتأرجحون بهدوء مثلما يتأرجحون في حديقة النباتات الجهل حمى والحق يستطيع أن يولد من الشتيمة الفاعل

والفعل : القنينة وسدادتها بشكل تبدو الصفحة فيه مشتلاً
حينئذٍ بسرعة
يجب تبديل الغابة
من أجل العودة



تبدل أحداث متوسطة الفولتاج
إضمارات ، اعتراضات ، دوائر ، فولت ،
حذف ، ثورية ، تفصيل ، هزائم وقتية ،
تشبيه ، إبدال ، أطناب ، انفجارات ،
ريش ، الزوايا الأربع ، مقاطع ، مبالغة ،
تعمية ، تجميد ، طي ، استفهام ،
أقواس ، قفز ، تمويه ، تبطين ،
ضيقة عين ، نقل وجوه ، انفراج سوق ، محاكاة ،
رأس حراب ، زحلقة ، مجاز ، خطوة مضاعفة ،
شموس عظيمة ، سلام دائم ، كرت أبيض ،
ربع دورة ، فرض ، درجة أولى ، كناية ،
فرقاء ، شرط ، فصل ، بلوف ، أشباح صينية ·
عبارات تمد تحت صمتها للمحاضر وجهاً

أتسمون هذا تشبيهاً ؟

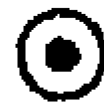


عيد في مكان غير بعيد لا تكن فيه لكي تستمع من جديد
أهكذا لسنا كثيرين معاً إلاّ من أجل التواء في الذاكرة إذاً
هن فيه مع ذلك يحضرن مخططات للمسرح
يتلاقين كما في رقص أو كجيران غرباء
في الموشور · جرم النهار الذي شطرته

حركات على النافذة وغسيل منشور لفتح
المحاور المختلفة للمتاهة الشفافة
الأذن الملتصق بالنافذة كالمراكب
في المرفأ · كذا الموسيقا الخفيفة

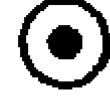
موسيقا المعرض حيث لم نكن نذهب الا لكي تكون سعداء
هذا المساء بحضور دعوته بين النساء
فوق المحاور المتصالبة للنجمة النهار
النجمة الأرض الفضاء الدبي البلوري
ذات أغصان ظل الذاكرة
الالتماع
وهي منحنية على
والحمامات على الكورنيش
الفقمة
جناحها المطوى
شعر يكسب الظهر نعومة
والعينان المتسامحتان على الشعيرة
خطوط عظام عنيفة

التعظم السجين يعود
الجناحان اللحميان يتقاسمان
وكل منهما من أجل نفسه معارض
يبحث عن مهرب



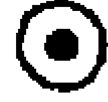
الصخور الأزهار الأنهار المطروقة بشكل بطولي
أيتها الآلهة المائجة الشيئية الثعبانية
كيف حصل فيها الغراب على الغار

من هم هؤلاء : هذا القناع هذه القولبة البشرية
التي يشلك القصيد بسفر تكوينها فوق صمته
يبدو أنها ماتت وانسحب الذي لا يموت

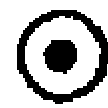


هذه الميتة الكثيرة الشبه بمن نستطيع أن نقول لها كل شيء
أنت أيتها القتيلة الحبيبة الميتة الصامتة المسافرة إلى هناك قريباً
لقد استعادت كلماتها الدفينة في ذاتها
ونحن بحركات الأزاهير نذكر
ونحن نبحث عن الحركة التي تعطي مسلمة الحكماء
(وصنع منه حاضراً)
الرقص بدون قاعدة يؤدي إلى القاعدة حيث الرسام الطبيعي هو العري
مقطع قصيدتي مسكني البشري المنحني
تحت كيس الفراغ الذي لا يوصف هدير بحر خيِّر
يلون بالسمرة الكلمة موشور النبرات التي يسكن الجرس عند شاطئيها
يكسر خسوف سفر التكوين غير القابل للاكتمال
موجة تسقطها
العين في خرير جدول متحدر
تسقطها أعلاق العظام الصامتة إذ أن الكتاب
المتجه نحو الركاب يضع فوق الركاب
من يذهب إلى اللقاء هذا هو الكون
القبلة في الذراعين الواحد من الآخر الروح
خدود سيامية لن تشاهد بعد الآن
افتح عرضانيا هكذا يقولون
عند مفصل الأرض
ضجيج الصراخ في المركز الأصم

ديك يثير الكنيسة المعدنية
ضغوط على مياه الكلام الذي يجر
العالم إلى ولادة هنا يسمونها اللا معقول
ولكنها أرض راحة خزان
فيه يتناول الممثلون غداءأ ويتعانقون
هذا المكان سوف يكون قائماً قريباً بفضل اللعب
مع الجدران ذاتها والأشجار ذاتها ٠



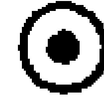
العالم يمتد فصولاً صقيع البحر
فوق هذا الخليج حيث أشجار الدردار نتنافس بالأبواق
عندما نستلب الريح قرون الشمس
أو بالأزهار أيضاً ٠ الأحد فوق الرواق
الجمهور نصّ ايراني عتيق
الخزي الذي عشناه مثل أيوب
والذي نرفضه من أجل مصيرنا
يسافر مباشرة الى اللامرئي



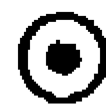
عندما حلت مصلحة البريد
تفتحت براعم شجرة ورد ملوكية
وساعة بعد ساعة من الليل بين الكتب
حيث انفجار المفرقعات
النابعة من ضياء اللوفر)

يمتد حتى الضفاف التي يهيئها النهار
وهو يفك جراب النجوم يكدس فوق الأرض

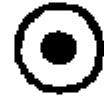
ويمهد ٠ وبنفخة خفيفة ينسخ الأشجار
فوق مصطبة النهر ٠ الصباح يكشف الوجوه
بقدر ما يجلو المسافات التي جلا عنها الليل
الجهات الأربع تغلق في وقت متأخر
بواسطة عقد ضبابية وتختلط عندئذٍ الأشياء من جديد



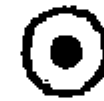
طنافس المركز في القاعة الكبيرة
محشوة بحزم أشعة السحرة
الذين كانوا يكنسون ساحة المعركة هذه وهم سكارى
دوران منائر في يوم ضبابي
كل واحدة مجرورة بالهواء ، بالكلام
بحزمة من حياة من أقارب من أشباح
تصعد نحو الغرفة الواسعة
حزمة من قش
حركة مواكب نهارية
منتظمة في تلك الحلبة النسائية
دوران عيون تدفع
الهواء البطيء الذي كنسته عيناك
دوران خفيف ينشط
تلتقي الكترونات وتنجدل غربلة راقصة
في القاعة ،
زيجات كثيرة تتصاعد كل منها
وكل منها تواكب المسيرة
الأطفال الحياة الأقارب الأشباح
طنافس المركز على المدرج



الخطيئة سافرت
ووراء الفارة يتضح كل شيء
ترتيب ســلام يتعاظم
هدنة بشكل غابة والبركة فوق الألسنة
أيائل برية وندامى
زواحف جرذان أفاعي مسحورة طيور
منضدة صراف غير منظورة حيث تمر السلالم
صليبيو ذكاء قرابين معاهدات بصمات
تختبي بشكل عظام الأصابع
جلسات قبلية تختلط فيها الشرايين بالحراب
والأفواه مفصل طي ناري
غيمة تكبح وأشياء تتشابه وهي تتجمع
ساعة جدارية وعول وجوه صندوق وحليب متقاربة
هدير محيط والتفاصيل من أجل السمع
من الأرض تخرج أفعى
أذرع بخواتم مشرقية
حياتي والجسد في مرتسم طويل ·



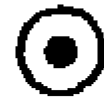
بصراحة من أنت ما أنت ماذا ···
أسرعي لكي ينتهي كل ما ينهي وجهاً قبيحاً
أمير مستورد يعلو عرش الهيكل
ركبتاه كركبتي واحد من الكتبة مكسوتان بالبازلت
كفاه تحضنان الكرات
وقدماه حجارة منقولة من لاكش إلى أعتاب
موائــد الزهور والبشر
سر القصيدة الراقصة هو الارسال ·



الجسد البطيء يهز ستائر الفراغ
وهو غارق حتى الابطين في التسيان
وعلى عينيه رداء رهباني رقيق

الجسد القبلي الجسد المجدلاني
جسد القرون الوسطى الجسد الفيدجياني الرومنطيقي
الجسد المعاصر العملاق الموائم
أيها القصيد أيها النداء المناسب
لهذه المسافة الخفية : الضياع الذي يصم السمع
ها هي المياه تحدثني عن الخضم
فضة الأنهار تحدثني عن المركز
والنار عن الليل وكذلك الأزهار
المرأة التي وجهها على النحيب
أيتها الأرض المليئة بالخواء

القصيد يضفر زينة لجديلتها
ينسق الباقات التي تمدها لـه
آلهة شعر غير معروفة



هذه السيدة ونافذتها الجميلة
ملاك بغير تناسق جانحاه حاملا رياح
كان يقول السلام عليك
الحب كان يميز بين الحضور والموت

في الحياة ذات الأبعاد الشاسعة التي لا ترجو موتاً
أنت امرأة بقدر ماتتخذين وضع امرأة

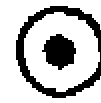
لتكن سعيدة أيضاً تلك التي يداعب الزمن شعرة من شعرها

تلك المرأة الخيالية التي اختارت اشارتي
لقد أدهشها تفاؤلي وسط اللهيب
بوتيسيلي في قميصها النهاري المغلف بالعطر
(زاغات الماء ومجانين باسان يزرعون الجدار الذي يحد البحر)
إنها لمن يخلصها من الركام
يكفيه أن يحصل منها على تحيـة
فلا يعود يكره بل يحب

بطيء هو عرفان الجميل ولتأت بعدنا الأنباء وبطيئة حلاوة فعل الخير
الهواء يتناولها من قامتها
والباقي مستهاماً ينفخ خديها
صانع" متظور قليلاً" يتم ذراعيها
يحيط بها ويسوي كرتها على ابطيه

هي ترتدي اللطف الذي تستطيعه الجدران
الأشياء ترتب نفسها مثل نساء الغرفة
هي تصر اللطف الذي تستطيعه الألوان

قامتها الأفق فخذاها الدروب ذراعاها السماء
قامتها الضفة ذراعاها المرتسم
الفراغ يصنع لها جناحين
الألوان ثيابها الجاهزة فوق الكراسي مشدها نبيه
الكون هو فارس رقصها

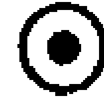


انتظر لحظة حيث تجلس
وهي تعدل فستانها وعيناها على اليمين والشمال

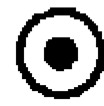
تاركة فخذيها على الخيط والمربعات
والأنامل تتأكد من وجود الجسد الضمائري

فوق المحور حيث نحن إذ إننا فوق المحور
مقام اهليليجي عادة تحت سموات
حبلى بالتراب · هنالك حاجة إلى خلجان في القصر
كذلك إلى بنود فوق الجدران
والظرف الهارب من غواية الحدائق

ومثلما ينظر الانسان من قطار
حيث النوافذ واسعة وعديدة
هامش الموسيقى · ومن أجل الألوان
يبنى هيكل من قماش



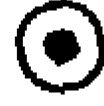
ما تكاد تنفرج شنتاها عن ضحكة أو تثاؤبة حتى يختفي وجهها في حفر اللوزتين
وبينا تنقر الأغشية المخاطية حيث يغرق اسمها ينزلق الحب متكمشاً بجذور النهدين ، ثم ينخفض فتعرف مثل جنية كيف ترفع من مياه الدائرة المغفلة جبلة الابن نحو العقل ·



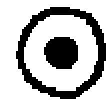
تساعده على ارتداء القميص
ونهاية روحها الأصابع
تعنى بذراعيه وجسده
إن لم تكن هنالك تفاصيل للجسد
فالروح المريدة لمن تكون ؟

إلى أن تصبح كل نقطة مخمورة

سريعاً مثل حرشفة لن يكون هنالك
مجال للتفكير بالسماء إلاّ إذا قامت أيد نبيهة
بغير استعارة على العناية بتفاصيل العضلات

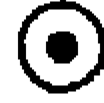


هنالك حاجة إلى قارىء إلى حركة إلى صحيفة
إلى مرآة • أنت وجه وورقتي المرتسم •
أنا النسيج لكي تكون أنت فراغك • السطح
لكي تلمس اليد سطحاً
الجذر حيث تهتز الأرض • أبيضك أسودي
المجوف من أجل ضيقتي
الأبيض من أجل أن أكون
هذا الرسم الذي قد لا أكونه • أنت الجلد
من أجل أبجديتي • كنت الهواء لكي لا تختنق
السنخ لكي تكون قوس الفك



يجب أن تعرفي لماذا أنت غالية جداً
هذه الغابة اللطيفة حيث مرت الأبقار
تشبه طفلاً بفضل الغياب النسبي
إلى قوة الفراق
هذه الغابة لون زهر الغبازى المحاطة بكوات نور
حيث أقال البرق السنديانة
عندما تبتعدين مثل ضفة
تتسلقين قريباً جداً وكل شيء يصبح لحناً
مجرداً من علاقة الحرف

هذه الغابة حيث مصيدة العمل تثقب الثخين أحياناً
بينما يكون الأطفال بعيدين
وتكون كلماتهم أسطورة
إذ يتحدثون كآدميين
قاسية مثل نواة من التورب لمحور دولاب ماء
طوبى لمن آمن ولم يرك
وجهك المخبوء يحيط بي
المطر ذو الأظافر التي تشبه أظافر الأخت العمياء
فوق جلد أشجار الكستنا ،
انني أكتب لكي لا تفهمي



الأعمار
جمالها السطح
عبادة نظراتنا المتقابلة
ولكن من مكان أكثر قرباًأعرف اسمها يتلألأ
ومع ذلك « كم الساعة ؟ »
سوف أتبنى نخر أسنانها
من مكان أكثر قرباً أكثر قرباً
وجهها يهرب ملامساً أراضيها

هنالك الصورة التي أعرضها هنا للمرة الأولى
في اليونان أجساد مصفوفة في الشلال الذي كان يغسلها
تلك التي كانت الشطآن تصنع عذوبتها
تلك التي خط انحنائها ثوب نيسو(١) الكهنوتي

(١) الشخص الاسطوري الذي أراد خطف ديجانير زوجة هركيل ٠

وهذه هي قضية السطح
ومن الوجهين اللذين تظهرهما
قضية المسرح إن المسرح يتخذ البديل
ومن الكواليس تظهر الأعضاء والمحطة الميتافيزيقية
الساقي ريان والطبيب مريض
هذا الرجل الثالث الذي يضعّفه
لكي يفهم الأجساد

ماذا يحدث للنساء
زاويتهن مع الأرض أسنانهن على حفرة السنخ
هذا القسم العلوي من جسدهن الذي يحلبنه وهن يجتزن الجمهور
طفل لقيط في الذاكرة
إنني أراه متسلقاً بلطف
الشر مع العمر ينمو
رصاص خوخ نجوم تمر

. . . .

من السن الذي لا تلامس فيه الأقدام الأرض
من ذراع الى ذراع
ومن كلمة إلى كلمة يسافر القصيد
وهو مثلها تحت حماية
راحات الأسرة حيث هما وادعان ومن زاوية إلى زاوية
في الفضاء الذي يحملهما جاهلين

الوعي يصنع إشارة بيديه
هي تروض حرف S فيفرض نفسه حرف I

فوق جمع اليدين والنقرة والكتفين
أيها الخاتم فمها G يأخذها من حلقها

. . . .

عاشقه كالمعظم
أنا مشفق عليها من نحن
الحاجبان يتعقدان
والفكر مثل مائث يمس
ـ التهدب ، النبض المشية
أنا لا أستطيع أن أبتعد ـ
سقيم قوي وواقف وسقيم قوي وواقف
« الأوراق في الساحة أولاد المدرسة »
بديع تسهر عليه أداة التشبيه مثل

بينما ينتظر دوره الذي لا مفر منه
مجاز يلفظنا من هذا العالم
ضجيج حرب منهوكة في السماء
قريبة ولكنها ملتوية كالدروب الجديدة
الأعمار تستعيد هدوءها في الحديقه
نوّم مختلطون بالتماثيل
الماء ليس ناقصاً ولا جارفاً
طيور خضراء تعرض عنه
نسوة جاثيات على الرملة والشمس تتوسل

لا تسقطن من الحساب
البستاني المتدحرج فوق سلمه المتدحرج
وهو جالس بين القمم وفي يده منجل حصاد
ولا ثياب التمريض تحت الرواق الأزرق

القصيد يحول الشقاء إلى قصبة
والحياء إلى غار
والقتل إلى حجال
هذا اسم مركب
من جهة صخرة الصخور
من الأخرى أسماء الأحياء
مدّ الشفة من ليكسير إلى Ure
شوفان وشوك « سيامي » في الحقل
وفي أية حال فان المسافة
تفصل بين الثياب
والقصيد المحروم من سفر تكوين
الجدة محاطة الآن بزنابق المقابر
مع عينيّ والدي المشدوهتين
ليفرج الباب عن هذا الوجه الذي كان له ابن
إنها تموت وهي تفكر بالسفر من نيس

منطق بريخت في المسرح

تقديم وترجمة : د. أحمد الحمو

اقترن اسم الكاتب الألماني برتولت بريخت بمفهوم « المسرح الروائي » كما اقترن بمجموعة من المسرحيات العالمية نذكر منها على سبيل المثال « أوبرا الثلاثة قروش » ، « إنسان سزوان الطيب » ، « دائرة الطباشير القوقازية » وغيرها من الأعمال الأدبية الرائعة التي خلفها بريخت لجيلنا والأجيال القادمة •

على أن بريخت لم يكتف بكتابة المسرحية بل اهتم أيضاً بنظم الشعر وكتابة القصة ووضع الى جانب ذلك ـ وهذا هو الأهم ـ نظرية متكاملة في الأدب تشمل الشعر والرواية والمسرحية • وقد أتاح له عمله في « البرلينر أنسامبل » أن يضع نظريته في المسرح على محك التجربة مما زادها غنى وتماسكا •

فيما يخصنا هنا فقد اكتفينا بترجمة « المنطق الصغير في المسرح » كخطوة اولى لوضع كامل نظرية بريخت في الأدب في متناول المثقف العربي ، حيث أن هذه النظرية تعتبر في القرن العشرين ثورة أدبية حقيقية وقد عمد بريخت هنا الى استعمال كلمة « منطق » نسبة الى كتاب « المنطق » لأرسطو ودعاه لذلك « المنطق الصغير » وللتأكيد أيضا على أهمية إدخال التفكير المنطقي الى العمل الأدبي •

يتألف « المنطق الصغير » من مقدمة بين فيها بريخت غرضه من كتابة هذا « المنطق » ومن نصوص على شكل مقاطع صغيرة أعطاها أرقاماً متسلسلة بلغت في مجموعها سبعة وسبعين مقطعاً • وقد كتبها جميعها في الثلاثينات عندما كان يعيش

في المنفى هرباً من اضطهاد النازيين الذين كانـوا يحكمون وطنه ألمانيا آنذاك • وعندما أراد نشرها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كتب لها عام ١٩٥٤ ملحقاً صغيراً عدل فيه بعض الأفكار التي اقتضت التجربة كما اقتضى تطور آرائه تعديلها• وقد أضاف اليها أخيراً ما أسماه « دفاع عن المنطق الصغير » وهو لا يتعدى بضعة أسطر حملت كل ماعرف عن بريخت من سخرية لاذعة •

يعالج بريخت في « المنطق الصغير » مهمـة المسرح ويختصرها قائـلا بأنها « انتاج صور حية لأحداث ••• وقعت بين الناس وذلك بقصد التسلية » • ثم ينتقل الى توجيه النقد الموضوعي واللاذع الى المسرح التقليدي مبرزا تفاهته وضرره للجمهور • أما مسألة « التغريب » وهي أساس «المسرح الروائي» (١) فقد شرحها بمثال العالم « غاليله » الذي اكتشف قانون الرقاص عندما نظر الى حركة المصباح المتدلي من السقف باندهاش بالغ وكأنه يراه لأول مرة في حياته • وقد أراد بريخت من وراءذلكأن يشرح التغريب بأنه إضفاء صفة اللامألوف علىالشيء المألوفبحيث تفقد الأشياء المألوفة لدينا بدهيتها وتثير انتباهنا وكأننا نشهدها لأول مرة « وهذا هو بداية النقد » كمـا يقول بريخت • انه يريد « بالتغريب » أن يحرك عقول الناس من جمودها وأن يدفع بهم الى إعادة التفكير في كل شيء ، بل والى تغيير كل شيء لأنه لا شيء ثابت في هذا العالم كالتغير ذاته •

ينتقل بريخت بعد ذلك الى مخاطبـة الممثلين المسرحيين شارحاً لهـم تقنية التمثيل الجديدة التي يتطلبها « المسرح الروائي » ، كما يتحدث أيضاً عن دور الموسيقى والغناء والرقص في هذا المسرح الجديد • وباختصار نستطيع القول أن « المنطق الصغير » نموذج مصغر ومكثف لنظرية « المسرح الروائي » عند بريخت •

(١) بعض المهتمين بشؤون الأدب يطلقون على مسرح بريخت اصطلاح « المسـرح الملحمي » ، لكننا نعتقد أن اصطلاح « المسرح الروائي » أقرب الى الصواب •

برتولت بريخت

المنطق الصغير في المسرح

ترجمة : د . أحمد الحمو

فيما يلي نريد أن نتبين كيف تبدو المسألة الجمالية في نوع خاص من المسرح كان قد بدىء بتطويره منذ عدة عقود من السنين . لقد قام المؤلف في الماضي من خلال بعض الملاحظات النظرية العابرة والاستنتاجات والتوجيهات الفنية التي نشرها على شكل ملاحظات حول مسرحياته بمعالجة الناحية الجمالية ولكن بصورة عرضية فقط وبدون كبير اهتمام . لقد وسّع وضيّق نوع خاص من أنواع المسرح الوظيفة الاجتماعية للمسرح واستكمل أو غربل وسائله الفنية وأثبت وجوده في المسألة الجمالية كلما دار الحديث حولها وذلك بأن تجاوز أحياناً القواعد الأخلاقية وقواعد الذوق العام السائدة أو اقتبس منها أحيانا أخرى تبعا لمتطلبات النضال . وقد دافع عن شغفه بالتيارات الاجتماعية بأن برهن على وجودها في أعمال فنية أخرى غير أعماله لا تزال تحظى بقبول عام ، إلا أنها لم تكن واضحة فيها لأنها كانت نفسها تمثل التيارات المقبولة عموما . كذلك فقد اعتبر إفراغ النتاج المعاصر من كل القيم العلمية ظاهرة انحلالية : لقد اتهم تلك البيوت التجارية انها ليست سوى تسليات مسائية وأنها قد انحدرت إلى مستوى صارت معه فرعا من فروع تجارة المخدرات البورجوازية . أما الصور الزائفة عن الحياة الاجتماعية التي كانت تعرض على المسرح فقد جعلته يصرخ من أجل صور علمية مضبوطة . كذلك فان المطبخ السخيف الذي يقدم

وجباته من أجل متعة العيون والأرواح الغبية قد جعله ينادي بأعلى صوته نحو منطق ١ × ١ • لقد رفض بكل احتقار طقوس الجمال التي كانت تنفر من التعلم وتحتقر الفائدة ، خاصة وأنه لم يعودوا ينتجون أي شيء جميل • لقد تطلعنا الى مسرح للعصر العلمي • وإذا صعب على المخططين لهذا المسرح أن يستعيروا أو يسرقوا بما فيه الكفاية من مصنع المفاهيم الجمالية ليتقوا بها شر الناقدين الجماليين في الصحافة فانهم قد أعلنوا عن قصدهم الصريح « بتطوير وسيلة المتعة الى مادة تعليمية وتحويل مؤسسات معينة من بيوت للتسلية الى أجهزة اعلامية » ، وبمعنى آخر الخروج من مملكة الامتاع • لقد كان الجمال ـ وهو احدى تركات طبقة صارت مريضة وطفيلية ـ في حالة يرثى لها بحيث أصبح ضرورياً للمسرح أن يستعيد احترامه ويحصل على حرية الحركة إذا كان يريد أن يحافظ على لقب « مسرح » • ومع ذلك فان مادخل حيز التطبيق العملي بصفته مسرح العصر العلمي لم يكن علما بل مسرحا• إن كثرة التجديدات لدى غياب امكانيات العرض العملي في أيام النازيين وفي زمن الحرب تدفع الى محاولة اختيار هذا النوع الخاص من أنواع المسرح من زاويته الجمالية أو في كل الأحوال تحديد الخطوط العامة لنظرية جمالية ممكنة • إنه سيكوّن من الصعب أن نعرض نظرية التغريب المسرحي خارج نطاق المسألة الجمالية•

من الممكن أن نضع في الوقت الحاضر نظرية جمالية حتى للعلوم الرياضية والطبيعية فقد تكلم « غاليله » عن أناقة بعض الصيغ ولوذعية بعض التجارب وأكد « آينشتاين » أن الحس الجمالي يمتلك القدرة على التحري والاكتشاف كما أثنى عالم الذرة « أوبنهايمر » على الموقف العلمي الذي « لا يخلو من الجمال والذي يبدو منسجما مع موقع الانسان على هذه الأرض » •

لنتخلَّ إذن ـ والأسف يكتنفنا ـ عن نيتنا في الخروج من مملكة الامتاع معلنين بأسف أعمق عن نيتنا الحالية في استيطان هذه المملكة• لنعالج المسرح على أنه احدى دور التسلية وفقاً لمتطلبات نظرية الجمال ولننظر أي نوع من التسلية سيناسبنا •

١ ـ المسرح هو انتاج صور حية لأحداث حقيقية أو موضوعة وقعت بين

الناس وذلك بقصد التسلية • هذا هو ما نرمي اليه في كل الأحوال عندما نتكلم عن المسرح سواء ما كان منه قديماً أو حديثاً •

٢ ـ كان باستطاعتنا أن نضيف الى ذلك تلك الاحداث التي وقعت بين الناس والآلهة • ولكن بما أننا نهتم بتعيين الحد الأدنى فقط فاننا نستطيع تجاوزها • وحتى لو أخذنا بهذا التوسع فان وصف المهمة العامة للمؤسسة التي ندعوها « مسرح » ألا وهي الابهاج لن يتغير • إنها أنبل مهمة عرفها المسرح •

٣ ـ منذ الأزل كان عمل المسرح وما زال شأنه في ذلك شأن الفنون الأخرى هو تسلية الناس • وهذا العمل هو الذي أسبغ عليه دائما احترامه الخاص • فهو لا يحتاج الى هوية أخرى غير التسلية ، وطبعا التسلية اللا مشروطة • ولا يظن أحد أنه سيرفعه الى مستوى أعلى اذا جعله على سبيل المثال سوقا للأخلاق • في مثل هذه الحالة سيشهد المسرح فوراً انحطاط شأنه ، اللهم الا إذا عرض أمور الأخلاق بأسلوب ترفيهي بأن يرفه عن الحواس وهذا لن يعود على الأخلاق الا بالكسب • حتى مهمة التعليم لايجوز لنا أن نكلف بها المسرح • ومهما كان الأمر فانه لا شيء أكثر إفادة من أن يقوم المرء بفاعلياته الجسمية والفكرية والنشوة تغمره • فلا بد للمسرح أن يبقى شيئاً فائضاً ، وهذا يعني بالطبع أن الانسان يعيش من أجل الفائض • ثم إن الترفيه من الأمور التي لا تحتاج الى تبرير •

٤ ـ هذا هو ما هدف اليه القدماء الذين أتوا بعد أرسطو من وراء مسرحياتهم التراجيدية • إنهم لم يتحدثوا عن شيء أسمى ولا أدنى من تسلية الناس • وعندما نقول نحن إن المسرح قد انبثق عن الطقوس الدينية فاننا نعلم أيضا أنه لم يصبح مسرحا الا من خلال استقلاله عن هذه الطقوس، فهو لم يأخذ من الأسرار المقدسة مهمة أداء الطقوس وإنما فقط مجرد الترويح عن النفس بهذه الأسرار • كذلك فان « التطهير » الذي أشار إليه أرسطو ، ذلك التطهير من خلال الخوف والألم أو التطهير من الخوف والألم ليس الا غسْلا لا يتم فقط بطريقة ترفيهية وإنما أيضا بهدف الترفيه بحد ذاته • وإذا فرضنا على المسرح أكثر من ذلك أو

سمحنا له بأكثر من ذلك فاننا نحط من هدفه الأصلي ·

٥ ـ حتى عندما نتحدث عن نوع رفيع من الترفيه وآخر منحط فاننا لن نجد تجاوباً من جانب الفن لأن الفن عندما يرفه عن الناس فانه يريد أن يراوح بين الرفعة والدنو دون تدخل من أحد ·

٦ ـ في المقابل يوفر المسرح تسليات ضعيفة (بسيطة) وأخرى قوية (مركبة) · والتسليات الأخيرة تصادفنا في المسرحيات الكبرى وتصل فيها الى ذروتها كالجماع في الحب عندما يصل الى ذروته · وتكون هذه التسليات أكثر تشعبا وأغنى مردودا وأشد تناقضا وأقوى أثرا ·

٧ ـ تختلف التسليات من عصر الى آخر تبعاً لنوع الحياة الاجتماعية التي يعيشها الناس · فأسلوب تسلية المدن الاغريقية القديمة ذات الحكم الفردي يختلف عن أسلوب تسلية البلاط الاقطاعي أيام لويس الرابع عشر · فقد كان يتوجب على المسرح آنذاك أن يعرض صورا أخرى للحياة البشرية المشتركة ، أي صورا من نوع آخر وليس فقط صورا لحياة مشتركة أخرى ·

٨ ـ وحسب نوع التسلية التي كانت ممكنة وضرورية في كل نوع من أنواع الاجتماع البشري كان لابد من صياغة الشخصيات حسب نسب أخرى وعرض المواقف من زوايا أخرى · فالحكايات لا بد من روايتها بطرق مختلفة حتى يتمتع أولئك الاغريق باستحالة الافلات من القوانين الالهية التي لا يحمي الجهل بها من العقاب ، وحتى يتمتع هؤلاء الفرنسيون بالقهر الذاتي للنفس برشاقتهم الفرنسية المعهودة ، وهو القهر الذي تفرضه تقاليد البلاط على أكابر الناس ، وأخيراً حتى يتمتع انكليز عصر اليزابيث الاولى بالترجيع الذاتي للانسان الجديد الذي ترك لنفسه العنان ·

٩ ـ على المرء أن يضع نصب عينيه أن درجة السرور بمختلف أنواع هذه الصور لا ترتبط أبدا بدرجة تشابه الصورة مع الأصل · إن عدم صحتها بل حتى قلة احتمال حدوثها ليس بذي أهمية فيما إذا كان عدم الصحة يحافظ على ثبات معين وتبقى قلة الاحتمال من نفس النوع · ويكفي في هذا المجال بعث الانطباع بأن القصة لا يمكن أن تأخذ هذا المجرى · وتتم صياغة القصة بمساعدة مختلف الوسائل

الأدبيةوالمسرحية · ونحن أيضا نتغاضى عن مثل هذه التجاوزات عندما نستمتع بالتطهير الروحي عند « سوفوكليس » وبمشاهد التضحيــة عند « راسين » ومشاهد القتــل عند « شكسبير » بأن نحـاول الفــوز بالعواطف الجميلـة والكبيرة للشخصيات الرئيسية في هذه القصص ·

١٠ ـ لقد قلنا بأنهناك أنواعاكثيرة من الصور تعرض أحداثا هامة تدور بين البشر · لقد صنعت هــذه الصور منــذ القديم وأدت دورها في تســلية الناس بالرغم مــن عـــدم مطابقتها للأصل · ولا تزال هناك كمية كبيرة من هــذه الأنــواع الكثيرة توفر لنا التسلية ·

١١ ـ عندما نلاحظ الآن قدرتنا على التمتــع بصور تعــود إلى مختلف العصور ، وهو حسب اعتقادنا أمر لم يكن في استطاعة أبناء تلك العصور ، أفلا يساورنا الشك حينئــذ بأننا لــم نكتشف بعد المسرات والتسلياتالخاصة بعصرنا نحن ؟

١٢ ـ كذلك فان استمتاعنا بالمسرح قد أصبح أقــل من استمتاع أسلافنا الأقدمين على الرغم من أن طريقنا في الحيــاة الاجتماعيــة لا تزال تشابــه طريقتهم بالقدر الذي يكفــي لحصول هذا الاستمتاع·إننا نتخذ لأنفسنا هذه الأعمال الأدبيــة القديمة عــن طريق عمليــة جديدة نسبياً هي الاستبصار وهو أمر لا تساعد عليه هذه الأعمال الأدبية كثيراً · وهكــذا نغذي قسماً كبيراً من متعتنا من مصادر أخرى بدلا من المصادر التي بسطت نفسها أمامنا· وهنا نتجه دون وجل إلى التمتع بجمال اللغة والذوق الرفيع في سرد القصــة وببعضالفصولالتي تثير فينا تصورات معينة ، أي أننا باختصار نتمتعبزخرف الأعمال الأدبيــة القديمة · وهـــذا الزخرف يشكل في الحقيقــة الوســائل الأدبيــة والمسرحية التي تخفي بعض مغالطات القصة · إن مسارحنا لم تعد قادرة أو راغبة في سرد هذه القصص بشكل واضح بما فيها قصص شكسبير العظيم التي لم يمض عليها زمن بعيد جداً · ونعني بالوضوح ربط الأحداث مع بعضها البعض بما يجعلها قابلــة للتصديق · ثم إن القصة تشكل حسب رأيأرسطو ورأينا أيضاً روحالمسرحية· إننا ننزعجبشكل متزايد بسببالبدائية واللامبالاة في تصــوير حيــاة الناس المشتركة ، وهــذا لا نصادفه فقط في المســرحيات القديمة وإنما أيضــاً في

المسرحيات المعاصرة عندما تصاغ طبقاً لنماذج قديمة إن مجمل أسلوبنا في الاستمتاع يميل لأن يصبح غير عصري.

١٣ ـ إن ما يعيق استمتاعنا بالمسرح هو تلك التناقضات في تصوير الأحداث التي تدور بين الناس • والسبب في ذلك هو أن موقفنا من الأصل يختلف عن موقف أسلافنا •

١٤ ـ عندما نفتش عن تسلية من نوع مباشر ، عن بهجة شاملة مستمرة من النوع الذي يستطيع مسرحنا توفيره لنا عن طريق تقديم صور عن الاجتماع الانساني فلابد لنا أن ننظر إلى أنفسنا على أننا أبناء عصر علمي• إن تعايشنا مع بعضنا البعض كبشر ، أي حياتنا بمجملها قد أخذت تسير حسبما تمليه عليها العلوم •

١٥ ـ قبل عدة قرون قام بعض الناس في دول مختلفة ولكن بالتعاون فيما بينهم باجراء تجارب معينة بقصد تعرية الطبيعة من أسرارها • وبما أن هؤلاء الناس كانوا ينتمون إلى طبقة أصحاب المهن في المدن التي تتمتع بالقوة فقد وضعوا اختراعاتهم هذه في خدمة أناس استغلوها استغلالا عمليا بدون أن ينتظروا من هذه العلوم الجديدة أكثر من المنفعة الشخصية • وهكذا فان المهن التي كانت تعتمد على أساليب ثابتة منذ آلاف السنين قد اتسعت من خلال ذلك بشكل كبير في مدن كثيرة ارتبطت مع بعضها البعض من خلال هذه المهن عن طريق المنافسة وكدست في داخلها مجموعات كبيرة من البشر بعد أن نظمتهم بأسلوب جديد وبدأت تعطي انتاجاً هائلا • وهنا أخذت الانسانية تتفتق عن قوى لم تكن تجرؤ من قبل أن تحلم بحجمها •

١٦ ـ وهكذا بدا وكأن الانسانية قد بدأت الآن فقط بوعي وتعاون لأن تجعل الكوكب الذي تعيش عليه صالحاً للسكن • فقد تحولت كثير من الأجزاء التي يتركب منها الكوكب كالفحم والماء والنفط الى كنوز ، كما تم تسخير البخار لتسيير العربات وتكشفت قليل من الشرارات الصغيرة مع بعض الاهتزاز كاهتزاز أرجل الضفادع عن قوة طبيعية تنتج الكهرباء وتنقل الصوت عبر القارات وغير ذلك من الامور • وبنظرة جديدة تطلع الانسان حوله في كل مكان ليرى كيف أنه يستطيع تسخير أشياء مرئية منذ زمن بعيد ولكنها غير مستغلة في سبيل راحته • أما محيطه الذي يعيش فيه فقد أخذ يتحول أكثر

فأكثر ومن عقد الى آخر ثم من سنة الى أخرى وأخيراً من يوم الى يوم تقريباً . وأنا كاتب هذه السطور مثلا أكتبها على آلة لم تكن معروفة زمن ولادتي . كذلك فانني أتنقل بالعربات الجديدة بسرعة لم يكن جدي قادراً على تصورها . في ذلك الوقت لم يكن هناك شيء يتحرك بهذه السرعة. لقد تحدثت مع والدي عبر إحدى القارات ولكني شاهدت مع ابني الصور المتحركة عن الانفجار في هيروشيما .

١٧ ـ فاذا كانت العلوم الجديدة قد مكنت من هذا التحول الضخم في عالمنا ومن قابلية التحول في هذا العالم وهو الأهم ، أفلا نستطيع القول إذن بأن روح هذه العلوم قد سيطرت علينا جميعاً ؟ أما السبب في أن الفئات الجماهيرية الواسعة لم تتأثر بهذا الشكل الجديد من الشعور والتفكير فيعود الى أن العلوم التي نجحت في استغلال الطبيعة وإخضاعها قد منعتها الطبقة البورجوازية ـ والتي وصلت الى السلطة بفضل تلك العلوم ـ من التغلغل الى مجال ما زال غامضا وهو مجال العلاقات بين البشر في استغلالهم وإخضاعهم للطبيعة لقد تم تنفيذ هذا العمل الذي يعتمد عليه الجميع دون أن توضح أساليب التفكير الجديدة التي جعلت تنفيذه ممكناً ، العلاقة المشتركة بين الذين قاموا به . إن النظرة الجديدة الى الطبيعة لم تتجه أيضاً الى المجتمع .

١٨ ـ وبالفعل أصبحت العلاقات المشتركة بين البشر غامضة غموضاً لم يسبق له مثيل . إن المشروع المشترك الضخم الذي يقوم به البشر يبدو وكأنه يزيد من انقسامهم كما أن زيادة الانتاج تتسبب في زيادة البؤس ولا يستفيد من استغلال الطبيعة إلا قلة قليلة وذلك عن طريق استغلال البشر . إن ما كان يمكن أن يصبح تقدما من أجل الجميع قد سُخِّر في سبيل تفوّق فئة قليلة ، كما أن جزءاً متعاظماً من الانتاج يستعمل من أجل توفير وسائل الدمار لحروب جبارة . في هذه الحروب تجول أبصار الأمهات الزائغة من جميع الأمم ـ وأطفالهن مشدودون الى صدورهن ـ في أرجاء السماء باحثة عن الاختراعات القاتلة التي أوجدها العلم .

١٩ ـ وكما وقف البشر في العصور القديمة عاجزين أمام كوارث الطبيعة المباغتة فكذلك يقفون اليوم أمام أعمالهم التي أنجزوها بأنفسهم . إن الطبقة البورجوازية التي تدين

بصعودهـا للعلم والتي حولت هـذا الصعود إلى سلطة سياسية بأن جعلت نفسها المستفيدة الوحيدة ، هذه الطبقة تعرف جيدا أن سلطتها ستنتهي حالما تصبح أعمالها موضوع النظرة العلمية الفاحصة • وهكذا فان العلم الجديد الذي يعالج جوهـر المجتمع الانساني والذي تأسس قبل حوالي مئة عام قد ولد في خضم الصراع الذي يخوضـه المسحوقون ضـد الحكام • ومنذ ذلك التاريخ • تغلغل شيء من الروح العلمية الى أعماق طبقة العمال الجديدة التـي تعيش مـن وراء الانتـاج الكبـير : فالكوارث الكبيرة ينظر اليها هنا عـلى أنها من فعل الحاكمين •

٢٠ ـ يلتقي العلم والفن في شيء واحد وهو أن كليهما قد وجدا من أجل جعل حياة البشر رغدة سهلة • فالأول يهتم بتأمين مورد الرزق للبشر والثاني بتوفير التسلية لهم • وفي العصر الذي بزغ فجره سـوف يستقي الفن مـادة التسلية مـن الانتاجية الجديدة التـي تستطيع أن توفر لنا بسهولة كبيرة مورد رزقنا والتي يمكن أن تصبح بحد ذاتها إذا زالت المعوقات من طريقها أعظـم بهجة عرفها البشر •

٢١ ـ ونحن إذا استسلمنا اليوم الى هذه الرغبة الجامحة في الانتاج فكيف يجب أن يكـون تصورنا لحياة البشر المشتركة ؟ أي موقف منتج نريد اتخاذه بغبطة تجـاه الطبيعة والمجتمـع عـلى المسرح نحن أبناء العصر العلمي ؟

٢٢ ـ الموقف هـو موقف نقدي • تجاه النهر يكون موقفنا تنظيم النهر، وتجاه شجرة مثمرة يكون تطعيم الشجرة وتجاه الحركة يكون تصميـم سيارات وطائرات وتجاه المجتمع يكون تحويل المجتمع • إننا نصنع صورنا عن الحياة الاجتماعية من أجل بناة السدود عـلى الأنهـار وزراع الفواكـه ومصممي السيارات ومحولي المجتمع • هؤلاء هم الذين ندعوهم الى مسارحنا ونطلب منهم أن لا ينسوا اهتماماتهم الترفيهية لكي نضـع العالم تحت تصـرف أدمغتهـم وقلوبهم يغيرونـه ويحولونه حسـبما يرونه مناسباً •

٢٣ ـ يستطيع المسرح أن يتخذ مثل هـذا الموقف الطليق فقـط عندما يستسلم إلى التيارات الجارفة في المجتمع ويقف في صف أولئك الذين يندفعون بلا تردد إلى تحقيق تحولات كبـيرة ، وإذا كان الأمر كذلك فان مجرد الرغبة في تطوير فننا ليتلاءم مـع مقتضيات

العصر ستدفع بمسرحنا ، مسرح العصر العلمي فوراً إلى أطراف المدن حيث يضع نفسه بشكل مباشر تحت تصرف الجماهير الواسعة المعطاء والمتقشفة أيضاً لكي تتسلى فيه هـــذه الجماهير بمشاكلها الكبيرة بصورة مجدية • قد تلاقي هذه الجماهير بعض الصعوبة في دفـــع ثمن فننا وفي فهم هذا النوع الجديد مـــن التسلية ، وعلينا أن نتعلم كثيراً لنعرف مـــاذا تحتاج هـــذه الجماهير وكيف تحتاجه • ولكن بامكاننا أن نكون على ثقة كاملة بأن هـــذه الجماهير ستبدي اهتماماً بفننا • هـــذه الجماهير التي تبـــدو أنهـــا تقف بعيدة من العلوم الطبيعية ليست كذلك إلا لأنها حرمت منها ، وعليها لكي تمتلكها أن تطـــور لنفسها أولا علم اجتماع جديداً وتطبقه بنفسها ويصبح أفرادها بذلك الابناء الحقيقيين للعصر العلمي • كذلك فان المسرح الخاص بالعصر العلمي لن يتحرك إذا لم تحركه هـــذه الجماهير • إن مسرحاً يجعل الانتاجية مصدره الرئيسي للتسلية لابد وأن يجعل موضوعه هذه الجماهير وأن يقوم بذلك بكل حماس، خاصة في هذه الأيام حيث يقف الانسان في كل مكان حائلا دون أخيه الانسان في أن ينتج نفسه أي في أن يحصل عـــلى معاشه وعلى تسليته وأن يقدم التسلية لغيره • لابد للمسرح أن ينشط الواقع ليعطي صوراً فعالة عن الواقع •

٢٤ ـ إلا أن هذا يسّهل على المسرح أن يقترب كثـــيراً من مراكز التعليم والنشر • لأنه إذا كان لا يمكن إزعاج المســـرح بمختلف المـــواد العلمية التي لا تجعله مسلياً فان من حقه أن يتسلى بالبحث والتعليم • إنه يحول الصـــور العلمية للمجتمع والتي تستطيع التأثير فيه كيلة إلى لعب : فهو يعرض أمام بناة المجتمع خبرات المجتمع القديمـــة والحديثة • ويتم هذا العرض بشكل يمكن معه التمتع بالأحاسيس والقناعات والدوافـــع التي حصـــل عليها أشـــد المتحمســـين وأعقل العقـــلاء وأنشـــط الناشطين بيننا من خـــلال معايشتهم للأحداث اليومية والأحداث الكبرى على مر السنين • وهكذا يمكن تسلية بناة المجتمـــع بالحكمة التي تتأتى عن حـــل المشاكل وبالغضب الذي تتحول فيـــه الشفقة على المسحوقين الى شيء نافـــع وبالاحترام لمن يحترمون الانسان ، أي باختصار تسليتهم بكل ما يسر الانسان المنتج المعطاء •

٢٥ ـ كذلك فان هذا يتيح للمسرح

أن يمتع زواره بالأخلاقية الخاصة بعصرهم والتي مصدرها الانتاجية • وعندما نجعل من النقد متعة — والنقد هنا هو أسلوب الانتاجية العظيم — فانه لن يكون هناك في المجال الأخلاقي شيء يجب على المسرح أن يفعله ، ولكن هناك الشيء الكثير الذي يمكن له أن يفعله• والمجتمع يستطيع أن يحصل على المتعة حتى من خلال ماهو شاذ وغريب خاصة عندما يظهر هذا الشذوذ على المسرح بحيوية وقوة • إن هذا الشذوذ غالباً ما ينطوي على قدرات عقلية وإمكانيات ذات قيمة خاصة ، إلا أنها تسخر في سبيل الشر • فالمجتمع يستطيع أن يتمتع بعظمة التيار المتدفق الهادر اذا استطاع السيطرة عليه : عندها يصبح هذا التيار ملكاً للمجتمع •

٢٦ — من أجل القيام بمثل هذا العمل فاننا لا نستطيع أن ندع المسرح في الحالة التي وجدناه عليها • لو ذهبنا إلى إحدى دور المسرح وراقبنا التأثير الذي يمارسه المسرح على النظارة فاننا سنشاهد حولنا أشكالا جامدة من البشر وقد اتخذت شكلا غريباً : إنهم يبدون في توتر شديد وقد شدوا كل عضلاتهم في حالة من الارهاق المفرط • كذلك سنلاحظ أنه لا يوجد بينهم أي اتصال وأن تواجدهم مع بعضهم البعض أشبه بتواجد أناس نيام ولكنهم يعانون من أحلام مزعجة لأنهم كما يقال يستلقون على ظهورهم • صحيح أن أعينهم مفتوحة ولكنهم لا يبصرون ، إنهم يحملقون فقط • كذلك فانهم لا يسمعون بل ينصتون فقط • فالسمع والابصار فعاليات قد تكون باعثة على السعادة في بعض الأحيان ، غير أن هؤلاء الناس قد حرموا من كل فعالية شأنهم في ذلك شأن من يفعل الآخرون شيئاً به • إن حالة الغيبوبة هذه التي يستسلمون فيها إلى مشاعر غامضة ولكنها قوية ، هذه الحالة تزداد عمقاً كلما أدى الممثلون أدوارهم بشكل أفضل مما يجعلنا نتمنى ، لأننا لا نوافق على هذه الحالة، لو أن الممثلين أدوا أدوارهم بأسوأ صورة ممكنة •

٢٧ — إن العالم الذي يتم تصويره هنا والذي تستخدم بعض جوانبه للحصول على هذه الحالات النفسية والخلجات العاطفية ، هذا العالم يظهر على المسرح مؤلفاً من بعض الأشياء القليلة التافهة التي لا تتعدى بعض قطع الورق المقوى وبعض الأصبغة وقليلا من النصوص حتى أن المرء

ليعجب بهؤلاء المشتغلين بالمسرح الذين يستطيعون بهذا التصوير البدائي للعالم أن يحركوا مشاعر مشاهديهم بقوة أكبر بكثير مما يستطيعه العالم نفسه ٠

٢٨ ـ على كل حال لا بد لنا أن نعذر المشتغلين بالمسرح،فلاهم بقادرين على تقديم التسليات التي يبيعونها من أجل المال والشهرة بأن يعرضوا صوراً دقيقة عن العالم ولا هم بقادرين على عرض صورهم المهزوزة بطريقة أقل شعوذة ٠ إننا نلمس في كل الأرجاء قدرتهم على تصوير الأشخاص لأن عرضهم لشخصيات المحتالين ولبعض الشخصيات الثانوية يدل على خبرة واسعة بالناس ولكن الشخصيات الرئيسية تبقى ضمن الاطار العام كي يكتشف المشاهدون بسهولة شبهاً بين أنفسهم وبين هذه الشخصيات٠وبصورة عامة فان جميع الملامح تؤخذ من النطاق الضيق الذي يستطيع ضمنه كل إنسان أن يقول : نعم هذا صحيح ٠ فالمشاهد يرغب في الحصول على مشاعر خاصة مثلما يرغب الطفل في الحصول عليها عندما يجلس على حصان خشبي مثبت على قرص متحرك : انه شعور الفخر لكونه يستطيع ركوب الخيل وكونه يمتلك حصاناً وهو كذلك شعور بمتعة الركوب حينما يمر على الأطفال الواقفين وأخيراً إنه شعور أحلام المغامرة بأن هناك من يلاحقه أو أنه يلاحق غيره وهكذا ٠ ولكي يحصل الطفل على كل هذه المشاعر فان الشبه بين الحصان الحقيقي والحصان الخشبي لا يلعب أي دور ، كذلك فان حصر الركوب ضمن دائرة صغيرة لايغير من الأمر شيئاً ٠ فكل مايهم المشاهدين في هذه الدور هو أن يتمكنوا من استبدال عالم مليء بالتناقضات بآخر منسجم وعالم غير معروف جيداً بآخر يستطيعون أن يحلموا به ٠

٢٩ ـ هذا هو المسرح الذي نريد أن نطبق عليه مشروعنا ٠ ولقد أثبت هذا المسرح حتى الآن أنه قادر على أن يجعل من أصدقائنا الذين هم موضع أملنا والذين دعوناهم أبناء العصر العلمي مجرد قطيع مذعور مشدوه يصدق كل ما يقال له ٠

٣٠ ـ صحيح أن الجمهور قد بدأ منذ حوالي نصف قرن يشاهد على المسرح صوراً أكثر صدقاً عن الحياة الانسانية المشتركة كما بدأ يشاهد شخصيات تثور على بعض الأوضاع الاجتماعية السيئة أو حتى على كامل

التركيبة الاجتماعية ٠ وقد جعله اهتمامه القوي يقبل أحياناً عن رضى كثيراً من الاختصار في اللغة والقصة والأفق الفكري لأن نغمة الفكر العلمي كادت تؤدي بالاثارات المعتادة إلى الذبول ٠ لكن هذه التضحيات من جانب الجمهور لم تكن ذات فائدة كبيرة لأن تحسين الصور قد أضر بتسلية دون أن يلبي الحاجة الى الأخرى ٠ لقد أصبح حقل العلاقات الانسانية في متناول العين ولكن ليس بالوضوح اللازم ، لأن الأحاسيس التي ظلت تثار بالطريقة القديمة (المشعوذة) قد بقيت على حالها من النوع القديم ٠

٣١ ـ لقد بقيت المسارح دور تسلية للطبقة التي طبقت الفكر العلمي في مجال الطبيعة ولكنها لم تجرؤ على إدخاله الى مجال العلاقات الانسانية ٠ أما الجزء الكادح الضئيل من جمهور المسرح والذي يضم بعض المفكرين المنشقين عن طبقتهم فقد كان يحتاج أيضاً الى النوع القديم من التسلية التي تجعل طريقتهم الثابتة في الحياة سهلة ٠

٣٢ ـ ومع ذلك فلنتابع ! من الواضح أننا دخلنا معركة فلنقاتل إذن ! ألم نر كيف أن عدم التصديق يزيح الجبال ؟ ألا يكفي أننا اكتشفنا أنهم يخفون عنا شيئاً ؟ إن ستاراً يحجب عنا هذا وذاك: فلننزح هذا الستار !

٣٣ ـ يصور لنا المسرح في وضعه الراهن أن التركيبة الاجتماعية (معروضة على خشبة المسرح) غير خاضعة للتحويل أو التغيير من جانب المجتمع (في الصالة) ٠ لقد حكم على « أوديب » بالموت لأنه خالف بعض المبادىء التي يقوم عليها مجتمع ذلك العصر ٠ وقد أصدرت الآلهة حكمها عليه دون أن يكون بالامكان توجيه النقد إليها ٠ كذلك فان عظماء شكسبير الذين يحملون أقدارهم على جبينهم ينفذون مسيرات الموت التي لا طائل تحتها دون أن يكون بالامكان ايقافهم ، إنهم يقودون أنفسهم الى الهلاك ٠ وفي انهيارهم هذا تصبح الحياة وليس الموت أمراً معيباً ، فالكارثة غير قابلة للنقد ٠ ضحايا بشرية على طول الخط ! تسليات بربرية ! نحن نعلم بأن للبرابرة فناً ٠ لنصنع نحن فناً آخر !

٣٤ ـ كفى أرواحنا انعتاقاً من الأجساد « المقيتة » تحت ستار الظلام وتغلغلا في تلك الأجساد السحرية التي تتحرك في الأعلى على خشبة المسرح

لتشاركها تحليقها الذي يظل ممنوعاً عليها « في الحالات الأخرى » • أي تحرر هذا إذا كنا في نهاية كل هذه المسرحيات — وهي تعتبر نهاية سعيدة بالنسبة لعصرها فقط بتحقق التدبير الالهي المسبق أو باستتباب النظام — نشهد الاعدام السحري الذي يطارد مثل هذا التحليق باعتباره خروجاً على العرف والنظام ! إننا نزحف الى داخل « أوديب » زحفاً لأن المحرمات مازالت موجودة هنا والجهل لا يحمي من العقاب • ونحن نزحف الى داخل « عطيل » أيضاً لأن الغيرة وكل شيء يتعلق بالملكية الشخصية لا يزال يشغلنا• كذلك فاننا نزحف إلى داخل «فالنشتين»(١) لأنه يجب علينا أن نكون طليقين من أجل الصراع على القوة ومؤيدين له وإلا فانه سيتوقف • إن هذه العادات المزعجة تلقى التشجيع أيضاً في مسرحيات مثل « الأشباح »(٢) و « النساجون »(٣) والتي يبدو فيها المجتمع بصفته « بيئة » أكثر تعقيداً• وبما أن مشاعر وخبرات ودوافع الشخصيات الرئيسية تحشر فينا حشراً فاننا لا نحصل من المجتمع إلا على ما تجود به هذه البيئة » •

٣٥ — إننا نحتاج الى مسرح لا يجعل في متناول اليد فقط المشاعر والخبرات والدوافع التي يسمح بها مجال العلاقات الانسانية التاريخي والذي تدور ضمنه الأحداث • إننا نحتاج إلى مسرح ينتج ويستخدم الأفكار والأحاسيس التي تلعب دوراً في تغيير المجال ذاته •

٣٦ — يجب أن يكون بالامكان ابراز المجال ضمن نسبيته التاريخية• هذا يعني أن نقلع عن عادتنا بتعرية التركيبات الاجتماعية المختلفة للعصور الماضية من أوجه الخلاف بينها بحيث تبدو جميعها مشابهة بشكل أو بآخر لعصرنا الذي نمنحه من خلال هذه العملية صفة الأزلية • أننا نريد أن نحافظ على تمايزها كما نريد أن لا ننسى أنها زائلة• بحيث يصبح بالامكان النظر الى عصرنا بأنه زائل أيضا • (لا يمكن هنا بالطبع استخدام الألوان والفولكلور التي تعتمد عليها مسارحنا لابراز أوجه الشبه بصورة أشد في سلوك البشر في العصور المختلفة • وسوف نتعرض للوسائل المسرحية في موضع آخر) •

(١) إحدى مسرحيات فريدريش شيللر •
(٢) إحدى مسرحيات هنريك إبسن
(٣) إحدى مسرحيات غرهارد هاوبتمان •
المترجم

٣٧ ـ إذا جعلنا الشخصيات تتحرك على المسرح من خلال قوى الدفع الاجتماعية التي تختلف من عصر الى آخر فاننا نجعل من الصعب على المشاهد أن يتأقلم مع المسرحية • فهو لن يستطيع أن يشعر : «هكذا كنت سأتصرف أيضاً» وإنما يستطيع في أحسن الأحوال أن يقول : « لو كنت أعيش في ظل مثل هذه الظروف » • أما عندما نعرض مسرحيات من عصرنا الحاضر ونقدمها في قالب تاريخي فان الظروف التي يعيش في ظلها ستبدو له شيئاً متميزاً وهذه هي في الحقيقة بداية النقد •

٣٨ ـ على أنه لا يجوز للمرء طبعاً أن ينظر الى « الشروط التاريخية » أو يستعملها في المسرحية على أنها قوى غامضة وإنما على أنها من صنع البشر وأنهم ـ أي البشر ـ هم الذين صنعوها وحافظوا عليها (وهم الذين سيغيرونها): إنها مجموعة التصرفات التي تعرض هنا •

٣٩ ـ عندما نحول إحدى الشخصيات الى شخصية تاريخية ونجعلها تستجيب حسب العصر الذي هي فيه كما تستجيب بشكل مختلف في العصور الأخرى ، ألا تكون هذه الشخصية هنا الانسان المطلق ؟ حسب توالي الزمن أو حسب الطبقة الاجتماعية سيستجيب هنا شخص ما بشكل مختلف • فاذا عاش في عصر آخر أو في عصر غير بعيد من عصرنا أو في الجانب المظلم من الحياة فانه سيستجيب بالتأكيد بشكل آخر ولكنه سيستجيب ككل شخص يعيش في وضعه وعصره : ألا يخطر على بالنا أن نسأل فيما إذا كانت هناك فروقات أخرى في الجواب ؟ أين هي ذاته الحية المتميزة التي لا تتشابه تماماً مع ذوات أقرانه ؟ من المفهوم أن الصورة المسرحية لا بد وأن توضح لنا طوية ذلك الانسان بأن تجعل هذا التناقض جزءاً منها • يجب أن تحتوي الصورة المسرحية للشخصية التاريخية بعض صفات المخطط الذي يتضمن إشارات أولية الى باقي الحركات والقسمات حول الشكل المرسوم • أو لنتصور رجلا يلقي خطبة في أسفل أحد الوديان ثم يغير رأيه الذي يعبر عنه أثناء القاء الخطبة أو أنه ينطق بجمل متناقضة بحيث يحمل الصدى الذي يرافق صوته التناقض الواقع بين جمله •

٤٠ ـ يتطلب هذا النوع من الصور بالطبع أسلوباً في الأداء يبقي على فكر المشاهد طليقاً وقادراً على الحركة •

فلا بد للمشاهد أن يستطيع باستمرار تركيب وصلات مفترضة في بنائنا وذلك بأن يستبعد بينه وبين نفسه القوى الاجتماعية المحركة أو يستبدلها بغيرها. ومن خلال هذه العملية يمكن إضفاء « اللا مألوف » على سلوك مألوف في الأصل ، وبذلك تفقد القوى المحركة الآنية بداهيتها وتصبح خاضعة للمعالجة .

٤١ ـ ان هذا يشبه المهندس الذي يرى النهر بسريره الحالي وسريره المفترض فيما لو كان ميلان الأرض غير ذلك وكمية المياه مختلفة . وبينما يرى هذا المهندس بأفكاره نهراً جديداً يسمع الاشتراكي بأفكاره أحاديث جديدة تدور بين العمال الزراعيين على شاطيء النهر . وهكذا ينبغي أن يجد المشاهد في مسرحنا الحوادث التي تدور بين مثل هؤلاء العمال الزراعيين على هيئة تصميم وصدى .

إن طريقة الأداء التي اختبرت في فترة ما بين الحربين العالميتين في مسرح « شيف باوردام » في برلين لانتاج مثل هذه الصور تعتمد على ما نسميه « تأثير التغريب » . إن صورة تثير التغريب هي تلك التي تسمح بالتعرف على الشيء ولكنها تجعله يبدو غريباً بنفس الوقت . لقد كان المسرح أيام الاغريق وفي العصور الوسطى يضفي صفة التغريب على شخصياته من خلال الأقنعة . كذلك فان المسرح الآسيوي لا يزال حتى اليوم يستخدم تأثيرات التغريب عن طريق الموسيقى والحركات الايمائية . هذه التأثيرات تمنع بلا شك المشاركة العاطفية ، إلا أن هذه التقنية تقوم على أساس ايحائي سالب للارادة أكثر من التقنية الأخرى التي تحقق المشاركة العاطفية . إن الأغراض الاجتماعية لهذه التأثيرات القديمة تختلف عن أغراضنا كل الاختلاف .

٤٣ ـ تعمد تأثيرات التغريب القديمة الى جعل موضوع الصورة خارج نطاق تفكير المشاهد وابرازه كشيء لا يمكن تغييره . أما تأثيرات التغريب الجديدة فلا نجد فيها أي شيء عجيب أو مثير للدهشة . وسبب ذلك النظرة اللا علمية التي تخلط بين ما هو غريب وبين ما هو عجيب . فالتغريبات الجديدة لابد لها أن تنزع فقط صفة المألوف من الحوادث القابلة للتأثير فيها من جانب المجتمع لأن صفة المألوف هذه تجعلها بعيدة عن متناولنا .

٤٤ ـ إن مالم يتغير منذ وقت طويل يبدو وكأنه غير قابل للتغيير • ففي كل مكان تصادفنا أمور بديهية جداً لدرجة نعتقد معها أننا لسنا بحاجة لبذل أي جهد فكري لفهمها • إن واقع حياة البشر مع بعضهم البعض يبدو لهم أنه الواقع الانساني الفعلي • فالطفل الذي ينشأ في عالم المسنين يتعلم كيف تسير الأمور هناك • وكما تسير الأمور تصبح مألوفة لديه • أما إذا كان هناك من يملك ما يكفي من الجرأة ليرغب أكثر من ذلك فانه يرغب به فقط كاستثناء • وحتى عندما يكتشف أن ما فرضه عليه « القدر » ليس سوى ما اختاره المجتمع له فان هذا المجتمع ـ ذلك التجمع الضخم من الأحياء من أمثاله والذي هو ككل أكبر من مجموع الأجزاء التي يتألف منها ـ سيبدو له غير خاضع للتأثير أو التغيير • ومع ذلك فان هذا الذي هو غير خاضع للتأثير مألوف لديه ، ومن يشك فيما هو مألوف لديه ؟ ولكي يبدو له كل هذا الواقع مشكوكاً فيه أيضاً بنفس القدر الذي يبدو له فيه واقعاً فانه لا بد له وأن يطور لنفسه تلك النظرة المستغربة التي نظر بها « غاليله » العظيم الى مصباح متدلٍّ يتراقص يمنة ويسرة • لقد تعجب « غاليله » من هذه الاهتزازات وكأنه لم يكن يتوقعها بهذا الشكل ولم يفهم حركتها مما قاده الى اكتشاف قانون الرقاص • وهذه النظرة التي هي شاقة بقدر ماهي مجدية لابد للمسرح أن يحرض عليها من خلال الصور التي يقدمها عن الحياة الاجتماعية • يجب على المسرح أن يجعل جمهوره يتعجب وهذا يتم عن طريق استخدام تقنية تجعل المشاهد يستغرب المألوف •

٤٥ ـ ماهي الطريقة التي تسمح للمسرح أن يستخدم من أجل صوره طريقة علم الاجتماع الجديد ـ الديالكتيك المادي ؟ بما أننا قد وصلنا الى الحديث عن حركية المجتمع فاننا نقول أن هذه الطريقة تعالج الأوضاع الاجتماعية بصفتها عمليات ثم تتابع هذه العمليات في تناقضها • وبالنسبة لها فان كل شيء يحصل على وجوده من خلال تحوله أي من خلال عدم توافقه مع نفسه • وهذا يصح أيضا على مشاعر وآراء ومواقف البشر التي يعبرون من خلالها عن نوع حياتهم الاجتماعية المشتركة •

٤٦ ـ إنه لمن متع عصرنا الذي حقق

هـذا القدر الكبير من تحويل الطبيعة أن نفهم كل شيء بشكل يمكننا معـه التأثير فيه • وهنا يتضح لنا أنهيكمن في الانسان الشيء الكثير ، أو لنقل : يمكن أن نصنع منه الشيء الكثير • فكما هو كائن لا ينبغي له أن يبقى • لذلك لا يجوز لنا أن ننظر اليه فقط كما هو كائن وإنما أيضا كما يمكنأن يكون • ويجب علينا أن لا ننطلق منه بل أن ننطلق اليه • ولكن هذا لايعني بأنه يحق لي أن أضع نفسي مكانه بل يجب علي أن أضع نفسي مقابله ممثلا لنا جميعا • لذلك يجب على المسرحأن يثير العجب بما يعرضه •

٤٧ ــللوصول الى تأثيرات التغريب لا بد للممثل أن يقلع عن كل مايجتنب مشاركة الجمهور العاطفيةمعمايعرضه• فلا يجوز لـه أن يعمد عن قصد إلى وضع جمهوره في حالة غيبوبة ولا أن يضع نفسه أيضاً في مثل هذه الحالة • لا بـد لعضلاتـه أن تبقى في حالـة استرخـاء ، إذ أن ادارة الرأس مثلا بعضلات عنق مشـدودة ستشد معهـا أنظار المشاهدين وحتى رؤوسهم وهـم مأخوذون مما يؤدي إلى إضعاف كلتنبؤ أو خلجة وجدانية حول هذه الايماءة• لتكن طريقته في الكلام خالية من سجع الكهـان ومن الايقاعات التي تخـدر المشاهدين وتـؤدي الى ضياع المعنى • حتى عندما يأخذ دور الممسوس عقلياً لا يجوز لـه أن يبدو للمشاهد بأنـه ممسوس فعـلا وإلا فكيف يستطيـع الجمهـور أن يستنتج ما الذي يمسّ الممسوسين ؟

٤٨ ــ لا يجوز للممثل في أية لحظة من اللحظات أن يتقمص كليةالشخصية التي يقوم بدورها • فاذا قلنا عن أحد الممثلين : « لم يكنيمثل الملك لير وإنما كان الملك لير نفسه » فان حكمنا هذا سيكون مدمراً بالنسبة له • إن عليه فقط أن يعرض الشخصية التي ينوب عنها أو بكلمة أخرى ليس عليه فقط أن يعيشها • غير أن هذا لا يعني بأن يبقى جامداً عندما يقوم بأدوار أناس متحمسين ، فقط لا ينبغي أن تكـون مشاعـره الذاتيـة مطابقـة لمشاعـر الشخصية التي يعرضها كـي لا تصبح أيضاً مشاعر جمهوره مطابقة لمشاعر هذه الشخصية • فالجمهور لابد وأن يحتفظ بحريته كاملة •

٤٩ ــ عندما يقف الممثل على المسرح في هيئتين ، في هيئـة « لوفتون » وفي هيئة « غاليله » ، وعندمـا لا يذوب « لوفتون » في « غاليله » المعروض ،

وهذا ما أعطى هذه الطريقة في الأداء اسم « المسرح الروائي » ، فان هذا لا يعني في النهاية أكثر من أن الحدث الواقعي أو الحدث العادي لن يكون مموهاً ، اذ أن « لوفتون » هو الذي يقف فعلا على المسرح ويعرض كيف يرى « غاليله » . أما عندما يبدي الجمهور إعجابه به فانه لن ينسى طبعاً « لوفتون » ولكن آراءه ومشاعره تختفي لأنها تتحول تماماً الى آراء ومشاعر الشخصية المعروضة . في هذه الحالة يكون قد تبنى آراء وأحاسيس المشاهدين بحيث ينتج عنها جميعاً نموذج واحد : في هذه الحالة سيجعلنا نأخذ بهذا النموذج . وللحيلولة دون حصول مثل هذا التدني لا بد له أن يحول عملية العرض الى عملية فنية . ومن أجل توضيح ذلك نورد المثال التالي : لكي يكون الموقف الذي يتخذه الممثل موقفا مستقلا نستطيع أن نضيف الى أحد شقي هذا الموقف ، أي العرض ، ايماءة ما بأن نترك الممثل يدخن سيجاراً ونتصوره كيف يضع السيجار من يده كل مرة لنستعرض نوعاً آخراً من سلوك الشخصية المفترضة . عندما ننزع من الصورة كل ماهو متسرع ونتصور بدون تباطؤ ماهو متباطيء نكون قد حصلنا على ممثل يستطيع أن يتركنا لأفكارنا أو لأفكاره .

٥٠ ـ من الضروري اجراء تعديل آخر في نقل الصور عن طريق الممثل ، وهو أيضاً تعديل يجعل من العملية أكثر واقعية . فكما أنه لا يجوز للممثل أن يوهم جمهوره بأنه ليس هو الذي يقف على خشبة المسرح وإنما الشخصية المفترضة فكذلك لايجوز له بأن يوهم هذا الجمهور بأن ما يجري على خشبة المسرح ليس حصيلة تدريب مسبق وإنما حدث فريد يتم لأول مرة . لهذا فان التقسيم الذي وضعه «شيللر» بين القصاص الشعبي والممثل المسرحي من حيث أن الأول يعالج قصته على أنها حدثت كلية في الماضي بينما يعالج الثاني قصته على أنها بنت الساعة ، هذا التقسيم لم يعد يصلح كثيراً . ينبغي أن يتضح من خلال أداء الممثل بصورة قاطعة بأنه « يعرف النهاية منذ البداية وأثناء الأداء أيضاً » . وينبغي عليه أيضاً أن « يتمكن من حرية هادئة في جميع الأحوال » . إنه يروي قصة بطله من خلال عرض حي وهو عالم بها أكثر من البطل الأصلي ، ثم إنه لا يعامل المكان والزمان على أنهما افتراض أمكن وضعه بمساعدة قواعد

التمثيل بل يفصلهما عن الأمكنة والأزمنة الأخرى مما يعطي الربط بين الأحداث الوضوح اللازم ·

٥١ ـ تتجلى أهمية هذه المسألة بصورة خاصة عند عرض أحداث ضخمة أو حيثما تتم تحولات في المحيط الخارجي كالحروب والثورات مما يسمح للمشاهد أن يلم بمجمل الوضع وبمجمل سير الأحداث · إنه يستطيع مثلا وهو يستمع الى امرأة تتكلم أن يسمعها بأفكاره كيف تتكلم بشكل آخر بعد عدة أسابيع مثلا كما يمكنه أن يسمع نسوة أخريات يتكلمن الآن في مكان آخر وبشكل آخر · إن هذا الأمر يصبح ممكناً عندما تؤدي الممثلة دورها وكأن المرأة قد عاشت الحقبة حتى نهايتها وهي تفضي الآن من ذاكرتها أو من خلال معرفتها بتتابع الأحداث بما هو هام بالنسبة لهذه اللحظة التي تتكلم فيها ، لأن الشيء الهام هنا هو ما أصبح هاماً من قبل · إن تغريب شخصية بهذا الشكل على أنها « بالضبط هذه الشخصية » و « بالضبط هذه الشخصية الآن » يصبح ممكناً فقط عندما لا نعمد الى ايهام المشاهد بأن الممثل هو البطل الأصلي وأن العرض هو الحدث الأصلي ·

٥٢ ـ ولكن هذا يعني التحرر من وهم آخر وهو أن أي إنسان يتصرف كما يتصرف البطل · لقد نتج عن « أنا أفعل هذا » « أنا فعلت هذا » ، والآن يجب أن ينتج عن « هو فعل هذا » « هو فعل هذا ولا شيء سواه »· إنه تبسيط كبير للأمور عندما نطابق الأفعال مع الشخصية والشخصية مع الأفعال · فالتناقضات التي تقع بين طباع وأفعال البشر لا يمكن إظهارها بهذا الأسلوب · إن قوانين حركة المجتمع لا يمكن عرضها من خلال « الحالات المثالية » لأن « التداخل » (التناقض) جزء من الحركة والمتحرك· لذلك كان من الضروري جداً توفير شروط تجريبية بمعنى إمكانية إجراء التجربة المعاكسة · وبصورة عامة يجب النظر إلى المجتمع وكأن ما يصنعه ليس إلا تجربة ·

٥٣ ـ وإذا كان يمكن اللجوء الى تقمص الشخصية أثناء البروفات ـ وهو ما يجب تجنبه أثناء العرض على المسرح ـ فانه ليس إلا بوصفه أحد الأساليب المتعددة في المراقبة · وهذه الطريقة مفيدة أثناء التمرين ، فقد نتج عنها تصوير دقيق للشخصيات لدى استعمالها اللا محدود من قبل المسرح المعاصر ·

على أن أكثر الأنواع سذاجة في التقمص ذلك النوع الذي يكتفي فيه الممثل فقط بالسؤال : كيف سأكون لو أن هــذا وذاك قــد حدث لي ؟ مــاذا سيكون عليه الأمر لو أني قلت هــذا وفعلت هذا ؟ بدلا من أن يسأل : كيف سمعت إنساناً يقول هذا أو رأيته يفعل هذا ؟ وهو في ذلك يأخذ أشياء مختلفة مــن هنا وهناك ليستطيع أن يصوغ شخصية جديدة يمكن للقصة أن تستمر بها • إن وحــدة الشخصية تبنى من خــلال التناقض بين صفاتها •

٥٤ ـ المراقبة جزء أساسي من فن التمثيل • فالممثل يراقب الناس حوله بكل عضلاته وأعصابه من خلال عملية تقليد تكون بنفس الوقت عملية تفكير، لأنه في التقليد المجرد نحصل في أحسن الأحوال على الشخص موضع المراقبــة وهــذا لا يكفي • فما تقوله النسخة الأصلية تلفظه بصوت هامس • ولكي ننتقل مــن النسخ الى التصوير لا بــد للممثــل أن ينظر الى الناس وكأنهــم يرشدونــه الى ما يفعلون أو كأنهــم ينصحونه بأن يفكر ملياً بما يفعلونه •

٥٥ ـ بدون آراء ومقاصد مسبقة لا يستطيع المرء أن يصنع صــوراً • وبدون معرفة لا يستطيع المرء أن يعرض شيئاً • ولكن كيف يستطيــع المرء أن يعرف ما يجدر معرفته؟ اذا أراد الممثل أن لا يكون ببغاء أو قرداً فعليــه أن يتسلح بمعارف عصره المتعلقة بالحياة الانسانية المشتركة وذلك بأن يشــارك في صراع الطبقات • قد يتراءى في ذلك للبعض ضعة وحطة لأنهم يضعون الفن، خاصة إذا كان صرف الأجر منتظما ، في أعلى المراتب • إلا أن أهم القرارات بالنسبة للجنس البشري قد حسمت في الصراع على الأرض وليس في الأجواء العليا ، في « الخارج » وليس بداخل الرؤوس • إنه لا يستطيع أحد أن يضع نفسه فــوق الطبقات المتصارعة لأنــه لا أحد يستطيع أن يضع نفسه فــوق الانسان • كذلك فان المجتمع لا يملك لغة مشتركة طالما أن المجتمع ما زال منقسماً على نفسه في طبقات متصارعة • لذلك فان « الحيــاد » في الفن يعني الانحياز إلى الفئة « الحاكمة » •

٥٦ ـ هكذا فان اختيار الموقع جزء أساسي آخر من فن التمثيل ، وهــــذا الاختيار يجب أن يقع خارج المســرح فكما أن تحويل الطبيعة فكذلك أيضاً تحويل المجتمع ليس إلا عملية تحرير، وإنها أفراح التحرير تلك التي ينبغي

على مسرح عصر علمي أن ينقلها للجمهور ·

٥٧ ـ لنتابع الآن ونفحص على سبيل المثال كيف ينبغي على الممثل أن يقرأ دوره انطلاقاً من هذا الموقع · من المهم هنا أن لا « يستوعب » بسرعة · وحتى عندما يهتدي حالا إلى موسيقية النص الذي بين يديه والى أبسط طريقة في نطقه فلا ينبغي له على الرغم من ذلك أن ينظر الى المعنى على أنه الأكثر بداهة وإنما ينبغي له أن يتردد هنا وأن يستعين بآرائه العامة ، أي أن يتخذ موقف المتعجب · وهذا الأمر ضروري ليس فقط كي لا يحدد معالم إحدى الشخصيات في وقت مبكر أي قبل أن يسجل جميع الأقوال خاصة أقوال الشخصيات الأخرى ، وإنما أيضاً ، **وهذا هو الشيء الأساسي** ، من أجل أن يدخل إلى بناء الشخصية مفهوم « ليس ـ وإنما » والذي هو ضروري جداً إذا أردنا للجمهور الذي يمثل المجتمع هنا أن ينظر الى الأحداث من زاوية خضوعها للتأثير فيها · كذلك يجب على كل ممثل أن لا يأخذ لنفسه فقط ما يناسبه على أنه « الشيء الانساني الصالح لكل البشر » بل أن يتعداه إلى ما لا يناسبه ، الى ماله صفة الخصوص · على الممثل أن يحفظ عن ظهر قلب اضافة الى النص ردود فعله الاولى حياله واعتراضاته عليه وانتقاداته له واندهاشاته منه لكي لا تزول في الصياغة النهائية عندما « تذوب » في كامل الدور بل تبقى محفوظة ومحسوسة ، لأنه ليس من المهم كثيراً أن تكون الشخصية مفهومة لدى الجمهور بقدر ما تكون قادرة على لفت انتباهه ·

٥٨ ـ يجب أن يتم تعلم الممثل لدوره بالاشتراك مع تعلم الممثلين الآخرين لأدوارهم ، كما أن بناءه للشخصية يجب أن يتم مع بناء بقية الشخصيات · وهذا ينبع من نظرتنا الى أن أصغر وحدة اجتماعية لا تتشكل من فرد بشري واحد وإنما من اثنين من البشر · ونحن في الحياة نقوم ببناء شخصياتنا بصورة متبادلة ·

٥٩ ـ يمكننا هنا أن نتعلم شيئاً من العادة القبيحة في مسارحنا وهي أن الممثل الرئيسي « يبرز » نفسه أيضاً عن طريق جعل الممثلين الآخرين يخضعون له : فهو يجعل الشخصية التي يقوم بدورها مرعبة أو حكيمة وذلك بأن يجبر شركاءه على جعل الشخصيات التي يقومون بأدوارها خائفة أو منتبهة

وغير ذلك • لكي نمنح الجميع هذه الميزة ونفيد القصة من خلال ذلك ينبغي على الممثلين أن يتبادلوا الأدوار فيما بينهم أثناء البروفات لكي تتبادل الشخصيات ما تحتاجه من بعضها البعض • كذلك فانه من المفيد أيضاً للممثلين أن يقابلوا شخصياتهم في نسخ أخرى وأشكال أخرى • وإذا قام بأداء الدور شخص من الجنس الآخر فان الشخصية ستفصح عن جنسها بصورة أوضح ، ونفس الأمر اذا أدى الدور أحد الكوميديين بشكل تراجيدي أو كوميدي فان الشخصية ستكتسب مظاهر جديدة • المهم في الأمر أن الممثل الذي يشارك في تطوير الشخصيات الأخرى أو على الأقل يقوم بأدوار الممثلين الآخرين يضمن لنفسه المنطلق الاجتماعي الحاسم الذي ينطلق منه في أداء دوره • فالسيد ليس سيداً إلا بالقدر الذي يكون فيه العبد عبداً •

٦٠ ـ عندما تدخل الشخصية بين بقية شخصيات المسرحية تكون قد أجريت عليها بالطبع عمليات بناء لا حصر لها ، وعلى الممثل أن يتذكر الآن تخميناته التي أثارها فيه النص • كذلك فانه يفهم عن نفسه أشياء كثيرة من خلال المعاملة التي يلقاها من قبل بقية الشخصيات •

٦١ ـ نسمي مجال الأوضاع التي تتخذها الشخصيات مع بعضها البعض المجال الايمائي • فالوضع الذي يتخذه الجسم وطريقة النطق وتعبيرات الوجه تتحدد من خلال الموقف الجماعي حينما تشتم الشخصيات أو تمدح أو تعلم بعضها البعض • ويدخل في هذه الأوضاع التي يتخذها الأشخاص أمام بعضهم الأوضاع الخاصة جداً كتعبيرات الألم الجسدي أثناء المرض أو التعبيرات الدينية أيضاً • إن هذه التعبيرات الايمائية غالباً ما تكون معقدة ومليئة بالتناقضات بحيث لا يمكن صياغتها بكلمة واحدة وعلى الممثل أن يكون يقظاً لئلا يفقد شيئاً في التصوير الذي اقتضت الضرورة زيادة قوته بل على العكس من ذلك عليه آن يزيد من قوة كامل التركيبة •

٦٢ ـ يستطيع الممثل أن يستوعب الشخصية التي يؤدي دورها إذا تابع أقوالها المختلفة وأقوال بقية الشخصيات في المسرحية من وجهة نظر نقدية •

٦٣ ـ لكي نصل إلى المضمون الايمائي سنستعرض الآن المشاهد الافتتاحية في

احدى مسرحياتي وهي « حياةغاليله »· بما أننا نريد أيضاً أن نتفحص كيف أن الأقــوال المختلفة تلقي الأضــواء الكاشفة على بعضها البعض فاننا نفترض هنا معرفتنا المسبقة بالمسرحية · تبدأ المســرحية بالاغتســال الصباحي لابن السادسة والأربعين يتخلله البحث في بعض الكتب وتدريس الفتى «أندرياسارتي» حول النظام الشمسي الجديد · ألا يجب عليك أن تعلم إذا كنت تقوم بأداء هذا الدور بأننا سوف ننتهي عند طعــام العشاء لابن الثامنة والأربعين الــذي هجره الآن ذلك التلميذ إلى غير رجعة ؟ وهنا يكون قد تغير بدرجة أكبر بكثير مما تسمح بــه هذه الفترة الزمنية · إنه يأكل بنهم لا حدود له ولا يدور في رأسه شيء غير ذلك ، وقد تخلص من وظيفة التدريس كعبء ثقيل بأسلوب مهين وهو الذي كان فيما مضى يشرب حليبه الصباحي بلا مبالاة لا يهتم بشيء سوى تعليم الفتى · ولكن هل يشرب حليبه فعلا بلا مبالاة ؟ ألم تكن متعته بالشراب والاغتسال نفس متعته بالأفكار الجديدة ؟ لا تنس : إنه يفكر من أجل المتعة ! ولكن هل هذا الأمر حسن أم قبيح ؟ بما أنك لن تجد في كل المسرحية شيئاً ضد مصلحة المجتمع · وبما أنك

كما أرجو واحد من أبناء العصر العلمي الجريئين فانني أنصحك بأن تقدم هذا الموقف على أنه شيء حسن · ولكن سجل عندك بوضوح بأن أموراً مرعبة كثيرة ستحدث هنا · هذا الرجل الذي يرحب الآن بالعصر الجديد سيضطر في النهاية لأن يطلب من هذا العصر أن يلفظه بكل احتقار · أما بشــأن إعطــاء الدرس للفتى فبامكانك أن تقرر فيما اذا كان فمه يطفح كما يطفح قلبه بحيث أنــه سيتكلم الى كل إنسان عن هذا الموضوع حتى ولو كان طفلا أو فيما اذا كان الطفل يستجدي منه المعرفة باظهاره الاهتمام الزائد نظراً لمعرفته به · كمــا يمكن أيضاً أن نرى هنا شخصين يدفعهما دافع قــوي الأول لطرح الأســئلة والثاني للاجابة · إن مثل هذه الرابطة الأخوية ذات أهمية كبيرة لانها ستنتهي الى شر مستطير · بالطبع ستقوم بعرض حركة دوران الأرض بسرعة لأن هذا العمل غير مأجور · ثم يدخل الآن الفتى الغريب الغني الذي يضفي عــلى وقت العالــم « غاليله » قيمة ذهبية فعلية · وعــلى الرغم من أن هذا الفتى لا يظهر اهتماماً حقيقياً بالمعلومات العلمية فانه لا بــد من الاهتمام به لأن « غاليله » فقير · وهكــذا سيقف بــين التلميذ الغني

والتلميذ الذكي ويختار بينهما وهو يطلق الزفرات . إنه لا يستطيع أن يعلم التلميذ الجديد الشيء الكثير لذلك يتعلم هو منه ويستمع إليه يتحدث عن التلسكوب الذي تم اختراعه في هولندا. ثم يأتي رئيس الجامعة ويخبره أن طلبه بزيادة راتبه قد رفض لأن الجامعة لا ترصد للنظريات الفيزيائية نفس القدر من الأموال التي ترصدها للنظريات اللاهوتية وهي تطلب منه ـ وهو الذي تسير أبحاثه في مستوى منخفض ـ أن يبحث فيما هو مفيد في الحياة العملية. ستلاحظ من طريقة تقديمه لبحثه أنه معتاد على الخيبة والتوبيخ . كذلك يشير رئيس الجامعة الى أن الجمهورية تكفل حرية البحث العلمي ولو أنها لا تدفع أموالا كثيرة في سبيلها . ولكنه يجيب بأن هذه الحرية لا تفيده كثيراً إذا لم يكن لديه الفراغ اللازم والذي لا يتوفر له بدون الراتب الجيد . وهنا لا يجدر بك أن تعرض نفاد صبره بطريقة متعالية جداً وإلا فانك ستغطي على فقره . إنك ستعثر بعد برهة على أفكار تراوده وتحتاج الى بعض الايضاح: إن مبشر العصر الجديد ، عصر الحقائق العلمية يفكر كيف يخدع الجمهورية للحصول على المال وذلك بأن يقدم لها التلسكوب على أنه من اختراعه. وسوف تدهش لأنه لا ينتظر سوى دريهمات قليلة من هذا الاختراع الذي يتفحصه الآن ليدّعيه لنفسه . أما إذا انتقلت الى المشهد الثاني فانك سوف تكتشف بأنه عندما يبيع الاختراع إلى سادة البندقية فانه قد نسي تقريباً هذا المال بعد أن اكتشف الى جانب الفائدة العسكرية لهذه الآلة فائدة فلكية أيضاً. فالبضاعة التي أجبر على صنعها تظهر صلاحية عالية من أجل الأبحاث التي اضطر للانقطاع عنها في سبيل صنع الآلة ذاتها. وعندما يشير أثناء الاحتفال الى الاكتشافات المدهشة فانك ستلمس لديه انفعالا أعمق من الذي يسببه مجرد الربح المادي . وإذا كان خداعه للجمهورية لا يعني الشيء الكثير فانه يكشف عن اصرار هذا الرجل على اتباع الطريق السهل وعلى الاستفادة من عقله في المستوى الأدنى كما في المستوى الأعلى . ولكن ألا يجعل كل فشل أي فشل جديد أكثر سهولة ؟

٦٤ ـ يضع الممثل يده على الشخصية من خلال وضع يده على القصة بعد أن يكون قد تفهم المادة الايمائية. وانطلاقاً من مجمل الحادثة المحددة يستطيع بقفزة

واحدة أن يصل الى الشخصية النهائية التي تتضمن جميع الملامح · فاذا فعل كل شيء كي يندهش من التناقضات الكامنة في المواقف المختلفة وهو يعلم بأن على جمهوره أن يندهش منها أيضاً فان القصة ستعطيه بمجملها إمكانية جمع التناقضات مع بعضها البعض · فالقصة كحدث محدد تعطي مغزى معيناً بمعنى أنها لا تحقق من بين الاهتمامات الممكنة الكثيرة سوى اهتمامات معينة فقط ·

٦٥ ــ كل شيء رهن بالقصة ،فهي موضع القلب من المسرحية · فالناس يحصلون على مادة المناقشة أو النقد أو التغيير من خلال الأحداث التي تجري بينهم · وحتى عندما يتوجب على الانسان المعين الذي يعرضه الممثل أن يصلح لأكثر مما يجري في القصة فان ذلك يعود بصورة رئيسية إلى أن الحدث يصبح من جراء ذلك أكثر إثارة للانتباه عندما يجري مع إنسان معين · فالقصة هي محور المسرح وهي مجمل تركيب كل الأحداث الايمائية ، كما أنها تحتوي على الدروس والايحاءات التي تبعث السرور لدى الجمهور ·

٦٦ ــ لكل حدث ايماءة أساسية : « ريشارد غلوستر » يحاول التقرب من أرملة ضحيته » · « بمساعدة دائرة طباشيرية يتم اكتشاف الأم الحقيقية للطفل » · « الاله يراهن ابليس على روح الدكتور فاوست » · « ڤويتشك يشتري سكيناً رخيصاً ليقتل زوجته » وهلم جرا · وعند وضع الشخصيات ضمن مجموعات على المسرح وأثناء حركة هذه المجموعات يجب أن يبرز الجمال المطلوب بصورة رئيسية من خلال الرشاقة التي تعرض بها المادة الايمائية بحيث يفهمها الجمهور ·

٦٧ ــ بما أننا لا ندعو الجمهور لأن يرمي نفسه في القصة كما لو كان يرمي نفسه في أحد الأنهار لنسوقه كما اتفق هنا وهناك فلا بد من ربط الأحداث بعضها ببعض لتصبح العقد مثيرة للانتباه · كذلك لا يجوز أن تتوالى الأحداث دون أن يلاحظها المشاهد بل لا بد أن يفصل بين كل حدث وآخر الحكم المناسب · (إذا كان لابد من إخفاء الروابط الأساسية فيجب في هذه الحالة تغريب الوضع بما فيه الكفاية) · فأجزاء القصة لا بد وأن توضع بعناية في مقابل بعضها البعض وذلك بأن نعطي كل واحد منها بنيته الخاصة به وكأنه مسرحية ضمن مسرحية · ولهذه الغاية يختار المرء عناوين كما في المقطع

السابق • ينبغي لهذه العناوين أن تحمل المغزى الاجتماعي وأن تعبر بنفس الوقت عن نوعية التقديم المطلوبة • وبمعنى آخر يجب إعطاء العنوان صيغة عنوان كتاب تاريخي أو ملحمة أو جريدة أو صيغة وصف للعادات والتقاليد حسب مضمون كل جزء • هناك مثلا أسلوب بسيط في العرض يحقق التغريب وهو الأسلوب الذي نستعمله في عرض العادات والتقاليد • فنحن نستطيع عرض إحدى الزيارات أو معاملة العدو أو لقاء عاشقين أو اتفاقيات تجارية وسياسية وكأننا نعرض مجرد عرف أو تقليد ما اصطلح عليه الناس في هذا المكان من العالم • فاذا اتبعنا هذا الأسلوب في العرض فاننا نضفي على الحدث المقصود والفريد مظهراً مستغرباً لأنه يبدو وكأنه حدث عمومي أو أنه قد أصبح عرفاً من الأعراف • إن مجرد السؤال فيما إذا كان ينبغي للحدث أو لجزء منه فقط أن يصبح عرفاً، هذا السؤال وحده يضفي على الحدث صفة التغريب • وبما أن التغريب يعني إشهار الشيء فاننا نستطيع أن نعرض بعض الأحداث وكأنها أحداث شهيرة حتى في تفاصيلها وكأننا حريصون على الالتزام بالرواية التاريخية • باختصار : هناك كثير من أساليب السرد الممكنة منها ماهو معروف ومنها مايمكن ايجاده •

٦٨ ـ أما ماذا يجب تغريبه وكيف ينبغي تغريبه فهذا يتوقف على التفسير الذي نريد إعطاءه لمجمل الحدث علماً بأنه لابد للمسرح أن يأخذ اهتمامات عصره بعين الاعتبار جيداً • لنختار كمثال على التفسير المسرحية القديمة « هاملت » • ونظراً للأوقات العصيبة المظلمة والدموية التي أكتب فيها الآن، وهي فترة حكم الطبقات المجرمة وفترة الشك الطاغي في فائدة الحكمة والعقل، هذا العقل الذي ما زال يساء استعماله فانني أرى قراءة هذه القصة على النحو التالي : الوقت زمن حرب • والد هاملت وهو ملك الدانمارك كان قد قتل ملك النرويج أثناء حملة عسكرية • وبينما كان « فورتينبراس » ـ وهو ابن هذا الأخير ـ يستعد لحرب جديدة قتل الملك الدانماركي على يد أخيه • أشقاء الملوك الصرعى وقد أصبحوا الآن ملوكاً يحولون دون وقوع الحرب بأن يُسْمَح للقوات النرويجية بعبور الأراضي الدانماركية للقيام بحملة عسكرية ضد بولونيا • إلا أن هاملت يشعر الآن بأن روح والده الحربية

تناديه ليأخذ له بثأره . بعد شيء من التردد فيما إذا كان عليه أن يرد على عمل دموي بآخر مثله وبعد أن يقرر الذهاب الى المنفى يصادف على الساحل « فورتينبراس » الفتي الذي يسير مع جيشه الى بولونيا . وبعد أن أثار هذا العمل الحربي حماسه يعود من جديد ويذبح في مجزرة وحشية عمه ووالدته ونفسه أيضاً واضعاً بذلك مصير الدانمارك في يد النرويجي . في غمرة هذه الأحداث نرى الفتى الشاب الذي ترهل الآن قليلاً يحاول بلا جدوى تطبيق موازين العقل الجديدة التي تعلمها في جامعة « ويتنبرغ » . ولكن هذه الموازين تعيقه في تصريف الشؤون الاقطاعية التي عاد إليها الآن بعد إنهاء دراسته . وهكذا يصبح تعقله غير عملي أبدا تجاه الواقع اللا عقلاني . لذلك يقع ضحية التناقض بين مثل هذا التعقل ومتطلبات الحكم . إن هذه الطريقة في قراءة المسرحية قد تثير في نظري حماس جمهورنا علماً بأن هناك أكثر من طريقة واحدة لقراءتها .

٦٩ ـ إن كل تقدم وكل تحرر من إسار الطبيعة في الانتاج في سبيل قلب المجتمع وكل محاولة في اتجاه جديد قامت بها الانسانية من أجل تحسين واقعها بغض النظر عن رأي الكتب في نجاحها أو فشلها ، إنها جميعها تعطينا شعوراً بالنصر والاطمئنان وتوفر لنا لذة التمتع بامكانيات تغيير جميع الأشياء . وهذا ما عبر عنه « غاليله » عندما قال : « إن الأرض في رأيي نبيلة ومدهشة جداً بسبب التغييرات الكثيرة والأجيال المختلفة التي مرت عليها بلا انقطاع » .

٧٠ ـ إن تفسير القصة وعرضها من خلال أساليب تغريب مقبولة يعتبر العمل الرئيسي للمسرح . ليس على الممثل أن يفعل كل شيء على الرغم من أنه لا يجوز فعل أي شيء دون ربطه به . إن تفسير القصة وتقديمها وعرضها يقع على عاتق المسرح بكليته أي على عاتق الممثلين ومهندسي الديكور ومصممي الأقنعة والأزياء والموسيقيين وواضعي الرقصات . فهم كلهم يسخرون فنهم من أجل العمل المشترك دون أن يتخلى كل واحد منهم بالطبع عن استقلاله .

٧١ ـ أما حركة الاشارة والتي ترافق دائماً ما نريد ابرازه بصورة خاصة فيتم دعمها عن طريق الموسيقى الموجهة الى الجمهور والتي ترافق الأناشيد .

لذلك ينبغي على الممثلين أن لا ينتقلوا مباشرة الى الغناء وإنما أن يعزلوه عن باقي المسرحية بشكل ظاهر • ويمكن ابراز هذا العزل من خلال إجراءات فنية خاصة كتبديل الاضاءة أو إعطاء الغناء عنواناً مميزاً على الموسيقى ألا تدمج مع باقي أجزاء المسرحية بحيث تنحدر إلى مستوى الخادم المطيع • إنها لا « ترافق » فقط ولا تكتفي بأن تعبر عن نفسها من خلال التجرد من المزاج الذي يعتريها من جراء أحداث المسرحية • لقد ربط مثلا « آيسلر » بين الأحداث بطريقة نموذجية عندما وضع لمشهد الكرنفال في مسرحية « حياة غاليله » موسيقى قوية ومخيفة يظهر من خلالها التحول المتمرد الرافض الذي منحته جماهير الشعب لنظريات « غاليله » الفلكية • وفي « دائرة الطباشير القوقازية » سيؤدي أسلوب هادىء ومتزن في الغناء الى ابراز أهوال ذلك العصر الذي قد تتحول فيه الأمومة الى نوع من الضعف القاتل • وهكذا تستطيع الموسيقى بطرق عديدة أن تؤكد استقلالها وأن تسجل بطريقتها الخاصة موقفها من المواضيع المختلفة • على أن الموسيقى قد تكتفي أيضاً بمجرد تغيير الجو من أجل تسلية الجمهور •

٧٢ ـ يستعيد الموسيقي حريته إذا تخلص من عبء توفير الأجواء التي تجعل الجمهور ينسى نفسه في الأحداث التي تدور على المنصة • كذلك يحصل مهندس الديكور على قسط وافر من الحرية إذا تخلص من عبء بناء أماكن وهمية تدور فيها الأحداث ويكتفي بدلا من ذلك بمجرد الاشارة الى وجود هذه الأماكن • على أن هذه الاشارة لا بد وأن تكون ذات دلالة تاريخية أو اجتماعية مثيرة للاهتمام وهو ما لا يستطيعه عادة المحيط الطبيعي بنفس القدر • وهكذا فقد استعمل مثلا « هيرتسفيلد » في مسرحية « تاي يانغ يستيقظ » خلفية مؤلفة من رايات مخطوطة يمكن قلبها على وجهها الآخر بحيث تشير الى التحول الذي طرأ على الوضع السياسي وهو ما يصعب على المشاهد اكتشافه من خلال سير الأحداث فقط •

٧٣ ـ كذلك يضطلع الرقص من جديد بوظائف ذات طابع واقعي • إنه لمن أخطاء العصر الاعتقاد بأن الرقص لا علاقة له بتصوير « الناس كما هم بالفعل » ، فاذا كان الفن يعكس الحياة فانه يفعل ذلك بمرايا من نوع خاص • فالفن لا يبتعد عن الواقع إذا قام بتغيير

النسب وإنما إذا غيرها بحيث أن الجمهور الذي يستفيد من هذا التصوير في زيادة وعيه سيعجز عن تحقيق ذلك ضمن الواقع العملي . وطبيعي أنه من الضروري أن لا تؤدي إعادة الصياغة الى انتفاء الطبيعة وانما إلى زيادة معالمها وضوحاً . وفي كل الأحوال لا يستطيع المسرح الذي يستمد كل شيء من الحركة التعبيرية أن يستغني عن الرقص . فالحركة الرشيقة والتشكيل الأنيق يتركان أثراً تغريبياً كما أن الحركات التعبيرية تقدم للقصة مساعدات قيمة .

٧٤ ـ وهكذا فان جميع الفنون الشقيقة لفن التمثيل مدعوة هنا لا لكي تقدم « عملا فنياً متكاملا » بأن تفقد هويتها وتذوب في بعضها وإنما ينبغي عليها بالاشتراك مع فن التمثيل أن تقدم دعمها للوظيفة المشتركة كل منها بطريقته الخاصة بحيث تصبح علاقتها فيما بينها إضفاء صفة التغريب على بعضها .

٧٥ ـ وهنا لا بد لنا أن نذكر من جديد بأنه من مهمتها تسلية أبناء العصر العلمي وذلك بمرح وبأسلوب حسي . ونحن لا نبالغ مهما كررنا هذه الحقيقة على أسماعنا نحن الألمان بصورة خاصة لأن كل شيء عندنا ينزلق بسهولة إلى ما هو لا حسي وغير ملموس . فنحن الألمان نتكلم عن مذهب فكري لخلاص العالم بعد أن يكون العالم نفسه قد انهار . وحتى المادية لا تعني بالنسبة لنا أكثر من مجرد فكرة . فالمتعة الجنسية تتحول عندنا إلى واجب زوجي والمتعة الفنية ليست إلا سبيلاً من سبل الثقافة كذلك نفهم التعلم ليس على أنه اكتشاف يبعث على السعادة وإنما على أنه هناك شيء قد قادنا إليه انسان ما . إن أداءنا لا يحمل صفات البحث والتطلع المرح . ولكي نشيد بأنفسنا فاننا لا نذكر كم سبب لنا من السعادة عمل ما وإنما كم كلفنا من العرق .

٧٦ ـ بقي علينا أن نتحدث عن إيصال الخبرات التي يكتسبها الممثلون أثناء القيام بالبروفات إلى الجمهور . وهنا يصبح من الضروري أن تخضع حركة إعطاء شيء جاهز لعملية التمثيل ذاتها . وفي مثل هذه الحالة يخرج ما هو مقبول أمام المشاهد من خلال ما هو ليس بمرفوض . وهكذا يجب إعطاء الصور الجاهزة بيقظة تامة كي يتقبلها المشاهد وهو في حالة يقظة أيضاً

٧٧ ـ يجب أن تتراجع الصور أمام

الأصل أي أمام حياة البشر الاجتماعية المشتركة ، كما ينبغي تصعيد السعادة في صورتها الكاملة إلى السعادة الأعلى بحيث تعالج القواعد التي تظهر في حياة الناس مع بعضهم البعض على أنها مؤقتة وناقصة . وفي ذلك يشجع المسرح مشاهديه لأن يكونوا منتجين وليتخطوا مجرد حدود التفرج . ويستطيع المشاهد في مسرحه أن يتمتع ساخراً بمشاغله الهامة التي لا تنتهي والتي يعيش من ورائها وكأنها تسلية ، هذا إلى جانب أهوال تحوله المستمر . فالمشاهد يعرض مهارته هنا بأسهل طريقة لأن أسهل طريقة للوجود تكمن في الفن .

ملحق « المنطق الصغير »

لا يقتصر الأمر على أن الفن يدفع إلى التعلم بأسلوب ممتع ، فلا بد من التأكيد على التناقض بين التعلم والتمتع وإعتباره تناقضاً هاماً خاصة في زمن أصبح فيه الانسان يحصل على المعارف ليبيعها من جديد بأعلى سعر ممكن وحيث أصبح هذا السعر المرتفع نفسه يسمح لمن يدفعونه بتسليط استغلالهم على غيرهم . فقط عندما يتم اطلاق الانتاجية من عقالها يمكن تحويل التعلم إلى متعة والمتعة إلى تعلم .

عندما نتخلى الآن عن مفهوم «المسرح الروائي» فان ذلك لا يعني أننا نتخلى عن تلك الخطوة نحو المشاهدة الواعية والتي يساعدنا عليها المسرح الروائي . إننا نتخلى عن هذا المفهوم لأنه أضعف من أن يحدد معالم المسرح الذي نعنيه . إن مسرحنا بحاجة إلى تعريف يكون أكثر دقة كما أن عليه أن يقدم لنا إنجازاً أكبر حجماً . علاوة على ذلك لم يكن هذا المفهوم مرناً أمام مفهوم المسرح الدرامي .

لقد كان غالباً يستند إليه بكل سذاجة معتبراً إياه « بديهياً » طالما أنه يعرض أحداثاً آنية لها جميع سمات الآنية أو كثير منها . (وبنفس الطريقة التي لا تخلو من الخطورة نفترض بكل سذاجة عند كل تجديد بأنه مازال مسرحاً ولم يصبح مثلا تظاهرة علمية) .

كذلك فان مفهوم « مسرح العصر العلمي » ليس شاملاً بما فيه الكفاية . قد نكون في « المنطق الصغير » قد شرحنا باسهاب مانعنيه بالعصر العلمي ، غير أن التعبير بحد ذاته و بالشكل الذي ورد فيه تعبير تعتريه كثير من الشوائب . تتعاظم متعتنا بالمسرحيات القديمة كلما استسلمنا أكثر فأكثر للأسلوب

الجديد الذي ينسجم مع طريقتنا في التسلية ومن أجل ذلك لا بد لنا أن نطور الحس التاريخي الذي تحتاجه أيضاً لفهم المسرحيات الحديثة إلى احساس حقيقي(١)• في عصور التحولات الكبيرة وهي عصور مرعبة وخصبة يتواقت ظهور غسق الطبقات المنهارة مع فجر الطبقات الصاعدة • وهذا الغسق أو ذلك الفجر هو الوقت الذي تبدأ فيه بومة المينرفا طيرانها• بامكان مسرح العصر العلمي أن يجعل من الديالكتيك متعة • إن مفاجآت انهيار جميع الأحوال ولوذعية التناقضات وما شاكل ذلك ، هذه كلها متع توفرها حيوية البشر ، إنها أشياء وعمليات وهي تصعّد فن الحياة وسعادة الحياة•

من المفيد لجيلنا أن يصغي إلى التحذير القائل بتجنب التجاوب مع بطل المسرحية لدى عرضها مهما كان واثقاً من نفسه وبالرغم من التصميم الذي حاولنا به تنفيذ هذه الوصية فانه لم يكن بالمستطاع إتباعها بشكل كامل ، وهكذا ينتج لدينا ذلك التناقض بين المعايشة والعرض ، بين التجاوب والاظهار وبين التبرير والانتقاد وهو ما نطلبه •

هناك بعض الأدمنة التي تفهم التناقض بين التمثيل (العرض) والمعايشة (التجاوب) وكأنه لا يمكن أن يظهر في أداء الممثل سوى أحدهما فقط (أو كأنه هناك فقط تمثيل حسب « المنطق الصغير في المسرح » وهناك فقط معايشة حسب الطريقة القديمة) • وحقيقة الأمر أن هناك بالطبع حدثين متعاديين يتحدان من خلال أداء الممثل (على أن أداء الممثل لا يحتوي فقط قليلاً من هذا وقليلا من ذاك) • فمن خلال تصارع الضدين ومن داخلهما يستخرج الممثل التأثيرات التي يريدها• إن سوء التفاهم هذا قد يكون مرده إلى طريقة التعبير في « المنطق الصغير » • لقد كانت مضللة في كثير من الأحيان لأنه على مايبدو قد ركزنا فقط وبالحاح على إظهار « الجانب الرئيسي للتناقض »(١) •

(١) درجت مسارحنا لدى عرضها مسرحيات تعود لعصور اخرى على طمس الحدود الفاصلة وملء الفراغ ونغطية الفروق ولكن أين يبقى شعور السعادة الذي ينتج عن النظر من أعلى كما ينتج عن ماهو بعيد ومختلف ؟ إنها نفس السعادة التي تنتج عما هو قليل وله طابع الخصوصية •

(١) ماوتسي تونغ : « حول التناقض » : من بين جانبي كل تناقض لابد وأن يكون أحدهما الجانب الرئيسي •

وعلى الرغم من كل شيء فان الفن يتوجه إلى الجميع ولو قارع النمر بأنشودته • وقد يجعله في أحوال كثيرة يغني معه • ليس نادراً أن تأتي الأفكار الجديدة الخصبة من قبل الطبقات الصاعدة إلى أعلى بغض النظر عمن سيجني ثمارها وتدخل إلى أعماق النفوس التي كان من المفروض فيها أن توصد دونها حفاظاً على امتيازاتها • إن أفراد أي طبقة ليسوا دائماً منيعين ضد الأفكار التي لا تفيد طبقتهم بشيء • فكما أن أفراد الطبقات المسحوقة قد يقعون في شرك أفكار حاكميهم فكذلك أفراد الطبقات الحاكمة قد يصابون بعدوى أفكار المسحوقين • في أوقات معينة تتصارع الطبقات على قيادة البشرية ، وتكون لدى الذين لم يسيطر عليهم الفساد كلية شهوة قوية لأن يصبحوا من رواد البشرية ولأن يتقدموا إلى الأمام • فالسم لم يكن الحافز الوحيد عندما صفق بلاط فرساي للفيغارو • القصة ليست مجرد نسخة طبق الأصل عن مسيرة الحياة المشتركة بين الناس وانما هي حوادث معدلة عن الواقع تحمل أفكار مؤلف القصة حول الحياة الانسانية المشتركة • وهكذا فان الشخصيات ليست بكل بساطة نسخا عن أناس أحياء وانما شخصيات معدلة صيغت حسب أفكار معينة •

هناك تناقض كبير بين الأحداث والشخصيات المعدلة عن الواقع وبين معرفة الممثلين الناتجة عن الخبرة والدراسة • ومن واجبهم أن يكتشفوا هذا التناقض ويظهروه أثناء التمثيل، كما أن عليهم أن يغرفوا بنفس الوقت من معين الواقع ومن معين الأدب لأنه يجب للواقع أن يظهر في عملهم غنياً وحياً مثلما يظهر في عمل المؤلف المسرحي وذلك لكي يبرز الخاص والعام في المسرحية بشكل ملموس •

إن دراسة الدور تعني بنفس الوقت دراسة القصة أو بتعبير آخر ينبغي على الممثل أولاً أن يدرس القصة • (ماذا يحدث للشخص ؟ ماهو رد فعله إزاء الحدث ؟ ماذا يفعل ؟ أي الآراء تصادفه؟ وهكذا) • وهنا يجب على الممثل أن يستحضر معرفته بالعالم والناس كما يجب عليه أن يطرح أسئلته كانسان ديالكتيكي (هناك بعض الأسئلة التي لايطرحها سوى الانسان الديالكتيكي) •

مثال : تكلف أحد الممثلين باداء دور « فاوست » • علاقة الحب التي

تربط فاوست بفتاته « غريتشن » تأخذ مجرى خطيراً • وهنا يرد السؤال : هل ستكون العلاقة غير ذلك لو أن فاوست تزوج من غريتشن ؟ في العادة لا يطرح مثل هذا السؤال ، إذ أنه يبدو تافهاً ودنيئاً ومبتذلاً • إن فاوست رجل عبقري ذو فكر رفيع ويتطلع إلى أمور لا حدود لها ، فكيف نسمح لأنفسنا بطرح السؤال : لماذا لا يتزوج فاوست؟ ومع ذلك فان الناس العاديين يطرحون مثل هذا السؤال • وهذا يكفي بحد ذاته لان يجعل الممثل كذلك يطرح نفس السؤال • وبعد قليل من التأمل سيكتشف الممثل أن هذا السؤال ضروري جداً ومفيد جداً •

بالطبع يجب أن نعرف أولاً الشروط التي يتم معها هذا الحب وموقعه من مجمل القصة وأهميته بالنسبة للفكرة الرئيسية • لقد تحول فاوست عن التطلعات « العالية » المجردة و« الفكرية المحضة » ليحصل على متعة الحياة وقد انصرف الآن إلى الخبرات « الجسدية المحضة » والزمنية • وهنا تأخذ علاقته بغريتشن مجرى خطيراً وهذا يعني أنه دخل الآن في نزاع مع غريتشن وأن الارتباط قد تحول إلى انفصال والمتعة الى ألم • وعن هذا النزاع سينتج تدمير غريتشن كلية وهو ما يسبب الأسى لفاوست • غير أنه لا يمكن عرض هذا النزاع بصورته الصحيحة إلا من خلال نزاع أشمل يهيمن على كامل المسرحية بجزءيها • لقد أنقذ فاوست نفسه من التناقض الأليم بين المغامرات « الفكرية المحضة » وبين الشهوات التي لم يشبعها والتي لا يمكن له إشباعها ، تلك الشهوات الجسدية المحضة وذلك بمساعدة الشيطان • وفي الوسط « الشهواني المحض » (قصة الحب) يصطدم فاوست بالعالم المحيط به الذي تمثله غريتشن وعليه لذلك أن يقضي عليها لكي ينقذ نفسه • أما حل التناقض الرئيسي فانه يظهر في نهاية المسرحية ويوضح بذلك معنى وموقع التناقضات الأصغر • والآن يتوجب على فاوست أن يتخلى عن موقفه الاستهلاكي فقط والطفيلي • إن الفعل الفكري والفعل الحسي يلتقيان في العمل المنتج من أجل البشرية وعن إنجاب الحياة تنجم متعة الحياة •

إذا عدنا إلى قصة الحب بين فاوست وغريتشن فاننا سنجد أن الزواج مهما بدا مبتذلاً وغير لائق بعبقرية فاوست ومتناقضاً مع طريقه في الحياة فانه سيكون الأفضل نسبياً والأكثر مردوداً

لأنــه سيكون الارتباط المناسب الذي كان بالامكان للمحبوبة أن تطور نفسها من خلاله بدلاً من أن تقضي فيــه • وبالطبع لن يبقى فاوست في مثل هذه الحالة « فاوست » بــل سـيظل عالقاً بصغار الأمور وهلم جرا •••

إن الممثل الذي يتبنى سؤال الناس العاديين سيكون في مقدوره أن يجعل من عدم الزواج مرحلة محدودة من مراحل تطور فاوست بينما درج في العادة على أن يساعد فقط على الاشــارة إلى أن الانسان الذي يريد الصعود إلى أعــلى لا بد وأن يكون سبباً في ظهور الآلام على هذه الأرض على اعتبار ذلك حقيقة لا مناص منها وأن فواجع الحياة تكمن بصورة قاطعة في أن للملذات وللصعود إلى أعلى أثمانها وباختصار تطبيق أكثر الجُمل التي عرفتها تبذلاً وبربريــة والتي تقول : حيث يكون نجارة فلا بد أن تتطاير كسارة الخشب(١) •

تركز عروض المســرح البورجوازي على تمويه التناقضات وادعاء الانسجام والمثالية • كذلك يقوم هذا المســرح بعرض الأوضاع المختلفة وكأنها لايمكن لها أن تكون غير ذلك • كذلك يصور الشخصيات على أنها حالات فردية غير قابلة بطبيعتها للتجزئــة وكأنها سكبت سـكباً وأنها تثبت نفسـها في مختلف المواقف وحتى أنها تقوم لذاتها بدون هذه المواقف وحيث يوجد تطور فهــو يسير دائماً بهدوء وتواتر وليس عــلى قفزات • ثم إن التطورات تحصل دائماً ضمن إطار معين لا يجوز الخروج عنه مطلقاً •

إن مثل هذا العرض لا ينطبق على الواقع ويجب على المسرح الواقعي أن يصرف النظر عنــه • إن الاستعمال الصحيح والفعــال لتأثــيرات التغريب يشترط أن ينظر المجتمــع إلى وضعه الراهن على أنه غير ثابت وأنه قابل للتحسين • كذلك فان تأثيرات التغريب الحقيقية تتميز بطابع نضالي •

من المهم جداً من أجل بناء القصة الحقيقيــة أن تعرض المشــاهد حسب تسلسلها دون الأخذ بعين الاعتبار المشاهد اللاحقة أو دون التقيد بالمغزى العام للمسرحية ولكن مــع الاعتمــاد عــلى الخبرات المستقاة من الحياة • فالقصة تتطور بشــكل متناقض ويحتفظ كــل مشهد لنفسه بمغزاه الخاص به • وهكذا يتطور المجموع وهــو القصــة تطــوراً

---

(١) مثــل ألماني يعادل عندنا المثل القائل « لا نار بلا دخان » • المترجم

حقيقياً مع ما يحتويه من انعطافات وقفزات • ولابد هنا من تجنب جميع أشكال المثالية المبتذلة وعدم اقحام القصة في تفاصيل لا تتمتع بطابع مستقل وتخضع لغيرها من الأحداث وذلك من أجل الوصول إلى نهاية مرضية •

يقول لينين : « إن الشرط الأساسي لفهم جميع الحوادث التي تجري في العالم في (حركتها الذاتية) ، في تطورها التلقائي وفي وجودها الحي هو فهمها على أنها وحدة أضداد »(١) •

من غير المهم مطلقاً أن يكون الهدف الرئيسي للمسرح تقديم المعرفة عن العالم • الحقيقة الثابتة هي أنه ينبغي على المسرح أن يقدم عروضاً عن العالم وأن لا تكون هذه العروض مضللة • فاذا كان لينين على حق في قوله فان هذه العروض لا يمكن أن تكون باعثة على الرضى بدون معرفة **الديالكتيك** •

اعتراض : وماذا عن الفن الذي يستمد تأثيراته من عروض مائلة وناقصة وغامضة ؟ وماذا عن فن البرابرة والمجانين والأطفال ؟

ربما يكون من الممكن أن نعرف ونحفظ هذا المقدار وهو أن المرء يستطيع أن يخرج رابحاً من مثل هذه العروض • ولكن فيما يخصنا يبقى الشك قائماً بأن تقديم العالم بأسلوب ذاتي مفرط قد يترك انطباعات منافية للمجتمع •

دفاع عن « المنطق الصغير »

هناك من يرى في أسلوب الأداء المتحفظ تجاه كل عاطفة إضعافاً للتأثير الذي يجب أن تتركه المسرحية في نفوس المشاهدين وهو ما يعزى إلى سقوط الطبقة البورجوازية • أما من أجل البروليتاريا فهناك من يطلب لهم قوتاً قوياً ، أي مسرحية «دموية» ذات تأثير مباشر يكون فيها لاصطدام الأضداد قرقعة شديدة الخ •• الخ •

أذكر في شبابي أن الفقراء الذين يسكنون على أطراف المدينة ـ حيث نشأت أنا أيضاً ـ كانوا ينظرون إلى السمك المملح على أنه غذاء قوي •

(١) لينين : حول مسألة الديالكتيك •

غابرييل جوزيبفتشي

موبيلين المتمرّكي

ترجمة : يوسف اليوسف

تعريف بالكاتب

ولد جوزيبفتشي في نيس عـام ١٩٤٠ من أبويين أصولهما روسية وايطالية ورومانية ٠ وعاش في مصر ما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٦ ، حين جاء إلى انجلترا ٠ درس الانجليزية في اكسفورد ٠ وهو الآن محاضر في مدرسة الدراسات الأوروبية في جامعة سسكس ٠ الف روايتين ، « قائمـة الجرد[1] » و « الكلمات[2] » ، كذلك دراسة نقدية وتنظيرية لفن القصة تحمل عنوان « العالم والكتاب [3] » ٠ وأخـذ حديثاً يهتم بالمسـرح ، فنالت مسرحيته الأولى « دليـل الالفة[4] » ، جائزة صحيفة الصندي تايمز عـام ١٩٧٠ في مهرجان الدراما ٠ أمـا مسرحيته الثالثة فقد مثلت فيمسرح الرويلكورت،عام ١٩٧٢ ٠ وهي تحمل عنوان «أحلام السيد فريزر [5]»٠ ولقد أنجز مسرحية اذاعية أخرى كلفته بكتابتها هيئة الاذاعة البريطانية ٠

1 — The Inventory.

2 — Words.

3 — The World and the Book.

4 — Evidence of Intimacy.

5 — Dreams of Mr. Fraser.

موبيس المتعري

تمرين طوبولوجي

ما عرف أحد على الاطلاق أصول وخلفية موبيس المتعري · « لست انجليزياً ، » يقول ، « وهذا شأن مؤكد » · كانت لغته خليطاً غير سهل من المصطلحات والنبرات التي يدفع بعضها بعضاً حين تتساقط الألفاظ من شفتيه الغليظتين · كان دائم الاستعداد للتكلم مع أي أمرىء يرغب في الاستماع اليه · وكان عليه أن يوضح بأن ذلك احدى حاجاته ·

« ترون ما أفعله · إن دافعي ليس جنسياً ، بل هو ميتافيزيقي · انه باعث ميتافيزيقي ، أترون ؟ لقد قرأت جنيه وبروست ونيتشه · هؤلاء الاولاد ، جميعهم

موبيس المتعري

تمرين طوبولوجي

سمعت للمرة الأولى عن موبيس من فتاة ذات قدمين كبيرتين تدعى جني · وهي واحدة من أولئك الفتيات اللائي يردن اشعارك دائماً بأنهن يعرفن ما يحدث· وفي هذه الأيام كانت تأتيني باستمرار مصحوبة بأنباء صغيرة عجيبة تحاول من خلالها أن تجذب اهتمامي · ومرة جرتني الى إيلنغ حيث (في غرفة خلفية صغيرة ملأى بالدخان ، وذات سقف يتجاوب فيه الصدى) كان هنالك مشعوذ رديء النوع أحال في البداية حية الىحبل،ثم تسلق الحبل وأخذ يروحعن نفسه بمنديل حريريبنفسجي اللون ، بينما كان شعره الدهني يلمس السقف المتقشر · ثم هبط وأعاد الحبل الى أفعى من جديد قبل أن يعيد الأفعى ، في نهاية المطاف ، الى الحقيبة الجلدية الصغيرة التي كان قد أخرجها منها : حيلة رخيصة · وفي مرة أُخرى أخذتني الى غرينتش ، حيث كان أحد أصدقائها يعرف رجلاً يحتفظ بست فقمات في حوض حمّامه ، ولكن

الشيء نفسه · التعري حاجـة ميتافيزيقة · أن أخلع ما وضعه علي المجتمـع · ما وضعه علي أبي وأمي · ما وضعه علي أصدقائي · ما وضعته أنا على نفسي · وأقول لنفسي : ما أنت ياموبيس ؟ هذه السمنة التي تحسها هنا · هنا · انها أشبه بطيّات من الشحم ، انظروا هذا أنا ، موبيس · هذا هو الغموض · أود أن أنفذ الى ماوراء هذا الشحم حتى أبلغ مركزي · وأنتم تستطيعون مساعدتي · نعم أنتم · كل شخص يمكنه أن يساعد موبيس · ذلك الغامض · أنت وأنت وأنت وأنت · وتظن أنك تساعد نفسك ، ولكنك تساعدني · ولماذا ؟ لأن هـذا الأمر في أقصاه ليس جنسياً · انه ميتافيزيقي · وربما ديني · »

وحين تكلم موبيس كان أناس آخرون يستمعون · كان له حضور · لا مجرد حجم أو سويداء ، بل وجود · كان ثمة شيء ما يتعلق بالرجل الذي يطلب الانتباه ويحصل عليه · ما عرف أحـد أين يعيش ، حتى ولا مدير ملهى « نوتنغ هـل » ، القائم خلف محطة المترو ، حيث كان يتعرى أمام الجمهور سبع ليال في الاسبوع ·

الرجل لم يكن في البيت يومها ، وربما كان قد مات ، أو لعله لم يكن راغباًفي الاستجابة لجرس صديقها الملحاح · ومـع ذلك فان معظم اهتمام جني كان يتمركز حـول الشبقية المنحرفة ، فكانت دوماً تلح علي كي أذهب معها الى ملهى ليلي موحش حيث الرجال والنساء والأطفال والمنحرفون من كل صنف يبذلون قصارى جهدهم لسـد ثغرات جبلـّيـّة كانت الطبيعة العاقلة قد زودتهم بها ـ محسنة اليهم في ذلك ـ من أجل هذا الغرض · لم أكن عادة لأستجيب لمثل هذه الدعوات ، لأن قدميها الكبيرتين، من جهـة ، كانتا تضايقانني (مـع أنها كانت فتاة مقبولة وتتميز بأنها لاعبـة لاكروس) ، ولأن هـذا النوع من الأشياء ، من جهة أ ُخرى ، لم يكن ليستهويني بحال من الأحوال ·

« ولكن الأمر ينبغي أن يهمك ، » قالت جني · « انهم جميعاً جزء من عالمنا ، أليس كذلك ؟ »

وافقت ، ولكنني بينت لها أن ليست كافة أجزاء العالم متساوية القيمة عندي ·

«لست أفهمك،» قالت · «تقول انك تريد أن تغدو كاتباً ومن ثم تغلق عقلك أمام التجربة · انك بكل بساطة تغلق عقلك أمامها · أنت تعيش في برج عاجي ·»

« أتريد أن تعطل أيام الآحاد ؟ » قال طوني ، المدير ، حين استخدمه ·
« أعطل ؟ » قال موبيس ·
« نحن نسمح لك بليلة في الاسبوع ، » قال المدير · « نحن نعامل فنانينا بالشكل الأنسب · »
« لست أفهم ، » قال موبيس · أتستخدمني أم لا تستخدمني ؟ ينبغي أن نبت في الأمر · »
« لك حقوق ، » قال المدير · « نحن نعامل فنانينا بالشكل الأنسب هنا · لسنا في العمل لنستغلهم · »
« انك لا تستغل ، » قال موبيس · « بل أنت تحسن الي · فأنت تدفع لي وتقدم المتعة أيضاً · »
« حسناً ، » قال المدير · « هذا مايريحني · »
« أنت مرتاح معي ، وأنا مرتاح معك ، » قال موبيس · « أليس كذلك ؟ »

قبلت ما قالت · غلطتي الكبرى أن أخبرتها بأنني سأغدو كاتباً · أما البقية فهي ما استحق ·
« هل كان شكسبير يتخذ موقفك ؟ » قالت جني : « هل وقفه ليوناردو ؟ »
لا ، كان علي أن أعترف · لم يكن لشكسبير أي موقف · ولا ليوناردو ·
« حسن ، اذن ، » قالت جني ·
أحياناً ، وعند هذه النقطة ، كنت أشعر بالأسف من أجل جني ، ومن أجل قدميها الكبيرتين ووجهها الانجليزي العذب · موبيس المتعري · أستطيع أن أتخيله فقط · كان اسمه الحقيقي تدبنكس · كان لديه منكبان عريضان وخصر ضيق كخصر فتاة · يتبختر حين يسير ، أما حين يضحك فانه ···
« حسن ، إذن ، » أعادت جني ، وكأن اعترافي قد جعل المزيد من النقاش لا ضرورة له ·
« حسن · سأجيء إذا كنت تريدين ذلك · ولكننا إذا كنا سنطوف لندن كلها مرة ثانية فقط لنجد الباب مغلقاً في وجوهنا وأل ـ » ·
« إن ذلك لم يحدث سوى مرة واحدة ، » قالت جني ، لا أدري لماذا تعيدها

« تباشر عملك في السادسة من هذا المساء ، إذن ، » قال المدير وهو ينهض ويفتح باب مكتبه الصغير ٠

أراد موبيس أن يقبله ، ولكن المدير ، وهو شاب يلبس ربطة ذات دبوس ماسي ، خطا بسرعة الى ماوراء مقعده ٠ وحين أغلق الباب خلف موبيس تكدس على كرسيه ، ودفن وجهه في يديه ، وانفجر باكياً ٠ ولم يقدر بعد ذلك أبداً على تفسير تلك الايماءة التي لا معنى لها أو نسيانها ، مع أنه حاول ذلك بجد ٠

وصل موبيس في السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم ، ومن بعد ظهر كل يوم لاحق ٠ « تحتاج الى تركيز ، » كان يقول ، « على المتعري الناجح أن يصل في الحالة المناسبة ٠ انها أشبه باليوغا ٠ فهي تعتمد على كل قضايا التركيز ٠ »

« نعم ٠ » كان المدير يقول ٠ « نعم ، بالطبع ، بالطبع ٠ »

على هذا النحو كل مرة٠على أية حال ، انه أنت الذي كان يريد رؤية تلكالفقمات ٠ حالما حدثتك عنها أردت أن تراها ٠ »

« حسناً ، » قلت مستسلماً ٠ « حسناً ٠ »

« انك بهذا تحسن الى نفسك ، وليس اليّ أنـا ، » أضافت جني في تلك اللحظة ٠ « لن تستطيع أن تكتب بغير تجربة ، وأنّى لك باكتساب التجربة إذا ما بقيت حبيساً هنا طيلة النهار ؟ »

حقاً ، لقد كانت البنت على صواب ٠ لم تكن دقيقة بالضبط ، إذ كنت أقضي كل صباح في تسليم الغسيل لشركة التنظيف الجديدة (« نحن ننظف الوسخ » ، هكذا كانوا يخبرون العالم بتواضع وبأحرف بنفسجية مكتوبة على سياراتهم ذات اللون الأصفر الفاتح ـ اعتدت أن أستيقظ وأنا أهمس تلك العبارة لنفسي ، وفي بعض الأحيان كانت تبدو لي على أنها أجمل ترابط لأجمل كلمات في اللغة) ، أما المساء فكنت أقضيه في ركل أوراق الشجر في الحديقة العامة وأنا أرقب غروب الشمس ٠ ولكنها لم تكن عديمة الدقة تماماً أيضاً ، إذ كنت أشعر في داخلي بميل قوي نحو العزلة واغلاق العالم ومطالبه الشديدة الالحاح دوني ، بما في ذلك جني ٠ وليس

« بالنسبة الي ، » راح موبيس يوضح له ، « ليس الأمر جنسياً ، بل هــو ميتافيزيقي · باعث ميتافيزيقي · ليس كبقية هذه النفاية · »

ولكنهم لم يؤاخذوه على هذا القول · كل امرىء كان يحب موبيس الا المدير ، طوني · وكانت الفتيات يؤثرنه · « نحييك ياموبي · » كن يصرخن · «كيف‌حالك؟»

« بخير ، » يجيب · « كيف أنتن ؟ »

أردن معرفة شيء عن حياته الخاصة ، ولكنه لم يكن ليبوح بشيء ·

« نحن دائماً نقص عليك شيئاً من متاعبنا ، » كن يتضرجن وهن يقلن ذلك· « فلماذا لا تقص علينا شيئاً من متاعبك ؟ »

« ليست لدي متاعب ، » قال موبيس ·
« دع عنك هذا ، » قلن ضاحكات · « فلكل امرىء متاعبه · »
« الديكن متاعب ؟ » سألهن مندهشاً ·

العالم وحده · فالماضي هو الآخر كنت أرغب في اقصائه عن وعيي في بعض الأحيان، ومعه كافــة الكتب التي سبق لي أن قرأتها · وحين كنت أنحني فوق مقعدي بعد الظهر ، أحدق بالورقة العذراء ، كنت أرغب بحرارة ، واصلي بيأس لأي اله يمكن أن يستجيب لصلواتي ، راجياً أن تزاح بسكين فعالــة وحــادة وغير موجعة ، كــل المطبوعات التي قد سبق لعيني أن نقلتها الى دماغي ، والتي دفنت هناك في داخلي في أعماقي حيث بقيت تتقيح · ليس الأمر أنني كنت أشعر بالتاريخ ككابوس أريد الافاقة منه الخ الــخ ، بل ببساطة كنت أشعر بالنفس الصغيرة التي أمتلكها مهددة بخطورة بحجم وثقل كافة الرجال العظام الذين مروا بي · كانوا هنالك مجسدين يبتسمون ، بسويداء أو بتجهم وفقاً لمقتضيات الحالــة ، فرجيل ودانتي وديكارت ووردزورث وجيمس ، المقيمون في داخلي ، كل منهــم يقص عليّ الحقيقة ـــ ومن يستطيع الشك بأنها الحقيقة ، حياتهم نفسها كانت تحمل الدليل على الحقيقة ـــ ولكن هل كانت تلك حقيقتي ؟ تلك هي المسألة · وخلف ذلك أيضاً ، توجد مسألة أخرى وأُخرى · هل كنت مؤهلاً للحصول على حقيقتي الخاصة ، واذا كان الأمر

« أكنا نتواجد في هذا الملهى لو لم تكن لدينا متاعب ؟ »

« متاعب ، متاعب ، » قال مو بيس · « المتاعب ابتكار بشري · »

وكن يشعرن بالسويداء في آخر فترة مابعد الظهر ، فهن بعيدات عن عائلاتهن، وكذلك في الساعات المبكرة من الصباح ، حين يكون الجمهور قد غادر · « أين تعيش ؟ » سألنه · « الديك رجل أم امرأة ؟ الديك أطفال ، ياموبي ؟ »

وعن هذه الأسئلة كافة كان يجيب بالابتسامة الودودة نفسها · ولكنه ذات مرة ، حين أمسك باحداهن تتعقبه بعد انتهاء العرض ، عاد ولطمها على وجهها بقفازه ، ولهذا لم تحاول أي منهن أبداً أن تفعل شيئاً من هذا القبيل مرة أخرى · « أنا لا أسألكن ، فلا تسألنني ، » قال لهن بعد الحادثة · « ليست لدي

كذلك ، أليس باتباعي « لجني » الى الشوارع الباردة في رتشموند وبيرموندسي وهايفيت سأجد الحقيقة ·

وفي أوقات أخرى كنت ألجم نفسي قبل أن أتكلم ، ولدى غضبي البالغ حد التكثف من شعوري بالأسف تجاه جني ــ من أنا لأشعر بالأسف تجاه أي شخص ؟ــ كنت أقول لها بدلاً من ابداء أسفي : انقلعي أريد أن أعمل · »

« أعمل فيما بعد ! »

« كلا انني في العمل الآن · »

« ان الأمر نافع لعملك · لن تستطيع أن تبدع من أحشائك الخاصة · »

« ثمة دوماً أعذار · الوقت دائماً إما مبكر جداً أو متأخر جداً · »

« تريد أن تكون واحداً من أولئك الذين يمخضون السفاسف الفاترة لأن مثل ذلك العمل يصنع كاتباً ؟ لماذا لا تنسى ذلك قليلاً وتعيش فترة قصيرة في نشاط آخر؟»

عزيزتي جني · على الرغم من قدميها الكبيرتين ــ لا ، لا ، بسبب منهما ــ لم تكن لتدعني · كانت تعلم أنني سأستجيب في النهاية ، وإذا ما جاءتني بالأخبار فما ذلك بالدرجة الأولى الا لأنها لم تجد شخصاً آخر يأخذها الى أي مكان · كانت

أسرار ، ولكن حياتي هي عملي » • وحين جاء طوني ليتحدث اليه بشأن وجنة الفتاة المشوهة ، ما كان من موبيس الا أن أغلق عينيه ولم يجب •

« لئن تكررت الحادثة ، فأنت مطرود ، » قال طوني • مع أنــه في قلب قلبه كان سيبحث عن طريقة لتفادي الطرد لو أن هذا قد تكرر ثانية • وكلاهما كان يعرف أن ذلك لا يعدو كونه كلاماً •لأن موبيس كان منجم ذهب يصب في جيبطوني•

وفي غرفته الصغيرة ، التي لا تبعد كثيراً عن الملهى ، جلس موبيس وحيداً على حافة سريره وراح يأكل الموز حتى التخمة • « اللحم هو الملحم ، » كان يقول • « لست بآكل لحوم بشرية • » كان يأكل الموز بالأرطال ، وهو يجلس محني الكتفين ، وطيات شحمه تتدلى على الفراش غير المُسوّى ، ويحدق بالجدار الفارغ •

تلك كانت ساعات طيبة ، الساعات التي يقضيها محدقاً بالجدار ، بانتظار الساعة الرابعة • غير أنها ليست أطيب من الساعات التي تلي الرابعة ، ولكنها

جني ذات حساسية تجاه الخاص ، ولكنها كانت في أعماقها فتــاة تقليدية النمط تحتاج الى مرافق أينما ذهبت •

«اسمعي ،» قلت لها • « لا أريد أن أعيش• أريد أن أترك بسلام لأعمل • »

« ولكن ذلك الهُزْأة ، » قالت • « طبقات الشحم التي عليه • انها خيالية • والسكينة • يا الهي • سوف ترى السكينة في عينيه حين يتعرى • »

« السكينة ؟ » قلت • « عم تتحدثين ؟ »

« إنه أشبه ببوذا أو بشيء ما ، » قالت جني •

« ماذا تحاولين أن تفعلي لي ؟ » قلت•

« أأنا واحدة من أولئك الذين يسقطون في اليوغا أو الزن ZEN (طائفة يابانية تعلم التأمل والحصول على التنوير من خلال الحدس المباشر والعبارات غير المنطقية • المترجم) وكل ما تبقى من ألعاب شرقية ؟ » قالت جني •

أعترف بأنها لم تكن منهم •

« في وقت آخر ، » قلت •

كلها ساعات طيبة · فأي أذى يقوم به ؟ مالم تقطف الموزة حين تنضج فانها ستتعفن· إذن ، أي أذى يقوم به ؟ فمن ذا الذي يؤذيه موبيس ؟

كانت الأصوات تبـدأ أحياناً ، وكان يجلس ويصغي اليها بكبرياء · « من يتحدث عن موبيس ؟ » كان يقول · « أقول لكم ، كل الناس يتحدثون عن موبيس· حين أسير أسمعهم·حين أنام أسمعهم·وحين أجلس في غرفتي أسمعهم·موبيس المتعري· أفضل من في العمل·لقد شاهدت الكثير من المتعرين في حياتي،ولكن ليس بينهم من يبذ موبيس·واجهت موبيس أول مرة·شاهدت موبيس أول مرة·سمعت عن موبيس أول مرة · أحد أصدقائي · ابن عم لي · دوقة ، دوقة فولكستون · كنا أصدقاء في طفولتنا · أذكرها تشير الى أن موبيس المتعري كان أكثر الناس إذهالاً · أسمعهم

لم تكن شلنتهام قد هيأتها لهذا · جحظت عيناها ·

« في وقت آخر ، » قلت ثانية ·

« تعني ـ أنك لن تأتي ؟ »

« في وقت آخر ، » قلت ·

« وو » قالت جني · « لا بد أن شيئاً ما قد حدث لك · أأنت عاشق أو شيء من هذا القبيل ؟ »

« أريد أن أعمل فقط ، » قلت ·

« دائماً تقول ذلك ، » قالت جني ، منفجرة فجأة ·

« أنا آسف ، » قلت ، وكنت كذلك فعلاً · بيأس · أي نوع من الحظ أن يولد الانسان بقدمين كبيرتين ؟ « في وقت آخر ، » قلت · « أليس حسناً ؟ »

« لست تدري ما الذي تفقده ؟ » قالت جني ·

صحيح تماماً ، ولكنني خمنته · موبيس المتعري ، طوله ستة أقدام ومستدير كالبرميل : « في ذلك الوقت كان بريمو كارنيرا يمضغ اصبعي الكبير · لم أستطع أن أقبض على الزنيم القذر فاستدرت بينما هو يمضغ اصبعي ، وبعدها وجـدت اصبعي عـلى أنفه و ··· » نعـم · جيد جداً · كان شـخصاً آخر أستطيـع أن أعيش بدونه ·

جميعاً · ولكن لماذا أهتم بذلك ؟ إن ذلك بدوره ينبغي أن أتعرى منه · » أعطه الخيار ولابد أن يؤثر الصمت الجميـل · سِلِمْ التعري · ولكنهم اذا ما جاؤوا فسوف يقبلهم · إذ هم لا يؤذونه ·

وطوح بقشرة أخرى الى سلة المهملات الورقية وقضم موزة جديدة · وحين أكلها راح يتحسس بلسانه زوايا فمه ، وما بين أضراسه ، ويتنهد بارتياح · كم من طبيب وحكيم قد نصحه بأن يغير نظامه الغذائي وأن يبدأ حياة جديدة ؟ ولكن كم طبيب قد أخبره بأنه سمين جداً ، وبحاجة الى المزيد من التمرينات ، وبأن لديه أسناناً رديئة ، وكذلك التهاب مفاصل أولي ، وقلباً ضعيفاً ، ودورة دموية غـير منتظمة ، والتهاب قصبات ، وذات الرئة ، وآثار حمى الملاريا ، والجدري ؟ لقد كان رجلاً ، كتلة من اللحم ، ووريث كل ذلك اللحم هو وريث ··· تنهد موبيس وفرك طيات بطنه بسعادة · يبدو من الأعاجيب انه عـمّر كل هذه المدة الطويلة حين تتدبر كل الأشياء التي حدثت له · وطالما أنه قد عاش كل هذا العمر الطويل ،

بعدما ذهبت جني حدقت بالورقة العذراء التي على الطاولة أمامي · وحين فعلت ذلك أردت أن أصرخ · وحين تركتها هناك ، خرجت الى أي مكان ، المهم الى الخارج ، بعيداً عن هذا كله ، وبعدها فان كل الذي أردت فعله هو العودة والمباشرة بالكتابة · كنت أرتدي ملابسي القصيرة وأمارس في الوحل لعبة الركبي (نوع من كرة القدم · المترجم) ضد العمالقة · كان بروست ، واهناً ولابساً نظارة أحادية الزجاجة ، يحرس المرمى خلف اللفيف كله ؛ أما جويس ، الصغير والناري ، وذو الشارب الحسن التزيين ، فقد كان يندفع بين أقدامهم يضرب الطابة ويرسلها تطير نحـو الأجنحة ؛ وكان دستويفسكي ممسوساً وملتحياً ، سـريعاً وضارياً ولا يمكن ايقافه ؛ ويندفع تشوسر كما لو كان كلب صيد · والثلة ، الثلة نفسها ، تولستوي وهوجو وهومر وغوته ولورنس وباسكال وملتون وديكارت · كلها تهاجمني · ضخمة · قوية · واثقة كلياً · وبقيت الطابة تأتيني على الأجنحة · كانت رزمة من ملابس الغسيل ملفوفة جيداً بالبلاستيك ، وعليهـا عبارة « نحـن ننظف الوسخ » مكتوبة بأحرف بنفسجية · كنت أبدو دائماً هنـاك وحيداً ، لم يكن أحد بجانبي ، ولكن

فلماذا لا تكون المدة أطول ؟ « الوقت ، » كان يقول ، « لا يعني شيئاً بالنسبة الي. أترى هـذا ؟ هذا الشحم ؟ جسدي هو ساعتي . حين أموت فانها تقف . » إذن ليست به حاجة الى ساعات الحائط . كانت ثمة كنيسة في الشارع الآخر وكانت تدق له ، له بشـكل خاص ، رنيناً خاصاً ، في الساعة الرابعة . وبعدها ينهض ويسوي سريره (« عليك بالنظام. الفوضى في الأشياء الصغيرة هي بداية النهاية »)، ويغسل أسنانه ويهيء أشياءه . ما مـن أحـد رآه يدخـل الى الملهى بعد الخامسة (« تحتاج الى وقت للتأمـل اذا كنت تقوم بعرض كالـذي أقـوم بـه . انـه أشبه باليوغـا ، كلـه تأمـل . » حـين قضى المدير ، طوني ، اجازته السنوية في البيرموداس ، أقفل الملهى وأخذ معه المفاتيح . أما موبيس الملتصق بالروتين ، وصاحب الدوافع الميتافيزيقية ، فقد واظب على النهوض في الرابعة ، وتسـوية فراشه ، وافراغ قشور الموز في مجمع المهملات في الساحة الخلفية ، وتنظيف أسنانه ، وتحضـير أشيائه ، والذهاب الى الملهى . قرع الباب بعنف ، بل وحاول أن يفتحه بدفعه بكتفيه ، ولكنه لم يفتح . ولم يكن شخصاً ممن يثنيهم مثل ذلك الأمر . « لي)

الطابة كانت تثابر على مجيئها الي . كانت دائماً تبدأ على هذا النحو ، فهي تطير عبر الهواء الرمادي باتجاه ذراعيّ المفتوحتين ، وبعدها تهاجمني الثلة بأحذيتها التي تسحق العشب وأنا أتراجع بقنوط أبعد فأبعد ، قانعاً طيلة الوقت بأنني لن أكون قادراً على أن أحقق تماساً معها أو أن أضبط أعصابي بحيث أتماسك وأضرب الطابة الى الأمام . لم يكن هنالك سواي وهذه الطابة التي هي رزمة من ملابس الغسيل جميعها تهاجمني . كان ديكارت بوجـه خاص يسكنني . كنت أستيقظ ناضحاً بالعرق وأنا أتساءل كيف يمكن لي أن أكون متأكداً الى هذا الحد ومع ذلك مخطئاً الى هذا الحد . ولماذا كانوا جميعاً يثابرون على مجيئهم الي على ذلك النحو ، وخلفهم بروست يندفع برباطة جأش ، شعره يلمع وحذاؤه ممسوح ، لم يكن على عجلة من أمره ولكنه دائماً يسد دربي ؟ أي أذى الحقته بأي منهم سوى أني قرأتهم ؟ والآن أريد أن أنساهم . أليس في وسعي أن أفعل ذلك بسلام ؟ انك لا تفكر بنسيانهم حين تنظر الى غلاف كتاب مُغْبرٍ في مكتبة ما ، بل انك تمتلكه حين تمسه . وبذلك تدخل في الشبكة . انه أسوأ من امرأة . فهو هناك في جسدك حتى يوم موتك وكلما بذلت جهداً لتنساه كلما ازداد تألقاً في ذهنك .

حقوق مثلك تماماً ، » قال الشرطي الذي ضبطه · « ما من أحد يغلق باباً في وجهي ويذهب بالمفتاح · »

« ليس هذا بمبرر لكسره ، » قال الشرطي وهو يحدق بمومبيس مندهشاً ·

« لي حقوق ، » قال موبيس ·

« أتعني أنهم لا يدفعون لك ؟ » قال الشرطي ·

« بل هم يدفعون بكل تأكيد ، » قال موبيس ·

« أعني في الأعياد · »

« بالتأكيد ، » قال موبيس ·

« حسن ، إذن ، » قال الشرطي ·

« لي حقوق ، » قال موبيس · « ألا يستخدمني ؟ »

« طالما أنها عطلة فلماذا لا تذهب الى مكان ما ؟ » قال الشرطي · « اعط نفسك الراحة · »

جربت الحِكَم :

« لو استطاعت الآلة الكاتبة أن تقرأ ما تكتبه فانها ستضرع الى الله ·)

« إنه الآخر · »

« مشكلة الساعة البيولوجية هي أنها لا تملك أداة انذار · »

ليست الحكم جيدة · لم تكن جيدة بما فيــه الكفاية لتتكيف من أولها الى آخرها بحيث أرسلها كقصيدة الى (ت·ل·س·) · في الشوارع كان ريلكه يمشي الى جانبي ويهمس في أذني ، قائلاً أشياء جميلة ولكنني كنت أوثر أية سخافات كان بامكاني التفكير بها لنفسي حين لم يكن هو معي · وفي الصباح كنت أسوق سيارتي الصفراء عبر ضواحي لندن الغربية ، وذلك ما كان يبقيني سوي العقل · كنت أزمر من أجل التوقف ، وأقفز ومعي رزمة الغسيل المرتبة أبادلها بالغسيل الوسخ منتظراً عند عتبة الباب ، وعليها اللفافة البلاستيكية المماثلة التي كتب على ظهرها « نحن ننظف الوسخ » بأحرف بنفسجية · « انكم تشتغلون كجهنم » ، هكذا كتب على احدى البطاقات المشكولة بدبوس مع اللفافة · « خذها ثانية ونظفها من جديد · »

« لا أريد الراحة ، » قال موبيس · « أريد حقوقي · »

« لا أعرف شيئاً عن ذلك ، » قال الشرطي·لقد ارتكبت مخالفة ضد القانون· وأخشى أن يكون علي تدوين ذلك في محضر الضبط · »

« أنت لا تفهم ، » قال موبيس للشرطي · « هذه حياتي · أيعني مجرد ذهابه الى البيرموداس الداعرة أن تتهدم حياتي ؟ »

« أأنت أمركي أم شيء آخر ؟ » سأله الشرطي مقاطعاً ·

« امكث في البيت ، » نصحه الشرطي « واجه الأمر بارتياح لبضعة أيام · سوف ننظر في الأمر حين يعود المدير · »

وحين أخذ طوني اجازته في المرة الثانية أعطى المفتاح لموبيس · ولكن الأمر كان مختلفاً بدون الجمهور، فبعد يوم أو اثنين راح يقضي الوقت كله في غرفته ما عدا ساعة التنزه العارضة التي كان يقضيها في الحديقة العامة، يحميه معطفه وقبعته الروسية

أخذتهـا · لم يكونوا أطفالي أو غسيلي الوسخ ، فلم ألعنهم ، ولكن حياتي كانت تنزلق عن دربها دون أن أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله ·

«لماذا لا تأتي وترى موبيس المتعري ؟» قالت جني · « سأغير أفكارك· انقطع قليلاً وسوف ترى النور على حين فجأة · »

« هذا ظريف ، » قلت ، « لولا أنني مازلت أقول ذلك طوال السنوات الخمس عشرة الماضية ومع ذلك فأنا لا أزال في الظلام · »

« ذلك لأنك لا تصدق ، » قالت جني ، · « ليست لديك ثقة · »

كان علي أن أعترف بأنها محقة · لأولئك الذين لديهم الخ الخ · ولكن كيف يمكن للمرء أن يتدبر ذلك أولاً ؟ ثمة خلل في مكان ما ولكن من أنا لأرتقه ؟

« حسناً ، » قالت جني ، « أبذل جهداً · ان أي امرىء يسعه أن يكتب شيئاً ما· ليس عليك الا أن تدون شيئاً فتشعر بالتحسن وبعدها تستطيع الخروج معي · »

شيء ما · كان موبيس المتعري رجلاً حقيقياً حين كان في حضن أسرته · الخ· الخ· الخ· « اللعنة عليك ، » قلت · « لقد أخبرتك أنني لا أريد من يزعجني · »

الفراء · ولكنه لم يكن يألف الشوارع ، وخاصة في أول المساء حين كانت عربات المترو تقيء محتوياتها ، وهي التي لا تنفعه بشيء ، بشيء ، على الاطلاق · داخل الغرفة كان يشعر بأنه أكثر سعادة · ولكن انكسار الروتين قد منع نومه فكان يقضي الليل والنور مضاء · تأرجح المصباح في النسيم وفسخته الاصوات الى مائة جزء · رأيت موبيس لأول مرة في ملهى في بودا · في ريو · في البيكيرك · موبيس هزوة ظريف · أهو كذلك ؟ نعم ، هزوة ظريف · أذكر أنني كنت أذهب لأراه و ··· سمعت لأول مرة بموبيس المتعري من غلام على الجبهة في مرسليا · من فتاة في ڤينا· كانت هناك في منحة دراسية تدرس العزف على الفيولونسيل (كمنجة كبيرة · المترجم)· وقد قابلتها في مطعم · في حانة · كانت شقراء · غامقة · جلدها غامق · أصابعها طويلة · أصابع عازفة فيولونسيل · ما من أحد مثل موبيس ، قالت ·

ابتسم موبيس وأصاخ السمع للأصوات التي كانت تأتي وتدخل رأسه ، واذا كان ذلك هو المكان الذي تبغي أن تتواجد فيه فلا اعتراض لديه · إذ هنالك متسع

« لسوف ينفعك ذلك ، » قالت مثابرة على موقفها · كنت كلما أفحشت لها القول كلما ازدادت الحاحاً · « وفضلاً عن هذا ، » قالت ، « ان ذلك كله تجربة جيدة · »

« لست بحاجة الى تجربة ، » قلت « أحتاج الى السلام والهدوء · والى قليل من الالهام ، إذا كنت محظوظاً · »

« لسوف يهبك ذلك ، » قالت جني · « بمجرد أن تنظر اليه ستلهم · »

« وماذا تعنين بمجرد النظر اليه ؟ » قلت·« وأي شيء آخر نتوقع أن نفعل ؟»

« الى الجحيم ، » قالت جني ·

« غداً ، » قلت ·

« سبق لك أن قلت ذلك البارحة · »

« ومع هذا ، غداً ، » قلت ·

بدأت جني تنشج · كان ذلك مؤثراً · لقد تأثرت · « فقط لأن لدي قدمين كبيرتين ، » قالت ، « تظن أنك تستطيع التخلص مني على هذا النحو · »

يزيد عليها . ولكنه جفاه النوم وأدرك أن طوني البرونزي قد وضع اصبعه على نقطة هامة حين قال : « موبيس ، انك هزوة . »

وجاء اليوم الذي أعيد فيه افتتاح الملهى . « لماذا لا تأخذ اجازة ككل الناس؟ » قال طوني « يجب أن تستريح قليلاً منذ الآن . »

« إجازة من أي شيء ؟ » سأله موبيس .

« لا أدري ، » قال طوني . لقد أزعجه موبيس ، إذ لم يعرف من أي درب يأتيه . ربما في أحد الأيام سيخفق في اجتذابهم الى الملهى وبذلك يستطيع التخلص منه . « مجرد اجازة ، » قال . « من العمل . »

« اسمع ، » قال له موبيس ، « ذلك هو الفرق بيننا ، ياطوني . أنت تعمل وتبصق على عملك . أما أنا فعملي هو حياتي . »

« حسناً ، » قال طوني . « لست أتذمر . »

« ياجني ، أرجوك ، اني أحب الأقدام الكبيرة ، » قلت .

« لست تحبها ، » قالت ذلك ناشجة . « انك لتجدها مضحكة . » وحين تنشج فانها تنشج حقاً . ما من شيء يمكنه ايقافها .

« في الرجال ، » قلت « أجدها مضحكة . أما في النساء فأراها علامة صلابة وثبات . »

« انك لتسخر بي ، » قالت . « انك لتزدريني بسبب من قدمي الكبيرتين . »

م.ي. المصاب بفتيشية القدم (تثبيت اللبيدو على القدم . المترجم) كان رجلاً هادئاً ، ومثقفاً معتدلاً . كل من قابلـه كان يظنه قديساً . ليس تماماً بل غالباً . ولكنه في أعماق داخله كان هنالكماينبض الخ الخ .

« ولكني لست مثله ، » قلت . « ليست لديك فكرة عما أشعر به نحو الاقدام. لا أستطيع أن أنال ما يكفي من الأقدام.ذلك هو بالضبط ما أحبه فيك ، ياجني ، قدماك الكبيرتان . »

كفت عن البكاء . « انك خسيس ، » قالت . « انك فاحش . »

« هل هنالك اجازة من الحياة ؟ » سأله موبيس . « أجبني عن ذلك ، يا طوني . »

« من أجل الله ! » قال طوني . « أما تستطيع أن تتحدث بشكل قويم على الاطلاق ؟ أنت لست على المسرح الآن ، أتعلم ذلك ؟ »

« عليك أن تجيبني أولاً ، » قال موبيس . « هل هنالك اجازة من الحياة ، يا طوني ؟ »

« لست أعرف عم تتحدث ، » قال طوني . وحين بدأ موبيس يضحك ، وبطنه العظيم يرتج ، أضاف من خلال أنفاسه : « انك كمن يفرغ أمعاءه من الريح . »

وفي البيت قال لزوجته : « ذلك الهزوة موبيس . انه مخبول . »

« أما زال يجتذبهم ؟ » سألته زوجته حين ناولته الخبز المحمّص .

« اسمعي ياجني ، » قلت . « سأجيء معك . اني أحب رؤية ذلك الشاب . ولكن غداً ، أهذا حسن ؟ »

جني فتاة لا تصدق . وهي تجيد المناورة . « أتعد ؟ » قالت قبل أن يتاح لي أن أتنفس .

« تعلمين أني أحب الذهاب ، » قلت . « لست أريد أن أكون عبئاً عليك . واذا ما جلست هناك وفكرت بعملي طيلة الوقت بدلاً من أن أكون مرحاً وكل ما ــ»

« سوف ترى ، » قالت جني . « لسوف تحبه . انه رجل محبب . »

وسواء أكان محبباً أم غير محبب ، لم أعتقد بأنني أستطيع مواجهتهما ، جني والمتعري . وهكذا أقفلت الباب وخرجت الى الحديقة . سرت هناك وأنا أركل بأقدامي أوراق الشجر وأرى كل تلك الأشياء والبشر ، الأمر الذي من شأنه ألا يبقي لي سوى المطاردة . هل أبصر ريلكه هذه المرأة ؟ أو بروست ، ذلك الطفل ؟ هل شاهد هو بكنز هذه الشجرة ، هذه الورقة ؟ اذن ، ماذا لديهم ليعلموني إياه لقد كانوا جميعاً يتحدثون عن شيء آخر . انهم نافعون بالنسبة اليّ بقدر ما كنت نافعاً بالنسبة اليهم . واذا كانوا يريدون لأنفسهم الخلود ، فلماذا يتسلطون عليّ ؟

« لست أدري ما الذي يجدونه فيه ، » قال طوني ·« أجنبي حقير سمين يتعرى أمام الجمهور · دعارة خالصة · وهم يتوافدون لرؤيته · ان هذا لمما يؤيسك من الجمهور البريطاني · »

« جرب مربى الكشمش الأسود ، » قالت زوجته · وبعدئذ أردفت : « لقد استأجرته · في البداية لم تستطع أن تقول عنه ما يكفي من الكلام · »

« انــه يجعل الانسان مريضاً ، » قال طونــي · وجـذب المربى باتجاهــه · « انهم قذرون وفاسدون ، انهم مخادعون قذرون · »

ولكن موبيس حين قال بأن الأمر لم يكن جنسياً بل ميتافيزيقي ، فانه قـد

ثمة الكثير من البلهاء الآخرين ليمارسوا امتصاصيتهم عليهم · أستطيع أن أسير بدونهم ، أشكركم جزيل الشـكر · واذا كانت هذه الشجرة هي ما أريد أن أرى فانهم سرعان مايعترضون سبيلي · واذا لم تكن هذه الشجرة هي ما أريد فما نفعي لنفسي ؟ لقد شاهدوا أشجارهم ·

ومع ذلك ، شعرت بعد هنيهة بما يحثني على العودة والجلوس أمام الورقة الذابلة البيضاء · ما نفع هذه الشجرة حتى وان كنت أراها ؟ لا نفع فيها لي أو للعالم · وحتى لو كانت نافعة ، من يستطيع القول بأنني أراها ؟ حين أجلس أمام تلك الورقة ينتابني شعور بأن أخرج ذلك كله وبأن أدون كل شيء · كل شيء · وبعدها ماالذي سيحدث ؟ كان رجلاً صغيراً ذا · أذكر أنني سألت تشارلز و · التفت جيرالد · استدار كريستوفر · وحـين شاهد جيل · وحين شاهـد روبرت · كانت اليزابث نيوتلي · كانت جيرالدين بلوت · لم يكن هلري مكفرسن · كل شيء عدو لشيء ما ، فحين يلمس قلمي الورقة أغدو فارغاً · قصص · قصص · قصص وقصص · جلس موبيس المتعري في شقته وقلم أظافره · جلس في غرفته العارية وراح ينتف شعر أنفه · قصص وقصص · ان أي انسان يستطيع كتابتها · كل ما تحتاج اليه هو جلد سميك بما فيه الكفاية يحميك من إضجار نفسك حتى المرض · استدار جاك فجأة وقال · الكونت فريدرك بروكوفسكي ، أحد محاربي القرم القدماء · هورست ڤوس ، مدرب التجذيف · بيتر بندر ، عرّاف نبات المطاط · الخ الخ ·

أصاب كبد الحقيقة · انزع الطبقات وانفذ الى الأسس · في أحد الأيام سيذهب اللحم وبعدها فان ماهــو حقاً أساسي سيظهر للنور · انتظر موبيس ذلك اليــوم بصبر فارغ ·

« لقد قرأت بروست ، » يقول ، « ونيتشه وجينيه · هؤلاء الاولاد · انظر ما يقولون · كلهم يقول الشيء نفسه · انهــم يعرفون الحقيقة · كل المســألة في التعري · »

« انك تتحدث كثيراً يا موبي ، » قالت لــه البنات ، · « انك تقودنا نحو الجنون بحديثك كله · »

« عليك أن تتحدث حين تتعرى ، » وضح لهن موبيس · « عليك أن تجعل الجمهور يندمج · »

هذا الشخص وهذا الشخص وهذا الشخص · ويصرخ الأمر في داخلي طيلة الوقت (كان هنري جيمس ممسوساً بهذا المس ولكن التشابه فيما بيننا ينتهي هناك ، الى اللقاء ، ياهنري جيمس ، الى اللقاء ، يافيرجينيا ولف ، الى اللقاء ، الى اللقاء) يصرخ في داخلي لأقول كل شيء ، كل شيء ·

انهم يربون الطواويس في الحديقة · ولا أدري لماذا يربونها · ولكنهم يفعلون ذلك · كانأحدها يختال أمامي في الممر · قدماه كبيرتان كقدمي جني · من أنــا لأقول ما اذا كانت الأقدام الكبيرة جذابة أو غير جذابة ؟ وعلى أية حال ، لماذا أسأل هذا السؤال ؟ فكر بالمتعري موبيس وبطقسه الليلي ، وهو يتدرج ببطء نحو المشهد الذروة وبعد ذلك ماذا ؟ لماذا يفعل الناس أشياء كهذه ولماذا يعرفون أنفسهمالخالخ؟ كل القصص التي في العالم ولكنك أوتيت جسداً واحداً ومن سيبدل هذا « الجسد » بتلك (القصص) الا كل كاتب من الدرجــة الثانية(١) وما يزالون يعيشــون · ويتكاثرون · والأنكى من ذلك أنهم يؤمنون بأنفسهم · لماذا ، اذن ، هــذه المعاناة

---

(١) هذه الجملة مثال واضح على نزوع الكاتب نحو تعقيد بعض الجمل كتقنية فنية يسلكها لكي يعبر عن تعقيد الموقف · ومن مظاهر هــذا التعقيد الاسلوبي انعدام الفواصل بين أطراف الجملة وصوغها من عناصر متباينة بعض الشيء ، مما يلفها بغمامة من الغموض · (المترجم)

« يمكنك اللجوء الى الموسيقى ، » قالت الفتيات · « الموسيقى جميلة · من سمع بمتعرّ يتكلم ؟ »

« حسناً ، » اعترف موبيس · « ربما كنت أرغب في التحدث · فحين أتكلم أشعر أن نفسي الأساسية تنبثق · وتملأ الغرفة · »

ومع ذلك فان موبيس يندر أن يفتح فمــه خارج الملهى · بالتأكيد لم يكن يتحدث مع نفسه ، وفيما يتعلق بالأصوات ، فمن هو ليطردها بعيداً ؟ جلس عـلى السرير وحدق بالجدار ، يأكل موزة ويهوّم للنوم · شاهدت لأول مرة · سمعت لأول مرة · أذكر سيادته وهو يحدثني عن موبيس المتعري · كان ذلك في براغ ،

اليومية ، ولماذا هذا اليقين بأنني إذا استطعت فقط أن أبدأ بتحريك القلم فـوق تلك الورقة فان حـياتي ستتغير ، تتغير ، كما يقولون ، الى ما وراء حدود التحقق ؟ الأنني قرأتهم جميعاً ؟ رسائل ڤان غوخ وحياة رامبو ودفاتر هوبكنز · هل خدعوني الى هذا الحد ؟ من المحتمل · كل شيء محتمل · « قل لي الحقيقة ، » قلت للطاووس ذي القدمين الكبيرتين · « هيا ، أيها الزنيم · قل لي الحقيقة والا فعليك اللعنة · »

كانت ثمة امرأة ذات كلب قزم صغير دميم تسير في ممشى الحديقة · « أمـا تريدين الحقيقة ؟ » سألتها · استدارت واتجهت نحو البوابة · « أيتها السيدة ! » صرخت وراءها · « أما تريدين الحقيقة ؟ »

الأمر دائماً هكذا · هذا ما يثبط همتي · إذا كنت أقدر أن أقول أي شيء ، إذن لماذا أقول أي شيء ؟ ومع ذلك فكل شيء انما هو ليقال · هنا وهناك · جلس موبيس في سريره وأكل الموزة بعد الأخرى · ولكن هل فعل ؟ هل فعل ؟

ذهب الطاووس وجلست على مقعد ورحت أنظر الى السماء عبر الأشجار · لا بد أن جني قد ذهبت وهي الآن تغادر · أو ربما هي لم تذهب قط · أتساءل أحياناً عما إذا كانت جني تعرف تماماً ذلك العدد من الناس الذي تدعي معرفته · بل تساءلت عما اذا لم يكن أحـد سواي تعرفه في لندن كلها · والا فكيف تفسر الحافها ؟ ما لم تكن أقدامها تواظب أبداً على حملها راجعة فوق الأرض التي داستها

تلك المدينة الرائعة · كنت أعمل كأمين سر خاص للدوق وكان لدي وقت· سافرت الى باريس ولندن · فتاة تدعى برتابينهايم ذكرت موبيس لي لأول مرة · انها ليست برتابينهايم المشهورة ، بل واحدة أخرى ·

ولمرة أو مرتين كان يجر كرسياً الى المرآة التي على طاولة اللبس ، وهي الطاولة الواقفة بشكل حتمي في النافذة الناتئة ، ليحدق ويحدق بعينيه الرماديتين· وبعدها يدفع بالكرسي الى الخلف ليعود الى السرير ثانية ·

« فيم الحياة ؟ » يقول · « صدفة · وماهي حياتي ؟ نتيجة مليون صدفة وصدفة · ولكن وراء الصدفة تكمن الحقيقة · المعضلة برمتها هي النفاذ وراء الصدفة الى الحقيقة ! » كان ذلك حين سقطت حمّالة أعضائه الجنسية فأنزلت بيت تلك الأعضاء الى الأسفل · ولكن موبيس لم ينته هنا · فقد جلس على المسرح

ذات مرة · الخرافة · الشعيرة · فكرة · أكثر من فكرة · مجاز من أجل الحياة · « هو ذلك ، » صرخت وقد فاجأني الفهم · « هو ذلك ! هو ذلك ! مجاز من أجل الحياة · »

كانت ثمة مجموعة صغيرة من الناس تقف على الممر تحت الأشجار وعلى بعد يسير مني · وكان هنالك واحد أو اثنان من حراس الحديقة · ورجل سمين يرتدي قبعة فرائية روسية · وكانت صديقتي المرأة ذات الكلب · لوحت لهم بأدب جم · بدوا وكأنهم يتوقعون ذلك · واندفع أحد الحراس الى الأمام وسألني بأدب عن سبب مطاردتي للطواويس وعن تلفظي بكلمات بذيئة · كان الرجل منافياً للعقل · ألم يرني أجلس بصمت على المقعد ؟ لقد طاردت باسكال على الممشى ذات مرة ، أما الطواويس ؟ ما علاقتي بالطواويس أو ما علاقتها بي ؟ قلت للرجل ·

« لقد شاهدتك ، » قالت المرأة ذات الكلب · « كنت تطارد وتشتم · »
« لا تكوني أكثر سخافة مما تطيقين ، » قلت لها ·
« أما تستحي وتتكلم الي على هذا النحو ، أيها الشاب ؟ » قالت ·

ماذا كان بوسع ديكارت أن يفعل لو كان مكاني ؟

الخشبي متصالب الرجلين ، وحدق الى ما دون سرته بكثير ، لقد أتاح معرفة حقائق الحياة بدءاً من الصدر :

« وراء صدفة الانسان تكمن ضرورته • ولكن كم تجدون ؟ أسألكم • أتظنون أن هـذه مسألة جنسية ، اذن فيم تأتون لتروني ؟ لأنني أقدم لكـم الحقيقة • ان الحقيقة مسألة ميتافيزيقية • تكمن الضرورة خلف الصدفة • لكل انسان حقيقة واحدة وثمة من الحقائق في العالم بقدر ما هنالك من بشر • »

كان موبيس يتنهد بين الفينة والأخرى ، وهـو يحدق بعينيه الرماديتين في غرفته الصغيرة في نوتنغ هـل ، وكانت عيناه تتجولان فـوق مدى اللحم المكشوف والقابل للكشف • وأحياناً كانت يده تحوم فـوق درج طاولة اللبس ، حيث كان يحتفظ ببعض المقتنيات الخاصة ، ولكن تلك اليد سرعان ما كانت تنزاح بعيداً • كان ذلك غاية في السهولة • ولكن حيث تتحدث عن الضرورة فكم من نسخة هناك ؟ حامت يده ولكن الدرج بقي مغلقاً •

« كنت تطارد الطواويس وتتلفظ بأقوال بذيئة ، » قالت •

« هل ستقفون هناك وتستمعون لاتهامات هذه المرأة اللا معقولة ؟ » سألتهم •

« في مطاردة الطواويس جناية تحظرها النظم ، » قال الحارس •

« ولكنني أحب هذه الطيور ، » قلت • « أحب أقدامها الكبيرة • »

ولسبب ما كنت ما أزال أجلس هناك على ذلك المقعد وكانوا يتجمهرون معاً تحت الأشجار ويحدقون باتجاهي • « ما غايتي من مطاردة الطواويس ؟ » قلت • كيف يمكن للمرء أن يعرف كيف يفهمهم الأمر ؟ واذا فهموا ، فكيف يصدقون ؟ ألي لحية كلحية تولستوي ؟ وشارب كشارب ريلكه • « أيها السادة ، » قلت • « إني أعتذر • طاب مساؤكم • »

« انه يغادر ، » قالت المرأة • « لا يمكنك أن تدعه يذهب على هذا النحو • لقد أهانني وسفهني • »

« في هذه الحالة ، ياسيدتي ، » قال الحارس ، « اقترح أن تستشيري محامياً • »

« هؤلاء الفتيات ، » قال ، انهن يزعجنك جنسياً • ولكن حين تراني فان مجمل حياتك سيتغير•»كانت لديه طريقة فيركوبالضحك،وفي اسكاته• «لماذا ؟ لأنك تتعلم مني الفرق بين ساعة الحائط من جهة وبين الضرورة من الجهة الأخرى • ساعة الحائط • واحد • اثنان • الى الداخل • الى الخارج • أما الضرورة فهي الهة • انها تحيل عضلاتك الى ماء وعظامك الى زيت وفي يوم من الأيام لا بد لك من ملاقاتها ولسوف ترى أن موبيس على حق • »

ذهب الى البيت بعد تلك الأمسية ببطء أشد من مألوف عادته • لئن كان يقدم لهم الحقيقة ، فأين حقيقته ؟ شاعراً بقلبه وقد أثقله عبء السنين ، فتح الدرج وأخرج صديقه الصغير • وشعر بوزنه إذ قبضه بيده • لم يكن ثمة تردد في حركاته الآن ، ولماذا يكون ؟ لئن كا نلحياته منطقية فهذه هي اذن • ان الثقل

بورك لسانه الفضي • أن أول ما سأفعله حين أؤتى النجاح هو تقديم أعطية لحراس حدائق لندن •

ومع ذلك فقد هزني الأمر • ومن لا يهزه مثل هذا الأمر ؟ نماذج التحامل مزعجة دوماً • مزعجة ولكنها مبهجة أيضاً • انهم يجرونك الى الشجار • ان شيئاً ما قد حدث في داخلي خلال تلك الدقائق القليلة والآن لا يسعني الانتظار ريثما أعود • ها قد بلغت مأربي بعد كل هذه السنين •

لم تكن ثمة رسالة من جني على الباب • ولا حتى كلمة واحدة مثل « زنيم »، أو « عليك اللعنة » ، أو أية واحدة أخرى من تلك الكلمات الصغيرة الرقيقة التي نستعملها حين نكون على مودّة تامة مع شخص ما • حسن ، عليها اللعنة • أستطيع أن أعمل بدونها • بدونهم جميعاً • كنت أجلس على مقعدي وهذه الورقة البيضاء أمامي وفجأة أصبح الأمر يسيراً • انحنيت فوقها وقلمي متوازن ومعصمي مسترخ ، كان ذلك هو الوضع التقليدي • كان الأمر كله سهولة الى حد جعلني لا أفهم لماذا تأخرت كل هذه المدة الطويلة •

نظرت الى الورقة البيضاء • والى القلم • والى معصمي • بدأت أضحك • عليك أن تضحك في لحظات كتلك • بل الضحك هو الشيء الوحيد الذي يسعك أن

الذي يرين على قلبه قد راح يدفعه نحو هذه اللحظة • حين تكون قد تعريت من كل شيء فالجواب هناك ، ولكن ما دام الأمر كذلك ، فلماذا تنتظر ؟ من السهل أن تقول ذلك ، جد سهل ، ولكن لماذا يكون أسهل من الانتظار ؟ وكمألوف عادته ، فعل كل شيء بمنهجية • حين بلغ النقطة الصحيحة ، اعتدل قليلاً وانتظر الفولاذ ليستجمع بعض الدفء من لحمه • « إذن ، أبلغ الى نفسي أخيراً ، » قال موبيس • « الى مركز نفسي ، » وقـال : « هذي هي ضرورتي وحقيقتي • وهي أنمـوذج للجميع • » حدق بعينيه الرماديتين وشعر ببرودة المعدن • وأحكمت أصابعه عـلى الزناد وكانت الاصوات هناك من جديد • وأمال رأسه الى احدى الجهتين وابتسم ، واستمع الى ما كانوا يقولون • كان لديه وقت زائد • وأركز السبطانة على حاجبه وابتسم لنفسه في المرآة حين كان المصباح يتأرجح في الريح فوق رأسه ، وانتظرهم ريثما ينتهون •

تفعله • وحين انتهيت من الضحك ، نهضت وذهبت الى النافذة • مالم أستطع انجازه هو ما اذا كنت أستطيع فعلاً أن أصدق الأمر أو ما اذا كنت قـد عرفت حقاً أن اليوم لن يختلف عن أي يوم آخر • وأن بين كل شيء وبين شيء ما سيسقط الظل مرة ثانية • ليتركني بدون شيء • بدون شيء •

استدرت وجلست على المقعد ثانية • وعلى الأقل ، لو كانت جني هناك فلن يكون وجودها سيئاً • كان بوسعنا التحدث • نظرت الى ساعتي • كان ما يزال هنالك متسع من الوقت • ما يزال من المحتمل أن تأتي •

أمسكت القلم وكتبت اسمي فـوق أعلى الصفحة ، لسبب لا أستطيع تبينه • وبعدها ، وبشكل مفاجىء ، ابتدأ الازرق ينبعث • ربما كانت قصة واحدة فقط ، تعسفية وناقصة ، ولكنني عرفت فجأة انها ستكون لها ضرورتها ، ومع تقدم العمل ستعيد الي نفسي الضائعة • عزيزتي جني • عزيزي موبيس • عزيزي الطاووس • « بعيداً • لا تزعجني • » هذا ما كتبته على ورقة الصقتها بالباب الذي أقفلته بعد ذلك • وبعدها جلست وبدأت أكتب •

تعقيب

بقلم : يوسف اليوسف

أتراها مجرد حذلقة أدبية أو فنية أن تكتب القصة الواحدة مشطورة الى شطرين منفصلين بعضهما عن بعض ؟ لعل هذا السؤال الأول الذي يخطر ببال من يقرأ قصة « موبيس المتعري » للكاتب الانجليزي جوزيبقتشي • وربما كانت القراءة المتأنية للقصة بشطريها هي وحدها القادرة على تبين جوهر العلاقة بين البطلين ، بحيث يمكن القول بأن البطل الأول هو موبيس (آ) أما الثاني موبيس (ب) وبذلك يغدو شطرا القصة وجهين لورقة واحدة ، بمعنى أن كلا منهما يسند الآخر ويكمله • ولذا يمكننا الذهاب الى أن الشكل الذي اتبعه القاص في تقديم الفكرة هو واحد من أكثر الأشكال الفنية قدرة على كشف المضمون وحمله •

ولكي ندرك أهمية هذا الشكل علينا أن ننتبه الى أهمية العنوان الفرعي ، « تمرين طوبولوجي » ، وذلك من حيث هو إيحاء مباشر بالطوبولوجيا النفسانية ، وهي ذلك الفرع من علم النفس الذي يطبق الطوبولوجيا الرياضية (قياس الأجزاء بالنسبة الى الكل) على النفس ، أي يفسر الظواهر النفسانية على أساس من مفهوم تحركها ضمن مجال حياتي ، أو هو يدرس العلاقات التفاعلية الداخلية القائمة بين الأفراد ضمن اطار جماعة معينة •

وعلى أية حال ، نملك أن نفهم هذا « التمرين » على أنه رصد للكيفية التي يترابط الفرد وفقاً لها مع مجتمعه • واذا كان الأمر كذلك فاننا نشعر ، للوهلة الاولى ، أننا أمام بطلين (فردين) لا بطل واحد ، وبالتالي أمام سلوكين اثنين يباين كل منهما الآخر الى هذا الحد أو ذاك • ولكن مجرد حس خفيف للاقصوصة يستطيع أن يقدم لنا كشفاً مفاده أننا أمام سلوك واحد ثنائي الاتجاه : إذ بينما نجد موبيس (آ) ينطلق منذ البداية حاسماً لعلاقته بالمجتمع وبالماضي (الذي يرمز له الكتّاب، جينيه وبروست ونيتشه ، « هؤلاء الأولاد ») بحيث لم يبق له بالتالي الا أن يتجه الى الداخل ، الى ذاته ، يعري عنها كل ما أقحمه عليه المجتمع ابتغاء الوصول الى الميتافيزيقي ، فان موبيس (ب) يكابد من أجل الخلاص من الماضي (من الكتاب

الذين يعاركهم باستمرار) ومن المجتمع (من جني التي تشده الى الخارج) على السواء•واذ يبلغ غايته في نهاية المطاف فانه يصبح بالضرورة نوعاً من موبيس (آ) أو متمماً لـه •

والحقيقة أن العنوان الفرعي (قياس مدى ترابط الفرد بالجماعة) ينطبق تمام الانطباق على القصة بشطريها • فموبيس (آ) يقيم علاقته مع المتفرجين لأنه يمارس أمامهم التعري منهم ومن ارتباطه بهم • ولكن في فكرة التعري من المجتمع ايحاء غير مباشر بالنرجسية ، لأن كل انفكاك من الآخر هو نكوص نحو الذات ، ولا يبـدو موبيس (آ) في القصة الا مهتماً بهذه الذات ، يسبرهـا ليبلغ نواتها المركزية • ولكن هذه النرجسية سرعان ما تحيل الى المباشرة ، أو التوضح ، حين نرى موبيس (آ) يحدق طويلاً بالمرآة ، تماماً كما كان يحدق نرجس في الغدير ، وكذلك حين يلطم الفتاة التي تتبعته لتعرف عنه شيئاً ما ، وربما لتقيم معه علاقةما• فماذا حدث ؟ قام بتشويه وجهها • وهذا مما يستدعي على الفور تلك الصفعة التي وجهها نرجس الى الفتاة ايخو (الصدى) حين تتبعته في الغابة • ان قيام كل من موبيس (آ) ونرجس بهاتين الفعلتين المتماثلتين تماماً انما هو دفاع الأناضد الآخر الذي يحاول أن يشغلها عن ذاتها • ولما كان موبيس (آ)مهتماً بدراسـة حقيقة نفسه واستبارهـا ، فقد كـان يرفض أن يأخـذ إجـازة من العمـل ، لأن عمله هو حياته ، على حد قوله • فعمله هو حياته حقاً ، وذلك بما هو نبش لحقيقة هذه الحياة • ومن هنا كان عمله ضرباً من الاليوغا التي تحاول أن تنفذ الى أعماق الموجود ، أو التي تتجه دوماً داخل الأشياء • ومن هنا أيضاً كان موبيس (آ) يتكلم كثيراً حين يقوم بعروضه على خشبة المسرح ، وذلك لأنه يشعر حين يتكلم أن نفسه الأساسية « تنبثق » من داخله ، أو تنبجس من أعماقه لتخرج « وتمـلأ الغرفة » • وكل الذي يريده هو أن تتجلى حقيقته الداخلية مشخصة أمامه •

ويمعن موبيس (آ) في حفر طبقاته الشحمية ابتغاء الوصول الى ما وراء الظاهري ، أو الى اللباب ، كما يمكن أن يقال • وأخيراً يبلغ غايته • ويكتشف أن وجوده نتيجـة لعدد كبير مـن الصدف ، بل ويعجب من أن الصدف قـد أتاحت له أن يعيش كل هذه المدة • « إذن أبلغ الى نفسي أخيراً • » وتشعر بصورة غير مباشرة انه فوجيء أمام هذا الاكتشاف ، صدفوية الانسان ، ممـا يذكر بالملك لير الذي

رأى ادجار شبه العاري في الكوخ فما كان منه الا أن طرح سؤاله المشهور : « أهذا هو الانسان كله ؟ » ان اكتشاف الحقيقة قد جعل من موبيس (آ) انساناً لا يأبه بالمجد الذي يحيطه به الناس ، ولم يعد يأبه بأصواتهم وبأقوالهم فيه ، بل يذهب الى أن هذا ينبغي أن يتعرى منه أيضاً • ولا يعني هذا الموقف سوى عبثية المجد أمام « الضرورة » التي « لا بد لك من ملاقاتها » يوماً ما ، والتي سوف « تحيل عضلاتك الى ماء وعظامك الى زيت » • وطالما أن الضرورة تكمن وراء الصدفة كعامل انبثاق ، وأنها لا بد من مواجهتها مستقبلاً ، « فلماذا ينتظر ؟ »•ولهذا لم يبق على موبيس الا أن يمد يـده الى « صديقه الصغير » (المسدس) ، ليضع حداً لانتظاره • لقد اكتشف أن الموت هو حقيقة الذات ، وان الانسان هو الكائن من أجل الموت • وازاء هذا السؤال الذي يطرحه موبيس (آ) نشعر بأننا نقرأ « سيزيف » ، لألبير كامو•

لم يكن مجانياً أن تبـدأ القصة الاولى بتقديم موبيس (آ) بوصفه عديم التلون باللون القومي أو المحلي ، وعديم القدرة على لفظ الكلمات الانجليزية كما يلفظها بقية الناس ، على الرغم من أنـه بريطاني الجنسية ويحمـل جواز سفر بريطانياً ، كما قال للشرطي الذي ضبطه وهو يحاول أن يكسر باب الملهى ليدخله في سبيل القيام بعمله • فوراء ذلك غاية مفادها أن موبيس عديم الارتباط بمجتمعه• كماأنه لميكن من المجانية أيضاً أن ينزوي موبيسفي غرفته ويتناول الموز بالأرطال• فوظيفة الموز هي الايحاء بالغابة التي كان يعيش فيها الانسان القديم ضمن كونه بعيداً عن الآخرين • وموبيس في غرفته انما يحقق سجنه الخاص ، قطيعته التامة مع الآخر • أما العلاقة التي يقيمها مع المتفرجين (المجتمع) فهي ليست سوى عملية التعري منهم • وبايجاز فان موبيس (آ) هو الانسان الغربي في تحقيقه لعزلته بذاته ومعاناته من قلق وجوده •

وفي حين ينطلق هذا البطل من أرضية التفكك الاجتماعي ، فان ما يسعى نحوه موبيس (ب) هـو تحقيق هذا التفكك الاجتمـاعي لنفسه • وبينما تحاول الفتاة ، جني ، أن تجره الى « الشوارع الباردة » والى الأماكن التي تضم غرائب المجتمع ، فاننا نراه يرفض باصرار أن يندمج في هذه التجارب الجماعية أو أن يقبل مشاهدتها • ونحن نراه يكشف جهراً عن حالته هذه بقوله : « أشعر في داخلي بميل قوي نحو العزلة واغلاق العالم ومطالبه الشـديدة الالحاح ، بما في ذلك جني •

وليس العالم وحده • فالماضي هو الآخر كنت أرغب في اقصائه عن وعيي في بعض الأحيان ، ومعه كافة الكتب التي قد قرأتها • »

وفي سعي جوزيبفتشي نحو تخليص بطله من الماضي عبر محاولته الجادة نحو التخلص من الكتاب والمفكرين الذين قرأهم ، وفي طليعتهم ديكارت ، أبو العقلانية الاوروبية الحديثة ، فانه قد عمد الى طرح شكل قصصي عظيم الفنية ، وهو أن هذا البطل نفسه ، موبيس (ب) ، قدم على انه سائق سيارة في شركة لغسل الملابس • فكثيراً ما طرحت العبارة الذكية فنياً (مع تحفظنا ازاء مضمونها) ، « نحن ننظف الوسخ » ، عند كل مرة يحاول فيها أن يتخلص من الكتاب والمفكرين • ان غسل وتنظيف الوسخ هو احالة تقنية الى غسل دماغه من الأفكار العقلانية الراسخة فيه • ولكي يدلل على صعوبة ذلك ، وعلى ضرورة تكرار المحاولة تلو الأخرى للوصول الى « النظافة » ، فانه يقدم رزمة غسيل كانت قد نظفت ، ولكن صاحبها يعيدهـا الى التنظيف ثانية لأن الشركة لم تنظفها جيداً • ومع أنه يقدم حجة معقولة في سعيه نحو التخلص من هيمنة الكتاب عليه ، وهي أنهم قد تحدثوا عن وجودهم وعصرهم وتجربتهم ، لا عن عصرنا ووجودنا وتجربتنا ، مـع ذلك فان هـذه الحجة لا تبرر التخلص من التراث البشري ، لأن الانسان الراهن وليد الماضي مثلما هـو وليد الحاضر تماماً • ان الماضي يرقد في صميمنا • وليس التخلص من تراث الانسانية الا ظاهرة واحدة من ظواهر التفسخ الحضاري التي يعانيها الانسان الغربي اليوم •

ومثلما يرمز جنوح موبيس (آ) نحو التعري الى البحث عن الحقيقة ، حقيقة الانسان ، فان الرغبة الجامحة التي تجتاح موبيس (ب) وتحثه على الكتابة ليست سوى الرمز عينه ، أي اكتشاف الحقيقة • ومع ذلك فهو يؤمن أن الكتابة لا جدوى منها ، وهذا مانستطيع أن نفهمه في سياق النص من حيث هو ذهاب الى أن اكتشاف الحقيقة نفسه ليس الا عبثاً لا طائل تحته • ولكنه ، على أية حال يرفض اتجـاه موبيس (آ) نحو التمركز حـول الذات والسفر في أعماقها ، ولهـذا تجده يتجه اتجاهاً خارجياً ، وبذلك يكمل وجهه الآخر • ففي حين يقوم موبيس (آ) بسبر مافي داخله فان موبيس (ب) يقوم بطرد مافي داخله (التراث) • ويقابل هذا الطرد

في القصة الاولى تلك الكراهية التي راح طوني يكنها لموبيس (آ) فهو يتمنى أن لو يتخلص منه • وليست هذه المحاولة الا رغبة الانسان في التخلص من البحث عن ضرورته ، أو عن قلقه • أما قبول الجماهير له فلا ينم الا عن كونه أصبح النموذج الذي يحل في كل فرد • وهكذا فان الفرق الأساسي بين موبيس (آ) وموبيس (ب) هو أن الاول يريـد أن يستخرج ماهو ميتافيزيقي (ملازم) فيـه ، ماهو محايث لماهيته ، وذلك عبر اخراج ما أقحمه عليه المجتمع ، أما الثاني فيريد أن يخرج ماهو اصطناعي ، أو ماهو دخيل على طبيعته ، أي ماهو ليس منه أصـلاً (التراث) • ولهذا فان كلاً منهما ينزع نحو التعري ، وان اختلف أسلوب هذا عن أسلوب ذاك• وبذلك تقبل كلتا القصتين الاندراج تحت عنوان واحد •

واذ يرغب جاداً في التخلص من الفتاة ، جني ، التي هي الآصرة التجسيمية الوحيدة التي تربطه بالمجتمع تكتشف هذه الفتاة أنه لا يكرهها الا بسبب من قدميها الكبيرتين ، وهما رمز التحرك في المجتمع • وهو يصرح جهرة بأنه يود التخلص من جني ، وماذلك الا لكي يتاح له الانفلات من الانغماس في التجربة الاجتماعية •

وأخيراً يأتي دور اكتشاف الحقيقة ، تماماً كما سبق لهذا الدور نفسه أن مر به موبيس (آ) ، مع فارق أساسي بين الحقيقتين (على الرغم من تكاملهما) ، وهو أن الحقيقة بالنسبة الى موبيس (آ) هي ذاتية وميتافيزيقية ، ولكنها بالنسبة الى الثاني اجتماعية محضة • وما يوحد الحقيقتين ويجعل كلاً منهما تكمل الاخرى هو أنهما (كلتيهما معاً) جانبا الوجـود ، أو المشروع الانساني : الانسان الفرد والانسان المجتمـع • ولهذا كان موبيس (آ) يمثـل التيار النفساني في التفكير الوجودي ، بينما يمثل موبيس (ب) التيار الاجتماعي في ذلك التفكير نفسه •

وكيف يكتشف الحقيقة ؟ ان الحادثة الأخيرة في القصة ليست الا شكلاً فنياً حاملا لأعـز الأفكار عـلى نفوس العبثيين والوجوديين وأنصار اللامعقول • انهـا فكرة انقطاع التفاهم بين الناس ، الشيء الذي يذكر بمسرحية « سوء التفاهم » لألبير كامو • فكل الذي فعله موبيس (ب) هو أنه طرح على المرآة أن يقص عليها

الحقيقة ، وأنــه طلب من الطاووس أن يخبره بالحقيقة • فكيف فسرت المرأة موقفه ؟ لقد اتهمته بأنه يطارد الطواويس ويشتمها بألفاظ بذيئة • انه ، اذن ، البطل العبثي غير المفهوم • وكيف وقف الحضور من ورطته تلك ؟ ان في السؤال الذي طرحه عليهم ما يبين موقفهم : « هل ستقفون هناك وتستمعون لاتهامات هذه المرأة اللا معقولة ؟ » • فاذا كان موقف المرأة يتسم باللاعقلانية ، فان موقف الآخرين لا يقل لا عقلانية عن موقفها • انه انقطاع التراحم بين الناس ، هذه المقولة التي تتمحور حولها مسرحيات أداموف الاولى • وما هذا الانقطاع الا مظهر من مظاهــر اللا تواصل بين البشر • كل يحقق عالماً مستقلاً •

هي ذي الحقيقة أخيراً ، لقد بلغها دون الاستعانة بديكارت أو سواه من كبار المفكرين : ان المجتمع حقيقة لا معقولة • ولهذا لم يبق أمامه الا أن يغلق بابــه دون هذا المجتمع • وباكتشافه للحقيقة فقد انحلت أزمته ولم تعد الورقة «عذراء» أمامه ، بل « ابتدأ الأزرق ينبعث » • لقد كملت القصة الثانية صاحبتها ؛ لقد سبق موبيس (آ) أن اكتشف أن وجود الانسان ــ الفرد لا يطاق ولا يحتمل الانتظار ، ولذلك فهو وجود لا معقول ؛ وجاء موبيس (ب) ايكتشف أن وجود الانسان ــ المجتمع لا معقول هو الآخر •

بيد أن الكاتب فنان بارع في تسخير الاسلوب واللغة ، فضلاً عن الشكل ، كحامل للفكرة • فهو يهشم الجمل عمداً ليوحي بأن الحياة مهشمة ومفككة الاواصر • كما أنه يعمد أحياناً الى انبهام العبارة والصياغة لكي يوحي بأن الحقيقة ممهورة بطابع الغموض • ولنأخذ هذا المثــال على تفتيت عناصر الموقف الذي توحي بــه مجموعة جمل كهذه : « نظرت الى الورقة البيضاء • والى القلم • والى معصمي • بدأت أضحك • » مع أنه كان بوسعه أن يصوغها على هذا النحو : نظرت الى الورقة البيضاء والى معصمي وقلمي ، وبدأت أضحك • ان هذا التفتيت العمدي هو اشارة غير مباشرة الى تفتت المواقف والعلاقات • وبالمناسبة ، نرى في هذه الجملة نفسها أنه بينما ينتحر موبيس (آ) حين يكتشف حقيقته الداخلية (الموت) ، فان موبيس

(ب) يغرق في الضحك حين يكتشف الحقيقة الخارجية (اللا معقول) ان اللامعقولية يمكن أن تثير فينا ميلاً الى الضحك والهزء بها ·

ترى أين هو جوهر العلاقة المحورية التي تربط هاتين القصتين بحيث تصنع منهما بنية واحدة ؟ أو لنطرح السؤال بشكل أوضح ، أين هي نقطة المحرق التي تلتقي فيها القصتان بحيث تغدوان قصة واحدة ؟ انها ، بايجاز ، تكمن في أن كلاً من بطليهما يبحث عن الحقيقة وينزع الى التعري من كل ما أدخله فيه المجتمع· وثمة علاقة لا تقل أهمية عن تلك ، وان قلت عنها محورية ، وهي أن اكتشاف كل منهما للحقيقة يتم على نحو مماثل لاكتشاف الآخر ، عنيت أن كـلا الاكتشافين فجائعي الهوية · فالقصتان لا تتكاملان فنياً فحسب ، بل وفي مسألة أشد خطورة ــ وهذه المرة فلسفياً أو مضمونياً ــ إذ أنه في حين تخلص الاولى الى أن الحقيقة الداخليـة مرعبة ،فان الثانية تأتي لتقول أن الحقيقة الخارجية هي اللا معقول · وهكذا تدفع الحقيقة ، منظوراً اليها ككل (وتأتي كليتها من أن الانسان وجـود كياني ووجود اجتماعي معاً ، ودون أي فكاك بـين الوجودين) ، تدفـع بالهول ، من جهـة ، وباللامعقولية من جهة أخرى · ولهذا لم يعد من اللامنطقي أن ينتحر موبيس (آ) وأن ينجحر موبيس (ب) ·

اننا لنعجب أشد الاعجاب بقدرة الكاتب على التشكيل الفني وتطويع الاسلوب واللغة لأغراضه ، الأمر الذي يعني عبقريته الفذة ، كما نعجب بالثقافة الواسعة التي أصابها والتي مكنته من انجاز هذا العمل الفذ ، اذ يكمن خلف هذه القصة نصيب كبير من علم النفس والفلسفة · غير أننا نرفض مضمون هذه القصة جملة وتفصيلاً ، ولا سيما نزعة الشباب الغاضب التي « تنظر الى الخلف بغضب » ، والتي تتجلى في القصة على شكل نزعة تصبو نحو التخلص من تراث الانسانية بوصفه فكراً لا علاقة له بمعضلاتنا الراهنة ، كما يزعم أصحاب « الغضب » · ونحن لم نقم بترجمتها الا لنقدم لقراء العربية ، ولكتاب القصة عندنا ، واحداً من الأشكال الفنية الحديثة النشوء في الغرب ، وواحداً من النماذج الدالة على كيفية توظيف الفلسفة في الأدب دون أن يتحول هذا الأدب الى فلسفة تعوزها الجمالية الفنية ·

أنا زيجرز :

تعريف

الأديبة الألمانية أنا زيجرز التي نقدمها لقارىء « الآداب الأجنبية » هي باعتراف الجميع أهم روائية ألمانية معاصرة ٠

ولدت أنا زيجرز في عام ١٩٠٠ في مدينة ماينتس وكان والدها تاجراً للقطع الفنية ٠ درست تاريخ الفن والفروع اللغوية فيجامعتي كولون وهايدلبرج حيث حصلت على درجة الدكتوراه في عام ١٩٢٤ ٠ اضطرت في عام ١٩٣٣ للهجرة الى فرنسا بعد أن استلم النازيون السلطة في ألمانيا وشرعوا في تصفية القوى التقدمية بشكل دموي ٠ بعد أن إحتل النازيون فرنسا غادرتها أنا زيجرز في عام ١٩٤١ الى جمهورية المكسيك التي منحت حكومتها الكثيرين من الملاحقين الالمان حق اللجوء السياسي ٠

ما أن دحرت النازية على يد «التحالفالكبير المعادي لهتلر » حتى عادت أنا زيجرز الىالوطن واستقرت في برلين وذلك في عام ١٩٤٧ ٠

في جمهورية ألمانيا الديمقراطية حصلت أنا زيجرز على أرفع الجوائز التقديرية الادبيةكما انتخبت في عام ١٩٥٠ لرئاسة اتحاد الكتاب الالمان « في مؤتمره الثاني ، وجدد انتخابها في المؤتمراتاللاحقة وما زالت حتى اليومرئيسة » لاتحاد كتابجمهورية ألمانيا الديمقراطيةبالرغم من أنها بلغت الخامسة والسبعين ٠

أبرز أعمالها الروائية :

ـ « انتفاضة الصيادين في سان بربارا » (١٩٢٨) وقد نقلت الى العربية ٠

ـ « الصليب السابع » (١٩٤٢) وهي أشهر رواياتها وأشدها تأثيراً ٠

ـ « ترانزيت » (١٩٤٣) ـ « الاموات يبقون شباباً » (١٩٤٩) ٠ كذلك كتبت أنا زيجرز عدداً كبيراً من القصص ، والقصص القصيرة تضمنتها مجموعتاها : « خليةالنحل »

(ثلاثة مجلدات) و « قوة الضعفاء » التي ترجمنا منها هاتين القصتين •

تمثل أنا زيجرز نمطا معينا من الادباء الالمان هو نمط الاديب المنحدر من أصل فكري وطبقي بورجوازي يتطور من خلال ممارسته الفنية والاجتماعية الى أديب اشتراكي • كان هذا شان برتولت بريشت وهاينريش مان ويوهان بيشر وغيرهم من كبار الكتاب الالمان• ولعل الحدث الاساسي الذي أدى بهم الى مثل هذا الخيار هي تجربتهم مع النازية بكل ماتمثله من قمع وهمجية تجاه الحركة التقدمية ولا سيما تجاه الحركة العمالية • وبالمقابل كانت الحركة العمالية الاشتراكية عصب النضال ضد النازية ومنظمه وحامله الأساسي• لذلك لا عجب في أن يقترب الكتاب البورجوازيو الاصل والفكر من الحركة الاشتراكية ويندمجوا فيها •

حتى يومنا هذا لم يهتم المترجمون العرب بانا زيجرز • ومن عملها الروائي الكبير لم ينقل الى العربية سوى روايتها الاولى «انتفاضة الصيادين » ، وقد نقلت عن الانكليزية • كذلك لم تحتو المختارات القصصية المختلفة اي نص لأنا زيجرز وسواها من كبار الكتاب الاشتراكيين الالمان ، وهي ظاهرة تثير التساؤلات حول هذه «المختارات» و «الروائع»•

هذا التعريف الموجز ليس المجال الصحيح لعرض أعمال زيجرز وحياتها بشكل واف • هذا يحتاج الى دراسة مطولة ومفصلة •• لكن لا بد لنا هنا أن نقول أن أنا زيجرز شخصية هامة وملهمة : ملهمة في ما قدمته من كتابات أدبية •• وملهمة في حياتها الحافلة بالنضال ضد قوى القهر والظلم وفي سبيل الحرية والعدالة وكرامة الانسان • إنها ـ مثل بابلونيرودا الذي كان صديقا لها ـ نموذج للأديب المناضل •

« عبده عبود »

أنا زيجرز

أجاتي شفايجرت

ترجمة : عبده عبود

عاشت في مطلع القرن الحالي في مدينة ألجسهايم غير بعيد عن الراين امرأة اسمها هيليني شفايجرت • ورثت عن زوجها محل خردوات في محيط المدينة ،أدارته بشكل ممتاز بمساعدة ابنتها أجاتي • منذ الصغر خدمت هذه الفتاة الزبائن حالما كانت تفرغ من الوظائف المدرسية •

كان المسكن الصغير يقع خلف الدكان من ناحية الفناء • قسّم الفناء الى جنائن مربعة • كان أحد واجبات الفتاة أيضاً أن تسقي وتعزق مربعها • لولا ذلك لبدت أكثر اصفراراً ونحولا •

في أحاديث الأم والابنة لم يرد شيء آخر غير الزبائن وحاجتهم الى تلك الأشياء الصغيرة التي تسمى خردوات : عرى ، أبر ، سحابات ، خيطان وما شابه ذلك • التغييرات الطفيفة في الموضة أو طريقة الصنع كانت مبعثاً لمباحثات وحتى الهموم ، كيف يستطيع المرء أن يبيع المطلوب بسرعة وبزيادة بضع فرنكات في الربح •

كانت ثمرة هذا الاجتهاد أن اتسع عدد الزبائن واتسعت بذلك المبيعات، بالطبع نسبة الى البضائع المتواضعة • أضف الى ذلك أنه شقت مع مرور السنين بضع شوارع

جديدة على أطراف المدينة الأصلية · أقيم معمل للمعلبات أصبحت بازلاه وهليونه معروفاً · لامست الخطوط الحديدية الجسهايم وصار في هذه المدينة الصغيرة محطة تناور فيها القطارات · وبعد فترة نشأت كتل عديدة من المنازل التي يسكنها عمال وعاملو السكك الحديدية مشكلة امتداداً للمدينة أكثر منه ضاحيتها · كانت السيدة دنهوفر لطيفة معهم جميعاً وان كانت بينها وبين نفسها تفضل الزبائن القدامى الذين كانوا من الحرفيين ورجال الأعمال مثلها وليس من الموظفين ·

سرت أجاتي كثيراً عندما غادرت المدرسة لأن هذا سيجعلها في المستقبل قادرة على مساعدة أمها في المحل دونما عائق ·

ونظراً لأن الحرب العالمية الأولى قد نشبت في نفس الصيف ، فقد أصبح الاستغناء عن مساعدتها غير ممكن تقريباً · اصبحت المدينة مكتظة بالجنود وكانت شحنات من القوات تمر ليلا نهاراً عبر سهل الراين الى فرنسا · مع الرايات والموسيقا العسكرية دخلت الى ألجسهايم حركة جديدة ، محمومة ومجهولة ، حتى بالنسبةللسيدة دنهوفر ذاتها · غرباء يرتدون البذلات · معارف قدامى لكنهم بدوا وقد تغيروا كليا في بذلاتهم · طلبوا كل ما يحتاجون اليه من الأزرار والخيوط والعرى ، ذهبية وفضية ··· مختلف أصناف الخردوات التي تتعلق بالبذلات والأعياد القومية وكذلك بملابس الحداد · كانت السيدة دنهوفر في عملها متهيئة منذ البداية لمثل هذهالتطورات فلم تتركها تدير رأسها · ادخرت فنكها(١) لوقت الحاجة كما هيأت مستودعاً سرياً صغيراً للبضائع تحسباً لحالة يتلاشى فيها الفنك · وثقت أجاتي بأمها · تحدثت بنفس الحماس عن الانتصارات وعن العقداء وبعد معركة المارن تكلمت بقلق ·

عندما حلت الهزائم وحل معها الجوع بدت السيدة دنهوفر وابنتها معتادتين على التضييقات وأن الجديدة منها لن تؤثر عليهما · لكن السيدة دنهوفر عادت من رحلة الى القرى لصيد الجرذان في مطر الخريف الجليدي بسعال وحشي مدهش نسبة الى قصرها ونحافتها · خلف ذلك السعال التهاباً في الرئتين ، توفيت ·

لم يحدث نتيجة لذلك تغير كبير في حياة الابنة · لكنها كانت في المساء عند

(١)الفنك هو وحدة نقد المانية تعادل واحداً بالمئة من المارك ·

حساب ما في الصندوق تفتقد صوت الأم الذي كان مصراً حتى في ساعة الموت • كانت أجاتي التي لبست في البداية ثياباً سوداء ثم رمادية تشبه أمها في جدهـا وانتباههـا لدرجة أن المشترين لم يلاحظوا التغيير الذي حصل • كانوا في بعض الأحيان ينسون موت الأم ويخاطبون أجاتي السيدة دنهوفر بدلا من الآنسة دنهوفر •

عانت أجاتي نفس الهموم والمتاعب • وعندما بلغت أيام الضيـق ذروتهـا ، فتحت الصندوق المعد لوقت كهذا • الآن كان الناس بحاجة ماسة الى كل خرقه •

في بعض الأحيان كان يأتي ، وهو يعرج على عكاكيز ، جندي من سلاح العاصفة المشاة اسمه شفايجرت • كانت زوجته قد توفيت بسبب الأنفلونزا • لقد تلقت خبر جرحه الشديد ولكنها لم تشهد عودته •

بدا شفايجرت منزعجاً لأن المشي على العكاكيز وحيداً كان مكروهاً لـديـه • الطعام الزهيد الذي يتناوله كان يعده في المطبخ بنفسه وحيداً • كان عاملا فيالسكك الحديدية ، زميل جيد مرح يحب مساعدة الآخرين • في قرارة نفسه كـان تواقاً الى بعض السعادة • افترسته الوحدة • بالرغم من صعوبة المشي بالنسبة اليه فقد جزأ كل عملية شراء الى أجزاء صغيرة • فبـدلا من أن يشتري نصف دزينة من الأزرار اشترى ثلاث مرات زرين • قبيل اغلاق المحل رجع من جديد : ان الابرة قدانكسرت• لقد تعلم المناورة ــ على حد قوله ــ بينما يجد صعوبة في خياطة الأزرار • خـاطت أجاتي له زرين بدون أن تبتسم • نظر بدهشة الى أصابعها البيضاء الناعمة كالبلور• لقد كانت زوجته السابقة طيبة ومرحة ولكن بدينة وصاخبة •

الهزائم الأخيرة ، ثورة أكتوبر في روسيا ، فرار القيصر الى هولندا ، تأسيس جمهورية فايمار ، الزحف الفرنسي ، الصراعات في برلين ومنطقة الرور ، كل هـذا كان مدعاة للتفكير والتساؤل والخصام في كل مكان وفي ألجسهايم • لم ينتبه أحد الى أن أجاتي شفايجرت قد تزوجت الفرانتس شفايجرت •

لم يعرف أحد ما اذا كان هذا الزواج قد أصبح سيئاً أم متوسطاً أم سعيداًجداً• فقد كان غاية في القصر ، أضف الى ذلك أن كل انسان كان آنذاك منشغلا بالآلام التي جرتها له الحرب والتي لا تحتمل تقريباً • بالرغم من كل الرعاية التي أحاطته بهـا أجاتي مات فرانتس شفايجرت متأثراً بجرحه الثخين •

أنجزت أعمالها بخفة كما فعلت في السابق · بهذا الخصوص بدا وكأن شيئاً لم يتغير سوى وجود طفل صغير : صبي هادىء نظيف · كلما بزغ شعاع شمس نصبت له أجاتي في الفناء سريراً صنعته بنفسها · أعطته للعب بقايا سحابات وأزرار ذهبية أو فضية اللون لم تعد بحاجة اليها · ما زال بعض الزبائن يخلط بين أجاتي وأمها السيدة دنهوفر · حسبوا أن الطفل حفيدها · كذلك كان يحدث أن يحسب شخص غريب أجاتي تلميذة ويحسب الطفل أخاها الأصغر ·

فكرت أجاتي تماماً كما علمتها أمها · لقد افترس التضخم القرش الذيوفرته لوقت الشدة وعادت أجاتي توفر من جديد · أخذت على عاتقها العديد من الأعمال اليدوية ، سيان بالنسبة اليها الحياكة أو الترقيع · ببطء شديد توفر لديها شيء من جديد · صارت بحاجة الى المال من أجل الابن الذي يجب أن يصبح شيئاً خاصاً لم تعرف بالتحديد ما هو ·

في بعض الأحيان كانت تصل اشاعة من الرور أو زاكسن ، من هامبورج أو مونشين · لم تكن لتعرف شيئاً عن الزمان ولا عن البلاد التي تقع ألجسهايم فيها · ذات يوم ، وبينما كانت تنظف نوافذ دكانها في الصباح الباكر قبل بدء العمل ، رأت رجال الشرطة يقتادون شاباً متوحش المظهر الى محطة القطار · كان يصرخ باتجاه الصباح بيدين مقيدتين وقد ساروا به في أطراف المدينة كي لا ينتج عن الحادثة ردود فعل · اهتزت أجاتي لهذا المنظر وبدا لها كالكابوس المزعج ، لم تحدث زبائنها عما رأت فهؤلاء لم يتحدثوا عن شيء ·

في نفس العام جلس ابنها إرنست على مقعد الدراسة بشعره المفروق الذي صقلته الفرشاة ، وبعينيه الصغيرتين الذكيتين · كادت أن تشعر بخيبة الأمل لشدة ما راق له التغيير · لم يعد يلعب في فناء بيتها المربع بل في فناءآت غريبة · تعلم بسرعة · الصديق الذي اختاره لنفسه في المدرسة كان مزعجاً بالنسبة اليها ·

اسم الصديقراينولد شانتس·ولد فظ · كان الولد الأصغر بين أولاد كثيرين· اشتغل والده مع شفايجرت في محطة القطارات · هذا كان يعني الكثير بالنسبة لارنست · أما بالنسبة للأم فقد بقيت أسرة شانتس غريبة ·· نعم ·· ومريبة ·

كذلك فقد كانت السيدة شانتس تبتاع منذ البداية من أحد الدكاكين الأخرى التي افتتحت في تلك الفترة في الجسهايم ·

ما أن يصفر راينولد حتى يفقد ارنست صوابه · يقفز بسرعة أو يتسلل عبر فناءات المنازل الغريبة وفي أوقات غير ملائمة · وعندما يعودان أخيراً يكون الظلام قد خيم لأنهما يكونان قد توغلا حتى الراين · هناك كان ما يجذبهما معاً لأن كل ما يستحق الذكر يبدأ فعلا عند الضفة · بعد عودته المتأخرة التي انتظرتها الأم بقلق أخذ ارنست يتحدث بسرعة عما شاهداه · بذلك اختفى الظل الذي شوش وجهها تماماً كما كان البريق على نفس الوجه يشوش الأب في السابق · باستماعها نسيت شفايجرت كل الخوف الذي تحملته · بدا لها أن الفتى يعيش أشياء تعادل الخوف والانتظار · في هذا الوقت القصير رأيا سفناً وأناساً لم يكن باستطاعة الشفايجرت أن تراها بنفسها في وقت من الأوقات · متى كان بامكانها أن تقطع الطريق الى الراين لساعات طويلة مشياً أو بالقطار ؟ لماذا ؟ برفقة من ؟ ثلاث رحلات مدرسية في طفولتها كلها تطايرت مع غبار تلك الأيام الصيفية الحارة · زوجها كان مشوه حرب وأمها كانت تقوم برحلات عمل فقط آخرها رحلة الجرذان المميتة · بينما كان إرنست يلتهم ما وضعته أمه أمامه بنهم ، تحدث الى أن اختفى من عينيها الحزن تماماً ·

بالرغم من كل المغامرات نجح إرنست في مهامه المدرسية ، أصبح تلميذاً ممتازاً · ذات يوم جاء معلم الصف الى السيدة شفايجرت وقال لها أن الفتى ملائم للدراسة في الجامعة وهو أمر لا يكلفها أكثر من ثمن الكتب والدفاتر ·

كانت الفرحة كبيرة ، فرغباتها المكتومة أصبحت قريبة التحقق ، وهي أكبر من أن تخشى بعض الأعباء والجهود ·

كانت التكاليف ، كما تبين فيما بعد ، غير بسيطة أبداً · لذلك أخذت على عاتقها تلبية طلبات جديدة كثيرة : خياطة عرى الأزرار ، الترقيع الفني · بالمقابل جلب لها إرنست درجات جيدة من المدرسة الجديدة أيضاً ·

كان مخيباً للأمل أن ارنست لم يتخل بأي شكل من الأشكال عن راينولد شانتس بالرغم من أن هذا لم يبق في المدرسة سوى ثماني سنوات دراسية · بل لقد أكثر من

زيارته لأنه ولد مرح بين أولاد كثيرين ولأن الأب كان يروي له الكثير من الحوادث النادرة التي حدثت لأبيه .

أما أسرة شانتس فلم تكن قادرة على النهوض بتكاليف تعليم ابنها الأصغر راينولد ولا سيما في زمن الأزمة . لذلك ارتحل أخيراً من ألجسهايم الى مدينةمجاورة للعمل في ورشة أحد الأقرباء .

ونظراً لأن جميع الزبائن قد خفضوا مشترياتهم بشكل مريع أخذت شفايجرت تكسب المال الضروري لشراء الأحذية والملابس والكتب الكثيرة من العمل الليلي بالدرجة الأولى . انتقل إرنست مسروراً وبسهولة كبيرة من صف الى آخر . قرأ لها غالباً بصوته الملح وما سمعته بدا لها يستحق كل العمل الليلي وان كانت تفهمه بشكل تام .

خلال الأحاديث التي كانت تدور حول طاولة الدكان التزمت أجاتي جانب الصمت ، فالآراء لا تفيدها بحال من الأحوال . تحدث الزبائن عن حريق الرايشستاغ هازين رؤوسهم في دهشة وأحياناً في شك . لكن أملا في التغيير ، بعمل ثابت وطعام وافر ، دب بعد وقت قصير في كثير من الأحاديث .

لم تكن أجاتي تكترثبهتلر من قريب أو بعيد تماماًكما كان موقفها من سابقيه القيصر فلهلم أو الرئيس إيبرت . لكن بين الحين والآخر كانت تصدر عن ابنها إرنست ملاحظة حادة قد يكون مصدرها شانتس الوالد عن طريق راينولد الذي بقي يقابله من فترة لأخرى كما تبين فيما بعد . ورغم كرهها لراينولد فقد كانت تنصت لرأي الوالد بشكل لا شعوري . كيف لا وهو الرجل الوحيد الذي تفترض أنه كان ذات يوم مقرباً من زوجها. غير انها لم تتمالك نفسها ــ تماماً كما لم تتمكن كطفلة ــ من ان تخاطبه وتلقي عليه بعض الأسئلة .

دب في دكانها انتعاش ملموس . راعها ما كرره إرنست على مسامعها من أنهذا كله سيذهب سدى وسيرى المرء ما سيأتي بعده . أحزنها أنها لم تتبع نصائح أمها الى أقصى حد . اذن لكان عليها أن تحتفظ بصندوق مليء بالعرى والسحابات والأزرار والخيوط .. وهي الأشياء التي بدت جزءاً منها باعتباره غير قابل للاستعمال . كم من النسيج الأبيض وحتى الأربطة البيضاء أصبحت بين عشية وأخرى مطلوبة ؟! في

المدارس قامت المعلمات بقص الشريط الأصفر من الرايات واستبداله بأبيض · ما كان يهمها من وراء تلبية هذه الطلبات الملحة المطروحة بانفعال والمتعلقة بقطع قماش مختلفة ذات ألوان ونماذج محددة ، هو أن توفر من جديد بعض النقود · في هذه الأثناء كان إرنست قد حصل على شهادة الأبيتور(٢) · صار بامكانه أن يدرس في جامعة فرانكفورت ماين الأدب الألماني والتاريخ ليتخرج مدرساً · كانت سعيدة جداً بهذه الرؤية ومكتئبة جداً بسبب الفراق ·

الرسائل التي جاءت في البداية بشكل منتظم جعلتها تقف منتصبة خلف طاولة الدكان ، وكذلك الاعتزاز المعين لأن الدراسة كانت ممكنة له بفضل عنايتها الشديدة بمخزنها الصغير · في المساء كانت تقرأ أمام نفسها رسائله فتبعث في رأسها الأماكن والناس الذين يصفهم ·

في زيارته الثالثة أو الرابعة لم يبد لها مسروراً كما كان في السابق · بدا على وجهه الغضب ثم شحب لونه من شدة الغضب عندما تبين له بوضوح ما تبيعه أمه في دكانها ·· كل تلك الأشياء التي طبعت أو طرزت عليها صلبان معقوفة كبيرةوصغيرة أو ناعمة · شتم بشدة · قالت برعب : اذا لم أبع شيئاً فكيف ستستطيع أن تواصل الحياة ؟ « عندما ودعها بعد اقامة قصيرة ومؤلمة استسلمت لرغبتها ومرت بيديها على شعره الكثيف الجميل · رمقها بدهشة وحزن · عاد فمه بعدها غاضباً من جديد ·

أصبحت رسائله بعد ذلك نادرة ومختصرة ··· قارسة كالصقيع ·

ذات مساء سمعت في وقت متأخر قفزة خفيفة الى حديقتها · ضغط أحدهم مسكة باب الفناء الى الأسفل · قفزت مبتهجة لأنها ظنت أن القادم لا يمكن أن يكون غير إرنست · لكنه كان راينولد شانتس · بدا لها فظاً أكثر من ذي قبل · قال : « هذه رسالة من ابنك · الرجاء أن تنفذي ما فيها · »

كتب إرنست شفايجرت : « والدتي العزيزة ، أعطي صديقي راينولد نقود الفصل الدراسي التالي ! آمل أن تكون في حوزتك · أعطي أيضاً معطفي الشتوي وقميصّي القديمين وان كانا لم يرتيا بعد · أشكرك كثيراً يا والدتي الحبيبة · ابنك إرنست · »

---

(٢) تعادل الشهادة الثانوية ·

قالت السيدة شفايجرت : « لكن لماذا ؟ » قال راينولد شانتس : « انه في خطر ويجب أن يرحل سريعاً . »

تذكرت السيدة شفايجرت الرجل الذي رأته ذات صباح مكبل اليدين وسط اثنين من رجال الشرطة . النقود كانت موجودة ، نعم ، لقد كان هذا هو الأسبوع الذي اعتادت أن ترسلها خلاله ، وأضافت اليها ما كان متوفراً في صندوق اليوم . دست بعض الجوارب في جيوب المعطف وصنعت بأصابعها المتمرنة بسرعة كبيرة حزمة ثياب . سألت : « كيف في خطر ؟ » وأجاب راينولد شانتس : « لقد وزعوا شيئاً ضد هتلر ــ بضع طلاب . (جرب أن يرتدي المعطف لكنه كان ضيقاً وقصيراً جداً ، لذلك حمله على ذراعه وأخذ النقود وتأبط الصرة . وقال أيضاً : « إذا سأل أحد ــ أنا لم أكن هنا أبداً . » ثم ابتعد مسرعاً .

أطفأت شفايجرت الضوء . جلست في الظلمة وأنصتت كما لو كان بوسع الليل أن يوضح لها أكثر من راينولد شانتس .

في صباح اليوم التالي ساعدها أمام أعين المشترين أنها لاتتكلم الا القليل وتبدو شاحبة ومريضة منذ القدم . لم يلاحظ أحد شيئاً من أرق تلك الليلة و الليلتين التاليتين . هدأ روعها عندما وجدت قصاصة تحت باب الدار : « كل شيء سار بشكل جيد . لقد أصبح بعيداً . »

في نفس الأسبوع حضر اثنان من رجال الشرطة وسألوها عن مكان ابنها . رمقتهم بحزن وبعينين متعبتين رماديتين وأجابت : « في فرانكفورت حيث يدرس . » وأخيراً ، وبعد استجواب دقيق واستفزازات مختلفة ، تركوا المرأة وشأنها . لقد بدت لهم غبية جداً .

اعتنت بدكانها كما فعلت في السابق ، لكن الآن أصبح الانتظار يفترسها ، أصبح الزمن بالنسبة اليها كالأدراج التي عليها أن تفتحها وتغلقها باستمرار . لم تكن لتخشى البذلات ، لا الرمادية منها ولا السوداء ، منذ صغرها وهي تشتغل بتلك الأشياء الصغيرة جداً والتي لاغنى لأحد عنها . واذا دخل دكانها أحد المتبجحين ،الأمر الذي كان يحدث كثيراً ، فسيطلب غرضاً صغيراً كهذا .

كتب اليها إرنست أخيراً من باريس . قال أن المدينة رائعة وأن بوسعه الآن

فهم اللغة بشكل جيد وأن لديه أصدقاء قدامى وجدد • فكرت : عليـه أن يتعلم الآن شيئاً آخر ، ولكنه ما زال حياً • لم يمسكوا به • جلست مساء في الغرفـة المطلة على الفناء • قرأت ما كتبه إرنست في هذه الفترة وفكرت حول ما قاله لها أثناء زيارتـه الأخيرة • مثل أمام عينيها شعره الجميل وفمه الغاضب • وسمعت في صوته اللهجـة المزدرية عندما شتم « الخردة » التي عليها أن تبيعها • اليوم أكثر من السابق •

أصبحت الجسهايم تفيض الآن بالجنود بعد أن عسكرت قوة الدفـاع في سهـل الراين • ماهزها بشكل رهيب هو عودة احدى الرسائل وعليها ملاحظة مطبـوعـة : « المرسل اليه غير معروف » • في الليالي التالية شعثت سريرها أو كانت لا تستلقي أبداً من أجل أن تنام • لكن انتظارها كان كله دون جدوى • لم يعد ثمة مبعوث يدس لها خبراً عبر شق الباب • أخرجت رسائل الابن مرات ومرات ، لم تكن كثيرة • جاء في احدى الرسائل أنه قد يمضي وقت طويل لا تسمع فيه عنه شيئاً • لكن بعد هـذه الرسالة وصلت رسالة أخرى • لم يبق أمامها شيء غير أن تنتظر في زمان موحش •

بينما كانت في احدى الليالي تتفحص رسائله الواحدة بعد الأخرى لفت انتباهها خاتم « تولوز » على أحد الطوابع البريدية • لقد انتبهت الى ذلك الآن فوراً لأنه لم يعد يفوتها شيء داخل رسائله أو عليها • أصبحت الآن تفكر حول ذلك • فوق طرف الرسالة كان مطبوعاً « جرابي داور » • ان لم يكن إرنست في مكانه الأول فربما يكون في هذه المدينة ، ربما في « جرابي دور » • من المؤكد أنه كان هناك ، ومن على طاولة هناك كتب الى الجسهايم ، لابد وأن يعرفه أحد هناك •

طفا على وجهها بعض الاحمرار من شدة التفكير ولمعت عيناها • في نفسها بدأ قرار يتبلور • لم ينتبه أحد الى أنها أصبحت تتكلم أكثر من ذي قبل وأنها أصبحت تهتم بما يدور في الدكان من أحاديث •

منذ وقت طويل نالت اعجابها بين الزبائن آنسة مسنة كانت قد درست ابنها في الصف الأول وامتدحته وهي تبتاع • عندما جاءت هذه الآنسة ذات مرة لهثة لتبتاع قبيل وقت اغلاق المتاجر • تشجعت الشفايجرت وجربت نفسها في الدردشة حول هذا وذاك مخفية اصرارها بالبحث والترتيب • كوفئت جرأتها بسرعة • فعندما استجمعت

قواها وطرحت سؤالا حول ذلك المعرض العالمي المقام في باريس والذي سمعت الكثيرين يتحدثون عنه ، عرفت المعلمة تماماً . فلأخيها صديق ، معلم أيضاً ،سيسافر الى هناك . كل شيء من سفر واقامة باسعار متهاودة وكل شيء معد كذلك فان السلطات المحلية سمحت بالسفر الى ذلك المعرض . نظراً لأن الآنسة اعتبرت فيه صديق أخيها جديرة بالاهتمام فقد أحضرت كراسات ملونة وشرحتها باسهاب كما يليق بمعلمة . أصغت الشفايجرت باهتمام شديد وكانت أسئلتها دقيقة جداً لدرجة أن المعلمة لاحظت مبتسمة : « سيدة دنهوفر » . لم يكن بوسعها أبداً أن تعتاد على اسم شفايجرت . « يبدو لي أنك أصبحت دفعة واحدة تحبين الرحلات . » « ممكن » . أجابتها أجاتي مبتسمة أيضاً بفمها الشاحب .

اتخذت استعدادات مختلفة وأجرت استقصاءات مختلفة في الوقت ذاته ، أعدت محفظة يد صغيرة وسحبت كل مدخراتها .

عندما انصرمت احدى ليالي الصيف المعتدلة في الجسهايم وأصبحت النجوم شبه باهتة وبعض الشوارع بلا لون في غسق الصباح وعلى زجاج النوافذ في أقصى أطراف المدينة لمعت الشمس التي أشرقت فوق سهل الراين . . أقفلت محل الخردوات . حملت المفاتيح الى بيت المعلمة المسنة وتركتها أمانة عندها . لقد كان باعثاً للارتياح أن صديق الأخ سافر أيضاً الى فرانكفورت ماين أولاً بحيث صار ممكناً أن يذهبا معاً الى القنصل الفرنسي .

في قرارة نفسها كانت خائفة ألا تستصدر السلطات لها جواز سفر . لكن سنتان على وجه التقريب انقضتا بعد سفر الابن هرباً . لم يعرفها الموظف الجديد على الاطلاق ، بل اكتفى بالنظر الى نشرة الاستعلامات الجديدة المملوءة بشكل أملس ونظيف .

لا السفر من فوق جسر الراين ولا الطريق المتعرج من محطة فرانكفورت الى القنصلية والعودة ، ولا السفر ليلاً الى فرنسا والتفتيش الذي تعرضت له على جانبي الحدود كان مثيراً لعجبها بشكل خاص ولا لتأثرها . كانت في البيت قد حسبت حساب كافة الحوادث الممكنة خلال السفر ، أما الآن فكان رأسها متعباً جداً وغير قادر على التفكير أو مستعد للتأثر . أصبحت متأكدة من هدفها . في إحدى

حجرات القطار المكتظة جلست فتاة صغيرة بين أناس كبار الأجسام شديدي الحيوية· ما أن ابتدأ النهار في فرنسا حتى قام طفل جميل أسود العينين لم يقدر على الجلوس هادئاً بتمزيق ثوبه إزعاجاً لأمه · أخذت الشفايچرت أدوات الخياطة ورتت الفتق · هدأ الطفل أخيراً لفرط دهشته ·

لم يكن بوسعها أن تتبادل مع هؤلاء الغرباء كلمة واحدة ، غير إنهم أصبحوا سنداً لها عندما وصلوا الى محطة القطارات الشرقية بباريس · نوت الشفايچرت أن تسافر أولاً الى البيت الذي سكن فيه إبنها · رافقتها المرأة الغريبة الى الباص حيث ناولتها الحقيبة اليدوية مرددة مرة أخرى كلمة « مرسي » ·

وجدت الفندق الصغير على ضفة الراين · كانت صاحبة الفندق غير لطيفة معها في أول الامر وتأملت هذه الغريبة الناحلة بانزعاج · لقد كانت بائسة في ثيابها ومنظرها وكلماتها · لكن ما أن كتبت أچاتي اسم عائلتها حتى تذكرت صاحبة الفندق الابن وصاحت : « آه ــ إرنست · » مبدية دهشة صادقة من أن هذا الكائن البائس قد أنجب ولداً مرحاً جميلاً · لقد أحزنها شخصياً أنه سافر بعيداً · لماذا وإلى أين · لا تعرف أيضاً · نودي لمستأجر يفهم اللغة الالمانية · تشاور الثلاثة معاً ، أرتهم أچاتي الظرف البريدي من تولوز ثم سجلوا بناء على رغبتها إتصالاً هاتفياً مع فندق « جراب دور »

بانتظار المكالمة قضمت شيئاً من زوادة السفر · بعد قليل لم يعد أحد لينتبه اليها · داعبت هرة صاحبة الفندق · أخذ قلبها يخفق بقوة كما لو كان شيء خاص بانتظارها · عندما رن التلفون قفزت بحدة لدرجة أن الهرة سقطت من ركبتيها ووقف شعرها من الغضب · من سماعة التلفون رن صوت الرجل الذي يتكلم من تولوز · ربما كان صاحب « جراب دور » · نادت الشفايجرت إسم إبنها مرات عديدة تخللتها صيحة « سامير أمـه » · ودفعة واحدة خيل إليها أن الصاحب قد فهم شيئاً ، سمعت على التلفون خليطاً من الاصوات كما لو كان يسأل شخصاً في إحدى الغرف ويتلقى الاجابة ثم يجري تشاور بين الصاحب وبين الشخص الذي في الغرفة · على أثر ذلك ظهر على التلفون صوت آخر يتكلم الألمانية بشكل ما : « إنه لم يعد هنا · ليس بوسعي أن أقول لك أكثر من ذلك · ستأتين إلى هنا ؟ متى ؟ غداً ؟

تنهدت الشڤايچرت • عرفت مسبقاً أنه لا بد من السفر الى تولوز • ومادام الأمر كذلك فليكن فوراً • في الچسهايم كات تحاول مراراً وتكراراً أن تتصور شيئاً عن المدينة التي أعجب بها إبنها بشكل جيد جداً ، غير إنها لم تفلح في ذلك • أما الآن فقد رأت وسط محطات القطر في باريس كل تلك الصور التي وصفها في رسائله مختلطة ببعضها • لم تعد الآن بحاجة لأن تتصور شيئاً ولم تكن بحاجة لأن تطبع في ذهنها أي شيء • إنها لا تريد أن تضيع أية ثانية حتى على الأفكار • سألت أن وصلت شباك التذاكر • لم تجرؤ على إحتساء قهوة ساخنة وفي القطار لم تجرؤ على أن تنام•

في تولوز كان الصباح مضيئاً بشكل واخز • كانت الشڤايچرت تتلمس طريقها على طول الجدار الأبيض وقد أعماها الارهاق • جلست بعض الوقت فوق حقيبتها • لحسن الحظ كان الزقاق الذي يقع فيه « الچراب دور » شبه معتم وحتى بارداً • فوق الباب وفوق إطار النافذة كانت الحروف التي عرفتها من ورق الرسائل وإن كانت غير واضحة من أثر الحت • تأملها صاحب الفندق بتعجب وعطف ولكن ببعض الاستهزاء أيضاً • كان رجلاً متين البنية عريضاً ذا شاربين وكانت المرآة الغريبة بائسة لكنها كانت أم الشاب الذي كان ضيفه قبل قليل • أمر بأن ينادي للرجل الذي أجابها البارحة على التلفون باللغة الألمانية •

ظهر فوراً وهو يلهث من شدة السرعة • كان فتياً • ربما في سن إرنست ، نحيلا وطويلا ، جيد المنظر • اقترب من الشڤايچرت لكي يتكلم معها وهو ينظر في عينيها • أخذ يدها وملس على ذراعها مهدئاً ، ثم استمع أولاً لما تحدثه عن سفرتها• « إرنست شڤايچرت كان هنا » قال هــو « لكنه لم يعد هنا • ربما فقدت رسالته الاخيرة • ذهب إلى اسبانيا » • حملقت السيدة شفايجرت به وما أن سألت « كيف ؟ لماذا ؟ » حتى أدرك أن هذه المرأة لا تستطيع أن تستفيد من إيضاحه أي شيء • مهما أجهد نفسه ليشرح لها شيئاً عن الأسباب التي دعته هو وأصدقاءه ومن بينهم إرنست شفايچرت لأن يناضلوا في سبيل الجمهورية الأسبانية في فرق أممية ، مهما بحث عن الكلمات ليوضح لها أي شيء حول ذلك ، كان يرى على وجه الشفايچرت الباهت جهداً معذباً لتفهم كلمة واحدة • كانت تسأله في كل مرة : « كيف ؟ لماذا ؟ أخيراً لم تعد لتسأله حتى بصوتها المريض المبحوح بل بالشفاه فقط ، ضغطت فمها

وأصبحت عيناها اللتان كانتا على مقربة منه فاتحتين جـداً ، بيضاوين تقريباً • أصبحت حدقتاهما صغيريتين جداً كما لو كانتا تنظران إلى نور • سحبت ذراعها من تحت يده ثم وقفت وقالت : « إذن سأسافر الى هناك » • سألها عما ستفعله هناك • الآن كانت هي التي شرحت له بهدوء وصبر أنها تريد مشاهدة إبنها • وعندما زعم أن هــذا غير ممكن أجابت : بلى ، ستسافر بكل تأكيد الى اسـبانيا وإلا فالى أين تسافر ؟ تكلمت بلهجة مصممة وسألها أخيراً بطريقة أقسى عما تنوي أن تفعله هناك لكي لا تقع عبئاً على الجمهورية الاسبانية • التسكع ، زيادة في الافواه الجائعة ، والانتظار ، الانتظار • جاء هذا مناسباً تماماً • أجابت بنفس القسوة أنها لم تكن في يوم من الأيام عبئاً على أحد ، أنها تعرف كيف تقوم بكافة الأعمال تقريباً ، أنها عاشت أيضاً أوقات الحرب ـ وفي منطقة الراين يعرف الناس شيئاً كهذا ـ ، أنها معتادة على الغسل والتنظيف والرتي والخياطة والتمريض • لكن عليه أن يساعدها على تدبير هذه السفرة •

في هذه الأثناء كان صاحب المطعم قد أعد المائدة وجلب خبزاً وخمراً • ولئن كان لم يفهم اللغة فانه أصغى الى المشادة فتصور أن حساءه لا يُضر في وقت كهذا • أكلوا وشربوا وقام الرجلان برعاية الشفايجرت كما لم يرعها أحد من قبـل • لقد إجتمع في هذا البيت خوف كبير وعزاء كبير •

بدا لها الصباح التالي غير ساطع أو حار كما كانت الحال في السابق • كذلك حضر في الوقت المحدد كما هو مرسوم الانسان الطويل النحيف الذي عرف عن إرنست الكثير • قادها عبر المدينة مروراً بساحة واسعة كنستها أشعة الشمس الى زقاق ضيق مظلم يشبه زقاق « جراب دور » • قال أن هــذا هو البيت الذي تبحث قضيتها فيــه • في الغرف الضيقة التي تبين لها أنها دوائر حكوميــة ملأى بالرفوف والطاولات كان هنالك بعض الرجال والنساء يكتبون أو ينبشون وينادون بعضهم بكلمات ولغات مختلفة • تكلمت سيدة مــع مرافق الشفايجرت بالألمانيــة طويلاً وبصوت غير مسموع • كان مظهر المرأة التي تلبس النظارات صارماً لذلك تذكرت الشفايجرت المعلمة التي تركت عندها مفاتيح الدكان في ألجسهايم كمــا يتذكر المـرء في الحلم شخصاً • كانت رزمة المفاتيح كبـيرة ومهمة تماماً كالوجه ذي النظارات •

وفجأة استدارت المرأة نحوها ، سألتها بحزم عما تريده وما تستطيع أن تفعله. أجابتها الشفايجرت بوضوح وتصميم وحتى ببعض الفخر . لم تكن المرأة ذات النظارات فظة ولكنها كانت يقظة وشديدة الانتباه . وأخيراً أعطتها إستمارة إستعلامات كتلك التي تعطى في كافة الدوائر الحكومية .

في الايام التالية اعتادت الشفايجرت على أن تجلس في أحد المقاهي تحت الاقواس في الظل وتراقب الساحة الكبيرة . تعجب صاحب مطعم جراب دور عندما حاسبته تماماً قبل الرحيل بشكل مبكر وبدون مماطلة دق كأسه بكأسها وتأملها مرة أخرى عاطفاً متعجباً كما فعل عند قدومها ، ولكن في هذه المرة بلا تهكم . وثقت منه فأودعته ما تبقى معها من نقود .

على مقربة من الحدود الاسبانية تعرفت من جديد على ثلاثة أو أربعة أناس من الذين سافروا معها في نفس القطار . في النفق الطويل تحت الارض الذي يؤدي الى أسبانيا كان قلبها منقبضاً . كان مرافقوها حديثي السن مثل ابنها ومثل الانسان الطويل النحيف في تولوز ، لكن كان بينهم رجل أبيض الشعر في مثل سنها ، وفتاة صغيرة ناضرة . اعتنوا بها كما لو كان فيما بينهم إتفاق على ذلك ، حملوا محفظتها اليدوية بالتبادل على الرغم من أنهم كانوا جميعاً مثقلين بأحمالهم . ما زالت الشفايجرت متعجبة من أن هؤلاء الناس الغرباء قد ارتبطوا ببعضهم باستمرار من خلال الاشارات والكلمات . انفتحت هي أيضاً على هؤلاء الناس كما لو كانت قد عاشت معهم منذ أمد بعيد وإن كانت في الواقع لم تعش في يوم من الايام مع أناس كهؤلاء ، الذين عبروا معها النفق المظلم الى الجانب الاسباني .

نظرت بدهشة وبدون خوف الى الجندي القاسي القسمات الذي فحص أوراقها تحت الراية ذات الالوان : الاحمر الذهبي والبنفسجي . بين حاجبيه كان ثمة ندبة ، ونظر بدوره الى وجه الشفايجرت حيث توجد بين الحاجبين ندبة أيضاً . لم تكن مرتبكة في ذلك الحين بل مقتنعة بثبات من أن بوسعها أن تصل الى هدفها اذا أصرت على ذلك بجرأة . وصلت أخيراً الى برشلونة بعد أن مرت على نقاط تفتيش كثيرة .

في القسم الالماني من الفرق العالمية تعرفت الى مكان اللواء الذي انتمى ابنها إليه . كتبت اليه : « أنا هنا الآن » .

كان المرء يبحث عن عمل يمكن أن يوكل لهذه المرأة عندما وصل من اللواء خبر مفاده أن الابن يرقد في أحد المستوصفات بسبب طلقة أصابته بشكل سطحي • أعطيت بالاضافة الى وصل المرور رسالة جاء فيها أن بالامكان تشغيلها بعد وصولها في نفس المكان والمركز •

في القطار وبعدها في الشاحنة لم تكن لتظن مرة أن السفرة ستستمر بل كان لديها دائماً شعور بأنها ستصل قريباً • كان كل توقف معذباً بالنسبة إليها • لكنها كانت في بعض الليالي تستلقي في الخلاء وتنظر الى السماء الملأى بالنجوم • بذلك كانت تنسى الانتظار هنا في الاسفل • لم تر في يوم من الأيام نجوماً كثيرة براقة كهذه • مرة واحدة فقط ، عندما غادرت ألجسهايم بشكل نهائي ، رأت في آخر الليل بعض النجوم القليلة الباهتة البائسة • هنا توجد هذه الزينة في كل ليلة • وبعد ذلك خلال السفر : الجبال البنفسجية ! وقرى في شقوق الصخر ! وسهل مغتبط كما لو كان لن يعرف غير الشمس ! وجبال طرية مغطاة بالغابات تطل على البحر ! ـ كل ذلك أتى عندما أقفل المرء خلفه دكانه • غالباً ما أبرزت ورقة المرور فرحة جداً كلما طلب منها ذلك ، وتشعر في كل مرة بفرح وإرتياح • في سيارة الشحن أو في حجرة القطار المكتظة كان يوجد مكان صغير وهي لم تكن بحاجة الى أكثر منه • في كل مكان كان الجنود والفلاحون وحتى الاطفال متأثرون جداً • في بعض الاحيان بقيت نظرة عالقة بها ، نظرة حزينة جداً ،أولف أحدهم ذراعه حول كتفيها وصاح في أذنها كما لو كانت صماء كلمة « تيرويل » • في الأحاديث رنت كلمة « تيرويل » « تيرويل » بشكل متكرر • لم تعرف ما اذا كان إنساناً أو مكاناً • وفي كل مرة كانت تبرز ورقة المرور باعتزاز ووجه حازم القسمات •

كان المستشفى في السابق قصراً والحديقة حديقة القصر • نظرت بانقباض الى هنا وهناك • تمرن بعض الجنود على المشي بمساعدة العكاكيز بأسنان مشدودة أو ضاحكة • اضطجع آخرون في الظل وعلى أجسامهم ضمادات ثخينة • كل ما عرفته عن إبنها : طلقة سطحية ، غير شديدة ، ماذا يعني هذا ؟ لقد كان لديها تجاربها الخاصة مع الجروح التي لا تشفى • الآن وقد بلغت هدفها أخذ قلبها يحذرها بضربات شديدة • صعدت الدرج الكبير الابيض حاملة محفظة اليد •

عندما فهموا في مكتب الادارة من هي أعطيت رسالة · رأت خط إبنها · لثوان شعرت بارتياح شديد لأن تشهد أمام عينيها السعادة التي افتقدتها طويلا وإن كانت خيبة الامل ستقع قريباً · « كم كنت مسروراً ياأمي ! لطالما انتظرتك ! لكن لم يسمح لي أن أبقى فترة أطول · سأجيء إليك حالما أتمكن من ذلك · وبالتأكيد قريباً جداً · ما أحسن أنك لم تظلي بعيدة ، فلا أحد منا تمتع قبلي بمثل هذا الحظ · هل ستبقين هنا ؟ إنهم بحاجة الى كل الايدي · وأنت ، ياأمي ، تقدرين على كل شيء » ·

بالرغم من همومها فقد كانت فخورة بالرداء الأبيض الذي أخذت منذ الآن ترتديه كالممرضات مع أن مهمتها كانت تقتصر على تدبير الغسيل الذي كان في الفترة الاولى متوفراً جداً · بعد ذلك أصبح عليها لا أن تُحَسِّنَ القطع المستعملة فقط وإنما أن تحضر باستمرار أغطية للأسرة من بقايا القطع الصالحة لذلك ·

جلب من اللواء الألماني جرحى كثيرون · أخذت الشفايجرت تشتغل في صالات المرضى لتستمع الى أحاديثهم وتعرف أبناء أية أمهات كانوا · وفتشت الآن على الخريطة عن موقع إبنها · بعد وصولها بقليل سألتها ممرضة إسبانية اسمها لويزا ، على قدر ما استطاعت ، ما اذا كان إرنست شفايجرت إبنها بالفعل · فكرت أجاتي ، كل قطر يضيف مقطعاً الى اسمه · في فرنسا كان اسمه إرنست وفي اسبانيا يدعونه إرنيستو · كانت هذه الفتاة ناعمة ، بشرتها بيضاء جداً بشكل لا يُفهم ، وشعرها أسود اللون كريش السنونو · تأملت السيدة شفايجرت الصور التي كان يرى فيها إرنست مع لويزا · كانت ذراعه مضمدة ، لكنه بدا مسروراً ومطمئناً كما لم يكن في البيت في يوم من الأيام ·

كلما تلقت لويزا رسالة أسرعت بها إلى الشفايجرت ، وأسرعت الشفايجرت الى لويزا كلما تلقت هي رسالة ·

ذات يوم بدا لها أن الناس يترددون عندما يبصرونها ، نعم ، إنهم يجتنبون نظراتها · شيء ما دفعها لأن تبحث عن لويزا · استلقت هذه فوق سريرها وبكت · لامست الشفايجرت شعرها فقفزت وألقت بنفسها على عنقها وبكت بصوت مرتفع · أخذت تؤرجح صدر الشفايجرت الذي طوقته بقوة ولكن الشفايجرت بقيت متصلبة

كما لو كانت لويزا تؤرجح قطعة من خشب . لقد فهمت أجاتي تماماً أن إرنست قد سقط قتيلا .

بجبين مقطب شعرت فيما بعد كـم من الناس لامسـوها مواسين . همسوا بجوارها بكلمات جميلة . في داخلها وفي وجهها تقلص كل شيء . لم يدرِ أحـد إن كانت قد بكت ليلاً .

أعقبت مصيبتها الخاصة مباشرة ضربات المصيبة ضد الناس في الجمهورية الاسبانية . تم تمزيق الجيش الجمهوري الى قسمين .

استلقى الجرحى فوق كل بقعة فارغة من أرض المستشفى . اقتربت الحرب بحيث صار المرء يسمع صوتها خلف الجبال .سيتحتم على المرء أن يرحل قريباً .

كانت أجاتي شفايجرت كما لو أن لديها مناعة ضد الهلع والخوف . لم تكن بحاجة للنوم . يداها استطاعتا دائماً أن تقوما بكل شيء : تضميد الجنود ، غسل الاوعية التي علق عليها الدم ، رتي أغطية الأسرة والغسيل .

بينما كانت تتجول بدون أن تحدث صوتاً ولكن بأصابع نشيطة باستمرار ، نودي فجأة من أحد الأسرّة : « سيدة شفايجرت » !. لم تكن بحاجة حتى لأن تنحني فوق الرجل لقصرها . في الوجه الشاحب المتكبر الملفوف بضماد أبيض تعرفت على راينولد شانتس . لم يكن مندهشاً من آن يراها هنا فجأة . ربما لأنه كانت تظهر أمامه صور غير معقولة وهو معذب من حمى الجرح ، وربما بكل بساطة لأن إرنست شفايجرت قد حدّثه بنفسه عن مقدم الأم . سحبها الى حافة السرير وقص عليها بلا مداراة ولكن بشـكل مزيل للغموض ومريح بالتالي ، أن إرنست شفايجرت سقط أمام عينيه . « لم يتألم ياسيدة شفايجرت . لقد مات ميتة حسنة » .

اشتغلت أصابعها باصلاح قميصه وبطانيته . ونظراً لأن راينولد شانتس كان قابلاً للنقل ، فقد اغتنم المرء المناسبة التالية لتسفيره مع عدد من زملائه . في صباح اليوم التالي استلقى غريب في سريره .

سافرت لويزا مع إحدى الدفعات التالية . القت بنفسها على عنق الشفايجرت وانتحبت بصوت مرتفع . في هذه الأثناء أحست المرأة مرة أخرى بدلاً من الحزن

القاتم الدائـم بوخزة لن تطاق لو استمرت أكثر من ثانية واحدة · لـم تتلق التعليمات من أحـد ولادهش أحد من أن الشفايجرت ساعدت حتى النهاية ، وقد ساعدت أيضاً على تضميد آخر الجرحى وحملهم الى السيارات · وسط تيار اللاجئين الذي جرى فـوق جبال البيرينيه مطارداً على الارض ومن الجو حتى أقصى حدود التراب الوطني ، كانت الشفايجرت تسير بمفردها حاملة محفظتها الصغيرة الخفيفة حملتها الآن على ظهرها كما يحمل الجراب · كان هنالك أناس كثيرون بمفردهم على هذا الطريق · لقد فقد هؤلاء الاتصال عند الانطلاق أو أضاعوا ذويهم أثناء هجوم جوي على الدرب · أمهات فقدن أبناءهن ، أطفال يبحثون عن أهلهم ، عرائس فقدن أصدقاءهن · أجاتي شفايجرت لم تبحث عن أحد ، فهي لم تفقد أحـداً · تبنت على الطريق فتى صغيراً جرحت رجله ، ضمدته · كان واحداً من عدة أبناء لم تنجح الأم والجد في الحفاظ عليهم مجتمعين عندما اضطروا للهرب · صنعت الشفايجرت من رباط رأسها حمالة ، حمل بواسطتها الصبيان الأكبران الصبي الأصغر لفترة من الوقت بالتبادل · بعد قليل لم يعد بوسع الأم — كان اسمها ماريا جوانزاليس — والجد ، وهو رجل مسنّ متجهم قوّي ، أن يستغنيا عن الشفايجرت أبداً · لم يعرف أحد ما اذا كان الأب ، وهو ضابط في الجيش الجمهوري ، قد وقع في الأسر أو سقط قتيلا · عندما نزل كل هؤلاء الناس الذين لايتصورون الحياة في ظل الفاشستية جبال البيرنيه نشأت على الحدود الفرنسية فوضى لا تتصـور · لكن السلطات تكاثفت بتعليمات من الحكومة وحبست كـل من تمكنت من القاء القبض عليه في معسكرات · أسرة جونزاليس المؤلفة من رجل مسنّ وامرأة والاطفال وأجاتي شفايجرت التي قطعت معهم الشوط الاكبر مـن الرحلة مقدمة مساعدتها باستمرار ، هذه العائلة وصلت الى مقربة من برنيان ·

عطفاً وإجلالاً لكل هـذا الالم الذي تحملوه بمحض ارادتهم قامت إحـدى العائلات الفلاحية بايواء أسرة الجونزاليس · أعطتهم شونة للمبيت وجلبت لهم ما كان متوفراً للأكل · كسبت الامرأتان مبيتهن · ففي الوقت الذي عاشوا جميعاً تحت رعاية هؤلاء الفلاحين الفرنسيين ، كانوا يقدمون لهـم المساعدة في أعمال الحصاد حتى بدأ فصل الخريف · اندلعت الحرب العالمية · في البداية وقف الجيش

الفرنسي على خط ماجينو أمام الجيش الالمـاني بلا حراك · ملأت رؤوس الناس فكرة ، أن هذا الذي حدث في أوائل الربيع وظهر في أسبانيا كأنه النهاية ، لم يكن سوى بداية أهوال وآلام فظيعة تعم الكرة الارضية بأكملها ·

في شونتها عانت من البرد : أنجزت المرأتان أعمالاً مختلفة من أجل تأمين بطانيات وملابس للأطفال · كانوا مسرورين كلما أتيحت لهم الفرصة للمساعدة في القشير والخياطة والترقيع في مطبخ بيت الفلاح الدافيء · لـم ينتبه أحـد للشفايجرت · كانت صامتة مثل ظلها ، لكن أصابعها كانت مرنة ونشيطة باستمرار ·

في هذه الأثناء تلقت السيدة جونزاليس خبراً من زوجها · كان موقوفاً في معسكر على الشاطيء لا يبعد سوى مسيرة نصف يوم · زارته بعد فترة وجيزة · وبدون أن تبدي الشفايجرت أي شيء استمتعت بفرحة اللقاء الجديد ·

ذات يوم نادتها الجونزاليس : « هذه رسالة لك أيضاً » · لم تبصر أجاتي هذا الخط في يوم من الأيام · في نفس المعسكر الذي احتجز فيه زوج الجونزاليس كان راينولد شانتس موقوفاً أيضاً · في أحد أيام الاعتقال الملأى بالسأم حيث كانت كل رسالة تعني شيئاً جديداً ، حدث جونزاليس شانتس عن المـرأة الغريبة التي تعيش مـع عائلته قرب بريجنان · عندما تأكد لراينولد شانتس بعد العديد من التحريات أن هذه المرأة لا يمكن أن تكون غير أم صديقه القتيل ، كتب اليها رسالة ·

إنني ياسيدة شفايجرت وحيد في العالم ، مثلك باستثناء الرفاق والاصدقاء · في الصيف كان الطقس هنا حاراً بشكل لاهب · الآن تعصف ريح باردة · الملاريا تنهكني من جديد · لا أدري إن كان باستطاعتك أن تدبري لي بعض أقراص الكينا · أرجو المعذرة حتى الآن كانت الشفايجرت تعيش بلا هدف · قرأت الرسالة مرات عديدة وفكرت · إذا كان صاحب مطعم « حي الباكرور » شريفاً فستكون نقودها على حالها · كتبت إليه · لاحظت السيدة جونزاليس بدهشة أن عصبية دبت في سلوك الشفايجرت · بعد فترة قصيرة وصلت رسالة من صاحب المطعم · أرسل اليها النقود ·

في صباح أحد أيام الشتاء وقفت أمام بوابة المعسكر مشعثة تعاني من البرد ، فقد أخذت قطار الليـل لتصل في الوقت المناسب · في حقيبة يدها وضعت علبة كينا وبعض الطعام الساخن لراينولد شانتس · نظرت الى الثكنات خلف الأسلاك الشائكة بشكل خاطف وقـد اعتراها الذهول · لحسن حظها أنهـا أخذت القطار الليلي · فنظراً لأنها لم تحصل على موافقة من أية سلطة ، احتاجت لبعض الوقت من أجل أن تتمكن من الدخول الى هنا · لم تسمح لها دورية الحراسة بالدخول الى المعسكر · لكن نظراً لأنها لم تفهم شيئاً مما يقوله الحارس وكانت تردد نفس الاسم باستمرار ، قام هذا باحضار رئيسه · تكرر مع هذا نفس الشيء فقادها الى الملازم· فكر الملازم في نفسه أن هذه المرأة البائسة لا يمكنها أن تجلب له أي أذى · بناء على أمره اقتيدت الى حجرة الزيارات الخالية وأحضر راينولد شانتس ·

بدا خشناً ومتوحشاً · على وجهه بدا إعتزاز كبير · على فمه ارتسمت لمحة استهزاء بكل ما يقف أمـام حياته الغضّة · ثـم استقرت نظراتـه القلقة على الشفايجرت · شكرها للأشياء التي أخرجتها من محفظة يدها · كان بوده أن يمد يده على رأسها ، لكنه لم يجد في نفسه الجرأة على ذلك تماماً ·

روى كل واحد للآخر كيف سارت حياته منذ أن التقيا في المستوصف · ظهر جندي ونادى : « انتهى ! » وقفت الشفايجرت بتردد ، انتظر الجندي أمام الباب ، رافقها راينولد بضع خطوات نحو الخارج · وسط أشعة الشمس الساطعة هبّت ريـح جليدية · حان الوداع · هنـا استدار مرة أخرى · انحنى وقال بسرعة : « سيسافر الجونزاليس قريباً ؛ الكثيرون سيسافرون قريبـاً · لكي لا يمسك بنا النازيون عندما تمتد الحرب الى هنا أيضاً » ·

نادى الجندي من جديد « انتهى ! » لكنه انتظر بعض الشيء · لقد أحزنته المرأة المسنة التي وقفت في مهب الريح الجليدية خفيفة وصغيرة تكاد أن تتطاير · كان عليها أن تنظر الى الأعلى ، الى الرجل مهما انحنى · تابع راينولد شانتس : « إن بعض دول أمريكا اللاتينية وعدتنا بحق اللجوء والعمل ، وسترسل إلينا تذاكر

سفينة · أصدقاء الجمهورية الاسبانية يؤازرون بعضهم · إننا نضع حالياً قائمة بمن يجب أن يسافر معنا · وأنت ياسيدة شفايجرت ، إنك والدة إرنست ، وعدا ذلك فعلت بنفسك الكثير · لذلك يجب أن تسافري معنــا · وإلا فالى أين تذهبين ؟ لا أظن أنك ستعودين إلى ألجسهايم ؟ »

ـ « كلا · كلا » قالت أجاتي شفايجرت ، « أريد أن أذهب معكم » ·

في مطلع ١٩٤١ قضيت الليل في كوخ فوق إحــدى جزر الأنتيل مع نساء إسبانيات كثيرات·كنا جميعاً ننتظر السفن لتنقلنا الى الأقطار التي وعدتنا باللجوء ·

غالباً ما كانت النساء الأسبانيات ينشدن · كانت أنفسهن تجيش بمشاعر الألم والفرح ، الاطمئنان والقلق · في وسطهن جلست إمرأة صغيرة نحيلة ، رمادي شــعرها وكذلك وجههــا · لقد بدت مختلفة عــن النساء الاســبانيات ، كانت صامتة باستمرار ·

ذات مرة بينما كان تخيط زراً لأحد الأطفال أفلتت منها بالألمانية : «إهدأ!» سألتها عن أصلها فأجابت : « من بلاد الراين . من ألجسهايم » ·

في تلك الأمسية جلسنا طويلاً معاً · بعد ذلك بفترة قصيرة سافرت · لا أعلم إن كانت لا تزال على قيد الحياة · هذا ما أعرفه عنها ·

أبو العلاء المعري .. و لوقيانوس السميساطي

الياس سعد غالي

كلنا يعلم أن العرب هم الذين وضعوا منذ القديم في النقد المقارن من المجلدات ما لا يحصى وخاصة في المقارنة أو الموازنة بين أبي تمّام والبحتري وفي تأثير الفكر الاغريقي على المتنبي (١) ٠ وما كان هذا ليضير المتنبي في شيء ولا يحط قدره قدر قلامة ، ولذلك لا نجد حرجاً في كتابة هذا المقال لنشير الى التقارب الكبير بين بعض آراء أبي العلاء وآراء لوقيانوس السميساطي الأديب الفراتـي ، لان ذلك لا يحط كرامة ولا قدر أبي العلاء أبداً حتى لو أريـد ذلك ، بل ليدل على أنـه من مستوى كبار مفكري العالم (قؤول لما قال الكرام) ٠

لقد جاء في دائرة المعارف الاسلامية أن الذي يقرأ للمعري يذكر لوسيان (لوقيانوس) (٢)٠ ولعل عباس محمود العقاد من أوائل الادباء العرب القلائل الذين أشاروا الى لوقيانوس ، فقال : ان رسالة الغفران نمط وحدها في آدابنا العربية وأسلوب شائق ونسق طريف في النقد والرواية وفكـرة لبقة لا نعلم أن أحـداً سبق المعـري اليهـا (اللهم اذا استثنينا محـاورات لوسيان في الأولمب والهاوية) (٣) ٠

١ ـ يوسف اليوسف : مجلة الآداب الأجنبية (دمشق) ع٣ ص ١٨٩ ٠

٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية (كتاب الشعب) ج ٨ ص ٥٥١

٣ ـ عباس محمود العقاد : رسالة الغفران طبعة الكيلاني ج ٣ ص ٤٤ ٠

وليس من الحق ـ في شيء ـ أن ننكر أن المعري كان على اتصال بالثقافة اليونانية (٤) ، فما جاء أبو العلاء الا بعد أن نُقل ما كان عند اليونان من أنواع الفلسفة والحكمة واصبح الناس يدرسونه في المدارس والمساجد والمنازل ويبينون خطا من تقدمهم من الفلاسفة (٥)• وبنت الشاطيء تقول : ان الفكر اليوناني قد تم تعريبه قبل مولد ابي العلاء بقرنين او أكثر (٦) •

ونحن لسنا الآن في معرض اثبات « يونانية » (٦) أبي العلاء المعري ولا نهدف البتة الى بيان معرفته لوقيانوس أو اطلاعه على كتاباته واحتمال تاثره به ، انما أردنا أن نبين التقارب الكبير المدهش بين بعض أفكار المعري وأفكار لوقيانوس في واحد أو اثنين فقط من مؤلفاته العديدة • حبذا لو وجدنا مثل هذا التقارب أو بعضه فيما بين أفكار دانتي وأفكار المعري ••!

ان غايتنا من هذا المقال فتح آفاق جديدة أو نافذة متواضعة يتسرب منها شيء من النور والعرفان أمام أعين من يرغب في ذلك فحسب •

لوقيانوس أديب فراتي حقاً كما أحب أن يسميه الصديق الاستاذ عبد القادر عياش رحمه الله (٧)• ولد لوقيانوس نحو عام ١٢٥ م في مدينة سميساط الواقعة على ضفة الفرات الغربية (في تركيا حاليا) • قال لوقيانوس عن نفسه أنه آشوري وقال أدونيس أنه سوري وهكذا جاء في دائرة المعارف الفرنسية أيضا • كانت الآرامية لغته الاصلية لكنه تعلم اللغة اليونانية وأتم دراستها على الأرجح في مقاطعة ايونيا (آسيا الصغرى) التي زخرت بالعلم والعلماء في زمنه • فكتاباته وتلميحاته واستشهاداته تدل على أنه وُجّه توجيهاً حسناً في دراسته للادباء المدرسيين ، ومن الثابت أيضا أنه كان يحفظ عن ظهر قلبه ملحمة هوميروس وأنه كان يعرف معرفة واسعة عميقة هسيود وتيوغنيس وبيندار وسيمونيد وشعراء المسرح ولا سيما اوريبيد وارستوفان وجمهرة الفلاسفة كافلاطون وأرسطو وابيقور وكريسيب ، والخطباء ولاسيما ديموستين •

لقد مارس لوقيانوس مهنة المحاماة في انطاكية مدة ثم عدل عنها وغادر انطاكية الى أثينا التي استهوته شهرتها وسحرته بمجتمعها الذكي الراقي وبالحياة الفكرية الرفيعة النشيطة فمكث فيها وهناك أنتج أفضل مؤلفاته • ويقال انه ذهب الى روما وربما الى غاليا ، ومن الثابت انه جاء الى مصر حيث شغل وظيفة رسمية في الادارة الامبراطورية وتوفي هناك نحو عام ١٩٢ م •

---

٤ ـ لويس عوض : على هامش الغفران ص ١٢٤ و ١٥ •
ـ صالح أبو اصبع : محلة الثقافة العربية (الليبية) ع ١٩٧٤/٥ ص ٤٤
٥ ـ محمد سليم الجندي : الجامع ج ١ ص ١٥٠
٦ ـ بنت الشاطيء : (الدكتورة عائشة عبد الرحمن) مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ٥٢
٦ ـ بنت الشاطيء : مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ٥١ •
٧ ـ تجد دراسة وافية لحياة لوقيانوس ومؤلفاته في مقدمة مسامرات الاموات واستفتاء ميت •
ـ عبد القادر عياش : دير الزور حاضرة وادي الفرات (الاهداء) •

للوقيانوس مؤلفات عديدة متنوعة الاسلوب والمواضيع لانه عالج جميع النواحي الفكرية التي كانت تتنازع العالم المثقف الراقي عصرئذ وانتقد اخلاق الناس وعاداتهم ومعتقداتهم كابي العلاء تماما وبروح تهكمية متشابهة ٠ من أهم مؤلفاته محاورات الآلهة ومسامرات (محاورات) الاموات واستفتاء ميت (٨) ٠

ومسامرات الاموات مؤلف طريف وفريد في نوعه حتى ذلك العهد ضمّنه فكرة بارعة وطريقة مبتكرة في نقد أخلاق المجتمع وعاداته ومعتقداته باسلوب شائق مليء بالتهكم والسخرية والجرأة ٠ لقد نظر لوقيانوس الى الناس في « الآخرون » اي عالم الابدية حيث لا ظواهر مموهة ولا اوهام مغررة خداعة تغشي على بصره فتفسد نظرياته وأحكامه ٠ لقد نظر الى حياة الناس مجردة من ذلك الطلاء الزائف الذي يطليها به المجتمع ، وتوصلا الى غايته جعل الاموات انفسهم يتكلمون فيمابينهم فينتقد بعضهم بعضا متخذاً الدار الآخرة مسرحاً لمحاكمة البشر العاديين والفلاسفة وانصاف الآلهة والآلهة انفسهم ٠

لقد اشتهر لوقيانوس بكتابه « مسامرات الاموات » (٩) لطرافة موضوعه من جهة ، ولانه يدل خير دلالة على اخلاق صاحبه وشخصيته واسلوبه ٠فبه وباستفتاء ميت ومحاورات الآلهة والصياد خصوصا وبما ضمن مؤلفاته جميعها من جرأة وتهكم وتهجم على عادات الناس السيئة وعلى ماكان شائعا في عصره من خرافات واباطيل سبق وفاق حتى فولتير والمعري ايضا في هذا المضمار ٠

وبمسامرات الاموات واستفتاء ميت سبق لوقيانوس دانتي والمعري ايضا باجيال عديدة في تخيل الدار الآخرة والذهاب اليها وفي استنطاق الموتى ، غير انه لم يذهب بابطاله ليبلغ بهم الهاوية الى آخر تخوم العالم الغربية ، الى ما وراء « نهر الاوقيانوس » العميق ولم يجعل جحيمه حفرة تحف بها أرواح الأموات أو نافذة يطل منها على العالم السفلي كما فعل هوميروس في اوذيسته، انما موضوع الآخرة حتى الافكار المعالجة اكثر تشابها وتقاربا عند المعري ولوقيانوس منها عند المعري ودانتي ٠

ففي المسامرات اوجدنا لوقيانوس مباشرة وبلا توطئة ولا ابطاء في صميم الهاوية او نقل الينا منها مشاهد مما كان يجري هناك بين الاموات انفسهم من مختلف الاحاديث ، وهكذا فقد كان يرفع امامنا الستار عن مشهد لا يلبث أن يسدله ليرفعه مرة اخرى عن مشهد جديد يختلف عن سابقه اختلافا كليا اشخاصا وموضوعا لا تربط بين مشاهده المتنوعة رابطة سوى انها تجري كلها في العالم

---

٨ ــ لوقيانوس : مسامرات الاموات واستفتاء ميت ، ترجمة الياس سعد غالي ، نشرتها اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية ــ الانسكو ــ بيروت في عام ١٩٦٧ ٠

٩ ــ آثرنا تسمية محاورات الاموات بالمسامرات لانها كلها تجري في حادس المكان المظلم ، والسمر والمسامرة حديث السمّار في الليل (لسان العرب) ٠

الثاني المظلم مستغنيا بذلك عن « اذا » الفجائية وما يقرب منها التي تفصل بين بعض المشاهد في جحيم المعري (١٠) •

أما مينيب أو استفتاء ميت فهي رحلة خيالية الى العالم الآخر قام بها آدميان اثنان أحدهما يدعى مينيب وهو أهم أبطال المسامرات والثاني دليله المجوسي ميتروبارزانس تلميذ زرادشت وفق خطة مرسومة لا باس بها ، وان يكن لا مجال لتشبيهها بخطة دانتي فانها انضج من خطة أبي العلاء على كل حال •

يقول قسطاكي حمصي : لم نعثر على كثرة ما بين أيدينا من كتب الافرنج وغيرهم على الطريقة التي جرى عليها المعري في رفع مخاطبه الى الفردوس العلوي • ولكن اية طريقة مجهولة تلك التي لجا اليها المعري في رفع بطله الى الجنة ؟!•• جل ما في الامر ان ابا العلاء تمنى لابن القارح أن يكون في الفردوس فكان ـ كينونة مشروطة (ان شاء الله ، واذا منّ الله ، واذا استحق ابن القارح تلك الرتبة !••) ـ واذا ابن القارح يتجول في الجنة حسب هواه • ومنها أطلّ على الجحيم •

يقول ابو العلاء : وصلت الرسالة (رسالة ابن القارح) التي بحرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها ماجور اذ كانت تامر بتقبل الشرع •• مثلها شفع ونفع وقرب عند الله ورفع •• وفي قدرة ربنا ان يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور ، يستغفر لمن انشاها الى يوم الدين•• لعله سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب تعرج بها الملائكة من الارض الى السماء وتكشف سجوف الظلماء بدليل الآية : اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه (١١) •

وهذه الكلمة الطيبة كانها المعنية بقوله : « الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها » (١١) •

وفي تلك السطور كلم كثير كله عند الله اثير فقد غرس لمولاي الشيخ الجليل ـ ان شاء الله ـ بذلك الثناء شجر في الجنة لذيذ اجتناء كل شجرة منه تاخذ مابين المشرق الى المغرب بظل غاط (صفحة ١٣٢) •• والولدان المخلدون في ظلال تلك الشجر قيام وقعود •• يقولون نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلي بن منصور (ابن القارح) نخبا له الى نفخ الصور •

١٠ـ وينظر فاذا عنترة (مشهد خاص به رسالة الغفران ص ٣١٤) وينظر فاذا علقمة (٣١٩) وينظر فاذا الحارث (٣٢٤) فاذا هو باوس (٣٣١) واذا هو برجل (٣٣٧) واذا هو بالمرقش الاكبر (٣٤٧) •

١١ـ سورة فاطر آية ١٠

١١ـ سورة ابراهيم آية ٢٤ و ٢٥

وتجري في أصول ذلك الشجر انهار (ص ١٣٣) ٠

ويعمد اليها المغترفون بكؤوس من العسجد وأباريق خلقت من الزبرجد (ص ١٣٤) ويفيض المعري في ذكر الاباريق في ست صفحات ٠٠

وفي تلك الانهار اوان على هيئة الطير (ص ١٤١) ٠

ويعارض تلك المدامة انهار من عسل مصفى و ٠٠٠ (١٤٥) ٠

واذا منّ الله ٠٠٠ بورود تلك الانهار صادف فيها الوارد سمك حلاوة (١٥٩) وكاني به (بابن القارح) ابدا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس كاخي ثمالة ٠٠٠ وو ٠٠٠ (١٦٠) فيلتقي بفلان وفلان ٠٠ ويبدأ أحاديثه اللغوية مع كل منهم٠

ثم انه (ابن القارح) يخطر له حديث شيء كان يُسمّى النزهة في الدار الفانية فيركب نجيبا من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ٠٠ فيسير في الجنة « على غير منهج » (ص ١٦٧) ٠ وخير ما توصف به رحلة ابن القارح كلها أنها « على غير منهج » !

أما رحلة مينيب لوقيانوس فهي قصة طريفة جداً يرويها مينيب بطل الرحلة نفسه فيقول انه بعدما يئس من الفلاسفة من مختلف المذاهب وقد هاله تناقض تعاليمهم فيما بينها ومخالفتها لاعمال القائلين بها ، مضى الى العراف تريسياس في الجحيم ليتعلم منه أفضل عيشة وسلوك يختارهما حكيم لنفسه بين الناس ٠ لقد جعل لوقيانوس العراف تريسياس ينطق بالحكمة التي يريد وهي على كل حال فلسفة عملية محددة المعالم بسيطة العرض لا نجد لوضوحها وصراحتها وأهميتها النسبية مثيلا عند المعري وان كانت رسالة الغفران أطول منها نفساً ولو أضفنا اليها رسالتيه الى داعي الدعاة الفاطمي !٠٠ والى القارىء نص تلك الرحلة وهي بقالب محاورة :

مينيب (١٢) وفيلونيدس (١٣)

مينيب : سقف بيتي عليك مني السلام ان مرآك فرحة ومرام
عدت من عالم الظلام الى النو ر بقلبي الى حماك هيام(١٤)

١٢ـ مينيب فيلسوف يوناني عاش في القرن الثالث قبل الميلاد وهو من المدرسة الكلبية ولهذا وُصف كما وصف هو نفسه بالكلب ٠

١٣ـ اسم شخص وهمي أو غير معروف ٠

١٤ـ أبيات للشاعر أو ريبيد أحد أشهر شعراء المسرح عاش في القرن الخامس ق٠م٠ والابيات هنا من نظم الشاعر الاستاذ ميخائيل بلدي ٠

فيلونيدس : من هذا ! أليس الكلب مينيب ؟ ! انه هو نفسه مالم تكن عيناي مضطربتين • هذا مينيب حقا • ولكن ما هذا الثوب الغريب الذي يرتديه وما هذا الطربوش وجلد الأسد وهذه القيثارة ؟ لأحدثنه ! عم صباحاً يامينيب • من أين وفدت ؟ انك لم تظهر في المدينة منذ أمد طويل ؟

مينيب : من مقر الاموات تحت التراب — عدت بعد اجتيازي الظلمات
حيث يثوى في وحشة واكتئاب — هادس (١٥) نائيا عن الآلهات(١٥)

فيلونيدس : قسما بهراكليس (١٦) اني اجهل أن مينيب توفي ثم بعث حيا •

مينيب : ما عرفت المنون واستقبلتني — هادس(١٧) خافق الجوانح حيا(١٥)

فيلونيدس : ولكن ما الذي حداك على القيام بهذه الرحلة الجديدة غير المنتظرة ؟

مينيب : جرأة في الحجى وغض شبابي — دفعا بي الى دياجي العباب (١٥)

فيلونيدس : كُفَّ أيها السعيد عن تمثيل هذه المأساة وانحدر من سماء الشعر وقُل لي ببساطة ما هذا اللباس المضحك وأي حاجة كانت بك للهبوط الى الجحيم لاسيما أن الطريق اليها ليس فيها ما يلذ أو يُغرى •

مينيب : حملتني على هبوط الجحيم — يا صديقي مناط حبي العميم
حاجة عندي لاستشارة روح — لتريسياس المستقيم الحكيم (١٨)

فيلونيدس : لاشك في أنك فقدت عقلك يا صاح والا لما كنت لا تتكلم أمام أصدقائك الا شعراً •

مينيب : لا يدهشنك ذلك يارفيقي فقد صحبت منذ قليل اوريبيد (١٥) وهوميروس (١٨) ولا ادري كيف امتلأت من أشعارهم حتى أن الكلام الموزون يتدفق من فمي بديهيا • ولكن قل لي كيف تسير الأمور على الارض وماذا يجري في المدينة ؟

فيلونيدس : لا جديد ، بل كل شيء على حالـه : نهب وحنث بالوعـود ومراباة حقيرة واهتمام بتكديس الاموال •

١٥ــ ملك مملكة الاموات ويدعى أيضا بلوتون وايدنوس وهادس •

١٦ــ هيراكليس أو هرقل : ابن جوبتير •

١٧ــ هادس : العالم السفلي مقر أرواح الموتى

١٥ــ اوريبيد (تراجع الحاشية رقم ١٤ في الصفحة السابقة)

١٨ــ اوذيسة هوميروس أشهر شعراء اليونان

مينيب : آه ! يا لهم من تعساء ، انهم يجهلون أي تدابير اتخذت في الجحيم وأي قرارا صدرت بحق الاغنياء ، لا مفر لهم منها قسما بكرفيروس (١٩) •

فيلونيدس : ماذا تقول ؟ صدرت في الجحيم قرارات جديدة بحق سكان الارض ؟

مينيب : أجل قسما بزفس (٢٠) وهي كثيرة ولكن لا يجوز افشاء الاسرار واعلانها أمـا الجميع فقد نتهم بالكفر أمام محكمة رادامانثيس (٢١) •

فيلونيدس : أستحلفك بزفس يامينيب ألا تحرم صديقك هذا الحديث ، انك تخاطب رجلا يعرف أن يسكت وهو مع ذلك مريد مبتدىء •

مينيب : انك تفرض علي بذلك عملا خطرا ولكني ساجازف بعض المجازفة لأجلك • لقد تقرر بحق ذوي الغنى الطائل اولئك الذين يحتفظون بالذهب محبوسة مثل داناي(٢٢)

فيلونيدس : لا تقل لي يا صاح شيئا عن هذه القرارات قبل أن تقص علي ما احب معرفته أولا عن غايتك من هبوطك الى هادس ومن كان دليلك في هذه الرحلة ثم تفصيل ما رأيت وما سمعت هناك لاني اظن ان رجلا نظيرك يحب الاشياء الجميلة لا يدع شيئا يفوتـه مما يستحق ان يسمع او يرى •

مينيب : يجب ان البي رغبتك ، وهل من سبيل الى الرفض عندما يطلب صديق باصرار ؟!اذا ساشرح لك قبل كل شيء فكرتي والسبب الذي جعلني انزل الى الجحيم : لما كنت أقرأ ، وانا فتى ، روايات هوميروس وهيسيود (٢٣) عما كان يجري في الأولمب(٢٤) ليس فيما بين انصاف الآلهة فحسب بل ايضا فيما بين الآلهة انفسهم من تطاحن ومنازعات عدا الفجور والعنف والخطف والدعاوى وطرد الوالدين وتزوج الاخ باخته، كنت أعتقد ان جميع هذه الاعمال شريفة وكنت اشعر بدافع قوي يدفعني الى التلذذ بها • ولكن لما صرت في طور الرجولة سمعت الشرائع تامر بعكس ما يقوله الشعراء وتحظر الزنا والخلافات والاغتصاب ،فوقعت منذ ذلك الحين في حيرة كبيرة لا أدري كيف أضبط سلوكي اذ كنت اعتقد ان الالهة ما كانت لتزني وتتخاصم لو لم تر في ذلك

١٩ـ كلب عجيب يحرس مدخل الجحيم

٢٠ـ زفس هوجو بتير رب الأرباب

٢١ـ رادامانثيس : قاض في الجحيم وهو ابن زفس وشقيق مينوس •

٢٢ـ داناي : بنت ملك طروادة حبسها أبوها في غرفة تحت الأرض لكي لا تنجب ولدا تنبىء بانه سيقتل جده •

٢٣ـ هيسيود : شاعر يوناني عاش في الجيل التاسع أو الثامن ق• م•

٢٤ـ جبل الأولمب : جبل في تيساليا كان الأقدمون يعتقدون أن الآلهة تعيش على قمته •

عملا شريفا ، ومن جهة اخرى ما كان المشرعون ليامروا بالعكس لو لم يجدوا ذلك مفيدا •

وفي حيرتي عزمت على الذهاب الى اولئك الاشخاص الذين يدعون بالفلاسفة والارتماء بين ايديهم ووضع ذاتي تحت تصرفهم لكي يرشدوني الى الطريق البسيطة الأمينة لتصرفي بين الناس • وبهذه النية كنت اتقرب منهم وانا اجهل اني كما يقول المثل ارمي بنفسي من الدخان في وسط النار ، اذ اني وجدتهم بعد التجربة على جانب عظيم من الجهل والتشكك • وهكذا أظهروا لي ان العيشة الذهبية انما هي عيشة العامة • وفي الواقع كان ينصح لي احدهم بالاستسلام الى الملذات والبحث في كل شيء عن اللذة فحسب اذ فيها كل السعادة (٢٥) وكان ينصح لي آخر بالعكس بينما كان آخر يحضني على التعب والشقاء وقهر الجسد واهماله في القذارةوالبشاعة كريها محتقرا مهينا لدى جميع الناس ، وكان يستشهد في كل مناسبة بابياتهيسيود الشائعة في الفضيلة والعرق والذروة التي يجب بلوغها(٢٦) ، وكان غيره يحثني على احتقار الثروة واعتبار امتلاكها شيئا لايؤبه له(٢٧) ، وكان آخر يعتبر ان الثروة هي ايضا خير • وماذا اقول عن آرائهم في الكون ؟! لقد كنت أقرف لدى سماعهم كل يوم يتكلمون عن المثل والكائنات المجردة والمزج والذرة والفراغات وكلمات اخرى من هذا القبيل • وما هو أغرب من ذلك أن كلا منهم عند ادلائهم بآرائهم المتضاربة عن الاشياء ذاتها ياتي بحجج قاطعة مفحمة حتى بات من المحال ان ننفي مقالة من يثبت ان شيئا هو حام ومقالة من يثبت ان الشيء نفسه بارد مع العلم جيدا بان الشيء لايمكن ان يكون حاميا وباردا في آن واحد • لقد كنت مثل اولئك النيام الذين تميل رؤوسهم طورا الى الامام وتارة الى الوراء •

ولكن اليك مالا يقبله عقل : لقد وجدت وانا أراقب هؤلاء الفلاسفة انفسهم ان سلوكهم يخالف تماما أقوالهم • لقد كنت أرى الذين ينصحون باحتقار الثروات يتمسكون بها تمسكا لا انعتاق منه ويتنازعون على فوائد الاموال ويعلمون لقاء أجور ويتحملون كل شيء في سبيل المال • والذين يزهدون في المجد يعملون ويتكلمون في سبيل المجد نفسه فقط والذين كانوا يدعون الى ترك اللذة منغمسين في اللذة في حياتهم الخاصة انغماسا كليا •

لقد نابني بعد خيبة املي هذه عذاب أمض من العذاب الذي كنت فيه من قبل

٢٥ـ اشارة الى فلسفة اتباع ابيقور •

٢٦ـ اشارة الى فلسفة المذهب الكلبي

٢٧ـ اشارة الى فلسفة الرواقيين

ولكني كنت أتعزى قليلا لدى افتكاري باني ان كنت أحمق تائها لا أزال أجهل الحقيقة فقد وجدت في رفقة زمرة كبيرة من الحكماء المشهورين بذكائهم • وفي احدى الليالي وقد طردت هذه الافكار النوم عن عيني قررت الذهاب الى بابل واستجداء مساعدة احد المجوس تلاميذ وخلفاء زردشت(٢٨) لأني سمعت ان في استطاعتهم بالعزائم والرقي فتح ابواب الجحيم وادخال من يشاؤون اليها واخراجه منها سالما • فبدا لي ان افضل ما استطيع عمله اذا تمكنت بوساطة احدهم من النزول اليها ان اذهب الى العراف العليم تريسياس واتعلم منه أي عيشة هي الفضلى التي يمكن ان يختارها لنفسه رجل عاقل • فوثبت من سريري وتوجهت رأسا الى بابل باسرع ما تستطيعه قدماي • ولدى وصولي الى هذه المدينة واجهت احد الكلدانيين وكان حكيما عجيبا في فنه ، اما من حيث المنظر فكان شائبا ذا لحية طويلة مهيبة يدعى ميترو بارزانس ، وبعد ان رجوت منه وتوسلت اليه مرارا ودفعت له الأجرة التي طلبها قبل ان يكون دليلي في الطريق الى الجحيم •

لقد سار بي المجوسي صباحا الى الفرات وشرع يغسلني فيه كل يوم عند الفجر مدة تسعة وعشرين يوما ابتداء من هل الهلال وكان في الوقت نفسه يتلو الى الشمس صلاة طويلة كدت لا اسمع منها الا القليل ، لانه كان يتكلم بسرعة وغمغمة مثل مناد رديء في الألعاب ، ولكن كان كانه يدعو بعض الابالسة • وبعد الرقية كان يبصق في وجهي ثلاث مرات ثم أعود أدراجي وانا لا أرى احدا من الناس الذين اصادفهم • وكان غذاؤنا الثمار وشرابنا الحليب ومزيجا من الحليب والعسل وماء نهر سوزيان • وكنا ننام مفترشين العشب وملتحفين بالسماء • ولما رأى ان هذا الاعداد الطويل أصبح كافيا ذهب بي في منتصف الليل الى شاطيء دجلة وغسلني ثم نشفني وطهرني بالبخور والعنصل وغيرهما من العقاقير وهو يتمتم في تلك الرقية ، وبعد ان سحرني كلي بدورانه حولي ليمنع الاشباح من ايذائي عاد بي مهينا على هذا الشكل نكصا على الاعقاب الى المنزل وبعدئذ أخذنا نهتم بما بقي من أمر الابحار •

لقد لبس هو ثوبا سحريا يشبه كثيرا ثوب الميديين وقدم لي لتسليحي الاشياء التي تراها الطربوش وجلد الأسد والقيثارة وأوصاني بان لا اقول اذا سئلت ان اسمي مينيب بل هرقل أو اوليس(٢٩) او اورفيوس(٣٠) •

٢٨ـ زردشت : مؤسس الدين الزردشتي في فارس

٢٩ـ اوليس : بطل اوذيسة هوميروس وأحد مشاهير أبطال اليونان في حرب طروادة •

٣٠ـ اورفيوس : ابن ملك تراقيا كان جميل الصورة والصوت يجيد العزف على القيثارة ، هبط الى عالم الاموات ليسترد روح زوجته كما نزل اوليس من قبل ليستشير روح تريسياس العرّاف في أمر عودته الى وطنه •

فيلونيدس : ولم ذلك يا مينيب ؟ فاني لا أدرك سبب هذا التخفي ولا هذه الاسماء !٠٠

مينيب : مع انه جلي واضح وليس ثمة سر ٠ لما كان هؤلاء الابطال نزلوا قبلنا وهم احياء الى الجحيم فانه كان يظن اني بالتشبه بهم اتمكن بسهولة من التقدم بدون عائق اذا مررت لابسا هذه الثياب السحرية فاتخلص بذلك من مراقبة اياكوس(٣١) الذي سبق له ان رأى تلك الثياب ٠

كان الفجر بدأ يلوح لما شرعنا في رحلتنا بعد ان هبطنا شاطىء النهر ٠وكان قد أعد له قارب وضحايا وحليب ممزوج بعسل وكل ما يلزم للاشراكات ٠ وبعد ان أنزلنا هذه المعدات الى القارب ٠

« وركبنا والحزن ملء الحنايا   نذرف الدمع مستفيضا سخينا » (٣٠)

تركنا القارب فترة من الزمن يسير بنا والمجرى ثم دخلنا في المستنقع حيث يختفي الفرات ٠ وبعد ان اجتزناه وصلنا الى مكان قفر مشجر لا شمس فيه ٠فنزلنا هناك ، وكان ميترو بارزانس يتقدمني ٠ فحفرنا حفرة وذبحنا النعاج وسفحنا الدم على حافاتها ٠ غير ان المجوسي الذي كان يحمل مشعلا متقدا اخذ يدعو لا بصوت خافت بل بكل قواه جميع الشياطين دفعة واحدة ، ربات التعذيب والانتقام (٣٢) والليلية هيكاتي(٣٣) والراعبة برسيفوني(٣٤) وكان يخلط ادعيته بكلمات بربرية غير مفهومة طويلة ذات عدة مقاطع ٠

وفي الحال تزلزل ما حولنا كله وبتاثير الرقية انشقت الارض وسمع نباح كرفيروس البعيد ، وساد تجهم محزن في كل مكان ٠

و « ادنوس العظيم ملك الجحيم بات في فزع شديد مقيم (٣٥) وقد تبيّنا قسما كبيرا من هادس والبحيرة ونهر اللهب (بير يفليجيتون) (٣٦) وقصر بلوتون ٠ ثم نزلنا من الشق المفتوح ووجدنا ردامانثيس يكاد يموت جزعا وكرفيروس ينبح وقد همّ بالوثوب ، ولكني لمست القيثارة وفي الحال استحوذ عليه سحر النغم ٠ ولما

٣١ــ اياكوس : ابن زفس وثالث قاض في الجحيم ٠

٣٠ــ هوميروس ٠ الاوذيسة ن ١١ ٠

٣٢ــ ربات التعذيب : ثلاث ربات مكلفات بتعذيب الاشرار في العالم السفلي ٠

٣٣ــ هيكاتي : ربة غامضة خادمة برسيفوني في الجحيم ٠

٣٤ــ برسيفوني : بنت زفس وزوجة بلوتون اله الجحيم ٠

٣٥ــ تحريف بيت من الاوذيسة ن ٩ ٠

٣٦ــ من اقسام الجحيم ٠

وصلنا الى البحيرة كدنا أن نجتازها لان القارب كان قد ملىء ركابا كانوا ينوحون ويئنون من ألم الجراح مهشمين فاحدهم فخذه مكسورة والآخر رأسه أو عضو آخر من أعضاء جسده لانهم كانوا آتين على ما يظهر من معركة حربية • غير ان خارون(٣٧) الطيب لما رأى جلد الاسد ظنني هرقل فاستقبلني بترحاب وأمرني ولما نزلنا من القارب أرشدنا الى الطريق •

وبما أننا كنا نمشي في الظلام كان ميترو بارزانس يتقدمني وأنا خلفه ممسكاً بطرف ثوبه حتى بلغنا مرجا فسيحاً مزروعاً برواقا ، وفيه أخذت أشباح الموتى تحوم حولنا وهي تصرخ صرخا حاداً وقصيرا • وما ان سرنا قليلا حتى وجدنا نفسنا قرب محكمة مينوس (٣٨)• لقد كان جالساً على عرش مرتفع وبالقرب منه ربات الذعر والانتقام واقفة • وكان الناس يفدون من الجهة الاخرى صفاً طويلا مقيدين بسلسلة طويلة • وقيل انهم زناة وقوادون وعشّارون ومملقون ووشاة وجمع غفير من نمط هؤلاء الناس الذين يقلقون العالم ويخربونه • أما الاغنياء والمرابون فكانوا في عزلة يتقدمون وهم صفر الوجوه بطونهم بارزة وفي أرجلهم النقرس وفي عنق كل منهم طوق وغلّ يزن وزنتين ، ولبثنا بالقرب من قوس المحكمة نرى ما يجري هنالك ونستمع الى الدفوع • وكان المشتكون خطباء من نوع جديد غير عادي •

فيلونيدس : من كان هؤلاء الخطباء ؟ نشدتك باسم زفس ألا تتردد في أن تقول لي ذلك أيضا •

مينيب : أتعرف الظلال التي تنشرها الاجسام المعاكسة للشمس ؟

فيلونيدس : بلا شك !

مينيب : اذن هذه الظلال أو الاشباح هي التي تشتكي وتشهد علينا بعد موتنا فتخبر بما صنعنا في حياتنا • ولأنها ترافقنا الى كل مكان تلازم أجسادنا لا تفارقها ويوثق بها كل الثقة •

وكان مينوس بعد التمحيص الدقيق يرسل هؤلاء الآثمين الى مقر الكفرة لكي يعانوا هنالك العقاب الذي تستحقه جرائمهم • لقد كان قاسياً بنوع خاص على اولئك الذين ينتفخون عُجبا لسلطانهم وثرواتهم حتى كانوا ينتظرون من الناس أن يعبدوهم تقريبا لأنه كان يكره تبجح هؤلاء الناس السريع الزوال وتكبّرهم هم الذين نسوا انهم سيموتون وانهم لا يملكون الا أشياء زائلة •

٣٧ـ خارون : نوتي الجحيم ينقل أرواح الموتى الى العالم الآخر •

٣٨ـ مينوس : ابن جوبتير وقاض في الجحيم •

اولئك كانوا يقفون بعد تجريدهم من جميع مظاهر الحياة الخلابة أعني بذلك الثروة والحسب والسلطة عراة منكسي الرؤوس يتذكرون ، وكانهم في حلم ، السعادة التي كانوا يتمتعون بها فيما بيننا ، وانا لدى رؤيتي هذه الامور كنت اذهل عن نفسي فرحة حتى أني كنت أدنو بهدوء ممن أعرفه منهم وأذكّره بالحال التي كان عليها في حياته وكيف كان ينتفخ عُجبا بنفسه وكبريائه عند خروجه صباحا الى جمهور اتباعه الذين كانوا ينتظرونه في صحن الدار وكيف كان خدامه يدفعونهم ويُبعدونهم • وأخيراً كيف كان ينهض بصعوبة كلية ليستقبلهم وهو مرتد الثياب القرمزية او الموشاة بالذهب أو المختلفة الالوان ، ظانا انه يجعل من يحيّونه سعداء ومحظوظين اذا تركهم يقبّلون صدره أو يده اليمنى التي كان يمدها اليهم • فكان هؤلاء المتكبرون يحزنون لدى سماعهم أقوالي •

غير أن مينوس أصدر حكما فيه شيء من المحاباة اذ ديون (٣٩) اتهمت دونيس الصيقلي بعدة جرائم وخرق قدسيات ايدتها شهادة ظله • فتقدم اريستيبوس القوريناني (٤٠) الذي كان مكرّما في هادس وذا نفوذ عظيم فيها ليدافع عنه وانقذه في اللحظة التي كان سيسلم فيها الى الخيمايرا (٤١) بقوله انه كان حامية ماهرا لعلماء كثيرين •

ثم تركنا المحكمة ووصلنا الى محل العذاب ، وهنا ياصاح لو نظرت لرأيت وسمعت في كل مكان أهوالا تدعو الى الشفقة • لقد سمعنا ضجة السياط وفي الوقت نفسه أنين من كانوا على النار يشوون ، وشاهدنا آلات التعذيب والاغلال والعجلات فالخيمايرا تمزّق وكيرفيروس يلتهم ، وكان الجميع الملوك والعبيد والقواد والفقراء والشحاذون والاغنياء يُعذبون في آن واحد وكلهم يندمون على جرائمهم• ولما نظرنا اليهم عرفنا بعضهم اولئك الذين ماتوا حديثا ، فقد كانوا يخفون وجوههم ويحولونها عنا واذا نظروا الينا فبتذلل وتضرع ، هم الذين يعلم الاله كم كانوا لا يُطاقون وكم كانوا في حياتهم يشمخون بانوفهم • لقد كانوا يُتركون قليلا ثم يُستأنف تعذيبهم من جديد أما الفقراء فكانت عقوبتهم تخفض الى النصف• ورأيت أيضا أشخاص الخرافة اكسيون (٤٢) وسيسيف (٤٣) و تانتالوس

٣٩ـ ديون : بنت اوقيانوس ووالدة افروديتي •

٤٠ـ اريستيبوس : فيلسوف من شمال افريقيا تتلمذ على سقراط وهو مؤسس المذهب القائل بأن اللذة أساس السعادة •

٤١ـ الخيمايرا : مخلوق عجيب له رأس أسد وجسم تيس وذيل تنين

٤٢ـ اكسيون : عُذّب في الجحيم بربطه الى عجلة نارية دائمة الدوران •

٤٣ـ سيسيف : عوقب بدفع صخرة الى قمة جبل كلما بلغ بها القمة هبطت الى اسفل •

الفريجي(٤٤) فريسة للألم وتيتيوس ابن الارض (٤٥)، يا لضخامته ياهيراكليس؟! ان جسده الممدد كان يغطي مساحة حقل كامل ٠

وبعد ان اجتزنا أيضا مقر هؤلاء المحكوم عليهم وصلنا الى سهل الاخيرون (٤٦) ، حيث وجدنا انصاف الآلهة والبطلات وباقي جمهور الاموات موزعين حسب قومياتهم وقبائلهم ٠ فالبعض كانوا قدامى متعفنين أبلاء ، كما يقول هوميروس ، والآخرون حديثين أصلابا ، ولاسيما الأموات المصريون المحفوظون بالتحنيط ٠ ولكن لم يكن من السهل قط معرفة كل منهم لأنهم لا يلبثون أن يصبحوا شبيهين بعضهم ببعض كل المشابهة عندما تتجرد عظامهم ولكن لكثرة النظر والتحديق فيهم كنا نتوصل الى التعرف اليهم ٠ فكانوا مكدسين بعضهم فوق بعض ، نكرات لا يميزهم شيء ولم يبق عليهم شيء من جمالهم الأرضي ٠ وبما ان الهياكل العظمية الكثيرةكانت ركاماً في موضع واحد وكلهم متشابهون بنظراتهم الراعبة الفارغة وأسنانهم الجرداء البارزة كنت أتساءل في نفسي كيف يمكنني ان أميز ترسيت من نيريوس الجميل أو ايروس الفقير منملكالفياكيتينأو بيريسياس الطاهي من اغاميمنون(٤٧) اذ لم يبق عليهم أي دلالة من الدلائل التي كانت تفرق بينهم فيما مضى ، فعظامهم متشابهة بدون فوارق ولا صفات ، لا يستطيع أحد أن يتبينهم ٠

ولدى تاملي في هذا المشهد كنت أفكر بان الحياة البشرية تشبه تطوافا طويلا تسيره الفورتونا (٤٨) ، ربة الحظ ، التي تحدد تفاصيله وتعين لكل من الممثلين لباساً مختلفاً ومتنوعاً ٠ اذ تاخذ الناس كيفما اتفق لها فتلبس الواحد ملكاً وتضع على راسه تاجاً وتجعل له أتباعاً وتعصب جبهته باكليل ، وتزمل الآخر في ثياب الخادم ، وتزين الواحد بالجمال وتجعل الاخر قبيح المنظر مضحكاً ٠ لأن المشهد في اعتقادي يجب أن يكون متنوعا قدر المستطاع ٠ وكثيراً ما شوهدت تنزع في أثناء المسيرة ثياب البعض وتحول دون مضيهم حتى النهاية في الترتيب الذي رتبتهم فيه ٠ فجردت قارون (٤٩) من ثيابه القرمزية واجبرته على ارتداء لباس

٤٤ــ تانتالوس : عوقب بالعطش وهو وسط الماء ٠

٤٥ــ تيتيوس ابن الارض عوقب بان ينهش نسران كبده التي كانت تنمو باستمرار ٠

٤٦ــ الاخيرون : نهر الحزن في العالم السفلي ٠

٤٧ــ اغاميمنون : قائد اليونانيين في حرب طروادة ٠

٤٨ــ الفورتونا : ربة الحظ ٠

٤٩ــ قارون : ملك ليديا ضرب به المثل في الغنى ٠

الخادم والاسير ٠ وخلعت على مياندريوس (٥٠) ، الذي كان يسير حتى ذلك الحين في صف الخدم ، طغيان بوليكرات وسمحت له بان يحتفظ الى زمن ما بلباسه هذا٠ وعند انتهاء التطواف يرد كل انسان عدته ويتعرى من ثوبه مع جسده ويرجع الى ما كان عليه شبيهاً كل الشبه بجاره ٠ فالبعض يتكدرون لجهلهم ويغضبون عندما تاتي « فورتونا » لتسترد ما زينتهم به كان ما ينزع منهم ملك لهم ويابون ارجاع ما أعيروه لمدة من الزمن ٠ أظن انك رأيت مرارا على المسرح ممثلي المآسي فمنهم من يمثل مرة دور كريون وأخرى دور بريام (٥١) أو اغاميمنون ٠ فالرجل الواحد الذي كان قبل ذلك بقليل بعظمة وكبرياء سيكروبس او اريختي يظهر عند الاقتضاء وحسب أمر الشاعر بثوب الخادم ٠ وعند انتهاء الرواية يخلع كل واحد من الممثلين هذا الثوب المزخرف بالذهب وينزع قناعه وحذاءه المسرحي ويعود رجلا عاديا متواضعاً ٠ فليس هو اغاميمنون بن اترى ولا كريون بن ميناس بل هوبولس(٥٢) اسمه الحقيقي ابن شاركليس من سونيون أو ساتيروس بن تيوجيتون من ماراتون ٠ فهذا هو وضع البشر وهذه هي الفكرة التي كونتها وانا اشاهد الأموات ٠

فيلونيدس : قل لي يامينيب أليس لأولئك الناس الذين لهم في الأرض قبور فخمة مرتفعة ذات مسلات وصور ونقوش اعتبار في الجحيم أكثر مما لعامة الناس ؟

مينيب : انك تهرف ياصاح ، لو رأيت موزول (٥٣) نفسه وأعني به الكاري الذي صيره قبره مشهوراً ، فانا أعتقد انك ما كنت لتكف زمناً طويلا عن الضحك لو رأيته في ذلك الموضع الضنك الذي ألقي فيه حقيرا نكرة في عالم الأموات ٠ في رأيي أن الفائدة كلها التي جناها من هذا الأثر انه يرزح تحت العبء الفادح ٠ فياصاح عندما اياكوس يقيس لكل واحد مكانه فان أقصى ما يعطيه طول قدم ٠ ويجب عليه أن يكتفي به ويظل مضجعاً ومنطوياً ليكيف نفسه بالنسبة الى القياس ٠ ولكني أعتقد أنك كنت ضحكت أكثر أيضا لو انك رأيت الذين هم ملوك ومرازبة في هذا العالم يستعطون هناك ويبيعون المملوحات من بؤسهم أو يلقنون مبادىء القراءة ، يهينهم عابر السبيل ويصفعهم على رأسهم كما يصفع ارذل العبيد ٠ لقد شاهدت فيليبس (٥٤) المقدوني ولم أستطع أن أملك نفسي من الضحك لأني رأيته في زاوية

٥٠ــ مياندريوس : أمين سر الطاغية بوليكرات وخلفه

٥١ــ بريام : ملك طروادة ٠

٥٢ــ بولس وساتيروس : ممثلان شهيران ٠

٥٣ــ موزول · ملك كاريا ، قبره فخم جداً ٠

٥٤ــ فيليبس : ملك مقدونيا والد الاسكندر الكبير ٠

صغيرة يخيط لقاء أجرة حذاء باليا • يمكن مشاهدة كثيرين غيره يستعطون في مفارق الطرق وأعني بهم أمثال زاريش وداريوس (٥٥) وبوليكرات •

فيلونيدس : ان ما تقوله عن الملوك غريب يكاد لا يصدق • ولكن ماذا كان يصنع سقراط (٥٦) وديوجين (٥٧) والحكماء الآخرون ؟•

مينيب : ان سقراط كان يتمشى هناك كما كان يفعل هنا وهو يجادل ويناقش كل الناس ، يرافقه بالاميد (٥٨) واوليس ونسطور وغيرهم من الاموات الثرثارين • فخذاه كانتا ما تزالان ورمتين منتفختين بسبب السم الذي شربه • أما ديوجين الجريء فهو يقيم بالقرب من الآشوري سردنبال (٥٩) والفريجي ميداس (٦٠) وغيرهما من الاغنياء يضحك ويهزأ بهم كلما سمعهم ينوحون ويتاوهون ويتذكرون سعادتهم الماضية وكثيرا ما يغني وهو ملقى على ظهره بصوت شديد أجش يفوق تاوههم ونحيبهم فيضجرهم حتى أنهم يبحثون عن مقر آخر لهم لأنه لا يبقى في امكانهم تحمل ديوجين •

فيلونيدس : بهذا الكفاية ! ولكن ما هو القرار الذي اتخذ بحق الاغنياء والذي تكلمت عنه في بدء الحديث ؟

مينيب : لقد أحسنت بتذكيري به لأني لا ادري كيف حدت بعيدا عن موضوعي بعد ان قررت أن أتكلم عنه • أثناء وجودي في هادس دعا البريتان (٦١) الى عقد جمعية للنظر في قضايا تهم الجمهورية • ولما رأيت جمهورا كبيرا يسرع الى الاجتماع اختلطت بالأموات وأصبحت أثناء انعقاد الجلسة أحد أعضاء الجمعية التي نظرت في عدة قضايا وانتهت الى قضية الاغنياء الذين اتهموا بعدد كبير من الجرائم الشنيعة ، بالعنف والصلف والتجبر والظلم فنهض آخر الأمر أحد المتحزبين المتعصبين للشعب وتلا القرار التالي :

٥٥ـ زارش وداريوس : ملكان من ملوك فارس
٥٦ـ سقراط : الفيلسوف اليوناني الشهير
٥٧ـ ديوجين : فيلسوف يوناني (٤١٣ ـ ٣٢٣ ق٠م٠)
٥٨ـ بالاميد : رجل اشتهر بالحكمة والاختراعات
٥٩ـ سردنبال : رجل خرافي اشتهر بالخلاعة والجبن والتخنث •
٦٠ـ ميداس : ملك فريجيا •
٦١ـ البريتان : شيوخ القبيلة والقضاة الرئيسيون •

القـــــرار

« لما كان الاغنياء قد ارتكبوا في حياتهم كثيراً من الاعمال المخالفة للقوانين كالسلب والغصب والاهانات من جميع الانواع بحق الفقراء ، فليحسن لدى المجلس والشعب أن تعاقب أجسادهم بعد موتهم كسائر المجرمين الآخرين وترد أرواحهم الى الأرض فتدخل في الحمير وتظل هنالك مائتين وخمسين ألف سنة تنتقل من حمار الى حمار يحملون الأحمال ويسوقهم الفقراء وهم ينخسونهم بالمنخس وبعد ذلك يسمح لهم بان يموتوا • هذا هو اقتراح كارنيون ابن سكوليتون من نيكيزي من قبيلة الليبانتيد » (٦٢) •

وبعد تلاوة هذا القرار طرحته السلطات على التصويت فاقره الشعب وصاح بريمو ونبح كروفيروس لان العادة أن تقرر القوانين ويصادق عليها على هذه الصورة •

هذا ما كنت أريد أن أقوله لك عن الجمعية • ومضيت أنا الى الغاية التي من اجلها سافرت فبحثت عن تريسياس حتى وجدته ورجوت منه بعد أن سردت عليه كل قصتي أن يعلمني ماهي افضل عيشة حسب رأيه • فاخذ يضحك (انه كهل صغير أعمى شاحب اللون ضعيف الصوت) : ثم أجابني : « يابنيّ انـي أعرف سبب ارتيابك وحيرتك ، ومرد ذلك الى عدم اتفاق الحكماء فيما بينهم ، ولكن من غير المسموح به أن يقال أكثر من ذلك ، فرادامانثيس يمنع هذا » • فقلت له : « لا تكن كتوما الى هذا الحد يا أبت بل أجبني ولا تدعني أعود الى الحياة وانا اشد عمي منك ! » عندئذ اخذني بعيداً عن الآخرين وانحنى قليلا واسرّ في اذني قائلا : « عيشة الجهلاء هي الأفضل والأحكم • فاقص عنك الرغبة الجنونية في تعليل الظواهر السماوية والتدقيق في الغايات والمبادىء ، واحتقر هذه القياسات المعقدة واعتبر ذلك كله ثرثرة باطلة ولا تبحث في كل الامور الا عن شيء واحد ألا وهو استخدام الحاضر استخداما حسنا والتمتع به ودع أكثر الحوادث تعبر وانت تضحك ، ولا تنظر اليها نظرة جدية • وبعد أن تكلم هكذا انسحب الى سهل اسفوديل (٦٣)•

وأما انا فلما رأيت أننا تاخرنا قلت لميتروبارزانس : لمَ بقاؤنا هنا ولم لا نعود الى عالم الاحياء ؟! فاجابني هدىء روعك يامينيب ، اني سارشدك الى طريق قصيرة وسهلة • وعندئذ جاء بي الى مكان أشد ظلمة من غيره وأشار لي بيده الى خط نور بعيد ضئيل يتسرب الى داخل الجحيم تسرّبه من ثقب شباك وقال لي : هذا هيكل تروفونيوس (٦٤) ومن هنا يهبط البيوسيون فاصعد

٦٢ ـ كارنيون : الجمجمة ـ سكوليتون : الهيكل العظمي ـ أليبانتيد : الأموات •

٦٣ـ تلميح الى الاوذيسة ن ١١ ب ٣١٦ •

٦٤ـ تروفونيوس : عرّاف كهف ليبادى في بيوسيا وقد اعتبر فيما بعد الها مع جوبتير •

من هنا فلا تلبث أن تصبح في بلاد اليونان • فسحرت بما قال وحييّت المجوسي وبعد أن خبوت بصعوبة كبرى في ذلك النفق وجدت نفسي ولا أدري كيف في ليبادى •

★ ★ ★

ان صيت لوقيانوس قد ذاع واشتهر بين الادباء منذ القديم لطرافة موضوعاته لأنه بعد ارستوفان ومثل ارستوفان بل أكثر منه وصف الحياة الثانية وصفاً فكاهياً انتقادياً من جهة ولأن محاوراته تحتل المرتبة الثانية بعد محاورات افلاطون العظيم نفسه ، بل تجاوز فيها موضوعات الفلاسفة من جهة أخرى ولأن لوقيانوس امتاز في جميع مؤلفاته ولاسيما مسامراته بانه كان حراً في تفكيره حراً في كتاباته ، جريئاً صريحاً في ابداء آرائه غير هياب ولا متق في انتقاده عيوب معاصريه ومن سبقهم ومعتقداتهم والهتهم ، كما انتقد أبو العلاء المذاهب في القسم الثاني من رسالة الغفران متوخياً الاصلاح والتقدم الفكري الصحيح ! •

لم يأتِ لوقيانوس بحقائق كثيرة لكنه بدد كثيراً من الاوهام والسخافات التي كانت مستحوذة على العقول • ولذلك جاء تهكمه لاذعاً شديداً مؤلماً لمن يصيبه رشاشه ، مستساغة لدى القارىء العادي شبيهة الى حد بعيد بتهكم أبي العلاء المعري وذمه في لزومياته أبناء جيله كلهم وجميع الذين يجرّون لانفسهم مغنماً سواء أكان ذلك شعوذة ودجلا أم باسم السلطان أم العلم أم الدين ! حتى النساك لم يسلموا من انتقاده (٦٨)• وذلك لأنهما كلاهما نظرا اليهم جميعاً نظرة سخرية واستهزاء لا رحمة فيها ، معتبرين اياهم مسؤولين الى حد بعيد عن الفساد الاجتماعي السائد في عصريهما حتى ليتساءل المرء مندهشاً كيف أن أبا العلاء ولوقيانوس سلما من الانتقام والعقاب على ذلك التهجم ولم ينلهما أذى كبير نسبياً (٦٥) ، مع أن خصوم المعري سلقوه بالسنتهم الحداد حتى كفروه وهكذا فعل الفلاسفة الكلبيون بلوقيانوس حتى أن سويداس ظن أن كلابا حقيقيين مزقوه (٦٦) •

ومع أن لوقيانوس لم يكن متشائماً زاهداً في الحياة كالمعري فان التقارب فيما بينهما يبدو واضحاً جلياً في أكثر من ناحية ، في وجهات النظر الى أمور ومواضيع متشابهة ، في طريقة التفكير والتعبير وفي الجرأة على قول الحق • وللدلالة على النواحي التي ألمعنا اليها فقد توجنا كل واحدة من مسامرات الاموات (٦٦) ببيت من شعر المعري وكأنه تلخيص موفق وغريب لموضوعها حتى ليخيل للقارىء أن لوقيانوس والمعري عالجا الموضوع نفسه وعبر كل منهما عن فكره بطريقته الشخصية

٦٨ـ أبو العلاء : اللزوميات ج ١ ص ٨٨ و ج ٢ ص ٩٤

٦٥ـ هنري لاوست : حياة وفلسفة أبي العلاء ص ٢٧

٦٦ـ الياس سعد غالي : مقدمة مسامرات الاموات للوقيانوس ص ١٣ •

واسلوبه الخاص • ولا نقول ، مع ذلك ، ان المعري اقتبس من لوقيانوس أو « سرق » منه شيئاً وان كانت بعض أقواله تكاد تكون ترجمة حرفية لبعض أقوال لوقيانوس ، وهذه أمثلة على ذلك :

مينيب يخاطب سقراط :

الناس كلهم يعتقدون انك كنت تعرف كل شيء ، والحق يجب ان يقال انك ما عرفت شيئاً •

فيجيبه سقراط :

أنا نفسي كنت أقول لهم هذا وأما هم فقد حسبوا ذلك هزلا (٦٧) •

وأبو العلاء يقول :

أقررت بالجهل وادعى فهمي قوم فامري وأمرهم عجب (٦٨)

يقول لوقيانوس : تستطيع ان ترى اشياء اخرى تجري خلافا للمنطق اذا انعمت النظر فيها جيدا (٦٧) •

لا يجوز ان نقول شيئا بحق الآلهة (٦٧) •

ويقول ابو العلاء : تناقض ما لنا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار (٦٨) •

يقول لوقيانوس : يا جوبتير ••• يامرسل البروق وجامع الغيوم ومطلق الرعد القاصف يا من يدعوك الشعراء في تحمسهم باسماء اخرى ولا سيما عندما تضايقهم الاوزان فتسدى عندئذ حسب هواهم باسماء مختلفة فتحول دون اختلال وزن البيت من الشعر (٦٧) •

ويقول ابو العلاء : يغير الشاعر اسمه ضرورة ولو كان غير اسمي في النظم دون النثر لكان عذره في ذلك منبسطا لان الشعراء الجلة (العظماء) يغيرون الأسماء (٦٨) •

٦٧ـ لوقيانوس : مسامرات الاموات ترجمة الياس سعد غالي ص ٨٥ و ٨٦ •
٦٨ـ أبو العلاء : اللزوميات ج ٢ ص ٩٤ و ج ١ ص ٨٨
٦٧ ـ لوقيانوس : مسامرات الاموات (ترجمة الياس سعد غالي) ص ١١٨
٦٧ ـ لوقيانوس : مسامرات الاموات (ترجمة الياس سعد غالي) ص ٦٦
٦٨ ـ ابو العلاء : اللزوميات ج ١ ص ٣٩١
٦٧ ـ لوقيانوس : مقدمة مسامرات الاموات ص ١٩
٦٨ ـ ابو العلاء : الرسائل جمع خليل الخوري ص ١٢٧

والتقارب اكبر فيما بين فكرة لوقيانوس في آخر النصيحة التي نصح بها تريسياس مينيب في استفتاء ميت : لا تبحث في كل الامور الا عن شيء واحد الا وهو استخدام الحاضر استخداما حسنا والتمتع به ودع اكثر الحوادث تعبر وانت تضحك ولا تنظر اليها نظرة جدية (٦٧)٠

ويقول ابو العلاء : خذا الآن فيما نحن وخليا غـــدا ٠٠٠٠ (٦٨)
هون عليك ولا تبال بحادث يشجيـك فـالأيـام سـائرة بنـــا (٦٨)

ربما كان عذاب اوس بن حجر افظع عذاب للهالكين في جحيم المعري فهو يقول : اما انا فقد ذهلت ، نار توقد وبنان يعقد اذا غلب علي الظما رفع لي شيء كالنهر فـاذا اغترفت منه لأشرب وجدته سعيرا مضطرمـا (٦٨) ٠

ومينيب يسال احد الاموات تانتالوس قائلا :

لماذا تنتحب وانت قائم وسط البحيرة ؟

تانتالوس : لأني أكاد أهلك عطشا يامينيب ٠

مينيب : هلا تنحني قليلا فتشرب ام ان الخمول قد بلغ بك حدا يمنعـك من ان تقعر راحتـك وتغترف بهـا المـاء ؟!

تانتالوس : عبثا انحني فالماء يهرب مني حالما يشعر باقترابي منه واذا اغترفت منه صـدفة بيـدي وادنيتها من فمي لأبل طرف شفتي فسرعان ما يفر الماء من فروج اصـابعي ولا أدري كيف تعود يدي الى سابق جفافها ٠

مينيب : ان عذابك امر عجيب يا تانتالوس ٠ ولكن قل لي ابحاجة انت الى الشرب ولا جسـد لك ؟ ان جسدك المدفون في بقعة من ارض ليديا هو وحده كان يمكنه ان يعطشويجوع اما أنت وما انت الا روح فكيف يمكنك ان تعطش وتجوع ؟

تانتالوس : هذا هو عقابي فان روحي تعطش كما لو كانت جسدا !

مينيب : لقد صدقنا بان العطش عقابك لانك انت تقول ذلك ٠ ولكن لماذا يفزعك العطش الى هذا الحد ؟ أتخشى أن تموت اذا لم تشرب ؟٠٠٠ فانا لا أرى جحيما بعد هذه ولا موتا آخر يودي بك الى غير هذا المكان (٦٧) ٠

---

٦٧ ـ لوقيـانوس : مسامرات الاموات ص ١٣٧
٦٨ ـ ابو العـلاء : اللزوميات ج ١ ص ٣٥٢
٦٨ ـ ابو العـلاء : اللزوميات ج ٢ ص ٣٦٤
٦٨ ـ ابو العـلاء : رسالة الغفران ص ٣٣٣
٦٧ ـ لوقيـانوس : مسامرات الاموات ص ٦٨ ٠

يقول ابو العلاء في رسالته الى داعي الدعاة الفاطمي :

اذا كان الله عالما بالشر فلا يخلو من احد امرين اما ان يكون مريدا له او غير مريد • فان كان مريدا فكانه الفاعل ، كما ان القائل يقول : قطع الامير يد السارق ، فالأمير قطعها الا انه لم يل ذلك بنفسه (٦٨) •

وهذا القول هو موضوع المسامرة الخامسة والعشرين من مسامرات الاموات للوقيانوس التي دار الحوار فيها ما بين سوسترات قاطع الطريق القاتل ومينوس قاضي الجحيم الذي حكم بتعذيبه فقال :

سوسترات : أمن العدل ان أعاقب على ما فعلت ؟

مينوس : انه العدل بالذات ، اذا كان على الاقل عدلا ان يقاسي المرء عذابا استحقه •

سوسترات : اجبني ، اكنت أنا مختارا في عمل جميع ما عملت في حياتي ام ان ربة الاقدار هي التي نسجته لي ؟

مينوس : ربة الاقدار •

سوسترات : اذن نحن كلنا الصالحون والاشرار ماكنا الا عبيدا لربة القضاء والقدر في ما فعلنا •

مينوس : أجل لأنها هي التي تحدد لكل انسان ساعة ميلاده الاعمال التي يجب عليه انيعملها •

سوسترات : واذا أكره رجل على قتل رجل آخر ولم يكن في وسعه ان يقاوم من اكرهه كالجلاد مثلا الذي ينفذ أمر حاكم والحارس الذي يطيع امر طاغية ، فمن يكون المسؤول عنالقتل ؟

مينوس : الحاكم او الطاغية • فما كان ذاك الا آلة في خدمة من امر بالقتل الذي هو السبب الاول في الجريمة (٦٧) •

وقد توجنا هذه المسامرة بقول المعري :

ان كان من فعل الكبائر مجبرا   فعقابه ظلم على ما يفعل ! (٦٨)

أترى كان ابو العلاء مثل لوقيانوس ، ولو من بعيد ، من اتباع المذهب « الكلبي ؟ »

---

٦٨ ـ ابو العلاء : (ياقوت الحموي : ارشاد الاريب ـ تعريف القدماء بابي العلاء ص ١٢٣) •
٦٧ ـ لوقيانوس : مسامرات الاموات ص ١١٧ و ١١٨
٦٨ ـ ابو العلاء : اللزوميات ج ٢ ص ١٨٧

فلوقيانوس يقول في المسامرة السابعة بلسان مينيب مخاطبا الكلب كرفيروس حارس الجحيم : « أنا نسيبك ياكرفيروس لأنـي أنا أيضا كلب ٠٠ » ويجيبه كرفيروس في هـذه المسامرة قائـلا : « أنت وحدك يامينيب وديوجين قبلك دخلتما الجحيم بصورة خليقة باصلكما » (الاصل الكلبي) وهـذا مديح واطراء ٠ و « الكلبيون » كانوا يتذرعون بلقبهم هذا ليقولوا انهم حراس الفضيلة ينبحون على الرذيلة كما ينبح الكلب الحارس ساعة الخطر (٦٧) ، ولم نسمع باحد من الشعراء والادبـاء حفظ سبعين اسما للكلب (٦٩) ولا نعرف شاعـراً أو أديباً غـير المعـري وصف نفسه بانـه ألأم كلب حيث يقول :

كلاب تغاوت او تعاوت لجيفة واحسبني أصبحت ألأمها كلبا (٦٨)

وينتصر أبو العلاء للكلب فيفضله عـلى الانسان وكـم من امرىء اذا نعتّه بالكلب لا تكون سبته و حقّرته بل مدحته وشرفته اذ أن الكلب اعرف بالجميل واحفظ للود وأوفى لصاحبه من الانسان ٠ أفنعجب بعد اذا سمعنا أبا العلاء يقول :

سنبت بالكلب فانكرتـــه والكلب خير منك اذ ينبح (٦٨)

اننا لا نقول ، بعدما بيّنا التقارب الكبير بين بعض آراء أبي العلاء المعري وآراء لوقيانوس في مؤلفيه الاثنين بخاصة ، إن ابا العلاء اطلع على شيء من كتـابـات لوقيانـوس واقتبس منهـا ٠ وسواء اطلع عليها أم لم يطلع فالشيء الهـام في موضوعنا أن نقرر دون تحـرج ولا تزيـد أن لوقيانوس سبق المعري باجيال في التفكير في رسال انسان في رحلة خيالية الى العالم الآخـر ٠ لقد أرسله ووصف رحلته الى هناك ومشاهداته ، خلافة لزعم بعض كبار الادباء ، وذلك في مسامرات الأموات ولاسيما استفتاء ميت وهما أسهل وأقرب متناولا من رسالة الغفران الى دانتي على كل حال ٠

٦٧ ـ لوقيانوس : مسامرات الاموات ص ٥١ و ٥٢ ومقدمة المسامرات ص ٢٠ و ٢١ ٠
٦٩ ـ السيوطي : التبري من معرة المعري (تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٩) ٠
٦٨ ـ أبو العـلاء : اللزوميات ج ١ ص ٩١
٦٨ ـ أبو العـلاء : اللزوميات ج ١ ص ٢١٣

دينو بوتزاتي

قصص ايطاليّة 5

ترجمة : جورج سالم

بلغت القصة القصيرة أوجها في ايطاليا بظهور إيتالو زفيفو والجيل الذي تلاه ممثلاً في عدد بارز من القاصين اللامعين ، في طليعتهم المسرحي والروائي والقاص لويجي بيرنديللو ودينو بوتزاتي وايتالو كالفينو وسيزار بافيز وكارلو كاسولا وايليو فيتوريني •

ولد دينو بوتزاتي في بللونو سنة ١٩٠٦ ، وبعد أن أتم دراسة الحقوق في جامعة ميلانو التي كان أبوه استاذ الحقوق الدولية في كلية الحقوق فيها ، اتجه بسرعة الى الأدب، فنظم في مطلع حياته الأدبية الشعر ، وكان ما يزال صغير السن (القصائد الفقاعات ، المجموعة الشعرية الوحيدة التي خلفها) • وفي الثانية والعشرين من عمره عمل في اثيوبيا مراسلا صحفيا لاحدى الجرائد الايطالية ثم مراسلا حربيا •

قضى بوتزاتي حياته كلها في ميلانو ، وكان وقته موزعا بين رسم اللوحات الفنية وكتابة الروايات والقصص • توفي عام ١٩٧٢ •

خلف بوتزاتي تراثاً أصيلا يتألف من عدد من الروايات ومجموعات قصصية • أما رواياته فأشهرها (صحراء التتر) وهذه الرواية هي التي اشتهر بها ، وسرعان مابوأته مكانة رفيعة في الأدب العالمي،فترجمت الى عدد كبير من اللغات ، وقد نشرت

في مصر منذ سنوات مترجمة الى العربية ·

ومن رواياته : (برنابو الجبال) و (سر بوسكوفيشيو) و (الصورة الحجرية) · أما آخر رواية له فرواية (حب) وفيها يستعيد الموضوع الذي طرحه في روايته الأولى صحراء التتر على نحو اكثر رهافة وواقعية ومهارة ·

ويعرض في كتابه (في هذه اللحظة المحددة) مشاهد وخواطر في الحياة وآراءه وتأملاته ·

أما قصصه المرهفة التي يمتزج فيها الواقع بالفنتازيا والألم بالسخرية فقد صدرت في المجموعات التالية : (انهيار الباليفرنا) و (ك ···) و (الرسل السبعة) · ثم ظهرت له بعيد وفاته في فرنسا (١٩٧٣) مجموعتان قصصيتان على قدر كبير من الأهمية اذ بلغ فيهما فنهالقصصي أعلى ما وصل اليه من تصوير للوحدة، والألم ، باسلوب هادىء لاذع فيه تجديد في البناء القصصي وفيه حداثة في التقنية ، وهاتان المجموعتان هما مجموعتا (الليالي الصعبة) و (حلم الدرج) ·

وقد عرف القراء العرب بعضاً من قصصه مترجمة من مجموعاته الأولى كقصة « الادوار السبعة » (وقد أعدها ألبير كامو اعداداً مسرحياً على قدر كبير من الروعة) والرسل السبعة ، وحدبات في الحديقة ، وقد نشرت كلها في المجلات الأدبية ·

ولقد جهدنا أن تكون القصص المترجمة ههنا ممثلة لرؤيته وعالمه الفكري من جهة ، ولاسلوبه الفنيمن جهة اخرى ، وكان جل اعتمادنا في الاختيار على مجموعتيه الأخيرتين ·

ج · س ·

١ ـ المعطف

بعد انتظار طويل ، عاد جيوفاني الى منزله ، وقد بدأ الأمل برجوعه يتلاشى • لم تكن الساعة قد شارفت الثانية ، وكانت امه قد فرغت من رفع المائدة ، والغربان تطير في سماء آذار الرمادية •

ظهر جيوفاني على العتبة فجاة ، فصرخت امه وهي تسارع الى تقبيله : « تبارك الله » • وراحت أخته الصغيرة آنا وأخوه بيترو يصرخان فرحا • ها هي ذي اللحظة التي طال انتظارها منذ شهور وشهور ، هذه اللحظة التي طالما اثيرت في الأحلام العذاب في الفجر الوليد ، ستحمل السعادة إلى هذا المكان •

لم ينطق بكلمة لشدة ما كان يعاني من ألم في حبس دموعه ،ولم يكد يضع بصعوبة حقيبة الظهر الثقيلة على الكرسي ، وهو ما يزال يعتمر قبعته القماشية حتى صرخت أمه من خلال الدموع : «دعني أنظر اليك » وتراجعت قليلا : « دعني أرى جمالك ، لكنك شاحب بعض الشحوب ، أترى ••• »

كان ذلك صحيحا ، فهو شاحب الوجه ، مجهد • رفع قبعته وتقدم الى وسط الحجرة وجلس • يا للارهاق الشديد ، وبدا أن الابتسامة نفسها تتعبه •

قالت الأم التي كانت تنظر اليه نظرتها الى معجزة حية ، فيما يشبه الخجل :

ـ هيا اخلع معطفك ، يابني ، اخلع معطفك وأعطنيه ، ألا تشعر بشدة الحرارة (ما أكبره، وما أشد جماله وشموخه على الرغم من هذا الشحوب المفرط) •

بدرت منه حركة دفاع خفيفة ، غريزية ، وهو يضغط نفسه فجاة في معطفه كما لو كان يخاف أن ينزع منه • وأجاب مراوغا :

ـ لا ، لا ، دعيني ، فأنا أفضل أن أحتفظ به • وعلى كل فسوف أخرج عما قريب •

قالت الأم في حزن بالغ وهي ترى الفرحة الغامرة يحل محلها أسى الأمهات الأبدي :

ـ ستعود ؟ لقد أتيت بعد انقضاء عامين ، وتريد أن تعود للتو ؟ هل ستخرج فورا ؟ ولكن لابد أن تتناول شيئا من الطعام ؟

أجابها الابن بابتسامة عذبة ، بينما كانت نظرته تتيه في الحجرة على الزوايا المألوفة :

- لقد سبق أن أكلت ، فقد توقفنا في نزل ما ، على بعد بضعة كيلو مترات من هنا ...
- آه ، فانت لم تأت وحدك ؟ ومن كان معك ؟ واحد من رفقائك في الجيش ؟ لعله الابن مينا ؟
- لا ، لا ، انه واحد التقيت به في الطريق ، وهو في الخارج ينتظرني ٠
- أهو هنا ينتظر ٠ ولكن لماذا لم تدخله ؟ هل تركته هكذا على قارعة الطريق ؟

مضت الى النافذة ولمحت في الجهة الأخرى من الباحة ، على الطريق ، خلف الحاجز الخشبي ، شخصا يسير ببطء جيئة وذهابا ٠ خيال أسود ، متداخل بعضه في بعض ٠ آنذاك ولد في نفس المرأة وسط دوامات فرحها الواسع ضيق غامض خفي حاد ٠

قال الابن بلهجة جازمة :

- من الخير ألا تفعلي ٠ فهذا يضايقه ، انه انسان من طراز خاص ٠
- ألا نستطيع أن نحمل اليه كاسا من الخمرة ، كاسا من الخمرة ...
- من الأفضل ألا تفعلي ، فهو انسان عجيب الأطوار ، وقد يغضبه ذلك ٠
- ولكن من تراه يكون ؟ ولماذا اصطحبته معك ؟ وماذا يريد ؟

قال ببطء ووقار :

- لا أعرفه معرفة عميقة ٠ لقد التقيت به في الطريق ، وجاء معي ٠ وهذا كل مافي الأمر ٠

كان يبدو كانه يفضل أن يتحدث في موضوع آخر ، وكان يبدو خجلا ٠ عمدت الأم الى تغيير الموضوع كيلا تغيظه ٠ الا أن الضياء الذي غمر وجهها بدأ يشحب ٠ قالت :

- هل تقدر مدى فرح مرتيا حين ستعلم بعودتك ؟ هل تستطيع أن تتخيل قفزاتها من الفرح ؟ أمن أجلها تريد الخروج ؟

اكتفى بالابتسام ، وهو مايزال يحتفظ بتعبير من يود أن يظهر بمظهر المسرور ولكنه لا يتوصل الى ما يريد بسبب حمل ينوء به ٠

يئست الأم من الفهم : لماذا يظل جالسا حزينا ، كما حدث يوم رحيله البعيد ؟ لقد عاد الآن ، وان أمامه حياة جديدة ، وأياما لا تحصى خالية من المشكلات ، وسهرات عديدة جميلة يقضيها بين أفراد أسرته وأشياء اخرى كثيرة ، كل ذلك يتوالى على شكل سرب طويل يضيع في الطرف الآخر من الجبال ، على مدى السنين العديدة الآتية ٠

لقد انتهت الى الأبد ليالي القلق تلك ، حين كان بريق الرصاص يمزق الأفق ، حتى ليظن الناس أنه كان هناك ، ممددا على الأرض بلا حراك ، مثقوب الصدر ، بين الأطلال الملطخة بالدماء ٠

ها هو ذا قد عاد أخيرا ، اكثر جمالا ، وأطول قامة ، فيا لسرور مرتيا ٠ سيحل الربيع عما

قريب ، وسيعقد قرانهما في الكنيسة في صباح أحد أيام الأحد ، بين رنين الأجراس وعطر الأزهار • ولكن لماذا يظل طائش اللب شاحب اللون ، ولماذا كف عن الضحك ، ولماذا لايسره بطولاته ؟ ومعطفه هذا ، لماذا يحتفظ به رغم حرارة الجو ؟ أتراه يفعل ذلك لأن ثوبه الرسمي ممزق ملطخ بالوحل ؟ الا أنه مع أمه ، فكيف يمكنه أن يخجل أمامها ؟ لقد بدت الآلام على وشك الانتهاء ، وهاهو ذا هم جديد ينبجس •

كانت تتفحص قلقه ، وجهه العذب المحني قليلا على جنبه ، تحاذر ان تغيظه ، متاهبة ان تلبي بسرعة ادق رغائبه • ألعله مريض ، أم أن التعب الطويل قد استنفد قواه ؟ لماذا يصمت ، ولماذا لا يوليها حتى نظرة واحدة ؟

والحق أن ابنها لم يكن ينظر اليها ، بل هناك ما هو أسوأ من ذلك : فقد كان يبدو أنه يتجنب نظرتها كانه يخشى شيئا ما • وأثناء ذلك كان أخواه الصغيران يتاملانه صامتين متضايقين على نحو فضولي • وفقدت الأم قدرتها على المقاومة •

تمتمت :

ـ جيوفاني ، ها أنت هنا اخيرا • أخيرا • انتظر ريثما اهيىء لك القهوة الآن •

ومضت مسرعة الى المطبخ • وظل جيوفاني مع أخيه وأخته اللذين يصغرانه سنا ، حتى لو أنهم التقوا في الطريق مصادفة لما عرف بعضهم بعضا • يالهذا التغير الذي طرا خلال هذين العامين • وها هم الآن يتبادلون النظرات صامتين لأنهم لم يجدوا الكلمات المناسبة ، الا ان الثلاثة كانوا يبتسمون معا بين حين وآخر ، كانهم يذعنون لميثاق ماض ما يزال حيا في نفوسهم •

ها قد عادت الأم ، وها هي القهوة تنشر البخار ، مع قطعة جميلة من الكاتو ، جرع القهوة دفعة واحدة ، ومضغ قطعة الكاتو بصعوبة • « لماذا ؟ ألم تعد تحبها ؟ لقد كنت في الماضي شديد الشره ••• » أوشكت الأم أن تقول ذلك ، الا أنها لم تقل شيئا لكيلا تضايقه •

ثم اقترحت الأم ، قالت :

ـ جيوفاني ، أتريد أن ترى غرفتك ؟ لقد جددنا السرير ، هل تعلم ذلك ؟ وملطت الجدران ، وعلقت مصباحا جديدا • تعال وانظر ••• ولكن ، ألا تخلع معطفك ؟ الا تشعر بشدة الحرارة ؟

نهض الجندي من غير أن يجيبها ، وتبعها الى الحجرة المجاورة • كان يقوم بكل حركة ببطء ثقيل ، كانه لم يعد في العشرين من عمره • كانت أمه قد سبقته تفتح مصراعي النافذة (الا انه لم يدخل الغرفة الا ضياء رمادي خال من كل حبور) •

ـ ما اجمل هذا •

قال جيوفاني ذلك حين وصل الى العتبة بحماسة مهذبة ، وهو يرى الأثاث جديدا كله ،والستائر نظيفة جدا • والجدران بيضاء ، وكل هذه المجموعة تتنفس النضارة والنظافة • غير أنه القى نظرة

حين انحنت أمه تسوى غطاء السرير ـ المتوهج هو أيضا من النظافة ـ على كتفيهـا الهزيلتين ، نظرة فيها كآبة واسعة لا يستطيع أحد أن يلحظها • وكانت آنا وبترو خلفه ، يلتمع وجهاهما الصغيران في انتظار مشهد كبير من الفرح والدهشة •

الا أن شيئاً من ذلك لم يحدث • كرر الابن هذه الجملة : « ما أجمل هذا • شكرا يا إماه »•• ولم يزد على ذلك حرفا • كان في نظرته شيء من الشرود والضيق الذي يشعر به من يتمنون انهـــاء محادثة مرهقة بأسرع ما يمكن • الا أن هذه النظرة كانت تتجه ، في بعض اللحظـات ، مـع شيء من القلق ، إلى ما وراء النافذة ، نحو البوابة المطلية بالدهان الأخضر • وكان في الجـانب الآخـر مـن البوابة شخص يسير الهوينا جيئة وذهابا •

سألته الأم وهي تتعجل أن تراه سعيدا :

ـ هل أنت مسرور يا جيوفاني ، هل أنت مسرور ؟

فأجابها الابن (ولكن لماذا يصر على الاحتفاظ بمعطفه ؟) :

ـ آه ، نعم • انه لجميل جداً •

وتابع بذل مجهود كبير لكي يبتسم •

تضرعت اليه أمه ، قالت له :

ـ جيوفاني ، مابك ؟ مابك ياجيوفاني ؟ انك لتخفي عني شيئا ما • لماذا لا تريد أن تقول شيئا ؟

عض شفتيه ، وبدا كأن شيئا ما يعقد حنجرته ، ثم قال بعد لحظة بصوت مخنوق :

ـ اماه ، ينبغي أن اذهب في الحال •

ـ ينبغي أن تذهب ؟ ولكنك ستعود فورا أليس كذلك ؟ ستذهب الى مريتا ، اليس ذلك صحيحا ؟ قل لي الحقيقة : هل تمضي لتحضر مريتا ؟

كانت تسعى للمزاح من غير أن تتمكن من اخفاء حزنها •

اجابها بهذه النبرة المقتضبة ، المتحفظة دائما :

ـ لا أعرف يا أمي •

ثم اتجه نحو الباب • كان قد تناول قبعته القماشية •

ـ لا أعرف ، ولكن ينبغي ان اذهب الآن • فهناك ، ذاك الآخر الذي ينتظرني •

ـ ولكنك ستعود فوراً ؟ هل تعود ؟ ستعود بعد ساعتين أليس كـذلك ؟ سادعو العم جوليا ، والعمة ، تخيل كم سيكونان مسرورين هما أيضا ، حاول أن تكون هنا قبل موعد الغداء ••

اجابها بنبرة بدت كأنها نبرة استعطاف بالا تضيف حرفا ، وان تصمت شفقة عليه ، والا تزيد حزنه • قال :

ـ اماه ، ينبغي ان اذهب الآن ، فهناك ذاك الآخر الذي ينتظرني وقد بدا حتى الآن صبورا جـداً •••

والقى عليها نظرة تمزق النفس •

دنا من الباب ، واخوه الصغير واخته الصغيرة ما يزالان فرحين يكادان يلتصقان بـه ، وفجـأة رفع بيترو طرف معطفه ليرى كيف تكون ثياب اخيه الكبير الداخلية ، فصرخت الام خوفا من انيغضب جيوفاني :

« بيترو ، بيترو ، ماذا تفعل ؟ كفى ، بيترو ••• »

وصرخ الجندي في الوقت نفسه :

ـ كلا ، كلا •

الا ان ذلك كان بعد فوات الاوان • فقد انفصل طرفا الثوب الأزرق لحظة ما •

فتمتمت الأم وهي تضع يديها على وجهها :

ـ أوه ، جيوفاني ، يا صغيري ؟ ماذا فعلوا بك ؟ جيوفاني ، ما هذا الا دمك •

كرر الابن قولته مرة اخرى بصرامة يائسة :

ـ ينبغي أن أذهب يا أماه • فقد أطلت كثيرا أمد انتظاره ، الى اللقاء يا آنا ، الى اللقـاء يا بيترو ، الوداع يا اماه •

كان قد بلغ الباب • فخرج كانما تحمله الريح ، واجتاز الباحة وهو يكاد يركض وفتح البوابة• انطلق فارسان يخبان ، تحت السماء الرمادية ، لا نحو القرية ، بل عبر الحقول ، في خط مستقيمنحو الشمال ، في اتجاه الجبال • كانا يخبان ويخبان •

آنذاك فهمت الأم أخيرا ، وآنذاك اجتاح قلبها فراغ واسع لن تستطيع الدهور ان تملأه أبداً • وفهمت لماذا كان هذا المعطف ، وسبب حزن ابنها ، ومن كان ذاك الشخص الغامض بشكـل خاص ، ينتظر هناك ، وراء البوابة • ومن ذاك الشخص الحزين الذي كان في غاية الصبر • انه صبور رحيم حتى أنه اصطحب جيوفاني الى منزله القديم (قبل أن ياخذه معه الى الأبد •) لكي يتيح له أن يحيي أمه مرة أخرى ، وحتى أنه وقف ينتظر دقائق طويلات في الجهة الاخرى من البوابة • هو سيد العالم، وقف في غبار الطريق كمسكين جائع •

٢ ـ افتتاح الطريق

لقد حددوا منذ زمن بعيد يوم العشرين من شهر حزيران عام ١٨٤٥ موعدا لافتتاح الطريق الجديد البالغ من الطول ثمانين كيلو مترا بين العاصمة وسان بيرو ، وهي بلدة كبيرة يبلغ عدد سكانها أربعين الف نسمة تقع على تخوم الامبراطورية تقريبا ، معزولة وسط أراض مقفرة جرداء • وكان الحاكم الشيخ هو الذي بدأ بانشاء الطريق • الا أن الحاكم الجديد الذي انتخب منذ أقل من شهرين ، لم يهتم اهتماما كبيرا بالمشروع ، وكلف الكونت مورتيمر وزيرالداخلية بان ينوب عنه في حضور حفلة الافتتاح •

وقامت رحلة الافتتاح على الرغم من أن الطريق لم ينته كلياً ، وان العشرين كيلومترا الاخيرة، في اتجاه سان بيرو ، قد شيدت مبدئيا برصف أولي ، الا ان مدير الاعمال قد أكد انالعربات تستطيع أن تصل الى غاية الطريق ،وفضلا عن ذلك فلم يكن من المناسب في شيء أن يؤجل احتفال طالانتظاره• فسكان سان بيرو يرتجفون حماسة ونفاد صبر • ووصل في الأيام الأولى من شهر حزيران عشرات من الحمام الزاجل الى العاصمة حاملة رسائل تعلن الاخلاص للحاكم وتنبيء أن الناس في سان بيرو يهيئون انفسهم لمهرجانات كبيرة •

وهكذا فان موكب الافتتاح بدأ مسيرته يوم التاسع عشر من حزيران ، وكان مؤلفا من مفرزة من الخيالة وأربع عربات •

في العربة الأولى منها ركب الكونت كارلو مورتيمر وسكرتيره فاسكودتوي • ومفتش الأشغال العامة فنسنزو لاغوزي (وهو والد لاغوزي الذي سيسقط شهيدا ببطولة في معركة ريانت) مع المتعهد الملتزم فرانكو مازارولي الذي أشرف على تشييد الطريق •

أما القائد انتز ـ وزوجته ، وهي امرأة عجيبة شجاعة ، فقد ركبا في العربة الثانية ، ومعهما ركب موظفان حكوميان •

وركب في العربة الثالثة رئيس المراسم دون دييجو كرامبي وزوجته وسكرتيره الشاب اليافع ، ولا ننس الطبيب الجراح جيرولامو اتيزي •

وخصصت العربة الرابعة للخدم وللمؤونة لأنه لم يكن مؤكدا أن باستطاعة الانسان ايجاد شيء ياكله خلال الرحلة •

هذه الرحلة تمت بسرعة حتى باسوترن ، وهي قرية صغيرة قضى فيها المسؤولون ليلتهم • ولم يبق أمامهم الا أن يقطعوا في اليوم التالي زهاء ثلاثين كيلومترا ، عشرون منها ـ كما سبق أن قلنا قد ترغم الموكب على السير سيرا بطيئا عسيرا ، ما دامت الطريق لم تكن في حالة جيدة •

ورغبة من الشخصيات في الاستفادة من الساعات التي ما تزال باردة ، فقد انطلقوا في الساعة السادسة من باسوترن • وكان كل منهم يشعر بالراحة مع ان المنطقة التي سيجتازونها كانت بائسة على نحو خاص ، سهل تلهبه الشمس مكسو في بعض الأماكن منه بمرتفعات لاتحصى من التراب الاحمر ، ذات أشكال غريبة ، تعلو الى عشرة أمتار أو عشرين • أما الأشجار فنادرة ، وأما المنازل فاكثر ندرة أيضا • وكانوا يرون بين الفينة والفينة مخيمات صغيرة استعملها العمال فيما مضى في أعمالهم •

وكان عليهم ان يقضوا حوالي ساعة من الخبب السريع ليصلوا الى المكان الذي يصبح فيه الطريق غير مستقيم وأقل صلابة وأشد ضيقا • كان ثمة عمال عديدون ينتظرون ، وقد نصبوا بواسطة بعض الألواح الخشبية شيئا يمكن اعتباره قوسا مزينا بالأغصان وبقطع من القماش الأحمر •

كانت الخيول ترغم على السير البطيء ، وبدأت العربات تتمايل وهي تصر رغم صلابتها • كان الطقس حاراً جداً ، وكانت الأبخرة الرطبة تظل معلقة في الجو الساكن • وراح المشهد يبدو أقل جاذبية فلم يكن المرء يرى من جميع الجهات حتى الافق الا منبسطات من الأراضي المحمرة مزروعة في بعض الأماكن فقط بنباتات هزيلة •

وان نعاسا لايقهر جعل المحادثات تفتر في العربات ، كان الكونت مورتيمر وحده يبدو قلقا ، ينظر أمامه الى الطريق التي اضحت مترا بعد متر أقل صلاحية للسير •

انهارت العربة الثالثة فجاة • وكان لابد من التوقف ، فقد انغرزت احدى عجلاتها في حفرة ، وانتهى بها الأمر ، بعد الجهود المتكررة لاخراجها ، الى ان تنخلع كليا • وكان على رئيس المراسم وزوجه ، وسكرتيره الشاب والجراح ان يجدوا لأنفسهم مكانا في العربات الأخرى •

هذه المسيرة المتعبة استمرت مدة ساعتين (ولم تكن سان بيرو تبعد اكثر من عشرات الكيلو مترات) حين توقفت العربة الأولى بدورها في سلسلة من الارتجاجات الرهيبة • فالسائق النعسان لم يلحظ في الوقت المناسب أن رصف الطريق بالحجارة انتهى فجأة لكي يفضي الى ارض غير مستوية ، فسقط احد الخيول سقطة كبرى حتى كادت العربة تنقلب •

نزل الناس كلهم أرضا وظلوا مشدوهين جدا اذ لاحظوا بانه ، في هذا المكان ، تنتهي كل اشارة تدل على وجود طريق ما ، ولم يكن الانسان يرى أمامه أي أثر للخيول • ونادى الكونت مورتيمر بصوت يخنقه الغضب مازارولي المسؤول عن المشروع • الا أن مازارولي لم يأت ، فقد اختفى اختفاء لا يمكن تفسيره •

وظلوا جميعا خلال بضع دقائق كانما شلهم قلق غامض • واذ رأى مورتيمر أنهم لم يتمكنوا من العثور على مازارولي وان من العبث البقاء ههنا والاحتجاج على اهماله ، أرسل أحد الحراس

الى كوخ يقع على بعد بضع مئات من الامتار الى الامام ، ويكاد يندمج في أسفله بصخرة ضخمة ٠ كان شيخ يسكن هذا الكوخ ، فاقتيد الى حضرة مورتيمر ٠

وقال الشيخ انه لا يعرف شيئا عن الطريق ، أما سان بيرو فانه لم يذهب اليها منذ أكثر من عشرين عاما ، وهي تقع على بعد حوالي ساعتين من السير السريع ، وينبغي أن يجتاز المرء في الجهة المقابلة نوعا من الاراضي الصخرية ليست كثيرة الارتفاع ، يستطيع رؤيتها من هناك،ثم يدور حول مستنقع ٠ واضاف ان المنطقة كانت كلها غير مسكونة تقريبا وهكذا فليس ثمة اي درب فيها ٠

كان هذا الكلام مثيرا حتى ان الجميع بما فيهم مورتيمر قد لبثوا مسحوقين ٠ فتوقفالعمل في الطريق توقفا مفاجئا ، وعدم وجود اية حجرة محركة من موضعها بعد هذه النقطة لم يكن لهما اي تفسير مقبول حتى من اشد الناس جرأة ٠ وبعد لحظة من الحيرة انتقلوا الى دراسة أكثر الحلول منطقية : لم يبق أمامهم الا الرجوع الى الخلف ، ومحاولة القضاء على هذه الفضيحة التي لا نظير لها ، ومعاقبة المسؤولين عنها ٠

الا ان الكونت مورتيمر اعلن ، أمام دهشة الجميع ، بصوت حازم ، عن رغبته في متابعةالطريق، سيرا على الأقدام ، بما أنه لا يحسن ركوب الخيل ، فسكان سان بيرو ينتظرونه ٠ لقد تحمل هؤلاء الناس الفقراء نفقات باهظة ليهيئوا له استقبالا يليق به ، فليرجع الآخرون اذا ٠ أما هو فان عليه أن يقوم بواجب ثمين ٠

أخفقت كل الجهود التي بذلت لاقناعه ٠ كان الوقت يقارب الظهيرة حين شعر الجمع أنهم مكرهون على السير خلف الوزير ، فسلكوا الطريق سيرا على الأقدام يسبقهم الحراس ممتطين ظهور الخيل ، حاملين ما تبقى من طعام ٠ وعادت المرآتان وحدهما في العربة الى العاصمة ٠

كانت حرارة رهيبة تنتشر في الأرض المقفرة التي شققتها الشمس ومر القرون ، حيث لا ظل ولا خضار ٠ تقدم الجمع الصغير ببطء مرهق ، فاحذية الاحتفال الرشيقة لم تصنع لهذه الأرض المضطربة ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يخلع الثياب الرسمية الثقيلة المحشوة المحملة بالأوسمة ، مادام مورتيمر الهادئء الأعصاب ما يزال يتابع مسيرته منغير أن تبدر منه أية اشارةتنبيءبضيقه٠

كانت الامور تسير على هذا النحو منذ ما يقرب من نصف ساعة حين أعلن قائد الحرس أمام الوزير أن الخيول رفضت متابعة السير من غير أي سبب ظاهر ، وكان أيسر عليها أن تموت تحت وطأة المهاميز من أن تخطو خطوة واحدة الى الأمام ٠

في هذه المرة استسلم مورتيمر لغضب تام ، ولكي يحول دون آية مناقشة فقد أمر الحراس بأن يعودوا أدراجهم ، باستثناء اربعة منهم سيرافقون رجال السلطة ٠

في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر وصلوا الى كوخ صغير بائس ، وثمة فلاح توصل ـ والله

يعلم كيف حدث ذلك ـ الى جعل قطعة مـن الأرض صالحة للزراعـة ، وتربية يضع عنزات انعش حليبها المسافرين المنهكي القوى الظامئين • الا أن الانفراج لم يدم طويلا ، لان الراعي أكد لهم بأن أمامهم أربع ساعات من السير عـلى الأقـل ، حتى بالنسبة الى أفضل المشاة ، قبل أن يصلوا الى سان بيرو •

ان الطريق التي توقفت توقفا لا يمكن تفسيره ، وغياب الدروب ، ووحشة الأمكنة ، وسان بيرو التي بدت كأنها تبتعد على قدر ما كانوا يسيرون : كل ذلك ألقى صحب مورتيمر في حالة من الذعر الشديد • كان من اليسير جدا أن يضل الانسان في مثل هذه الصحراء : ومن ياتي عندئذ لنجدتهم اذا ما ضلوا في مدخل الجحيم هذا ؟ لقد أصابهم نوع من اللعنة ، مافي ذلك ريب•وكان عليهم اذا أن يهربوا ، ويهربوا ، من غير أن يضيعوا مزيدا من الوقت •

آنذاك أعلن الكونت مورتيمر انه سيتابع المسيرة وحده • كان بريق تصميم بلا جدوى يلتمع في نظرته • وبعد أن تزود بكيس من الطعام وزجاجـة ملأى بالمـاء خرج من الحقل واتجه بخطوات واسعة نحو السطح الصخري حيث يستطيع الانسان ، على حـد قول الفلاحين ، أن يرى في وضوح أبراج سان بـيرو وقباب أجراس كنائسها وهـي تلوح من بعيد • أما الآخرون فقد ترددوا خـلال بضع دقائق ، ثم قرر اثنان منهم وهما فاسكو دتوى السكرتير ، والطبيب اتيزى ان يلحقا بالوزير• فقد قدرا تماما انهما سيقطعان نصف الطريق قبل حلول المساء •

ومضى الثلاثة صامتين ، تتألم أقدامهم فوق الأراضي الملتهبة الصخرية ، تحت سماء محرقة وكان عليهم أن يسيروا ساعتين ليبلغوا قمة السطح الصخري : الا انهم لم يستطيعوا ان يميزوا سان بيرو فقد ركد على الأرض كثير من الأبخرة •

وساروا بعضهم خلف بعض يتبعون اشارات بوصلة صغيرة كان مورتيمر قد علقها في سلسلة ساعته ، وخلفوا وراءهم السطح ، ووجدوا أراضي جديدة جافة وقطعا صخرية • ولم تكن الشمس لتسمح باية مهلة •

وعبثا ترصدوا قلقين أن يروا من خلل الغيوم ظل قبة جرس ما • لقد قاموا ، بشكل بديهي ، بالتفافة طويلة ، هذا ان لم يكونوا قد حسبوا سرعتهم في المشي بتفاؤل مبالغ فيه ، ومهما يكن من أمر فانهم لم يسقطوا شيئا كثيرا في حسابهم •

كان المساء قد حل حين رأى رجالنا الثلاثة شيخا قصير القامة يمتطي حمارا وهو يقترب منهم• كان عائـدا مـن حقله الواقع في احدى النواحـي ـ كما شرح لهم ذلك ـ ومتجهـا نحو باسوترن ليشتري بعض الأشياء •

سأله مورتيمر :

ـ أما تزال سان بيرو بعيدة ؟

كرر الشيخ وكانه لم يفهم : سان بيرو ؟

ـ سان بيرو ، البلدة ، عجبا ، ألا تعرفها ؟

قال الشيخ أيضا وكانه يتحدث الى نفسه :

ـ سان بيرو ، كلا ، ان هذا الاسم لا يعني شيئا بالنسبة الي أيها السادة الأعزاء • آه بلى ، أظن أني تذكرت الآن (اضاف ذلك بعد فترة صمت) بلى • لقد كان يحدث أن يحدثني أبي عن بلدة تقع هنالك (وقام بحركة كانه يشير الى الافق) بلدة كبيرة كان اسمها من هذا القبيل • سان بيرو أو ربما سان ديررو • ولكنني في الواقع لم أصدق ذلك قط •

وابتعد الشيخ القصير مع حماره في الاتجاه الآخر • فجلس الثلاثة فوق الحجارة • لم يجرؤ أي منهم أن يتكلم قبل غيره • وعلى هذا النحو تركوا الظلام يخيم •

وأخيرا تكلم مورتيمر في الظلمة قال :

ـ حسن ، أيها الصديقان العزيزان • لقد ضحيتما كثيرا من أجلي ، فاذا بزغ الفجر فعليكما أن تسلكا طريق العودة • أما أنا فساتابع الطريق • اني لأعرفه بعد اليوم • ساصل متاخرا ، الا أنني لا أريد أن يكون الرجال هنالك ، في سان بيرو ، قد انتظروني عبثا ، لقد انفق هؤلاء الصغار الفقراء كثيرا من المال على شرفي •

ومن ثم ، رأ دوتوى واتيزى أن الريح قد بددت في الصباح كل الغيوم فوق السهل ، الا أن منازل سان بيرو لم تكن مرئية ، فقرر مورتيمر وهو متصامم عن توسلاتهم ، أن يتابع وحدهالطريق المفتتح الى الأفق الموحش ، من خلال هذه الصحراء التي بدت وكان عليها أن تستمر الى الأبدية •

ورأياه يتقدم بخطا بطيئة ولكنها مصممة ، وسط الحجارة اليابسة ثم يختفي • وخيل اليهما أنهما رأيا مرة أو مرتين ، بريقا خاطفا : كان ذلك بريق الشمس على أزرار بزته الرسميةالكبيرة •

٣ ـ طالب الشفاء

كان سور عظيم يحيط بمصحة البرص على الهضبة ، على بعد كيلومترين من المدينة • وثمة فوق السور حراس يقومون بالحراسة على نحو مستمر • كان بعض هؤلاء الحراس فظا متعجرفا ، وكان بعضهم ، على خلاف ذلك ، يشعرون بالشفقة • ولهذا فقد كان المصابون يجتمعون عند أسفل السور ويطرحون الأسئلة على أكثر الجنود لطفا • كانوا يقولون مثلا :

ـ ماذا ترى ياغسبار هذا المساء ؟ هل هناك أحد على الطريق ؟ هل هناك عربة ؟ قل لنا ؟ وما شكل هذه العربة ؟ وهل اضيء قصر الملك ؟ هل وضعت المشاعل على البرج ؟ هل عاد الأمير ؟

وكانوا يتابعون القاء أسئلتهم على هذا النحو ، خلال ساعات ، دون أن يملوا • وكان الحراس ذوو القلوب الطيبة يجيبونهم عن أسئلتهم رغم النظام الذي يمنعهم من ذلك ، فيختلقون ، في معظم الأحيان ، ما يمر في خواطرهم من أشياء : مجيء التجار ، والاضاءة والحرائق ، وحتى انفجار بركان ايرماك نظراً لأنهم يعرفون أن أي نبأ جديد كان نوعا من التسلية العذبة بالنسبة الى هؤلاء الناس المحكوم عليهم بالا يخرجوا من هناك ابدا • وحتى المرضى المسنون انفسهم ، والمدنفون ، يشاركون في هذه الامسيات ، بعد أن يحملهم البرص الذين ما يزالون أصحاء على المحفات •

كان مريض واحد لا ياتي معهم قط • شاب دخل المصحة منذ شهرين • كان فارسا ينحدر من أسرة عريقة ، على قسط عظيم من الجمال ، ولكن كان من الصعب تبين ذلك الجمال لشدة ما فعل البرص بكيانه فشوهه تشويها كاملا • كان يدعى مسيريدون •

وكان الآخرون يسالونه وهم يمرون امام كوخه :

ـ لماذا لا تاتي ؟ لماذا لا تاتي انت أيضا وتستمع الى الأنباء • لسوف يطلقون في هذه الليلة الأسهم النارية ولقد وعدنا غسبار بان يصفها لنا • سيكون ذلك مدهشا •

كان يجيبهم بلطف وهو يخرج الى باب غرفته ، ووجهه الحيواني مغطى ببرقع أبيض :

ـ أيها الأصدقاء ، انني أدرك تمام الادراك أن الانباء التي ينقلها اليكم الحارس تحمل العزاء الى نفوسكم ، وهذه هي الرابطة الوحيدة التي تربطكم بالعالم الخارجي وبالأحياء • هذا صحيح ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، لا شك في أن هذا صحيح •
ـ وهذا يعني أنكم أذعنتم الى عدم الخروج من هنا ، أما أنا •••
ـ وماذا عنك ؟

ـ أما أنا فعلى النقيض منكم ، انني سابرأ ، فانا لم أذعن ، أريد ، افهموا ما أعني ، أريد أن أعود الى ما كنت عليه من قبل •

كان جياكومو الشيخ الحكيم ، وزعيم الجماعة ، يمر كالآخرين أمام كوخ مسيريدون وكان يبلغ من العمر مئة وعشر سنوات على أقل تقدير ، وكان البرص يلتهمه منذ حوالي قرن ، فلم يكن فيه ما يمكن أن نسميه أعضاء ، اذ ليس يستطيع المرء أن يميز رأسه أو ذراعيه أو ساقيه : كان جسمه قد استحال شيئا يشبه القصبة ، يبلغ قطرها ثلاثة سنتمترات أو أربعة ، تنتصب ، والله

وحده يعلم كيف تحافظ على توازنها ، وتتهدل فوقه خصل من الشعر الأبيض شبيهة بالمذبات التي يستعملها النبلاء في الحبشة · كيف كان يرى ويتكلم ويقتات ؟ كان ذلك لغـزاً ، لأن وجهـه كان مشوها ، ولم يكن المرء يميز أية فتحة في القشرة البيضاء التي تغطيه ، القشرة التي كانت نوعـا من لحاء الشجر · الا أن هـذه كانت أسرار البرص · امـا طريقته في المسير ، بعد أن اختفت كل مفاصله ، فكانت نوعا من القفز على الرجل الوحيدة التي بقيت له ، أو قل انها مدقة أو عصا · ولم يكن في ذلك كله أية ظاهرة مفجعة ، بل كانت تبدو أقرب شيء الى اللطف · انه انسان قـد تحول عملياً الى نبات ، ولما كان كريم النفس ذا ذكاء حاد فان الآخرين يبدون نحوه كثيراً من الاكرام·

توقف جياكومو حين سمع كلمات مسيريدون ، وقال له :

ـ مسيريدون ، أي فتاي المسكين ، انني ههنا منذ حوالي مئة عام ، ولم يخرج واحد قط من كل الذين وجدتهم هنا أو ممن دخلوا بعدي · ان طبيعة مرضنا ترغمنا على ذلك · ولسوف تـرى أننا ، حتى في هذا المكان ، نستطيع أن نعيش · فبعضنا يعمـل ، وبعضنا يحب ، وبعضنا يقرض الشعر ، وبيننا الخياط والحلاق ·· بل يمكننا كذلك أن نكون سعداء ، أو ألا نكون ، على الاقل، أكثر شقاء من الناس الذين يعيشون في الخارج · ان المهم أن يعرف المرء أن يذعن · ولكن حذار يامسيريـدون ، فـاذا تمردت نفسك ، ورفضت ان تتكيف ، ونزعت الى شفاء لا معقول ، عند ذاك سيمتلىء قلبك مرارة ·· وكان الشيخ طوال حديثه هذا ، يهز شعره الأبيض الجميل ·

أجابه مسيريدون :

ـ أجل · انني بحاجة الى الشفاء ، فانا غني ، ولو انك تسلقت الأسوار لاستطعت أن ترى قصري وقبتيه الفضيتين اللتين تلتمعان في ضوء الشمس ، ان هناك خيولي التي تنتظرني وكلابي، وصيادي وامائي الفتيات اللطيفات أيضا · افهـم ما أقول ، أيهـا العصا الكبيرة ، أيهـا العصا الحكيمة ، يجب أن أشفى ·

قال جياكومو وهو يضحك ضحكة عميقة :

ـ لو كـان يكفي ، لكـي نشفى ، أن تكون بحاجة الى ذلك ، لكان الأمـــر في منتهى اليسر ولوجدنا أنفسنا جميعاً ، على تفاوت حظوظنا ، قد شفينا ·

وألح الشاب يقول في عناد :

ـ أما أنا فعندي وسيلة الشفاء · عندي الوسيلة التي يجهلها الآخرون ·

قال جياكومو :

ـ أوه ، انني أشك في ذلك · فثمة دائما أناس حاذقون يقدمون لمن يفدون حديثا مراهـم سحرية ومعجزات ، لقاء شيء من المال ، ولقد وقعت أنا أيضا في فخاخهم حين كنت شابا ·

ـ كلا ، لست أستعين بالمراهم السحرية ، انني اقتصر على الصلاة وحسب •

ـ انت تطلب من الله أن يشفيك ؟ ولهذا فانت مقتنع بانك ستشفى ؟ ولكننا جميعا مصلينا، ماذا تظن ؟ ليس يمر يوم دون أن نتجه بافكارنا نحو الله ، ومع ذلك فمن ذا الذي •••

ـ صحيح انكم تصلون جميعا ، ولكنكم لا تصلون مثلي • فانتم تذهبون كل مساء لتصغوا الى الحارس ، أما أنا : فاصلي • أنتم تعملون وتدرسون وتلعبون بالورق وتعيشون كما يعيش سائر الناس تقريبا ، اما انا : فاصلي • وباستثناء اللحظات الضرورية جدا التيانفقتها فيالطعام والشراب والنوم ، فانا أصلي دون ان اتوقف قط • بل انني أصلي حتى حين آكل ، وحين أنام ، وقد انتهى الأمر بارادتي الى درجة صرت فيها ، منذ بعض الحين ، أحلم بانني ساجد ، أصلي • ان صلواتكم ليست الا مزاحا • ان الصلاة الحقيقية هي تعب مستمر • حين يحل المساء أشعر أن التعب قد أعياني • وإن من الصعوبة بمكان أن اعود لأبدأ الصلاة مرة جديدة عند الفجر وانا لم أكد أستيقظ • حتى أن الموت ليبدو لي في بعض المرات خيرا من ذلك • الا انني أتحامل على نفسي ، واركع • كان ينبغي ان تعرف هذه الامور ياجياكومو وانت الشيخ والحكيم •

راح جياكومو يتارجح وكانه اصبح عاجزا عن حفظ توازنه ، وانحدرت الدموع على القشرة الرمادية التي تغطي وجهه •

بكى الشيخ وهو يقول :

ـ هذا صحيح ، هذا صحيح • فانا ايضا حين كنت في مثل سنك •• ارتميت مثلك فيالصلاة وثابرت على ذلك خلال شهور سبعة طوال ، فانغلقت جروحي وأصبح جلدي أملس •• وشفيت •• ولكنني كففت فجاة عن الصلاة فضاعت كل صلواتي •• انظر الى اية حال صرت بعد ذلك •

قال مسبريدون :

ـ والآن ، ألا تعتقد انني •••

فتمتم الشيخ :

ـ كان الله في عونك ، فلست أستطيع أن أقول لك شيئا آخر•فليمنحك العلي القدير القوة• ثم توجه ، وهو يقفز ، نحو الاسوار العالية حيث تجمع الآخرون •

راح مسبريدون يصلي وقد سجن نفسه في كوخه ، غير مبال بنداءات البرص • كان يعض على أسنانه ، وفكره متجه باجمعه نحو الله ، وهو يتعب ويتعرق تحت وطاة الجهد • كان يجاهد ضد الشر ، وأخذت البثور القذرة ترمد شيئا فشيئا • وتسقط ، مخلفة وراءها لحما سليمة • وانتشر هذا النبأ بسرعة ، فتجمع الفضوليون حولكوخه ، وخلعالمرضى على مسبريدون شهرة قديس•

ترى هل يتاح له ان ينتصر ، أم أن كل هذا العناء سيذهب أدراج الرياح ؟ وانقسم الناس

فريقين : فريق يناصر هذا الشاب العنيد ، وآخر يقف ضده • الى ان كان اليوم الذي خـرج فيه مسيريدون من كوخه بعد أن مر حوالي سنتين على سجنه نفسه فيه • فاضاءت الشمس أخيراً وجهه الذي لم يكن عليه أي أثر من آثار البرص : كان وجهاً يطفح بالجمال •

صرخ الجمع الذي كان يتارجح بين دموع الفرح وآلام الحسد :

ـ لقد شفي ، لقد شفي •

أجل ، كان مسيريدون قد شفي ، الا أنه كان بحاجة الى ورقـة رسمية لكي يستطيع الخروج من المصحة • فمضى الى الطبيب الذي كان يقوم كل اسبوع بجولته على المرضى ، وخلع ثيابـه ثـم عرض نفسه عليه •

قال له الطبيب :

ـ أيها الشاب ، تستطيع أن تعتبر نفسك محظوظا • وعلي أن أسلم بانك شفيت تقريبا •

فسأله الشاب الذي خاب فاله ، بمرارة :

ـ تقريبا ؟ ولماذا ؟

اجابه الطبيب وهو يشير بعصا رفيعة ، لكيلا يلمسه ، الى نقطة رمادية اللون لا تكاد تتجاوز القملة في حجمها ، على الاصبع الصغيرة في رجل مسيريدون •

ـ انظر ، انظر الى هذه القشرة الصغيرة الملعونة ، اذا كنت تريد أن نعيد اليك حريتك ، فينبغي أن تقضي على هذه الهنة أيضا •

عاد مسيريدون الى كوخه ، وما من أحد استطاع أن يعرف قط ، بل هو نفسه لم يستطع أن يعرف كيف أتيح له أن يتغلب على يأسه ، لقد ظـن أنه نجـا اخيرا • كان قد القى بكل طاقته في المعركة ، وتهيأ لينال مكافاته : فاذا هو يجد أن عليه أن يعاود عذابه الشديد •

قال له جياكومو الشيخ :

ـ تشجع ، فما عليك الا أن تبذل مجهوداً صغيراً آخر ، لقد قمت بالمجهود الاصعب ، وسيكون من الحمق أن تعدل عن ذلك الآن •

كان ذلك انتفاخا لا يرى بالعين المجردة فوق الاصبع الصغيرة من احـدى رجليه : ومـع ذلك فقد بدا وكانه لا يريد أن يزول • مر شهر وشهر آخـر من الصلوات الحارة غير المنقطعة ، ولـم يحدث شيء ، ثم مر شهر ثالث ورابع وخامس •

لا شيء • كان مسيريدون على حافة الهزيمة حين لاحظ ذات ليلة وهو يمـر بيده على رجلـه المصابة ، وبحركة آلية ، أنه لم ير عليها القشرة الصغيرة البتة •

حمله المرضى بانتصار • لقد تحرر الآن ، وراح كل منهم يودعه أمام ثلة الحرس • ثمرافقه

جياكومو الشيخ وحـده ، وهو يقفز ، حتى باب المدخـل ، حيث تثبتوا من أوراقـه والشهادات ، واستدار المفتاح في القفل وهو يصر ، وفتح الحارس الباب •

بـدا العالـم الخارجي في ضوء الفجر ، بكل عذوبته ووعـوده : الغابات والبراري الخضـر وزقزقة صغار العصافير ، وهـذه البلـدة البعيدة الملتمعة المتموجة بابراجهـا البيض وأسطحتها المزدانة بالحدائق المعلقة ، وراياتها الخفاقة في الهواء ، والطيارات الورقية ذات الاشكال المتعددة، على صورة الافاعي والتنانين ، وتحت ذلك كله كانت النساء والشهوات والمتع والمغامراتوالمؤامرات والسلطان والأسلحة : مملكة الانسان •

لاحظ جياكومو الشيخ وجه الشاب ، وهو حريص عـلى رؤيته يضيء فرحا • وفي الحق فقـد ابتسم مسبريدون لهذه الحرية ، ولـكن ذلك لم يـدم الا هنيهة فقط اذ راح الشاب يشحب لونه فجـــأة •

ساله الشيخ ، وقد ظن ان الانفعال قـد أخذ عليه انفاسه :

ـ ما بك ؟

وقال له الحارس :

ـ هيا هيا أيهـا الشاب • ينبغي ان اغلق البـاب ، اسرع الى الخروج • لست أظـن اننا سنرجوك ان تخرج •

الا ان مسبريدون خطا خطوة الى الوراء وهو يخفي عينيه بيده •

ـ آه • ان هذا لرهيب ••

عاد جياكومو يساله :

ـ ما بك ؟ هل أنت مريض ؟

قال مسبريدون :

ـ لا أستطيع •

لقـد تغير المشهد أمامه فجاة : ففي مكـان الابراج والقباب امتدت ، في تلك الآونة ، أكوام قذرة من الأكواخ المتربة ، مغطاة بالاوساخ والبؤس • وتركت الرايات امكنتها على أسطحة المنازل لسحب كثيفة من الحشرات •

ساله الشيخ :

ـ ماذا ترى يامسبريدون ؟ قل لي : اترى الادران والنتن حيث كان كل شيء رائعا من قبل ؟ أترى مكان القصور أكواخا كريهة ؟ أهذا ما تراه يامسبريدون ؟

ـ نعم ، نعم • لقد غدا كل شيء رهيبا • ما سبب ذلك ؟ وماذا حدث ؟

قال له زعيم الجماعة :

ــ كنت أعرف ذلك ، كنت اعرف ذلك ولكنني لم اجرؤ على أن اقوله لك • ذلكم هو مصيرنا البشري أن ندفع ثمن كل شيء غاليا ، ألم تتساءل قط من ذا الذي يهبك القدرة على الصلاة ؟ فما من شيء يستطيع أن يقف أمام صلوات كصلواتك حتى غضب السماء نفسها • لقد انتصرت وشفيت ، وعليك الآن أن تدفع الثمن •

ــ ولماذا أدفع الثمن ؟

ــ ذلك بأن النعمةكانت تعضدك • وان نعمة العلي القدير لا تسامح • لقد شفيت ، ولكنك لم تعد الشخص الذي كنت • ومن يوم الى آخر ، وعلى قدر ما كانت النعمة تعتمل داخلك ، كنت تفقد ، دون أن تدري ، نكهة الحياة • كنت آخذاً في الشفاء ، ولكن الاشياء التي كنت تريد من أجلها أن تشفى ، كانت تنفصل شيئا فشيئا وتصبح خيالات ، ومراكب تبحر على غير هدى فوق اوقيانوس الأجيال • كنت اعرف ذلك • لقد خيل اليك أنك انتصرت ، الا أن الله هو الذي انتصر عليك • وهكذا فقد فقدت رغائبك الى الأبد • أنت غني ، الا أن المال لم تعد له قيمة بالنسبة اليك • وأنت شاب الا أن النساء لم تعد تعنيك • ان المدينة تبدو لك كومة من السماد ، لقد كنت نبيلا فاصبحت الآن قديسا • هل ادركت الفرق ؟ لقد أصبحت واحدا منا أخيرا يامسيريدون • ان السعادة الوحيدة التي تستطيع ن تلتمسها هي أن تبقى بيننا ، نحن البرص ، وتعزينا ••• هيا أيها الحارس ، في وسعك أن تغلق الباب فنحن عائدان •

وسرعان ما أطاع الحارس أمره •

٤ ــ ضروب من الوحدة

١ ــ الجدار :

انطلقنا قبيل الفجر أنا والشيخ ستراتزينجر ، وهو أحد أدلاء جبال الألب وصديق حميم ، وأخي أدريانو ، لنتسلق الجدار الجنوبي الشرقي من جبل أوتاموراغل في جبال الألبموطنالإحلام•

ووفقا لطبيعة هذه المرتفعات فان المقصود بالجدار ذلك الجدار الهائل حيث يختلط الجليد بالصخور والرمال والتراب والنباتات والأبنية التي شيدها الناس •

حين خرجنا من الملجأ كان مطر ناعم يتساقط فوقنا ، ومجموعة من السحب المتلاحمة تغطي الجبال تغطية كاملة • واعترف أنني ابتهجت لذلك ، فحتى أكثر متسلقي الجبال حماسة ، لابد أن يبتهج أول وهلة اذا كان الطقس يحول دون تحديه الاخطار ، على شرط أن يسكب الدموع المرة ، بعد ذلك ، على الفرصة المضاعة •

الا أن ستراتزينجر قال : « اننا محظوظون ، فسيكون اليوم جميلا جدا » وسرعان ما تبددت كتل الغيوم ولم يبق الا غلالة فضية من فتات الثلج ، وخلفها انبسطت السماء البنفسجية وجدار أوتاموراغل الشاهق الذي كانت الشمس قد غمرته ·

ربطنا الحبال حولنا ، واندفعنا نحو قناة مـن الجليد القاسي شديدة الانحدار ، حيث كانت الكلابات تلج الجليد ، رغم ذلك ، كأنما تلج الزبدة ·

كانت الأبواب والنوافذ تفتح وتغلق من الجهتين فوق منحدرات الصخرة الشاقولية التيكانت تحدد القناة ، وكانت ربات البيوت يجتهدن في تنظيف المنازل ومسحها وترتيبها · كن يريننا جيداً، طبعا ، ما دمنا قريبين منهن ، ولكنهن لم يكن يبالين بنا ·

ثم ان الجدار كله كان يسكنه أناس يعملون في مكاتب صغيرة ، يقرؤون أو يشتغلون ، الا انهم يجتمعون بخاصة ليتحدثوا في المقاهي المشادة فوق السطيحات وفي بعض الكهوف ·

وفي نقطة ما وجـدنا أنفسنا في قبضة جدار خطر جـدا ، مصنوع من حجارة ضخمة تتماسك فيما بينها بواسطة الاعشاب والجذور · لم يكن ثمة اي شيء متين · فاقترح ستراتزينجر أن نعود فننزل · أما أنا وأخي فقد كنا نريد أن نتابع الصعود ، عند ذلك قال ان من الأفضل أن ينفصل أحدنا عن الآخر · وعلى كل ، فاذا سقط واحد منا فان الاثنين الآخرين سينجرفان معه الى الكارثة حتما اذ لا وجود لمسك أمين ·

بعد فترة ما اختفى أخي وستراتزينجر خلف نتوء صخري · أما أنا فقد كنت متسلقا كتلة من الحجر ، لا تكاد تمسك بها الا الياف نباتية ، كانت تتارجح على نحو مقلق · وكانت مجموعة كبيرة من الناس تتناول المشروبات في أحد كهوف الجدار على بعد ثلاثة امتار ·

وقبل أن تنفصل الكتلة حاملة اياي الى الكارثـة ، توصلت في اندفاعه يائسة الى الامساك بقضيب معدني كان يظهر من بين الصخور ، على شكل حامل ، لتعلق عليه ستارة لاشك ·

وعلق أحد الشباب ضاحكا وهو ينحني على مدخل الكهف :

ـ « يالرشاقتك أيها الشيخ » ·

بذلت آخر جهودي لاحاول التعلق بـه وبداي متمسكتان بالقضيب الحديدي وجسمي متدل في الفراغ · وكانت الكتلة ، تحتي في ما تزال تتواثب في أعماق الهاوية المظلمة ·

راح الاطار الحديدي ، مع الأسف ، ينحني تحت ثقلي ، ثم ارتخى ، وكان من الواضح أنه سينكسر · وكان من أيسر الأمور على الرجـال الذين يتناولون المشروبات أن يمدوا لـي يدهـم وينقذوني · الا أنهم الآن لم يعودوا يهتمون بي ·

وبينما شرعت في السقوط ، في صمت الجبل المقدس ، استطعت أن أسمعهم بوضوح يتناقشون حول فيتنام ، وبطولة كرة القدم ومهرجان الأغنية •

٢ ـ الاعتراف :

كانت السيدة لورا باولا في الفراش ، تتالم ، ولم يكن في ذلك كبير خطر ، فقد قال الطبيب أنها قضية بضعة أيام •

لقد شعرت منذ بعض الحين بهذا التوعك المزعج ، الا ان أسرتها كانت تضايقها فتقول لها ان ذلك كله ليس الا فكرة ثابتة ، وقد أكد لها الطبيب نفسه أنه لا ينبغي لها أن تقلق •

بعد ظهر ذلك اليوم بينما كانت غافية أعلمتها خادمتها بقدوم الأب كوارزو من الدير القريب التابع للاخوة الفرنسيسكانيين الصغار ، وكانت لورا باولا تعترف في العادة عندهم ، ماذا تراه جاء يفعل ؟

قال لأب كوارزو وهو يدخل : « صباح الخير يابنتي العزيزة ، كنت ماراً في هذا الحي ، أقوم بجمع المال لأولادي المشوهين المساكين ، وخطر لي أن أطرق بابك • وقيل لي انك •• ولكن ليس لهذا الأمر أهمية • هيا ، تشجعي ، قفي • اريد أن تكوني سليمة صلبة كما عهدتك دائما • امرأة عصرية نشيطة مثلك وبالمناسبة •• ماذا جرى للعجوز القصيرة اللطيفة التي كانت تفتح لي الباب ؟ » •

قالت لورا باولا : « لا تحدثني عنها يا أبت ، لقد بلغت حداً كبيراً من الشيخوخة ، ولم تعد قادرة على فهم أي شيء ، ولم تعد تصلح لشيء ، وكان علي أن أصرفها » •

ـ ومنذ كم سنة كانت تعمل عندكم ؟

ـ من يدري ؟ منذ ولدت • لقد رايتها دائما في المنزل • واظن أنها كانت فيه منذ أمد بعيد•

ـ هل صرفتها ؟

ـ وماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ كنت مرغمة على ذلك يا أبت العزيز • فليس هذا البيت ملجا للعجزة •

قال الأب كوارزو : « أفهم ذلك ، أفهم ذلك • حدثيني يابنتي عما فعلتم في هذا الصيف ؟»

راحت لورا باولا تسرد حكاية الصيف ، والسفر الى اسبانيا ، ومصارعة الثيران ، وزواج ابنة حميها من أرزو ، ثم التطواف بالسفينة حتى قبرص ، واناتولي •

ـ انها جماعة لطيفة ، فيما يخيل الي ••

ـ لا شك في ذلك يا أبت • لقد كنا ثمانية أشخاص • ولست تستطيع أن تعلم ما شعرنا به في تلك الأيام ، البهجة ، الشمس ، لم يتح لي قط أن ألهو كما لهوت آنذاك » •

ـ وهكذا فان زوجك قد منح نفسه آخر الأمر قليلا من الراحة • أليس كذلك ؟

ـ آه ، كلا • ان زوجي ليفزع من البحر • ثم لقد كانت لديه اعمال كثيرة ، لا اعرف أي مؤتمر في باريس أو في السويد •

ـ والاولاد ؟

ـ آه صغاري الأعزاء • لقد ظلوا في مدارسهم في سويسرا ، هي جنة حقيقية لو علمت،وهي بالنسبة اليهم أيام عطلة طوال العام •

كانت تتكلم وتتكلم • الفيلا الجديدة في بورتوراركول ، دروس اليوغا (من شان ذلك أنيغير الانسان روحيا ياأبت العزيز) والرحيل القريب الى ساس ـ فو ، وآخر مزاد علني للوحات،كانت تتكلم وتتكلم ، وكان وجهها مضيئا كله •

كان الأب كوارزو يصغي اليها • وظل في جلسته متصلبا كتمثال ، ولم يعد يبتسم • قال أخيرا : « يا ابنتي ، لقد تكلمت بما فيه الكفاية ، ولا اريد ان تتعبي نفسك » نهض في جلال وقال : « أما الآن فانا أمنحك الغفران » •

ـ كيف ؟
ـ ألا تريدين المغفرة يا ابنتي ؟
ـ أوه ، كلا يا أبت •• اني اشكرك •• ولكنني لا افهم ••

بدأ الأب كوارزو يصلي بوجه قاس : « بسم الآب والابن •• » وضمت هي أيضا يديها •

وعلى هذا النحو عرفت لورا باولا انها ستموت •

٣ ـ طريق السيارات :

كنت أسافر وحدي ، في حوالي الساعة الثانية ، من بعد ظهر يوم من أيام تموز على طريق (الشمس) بين بارم وفيدينزا •

كانت تلك ساعة النعاس المزعجة الثقيلة ، وساعة السراب • وكانت حركةالسياراتضعيفة•

فجأة رأيت ، بلا انتباه ، سيارة كبيرة بيضاء اللون ، آتية في الاتجاه المخالف ، في ذلك الطريق ، ولم يكن يبدو أي انسان فيها •

وظننت أنني أخطأت الرؤية ، أو ان السائق في هذه اللحظة قد انحنى حتى لم يعد بالامكان رؤيته •

بيد أن قشعريرة سرت في ظهري ، اذ تجاوزتني من مسافة قريبة مني جدا ، سيارة من مصنع

« سبيدر » ـ تعرفت بوضوح علامتها ـ ذات صندوق خلفي رمادي اللون ممعدن : ولم يكن فيهما أي كائن حي ٠

والتقيت فيما بعد سيارتين وثلاثا وخمسا ، وكانت فارغة هي أيضا : سيارات أشباح كانت تسير سيراً طبيعياً ، واما تجاوزت غيرها أضاءت النور وفق القواعد المتبعة ٠

كان تاثير ذلك فيّ ساحقا ٠ هل تعرضت لاصابة ؟ هـل اصبت بهلوسة ؟ خففت السرعة ، في حين كان قلبي يخفق ، وتوقفت عـلى الطريق الخارجي ، على الحافة تماما ٠ خرجت من السيارة ملتفتا الى الخلف ٠ فيهذه اللحظة مرت سيارةكبيرة محمل ظهرها بالأمتعة ، بما فيها عربة للاطفال٠ كانت تلك أسرة صغيرة ، في أغلب الظن ، ذاهبة لقضاء عطلة الصيف ٠ ولكن الأسرة لم يكن لهـا وجود في السيارة ٠

ماذا جرى ؟ اي سحر حدث حتى ان كل الناس في المنطقة قد اختفوا وهم ما يزالون على قيد الحياة ؟ وسمعت في هذه الآونة غناء صراصير رتيبا ينبعث من مجموعة متباعدة من الأشجار ٠

نظرت فيما حولي ٠ ليس هناك أي منزل ٠ كان الريف غافيا قـد خدرته الشمس ٠ وكانت ساقية جافة ، تحتي ، خلف حاجز السياج المعدني تماما ، متوازية مـع طريق السيارات ٠ وعـلى الضفة المقابلة كان شريط ضيق من المرج يحيط به دغل من الأشجار ٠

وبينما كنت أتامل ، وانا ضائع،هذا الموقف الذي لا معنى له ٠ تحرك شيء ما خلفالساقية، فنظرت ورأيت كلبا أسود ذا قامة متوسطة يخرج من بين الدغل ويتجه بخطا غير واثقة نحوالحفرة٠

وانتابتني اشراقة ما ، فقد كان هذا مورو ، كلبي الذي تركته منذ يومين في منزلي فيالريف، كلبي العجوز في وضع سيء ٠

كاد ذلك أن يكون سخفا ، الا أنني ناديته : مورو ٠ مورو ٠ وكان من الواضح أنه لا يمكن أن يكون اياه ما دام في مكان يبعد في خط مستقيم مئتي كيلومتر عن هنا ٠

ومع ذلك فقد نظر الكلب الي لحظة ، وخيل الي انه يحرك ذنبه ٠

وكررت النداء : مورو ٠ مورو ٠ الا أنه لم يجب ٠ وراح وهو يرتجف يدور حول نفسه كما تفعل الكلاب قبل أن تنام ٠ واضجع وتهاوى كان آخر قواه قد تخلت عنه ٠

فكرت في نفسي : ياللحيوان المسكين ٠ لقد جاء ، كما تفعل البهائم ، ليموت في الوحدة ، الا أنني أفسدت عليه هذه الراحة السامية ٠

اضجع ضجعة طبيعية ثم تمدد على خاصرته بعد تشنجتين أو ثلاث متيبس القائمتين ، وحاول أيضا أن يرفع خطمه بتاوهة رقيقة ، ثم أنزله وغدا الآن جامدا بلا حراك ٠

سمعت من خلفي صوت دراجة نارية • كان فيها شرطيان من شرطة المرور •

قال لي أحدهما : « يستحسن ياسيدي ألا تتوقف ههنا ، فثمة أماكن مخصصة لذلك ، هل تحتاج الى شيء ما ؟ » •

قلت وانا أتلعثم : « كلا ، لست بحاجة الى شيء • شكرا • »

ومرت عربة،كان خلف المقود شخص ضخم الجسم دموي يرتدي قميصا ذا أكمام طويلة • ثم مرت سيارة تقودها سيدة عجوز • هل عاد كل شيء الى سيرته الطبيعية ؟

نظرت الى المرج وراء الساقية ، كان هادئا موحشا • أما الكلب فلم يبق له من أثر •

(وعلمت فيما بعد أن مورو في هذه الفترة ذاتها ، قد جاء ليموت ، وحده وحيدا ، على ضفة نهر البياف ، على بعد أكثر من مئتي كيلومتر من هنا) •

٤ ـ قبر أتيلا :

بعد عشرين بل ثلاثين بل اربعين عاما من البحوث انتهى جيوفاني تاسول الى أن يكتشف في قلب غابة الشمال قبر أتيلا الاسطوري ، وكان هذا الاكتشاف أكبر نصر حققه في حياته •

لقد سمع بالقبر ، أول مرة ، وهو صغير ، على لسان معلم الصف الرابع جيورجيو تيكارا (وهو اليوم متوفى) وفي المساء نفسه اعلن لأبيه (وهو اليوم متوفى) انه يود ان يصبح من العاملين في الاكتشافات الاثرية •

ولقد أخذ صديقه الحميم أنريكو أرموجين (وهو اليوم متوفى) هو أيضا بالهوى نفسه ، ومضيا معا للقاء العالم الجغرافي المشهور أزولينا (وهو اليوم متوفى) ليسالاه هل يصادف أن تتوفر لديه خريطة غابة الشمال ، فاطلعهما أزولينا (وهو اليوم متوفى) على خريطة مغلوطة •

ثم جاءت سنوات الدراسة الكثيفة ، الى أن كان يوم اتخذه فيه الأستاذ سولافيتا (وهو اليوم متوفى) مساعدا له ، وكلفه مع الناجح الجديد الآخر نيكولا دومرزى (وهو اليوم متوفى) بالقيام باول بحث على طول التخطيط المفترض لفيا أولو برونا التي كانت تجتازها في العصور القديمة الغابة الشمالية المخيفة من اولها الى آخرها •

تلك كانت سنوات الشباب الجميلة ، وكان الاصدقاء يلتقون مساء كل سبت في بهو السيدة ميمي دومينكنر (وهي اليوم متوفاة) مركز الحياة الثقافية والفنية • وهناك التقى بالفتاة العذبة آنيتا موسادور التي اصبحت زوجته (وهي أيضا ماتت) •

وكان للبعثة أن تفتح أمامه الدرب ليصل الى منصب استاذ ذي كرسي الا أن زميله سرجيو

بازوتولي ، وكان يومئذ أعــز أصدقائه ، سرق منه المنصب (وهـو أيضا قد توفي) • وكان عـلى تاسول ، على نحو ما ، أن يبدأ العمل من البداية • وكانت تلك مرحلة صعبة ، وقد زادتها قتاما دعوى أقيمت على ابنه لوقا (وهو اليوم متوفي) بتهمة اهانة صاحب الجلالة •

وانتهت التغيرات الأكاديمية بسقوط الحكم الملكي المطلق،هذه التغيرات التي خفف منوطاتها دعم العميد الثابت الكريم الاستاذ توليدو بروزادا (وهو اليوم متوفي) • وبعدئذ أصبح استاذا ذا كرسي ، فنظم أول بعثة حقيقية للبحث عن قبر أتيلا ، والتحق بالبعثة عالمان شابان على قدركبير من القيمة هما ماكس سرتيني وجيانفرنكوسيبلي (وهما اليوم متوفيان) •

وعلى التوالي نظم بعثات أخرى كل من بيروفيان سلفادور لازا ، والمركيز الفريد سوفرغون وغيستودو فونسيكا (وكلهم متوفون) • انها لملحمة طويلة كلفت كثيراً من الدموع والدماء ، الا أن جيوفاني تاسول قد ركز علم بلاده فوق أطـلال النصب الاسطورية ، وطار اليه على جناح ثلاث طائرات عامودية فريق من مصوري التلفزيون مع كل آلاتهم •

لقد أوقدو نار المساء في هذا المعسكر قرب الأطلال في قلب الغابة • نظر تاسول حوله وهـو جالس على صخرة فلم يـر الا شجيرات البتولا ، شجيرات ، شجيرات ، متراصة سوداء • وفكـر في الذين ساعـدوه عـلى النصر : العزيز اذيو دوتيبيرتيس مراقب مصلحة الغابات ذو الفهم العميق (لقد توفي) وسكرتيرة معهده الدؤوب غرازيا مرازكا (وهي اليوم متوفاة) ، وأرمندو ، السائق المخلص غاية الاخلاص ، (وهو اليوم متوفي) والطيار اردوينو مالينوشي الذي طار به في أحيان كثيرة فوق المنطقة وأتاح له أن يكتشف القبر (لقد مات هو أيضا) •

أرسل اليه رئيس الدولة عن طريق الاذاعـة رسالة تهنئة حارة • وتهيأ المساعدون الشباب والتقنيون والعمال للاحتفال في مكان الاكتشاف نفسه بوسائل مرتجلة • وكانت تعم المكان فرحـة غـامرة •

نظر حوله وهو جالس على صخرة • أشجار • أشجار • أشجار • لاشيء سواها • انه وحيد •

٥ ـ المسجلة :

طلب اليها (بصوت منخفض جدا) ، قال لها : ارجوك أن تصمتي ، فالة التسجيل تسجـل من المذياع ، لاتحدثي ضجة ، فانت تعلمين أني أحرص على ذلك • كـان يسجل مقطوعة الملك آرثر لبرسيـل ، والتسجيل رائـع صاف • الا انها تعمدت أن تغضبه ، قالت انني لا أبالي بذلـك • وصارت الجيفة تغدو وتروح وهي تفرقع بكعبي حذائها ، لتستمتع باخراجه عن طوره ، ثم راحت ترفع صوتها ، ثم سعلت (عمداً) وهي تضحك وحدها خلسة ، وتطقطق باعواد الثقاب محدثة أكبر ضجة ممكنة•وراحت تسير بخطا رنانة في وقاحة ، وخلال ذلك ، كان برسيل وموزار وباخ وبالسترينا

الانقياء الالهيون يغنون عبثا ، أما هي فحشرة حقيرة ، قملة ، وباء الوجـود ، ولم يكـن بالامكان الاستمرار على هذا النحو •

والآن بعد انقضاء سنوات عديدة يعود فيسمع الشريط القديم المتعب ، هو ذا المعلم ، هو ذا العظيم ، هو ذا برسيل وباخ وموزار وبالسترينا •

لم تعد هنا • لقد رحلت • تركته ، آثرت أن تتركه ، انه لا يعرف ، ولو معرفة غامضة ، الى أين انتهت بها الايام •

وما يزال برسيل وباخ وموزار وبالسترينا يعزفون • اولئك البلهاء الرجيمون الذين يثيرون الغثيـــان •

هذه الطقطقة التي تغدو وتروح ، هذان الكعبان ، هذه الضحكات الصغيرة ولاسيما الثانية ، هذه البحة في الحلق ، هذا السعال • اجل ان هذا كله لهو موسيقا الهية •

انه يصغي ، انه يصغي وهو جالس تحت ضوء المصباح ، متحجرا في مقعده القديم المتهدم • انه يصغي ، من غير أية حركة • لقد ظل جالسا لكي يصغي : الى هذه الضجة ، ووقع الخطا ، وهذا السعال ، وهذه الاصوات المعبودة ، التي لا نظير لها ، التي لم يعد لها وجود ، ولن توجد ، الدهر ، بعد الآن •

٦ ـ الأيام الضائعة :

لمح ارنست كزيرا ، من بعيد ، بعد ايام من امتلاكه لفيلته الفخمة ، وهو عائد الى منزله ، شخصا يخرج من باب ثانوي في جـدار السور حاملا صندوقا عـلى ظهره • وكان يحمل الصندوق فوق شاحنته •

لم يتح له الوقت للامساك به قبل رحيله ، لهذا فقد تبعه بسيارته ، وسارت الشاحنة طويلا حتى أقاصي ضواحي المدينة ، وتوقفت عند حافة واد •

نزل كزيرا من السيارة ومضى لرؤية ما هناك • فرغ المجهول الصندوق ، ورمى به بعد بضع خطوات في الوادي الذي كان مملوءا بآلاف من الصناديق الأخرى المشابهة •

دنا من الرجل المجهول وساله ، قال له : « رأيتك تخرج هذا الصندوق من بستاني ، عـــلام يحتوي ؟ وما هذه الصناديق كلها ؟ » •

نظر اليه الآخر وابتسم : « لدي مزيد من هذه الصناديق في الشاحنة لالقائها • الا تـدري ؟ انها ايامك » •

« أية أيام ؟ » •

« أيامك أنت » •

« أيامي ؟ » •

« أيامك الضائعة ، الأيام التي اضعت • كنت تنتظرها ، أليس كذلك ؟ ثم جاءت فماذا فعلت بها ؟ انظر اليها ، انها لم تمس ، ما تزال ملأى • والآن ••• »

نظر كزيرا • كانت الأيام تشكل كومة ضخمة • فنزل المنحدر ونظر الى واحد منها •

كان في داخله طريق خريفي ، وفي نهايته خطيبته غرازيلا التي ذهبت الى الأبد • حتى انـه لم يعد يتذكرها •

وفتح آخر • كان غرفة في المستشفى ، وكان أخوه جوزيه مستلقيـا على السرير مريضا ينتظره الا أنه كان في رحلة من رحلات العمل •

وفتح ثالثا • كان يقف امام الحاجز الحديدي في المنزل القديم البائس دوك كلبه الامين الـذي كان ينتظره منذ سنتين ولم يبق فيه الا العظم والجلد • اما هو فلم يفكر في الرجوع الى هناك •

احس بأن شيئا يمسك به ويشد عليه معدته • كان الرجل المشرف على مستودع الأيـام واقفـا على حافة الوادي جامدا كقاض •

صرخ كزيرا : « سيدي ، اصغ الي ، دعني احمل هـذه الأيـام الثلاثة على الاقـل • اتوسل اليك • هذه الأيام الثلاثة على الأقل • انني غني ، وساعطيك كل ما تطلب » •

قام الرجل بحركة بيده اليمنى ، كما لو أنه يشير الى نقطة لا يمكن بلوغها ، كما لو أنه يقول ان الوقت قد فات وأنه لم يعد بامكانه أن يفعل شيئا • ثم تلاشى في الهـواء ، واختفت في اللحظة ذاتها كومة الصناديق السحرية الضخمة • وأرخى الليل سدوله •

٥ ــ النغم المتصاعد

سمعت الآنسة آنـي موتلري الباب يقرع ومضت لتفتحه • كان الطارق صديقهـا القديـم المعلـم البرتو فاسي ، الكاتب العدل • ولاحظت أن معطفه مبلل كله وهـذا يدل على أن المطـر يتسـاقط في الخارج • قالت : « آه ، ياللحبور ، ايها المعلم العزيز فاسي • تفضل ، ارجوك » • فدخـل هـذا وهو يبتسم ومد لها يده •

★ ★ ★

سمعت الآنسة موتلري طرقات عـلى الباب • فشعرت برجفـة ومضت لتفتح الباب • كـان الطارق المعلم فاسي الكاتب العدل ، صديقها القديم ، وكان يرتدي معطفا أسود تتساقط منه قطرات الماء •

قالت له وهي تبتسم : « آه ، ياللحبور ايها المعلم العزيز فاسي ، تفضل ارجوك » • فدخل فاسي بخطا ثقيلة ومد لها يده •

★ ★ ★

شعرت الآنسة آني برجفة حين سمعت أن شخصا ما يقرع الباب • فقفزت من المقعد الصغير حيث كانت تطرز واسرعت تفتح الباب • رأت الكاتب العدل الشيخ فاسي صديق الأسرة الذي لم تبدر منه أية اشارة تنبيء بانه حي منذ عدة شهور • كان يبدو اثقل وزنا واشد بدانة مما تذكره• والى ذلك فقد كان يرتدي معطفا اسود عريضا جدا ،يهدل ثنيات كبيرة ، ويلتمع لقطرات المطر التي تسح منه • جهدت آني أن تبتسم وقالت : « آه ياللمفاجاة الجميلة أيها المعلم العزيز فاسي » • وبعد ذلك دخل الرجل بخطا ثقيلة ، ومد يده الضخمة لكي يصافحها •

★ ★ ★

كانت الآنسة موتلري ذات الصبا الآفل التي تطرز في الصالون المضاء بالنور الداكن بعد ظهر احد الأيام الماطرة منهمكة في تقويم خصلة من الشعر الرمادي انزلقت على جبينها حين سمعت صوت طرقات قوية على بابها • فاصيبت بهزة عصبية عنيفة وهي في مقعدها ، ونهضت بغتة واسرعت لتفتح الباب • وجدت نفسها وجها لوجه أمام رجل كبير القامة يرتدي معطفا مطاطيا أسود ذا شقوق قاسيا لزجا كان الماء يتساقط منه مدرارا • وعلى الفور خيل اليها أنها تعرفت الكاتب العدل الشيخ المعلم فاسي ، صديق الأزمنة البعيدة ، فقالت وهي تتصنع رسم ابتسامة على شفتيها : « اوه ، ياللمفاجاة الجميلة ، ادخل ، ارجوك ، تفضل » • عند ذاك تقدم الزائر في المدخل يقرقع قدميه كانه مارد،ولكي يحييها مد لها يده الكبيرة العضلة •

★ ★ ★

هزت الآنسة موتلري هزا عنيفا ضربات متكررة على بابها ، في خدر بعد الظهيرة في المنزل وكانت هذه مستغرقة في تطريز ماهر • فقفزت من مقعدها رغما عنها فسمحت بذلك لغطاء الطاولة الذي كانت تطرزه أن يسقط من يدها ويتكوم على الأرض بينما سارعت هي ، بلهفة ، نحو الباب • وحين فتح الباب وجدت نفسها وجها لوجه أمام شيخ أسود ، ضخم ملتمع كان يحدق فيها ، واذاك قالت : « هذا أنت ••• هذا أنت ••• » وتراجعت ، بينما كان الزائر يدخل ، وترن خطواته الثقيلة رنينا غير مفهوم في المنزل الكبير •

★ ★ ★

بلغت آنــي موتلري الباب بسرعة كبرى ، وخصلات مبعثرة من الشعر الرمادي تتساقط على جبينها حين سمعت صدى الطرقات المتكررة لشخص ما كان يريد الدخول • فادارت بيد مرتجفة المفتــاح ثم انزلت المقبض وفتحت الباب • كان يقف على عتبة الباب شكل حي كبير قوي اسود اللون ،ذو شقوق، له عينان نافذتان واشكال من القرون القاسية كانت تمتد نحوها متلمسة اياها • حينذاك تاوهت : « لا ، لا ، ارجوك ••• » وتراجعت مذعورة بينما كان الآخر يتقدم بخطا رصاصية رن صــداهــا في أرجاء المنزل •

★ ★ ★

وجــدت الآنسة موتلري نفسهــا وقد استدعتهــا طرقات ملحة على الباب فركضت لتفتحه • وجهــا لوجه أمام كائن اسود مغطى بدرع ملتمع أسود وكان يحدق فيها وهو يمد اليهــا قــائمتين سوداوين تنتهي كل منهما بخمس مخالب ضاربة الى البياض • فعادت الى الوراء ، غريزيا ، الا انهــا حاولت أن تغلق مصراع الباب وتنهدت : « لا ، لا ، من أجل الله ••• » بيد أن الآخر أبعدهــا أكثر فاكثر وهو مستند بثقله الكبير على المصراع ، وانتهى به الأمر الى ان يفتح ممرا ويدخل ، وطقطــق خشب الأرض تحت وطأة جسمه الهــائل • تمتم الــدخيــل « آني ••• » « آني ••• اوه اوه ••• » ومــد نحوها مخالبه البيض الفظيعة •

★ ★ ★

لــم تسعف الآنسة آنــي موتلري القوة عــلى الاستنجاد حــين استدعتها طرقات عصبية عــلى المدخل فوضعتها هذه الطرقات في حالة من الارتجاف الجنسي لا يمكن تفسيره ، فسارعت لتفتح الباب ورأت حشرة معتمة قذرة ، هائلة الحجم ، جعلا ، عنكبوتا ، مخلوقــا مصنوعــا من صفائح لامعة مفصلية تشكل وحشا قويا كان يحدق فيها بعينين صغيرتين فوسفوريتين (انحبست فيهما كل الأعماق المحتومة لحياتنا البائسة) ، ومد المخلوق نحوها عشرات وعشرات من القرون الصلبة التي تنتهي بكلاليب دامية • فقالت في ضراعة وهي تتراجع : « لا ، ، أيهــا المعلم فاسي •• » ولم تستطع أن تضيف شيئا الى ذلك • عند ذاك أمسكت بها الحشرة بمخالبها الفظيعة •

★ ★ ★

سمعت الشابة الصغيرة آنــي موتلري طرقات عــلى الباب ومضت لتفتحه • كــان الطارق الوحش ، الجحيم ، الاله ، الأفعى القديم الذي نفذ فيها حتى القلب بعينيه المصنوعتين من الفوسفوروالنار•

وقبل أن يتاح لها أن تخطو خطوة واحدة الى الوراء ، اظهر ملاقطه الحديدية ، واولج اظافره الكبيرة في الجسم البض الناعم ، في اللحم ، في الأحشاء ، في النفس الحساسة المتألمة ٠

★ ★ ★

هل تعرفون الآنسة آنـي موتلـرى ؟ في الخامسة والاربعين ، ايـه كـلا ، انكـم لتضحكون ٠ مـن المؤكد أنها تعيش وحدها ٠ مع من تريدون ان تعيش بعد اليوم ؟٠٠ انها تطرز في منزلها الصامت، ولكن ماذا ينتابها الآن حتى تقفز هذه القفزة في مقعدهـا ؟ أيكون احدهم قد طرق الباب ؟ انكـم لتمزحون ، لا ، لم يطرق الباب أحد ، ما من أحد ، ما من احد ٠ من عسى أن يطرق هـذا الباب يوما ؟ ومع ذلك فقد اسرعت الآنسة وقلبها يخفق خفقانا واخزا وهي تتعثر بالسجادة ، وتصطدم بدعامة السقف ، ادارت المفتاح ، وانزلت مقبض الباب ، وفتحته ٠

★ ★ ★

الدرجات خاويـة ، وخاويـة بلاطـات الدرج ، تحت الضوء الرمـادي الجلي المنبعث مـن الكـوة الزجاجية الرمادية ، مقبض الدرج اسود جامد ، وباب المبنى المواجه جامد ، كل شيء جامد،فارغ ضائع الى الأبد ليس هناك احد ٠ علم ، علم ، العلم ٠

بيد ان الحسرة العتيقة ههنا ، والحزن الذي لا شفاء لـه ههنا ٠ وامـل السنين القديمـة الملعون ههنا ٠ والوحش غير المرئي ههنا ٠ انه يغرز ببطء شوكته في القلب الوحيد ٠

ف . شيربينا

الاغتراب والأدب المعاصر

ترجمة : نزار عيون السود

تعتبر قضية الاغتراب من القضايا الرئيسية في المطارحات والمناقشات الأدبية المعاصرة • وذلك لأن قضايا علم الجمال والفن ، في تفسيرها لطبيعة الاغتراب ، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالقضايا الاجتماعية والفلسفية • ومن هنا ينبع هذا الاختلاف الشديد في المواقف من هذه القضية ، وحدة الجدل حول هذا الموضوع •

ويمكننا أن نعثر على بدايات فكرة الاغتراب لدى أدباء ومفكري عصر النهضة مثل روسو وغوته وشيللر وكذلك فيخته وهيغل • وكانت هذه الفكرة ، من الناحية الموضوعية شكلاً خاصاً للتعبير عن رفض الطابع اللا إنساني لعلاقات المجتمع الاستغلالي • حيث كانت العلاقات الحيوية الواقعية تمثّل في وعي الناس على شكل مزيف • وكان تحويل العلاقات الاجتماعية الواقعية إلى شيء آخر مخالف تماماً لها ، إلى شيء لا يرتبط بالناس بل يسيطر عليهم ، كان موضوعاً من أهم مواضيع الأدب •

وفي الفترة الأخيرة ، بُدىء باستخدام اصطلاح « الاغتراب » للاشارة إلى مختلف الظواهر الأدبية الفنية ، كما برز هذا الاصطلاح ، في بعض الأحيان، كصفة للمخاتلات والشعوذات الفلسفية ـ الاجتماعية • كما يبرز هذا المفهوم « الاغتراب » بتفسيره التجديدي ، كغيره من المفاهيم ، لا بجوهره التاريخي الحقيقي ، بل يتعرض ، وخاصة في السنوات الأخيرة ، الى تأويلات مزاجية

وتحويلات غريبة . وكثيراً ما يعتبر منظرو التجديدية Modernisme الاغتراب مفهوماً مطلقاً وجوهراً للوجود ، وأصلا من أصول التجديد التقدمي في الفن المعاصر .

وتبتعد عن الحقيقة أيضاً ، تلك الآراءالتي تنسبالى التياراتالتجديدية الكشف الفني لعملية اغتراب الفرد في المجتمع البرجوازي القائم علىالملكية الخاصة . وذلك لأن تجسيد الاغتراب في الفن ، كان قد بدأ منذ زمنطويل ، يعود الى نشوء العلاقات البرجوازية . وعندما تحدث كارل ماركس عن أن شكسبير وغوته قد كشفا بصورة رائعة عن ماهية المال ، كان يقصد بأنهما في مؤلفاتهما وأعمالهما الأدبية قد جسدا اغتراب الفرد ، وفقدانه لصفاته الانسانية . وفي مناقشته للتفسير غير التاريخي الذي أعطاه (شتيرفير) لمفهوم الاغتراب ، استشهد ماركس بمؤلفات شكسبير لتأكيد فكرته القائلة بأن الملكية الخاصة لا تخلق الاغتراب عند الناس فحسب ، بل عند الاشياء أيضاً . وبقدر بُعْد المال ، وهو شكل الملكية العام ، عن الفردية الشخصية ، بقدر ماهو مناقض ومناف لهذه الفردية . وقد عرف شكسبير هذه الحقيقة بصورة أفضل من منظري البرجوازية الصغيرة .

فالتيارات التجديدية العصرية لم تُدْخل موضوع الاغتراب الى الأدب العالمي ، كما يزعم أنصارها . والتجديدية Modernisme بانتزاعها لهذا الموضوع من مجموعة الظواهر الحياتية الطبيعية الكاملة ، لم تحقق شيئاً سوى تفسير هذا الموضوع تفسيراً مضللاً معزولاً .

وقد قدّم مكسيم غوركي مؤلفاته ، بدءاً ب « فوما غوردييف » و «الأم» وانتهاء ب « حياةكليم سامغين »تحليلاً مركباً اجتماعياً وروحياً داخلياً لتشويه الشخصية وانحرافها نتيجة للاغتراب البرجوازي . وبحث في هذه المؤلفات بصورة شاملة ، عملية اغتراب العنصر الانساني تحت تأثير سيطرة علاقات الملكية الخاصة ومجموعة الآراء والتصورات المقلوبة ، والقناعاتالمزيفة وسيكولوجية عزلة الانسان عن العالم كله واستبدال القوانين الحقيقية الواقعية بمجموعة من الأوهام المضللة .

ويتصل وعي هذه الظاهرة وإدراكها بتاريخية Historisme الفهم الواقعي للاغتراب . فالواقعية تكشف جوهره، وتبين التأثير المتبادل والمركب للعوامل

الاجتماعية والفلسفية والسيكولوجية المتصلة بـه ، ومكانه في تيار الحياة العام • وينتظم السيل العكر لانطباعات « كليم سامغين » في البنية الفلسفية الجمالية العامة لقصة غوركي ، الذي انطلق فيها من تفهم لخبرة نصف‌قرن من حياة الانسان الروحية •

إن جوهر فهم الكتّاب ـ الوجوديين لسيل ظواهر الحياة والانطباعات يكمن في نفي الأفكار المختلفة والحط من أهميتها وقيمتها ، وفي إثبات الفرضية القائلة بضعف الانسان وقضائه‌المحتوم، وفي وهمية جميع محاولاته لبناء حياته بصورة واعية • وهنا يظهر الاختلاف الجذري بين الواقعية وبين الوجودية • فالواقعية تخلق الواقع من جديد في مسار التطور التاريخي • وتبحث كل ظاهرة كظاهرة متصلة باحدى حلقات ديناميكية الحياة ، وضمن شروط‌معينة من نشوئها وتطورها • أما الوجودية فتحول الاغتراب الى جوهر ميتافيزيقي لا يتبدل •

والاغتراب ، تحت أضواء البحث العلمي ، هو مفهوم‌يكشف تحول‌منتجات عمل الانسان ومبادىء علاقاته بالمجتمع الى ماهيات مستقلة منفصلة تسيطر على الفرد • ويبين الفهم الماركسي لمفهوم « الاغتراب » الأسباب الحقيقية لنشوء الأوهام • كما يكشف أساس مختلف أنواع التفسيرات المضللة والمزيفة ، وتحويل العلاقات الواقعية الى مجال للأوهام والخيال •

وقد استُخدم اصطلاح « الاغتراب » في الدراسات الأدبية في السنوات‌الأخيرة بكثرة في معنى خارج عن أطر التاريخ، وكسمة عامة لخصائص الفن المعاصر ، وكاكتشاف أوجده الفن‌التجديدي‌متصل بخصائص أعمال فرانز كافكا بشكل خاص • واكتسب استخدام هذا المصطلح الآن مقاييس واسعة ، وأصبح يرتبط، بصورة رئيسية ، بتلك الآراء التي‌تنفي فهم الفن كشكل للادراك والمعرفة • ويُعارض الاغتراب بنظرية الانعكاس، التي يُنظر إليها كنظرية غير عصرية ولا تعبر عن خصائص فن وأدب المجددين الطليعيين •

لقد تشكل مبدأ الاغتراب في الخلق الفني للمدرسة التجديدية ونظرياتها كرد جدلي كلامي على مبدأ الطبيعة الادراكية ـ المعرفية للفن • وهذا منطقي جداً لأن « الاغتراب » من حيث الفهم‌الخاص له يفترض ، حسب‌رأيهم، جعل الفن غامضاً ومبهماً •

وقد صاغ بوضوح معنى استبدال

التصوير في الفن « بالاغتراب» و«الابهام Hiéroglyphisation » ، أرنست فيشر في كتابه « من غريلبارتسر(١) إلى كافكا · ست مقالات » · ويؤكد فيشر في هذا الكتاب ما يلي : « يخلق كافكا مجموعة من الشخصيات التي يسلط عليها الاضواء، وتبقى الصلة بين هذه الشخصيات غير واضحة في أغلب الاحوال ، وتشبه هذه الشخصيات الأحرف الهيروغليفية لا الأحرف الأبجدية المعروفة ···· ويلتقي الواقع المغترب بعالم الانسان الداخلي كوحدة ما للشخصيات »(٢) · وهكذا يتحقق « اغتراب » الواقع في الفن عن طريق الابهام · وحسب النظريات التجديدية العصرية نصل إلى نتيجة عن الضرورة التاريخية لاعتبار الفهم « الغامض المبهم » لطبيعة الخلق الفني أساساً للنقد الأدبي المعاصر ·

وقد ظهرت محاولة تبديل مبدأ التصوير الفني « بالاغتراب » و « الغموض والابهام » في مواد المؤتمر الذي كرّس لأعمال كافكا · وبحث موضوع اغتراب الانسان عن المجتمع على أساس الفهم «الغامض» للاغتراب، وفي روح سيطرة العمليات الكئيبة ، وكموضوع له أهمية شاملة وعامة دائمة في ظروف المجتمعين البرجوازي والاشتراكي · وهكذا يكتسب الاغتراب قيمة مبدأ شامل لتجديد ظواهر الفن المعاصر وتقويمها ·

وحسب نظرية الاغتراب لا ترتبط الشخصيات الأدبية والفنية لا بتطورات الواقع ، ولا بالوعي الذاتي الانساني الذي يتطور تاريخياً · وينطلق إدراك طبيعة الفن ، حسب نظرية الاغتراب من تصور للخلق الفني كعمل إبداعي لـه قيمته الذاتية ، وكتعبير وجداني لا يخضع لمقولات الادراك والهدف العادية ·

غير أن «الابهام Hiéroglyphisation » ليس أبداً مبدأ إبداعياً عاماً ، وهو لا يشكل أكثر من طريقة من الطرق المختارة في الفن المعاصر ، تتصل برؤية خاصة للعالم · وهو قد يسمح بالوصول الى مجال بعض مظاهر الفرد الذاتية ، غير أنه عاجز تماماً عن تجسيد وجود ذي مقياس أكبر ، أو تجسيد حركة التاريخ والمجتمع والعصر · لذلك

(١) غريلبارتسر Grillparzer : فرانس · (١٧٩١ ـ ١٨٧٢) شاعر درامي نمساوي ولد في فيينا له مسرحيات غنائية شهيرة منها « سوفو » · امتاز بخياله الرائع ونقائه اللغوي الكلاسيكي ·

(٢) E. Fischer. von Grillparzer zu Kafka. Wien 1962 S. 42.

فقد اضطرت الاتجاهات الأدبية التي تستخدم طريقة « الابهام » ولا سيما الوجودية في الأدب والسينما بصورة خاصة ، اضطرت إلى اللجوء إلى المذهب الطبيعي الصرف أو الوثائقية ، البحتة • وهذا أمر لا بد منه لأن الامكانات التعبيرية التصويرية « للابهام أو الهَرْغْلَفة Hiéroglyphisation » محدودة وضيقة بشكل خاص ، وهي ضعيفة جداً وعاجزة عن التجسيد الحماسي لسير التاريخ الموضوعي • ولهذا بالذات ، كانت الاتجاهات التجديدية ، التي تتميز أحياناً بحدة التعبير عن جوانب الفرد الذاتية ، أضعف من أن تخلق لوحة عريضة للعالم • وتبقى مسألة تصوير مسيرات العصر الكبيرة حتى الآن بمقدور الواقعية فقط •

وإذا ما كان التجسيد الواقعي للاغتراب يمسك بجذور نشوئه ويدرك خصائص طبيعته الاجتماعية واتجاهاته وتطوره ، فان الاغتراب بالنسبة للاتجاهات التجديدية هو قدرية صوفية مبهمة لا تتبدل لا بداية لها ولا نهاية • أما الواقعية فلا تعتبر الاغتراب حلقة شاملة دائمة • إن دحض الشر يتطلب دائماً تمييزاً بين ظواهر الواقع التاريخية والأخلاقية المختلفة • وعلى العكس من ذلك ، تكمن النزعة الرئيسية للتيارات التجديدية في الطموح الى الارغام على التصديق بغباء العالم كله ولا عقلانيته، وفي عدم التبدل الداخلي للفرد وثباته وفي القضاء المحتوم للانسانية كلها •

وكما يرى ك • ماركس لا بد من أجل القضاء على اغتراب الانسان ، من تغيير المجتمع وطابع العلاقات الاجتماعية • أما الوجودية فتؤكد موضوعياً العلاقات القائمة ، وذلك لأنها ترى أن أي تغيير حاسم للمجتمع يبقى ناقصاً ، لأن قوانينه الرئيسية مغروسة في طبيعة الانسان ذاتها •

إن اللامبالاة الكاملة تجاه جوهر الظواهر الاجتماعي الواقعي هي صفة مميزة ، بل ويمكننا القول بأنها ماهية النقد الوجودي الصوفي الغامض للمجتمع •

إن التفسير الخاص لمبدأ «الاغتراب»، ذلك التفسير الذي يحتم اللامبالاة نحو الخصائص الجمالية ـ الاجتماعية لمادة الفن ـ والذي ينفي وجود أي اختلاف بين المفهومين الرجعي والتقدمي للخير والشر ، يتصل عضوياً بالفهم

الخاص لوحدة الثقافة المعاصرة ، وبالنفي الكامل لانقسامها الى ثقافة ثورية وأخرى رجعية .

وطبقاً لمثل هذا الموقف ، تزعم التيارات التجديدية بأنها قد «أزالت» النظرات « المتقادمة » ، لأنها تكشف كما تزعم ، خطأ الفهم الاجتماعي والمعرفي للفن . وتطرح الطبيعة العليا لمبدأ الاغتراب ، الذي يمحو بصورة كاملة أي تمييز للظواهر ، ذلك المبدأ القائم على النقد الشامل للوسط كله ، كتجسيد للطابع التركيبي الشامل للطليعية Avant-gardisme وللاتجاهات التجديدية .

وهل صحيح أن الاغتراب الذي يجر وراءه تعادلاً شاملاً لجميع الظواهر ، « يزيل » تناقضات الحياة ويعتبر الجميعة Synthèse الفنية العليا والأكثر موضوعية ومعاصرة ؟ إذا ما نظرنا ملياً إلى المضمون الواقعي المنقدية Criticisme الشاملة المتصلة به (أي بالاغتراب) فاننا نرى بوضوح لا موضوعيته ولا عدالته بالنسبة لجميع مبادىء وقوى الواقع الثورية الشعبية المعادية للبرجوازية . فمن غير السوي ، ومن غير المنطقي أن نعتبر ذلك المذهب ، الذي يزعم وكأن الانسانية كلها تعاقب بسبب نقائص فئة صغيرة من المجتمع مميزة ومحدودة، جميعة عليا . إن دعوة الوجودية الى النزعة الملكية والطفيلية والخمول الروحي لحتمية الوجود الانساني تستبدل نزاعات الحياة التراجيدية الحقيقية بأخرى مزيفة ، وتعتبر من حيث الجوهر شكلاً من أشكال المصالحة مع الشر ، وتهرباً من المسؤولية على مصير العالم . وهذا بعد كبير عن الحقيقة . واذا كانت هذه الدعوة ،في البداية وفي المرحلة المبكرة من التيارات التجديدية نتيجة خطأ الفنانين التراجيدي ، فانها تبرز الآن ، وبصورة متزايدة كاتجاه معاد للواقعية .

★ ★ ★

وبصدد المناقشات الأدبية المعاصرة حول الاتجاه الى انقسام الظواهر ، تثير التفسيرات الحديثة لمؤلفات كافكا كمؤلفات شاملة خارجة عن العصر التاريخي وعن الزمن ، اهتماماً كبيراً لا شك فيه .

ولا يدخل في بحثنا هذا إبراز جميع خصائص مؤلفات كافكا وأعماله . ولكن

عند تطرقنا الى السياق الأدبي العريض المتنوع المعاصر ، لا يمكننا إغفال واقع جوهري في هـذا السياق ، وهو قيام بعض المتحاملين على الواقعية بمعارضة مبادىء الفن الواقعي ، ولا سيما مبادىء مكسيم غوركي بأعمال كافكا ومؤلفاته الأدبيـة • وهـذا الواقع يحدد طابعاً خاصاً لتفسير أعمال كافكا الأدبيـة • ومثل هذا الموضوع لايصح إغفاله أو المرور عليه مرور الكرام •

من المعروف أن التفسيرات المختلفة لأعمال كافكا قـد بدأت منـذ صدور مذكرات صديق كافكا ومنفذ وصيته ماكس برود • وقد فسر ماكس برود المغزى الرئيسي لقضايـاه ونزاعاتـه ومواضيعه كتعبير فردي عن العلاقات المتبادلة بين الانسـان وبين البدايـة الالهية العليا التي لاتلين : «إيبغوفوي» • ولا داعي هنا ، وفي هذا المجال ، الى الدخول في مجادلة مع ماكس برود أو موافقته على تفسيره لأعمال كافكا • ولكن لا بد من الاشارة السريعة إلى أن وجهة نظر برود تتفق وفهم الوجوديين المعاصرين لأعمال كافكا الذين ينسبون المواضيع والمسائل والمواقف الرئيسية إلى الأساطير التوراتية والى الشخصيات القديمـة المعبرة عن شـمولية الناس وعموميتهم اللا واعية والأبدية الثابتة •

لقد أبرز إقتران جميع الشـروط الخـارجيـة والـداخليـة والفرديـة والاجتماعية بواعث الخوف والكابوس واللامبالاة إلى المركز الأول في أعمـال كافكا ومؤلفاته وقـد جُسِّد موضوع السلطة التي لا يمكن إدراكها للقـوى المجهولة والمحتومة على الانسان بوضوح باهر وباقناع مؤثر •

ومـن المعـروف أن فلسـفة س• كيركيجارد وهـو من أوائل الوجوديين قد أثرت بقنوطها ويأسها وأساطيرها الدينية على تربية كافكا وآرائه تأثيراً كبيراً • (على الرغم من المحاولات ، التي تثير العجب ، لبعض الباحثين الآن، التي ترمي إلى نفي واقع هذا التأثير الذي لا شك فيه) • لقد اندمجت فلسفة كيركيجارد بطريقة مميزة بنظرة كافكا إلى العالم وبخصائص حياته الشخصية الدرامية ، وباحساسه المريض بالعزلة والوحدة • وتتصـل خصائص مؤلفات كافكا وأعماله بحلقة معينـة وواضحة للعيان من الظواهر الفردية والحياتية والتاريخية • إلا أن النقد التجديدي (المودرن) في الأعوام الأخيرة يحاول

إظهار هـــذه المؤلفات كمؤلفات ذات أهمية شاملة لا تحدها العصور وكأعمق تجسيد لمصير الانسان المعاصر وإدراكه الشامل للعالم ·

والموضـــوع الرئيسي لمؤلفات كافكا هو موضوع اغتراب الانسان عن المجتمع، وفكـــرة ســـيطرة مختلف المؤسسـات الكريهة على الفرد ، تلك السيطرة غير المفهومة والتي لا معنى لها كسـيطرة الأفكار ومختلف أنـــواع القواعـد الجماليـــة والاجتماعيـــة · ويـرى الايديولوجيـون المعادون للاشتراكيـة والمتحاملون عليها في هذه الفكرة وهذا الموضوع حداثة خاصة وأهمية كبـيرة لمؤلفات كافكا بالنسـبة للأدب المعاصر والحياة العصرية · وذلك لأن الاغتراب يوجد حسب رأيهم ، وبأشـكال أكثر حدة في البلدان الاشتراكية حيث تسيطر الدولة سيطرة تامة على إدارة جميـع وسائل الانتاج وعلى تطور الثقافة · ويريدون باصرار اسـتغلال دوافـع الاغتراب في مؤلفات كافكا ، والخوف الـدائـم مـن المصـير وصراع الفرد التراجيدي مع المجتمع وقضاء الانسان المحتـوم في مقارعة الأسس الفكريـة للاشتراكية · ويحاولون تحويل إدراك كافكا مـن مجال النظـرة التاريخيـة المحددة إلى الاتساع الخارج عن حدود الزمن والتاريخ والمجتمع الذي تناديه النظريـات التجديديـة وتحويل مغزى عصيانـه الأليم ، النابع مـن موقف تاريخي واقعي معين ونسبته الى ظواهر وقتنا المعاصر · ومثل هـذا التحويل لكافكا من مجال تاريخي الى مجال آخر يمثل إتجاهاً من الاتجاهات التجديدية · ومن دواعي الأسف أن هذا الاتجاه قد أثّر على بعض الباحثين المعاصرين · فبرز ، بـوجـه خـاص ، في الطـرح اللا تاريخي لمشـكلة الاغتراب ، وفي محاولة نسب دور « النبي » الى كافكا، ذلك « النبي » الذي جسّد مبـادىء العقلية الجديـدة للعصر الحـديث · وتتردد أصداء مثل هذه النظرات في تلك التأكيدات القائلـة بأن مؤلفات كافكا تجيب على مسـألة رئيسية مـن المسائل المعاصرة ، وهي مسألة علاقة الفرد بالمجتمع وعلاقة الانسان بالدولة · وحسب التأويلات والتفسيرات المتحيزة فقد عكس كافكا الموضـوع الرئيسي والشـامل في العالم المعاصر ، وهــو موضوع مصـير الانسان الذي أصبح ضحية للعالم اللا إنساني التوتاليتاري وغير المفهوم · واغتراب الانسان هذا بالذات ، المجتث مـن السياق التاريخي

الواقعي ، يؤكدونه كقانون حتمي شامل لوجود الانسانية المعاصرة كلها ، خارج إطار انقسامه إلى عالم رأسمالي وآخر اشتراكي • ولا داعي لاخفاء أن مثل هذا التفسير لأعمال كافكا ومؤلفاته قد عارض ، بصورة لا إرادية (وعن قصد في أغلب الاحوال) مقولات غوركي وجميع الفنانين والأدباء المرتبطين بأفكار الثورة والاشتراكية •

وتقوم الطريقة اللا تاريخية في فهم مؤلفات كافكا على نظرية خاصة ، فهم مثلاً يطلقون تعميماً واحداً على كل من ب• بريخت و ف• كافكا • ووفقاً لهذه النظرة يتوصلون الى الاستنتاج التالي : بعد أن يعترف المرء ببريخت ككاتب واقعي لا بد له من القيام بالخطوة التالية وهي الاعتراف بواقعية كافكا • وهذا حكم من الأحكام المميزة التي تكشف مغزى مفهوم « الواقعية بلا ضفاف » •

إن إيضاح مسألة التعميم الفني الواقعي والتجديدي هام وضروري • فهذه المسألة تعتبر مفتاحاً لفهم الطبيعة المعرفية الجمالية لظواهر العصر الراهن الفنية • وإيضاح هذه المسألة ضروري بوجه خاص وذلك لأن هناك وجهات نظر تتكرر وتتردد في النقد الادبي التقدمي ، وتساوي وجهات النظر هذه عملياً بين التعميم الفني في الاتجاهات الواقعية وبين نظيره في الاتجاهات التجديدية • وتنظر الى الفرق بينهما على أنه فرق في موضوع التعميم فحسب • فاذا ما عممت الواقعية الاشتراكية ظواهر الوحدة والتقدم ، فان التجديديين يعممون ظواهر التشتت والانقسام ، ومصير الفرد التراجيدي المحتوم وعبث الحياة • ووفقاً لوجهة النظر هذه فان لكل من الواقعية والتجديدية مجالاتها الخاصة لتصوير الواقع ، وبالتالي فان الميل العام الى تعميم مشاهدات الحياة يحدد اختلافهما ويشترطه •

أما الواقع فهو أن مصدر تناقض الواقعية والتجديدية لا يكمن أبداً في مادة التصوير ، ولا في تقسيم مجال النشاط ، بل في اختلاف مبادىء التعميم الفني بالذات • وينطلق التعميم الواقعي من الجمع بين سيرورات الواقع وتناقضاته الحقيقية • أما التعميم التجديدي ، القائم على نفي مختلف قوانين الواقع ، والذي يتقبل العالم ويدركه كفوضى ، فيخضع انطباعاته وتأثراته لمخطط متحامل مسبق • وعلى وجه التحديد تعمم الوجودية ظواهر

الحياة وفق مخطط ذي جانب واحد من عبثية الوجود وبؤس الفرد التراجيدي وقضائه المحتوم ، ذلك الفرد الخاضع باستمرار للخوف وغير القادر على الخروج من إطار الوجود الجبري ، وحسب هذا المخطط الافتراضي و « الأسطوري » تُنتقى وتُعمم مختلف أنواع ظواهر الحياة • وتخلو أعمال كافكا ومؤلفاته من مجال وحدة الناس وتقدمهم • ولكن لا شك أبداً في أن هذا الجانب من الحياة كان من الممكن أن يجد لدى كافكا استيعاباً فنياً آخراً مخالفاً لاستيعاب بريخت له • وذلك لأن جميع الظواهر لدى كافكا تتلون بألوان اليأس والقنوط العامة • أما بريخت فيجمع بطريقة مختلفة تماماً بين التناقضات التراجيدية وبين صراعات الحياة ، كاشفاً أسبابها التاريخية الواقعية وطبيعتها وآفاق التغلب عليها وتذليلها •

لقد عبر كافكا نفسه بوضوح عن وجهات نظره من جميع جوانب الحياة• فقد كرر أكثر من مرة بأن الحياة ، متأزمة وقاسية وسخيفة لا معنى لها • وفي ٢١ تشرين الاول سنة ١٩٢١ كتب فيمذكراته : « كل شيء وهم : الاسرة، والخدمة والاصدقاء والشارع والمرأة كل شيء وهم ، لكن درجة وضوحه مختلفة فهي تقل أو تكثر•أما الحقيقة العارية فتكمن في أنك تضرب رأسك بزنزانة سجن عديمة النوافذ والأبواب »(١) •

وإذا ما صور بريخت ظواهر الحياة التراجيدية وعزلة الفرد ويأسه وقنوطه كنتيجة لأسباب تاريخية وسيكولوجية معينة ، فالوجود كله ، بالنسبة لكافكا، لا معنى له وسخيف بدون أي تمييز أو تحديد لحدود الواقع المختلفة • ولا يوجد عند كافكا للانسان أو الانسانية في هذا العالم كله من حقيقة أو أمل • وليس من مخرج أمام الانسان سوى أن ينتظر نهايته الأليمة•

ومما يلفت الانتباه المنهجية الأحادية الجانب للأحكام المدافعة عن كافكا • فهي لا تلتفت الى ثنائية كافكا وازدواجيته ، وإلى انفصامية المغزى الحقيقي لمفهوم « الروح الفنية المعاصرة» و « فن القرن العشرين »و«الاغتراب»• وتنظر هذه الأحكام الى كافكا كشخصية كاملة يجب أن تدخل جميع جوانبها في نظرة غنية جديدة للواقعية في القرن العشرين • وعلى هذه الطريقة ، تدخل

(١) Franz Kafka : Hagebücher. 1910-1923 S. 546.

في مفهوم الواقعية بصورة آلية نظرة كافكا الفنية المتناقضة ، التي تقرّبه من التيارات الفلسفية ـ الجمالية التجديدية · أليس من الأفضل ومن الأصح أن ننطلق في تحديد علاقة كافكا بالواقعية المعاصرة من الطبيعة الازدواجية الحقيقية لهذا الكاتب وتضييق البدايات المتعارضة التي تعتبر مصدراً للصراعات التراجيدية في وعيه الفني ؟

إن وجهة النظر التي لا تأخذ شدة الروابط الأدبية وقوتها وتعقد الحياة الفنية المعاصرة بعين الاعتبار غير مقبولة أبداً في الأدب المعاصر · وقد تطورت ولا زالت تتطور أعمال عدد من كبار الكتّاب الواقعيين الأدبية بتفاعل ملحوظ وارتباط واضح بالأشكال المختلفة للمدرسة التجديدية · ويبدو أنه ، ومع وضوح الخط الفاصل بين الواقعية والتجديدية ، فمن التبسيط بمكان أن نعتبر وكأن كل ظاهرة من ظواهر العصر الراهن الأدبية المتنوعة يمكن إدخالها آلياً وبصورة كاملة تحت عنوان « الواقعية » أو « التجديدية » · ومثل هذا الفهم يقود الى وضع الكثير من الكتّاب خارج إطار تناقضاتهم الحقيقية · هذا في حين أن صراع المبادىء الفكرية ـ الفنية المتعارضة ليس بظاهرة عرضية فريدة ، بل هو إحدى الصراعات الجوهرية الدراماتيكية المحدّدة تاريخياً ، وهذه الصراعات هي صراعات تطور الوعي الفني الأدبي للعصر ، وتنعكس في سيرة الحياة الابداعية لمجموعة من كتاب القرن العشرين ·

وتتصف التفسيرات المنحازة لأعمال كافكا في أيامنا هذه بالطموح الى محو الازدواجية المنهجية التي تميز مؤلفات هذا الكاتب ، وإلى إخفاء المزايا التاريخية المحددة والواقعية الهامة · ومن الطريف في هذا المجال مقارنة قصة « القضية » بالفيلم السينمائي الذي يحمل الاسم نفسه ، والمقتبس من القصة نفسها · وقد أخرج هذا الفيلم المخرج الأمريكي الشهير أورسون ويلز ·

وتبرز طريقة دمج المنهجين الواقعي والخيالي ، التي تميز أعمال كافكا ، لا كخاصة تصويرية لمؤلفاته فحسب ، بل وكتعبير عن ازدواجية نظرته الى العالم · فتبدأ رواية كافكا كرواية حقيقية واقعية ثم لا تلبث مع تطور الأحداث أن تتحول الى رواية خيالية · وتقترن واقعية الموقف ، عادة ، بغرابة

الأحـداث وبغرابة مصـاير الأشخاص وتحولاتهم ٠

وتقوم قصة « القضية » على الجمع بين العادي وغـير المألوف ٠ وتتبـدل الخلفية الواقعية في بداية القصة مـع قدوم الغريب ، الذي يعلن بدءالتحقيق في جريمة البطل ، الذي لا يعرف عنها شيئاً٠وتمتاز تطورات الأحداث التالية بالمزج بين الموضوعين الواقعي والخيالي٠ وممـا يثير الاهتمام أن الغريب يعرف أفكار البطـل ورغباته السرية ، التي تقدم في النهاية الذريعة للحكم عليـه بالمـوت ٠

إن ازدواجية المنهج المذكورة ، أعلاه في قصـة « القضية » وفي غيرهـا من مؤلفات كافكا الأدبية تعطيها إمكانية تفسيرها بطرق وبأساليب مختلفة ٠

ويولّد الادراك المريض والمضخـم لتناقضات الواقع الحقيقية ، والخوف من هذه التناقضات مقولة العزلة التي لا تقهر وقضاء الفرد المحتوم ٠ونتيجة لتحـول نزاعات الحيـاة وصراعاتهـا التاريخية المعينـة الواقعية تنشأ قضية معـاداة العالم التراجيديـة الشاملـة للانسـان ، وعبث الوجود وتفاهتـه والقنوط منه ٠

لقد عـرت وسـائط التصـوير السينمائي الخاصة فلسفة قصة كافكا وقواهـا المحركة ٠ فالجمع بين نص المؤلف وبين الصـور البصرية المرئية جعل بواعث هـذه القصـة الرئيسية وآليتها ، المشوشة جداً والغامضة أثناء القراءة ، واضحة جداً وجلية ٠

وفي الوقت ذاتـه تأكدت في الفيلم التحولات اللازمة لتحويل العمل الأدبي إلى عمل سينمائي ٠ فقد استخدم المخرج ويلز ، بـالفعـل ، إمكانات الصـور السينمائية اللا محدودة لنقل وإيجـاد الأشكال المادية الملائمة لتجسيد حركة الفكر والخيال الانسانيين وتموجاتهما الدقيقة الصغيرة ٠ وتمر أمامنا رؤىً وأخيلة مرضية مرعبـة محرومـة من الارتباط والتماسك وصادرة عن روح مريضة دب فيها اليأس ، فشرعت تنتظر مصيرها البائس المحتوم ٠

وتتميز قصـة كافكا ، وأعمـال الوجوديين اللاحقة بوجه خاص ، بتبديل منطق الحيـاة الحقيقي بادراك شـاذ للعالم . تسيطر عليه الغرابة والشعوذة أحياناً ٠

وإثر هذا الرجل البائس الذي كان يعاني الى أقصى حد من عزلته وبؤسه

وضعفه وتفاهته ، والذي استولى عليه الذعر والخوف من مصيره القاسي المحتوم ، قدِم شخص ما • من هو هذا الرجل الذي قدم ؟ ومن هم هؤلاء الحَرَس المنفذون للارادة السرية الخفية العليا ؟ ولماذا يريدون اعتقاله ؟ كل هذا يبقى مجهولاً • يمكن الافتراض بأن رجال الشرطة يريدون اعتقاله ، أو على الأصح ممرضون من مستشفى الأمراض العقلية • وعلى أية حال ، هناك أشياء كثيرة تذكر بلوحة مستشفى وتظهر شكلاً معقداً من أشكال جنوب الاضطهاد • وكذلك نهاية الفيلم ذات معان عديدة لا يمكن إدراكها • وعموماً يعبر التفكك الشاذ والمرضي لهذا العمل بحدة عن فكرة محددة في قصة كافكا • وقد وجدت هذه الفكرة تطورها اللاحق المشوه في الوجودية المعاصرة • وهي فكرة ضعف الانسان وعزلته وحتمية وجوده المقررة مسبقاً •

وينقل الفيلم بصورة مجسمة انفصام وعي المؤلف وبطل قصة « القضية » • وبطل الفيلم ذاته ومحاميه ينقسمان إلى عدة شخصيات منفصلة مستقلة أو على العكس ، تندمج شخصيات كثيرة ، بصورة غير مألوفة ، في شخص واحد • أما محامي بطل « القضية » «فيتناثر» ويغدو متعدد الأوجه، يستحيل الامساك به أو إدراكه •

إن مثل هذا الادراك المريض للعالم يرتبط بلا جدال ، وإلى درجة كبيرة ، بالمواقف الوجودية القائلة بصعوبة إدراك الطبيعة الانسانية ولا عقلانيتها وانفصام الشخصية المعاصرة • وبطل كافكا مجرد من أية إرادة أو قدرة على المقاومة •

ونتيجة لتفكك بطل كافكا الداخلي، وبشعوره الشاذ والمرهف باللامبالاة والضعف ، يفقد هذا البطل احتكاكه واتصاله مع مختلف جوانب العالم الموضوعي • ويبرز الوسط المحيط كوسط ظالم غريب ومعاد للفرد المتردد• ويقضي الشعور الشامل بالخوف والعزلة على جميع مشاعر البطل الأخرى •

إن تصوير الأحلام والكوابيس وهذيان المَرْضى نفسياً ، وانقسام البطل الى عدة أشخاص ، أو اندماج عدة أشخاص في شخص واحد قد ظهر في الأدب الواقعي الكلاسيكي منذ فترة طويلة واحتل مركزه في هذا الأدب منذ زمن ليس بقصير • ولنعد إلى الوراء قليلاً ونتذكر مؤلفات غوغل ودوستويفسكي وغوركي • إن من

الغرابة بمكان أن ننكر شرعية مثل هذه الطرق الفنية في الأدب الواقعي • فهذا بوبريشين (بطل غوغول) بأحلامه وهذياناته المرضية ؛ وهذا هو رجل القاع (دوستويفسكي) بهَلْوساته Hallucinations اللا إنسانية؟وهاهوذا كليم سامغين (بطل غوركي) وأحلامه وكوابيسه الرمزية ، وانقسامه الى عدة أجزاء ثم خضوعه ، في الصراع ، لصنْوه الثاني • إن هذه الطرق والعناصر كلها تكشف بجلاء عن أخلاق البطل ونفسيته ، وتخدم تفسير جوهر طبعه الداخلي الملتوي• أما عند كافكا ، فيبرز هذا الأسلوب ، وبصورةمعاكسة، كمبدأ رئسي شامل يستبدل الجوهر الحقيقي ويشوهه ، كما يشوه منطق الأحداث والطباع ويحل محله •

ويعترف أنصار المدرسة التجديدية بأن أكبر « مجددي » الأدب العصريين ، وكافكا بصورةخاصة، قد غدوا بعيدين عن أيةقرارات تاريخية فعالة ،وعكسوا في مؤلفاتهم وأعمالهم بلبلة أخلاقية وروحية ليس لها مثيل • وحسب رأي بعض الباحثين ، بأن من الممكن تفسير ذلك في أنهم قد تنبأوا بواقع جديد وعكسوا ، إلى حد ما ، سير الحياة في أعمالهم وقصصهم ، وفي الوقت ذاته ، كانوا يتأسفون علىالماضي الذيارتبطوا به بأواصر التعاطف والميل والعادة • وهذه المحاولات الأليمة لتصوير الواقع في تطوره وتبدله قد أثرت على لغة الأدب وأسلوبه • واذا ما فصلنا كافكا عن تأويلاته وتفسيراته ، الموفقة وغير الموفقة في السينما والمسرح لا بد من الوقوف على تربة موضوعية عند إلقاء الضوء على أعماله ومؤلفاتهوشخصيته• ففي إخراج قصة كافكا « القضية » وغيرها من مؤلفاته الى السينما ، وبسبب من تطور التجديدة ، وإن كان هذا التطور معتدلاً نسبياً وبدون مبالغات وتطرفات مثيرة ، ظهر إتجاه الى التّعمّم Universilisation اللا تاريخي لمؤلفاته ، وكان هذا الاتجاه مميزات لتفسيرات أعماله المعاصرة • وعلى سبيل المثال ابتعد مخرج قصة « القضية » الى السينما عنالتصوير التاريخيالمحدد لبيروقراطية الملكية النمساوية ــ الهنغارية • وتمر « قضية » كافكا في قاعات محكمة مجهولة ترمز الى القوة الكريهة لسلطة الدولة بصورة عامة • وقد أزيحت جميع تفاصيل قصة كافكا وأحداثها وشخصياتها ، في ضوء التفسيرات

المتحاملة الحديثة ، الى جانب العمومية اللا تاريخية المعاصرة ·

ولكن ، وحتى في حالة الفهم الواسع والمتعاطف يبقى موقف كافكا موقف ضحية ضعيفة عاجزة لعالم لا إنساني يصعب إدراكه · ومثل هذا الموقف لا يمكن الاعتراف به كموقف شامل وفعال في عصرنا هذا ·

وقد أكد التاريخ مرات عديدة فشل مثل هذا الموقف الذي ينحرف عن وقائع الوجود الحقيقية ، وينسحب الى مجال النظريات المضللة التي تنادي بسخافة الوجود ولا عقلانيته الشاملة ·

فأولاً ، ومع قوة الكاتب الفريدة الاستثنائية في نقل الوقائع ، فانه لا يصور إلا جانباً واحداً فقط من جوانب حياة العصر الروحية والاجتماعية · وشخصياته ضحايا ، وهي لا تلعب ، ولا يمكنها أن تلعب ، أي دور ملحوظ في خلق التاريخ الجديد وفي التطوير التقدمي للمجتمع · أما قوى العصر المحركة فهي مجسّدة في طباع من نموذج آخر ، وتشترك في النضال ضد الظروف المعادية لها بطريقة مختلفة ·

وثانياً : إن موقف الوجود الأليم ، وانطواء الانسان في أعماق وعيه المريض المنقسم فاشل من الناحية التاريخية · وكما تثبت خبرة السنوات العشر الأخيرة بصورة دامغة ، لم يدعم تقدم الانسانية وكرامة الفرد الناس الموجودون في الجانب المهمل من التاريخ · أما الاشتراكية فتوجه الفنان الى طريق البحث الناضج لجميع تناقضات الحياة · وطريق الفنان الذي يريد فعلاً التعبير عن الحياة وتكوين نفوس بناءة للعالم الجديد ليس الابتعاد عن نزاعات الحياة الحادة وصراعاتها ، ولا القيام بمحاولات لاخمادها أو مهادنتها ، بل الطموح الى مواجهتها برجولة ، وتفسيرها دون خوف أو رهبة ، وزيادة حدتها وايجاد الطرق الملائمة لحلها وتقريرها ·

وفي قصة « القصر Das Schlob » تظهر أيضاً بوضوح وجلاء الخاصة المميزة لمؤلفات كافكا وهي الجمع بين الواقعية المكثفة وصدق الظروف الخارجية وبين غرابة الأحداث ، والخيال المرهق لتحول الشخصيات ·

تبدأ القصة بتصوير واقعي لقدوم مسّاح الأرض الى المزرعة ، للقيام بتنفيذ بعض الأعمال المطلوبة · ثم تظهر أمامه عدة مشاكل لا يستطيع

تقريرها إلا اذا التقى بصاحب القصر ... وبالتدريج يكتسب عزمه ، الذي أملته الضرورة ، على مقابلة مالك القصر ، طابع الشوق الزائد والمسيطر الصوفي ، الذي يسيطر على كيان بطل القصة ونفسيته ، ويغدو نوعاً من الشغف الهَوَسي . وبالاضافة الى ذلك تكتسب الشخصية الغامضة لمدير المزرعة، الذي يعرقل رغبة مساح الأرض ، خفاءً غيبياً مبهماً .

ويفسر النقاد أحداث قصة «القصر» الخفية بأشكال وصور مختلفة ، غير أن أغلب نقاد القصة الغربيين ، وعلى وجه التحديد (ماكس برود) ، يؤكد بأن كافكا قد جسَّد في هذه القصة طموح الانسان الخالد نحو الله ، ونحو إدراك الحقيقة الكبرى . ويكمن النزاع الرئيسي للقصة ، حسب رأيه ، في اصطدام قوى الطموح الى الله باستحالة رؤيته ، والحصول منه على أجوبة عن مسائل الحياة الأليمة المعذبة .

من الممكن قبول هذا التفسير أو رفضه . ولكن يبقى التفسير المادي التاريخي المحدد لمضمون القصة أكثر إقناعاً . وذلك لأن المواضيع الرئيسية لمؤلفات كافكا تتصل بوضوح بسيرة حياته الخاصة وبظروف مجتمعه . ولكن من الواضح تماماً أنه لا توجد أيـة معطيات تدفعنا الى اعتبار قصة «القصر» تجسيداً رمزياً للاغتراب كحتمية شاملة للوجود الانساني .

إن إزدواجية المنهج في مؤلفات كافكا ، والجمع بين اتجاهي السرد القصصي الواقعي والخيالي هما صفتان تظهران عنده بصورة واضحة فريدة وتميزان مؤلفاته . ولهما أسسهما الواقعية في الظروف التاريخية لعصره ، وفي خصائص وسطه ، وسيرة حياة الكاتب وتركيبه النفسي . ويحتل نموذج الادراك الفني للعالم الذي قدَّمه كافكا مكاناً بارزاً في أدب القرن العشرين . وهذا النموذج له جوانبه القوية والضعيفة ، لا سيما وأن هذا النموذج ينادي بـه بعض الناقدين المعاصرين لمؤلفات كافكا ، على أنه النموذج الأوحد والأكثر تجديداً في الواقعية ، وعلى أنه النموذج الذي يلغي جميع النظرات السابقة عن الواقعية المعاصرة ، ويعتبرها ضيقة أو غير صحيحة . كما تتردد كثيراً وجهة النظر الزاعمة بأن أسلوب تحويل الواقعي والخيالي يعطي إمكانات كبيرة للتعبير عن الادراك الذاتي للانسان المعاصر ، ولا يمكن أن تصل الى هذه

الامكانات نماذج الأدب وطرقه الأخرى في أيامنا هذه. وقد ذكر بعض المشتركين في المؤتمر ، الذي انعقد في مدينة ليبليتسي في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٣ بمناسبة مرور ثمانين عاماً على ولادة فرانس كافكا ، بأن تحويل العادي والمألوف الى غريب وغير عادي ، مع التجسيم الأقصى ، يؤكد الصراعات الاجتماعية والسيكولوجية، ويؤكد بصورة خاصة سخافة ولاعقلانية كل مايناقض الروح الانسانية في الحياة الاجتماعية. وبتوجيههم النداءات الى ممثلي الفن الاشتراكي بالسير على طريق كافكا ، فقد أكدوا أن أعماله الأدبية تقدم لنا إمكانية التعبير عن العلاقات الاجتماعية والجماعية الواقعية في مرآة الأحلام والرؤى المشوهة خيالياً والمضخمة كثيراً عن الواقع .

ولا بد من التأكيد ثانية بأنه من الخطأ الكبير نَفْيَ أهمية هذا الأسلوب من التعبيرية والتصوير في تاريخ الأدب. فقد احتلت الرمزية والمبالغة والتضخيم والشخصيات الخيالية الاصطلاحية مركزها ومكانها دائماً في الأدب العالمي. وهي تأتي نتيجة لوجهة نظر خاصة في الادراك الفني للعالم . ومع ذلك فان الاتجاه الرامي الى إعطاء الرمزية الخيالية أهمية عمومية شاملة واعتبارها صفة معيارية شاملة للفن المعاصر، هو اتجاه لا يستند الى أساس سليم . ولا يتفق أبداً هذا التضييق للواقع وإفقار مجال الأدب والفن المعاصرين مع التنوع الحقيقي في الوسائط التعبيرية لفن القرن العشرين . لا شك أن حدة المواقف الاصطلاحية الرمزية لها مناقبها وحسناتها في مؤلفات كافكا، غير أن هذه المناقب والحسنات لا تلغي أبداً أساليب التصوير الواقعي وطرقه.

وتدخل الأشكال المختلفة للترميز Symbolisation ونقل العادي الى مجال الخيالي ، منذ زمن ليس بالقصير في مجموعة الوسائط التصويرية للواقعية. وأي تقنين افتراضي في اختيار هذه الوسائط الفنية أو تلك غير لائق ، كما أنه يحد من إمكانات الفن وطاقاته الابداعية . ونعود ثانية إلى التأكيد بأن خصائص أية ظاهرة فنية لاتحددها طرق التصوير الفنية المستخدمة بحد ذاتها ، بل تحددها تلك الوظيفة الواقعية التي تؤديها هذه الطرق التصويرية في البنية الفنية للعمل الأدبي . ويحتل ، في هذا المجال ،طابع المادة المصورة وموقف الكاتب وفكرته أهمية كبيرة . وإن الاكراه الغامض

للفنانين على اتباع هذه الطرق أو تلك، كدليل محدد على الوعي الفني المعاصر ، بغض النظر عن خصائص إدراك الكاتب للعالم وخصائص المادة الحيوية الهامة، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى قولبتهم وحرمانهم من العمومية الفنية الحقيقية الضرورية بالفعل ·

ولا جدال أبداً في أن التعميمات التي تتخذ شكل الرؤى والنقد الخيالي والرمز الأدبي ، قد برزت ، وتبرز في تاريخ الأدب كتعميمات فعالة بشكل فريد · وقد تميز بهذا النهج من التجسيد الفني للواقع كل من أريستوفان ، ورابلي ، وفولتير ، أريستوفان ، ورابلي ، وفولتير ، لا يصح أبداً على هذا الأساس أن نعتبر هذا النهج تعبيراً احتكارياً ومعيارياً عن التجديد الأدبي المعاصر·

إن إزدواجية أعمال كافكا الأدبية هي من التعبيرات المميزة عن التأثيرات المتبادلة بين الواقعية والتجديدية ، سواء من الناحية الفلسفية أو من الناحية الجمالية·ولكن يجب أن لا يدفعنا هذا الى نسيان التطور الخاص المميز لكل من هاتين المدرستين · كما لا يصح أن نحكم على ظواهر الأدب ، دون أخذ نظرات الكاتب الفلسفية والجمالية بعين الاعتبار · ووجهة النظر القائلة بأن كافكا شخصية شاملة وكلية كاملة لاتتفق أبداً مع تركيب كافكا الروحي المتناقض حتى اللا نهاية · وقد وردت هذه الآراء في عدد من الخطب والكلمات التي ألقيت في المؤتمر الذي كُرِّس لأعمال كافكا الأدبية ، حيث نُظر الى كافكا خارج تنوع الحياة الأدبية في القرن العشرين وتناقضها وكشخصية شاملة عامة في الأدب المعاصر ·

ونتيجة لمثل هذا الفهم الجزئي ، الأحادي الجانب ، تُقلل أهمية أولئك الكتّاب الكبار أمثال غوركي وماياكوفسكي وفوتشيك ، وتختفي الحدود بين اتجاهات الفن المعاصر · وتختفي معها من لوحة فن القرن العشرين أصالة الأجيال وخصائصها المميزة واختلاف المصاير والمواقف · وبمثل هذا الادراك الضيق والأحادي الجانب للعالم يختفي عصرنا الحقيقي الفني بتنوعه وصراعاته واختلافاته ·

إن مكانة كافكا الحقيقية وأهميته ونواحي قوته وضعفه لا يمكن إظهارها وتفسيرها بصورة كاملة إلا بمقارنته مع أدب القرن العشرين التقدمي ،

المتصل بأفكار الثورة والاشتراكية ·

وكثيراً ما تصدر تأكيدات تزعم بأن الاختلاف بين أدبنا هذا وبين كافكا يكمن في أنه قد توفرت لنا نحن ،خلافا لكافكا، إمكانات تغيير الواقع الاجتماعي: وأن كافكا وأبطاله ، وبسبب من الظروف التاريخية التي كانت قائمة ، كما يزعمون ، كانوا ضعفاء ، ولم يتمكنوا من رؤية سُبُل ما لتجديد الحياة وتغييرها ، على الرغم من إدراكهم لاستحالة القبول بالنظام القائم · إن الذين يرددون هذه التأكيدات يَحجّرون كافكا ، بطريقة لا شرعية ، في عالمه الضيق · ويغمضون أعينهم عن أنه قد تطور ، في تلك الفترة بالذات التي عاشها كافكا وعاصرها أدب ثوري عظيم يشير الى السبل الواقعية لتغيير العالم· وهكذا فالقضية لا تكمن فقط في ظروف المجتمع البرجوازي ، بل تكمن ، وقبل كل شيء ، في خصائص نظرة الكاتب الى العالم وأيديولوجيته وأفكاره ·

وينقل كافكا بصورة حادة شعوره بفقد الثقة ، بالانسان وبحاضره ومستقبله وعقله وإمكاناته وقواه الخلاقة · وهذا أيضاً ليس إلا جانباً واحداً من جوانب العصر · وإننا نقدر حق التقدير دوافع المؤلف الانسانية ونعترف بها · ولكننا نتجنىً على الحقيقة اذا ما جعلنا من كافكا شخصية شاملة عامة ، وحاملاً لأفكار شاملة ، ونبيا صادقاً في نبوءاته · ويبرز الانسان ، من خلال مؤلفات كافكا كشيء وكمادة وكمرحلة في إرادة لا يمكن إدراكها أو فهمها لشيء شامل ما · والانسان ، في مؤلفاته ، لا ينشط ولا يفعل ، بل « يُنفعل به » ويُحرك · ولذلك لا يستطيع الانسان أن يحصل على الحرية الحقيقية ، أي أن يغدو شخصية بالمعنى الكامل إلا في الوجود اللا إجتماعي « الذاتي » حسب تعبير الوجوديين · غير أن الانسان لايحتمل الحرية في الوجود « الذاتي » ، ولكي يخرج عن ذاته ، يعود إلى مجال الاغتراب العادي المبتذل · ويوجه الكثير من النقاد الأوروبيين اهتمامهم الى ذلك التناقض Antinomie القائم بين الوجود « الذاتي » و « اللا ذاتي » وبين الطموح الى الحرية واستحالة الخروج خارج إطار الوجود العادي المألوف ، الذي يتصف به كافكا · ويشير الناقد الألماني الغربي ف إيمريخ الى أن المسألة الرئيسية التي كان كافكا يحاول دائماً تقريرها هي كيفية

الامســاك بالعمليات والمسارات التي تُوجِّه الناس ، وكيفية جعلها مرئية واضحة . ويتحدث كافكا باستمرار في عمله الأدبي الباكر « وصف الصراع » عن « الآلام التي يعانيها الانسان عندما يكون خاضعاً لقانون لا يعرفه » .

وقد كرس كافكا قصتــه القصــيرة « في الاصلاحية inder Strafkolonie » بشــكل خاص للتناقض بين الحيــاة والقانون المطلق . وأقصوصة أخــرى بعنوان « الرفض » تحدثفيها عنخداع الأوهام الذي يبدي وكأنه من الممكن الخروج مــن إطار القانون الخالد . ويبــدو للابطال (وهم سكــان المدن المعذبون)بأن أي تبدل يطرأ هو أمر غريب لدرجة أنهم يتنفسون الصعداء ، عندمــا يصطدمون مــن جديــد ، وباستمرار ، برفض طلباتهم .

إن التكوين الانساني الحقيقيييمكن أن ينشأ ، حسب رأي كافكا ، منمهانة حاجات الحياة مع متطلبات القانون . وهذا هو المخرج الوحيد الممكن ، كما يرى كافكا . إلا أن إمكانية هــذا الانسجام لا توجد ، بالنسبة لكافكا ، الا في مجال الخيال .

يصف الناقد الالمــاني الغربي ف. إيمريخ فلسفة كافكا قائلا : « هناك طبقة كاملــة في أعماله ، يصور فيها الوجود الحر في ذلك الجانب من جميع الحيثيات والتعليلات الممكنة والصراع. وهذا الجزء هو الجزء الاكثر غموضاً والأكثر أهمية ، في الوقت نفسه مــن مؤلفات كافكا . وأقصــد بهذا الجزء النمــاذج المتعددة للحيوانات والمــواد المختلفــة التــي تنخلع من أنظمتنــا التجريبية المتحجرة ومخططات تفكيرنا، وكذلك بعض شخصيات الأطفالوغريبي الأطوار و « المسنيِّن » (١) . ويــورد الكاتب كمثال « هموم رب العائلة » . ولا يتم التحرر مــن الهموم والمشاغل البشرية إلا بثمن باهظ من التحويلات والتشــويهات الرهيبــة (أقاصيص : « تقرير الأكــاديميــة » ، « الطبيب الريفي » ، « الاستعداد للحرية » ، « التحويل ») .

لكن أي تحول أو مخرج خارج إطار الوجود العادي المألوف ، وخارج مجال توابعه الرئيسية وهي الخوف والمشاغل يبدو دائماً خيالياً وغير محتمل ،ومهلكاً أحياناً . ويقف كافكا ضد الاغتراب

(١) W. Emrich, Die Weltkritik Franz Kafka — «Akademie der Wissenschaften und der Literature», Wiesbaden. 1958, W. I. S. 17.

في الحياة البرجوازية ، ولكن ، وبما أنه لا توجد حياة أخرى بالنسبة له ، فهو يرفض الحياة عامة بخيرها وشرها٠

وتفسير طبيعة الانسان هام وضروري من أجل شرح المسألة الرئيسية التي تقع في مركز الأدب العالمي في السنوات العشر الأخيرة وهي مسألة إمكانية القضاء على اغتراب الناس بعضهم عن بعض ، والقضاء على تشتتهم الأبدي ٠

من المفهوم أن تركيبات كافكا المتشائمة تحددها الصراعات الواقعية للمجتمع البرجوازي ٠ وقد نشأت لدى أبطال أدب الاشتراكية فلسفة وأخلاق محبتان للحياة على تربة إجتماعية أخرى ٠ وهذه التناقضات والتباينات في آراء الكتّاب حول مصير الانسان وقيمته وجوهره الأخلاقي تعبر بوضوح وجلاء عن تعارض وجهات النظر في تقرير المسائل الرئيسية للانسانية المعاصرة ٠ وفي مؤلفات أدباء وفناني النظرة الاشتراكية يبرز عالم آخر تماماً ، عالم العلاقات الانسانية المتبادلة ، وترتسم نظرة أخرى الى طبيعة الانسان والانسانية ٠

وكثيراً ما يفسر في الأدب الغربي الانقطاع المطلق للصلات مع المجتمع وتفكك الوعي كقضاء ما على مُقَل الحياة الواقعية وعيونها ٠ ووفقاً لمثل هذه النظرات ، يطمح أبطال الأدب التجديدي ، بمعاناتهم للأزمة الداخلية، الى الارتفاع فوق هذه الأزمة٠ ولذلك فهم لا يعترفون بمسؤولياتهم عن واقع العالم وحالته ولا ينفون شيئاً كما لا يؤكدون أي شيء ٠ ويقتصرون على التعبير عن التناقض ونقله بتعقيداته كلها ٠ وأن إدراك التناقض القائم بين الفرد والعالم هو بحد ذاته تقرير لهذا التناقض ، كما يعتقد منظرو التجديدية ٠ ولكن طريق حل هذا التناقض الذي يقترحه الباحثون التجديديون ، يكمن ، في الواقع ، في جعل تناقض الفرد والعالم تناقضاً مطلقاً ، وفي الاعتراف بأبديته ،وتأكيد استحالة معالجة الوجود الانساني واستحالة قبوله أو اصلاحه ٠

وبالرغم من الجوانب القوية الكثيرة المتوفرة في أعمال كافكا ، فانها لا تقدم لنا ما يبرر لنا أن نعتبرها تصوراً كاملاً وخيالياً للموضوع الانساني العام الشامل ٠ وبالفعل ، فالمعاناة والشعور بالوحدة وبالقضاء المحتوم ، والخضوع لقوة جبرية لا يمكن إدراكها ، واستمرارية التحرك نحو الموت تعتبر ظواهر عامة لدى أوساط

واسعة من الناس . ولكن لا توجد أية معطيات أو مبررات تدفعنا الى اعتبار هـذه الظواهر كشمولية موحدة عامة فهناك أشكال أخرى أكثر فعالية للتعبير عن الموضوع الانساني العام ، وهي قادرة على توحيد الناس وتوجيههم نحو الأهداف العامة .

ويرتبط الأدب الواقعي والتيارات التجديدية بتفسيرين متعارضين متضادين لمفهوم « الموضوع الانساني العام » . فالوجودية مثلاً ترى الوحدة الانسانية العامة في مجال الغرائز أو في أعماق الشمولية اللا واعية ذات الطراز البدائي .

إن العقيدة الاشتراكية تتفهم « الموضوع الانساني العام » كمقولة تاريخية ، وقبل كل شيء من حيث نمو عقل الناس وكرامتهم الأخلاقية وطاقتهم الابداعية وانسانيتهم . وقد أكد غوركي بأن الاشتراكية والنضال من أجل المثل العليا للعالم الجديد يغنيان مفهوم « الانساني العام » بمضمون جديد وقد كتب بهذا الصدد : « يحق للطبقة العاملة أن تقول بأنها تُفْعم مفهوم « الموضوع الانساني العام » بمضمون إنساني عام بالفعل . ويمكن لهذا المضمون أن يُستوعب من قبل البروليتاريا في جميع البلدان . ولا بد، في كل مجال من مجالات العمل والابداع، بغض النظر عن اختلاف الأفراد ، من أن يرى المرء بوضوح ويشعر بتلك القوة الوحيدة ، الجماعية المتكاتفة التي تخلق العالم الجديد ...

لقد بدأ يتشكل في العالم مفهوم إنساني عام جديد ، وبدأ المفهوم القديم يتشرب معنى جديداً . وإن الوصية القائلة « لا تصبوا الخمرة الجديدة في زِقٍّ قديم » لا تنطبق على هذا الواقع الجديد . وذلك لأن الخمرة جديدة ، هنا ، والزق جديد أيضاً ... »(١) .

إن الأدب الأكثر فعالية ، في الوقت الحاضر ، هو ذلك الأدب الذي يُعلِّم الناس أن يفهموا التاريخ كمسيرة يوجهها الناس ، وليس كمسيرة موجهة ضد إرادة الانسان : هو ذلك الأدب الذي لا ينحني ولا يخضع ، ولا يستكين ولا يذعن ، بل يدفع إلى العمل المبدع الخلاق .

---

(١) غوركي . مكسيم . المؤلفات الكاملة موسكو ١٩٦٢ الجزء ٢٤ ص ٣٢٣ . ٣٢٥ .

ثلاث قصص

من الأدب النسائي الانكليزي المعاصر

ترجمة : د منير صلاحي الأصبحي

جانيس إليوت

الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات

من حيث أخذ يحفر في الليل ، استطاع فلكس سماع حديقة الحيوانات • حين غادر الزائر الأخير بدأت الهمهمة : كانت هذه أصوات الحيوانات المألوفة الأصغر حجماً ، متناقلة الاشاعات ، ولكن عند منتصف الليل أصدرت الحيوانات الأكبر والأندر أصواتاً وتوقف فلكس ليصغي للزمجرات وتاوهات الشكوى والضحك الجامح • بدا له هذا في البدء حديثاً هيستيرياً بين مجموعة من المصابين بداء السهر ، وفيما بعد ـ حين تغلب عليه التعب وجموح الخيال ـ بدا ، عاطفة الحيوانات ، الصرخة اليائسة للابرياء الشهداء • لم يكن يبالي بحدائق الحيوانات • فقد كانت الحيوانات تبدو له سجناء لا أمل لهم في اخلاء سبيلهم أو في الخلاص • وأولئك الذين لم يقعوا في الأسر بل ولدوا هناك كانوا مثل العميان المولودين بلا بصر • بالنسبة له ، لو أنه كان وحشاً من الوحوش وكان له الخيار لفضّل الأسر ، ولو فقط كي يكون لديه شيء يتذكره ، يتحدث عنه في الليل •

---

* Janice Elliott, "The Noise from the Zoo"; Jean Stubbs, "Call me again the Day that is Past"; Maggie Ross, "An Obsessive Act of Creation, or Destruction".

كما هو مبين ، جميع هذه القصص كتبت خلال السبعينات من هذا القرن •

استراح قليلا وأخرج سندويشاته وقارورته. ظهر شرطي من قلب العتمة . حبس فلكس تنفسه . نظر الشرطي الى المصباح الأحمر الخافت والرفش والحاجز المنخفض المحيط بالحفرة المتزايدة الكبر .

« ليلة جيدة للقيام بذلك . وحدك ؟ » .

هز فلكس رأسه بالايجاب وقدم له بعض القهوة . شربا . تابع الشرطي سيره . ولكنه نظر أولا من فرق الحاجز :

« لديك حفرة جيدة هناك » .

حين انتهى فلكس ، قام بترتيب المكان وأخذ الرفش ولكنه ترك الحواجز والمصباح. سيزيح شخص ما على الأرجح هذه الأشياء في النهاية . أما الحفرة فقد كانت عميقة الى حد كاف ولكنها ليست عميقة بحيث اذا سقط فيها طفل أو شخص غير منتبه يتعرضان للأذى. كان هذا هاماً . كان جزءاً من الخطة، مثلما كان امراً لا أهمية له بالنسبة لفلكس أن الحفرة ستردم عاجلا أو آجلا . أسرع الى البيت وفي الساعة السابعة أيقظ زوجته أودري وقدم لها كوباً من الشاي .

قالت أودري للمرة العاشرة : « ماذا تقصد بحفرة ؟ » .

قام أخوها جيرالد بتحريك الغليون بين أسنانه . « انه يعني ما يقول يا أود . حفرة . » اتجه الى جانب الرصيف وصف السيارة . وأضاف : « هي حفرة » .

« هذا ما عنيته ، » قال فلكس .

لم تكن الحفرة قد حازت بعد انتباه المسؤولين ، أو اذا كان ذلك قد حدث ، فقد افترض أنها حفرت لمنفعة عامة . فالمصباح والحواجز أعلنت حقها في الوجود . كان اليوم يوم سبت جميل في الحديقة العامة . جلست بعض النساء قرب الحفرة على كراس ونادين أطفالهن ليبتعدوا من الحافة . بعمق متشرد في الحفرة . ضحكت فتاتان عليها . نظرت أودري اليها نظرة جانبية ، كي لا يضبطها أحد . وضع جيرالد نفسه أمامها .

« انا حفرة صغيرة تماماً » .

« انها كبيرة ، » قالت أودري بحدة ، « انها كبيرة أكثر مما ينبغي » .

أشرق وجه جيرالد : « أكبر مما ينبغي من أجل ماذا ؟ »

« لا تشجعه ، » أجابت بسرعة . « انه مجنون . »

« اذن ، » كرر جيرالد ، ملتفتاً الى فلكس ، « من أجل ماذا ؟ »

« لا لشيء . »

« لماذا ؟ »

« لا لأي سبب . » تحاشى فلكس النظر الى الحفرة . كان مصمما أن تكون بلا معنى. اذا نظر اليها فترة أطول مما يجب فقد تتحرك مشاعره بسببها ، وكان واعياً لبعض خلجات الفخر بينما كان الناس يتوقفون ليحدقوا بها .

حين عادا الى السيارة كانت اودري تنتظر متوترة ، مستعدة للبكاء . وفي البيت ، بدون جيرالد ، الذي غادرهما وهو يضحك ويهز رأسه ، التفتت الى فلكس :

« كيف يمكنك أن تقوم بشيء كهذا دون أي سبب ؟ هل أنت مجنون ؟ ما الذي تأمل أن تربحه من ذلك ؟ »

« لا شيء . »

« ماذا اذن ؟ هل تريد أن تتعرض للمتاعب ؟ »

« بالتأكيد كلا .. »

نظرت اليه نظرة هائجة شاحبة وبدأت تنتحب.. « اذا أردت حفرة فقد كان بامكانك ان تجعلها هنا ! » .

أصابه القلق للمرة الاولى منذ فكر بالحفرة . بدأ يلحظ الخطر . مد يديه : « ألا ترين ، لم تكن لتعني بالغرض ؟ هنا في حديقتنا حيث نسكن ، كانت ستعني شيئاً؟ ستكون ذات سبب ، ذات عاقبة . جوهر الأمر انعدام الهدف ، ذلك هو جمالها » أخذ يفكر وأحضر لنفسه زجاجة بيرة وأخذها الى الحديقة . لقد اختار حفرة لانها فارغة ، عديمة المعنى ، الفعل المنعدم الحافز بشكل مثالي . لكن الشرطي قد وصفها بأنها جيدة وقالت أودري أنها كبيرة وجيرالد أنها صغيرة وهو نفسه تحدث عن الجمال . أخذ يتساءل. لأول مرة استحوذت الحفرة على اهتمامه،شعر بالرغبة في أن يجري ويحميها من الفساد ، من التفسير . سيكون من الأفضل أن تردم. أسرع لينقذ حفرته .

قام بمخاطرة بذهابه في وضح النهار . لم يكن قد رمى أكثر من ملء نصف رفش من التراب حين ربتت السلطة ــ التي استيقظت أخيراً ــ على كتفه .

« لم أكن أريد ايذاء أحد . انني لا أؤمن بالعنف . لقد أردت ان اثبت شيئاً . »

« ؟ »

« ان فعلا ما ممكن بحد ذاته دون حافز أو عاقبة . اطلاق شيء نقي لا يمكن أن يفسد موضوعي ، دون ماض أو مستقبل . ان لدي عملا محترماً ، وأنا أحب زوجتي . وليس لها أية علاقة بهذا الأمر .. »

لم تملأ الحفرة في الحال . غدت في البداية مكاناً يذهب الناس اليه في الأمسيات المشرقة ، حيث يستطيع الأطفال اللعب ، ثم أصبحت تشبه ضريحاً . أقيمت حواجز أكبر بسبب خطر انهيار الجدران . قامت الشرطة بقياسها . ظهرت على شاشة التلفزيون . بدأ الناس يرمون فيها الزهور ، بل وقطع النقود. وقفوا حولها في دوائر كما لو كانوا يتوقعون حدوث شيء . أصبحت بقعة شهيرة يقصدها المجانين المسالمون والوعاظ والعشاق .

مال اولئك الذين استجوبوا فلكس الى التساهل معه في البداية ، الى صرف النظر عنه معتبرين أنه معتوه لا أذى منه . لقدكان باستمرار هادئاً ولبقاً ، وقد كشف التحقيق أنه حتى الآن كان مواطناً صالحاً ، ذا طموح متواضع ونجاح معقول . ولقد كان الأمر في الواقع مجرد حفرة .

كان المفتش يعتبر نفسه متحرراً الى حد ما . ولقد واجه معظم النوعيات ورغم أن وظيفته تطلبت أن يطبق عليهم القانون فانه

قد تعرض أكثر من مرة للشعور بالعطف على المدائيين نحو المجتمع . وقد اعترف لفلكس:
« هؤلاء الشباب الصغار ليسوا الوحيدين الذين لا يستطيعون هضم ما يجري . هــذا المجتمع الخاضع للتقاليد والقوانـين . دولة الرفاه هذه . » وأشرق وجهه . « لقد مرت أوقات شعرت أنا نفسي فيها بالرغبة في قذف قطعة من الآجر . لقد خبرنا معظم الأشياء، ولكن عليّ أن أعترف ان الحفرة جديدة كلياً بالنسبة لنا .. »

ابتسم فلكس . وقد جرت بينهما عـدة محادثات من طرف واحد من هــذا النوع . أصبح الجو حــاراً . وتعرق المفتش . كان مدركاً أنه يهمل واجباته الأخرى . لقد خليت الحفرة لديه . حلم بها كفراغ يمكن له ان يسقط فيه . أخذ يمشي وعيناه مطرقتان . أخذ يشعر بالخوف من النوم .

كــان الشهر شهــر آب ، ذلك الفصل السخيف . بدأت الحفر تظهر في أجزاء أخرى من لندن بين عشية وضحاها. بعضها كشف عن جداول تحت الأرض ، وبعضها عن آثار ، أو عن عظم اولئك الذين ماتوا نتيجة للعنف أو في الخفاء . وبعضها كان ـمثل حفرة فلكســ فارغـاً .

تم النظر في قضية فلكس ودفع غرامــة صغيرة . سأل القاضي ما اذا تــم اعـداد تقرير من طبيب نفسي . كان قد تم ذلك . كان فلكس في كامـل قـواه العقلية . ولولا الصيت الغامض الـذي أحرزتـه الحفـرة ، لكانت هذه نهاية القضية . حين غادر المحكمة أمسك جيرالد بذراعه :

« من الأفضل أن تنحني وتركب السيارة بسرعة قصوى .. » كان حشد مشاكس قـد تجمع . تعرض حامـل لافتة تقول « حافظوا على الحفرة » للضرب بحبة بندورة . صرخت امــرأة . وصلت الشرطـة لتفريقهم وتسلل فلكس دون أن يلحظه أحد .

« لــم أرد قط أن يحدث هذا . » قــال فلكس للمفتش ذلك المســاء . كــان المفتش قد أتى ماشياً ، وفي ثياب مدنية . بدا مظهره غير مألوف ، كما لــو كان متنكراً ، وكذلك بــدا شديد التعب . جلسا عــلى كرسيين في الحديقة وشربا البيرة » .

« ليت بامكانك تنسى الأمــر ، » قــال المفتش : « ليت بامكــانك القول بأنك كنت تبحث عن شيء ما . »

« لم أكن . »

هز المفتش رأسه بكآبة .

« انني أرى أحلاماً . »
« أنت بحاجة لاجازة . »

كان فلكس قد أخــذ يشعر بالمودة نحو المفتش . وتمنى لو كان بامكانه مساعدته .

« أصغ اليّ الآن يارجل ، » قال جيرالد، « يجب أن تنتهي هذه المسالة . انهــا تجعل أود مريضة . كفى يعني كفى » .

« المسالة ليست في يدي . » قال فلكس. في تلك الليلة استيقظ على صوت بكائها . لمس كتفهــا ولكنهــا ابعدت نفسها ، ورفعت ركبتيها الى ذقنها. كانت قد اعترتها النحافة

وأصبح كتفاها حادين . كانت العظام تقطع لحمها كالسكاكين . أخيراً قالت :

« لا أفهم ما الذي اضطرك للقيام بذلك. لقد كان لديك كل شيء . »

« انه الشيء الوحيد الذي فعلته في حياتي . »

« لكنه لم يسبب اي شيء سوى المتاعب. »

« لقد أسيء فهمي . »

استلقيا مستيقظين فترة ، قبل أن يناما، وأصابعهما متلامسة في الظلام .

أصبحت عادة المفتش أن يأتي للزيارة معظم الأمسيات . حين يأتي ، كانت أودري تذهب الى المطبخ ولا تغادره . وبينما كانا يتمشيان في الحديقة ، كانت تراقب ، شاحبة ومرتجفة ، من النافذة .

نظر المفتش الى نباتات الخس .

« ألم تفكر قط أنه قد يكون هناك سبب، شيء قد نسيته ؟ شيء من النوع الذي يتبشه راكبو الدراجات ؟ »

« كلا . »

هز المفتش رأسه . «انني أوافقهم بعض الشيء . لقد طالعت بعض الشيء. كل شيء له حافز . ما الذي تجده في الحفرة ؟ »

« لا شيء . » وكرر فلكس وكأنه يؤكد ذلك لنفسه : « لا شيء . »

قال المفتش وهو يغادر :

« هل سمعت ؟ انهم سيقومون بردمها . »

قابل العمال الذين أرسلتهم لجنة الحدائق العامة لردم الحفرة حشداً معادياً من الناس. كانت مجموعة باسم « حافظوا على الحفرة » قد تشكلت ومن الواضح أن هذه المظاهرة كانت جيدة التنظيم . حمل البعض لافتات عليها صورة فلكس وشعاراً يقول : « حفرة الانكليزي هي قلعته . » (*) كان البعض قد تسلقوا الحواجز فعلا واستقروا في الحفرة ومعهم ساندويتشات . وصلت الشرطة . وحدثت مشاجرة . رفض القابعون في الحفرة التحرك ولم تزعج الشرطة نفسها بسحبهم . فرغم كل شيء ، كانت المسألة **مسألة حفرة** فقط . وتراجع العمال .

في تلك الليلة كانت هناك مسيرة تحمل المشاعل . وقامت بزيارة كل حفرة من مركز المدينة الى بمليكو الى تشلسي ثم شمالا الى الحديقة العامة . قاموا بالغناء بهدوء أثناء سيرهم وراقبهم فلكس بخوف وتعجب بينما كانوا يقتربون، والمشاعل تومض بين الأشجار. على رأسهم كان المفتش ، زائغ العينين ، ورأسه مرسل الى الوراء كأنه نبي . لم يـر فلكس . كانت نظرته مثبتة على النقطة التي

(*) قياساً على المثل الانكليزي الذي يقول : «بيت الرجل هو قلعته» أو « بيت الانكليزي هو قلعته .. »

(المترجم)

جاء منها ـ من جهة حديقة الحيوانات ـ رجال الشرطة يحملون الرفوش .

كسر المتظاهرون الحواجز . لم يعرف أحد قط من الذي رمى الحجر لكنه أصاب المفتش في صدغه . ترنح وعلى وجهه تعبير دهشة وهوى في الحفرة . نشب القتال . توقف كلب عابر شارد الذهن ، ربما كان تفكيره منصباً على دفن العظام ، وشعر بالدهشة لرؤية الحفرة وشرع في نباح ثاقب . من حديقة الحيوانات أجابه غول . أمسك رجل بشعلة وأشعل النار في ملابسه . ثم بدأ مطر غزير ـ أول مطر منذ أسابيع ـ بالهطول .

حين تم تفريق الحشد ونقل الجرحى خرج فلكس ـ الذي لم يكن من نوع الرجال الذين تسهل ملاحظتهم في حوادث الشغب ـ من بين الأشجار ووقف عند الحفرة . كان من الصعب أن يتعرف عليها . ففي أثناء القتال تكسرت حوافها وكانت قد بدأت تمتلىء بالمطر . رآها ـ وهو يفكر بالمفتش كقبر ؛ سرعان ما ستصير مستنقعاً . اذا نظرت اليها مدة كافية فان بامكانك تصورها أي شيء تريده . كان أحدهم قد ترك مصباحاً . أمسك به وهو يركع ـ والمطر يتساقط على عنقه ـ وقرّبه من سطح الماء الصاعد ورأى انعكاساً لوجهه تعرف عليه أنه وجهه . وقف وقفة خرقاء واكتشف أنه كان يبكي . مكث فترة يستمع الى الضجة الصادرة عن حديقة الحيوانات .

١٩٧٢

★ ★ ★

جين ستَبنز

استدع لي من جديد اليوم الذي فات

في وقت مبكر من صباح يوم أربعاء واجهت السيدة ماترنغ فارس الرؤيا الرابع . نقرت إصبع نقراً خفيفاً ، حازماً على كتفها . قال صوت بألفة وبوضوح في أذنها :

« ما اسم هذا الحصان ؟ »

استمدت الاجابة مما تعلمته كواحدة من رعايا الكنيسة المنهجية (*).

« الحصان الشاحب . » واضافت ، « وراكبه هو الموت . »

افاقت على الظلال في غرفتها ، مدركة أن أن الطيف قد ولى . انارت المصباح الموضوع قرب سريرها ووضعت رداء بيتياً على كتفيها . الذهن ـ كما اخذت تفكر ـ يقوم بحيل غريبة. لكن خلف أحجية أي حلم يوجد المنطق ، مطمئناً كالصداقة . فالواقع أنها شاهدت فلماً عن سباق الخيول على شاشة التلفزيون. وفي الشهر الماضي فقط مات رجل كان يتودد لها في صباها . ان العقل يحيك مثل هذه القطع المتنافرة من القش وينسج منها خيالا مخيفاً . وحين يزداد المرء كبراً ـ على حد علمها ـ فان الاحلام المزعجة هي الخطر الكامن في ان يكون للمرء اكثر مما ينبغي من الماضي دون أن يكون له اي مستقبل تقريباً . كان هذا من طبيعة الأشياء . من طبيعتها .

كم سيكون ابريق من الشاي مصدر سرور ، لكنها خافت مواجهة الدرج المظلم ، ولم تجرؤ على التحرك في البيت غير المضاء . تناولت كتاباً ، وقرات فقط الأسطر غير المناسبة ، صور الحزن والتفسخ .

« انني خائفة ، » قالت بصوت عال ، موجه الى الفراغ ، الى دقات الساعة الصاخبة.

غداً ستقوم بزيارة دونالد باركر ـ طبيب العائلة ـ لاجراء فحص طبي . ربما قام عدو داخلي بشحذ سيفه . ربما كان هذا انذاراً من كليتيها أو كبدها أو جريان دمها . ربما أنها ـ باعتبارها تعيش وحيدة ـ كانت

* The methodist church انشئت في انكلترا في القرن الثامن عشر وهي واسعة الانتشار في انكلترا والولايات المتحدة .
(المترجم)

تعليل التفكير وعليهـا أن تقوم بمزيد مـن التمارين لذهنها وجسمها • ربما كان الفارس يذكرها بميتات أخرى ، موت الـروح ، موت القلب• استلقت مستيقظة ، والمصباح بجانب سريرها يضع الليل في موقف محرج، والساعة تتحـدى الصمت ، الى أن اعتقهـا الصباح وتركها تنام •

في الساعـة العاشـرة شعرت بالدهشـة وبقدر كبير من الثقة المستعادة لدى اكتشاف أنها حية وجائعة • لـو كانت بتي وجـانيت ـ ابنتاها ـ معها لأخبرتهما • لكنهما كانتا تعيشان عـلى بعد أميـال ، ومشاغل الأزواج والأطفال وتدبـير المنـزل تستحوذ عليهمـا • بسبب حاجتهـا لأن يقول شخص حكيم لهـا « هراء » ولأن يعني ذلك ، أخذت السيدة مانرنـغ موعـداً مـع الدكتور باركـر لعصر ذلك اليوم •

راقبت الابرة ترتفع ، راقبته وهو يضخ آلته الصغيرة التي شدت الرباط على القسم الأعلى من ذراعها ، وضحكت ضحكة مستخفة•

« لقد تعرضت لكابوس ليلة الأمس ، » قالت بخفة •

سأل ببساطة : « مـا الذي تناولته في وجبة العشاء ؟ »

« آه ـ علبة صغيرة من جراد البحر ، مع سلطة شتائية • »

هز رأسه ، وهو يبتسم ، مؤنباً •

« يدهشني أنـك لـم تتعرضي لعشـرة كوابيس ، » ثـم أضاف بمـرح ، بمزاح ، متحدثاً عن وسامتها التي كانت تميزها وكأنها علم ، « قد تستطيعين خداع العالم بالنسبة لسنك ياجولي ، ولكنك لن تستطيعي أبـداً خـداع قدرتك عـلى الهضم • ولا مهرب لأي منا مـن كوننـا في الرابعة والستين ، هـل أخبرتك أنني سأتقاعـد في عيد الفصح ؟ »

خربش حروفـا هيروغليفية ، وقـال ان ضغطها كان على ما يرام •

« صحيح ؟ حقاً ؟ » وهي تحاول تفكيك الشيفرة ، والتعبير المرسوم على وجهه •

« لو لم يكـن كذلك لأخبرتك • سأبدو مغفلا كبيراً لو ضحكت عليك ثم انطرحت في الفـراش بسبب ارتفـاع الضغط ، أليس كذلك ؟ » •

« أجل • أجل ، بالطبع • »

« قلبك في حالة أفضل من قلبي • رئتان سليمتان • هـل أعطيت الممرضة عينة مـن البول ؟ حسن • أصـغ الـي ، ياجولـي • سنحتاج الى أسـبوع للحصول عـلى صـورة اجمالية ـ نتائج فحوص الدم ، وما الى ذلك• لكنني مستعد لأن آكل ملقطي ان كانت بك أية علـة • »

عـاد الى الجلوس في كـرسيه الـدوار ونظر اليها •

« انك لا تفكرين تفكيراً احمق بالسرطان، أم أنك تفكرين بذلك ؟ من كل سيدتين تأتيان لمراجعتي هذه الأيام هناك واحدة تعتقد أنها مصابة بالسرطان • »

« لا ، لا ، كلا • »

« لا تشعرين بـدوار ، نوبات اغمـاء ، صداعات ، آلام ؟ »

« أبداً ـ مجرد كابوس • »

ضحك مقهقهاً •

« جراد البحر ، » قال وهو يكتب وصفة. « خذي واحدة من هذه اذا لم تستطيعي أن تنامي • انها حبوب معتدلة جداً بحيث تكاد أن تكون بلا فائدة • هل هناك اي شيء آخر يقلقك ؟ »

الفارس ، ممسكاً بحصانه الشاحب بين ركبتيه • الصمت الطويل في الظلام •

قالت بثبات : « كلا يادونالد • لابد أن المسألة ناتجة عن جراد البحر كما تقول • »

بينما كان يرافقها وهي تخرج قال : « لو كان كل المرضى في مثل حالتك لتقاعدت من سنين عديدة • »

عند زاوية الطريق المتعرج قابلت القسيس ، وامسكت بالفرصة للحصول على العزاء • منذ سنتين وهي منهمكة في تطريز غطاء للمذبح على نحو متقن•وكانت المسؤولة عن الزهور في الكنيسة • وهكذا اوقفته وهو يرتجف بلباقة في الهواء الخريفي ، يتحدثان عن لا شيء،وتضيع وقته الذي لم يكن ملكه• ولكنه تاسف لعدم تمكنه من مرافقتها الى منزلها لتناول الشاي • فزوجته الدائمة الصبر كانت في انتظاره • وكان عليه حضور تدريب للجوقة في المساء الباكر • سيسره الحضور في وقت آخر • سيسره ذلك •

« يجب علي في الحقيقة ان اكمل غطاء المذبح ، » قالت ، بدافع الابتزاز •

« هذا لطف كبير منك ، » تمتم وهو يشعر بالذنب ، « شيء متقن جدا • سنفكر فيك في كل مرة ننظر اليه • »

مثل نصب تذكاري •

« أوه انني لم امت بعد ، » ضحكت ، ضحكة أعلى من أن تعبر عن الابتهاج •

شعر بصدمة حين فكر أنها ظنت أنه كان يعني •• يا للسماوات ، في هذه الأيام السبعون عاماً ليست سوى سخرية ••

« لا تشعرين انك على ما يرام ياسيدة مانرنغ ؟ » سأل بشيء من الجزع •

قالت • وهي أكثر هدوءاً • خجلى : « لم أنم جيداً الليلة الماضية • ولكنني على ما يظهر في صحة ممتازة ، هكذا قال لي الدكتور باركر ، والأطباء يعرفون ، أليس كذلك ؟ لا يفوتهم شيء ، أبداً ، أليس كذلك ؟ »

امسك بذراعها وسار بها الى موضع اقرب الى الحائط ، بعيداً عن الريح المريرة.

« اذا سمحت لي أن أخابر زوجتي من بيتك فانني الآن ساقبل دعوتك لتناول الشاي ، » قال • لم يكن وقته ملكاً له قط ، بل ملكاً للناس الآخرين •

« كان الحلم واضحاً تماماً ، » قالت السيدة مانرنغ ، وسببت ضجة صادرة عن علبة « الكاتو » لدى وضعها على طاولة المطبخ ، وهذا شيء لا يحدث لها في العادة ، فهي كانت تهيء الوجبات للاغراء والامتاع •

« لقد سمعت الصوت • شعرت باللمسة على كتفي•رأيت الفارس • ان هذا بالتأكيد ضمن اختصاصك انت ، » قالت باصرار ، وانتباهها موجه الى حذائه المبلل واصابعه الحمراء الباردة فوق دفء فنجان المطبخ • ثم صاحت وقد تشتت انتباهها : « ولكن ما هذا الذي افعله ، اجعلك تشرب من فنجان مطبخ ؟ »

« هذا لا يهم ياسيدة مانرنغ • ان اهتمامنا منصب على أشياء أكثر أهمية من فناجين الشاي • »

« لقد اعتقد الدكتور باركر أن جراد البحر هو السبب ، رغم أنني حضرت سلطة شتائية ، وقطعا رقيقة من الخبز مع الزبدة • لوحدي بالطبع ، على صينية ، لم يكن لدي جراد بحر طازج ، طبعا • من أجلي فقط ، وبهذه الأسعار رغم أنه ربما كان يعني جراد البحر نفسه ، وليس كونه معلبا • »

وبينما جلست فجأة ، دون أن تعير قالب الحلوى على الطاولة أو فناجين المطبخ أي اهتمام :

« كانت هذه رسالة موجهة الي ، وانني خائفة • »

« اننا جميعاً نخاف المجهول،» قال ببطء، والفتات يسقط من قطعته ، « ولكن كمسيحيين نمارس الدين المسيحي ، مؤمنين بحياة آخرة تشحب الى جانبها هذه الحياة الدنيا ••• »

قالت : « أوه ، لا تستعمل تلك الكلمة ياسيد كنيون ، وبالاضافة الى ذلك ، فانني لست متاكدة على نحو مطلق من الحياة الآخرة• ليس حين تصل القضية الى الحد الأخير • حين يكون المرء في الكنيسة ، أو حين يكون شابا ، أو حين لا يفكر الى حد كبير بالمسالة، فان الجنة تبدو ممتعة جداً • ولكن على نحو ما ـ حين يواجهني المشهد المتوقع ـ فانني غير قادرة على أن أستسيغه » •

« محتمل ، » قال وهو ينظر بكآبة داخل الفنجان الفارغ ، اذ كانت الريح شديدة البرودة ، « هذه •• الرؤيا •• هي مجرد تذكير لترتيب الأشياء المتبعثرة الصغيرة من المشاكل التي تقلقنا • انظري اليها على هذا النحو • تذكير ودي من العلي القادر • رغم أنني متاكد أنه لا تزال أمامك سنوات عديدة مفيدة وسعيدة • انه ببساطة يريدك أن تكوني على استعداد • العريس الذي ينتظر العذارى الذكيات • اذا كنت تذكرين •• الزيت في المصابيح •• »

« لقد مضت أربعة عقود ،» قالت السيدة مانرنغ بلهجة جافة ، « منذ كنت شابة وعذراء • ولم أدع أبداً أنني ذكية » •

« ولكن في نظره كلنا أطفال • »

« فجاة يبدو كل شيء وقد تقهقر مبتعداً عني • »

تذكرت أن تدعوه لتناول المزيد من الشاي ، وقبل ذلك •

«لقد عشت حياةفاضلة بقدر ماستطعت• ولقد ربيت ثلاثة أطفال ، كلهم في حالة جيدة • لقد تمتع زوجي بكل عناية وراحة • كان بيتي مفتوحا للأصدقاء والأقارب • لقد كنت ، كما أعتقد أنك قد توافق ، عضوة مخلصة في الكنيسة ، رغم أنني انشئت في الكنيسة المنهجية التي هي مختلفة بعض الشيء • ومع ذلك فالرب هو نفس الرب »•

وهل يتوجب عليها أن تموت ؟

« كنت أفضل لو انني لم أعرف أي شيء

عن الأمر • كنت أفضل لو أنني مت في نومي دون أن أعرف • لا أريد ان أعرف • »

لم تكن بيده حيلة ، وهو يبلل سبابتيه لالتقاط الفتات •

قال : « في أي وقت تتعرضين فيه للمضايقة فان زوجتي وأنا •• »

« العدو الأخير ، » قالت بحزن •

« ربما الصديق الأخير ؟ »

هزت رأسها بالنفي •

« لن أكون صادقة تماماً اذا وافقتك •»

رأت يده تتحرك نحو قبعته ثم تعود الى مكانها •

قالت : « لقد كنت في غاية اللطف • لقد كنت لطيفاً جداً • »

« أشعر أنني عديم الجدوى • رغم أنني كنت أريد كثيراً مساعدتك • »

« لقد قمت بافضل ما يمكنك • ليس بامكان أحد فعل المزيد • »

« في أي وقت ياسيدة مانرنغ • في أي وقت • »

اذ أن وقته لم يكن أبداً ملكاً له •

تحت تاثير حافز مفاجيء أعدت حقيبة وأمضت سبوعاً عند ابنتها الكبرى • لقد أرادت أن تكون ذات فائدة بحيث يمكنها أن تختبيء • اذ أنها في هذه الغرفة الاضافية الضيقة ذات الستائر المتواضعة والأثاث المدهون شعرت بالأمان • من الصعب أن يستطيع الفارس عبور عتبة غريبة دون أن يكون مدعواً • حتماً لن يفكر أن يبحث عنها هنا •

بين ضجة الحياة العائلية اليومية ، الملأى بالتفاصيل المطمئنة ، حرصت على ان تكون لطيفة وذات فائدة • وقد كانت على الرحب والسعة في قدومها وذهابها • لم تكن هذه حياتها بل حياتهم •

فيما بعد زارت ابنتها الأخرى ، ثم زارت ابنها • وفي كل بيت ، رغم أنهم كانوا يريدونها لنفسها ، فانهم لم يكونوا يريدونها من أجلهم • عادت الى البيت • حنت رأسها منكبّة على غطاء المذبح ساعات وساعات • اكملته •

« لماذا ؟ » سالت نفسها ، « لماذا ؟ »•

اذ ماهو مغزى الحياة حين تكون قد انتهت؟ وما الفائدة ؟ لقد كانت رغم كل شيء مسالة عادية جدا • انها لم تقم باي شيء ذي أهمية بعد كل هذه السنين •

دقت الساعة بنشاط كل واحدة من ساعاتها الباقية ، وتمزق التقويم بحدة في كل يوم من أيامها الباقية ، ومالت الفصول نحو الفراغ •

عانت أكثر أنواع الحزن مرارة ، حزن الشفقة على الذات • الذات المسكينة التي حلمت بالكثير ، حلمت بنضارة شديدة ، في الأيام التي ولّت • أغرقت نفسها في بحر من الأعمال المنزلية، في العواطف البيتية والثرثرة

المحلية . هي التي في الواقع لم يكن أحد راغبة بها ، أي من أولئك الذي ضيعت نفسها من أجلهم . المواهب التي دفنت . الوعد الذي لم يحقق .

عند نهاية الشهر أخذت غطاء المذبح الى الكنيسة وتلقت الامتنان .

« كيف تشعرين ياسيدة مانرنغ ؟ » سال القسيس وعيناه قلقتان .

لقد فشل في مساعدتها .

« أعتقد ، » قالت برفق ، وقد عاد تفكيرها ينصب على نفسها ، « لابد أن جراد البحر كان السبب . »

لم تفشل هي في مساعدته .

« اننا لا نستطيع وزن مقدار من النار، ولا قياس مقدار من الريح ، » قال متاملا ، « ولا أن نستدعي من جديد اليوم الذي فات. اذ كيف يمكن أن يتوقع منا أن نفهم ؟ يمكننا فقط القبول ، بشجاعة واشراق ، وبما يتوفر لدينا من الاحسان . »

« كنت منهكة الاعصاب ، » قالت السيدة مانرنغ . «يجب أن أطلب منك أن تسامحني.»

في عصر ذلك اليوم دخلت أكبر محل للأدوات الفنية في المدينة وانتقت مجموعة محترمة من الألوان الزيتية . هذا التبذير الذي يصعب تبريره سيجعلها تقنن بعض الضروريات . ولكن لم يكن ذلك مهماً . لا فائدة ترجى من شراء معطف شتائي جديد، اذا كانت سترتديه لفصل واحد فقط . ولكيلا يتحول طموحها المندفع وكانه يلتهب في داخلها الآن الى رماد، اشترت كتابا اسمه « كيفية الرسم بالألوان الزيتية .. »

استدع لي من جديد اليوم الذي فات . استدع لي ذلك اليوم . ذلك اليوم حين كانت بعد دوام المدرسة ، في مسرح المدرسة ، وقد تحررت على نحو غير متوقع ، ترسم المشاهد الى أن تتشنج يدها . ذلك اليوم حين صاحت لدى رؤية مهرجان من الألوان يلتهب على رقعة اللوحة ، « من هذا ؟ » وأجابوها .. ماثيو سميث . استدع لي من جديد تلك الأيام التي فاتت . ولكن ، وكانت تلك بالطبع هي النقطة المريرة المحتمة ، ليس ذلك اليوم حين قال أبوها وتفكيره منصب على المستقبل ، «ستتعلمين الاختزال وضرب الآلة الكاتبة ، وسترسمين في أوقات فراغك . » لأنه بالطبع لم يكن هناك أي وقت فراغ قط. الزمن لا يعطى ولكن يؤخذ ، أو انه يمضي في طيرانه وهو يذكرك عند مرحلة انعطاف لاحق أنك لم تقم بفعل أي شيء .

عثرت على ثلاث لوحات قديمة ورهيبة ، سعر كل منها بضعة شلنات ، وأصرت على أن تقوم هي بحملها بنفسها الى البيت في تلك اللحظة .

« هذه لوحات بديعة ياسيدتي ، » قال صاحب محل المهملات ، وهو ينقب . « أن لديك عين متذوقة للفن . أجل . »

عين متذوقة للفن ؟ شموس الغروب هذه وهي تلفح صبايا كئيبات ؟ بقرات المسرح هذه ذات الأقدام المتعثرة في عشب وردي اللون على شكل غير محتمل ؟ هذا الوادي النجدي

البني والمهدم والكئيب على نحو يثير الفزع في قلب أكثر الاسكتلنديين تعصباً ؟»

صاحت السيدة مانرنغ : « ياللسماوات، انني لم أبتعها من أجل فنها ، بل من أجل إطاراتهـا • »

واشترت أيضاً قمـاش لوحـات وغـراء ومسامير كبس • وفي الساعة الخامسةتناولت الشاي في مقهى ، وهي تراقب العابرين من خلال النافذة •

أمضت المساء وهي تعمل باصابع تتزايد رشاقتها ، مكونة ثلاث رقع باهرة بيضاء من الفراغ غير المرسوم • ثـم تناولت الطعام واستحمت وأوت الى السريـر وهـي تشعـر بالاسف • صلت أن تبقى حية حتى الصباح، اذ أن اللوحة الاولى قد تشكلت في عقلها •

وجدها دونالد باركر منهمكة ومستغرقة، وجلي يوم كامل مصفف على رفوف التنشيف ، وأصابعها مشرقـة بالألوان • مسحت يدهـا بصبر نافذ بخرقة من القماش •

« جئت لأسـالك كيف تشعرين ، أيتهـا المرأة الصحيحة الجسم الى درجة تبعث عـلى الاشمئزاز ، » صاح ، وهـو يبدو مشرقـاً ومتورداً وبرداناً بسبب الصقيع •

« لا يمكنك أن تنظر حتى تكتمل هذه ،» قالت أولاً،وهي تدير اللوحة بحيث لا يراها، ثـم أضافت ، « اذن أنت تعتقد ان الأطباء يعرفون كل شيء ؟ » •

« هل يعرف المرضى أكثر ؟ »

« أحيانـاً • ولكنني ممتنـة لزيارتـك يادونالد ، واشكرك مرة أخرى • »

« لم أكن اعرف أنك فنانة » •

« يحتمـل أنني لست فنانـة ، ولكنني أستمتع بالرسم • »

شعر بالحيرة ، وهـو الـذي كان يتعرض للالحاح كي يبقى ويتحدث • قدمت له القهوة وفكرها مشتت ، وشعرت بالامتنان لأنه رفض•

قال : « لقد كنا إيفيلين وأنا نظن أنك تمضين وقتاً كبيراً وحيدة هذه الأيام • هـل لك أن تتناولي العشاء معنا في احدى أمسيات الاسبوع القادم • »

« سيسرني ذلك • انني أذهب الى المسرح يومي الثلاثاء والخميس • وما عدا ذلك لا شيء يشغلني • »

« يا للسماء • هـل حصلت على ميراث يا جولي ؟ »

« كلا ، » قالت بفتور ، «ولكنني صرفت بعض ما ادخرته وانوي أن أصرفه على نفسي بدلا من صرفه على مستقبل شخص آخر • »

جلس بدون أن يدعى الى الجلوس •

« ما الذي يزعجك ياجولي ؟ »

ترددت ، ولكن كانت تقوم بينهما سنوات لا انقطاع فيهـا من المصارحـات في سلسلة وديـة •

« لقد حلمت أنني ساموت ، وبدا الأمر نهائياً تماماً ، ولم يستطع احد مساعدتي • ثم بدا لي أنني وحـدي استطيع أن أساعـد نفسي ، وفكرت في المواهب المدفونة ، ونبشت احداها • لكيلا امضي فارغة اليدين كما كان الأمر • ان الموهبة صدئة قليلا ، ولكن المتعة لا تزال كبيرة مثلما كانت في أي وقت مضى•»

« جولي ، ليس بك علة من الناحية الجسمية .. »

« انني أصدقك . ولكننا فقط نعرف الأشياء غير الهامة مثل الطقس والاسعار . أما الأحداث الكبيرة فانها تحدث خارج حساباتنا . انني على سبيل المثال أدرك تماما أن هذا البيت بحاجة الى ديكور جديد . وهناك جزء مني يهوله ما أقوم بفعله بدلا من ذلك . ولكن في داخلي ، حيث أعرف حقا ، أشعر أن طريقتي صحيحة . وفي النهاية حتى سخافاتنا يجب أن تكون خاصة بنا . »

رفع كتفيه معبراً عن اللامبالاة .

« خصصي أمسية لنا على كل حال . خابري إيفيلين واتفقي معها على الموعد . »

« شكراً لكما كليكما . ساخابرها غداً .»

هز رأسه ، وادرك أنها تنتظره أن يذهب ، وذهب .

استدع لي من جديد اليوم الذي فات . هناك أيام كثيرة يجب استدعاؤها ثانية . شموع من السعادة ، تضيء البقع الرمادية والسوداء من ذكرياتها . الشعور بالنشوة حين ولدت أطفالها . الاحساس بكونها هي وجاك حصنا منيعا في سنوات زواجهما الاولى . المغزى الهائل لابريق من الحليب على طاولة المطبخ تحت شمس الصباح . للضحك ، والبهجة التي كانت أعمق من الضحك . للحزن العنيف والمرير الى درجة أنه كان مطهراً وتركها نظيفة . للوجوه والصداقات واللطف المبارك . للبدايات الجديدة والخصومات القديمة .

كل هذه الأشياء شعرت بها فيالق قبلها ، وستشعر بها فيالق لاحقة . وفجأة ، وهي ترسم متبلدة الأحاسيس « الطبيعة الصامتة » التي لن تستطيع حتى بعد ألف عام أن تلمس حافة رداء ماثيو سميث البراق ، أحست بالفارس على حصانه الشاحب .

عبقت الغرفة بالصمت .

أخذت تفكر : ولكنني أحيا بحيوية كبيرة الآن . لماذا ؟

ببطء شديد ، وهي تقبض بقوة على فرشاتها ولوح الوانها مستمدة منهما الشجاعة ، واجهته . وأمال هو خوذته بعناد ولكن بأدب . كان كل منهما يعرف الآخر ، هو وهي .. استراح قفاز الدرع بخفة على لجام الحصان . وكان الحصان نفسه رهيباً وجميلا الى حد لا يصدق . العينان السوداوان الناعمتان . الجلد الحليبي . الغطاء الشديد الحسن والبهاء . آه كم تتمنى لو أنها ترسم .. ولكن لن تستطيع خلال مليون سنة .. ولا حتى ماثيو سميث .. رامبرانت ربما ... أبداً لن تستطيع هي . بين الرؤيا واللوحة تخبط فرشاتها التي تعوزها الفصاحة . كان يقف هناك ، جزء لا يتجزأ من الحياة التي سوف ينهيها . هل هو اللغز الأخير ؟ أو فقط الرسول ؟ علامة الطريق التي تؤشر الى مكان آخر .

الشموع المرتعشة في الريح الليلية .. البحار المجهولة .

تذكرت أيامها المجوهرة وتزايد بريق تلك الأيام . لقد بدا لها الآن ـ وقد زادتها

الأبدية حدة في التفكير ـ أنه لم تسعد مثلها أية امرأة قط.كيفكان بامكانها ألا تعرف ؟ مشغولة بالتجربة الى حد ان الحساب لم يَجْرِ قط . حياة حافلة ـ فكرت باعتزاز ـ تستحق أن يحصدها فارس الرؤيا الرابع .

« حين تريد ، وبالشكل الذي تريده اذن ، » قالت السيدة مانرنغ وجلست على كرسيلكي تموت باكثر مايمكن من اللياقة .

هل كان هناك وميض من الدعابة خلف الخوذة ؟ أم هل بلغ الرسالة المنوية ؟ أنه يجب عليها وهي تواجه الموت أن تستغل ما تبقى لديها من الوقت على خير صورة . انه لا يجب عليها باي شكل أن تاسف على حياة عادية وجيدة مثل الخبز والزبدة . كلاهما كان ضرورياً .

سار الجواد والراكب . راقبتهما وقد أصبحا صغيرين الى حد غير متناه ، ورغم أنها شعرت بالارتياح،فانها شعرت أيضاً بالأسف. مثلما يتذكر شخص استضاف الأسرة الملكية بناء على دعوة مسبقة لتناول الشاي أن كل شيء سار على ما يرام . مثلما يجد شخص استضاف الأسرة الملكية بناء على دعوة مسبقة لتناول الشاي في عزبة في الضواحي أنالبيت غدا أصغر حجماً بعد ذهابهم .

وجدها القسيس ـ وقد دفعته للقدوم طبيعته الخاصة وطبيعة رسالته ـ تتامل لوحة صغيرة مرضيةجداً تمثل طبقاً منالفاكهة وزجاجتي نبيذ فارغتين وصحيفة مسائية .

« باللموهبة ! » صاح وقد سرتهالمفاجاة.

ووجدت هي وهي تلتفت اليه بعينين جديدتين مضايقته نفسها شيئاً ثميناً .

« انك تبدين أكثر سعادة ، » قال ، وقد أدخل الارتياح على نفسه وجود شخص على الأقل لا ينوي التوجه اليه بالطلب .

« لقد اكتشفت ، » قالت السيدة مانرنغ برزانة ، « انني أستطيع استدعاء اليوم الذي فات من جديد » .

قال القسيس،وقد دُغدغت روح الدعابة والحكمة لديه ، « وهل ذلك أمر مفيد ؟ »

« لقد وجدت ، » قالت السيدة مانرنغ، وهي تتامل بمتعة اللوحة الثانية ، « أن ذلك يعمق اليوم الحاضر ، ويلقي النور على اليوم الذي سياتي . »

حين رآها تاتي بافضل الفناجين لديها على شرفه قال ، بنفس القدر من الجفاف والرزانة التي استعملتهما في جوابها له ، « اذن كل ما نحتاجه هو أننزن النار ونقيس الريح ، وحين ذاك تكونين قد حصلت على الجواب الذي تريدينه . »

« آه ! حلوى القهوة بالجوز .. الحلوى المفضلة لدي ، » وقد تشتت انتباهه للحظة. وتابع برقة،« ربما استطعت أن تنوريني فانا غالباً في الظلام . »

واستقر على كرسيه لتناول طعام أقل نشوة .

١٩٧٢

ماغي رس

فعل مهيمن من الخلق ، أو التدمير

طريق • يرجع العقل اليه من جديد • تقريباً رغم ارادة المرء يعود العقل ، متحركاً بمحاذاة خطوط تشكله وعائداً كما لو ان هناك في منظوره حركـة دائمة • وتنحني خطوطـه الأفقية الى أن تشكل مداراً قائماً بذاته على نحـو سحري ـ في نهايته بدايته • مثل ذبابة ضخمة ، يحوم المـرء ، مسلطاً ضوءه الكشاف على هـذا وذاك ، ومفكراً بالاحتمالات • وهـي تبدو لا متناهية ، تعادل في لا تناهيها الطرق الكثيرة التي لابد أنها موجودة والتي تشابه هذا الطريق •

في الحقيقة هو طريقان ، احدهما يشكل زوايا قائمة مع الآخر • وحين ينتهي أحدهما يكون ذلك دائماً عند التقاطع • ولا يبدو أي من الطريقين طويلا ، اذ أن امكانات النظـر الثلاث مبتورة بفعل انحنـاء وانعطاف وخط أفق ومجموعة أشجار وتجمع من الدكاكين غير المهمة والسور المرتفع لحديقة لا تلفت النظر، وتتم ملاحظة هذه الاشياء كلها والعبور بها في الرجوع • عند تلاقـي الطريقين توجـــد مدرسة تواجه تماماً الطريق الثاني ، بحيث إمّا وقف المرءوظهره الى سياج الفناء استطاع رؤيـة البيوت تتضاءل ، وأنـابيب المداخـن البعيدة الخاصة ببيوت أخرى في طرقات أخرى•

ولكن لا يبدو من سبب هناك للتذكر ، لا شيء يدغدغ الحواس،الا اذا كان ما يشكل انعدام الهوية يستحق الاعتبار • لاشك أن هنا جوهر التفاهة الذي لا يزال بطريقة مـا ينجح في أن يكون جذاباً ومجدياً • ربما كان شيئاً خاصاً يتعلق بالنور ، الذي لا يتغير ، والذي يبدأ كشفق ذي صفرة من نوع معين يوحي بان الليل وشيك • وبينما يراقب المرء اللون الاصفر يتحـول الى رمـادي ، الى أن يغبش الشيء المحدد فيغدو انطباعـاً ويتلاشى الانطباع الى أن يكـون كل مـا تبقى أشكالا الميلة قبالة سماء ليلية بيضاء • وتعني هذه السرمدية أنه ليست هناك فصول ، رغم أن أشجار الدلب تنمو في مربعات الأرض المسمدة بروث الكلاب ، وتتضخم الشجيرات التي تسور الحدائق مع تعاظم سنها • هناك أحياناً أوراق شجر على الأرض المرصوفة ولحاء شجر مرمي كقشرة الرأس في البالوعات • التغيير هنـا ولكن لا شيء يتغير • لا عنف يمكن ارتكابه ضد فكرة طريق ••

هناك صوت حفيف الأوراق•هناك هواء • للتنفس • هنـاك أشخـاص في الطـرق • اثنان • اثنان فقط في الوقت الحاضر : ذكر

وأنثى،متشابكا الذراعين يقتربان من التقاطع• وعلى البعد بشكل خافتوكما انه مجرد همهمة في الريح ثمة صوت شيء مثل حركة السير، أو هدير الريح العاصفة المكتومة • هو يعرج ويحاول بتردد ان يحرر نفسه من قبضة يدها القوية • وراء هذين الشخصين الذين يتوقفان الآن بجانب سياج المدرسة هناك صوت المدينة، تتنفس وتهدر وتهمهم • لو نظرا الى الأعلى لرأيا علامتيهما المألوفتين الخاصتين • انهما ينظران الى قدم الشاب وقد رفعها بنعومة على طريقة الغزال بينما يشكو من الألم •

تهز ذراعه برفق • « لقد وصلنا » •

« وماذا اذن ؟ »

اذا اخذنا بعين الاعتبار عدد المرات الكثيرة التي دار فيها هذا الحوار ، فان تكراره صعب بصورة تبعث على الدهشة • وهو يختلف • أحيانا يكون مليئا بالدعابة المخبأة ومفعما تماما بالحيوية ، وفي أحيان أخرى هناك نكد وشعور بالخذلان • والآن يقفان ببرود وهو يتمسك بالسياج باحدى يديه ، بينما يصارع بيده الأخرى ربطة حذائه•

« غريب أن يحدث ذلك هنا بالضبط ••»

« غريب جداً • لكنه حدث • »

« أود لو اعرف ما الذي حدث بالفعل على كل حال •• »

انخلعت فردة حذائه • ولكن الجورب بسبب صعوبة باعتباره تيبس اما بسبب قلة الغسل أو بسبب عامل غريب • والشعائر هي دائما نفس الشيء ، فهو يخلع الجورب بصعوبة ، ثم يتفحصان معاً الى قدمه•ويلتوي وجهه من الألم ، ووجهها يفعل الشك • فهي ليست متاكدة مما اذا كان تفادي مسألة ما يتم بواسطة سلوكه هذا • تحرر يدها كنوع من الاحتجاج •

« الا تريد الذهاب اذن ؟ »

« ان أصبع قدمي •• »

« لأنه اذا كنت لا تريد فانني ذاهبة الى البيت • فالساعة الآن السادسة والنصف •»

« وربع • ان العلة في اصبع قدمي ••» تتدلى القدم البيضاء وكانا ميتة • فجأة تلون نقطة من الدم الشديد الاحمرار الأرض المرصوفة • تسقط نقطة أخرى •

« انك تنزف ! »

« لديك قوة ملاحظة ! »

« العلة في اصبع قدمك • »

« أعرف • »

« لم ينزف ؟ »

« دائما ينزف أصبع قدمي في ايلول • »

بما انه ليس هناك سبب حقيقي لكون اصبع قدمه ينزف ، فان هذا السبب جيد الى حد كاف • لقد حدث هذا لبعض الناس •

تبتسم بادب على نكتته وتقدم له منديلا كالقصاصة • والكنه يفضل أن يربت على قدمه بجوربه •

« هل هناك ثقب في حذائك ؟ »

بعد النظر في ظلام الحذاء ووضع يده بنشاط داخله يعتقد انه لا ثقب فيه•وليس هنا أي اعتبار لحالة حذائه ، رغم ان هـذا قـد يبدو ذا علاقة بالمسالة • ولم تدْرَس حالة ثيابهما باكملهـا • يمكـن أن يكونوا مرتدين أي شيء • كل شيء • أو لا شيء•

« لقد اصابني شيء حاد • كالزجاج »•

« هل مشيت على اي زجاج مؤخراً ؟ »

« كيف لي أن أعرف ؟ كل ما افعله هو ان أمشي • مهتما بشؤوني الخاصة • ربما كان زجاجا • ربما لم يكن • »

سيكون هناك هذه المرة افتقار الىالعطف بينهمـا •

ينظران الى الأسفل ويريـان ان نقطـة الدم قد اتسعت من جديد •

« انه دمي • »

« لا شيء هناك يستدعي الخوف • كـل شخص لديه منه • »

« ولكن معظم الناس ينجحون فيالاحتفاظ به داخلهم • »

تتنهـد • « اذا كنت ستقف هناك مثل طائر الكركي فانني ذاهبة • » تجتاز بوابة ملعب المدرسة المفتوحة • « لا أعتقد انككنت حقاً تريد المجيء على الاطلاق • »

« الأمر لا يعجبني ، » يقول •

« كان مجرد افكار كبيرة •» تشير برأسها الى باب المدرسة • هناك درجـات ، وسبورة مكتوبـة عليهـا بعض الكلمات بالطبشور : دروس مسائية • التسجيل الليلة ـ لغات •

« لا أحب التكرار • » يحدق بدمه وكانه قد تحجر • « لقد حدث هذا من قبل ••• نزف اصبع قدمي • »

« لديك نقطة ضعف » • بالنسبة لهـا الموضوع منته الآن • تبدو انهـا تبين هنـا الخصلة الانثويـة ، خصلة استخدام المضاء كوسيلة لاخضاع الخوف •

« كلا ! كان اصبع قدم أبـي ! اتذكره الآن وهـو يحكي القصة • قال انـه أصبح ضعيفاً بسبب فقده للدم • »

في هذه اللحظة يشعر المرء بوجود ناس آخرين • الفتاة تلاحظهم • ترى شبحاً يركض عبر نهاية الطريق المقابل • ولكن حين تكون عيناها قد اعتادتا الظلال يكون الشبح قد ولى ويكون الانزعاج المؤقتالذي سببه قد تضاءل• يزداد الظلام • الأسقفة التي كانت من قبل محددة بوضوح تستقر الآن تحت ضباب خفيف أو دخان يخفف اللون ويغبش الحواف•ويبدو انه يغزو قمم الاشجار ، ويغشيسواد النوافذ غير المضاءة والأبواب المغلقة • حتى شجيرات السياجات تتحول الى لون رمادي • شبح آخر يتبع الأول وكان شيئا ملحـاً جـداً يدفعه • تدقق النظـر بشكل أكبر في حالة ما اذا كان شبح ثالث يتبعه • لا أحد • تعتقد انهـا ترى عموداً باهتاً من الدخانالبعيد فيالسماء•

« أين الجميع ؟ »

« انا هنا ، » يقول • يمسح لطخا مـن

الدم عن يده بالجورب • بركة الدم على الأرض المرصوفة هي الآن بحجم صحن فنجان• يريها راحتيه ويضحك بدون ابتهاج •

« سابقى حياً على ما اعتقد • اننا دائماً نبقى احياناً ! لا ننزف حتى الموت تماماً قط ! » •

أحياناً يتفوه فقط باشياء شابة،وأحياناً يستطيع قول ما قد يعتبر من الحكمة •

ينظر اليها ويتساءل لم رأسها مائل مثل رأس طير • يراها تصغي ويصغي هو أيضاً • لم ير هو الناس،الراكضين عبر نهاية الشارع المقابل •

هنا يحدث انقطاع يتوقف النزف أثناءه، والجورب والحذاء قد عادا الى مكانهما ويعطي هو متنفساً لمجموعة من الكلمات على شكل محاضرة مكثفة • وعلى اعتبار أنه لا يوجد أي شخص آخر هناك ، فلابد ان المحاضرة موجهة الى الفتاة ، رغم أنها لا تبدي أكثر من اهتمام هامشي ، اذ أن انتباهها مستقطب بين رغبتها في ادخاله عبر بوابة المدرسة ، وبين احتمال اندفاع أشخاص آخرين من بين الأشجار •

« هل اليوم عيد ؟ » تقول •

لا يهمه الأمر • انه يكره أن يتقاطع وهو في تدفقه الثقافي الكامل • انه يرغب في الحديث عن الحاجة الى التعليم ، يتحدث عن هذه الحاجة وعن الناس،ذاكراً مدى ضرورتها بالنسبة لهم قبل أن يستطيعوا معرفة شيء عن بعضهم البعض • يجب عليهم أن يتعلموا أساليب بعضهم البعض • ولغات بعضهم البعض • يجب أن يكون هناك نظام تعليمي ينجز ذلك بواسطته • ان لديه خطة ـ خطة خمس سنوات سيضعها قريباً على الورق • ولكنه سيضعها أولا موضع اختبار يجريه هو بتعلم لغة ـ أية لغة ـ واستعمال هذه اللغة لمساعدته في تعلم لغة أخرى • وهكذا ، الى أن تصبح الخطة أسلوباً جدياً في الحياة،وتكون السنون قد انقضت في الدراسة والأعمال الجيدة •

أحياناً يبدو من الأفضل ألا يقول أي شيء وهو يعيد ارتداء جوربه وحذائه ، واقفاً على رجل واحدة ، ونفسه باكملها مركزة على العملية ، بينما تحضه الفتاة أن يستعجل كيلا يفقد مكانه في الصف الجديد • وربما كان الانضمام الى الصف فكرتها هي ، ماهو أكثر أهمية هو أنهما عقلياً أدارا ظهريهما لبعضهما • الآن أدار هو ظهره الى الطريق • لم يلاحظ كيف تنظر بدهشة الى الأشجار البعيدة التي دبت فيها الحياة فجأة بوجود الرجال والنساء الراكضين الذين يندفعون عبر الطريق ويختفون ، يصطدمون أحياناً ببعضهم البعض في عجلتهم •

« ثمانية وعشرون •• تسعة وعشرون •• ثلاثون •• » انها تقوم بعدهم • تقف في الميزاب لترى بشكل افضل ، مغمضة نصف اغماضة وهي تحدق عبر النور الضبابي • تراهم ينزلقون بين الأشجار كسكاكين الورق •

« انظر ! »

سرعتهم اختلاسية • تتحرك أرجلهم ولكنها لا تحدث صوتاً • ليس هناك صيحات أو صرخات • في الهواء صوت أزيز حركة السير أو الآلات البعيدة التي تبدو أعلى الآن في الغسق المتجمع • يتحرك الناس بسرعة محدودبي الظهور ، يحملون ثقل المساء ؛ رماديون على نحو موحد ، عديمو الوجوه على نحو موحد • لن يكون هناك اي فرق بالنسبة للطريق لولم يكونوا موجودين ، فسيكون هناك شعور أو احساس بوجودهم ، مثل الدخان الذي يتلوى ولكنه ليس ملموساً وليست له رائحة •

ثم وقع اقدام • يلتفت الصبي ويرى ثلاث نساء ـ مسنات ـ وقد أصبحن في فناء المدرسة ويتجهن نحو الدرج باسرع ما تخولهن أرجلهن الهرمة • وهن يقمن بالاشارة الى سبورة التسجيل •

« لابد لي أن أدخل ، » يقول •

منذ هذه اللحظة هناك حتمية بالنسبة للاحداث تعطيها دائمة نفس التسلسل ونفس الايقاع •

« هل تسمعينني ؟ »

ولكنها تسمع شيئاً آخر • « آلات • » تقول • انها لا تستطيع الآن أن ترى أبعد من بضعة الأشجار الاولى في الشارع المقابل ولكنها تعرف أن هناك اضطراباً •

بعجلة يعقد رباط حذائه • « لم لا يشعلون مصابيح الشارع ؟ »

لقد وصل الآن رجل عجوز يحمل عكازاً الى بوابة المدرسة • يصل اليها قبل الصبي ويضرب بعكازه نحو الدرج • في يده كتيب عنوانه : « تعليم الكبار » •

« ما المسألة ؟ »

تستطيع الفتاة سماع آلات تئز وتهدر مثل ذبابات عملاقة • يمتلىء الهواء بصوت متزايد يتلاطم هابطاً بين الأشجار وحيث كانت البيوت موجودة ويملأ الفراغات التي يتركها الناس الراكضون•لقد مضى الناس ، والصوت ينفصل الى نشازات متميزة ومخيفة • تستطيع سماع طائرات • تستطيع سماع صوت تمزق، وحصى تنسحق تحت وطاة المركبات •

يضيء مصباح داخل المدرسة ، وكل نافذة مربع أصفر مفاجىء • تلتفت الفتاة ويضيء وجهها الخائف • يبدو كانه يلتهب •

« أنا داخل ، » ينادي الصبي •

يتحرك فمها كما لو كانت تقول شيئاً مثل « يجب الا تفعل ، » أو « ينبغي الا تفعل • » لكنه لا يسمع • يهز كتفيه هزة خفيفة مترددة لأنها لا تتبعه ثم يسير نحو الدرج • حين ينظر ثانية يراها تحدق فيه وتهز راسها الاصفر •

«كانت الفكرة فكرتك !» لكنها لاتستطيع ان تسمع • يهز كتفيه ثانية وينضم الى رجلين كهلين يهمان بدخول البناء •

تقف الفتاة الآن وظهرها الى سياج المدرسة وهي تتطلع عبر الشارع المقابل

المظلم . تنتظر ، منتصبة بتصلب ، محدقةفي اتجاه صوت منفرد انفصل عن الأصوات الاخرى . تستطيع سماع صرير وقرقعةدواليب ثقيلة يقيدها سلاسل جرارة . تستطيعسماع دبابة تسير على الطريق نحوها . تبرز دائرتان من النور الساطع بين الأشجار . تتقدمالدبابة بسرعة . تخطو الى الرصيف خلفها ، وهي لا تزال تراقب ، وترىالضوءان يزدادانكبرأ الىأن يصبحا متصلين بالظلام الذي هو المركبة وتستطيع رؤية حجمها ، وكيف أنهـا تمـزق شريطا عبر الأشجار . تـرى الاغصان تتمزق وتسقط . تراهـا تنسحق تحت السلاسـل المعدنية وترتمي على الطريق المحفرة . ترى المدافع،لقد خطت الىالوراء قدر ما استطاعت. وقد أغلق شخص ما بوابة المدرسة . باب المدرسة مغلق .

لفترة لحظة أخرى تتردد ، وهي تنظر باهتياج بالغ من اليسار الى اليمين . الدبابة تقريبا عند التقاطع . تنظر الى الرصيفتحت قدميها . وهي تقف في بركة من الدم الذي أخذ يجف . الضجة رهيبة . تسقط الفتاة على ركبتيها . ترى الربابة تدخل منطقة الضوء الأصفر . بحذر تتمدد على الرصيف . تستلقي على قفاها ، وذراعاها الى جنبيها ، واضعة رأسها بحذر بحيث يكون تماما بجانب بركة الدم . تغلق عينيها . تنتظر .

١٩٧٠

في المكتبات

شعراء من أمريكا الجنوبية

أحمد أديب عزت

تعتبر الحركة الادبية في «امريكا الجنوبية» مجهولة لدى قراء اللغة العربية .. واذا كانت ثمة حكمة فرنسية تقول : « اصدار صحيفة يعادل افتتاح مدرسة » ، فانه يمكن أن نقول : ان ترجمة كتاب ما ، تعريب اثر أدبي عالمي ، نقله من لغة الى لغة ، بامانة ودقة واصالة .. انما يعادل في الكثير من الاحيان اضاءة قنديل ، و .. سفرة ضوء في كهوف العتمة ..

و .. يريد الأديب الاستاذ «سعد صائب» فيكتابه المترجم «شعراء من امريكا الجنوبية» ومنتعريفه بكبار شعراء هذهالقارة واختياره نماذج من نتاجهم عبر كتابه هذا ، ان يتيح للقارىء العربي فرصة الاطلاع على جوانب من أدب أجنبي كانت خافية عليه .. وتفسح هذه الجوانب للأديب العربي مجال الاحتكاك بهذا الأدب ، والوقوف على المناهج التي انتهجها مبدعوه في نتاجهم ليفيد منها ويغني ادبه بها من نحو آخر ، وهو أمر تحتمهعلينا المرحلة التي يمر بها ادبنا اليوم .. مرحلة الاتصال بثقافات الأمم،واقتباس خير ما فيها هاتفين مع « غاندي » :

« لا أريد بيتي أن يكون مسوراً من جميع الجهات ، ولا أريد ان تكون نوافذي مغلقة ، أريد أن تهب على بيتي ثقافات كل الأمم ، بكل ما أمكن من حرية ولكنني انكر على أي منها أن تقتلعني من جذوري » .

ويقول د. احمد سليمان الأحمد .. في مقدمته لهذه المجموعة المختارة :

« هذه القصائد التيغنت باللغة الاسبانية في عالم بعيد جديد ، حملتها الينا ريشة تمرست بنقل الأصداء التي انطلقت في سماوات غريبة ، مثل كواكب غريبة ، ولكنها في مسيل النور والعطر .. التقاء أشعة انسانية لا تشكو بعداً ولا غربة ، بل هي

انما التمعت وائتلقت في سمائها وفي اجوائها الرحيبة ..

وهذه القصائد مزيج رائع نديان من ثقافات اصيلة شفهية ، ومن اخرى نمت وترعرعت في ظلال النهضة التي تفرعت من الجذور العربية لتفيء على مشرق ومغرب .

وهذه القشرة الجديدة التي تزين هذه الحلي الجميلة لو حككناها لسال من جراحها الذهبية ذلك النسغ الأصيل لثقافات عريقة. تماماً كما غشت الصور المقدسة الجديدة معابد الأنكا .. وعرضتها في بهائها المزدوج.

ولاشك ان وتراً جديداً في قيثارة الشعر يغني لنا الآن ، من خلال ترجمة الأديب الاستاذ « سعد صائب » لهذه المجموعة من الشعر ، انها لمسة الندى للوردة الغريبة كي ترف أوراقها ويعبق شذاها في بستان جديد» واذا كان « ارنست فيشر » يقول :

« ان الفن لازم للانسان وضروري له حتى يفهم العالم ويغيره » .. فان قصائد هذه المجموعة تؤكد أن هؤلاء الشعراء الذين نقل قصائدهم الاستاذ «صائب» الى اللغةالعربية. انما كانوا يريدون من القصيدة أن تكون المركب الذي ينقل الناس من ضفاف الياس، الحزن الليل الى ضفاف الخضرة والصبح والعمل ، على نحو ما كان يريد «ناظم حكمت» للشاعر أن يعمل وللقصيدة أن تكون ..

و .. تضم المجموعة قصائد لحوالي ثلاثين شاعراً وشاعرة من « أمريكاالجنوبية » ولحوالي عشرة شعراء ينظمون في اللغة البرتغالية في البرازيل ، وبمعدل قصيدة واحدة لكل شاعر،ولا ريب أن قصيدة واحدة وسواء أكانت مختارة أم غير مختارة لا تكفي للدلالة . ولا يمكن لها أن تكون مؤشراً على شاعرية ومستوى اي شاعر غير أنها تكفيبان تعطي لمحة ما عابرة سريعة ، وأن تومىء ايماءة بحجم البرعم وان تشير ، تضيء بحجم ضوء الشمعة و .. حسب ، ومن هنا يمكن القول أن المهمة التي تصدى لها الاستاذ « سعد صائب » أكبر من حجم هذه المجموعة وقصائدها ، ومهمة في مثل كبرها وجلالها بحاجة الى مجموعة فيها من الجهد والمختارات اكثر باربع مرات مما جاء فيهذه المجموعة.. بحاجة الى عدد من القصائد من كل شاعر ، لدراسة موسعة عن كل شاعر .. ومع ذلك فانه يمكن القول ايضاً ان معرفة ولو بسيطة خير من الجهل ، وان شمعة ما تضاء ، وتنير ومهما كانت صغيرة وضئيلة الشعلة .. أفضل من البقاء في ظلام ما .. وفي هذا أهمية هذه المجموعة .

ومن الأصوات الهامة في هذه المجموعة صوت الشاعر الكوبي « خوان ما رينيلو » الى جانب «غبرييلا ميسترال» . فقد شاء هذا الشاعر الكوبيأن يعانق السياسة والاجتماع والجمال معاً ، فبينما تراه يشارك السياسيين مشاركة فعلية في مصير بلاده فينظم لمواطنيه قصائد وطنية تهز مشاعرهم تراه يعين علماء الاجتماع على تصوير الأمراض الاجتماعيةالتي يرزح تحت وطاتها الناس تصويراً أخاذاً

تحس بجماله ، وتذهل من غرابة الزاوية التي يلتقطهـا له فيضفي عليها سحر الشعر ذي الألفاظ المؤثـرة التي يجيد احتكارهـا وعبر الاحتفاظ عـلى الأصالـة وتوكيد الشخصية الكوبية النامية المناضلة :

« ما أحسست بالمساء قط
ولا أحسّت روحي به
لقد أتيت أنت
فغزا ذهن الشموس
الدهاليز العتيقة
التي أثارها سناك ص «٦٣»

وكذلك صوت الشاعر الشهيد « بابلـو نيرودا» والشاعر الغواتيمالي«رافائيل اريفالو مارتينث Rafael Arévalo Martinez حيث نـراه في أشعاره يعيش الحب في عمـق فيغدو لديه شعلة تتاجج بنور وهاج لا يخبو ابداً بل يظل ساطعاً ينير للسالكين دروبهم :

« رباه :
لعل الشيء الذي يحترق
هو شيء يحب

و .. خورخيـه كـاريـرا انـدراده Jorge Garrera Andrade حيث يتناول في شعره الأعراق الوطنيةالقديمة التي تعج بهـا القـارة فيبرع في تصويرهـا واظهار مزاياها والمرارة التي تحـز في نفسه فتثيره باحثاً منقباً عـن منفـذ للخلاص ممـا يعانيه من سخط دائم لخسران الملايين منبني البشر ممـن يضيعون في متاهـات الحيـاة أو يقاسون لأواها بسبب جنسهم أو لونهم أو معتقدهم « فالنافذة انما » توزع بين الناس جميعا مربعاً من ضياء ودلوا من ريـح » ، واوكتافيو باث الذيأخلص لتجربته الانسانية بعمق وعاني ألماً ممضا لمأساة الانسان فيتلك القارة الشاسعة :

لقد لقيت حتفك يارفيقي
في فجر هذا العالم المحتدم
لقد مت ولم يكد يولد نهار
لقد مت بين رفاقك
ومن أجلهم ص «١٢٦» .

والشاعرة « فينتورا غارثيا كالديرون »:

« ايه عمر الخيام
انكل وجود يحكي آزاهيرروضتك الضارية
بيد أنه سيغدو الطفوخزأللضمير
أن يموت كهذه الأزاهير
مفعماً بالحياة . ص «١٢٨»

وفي القسم الثاني مـن الكتاب يتحـدث المؤلف عـن بدايات الأدب البرازيلي ويترجم عدداً من القصائد لشعراء برازيليين ينظمون باللغة البرتغالية واهمهم «مانويل بانديرا» وموريللـو منديث وريبيروكوتـو الذي انشد للانسان المناضلوالباحث عن العدالة واللقمة والفـرح :

« مباركة بلادك
أيها الغريب ، يامـن أتيت كـي
تعش في بلادي
عـلى الخير الذي بحثت عنه عبثاً
في بلادك
لك شكري،أيها الغريب«ص١٥٠»

واغستو مير الذي « صبا قلبه الى حقول بلاده وقضاياها فنبض بشعر جديد هو ضرب من الغنائية الفلسفية ومكنه من فرضغنائيته على الشعر البرازيلي المعاصر :

« أيتها الأرض ،
يا أرض قبلات غبـار الطلـع ،
وأنفاس المد والجزر
ان كـل حركـة تبدر مني تحدث
المعجـزة
اني أسمع في أوداجي ضربات قوة
غامضة وأنا محمول بعبادة لا متناهية
ص ١٦٨

والشاعرة سيسليا ميريلليس التي لو٠٠ لم يكن لها غير ترجمتها « الف ليلة وليلة » الى البرتغالية لكفاها فخراً بيد انها لم تكتف بهذا القدر من الفخر بل اضافت اليه فخراً آخر وآتاهـا من اسلوبهـا الذي انتهجت فيه تعبيراً تشوبه مسحة شرقية :

« ان الليل يضمني لعبة المنوعـات
الفقيرة
فضع خط الأفق بين هدبي
وعكر بالصمت آخر قذى الأمل ٠
ص ١٧٨

و ٠٠ تبقى هذه المجموعة اضافة جديدة الى المكتبة العربية وتظـل « كما لمسة الندى للوردة الغريبة كـي ترف اوراقهـا ويعبق شذاها في بستان جديد ٠

حول الادب المسرحي السياسي

■ بقلم : فالنتينا ريا بولوفا
■ ترجمة : يـاسر الفهـد

من أبرز المشكلات التي واجهها الأدباء الانجليز في القرون الماضية أن الحياة الاجتماعية والسياسية الهادئة نسبياً في بريطانيا آنذاك لـم تكـن صالحـة لمـد مسرحياتهم السياسية بالمادة الفنية الحية مما اضطرهم الى استلهام تجارب الشعوب الأخرى فجاءت كتاباتهم في هـذا المجـال مفتقرة الى الوضوح والتصوير الواقعي • أما المسرحية السياسية الانجليزية المعاصرة التي تتسم بعمق التحليل الاجتماعي والسياسي فانها تحاول تلافي هـذه الثغرة وتركـز عـلى تصوير الحياة السياسية والأوضاع الاجتماعية السائدة في بريطانيا نفسها •

المترجـم

يمثل العمل السياسي مشكلة ملحـة في الادب الغربي المعاصر عامة ، فمن الطبيعي أن تبرز هـذه المشكلة في الفـن الدرامي الانجليزي • واذا عدنا الى عام ١٩٥٦ نجـد جيمي بورتر بطل رواية (انظر الى الخلف بغضب) مـن تاليف جـون اوسبورن يثور ويغضب لانه لا يعيش في حالة نضال وكفاح، كمـا نـرى كثيراً مـن شخصيات مسرحيـات أرنولد وسكر تتوق الى عمل جذري فوري باسم الافكـار الاشتراكية • ومـع ذلك فقد بـين (وسكر) و (أوسبورن) وغيرهما من الكتاب المسرحيين الانجليز في الخمسينات ، المرة تلو المـرة ، ان شخصيات رواياتهم لم ينجحوا في تحقيق مثلهم العليا • مثل هذه النتيجة كان لابد أن يستخلصها كـل كاتب مخلص تصدى بصدق لدراسة وتحليل الاوضاع الاجتماعية التي كانت بعيدة عـن الثورية • لقد كـان أبطـال الروايات الثائـرون الذين صورهـم الكتاب البريطانيون الدراميون في الخمسينات يواجهون اختيارين : امـا ان يقفوا مكتوفي الأيدي لادراكهم انهم عاجزون عـن القضاء عـلى المساوىء الاجتماعية بجهودهم الشخصية او ان يعملوا مـع علمهم بان جهودهـم من النوع الطوباوي غـير العملي الـذي مصيره الفشل (وقد صور اوسبورن الاختيار الاول تصويـراً جيداً كما صور وسكـر الاختيـار الثانـي) • وفي كلتا الحالتين كـان مصير البطل ماساوياً • فتطرفه الاجتماعي والخلقي وضميره الوطني يجعلانه غير قادر على تجاهل ونسيان المشكلات القائمة دون حل في مجتمعه• وقد وصلت الافكار التراجيدية في مسرحيات الرجـال الشبان الثائـرين الى ذروتهـا في منتصف الستينات ففي مسرحية الشهادة غير المقبولة (١٩٦٤) لاوسبورن كان بطلها (بيل ميتلانـد) يشعر بالمساوىء الاجتماعية التي تثقل كاهل مجتمعه بقدر شعوره بعجزه عـن

التاثير فيها باي حال من الاحوال • وعند شخصيات مسرحيات ديفيد ميرسر الذي سار على نهج اوسبورن ، نجد ردود فعل أكثر حدة وألماً من رد فعل بيل تجاه عدم قدرته على تغيير الأحداث • وفي منتصف الستينات صور ميرسر مجموعة كبيرة من الشخصيات التي أخفقت في تحمل نتائج الصدام بين المثل العليا والواقع العملي مما أدى بها الى الاقتراب من حافة المرض العقلي وفي بعض الأحيان الى الانهيار النهائي •

واذا كانت شخصيات (اوسبورن) و (ميرسر) تبدو عاجزة عن التاثير والفعل فان شخصيات (وسكر) تعمل وتتحرك ولكن محاولاتها جميعا تبوء بالفشل وتذهب ادراج الرياح • ان الجو الاجتماعي في بريطانيا والذي يعد مثبطاً بالنسبة الى ابطال اوسبورن وميرسر ووسكر لم يتغير بصورة أساسية في منتصف الستينات • ولكن من الخطأ أن نستنتج أن هذا الجو لم يقدم أي مادة صالحة للمسرحيات ذات الصراع الدراماتيكي المر • وتشير الحقائق الى أن التناقضات الاجتماعية في بريطانيا في ذلك الوقت كانت تزداد حدة ولكنها لم تصل الى مستوى الحدة الذي ساد في البلدان الغربية الأخرى كالولايات المتحدة وفرنسا والمانيا الغربية والتي اتخذت فيها هذه التناقضات أبعاداً جديدة في نهاية الستينات • فقد غدا الصراع عنيفا جداً وصار جيل الشباب يشترك بفعالية في شؤون الحياة وتسيير دفة الأحداث • وكان الامر يصل أحياناً الى درجة حمل السلاح والتمرد من جانب الشبان • أما في بريطانيا فلم يسد مثل هذا العنف وان ظهرت فيها دعوات واضحة الى تقويض الاوضاع الاجتماعية الفاسدة واجراء تغييرات جذرية في الحياة الانجليزية ، ولكن هذه الدعوات كانت تطلق في جو من السكينة •

ان البون الشاسع بين الهدوء المخيم على بريطانيا وبين الجو العاصف في أوروبا وأميركا كان احد الموضوعات الرئيسية في مسرحية ميرسر (بعد هاجرتي) • وفيها يكون بطل المسرحية الانجليزي برنارد لنك مدركاً للصراع الدائر رحاه في العالم ولكنه عاجز عن الاشتراك في النضال مما يضطره الى اتخاذ موقف المراقب السلبي المتعاطف مع حركات الكفاح • وقد وجد كثير من الكتاب الدراميين الانجليز الذين تصدوا لمعالجة المشكلات السياسية والاجتماعية في بريطانيا، انفسهم في المعضلة ذاتها التي وقع فيها برناردلنك ، مما اضطرهم الى عدم الاعتماد على رفاق مجتمعهم في تصويرهم شخصيات رواياتهم • وفي كثير من الأحيان ابتعدوا عن وطنهم الى بلاد اخرى • ان الافتقار الى الخبرة الاجتماعية المباشرة الشبيهة بتلك التي حاولوا تصويرها ، يظهر واضحا في أعمالهم • فالوصف الغريب المجرد والافكار الغامضة تحل عندهم مكان تحليل الافكار والشخصيات والمواقف والمثال النموذجي في هذا المجال مسرحية جيفارا لجون سبرلنج • فقد قدم المؤلف قصة هذا الثائر المشهور تقديما غامضا لانه كان يعتمد على الدلائل التي يتقصاها من الاشاعات والاقاويل حتى بدا جيفارا شخصية غريبة ورمزاً رومانتيكياً خيالياً للنضال•وفي مرحلة لاحقة بدأ الأدباء المسرحيون الانجليز يتجهون الى المادة المتوافرة

في الحياة المحيطة بهم • وهناك صفة هامة تميز المسرحية الانجليزية المعاصرة عن المسرحيات في الدول الاخرى : وهي ان جيل الشباب فيها لا يلعب الا دوراً ثانوياً • وبعد ان كان هذا الجيل المثل الاول في أعمال المسرحيين الانجليز في النصف الثاني من الستينات اصبح الآن ينظر اليه بشك وعدم ثقة وبات موضع هجوم حتى من قبل الشبان الثائرين في الماضي والذين كبروا بعد ذلك • في مسرحية (الشهادة غير المقبولة) لاوسبورن يتهم البطل البالغ من العمر (٤٠) سنة ابنته الصغيرة وجيلها بالسطحية والذاتية والغريزة الحيوانية • وكذلك نجد في مسرحية (الاصدقاء) لوسكر أن الشبان لا يسمح لهم بالظهور اطلاقاً على المسرح بل انهم يحاكمون غيابيا ويدانون من جانب الشخصيات التي تتراوح أعمارها بين ٣٥ ـ ٥٥ سنة • اما الكتاب الانجليز الأوسع افقاً فانهم يقفون من الشباب موقفاً محايداً : لا يدينونهم ولا يعطونهم أكثر مما يستحقون، فمشكلة الشبان في نظرهم مرتبطة بالاوضاع الاجتماعية العامة وليس لها وضع خاص منفصل • في مسرحية (قرب باب منجم الشحم «١٩٦٨» يربط المؤلف (الان بليتر) بين مستقبل بطلها الشاب وبين التاريخ الكامل لعمال المناجم الانجليز ونضالهم من أجل حقوقهم • لم يكن بليتر يهتم بما يحدث في البلدان الأخرى وانما عني بالشؤون الانجليزية وبما هو واقعي وحقيقي وملموس : النضال من اجل لقمة العيش ، من أجل سقف يظلل الراس ، من اجل حق العمل ، من أجل حياة افضل •• الخ ويخرج النظارة بعد مشاهدة مسرحيته بقناعة واحدة: ان مهمة جيل الشباب أن يصون التقاليد النضالية للماضي وان يستمر في الكفاح تحت ظروف جديدة وبطرق جديدة • اما مسرحية الطريق الضيق الى اقصى الشمال (١٩٦٨) لمؤلفها ادوارد بوند ، فهي في المادة والأسلوب على نقيض مسرحية بليتر لأنها تمثل قصة درامية تدور في عالم خيالي فالكاتب يتحدث عن الجرائم السياسية والحروب الأهلية والاستعمارية والظلم والعنف السائد في التاريخ الحديث بشكل عام دون تحديد أن مسرحيتي بليتر وبوند اللتين اتينا على ذكرهما هما من بين احسن الامثلة على الأدب المسرحي السياسي الانجليزي المعاصر • فهي نموذجية بكل معنى الكلمة لأنها تعتمد على المادة التاريخية وتتصف بعمق التحليل الاجتماعي وثقابة الفكر والمهارة في عرض المشكلات السياسية •

ولسوء الحظ ان هذه الخصائص مفقودة في معظم المسرحيات الانجليزية الحديثة التي تهتم اهتماما مباشراً بالمشكلات السياسية للعصر الحاضر • وعلى كل فان الحياة والتاريخ يغيران الامور ولا يبقيان شيئاً على حاله فالجو الروحي والاجتماعي الذي كان سائداً في بريطانيا بالأمس أصبح غيره اليوم • فقد شهدت بداية السبعينات في بريطانيا تصعيداً مفاجئاً للصراع بين العمل ورأسالمال وتفجرا لا مثيل له في الخصومات العنصرية • ومن هذا الواقع اكتسبت المسرحية الانجليزية مادة وروحا جديدتين • وبالتدريج أصبحت هذه المسرحية تركز على المشكلات السياسية أكثر فاكثر • وهي اليوم تدخل مرحلة جديدة من التطور •

« الآداب الأجنبية »

من خلال المجلات والصحف والقراء

« لقد كان لصدور عدد مجلتكم ـ الآداب الأجنبية ـ الأول وقع طيب ليس في نفسي فقط. بل في نفوس معظم الأدباء العرب الذين يتحرقون شوقاً لمعرفة روائع الآداب • ولقد لست هذه الحقيقة في أكثر من جريدة ومجلة تولت نقد العدد بمقالات مسهبة ، ضمن صفحاتها الأدبية •

والحقيقة فانني لا أدري كيف أعبر عن اعجابي وتقديري واستبشاري بصدور مثل هذه المجلة التي أخذت علىعاتقها متابعة هذه المهمة الصعبة •

واتمنى ان تقدم لنا مجلتنا الغراء ـ الآداب الأجنبية ـ في أعدادها القادمة ، عرضاً شاملا وموسعاً لأهم المصطلحات الأدبية العالمية المتعارف عليها •

ابراهيم صبيح الجبوري

ـ العراق ـ

« لقد كان ظهور العدد الأول من مجلتكم ظاهرة تشكل بعداً حقيقياً لتفاعل الثقافة العربية مع التيارات الفكرية الأخرى ، وتصويراً لانسانية الفكر وعموميته •

ومجلة كهذه كانت لها ضرورة حتمية ان تكون بين ظهراني الوسط الثقافي العربي ، وفي متناول يد القارىء الذي جعلت منه أيام انفتاح العالم العربي على الثقافات الاخرى وتياراتها ومدارسها ومذاهبهاالفكريةالمتعددة، جعلت منه عقلية أكثر ادراكاً وأكثر تطوراً وأكثر تقدماً • وفي أعماق نفسي أحس أن وجود هذه المجلة هو تعبير عن تقدم الفكر العربي •• وهي تجربة فريدة من نوعها في ساحة الوطن العربي •• بل هي الاولى في فكرتها ومضمونها وأهدافها •

سمير عبد الكريم الصالح

عمان ـ الأردن

وتحت عنوان « الآداب الأجنبية » من جونسون السويدي الى « رسول حمزاتوف » كتب الزميل العربي اللبناني «يوسف شامل» في صحيفة «المحرر» تاريخ ٤ـ٨ـ١٩٧٥ يقول:

العدد الجديد من مجلة «الآدابالأجنبية»، التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، هو العدد الأول منالسنة الثانية ، يأتي وهو يحمل بين طياته رغبة المضي الى الأمام قدماً من أجل خدمة الحياة الثقافية العربية وتعريفها على جميع الألوان الثقافية العالمية،

ان كانت قصة او بحثا او قصيدة • ويقول رئيس تحرير مجلة «الآداب الأجنبية» الدكتور احمد سليمان الاحمد في مقدمة العدد الجديد « ثقتنا كبيرة بالمثقف العربي ، بالقارىء العربي ، كي تتابع هذه المجلة سيرتها، متفوقة على نفسها ، ومؤدية رسالتها كما نخطط لها، من أجل تفاعل ثقافي ، لابد منه ربح عظيم » والتفاعل الثقافي الذي يشير اليه الدكتور الاحمد في كلمته هو النتيجة والحصاد الذي سعت وتسعى اليه « الآداب الاجنبية » في جميع أعدادها السابقة واللاحقة •

ونأتي الى تصفح مواد العدد الجديد ، فأول ما يطالعنا مقال بعنوان « كاتبات أميركيات » الذي يعرفنا على بعض كاتبات القصة الاميركيات ، وفي هذا العدد يقول الدكتور منير الاصبحي في مقدمته للمقال : « لا يمكن لهذه المجموعة القصصية أن تطمح لأن تكون كافية لتمثيل الأدب النسائي القصصي الاميركي ، ان كل ما نسعى اليه في هذه المجموعة هو انجاز بداية نامل أن نتبعها بترجمة أعمال أخرى تضاف الى هذه المجموعة في المستقبل • ولقد قصدنا ان تعكس هذه القصص الى حد ما تطور الفن القصصي ـ الروائي النسوي في أميركا ـ وقد يلاحظ القارىء أن هذه المجموعة لا تحتوي على أية قصص من القرن التاسع عشر ، والسبب في هذا هو أنه بالرغم من ظهور بعض الكاتبات في الولايات المتحدة في ذلك القرن ، مثل سارا اورن جويت (١٨٤٩ ـ ١٩٠٩) التي برزت في ميدان القصة القصيرة . فقد كان على المرأة الاميركية أن تنتظر حتى قرننا الحاضر قبل أن تثبت وجودا محسوسا في الحقل الروائي ـ القصصي » •

وفي المقال تطالع قصة «حمى روماوية» للكاتبة ايديث وارتن (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) وقصة « جنازة النحات » للكاتبة ولاكيثر (١٨٧٣ ـ ١٩٤٧) ، وقصة «جوردانز انده» للكاتبة ايلين غلاسفو (١٨٧٤ ـ ١٩٤٥) ، وقصة « التخلي عن الجدة ودرول » للكاتبة كاثرين آن بورتر (١٩٠٠ ـ) ثم قصة «الزنجي الاصطناعي» للكاتبة فلانري اوكونر (١٩٢٥ ـ ١٩٦٤) ، وهذه القصص تولى ترجمتها كل من رباب هاشم والدكتور منير الاصبحي • ومن مقالة « كاتبات أميركيات » ننتقل الى قصة من نيوزيلندة بعنوان « امرأة في مشهد البحر » تاليف كاترين اوبراين وترجمة عزة حسين كبة •• ثم تقرأ « حكاية شاعرية » ترجمها الدكتور أحمد سليمان الاحمد ، وتتحدث هذه الحكاية عن الشاعر الروسي الكبير ستيبان تشيباتشوف ، الذي شب أدبه مع الثورة الاشتراكية ، واجتاز تجارب حياتية وفنية غنية جعلت منه واحداً من هؤلاء الذين يبقى ذكرهم ، ويتناشد الناس أشعارهم، وتحبهم الاجيال الطالعة وان بدا أنهم ابتعدوا عنها ، أو أن هناك حاجزاً من زمن أو عقلية أو مفهوم يحول بينها وبينهم • وبعد « حكاية شاعرية » تطالع قصة للاديب الياباني الحائز على جائزة نوبل للآداب يازيناري كاواباتا بعنوان « ازهار الربيع ـ العاصمة القديمة » والقصة من ترجمة ليان ديراني •

ومن عالم القصة ننتقل الى عالم البحث فنقرأ بحثاً بعنوان « مدخل الى الأدب السويدي

المعاصر » وفيه ترجم سعد صائب بعض أعمال الكاتبين السويديين ايفند جونسون وهاري مارتنسون ، وقد نالا جائزة نوبل للآداب لهذا العام، واشهر مؤلفات جونسون رباعية سيرته الذاتية المنشورة بين العامين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ تحت عنوان « رواية عن اولاف » • ولعل أهم أو أشهر أعمال الكاتب الثاني هاري مارتنسون قصيدته القصصية الطويلة « اينارا » وقد أخرجت للمسرح واصبحت أول اوبرا عن عصر الفضاء • وقد رشحت الاكاديمية السويدية ايفند جونسون البالغ من العمر ٧٤ عاما « للغته وفنه القصصي ، ونفاذ بصيرته في شتى البلاد والعصور ، ولحرصه على خدمة الحرية » أما هاري مارتنسون وهو شاعر في السبعين من عمره فقد أشادت به الاكاديمية « لكتاباته الرقيقة كقطرات الندى ، ولانها تعكس جمال الكون » •

مع رسول حمزاتوف

وبعد بحث « مدخل الى الأدب السويدي المعاصر » نطالع للشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف صفحاته الشعرية والادبية وهي بعنوان « داغستان بلدي » وقام بترجمة هذه الصفحات عبد المعين الملوحي ، وأول ما نقرأ لرسول حمزاتوف « كتابة على باب المنزل » وفيها يقول :

أيها المسافر •• اذا لم تعرج على منزلي
فليسقط البرد والرعد على راسك •••
البرد والرعد ••
أيها الضيف اذا لم يرحب بك منزلي
فليسقط البرد والرعد على راسي ،
البرد والرعد• ••

وعدا الشعر نطالع لرسول حمزاتوف بعض المقالات الادبية الصغيرة •• وفيها يقول عن الشعر « أيها الشعر ألا تعرف انني لا أستطيع لك هجرا ؟• أأستطيع ان أهجر كل الافراح التي تولد في نفسي ؟• كل الدموع التي تغرورق في عيني ؟ »» ويخاطب حمزاتوف مرة أخرى الشعر فينشد له :

لولاك كان العالم مغارة من الظلمات ••
لا تعرف قطرة شمس ••
أو سماء دون نجم يلمع ••
أو حبا لا يعرف حرارة قبلة ••

ومن دفتر الذكريات ينقل حمزاتوف الينا أشياء واحاسيس حياتية خاضها بنفسه ، وفي صفحة عنوانها «سمعت ذلك في ندوة القرية» يقول حمزاتوف :

« يتساءل الجبليون: ـ لماذا كانت الافاعي ملتوية ـ ويجيبون انفسهم : ـ لأن الجحور والثقوب التي تضطر الأفاعي الى المرور فيها ملتوية ـ • أنا انسان لا افعوان ، أحب الأعالي ، الصفاء ، الطرق المستقيمة » •

ولقد ترجمت مجلة « الآداب الأجنبية » لرسول حمزاتوف « الشجاعة لا تحتاج الى صخرة عالية » ينتهي العدد الجديد من مجلة « الآداب الأجنبية » •

* * *

« الآداب الأجنبية » تحقق نجاحا مضطردا متزايدا من عدد الى آخر • وأعتقد أن هذه المجلة ستلعب دورا كبيرا جدا في الثقافة العربية الحديثة •

جورج سالم

أرجو أن تستمر الصلة بيني وبين هذه المجلة الرائدة •

محمد الظاهر

محتوى العدد

الموزعون

سورية : مكتبة حسين نوري ـ دمشق

الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

تونس : الشركة التونسية للتوزيع

بقية الأقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع ـ بيروت

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :

- للأفراد ١٥ ل.س
- للدوائر الرسمية ٣٦ ل.س

في البلاد العربية :

- البريد العادي ٢٤ ل.س
- البريد المسجل ٤٨ ل.س

تضاف تكاليف الطائرة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً أو يدفع نقداً الى محاسب اتحاد الكتّاب العرب

سعر العدد

سورية	٣٠٠	ق.س	السعودية	٦	ريالات
لبنان	٣٠٠	ق.ل	ليبيا	٣٧٥	درهم
الكويت	٣٧٥	فلس	تونس	٦٠٠	مليم
أبو ظبي	٩	دراهم	المغرب	٦	دراهم
دبي	٩	دراهم	الجزائر	٦	دنانير
الخليج العربي	٩	دراهم	السودان	٧٥٠	مليم
الاردن	٣٧٥	فلس	العراق	٤٠٠	فلس
قطر	٦	ريالات	مصر	٤٥٠	مليم
البحرين	٦٠٠	فلس			

مطابع الف باء ـ الأديب ـ دمشق